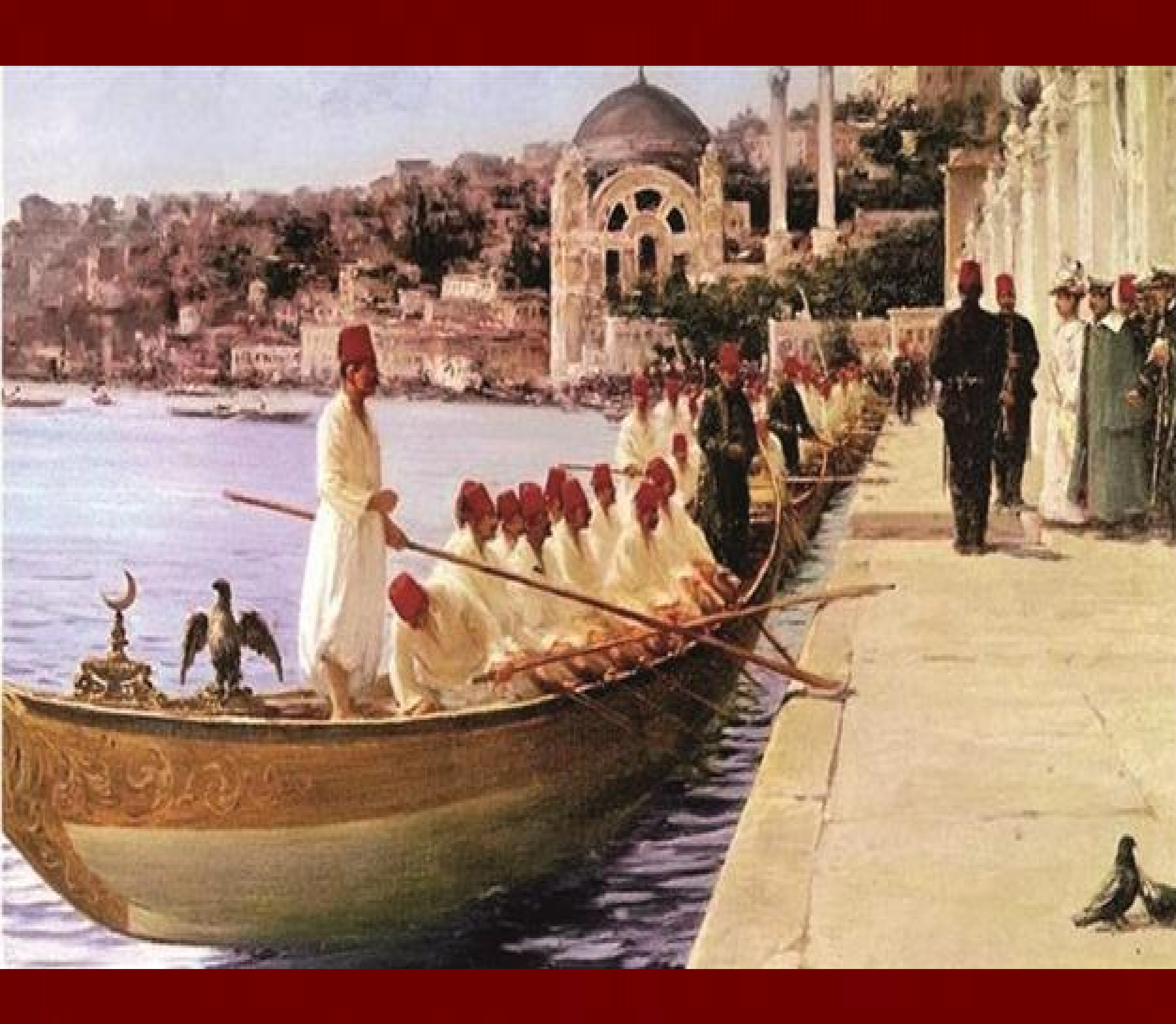
القسطنطينية

المدينة التي اشتهاها العالم 1453 - 1924



تأليف: فيليب مانسيل

ترجمة: مصطفى محمد قاسم

ج1



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

القسطنطينية

المدينة التي اشتهاها العالم 1453 - 1924

(الجزء الأول)

تأليف: فيليب مانسيل

ترجمة: د. مصطفى محمد قاسم



يوليو 2015
426

عالم المعرفة

سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون: 22431704 (965)
فاكس: 22431229 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 458 - 0

رقم الإيداع (2015/417)

العنوان الأصلي للكتاب

Constantinople:

City of the World's Desire, 1453-1924

By

Philip Mansel

John Murray (an Hachette UK Company), London 2006

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

رمضان 1436 هـ - يوليو 2015

المحتوى

تقديم المترجم

«على مدار معظم تاريخها، كانت القسطنطينية - من دون منازع - المدينة الأكبر والأكثر ثراء في أوروبا كلها»

المترجم

لم يكن آل عثمان أول سلالة تركية حاكمة، ولم تكن القسطنطينية أول عاصمة لدولة تركية ولا لآل عثمان أنفسهم، لكن الاقتران بين آل عثمان والقسطنطينية أنتج أقوى وأكبر إمبراطورية تركية إسلامية، وربما في تاريخ العالم، غطت مناطق شاسعة من جنوب أوروبا وشرقها ووسطها وغرب آسيا ووسطها وشمال أفريقيا، وامتد نفوذها إلى شرق آسيا وجنوب شرق آسيا، وكانت على امتداد تاريخها واحدة من القوى العظمى العالمية وجزءا من نظام الدول الأوروبية، وكانت عاصمتها واحدة من أكبر العواصم الإمبراطورية في العالم وأعظمها ثراء، وفي بعض الفترات أكبرها وأعظمها ثراء على الإطلاق.

فقبل القسطنطينية كانت للأتراك دول كثيرة، بعضها إمبراطوريات كبرى، غطى بعضها - متتالية ومتزامنة - الصين وشرق آسيا حتى شرق أوروبا وجنوبها، مرورا بموطنهم

التاريخي آسيا الوسطى. فمن آسيا الوسطى، التي وصفها السير هالفورد ماكيندر Halford Mackinder في عنوان مقالته الشهيرة بأنها «المحور الجغرافي للتاريخ» أو «القلب» الأوراسي للعالم، خرجت قبائل السهل البدوية التركية في غزوات متتالية على الهلال الخارجي «للحواف» المحيطية في الشرق والغرب والجنوب. فكانت منهم الدولة الغزنوية (961-1186) ومقرها غزنة وكابول في أفغانستان، والدولة الخاقانية التي أزاحت السامانيين في بخارى وسمرقند وبلاد ما وراء النهر في العام 999. وكان من أقوى دولهم وأوسعها امتدادا إمبراطورية واي Wei في شمال الصين وعاصمتيها شانغان ثم لويانغ، وكان الأتراك السلاجقة الحكام الفعليين للخلافة العباسية إبان القرن الحادي عشر، فضلا على غلبة العنصر التركي على المماليك الذين حكموا حواضر المنطقة العربية في مصر والشام بداية من أحمد بن طولون ومرورا بالإخشيديين ودولة المماليك البحرية (1249 - 1381) والبرجية (1381 - 1517).

وفي الأناضول نفسه، كان العثمانيون مجرد قادمين جدد بعد سلطنة الروم أو سلاجقة الروم، وهي دولة تركية - فارسية سنية حكمت الأناضول بين العامين 1077 و1307، وبعد الدولة الدانشيمندية التركية التي حكمت المناطق الشرقية والشمالية من الأناضول إبان القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وقبل القسطنطينية، كانت للعثمانيين أنفسهم إمارة مستقلة في شمال غرب الأناضول على حافة الإمبراطورية البيزنطية عاصمتها بورصة في آسيا ثم إدرنة في أوروبا.

لكن مع فتح القسطنطينية، اجتمعت عائلة حاكمة مميّزة في رؤيتها للحكم والدولة وعاصمة كانت الأعظم في زمنها، لينتجا الإمبراطورية العثمانية الكبرى، ولتبدأ قصة العشق بين سلالة حاكمة أحبت عاصمة وتعلقت بها، وعاصمة صنعت سلالة حاكمة وإمبراطورية.

أُسست القسطنطينية على يدي الإمبراطور الروماني قسطنطين - ومنه استمدت اسمها - في موقع مدينة بيزنطة السابقة التي كان اليونانيون قد استوطنوها في بدايات فترة توسعهم الاستعماري بين العامين 671 و662 قبل الميلاد. ومنذ ذلك الحين، أصبحت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية، ثم عاصمة بيزنطة أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ثم عاصمة الإمبراطورية

اللاتينيــة، وهي الدولة الصليبيــة الإقطاعية التي أقامها قــادة الحملة الصليبية الرابعة عــلى الأراضي التي انتزعوها من الإمبراطورية البيزنطية بقيادة البندقية، ثم عاصمة الإمبراطورية العثمانية.

وعــلى مدار معظم تاريخها، كانت القســطنطينية - مــن دون منازع - المدينة الأكبر والأكثر ثراء في أوروبا كلها، أو كما كتب أحد البيزنطيين «المدينة التي يشتهيها العالم». وربما لذلك، سعت القوى الأوروبية جميعها إلى السيطرة على القسطنطينية ومنطقتها الخلفية، لأســباب عســكرية وسياســية بالطبع، لكن قبل ذلك لأســباب اقتصادية ودينية وثقافية وروحية، باعتبارها قلب العالم المسيحي وقِبلته.

وفي العــام 1453، دخل محمد الفاتح القســطنطينية مظفرا على حصان أبيض، وبــدأ بذلك العشــق العثماني للمدينة الذي دام حتى العــام 1924، حين غادر آخر الســلاطين العثمانيين – عبدالمجيد - تركيا منفيا في قطار الشرق السريع. وعلى مدار خمسة قرون إلا قليلا كانت القسطنطينية بتنوعها العرقي والديني والثقافي الشديد مركزا لســلالة حاكمة اســتثنائية بكل المعــاني، إذ من اللافت للنظر أن الســلاطين العثمانيين الذين غزوا المدينة جهادا في ســبيل الله وأعلنوا أنفسهم خلفاء و«غزاة» باســم الإســلام، ومع أنهم حوّلوا المدينة من عاصمة المسيحية الأرثوذكسية الشرقية إلى مقر الخلافة ودار السلاطين والخصيان والإنكشارية، فإنهم لم يقضوا على الكنيسة الرومانيــة، بل تعهدوها ودعموها، واعتبروا أنفســهم في الوقت عينه - على نحو ما فعل محمد الفاتح نفسه - ورثة الإسكندر الأكبر والأباطرة الرومان العظماء.

كانــت القســطنطينية العثمانية مدينــة متفردة في كل شيء، نشــأ تفردها من تفــرد العائلة الحاكمة. فالمدينة التي تعايشــت فيها الأديان ومارســت شــعائرها، وقوميــات لا تحصى وحافظت على خصوصياتهــا، وكانت في الوقت عينه دار خلافة المســلمين وكرسي البطريركية المسكونية والحبرية العظمى اليهودية، كانت انعكاسا لأسرة حاكمــة تجمع التناقضــات عينها. فآل عثمان الذين قتلوا من أنفســهم ما لم يقتلــه منهم الأعــداء، عبر عادة قتل الإخــوة، إلى الدرجة التــي جعلتها على طول معظم تاريخها «أسرة بلا أمراء»، أظهرت تسامحا مع أصحاب الأديان الأخرى وأبناء القوميــات المختلفة، عزّ وجــوده في ذلك الزمان، كان في الوقــت عينه أحد عوامل استمرار العائلة والمدينة وعوامل انهيارها.

ففي مقابل التنصير القسري لبقايا الأندلسيين بعد سقوط غرناطة - وقبله في الممالك التي سبقتها إلى التداعي - واضطهادهم ومحاربة تميّزهم الثقافي حتى بعد أن تنصروا وطردهم أخيرا من شبه جزيرة أيبيريا في العقد الأول من القرن السابع عشر، آثر آل عثمان التعددية والتنوع، فأعادوا البطريركية الأرثوذكسية المسكونية بعد أن أغلقها أصحابها عقب الفتح، بل فتحوا عاصمتهم وولاياتهم لليهود الذين طردهم ملوك إسبانيا في العقد الأخير من القرن الخامس عشر، وفتحوها مجددا للمسلمين الأندلسيين الذين لحقوا باليهود بعد قرن منفيين من إسبانيا بمئات الآلاف، وكانت طوال تاريخها العثماني «مأوى العالم» أو ملاذ الكون، كما أرادت لها العائلة العثمانية.

على جانب الانهيار، لم يكن أصحاب الأديان والقوميات الأخرى في مستوى رقي الأسرة الحاكمة التي سمحت لهم بالعيش وممارسة الشعائر، فكانوا أعداء داخليين لا يمنعهم عن هدم الدولة والمدينة إلا قوة الدولة ومنعتها. لكن لم تكد الدولة تضعف، حتى صاروا أحد أهم معاول هدمها، وكانوا بالفعل طابورا خامسا للقوى الأجنبية المعادية التي صارت بفعل تسامح العائلة الحاكمة أيضا قوى داخلية ممثلة في السفارات الأجنبية التي بدأ وجودها كرهائن لدى السلطان وانتهى إلى قوى تفرض الوصاية على السلطان والدولة باستخدام «الامتيازات» وجيوش دولهم المتربصة، إذ كانت القسطنطينية أيضا من أوائل المراكز الديبلوماسية التي استقبلت سفارات أجنبية «دائمة» أو «مقيمة».

لذلك كان أول أهداف القومية التركية هو القضاء على هذه التعددية و«تتريك» هذه الكوزموبوليتانية(*)، بل نقل العاصمة من المدينة يأسا من تراثها «العثماني» العنيد. فلم يكن من الوارد أن يواصل الأتراك - مثلا - التعايش مع يونانيي المدينة الذين كانوا يخرجون للاحتفال بانتصارات الجيش اليوناني على الجيش التركي واحتلاله للمدن التركية. لذلك كان إلغاء الامتيازات التي جعلت السفارات الأجنبية دولا داخل العاصمة أيضا هدفا آخر للنزعة القومية التركية. والأهم من ذلك أنه جعل الخلافة نفسها - راعية هذا التعدد والتنوع - هدفا للهدم من جانب النزعة القومية التركية.

(*) الكوزموبوليتانية cosmopolitanism تعني التعددية في كل شيء التي تكاد تضع العالم كله في مكان واحد. [المترجم].

أمـا على جانب دعم بقاء الإمبراطورية وعاصمتها، فقد كان تسـامح آل عثمان مع الآخر وكوزموبوليتانية المدينة ووجود السفارات أحد الأسباب التي جعلت دول أوروبـا تحافظ على «رجل أوروبا المريض» وتدخـل حروبا لمنع انهيار الإمبراطورية أو سـقوط المدينة، كـما حدث في العام 1829، حين اسـتدعى السـفيران الفرنسي والبريطـاني أسرابا من أسـطوليهما للحيلولة دون احتـلال روسي للمدينة، إذ كانت السـفارات الأجنبية في بعض الأحيان تحرس المدينة بدرجة أقوى من أسوارها، وكما حـدث في مؤتمر برلين الـذي أعاد إلى الإمبراطورية العثمانيـة معظم البلقان بدعم من النمسـا وبريطانيا، على الرغم من أن الإمبراطورية كانت في أضعف لحظاتها في الداخل والخارج.

مثـل آل عثـمان، كانت القسـطنطينية ملتقى لكل الأضداد: الأديـان المتقاتلة والقوميات المتعادية خارج أسوارها، والمتع الحسية على اختلافها وإلى أقصى درجاتها، وعاصمة العدو التي يجب أن تستعاد والذي يجب أن يباد والملجأ والملاذ أو «مأوى الكون» كما أسماها حكامها، ومدينة التدين الشعبي «الطرقي» والجهادية الإسلامية وقبول الآخر لدرجة تقبل تعيين الكثيرين منهم في أرقى مناصب الدولة.

فمنذ أن دخلها محمد الفاتح على حصانه الأبيض، صارت القسطنطينية، المدينة الواقعة على قارتين، مكان التقاء وساحة حرب في الوقت عينه، مدينة اشتهاها العالم كله، وأسـهم أهلها قبل أعدائها في تدميرهـا. فالعاصمة العثمانية الكوزموبوليتانية، كانت في الوقت نفسه عاصمة الإسلام والكنيسة الأرثوذكسية وجزءا من نظام الدول الأوروبي ومقصدا للأفكار والبشر من باريس إلى دلهي وجاكرتا. وكانت المدينة ذات أهمية إستراتيجية كبيرة، واشتهتها في فترات مختلفة روسيا وألمانيا وبلغاريا واليونان، حتى احتلال الحلفاء لها بعد الحرب العالمية الأولى.

وكما كان البسـفور بجماله وتألقه مقبرة للحريم والجواري اللاتي كانت التقاليد العثمانيـة تمنع سـفك دمائهن، كانت أجنحة الحريم سـجنا للأحيـاء من أمراء آل عثـمان، وكانت قصورهـم مسرحا لمقتلهم بأوامـر الجالس على العـرش العثماني. فالمدينة التي وسـعت كل القوميات والأديان ضاقت على آل عثمان الذين اسـتنوا قانون قتل الإخوة، فكان السلطان الذي يجلس على العرش يشرع على الفور في قتل كل إخوته، حتى الرضيع منهم.

لم تتجلَّ تناقضات القسطنطينية أبرز مما تجلت في الانكشارية، تلك القوة التي كانت تُــزوَّد بصبية مجموعين عبر آلية الدفشرمة من منطقة البلقان، وكان أفرادها في الوقت عينه مجاهدين وفاتحين وغزاة باسم الإسلام وعصا الدولة خارج العاصمة، ومجرمــين ونهّابين وخارجين على الدولة داخل العاصمــة، وأتباعا متعصبين للطرق الصوفية، ورعاة للحانات والمواخير وملاكا لها، وجيش الإمبراطورية والمتســلط على حكامها وأهلها.

يقــدم الكتاب تاريخ مدينة صنعت ســلالة حاكمة، أو ســلالة اقترن تاريخها بمدينــة. فيغطــي كل شيء حول القســطنطينية مــن العمارة والأحيــاء والتنوع الديني والقومي والثقافي، إلى الســلاطين والانكشــارية والسفراء الأجانب والحريم والخصيان. إنــه تاريخ رائع لمدينة وأسرة حاكمة، يمتد من فتح المدينة الذي حوّل إمارة آل عثمان التركية إلى إمبراطورية عالمية، حتى إعلان وفاة الإمبراطورية ومولد الجمهورية التركية.

ومــن خلال إيراد اقتباســات عديدة من مراســلات الدبلوماســيين المعاصرين وروايات الرحالة الأجانب والكتابات التاريخية، يلقي المؤلف الضوء على صراع القوة الواضــح داخل المدينة بين نخبتها الحاكمة. وهو مــا يقدم سردية درامية ومنحرفة غالبا لسلالة استثنائية، تكشف عن قدر هائل من مكائد القصور.

ويقدم الكتــاب أيضا تأريخا للعلاقــات «الفريدة» بــين الإمبراطورية العثمانية والقــوى الأوروبية، وتفرد هذه العلاقات ينبع مــن أنهــا شــملت ـ من بين أشــياء أخــرى ـ أول وأقــدم تحالف إســتراتيجي بــين الإمبراطورية الممثلة للإســلام والملك الفرنسي «الأكثر مســيحية» و«الابن الأكبر للكنيســة». وفي هذا الإطار، يقدم الكتاب رواية مفصلة لجهود التحديــث والتطوير التي بذلتها الإمبراطورية العثمانية للحاق بالقوى الأوروبية المنافِســة. ويتابع الكتــاب أيضــــا تطــور الامتيــازات الأجنبية من معاهــدات تجارية بين الإمبراطورية والدول الأوروبية إلى منصات للتدخل الغربي في شؤون الإمبراطورية وولاياتها.

وإلى جانب العشــق العثــماني للمدينة، يقــدم الكتاب تواريــخ عائلات أخرى عاشــت في المدينة مثل عائلة كوبرولو الألبانية وعائلة دي تيســتا الإيطالية وعائلة مافروكورداتــو اليونانيــة وعائلــة الأشراف العربية، التي يتعقبهــا المؤلف في تاريخ

إنساني جميل وممتع حتى مناطق شتاتها بعد سقوط مدينتهم الكوزموبوليتانية في خاتمة تعطي القارئ العربي المعنى: «وانفضّ سامر العثمانيين»، فلجأ «العثمانيون» من كل الملل والقوميات إلى الشتات الذي ماتوا فيه غرباء بعيدا عن المدينة التي أحبوها والثقافة الكوزموبوليتانية التي تشربوها.

أما بالنسبة إلى القارئ العربي، فإن كتاب القسطنطينية - إضافة إلى ما سبق - يقدم تاريخا للأتراك ودولتهم من الداخل، في مقابل تاريخ تأثيرات الإمبراطورية العثمانية على الولايات العربية التي كانت تابعة لها، ما يفيد في الوقوف على عملية صنع القرار في الدولة التي سيطرت على المنطقة العربية لأكثر من أربعة قرون، وكان لقراراتها وأفعالها وتحالفاتها وعداواتها تأثير باق على البلدان العربية.

لقد تزامن تساقط «دول الطوائف» الأندلسية أمام تقدم عملية الاسترداد المسيحية الإسبانية مع صعود الدولة العثمانية، وسبق فتح القسطنطينية في العام 1453 سقوط آخر معاقل المسلمين في الأندلس – غرناطة - في العام 1492. وقد شكّل فتح المدينة وتوسع الإمبراطورية في أوروبا تعويضا «نفسيا» للعرب والمسلمين بعد خسارة الأندلس. ولا شك أن الإمبراطورية لكونها الدولة الإسلامية الأكبر في زمانها ولضمها أجزاء كبيرة من هذا العالم، قد دافعت عن هذا العالم الإسلامي ضد التوسع الغربي الإسباني في شمال أفريقيا، والبرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي، ومنعت بالتأكيد طامعين آخرين من المنبع، أي منعتهم من تحويل طموحاتهم التوسعية إلى محاولات.

لكن في المقابل، ومن منظور التأمل المتأخر للأحداث، نجد أن الدولة العثمانية قد أضرت بالشعوب العربية، إذ أثبت التاريخ الحديث أن التجزؤ السياسي للإخوة في الدين والتنافس، حتى التقاتل بينهم، كان الميزة التي أدت إلى غلبة الدول الأوروبية في السباق العسكري والحضاري على الدولة الإسلامية الواحدة. فعلى خلاف رؤية الكثير من العرب المعاصرين، كان التجزؤ السياسي أنفع من الوحدة لقوة المجموع، فقد كانت الدول والكيانات السياسية في المنطقة العربية قبل العثمانيين قوية على المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية مادامت كثيرة ومتعددة، وحتى متنافسة فيما بينها. ولم تقصِّر هذه الدول - من قبل أن يظهر العثمانيون إلى الوجود - في الدفاع عن المنطقة منذ الحملات الصليبية وانتهاء بتصدي الدولة

المملوكيـة المصرية للبرتغاليين في البحر الأحمر. لكن بعد أن توحدت هذه الكيانات جميعها في دولة واحدة مع الغزو العثماني للمنطقة العربية، دخلت المنطقة، ومعها الإمبراطورية العثمانية نفسـها، في حالة من الجمود والتدهور، لم تفق منها إلا بعد قرون على أصوات مدافع نابليون وهي تدك طوابي الإسكندرية.

يتمثـل أحد الأدلة القوية على نظرية «التجزؤ السـياسي والتنافس العسـكري الداعم لقوة المجموع وغلبته» في حالة أوروبا على امتداد العصرين الحديث المبكر والحديث، حيث أدى التجزؤ السـياسي لأوروبا ووجود عدد من الدول المتنافسة لا تخضع لهيمنة مركز واحد، إلى الإفسـاح في المجال للتنافس بين الدول على السـيادة العسـكرية والاقتصادية والثقافية، ما أدى إلى غلبتها مجتمعة أمام العدو الإسلامي الواحد الذي بقوته يقوى العالم الإسـلامي وبضعفه يتدهور هذا العالم ويغلب عليه أعـداؤه. ففي مقابل «نظام الدول» الأوروبي الـذي ضَمِن أن تظل الدول الأوروبية تنافسية عسكريا، ضَمِن التوحد الإسلامي تحت مظلة الإمبراطورية العثمانية الركود والجمود والتخلف على المدى الطويل.

وفضـلا على ما سـبق، فإن نظرة الـتركي إلى العربي لم تخلُ مـن العنصرية على مـدار تاريـخ الإمبراطورية. فمع أنهم كانوا يجلّون «العربي» كفكرة بسـبب عروبة النبـي والقرآن، بيد أنهم في الممارسـات نبذوا العرب وأقصوهـم ولم يروا فيهم إلا محكومين. سـيلاحظ القارئ أنه مـن بين القوميات والأعراق الكثيرة التي شـكلت النخبة العثمانية في القسـطنطينية، كاليونانيـين والأرمن واليهود والشركس والأكراد والبلغاريين وغيرهم، كان العرب الأضعف حضورا. ومناصب الدولة التي وُزِّعت على كل الأعـراق لم تخطئ طريقها إلى العرب إلا قليـلا. وعلى الرغم من أن «الولايات» العربيـة كانت تشـكل معظم مسـاحة الإمبراطورية، لا تجد عربيا بـارزا في تاريخ الإمبراطورية بين الوزراء والمسؤولين. حتى الوجود العربي في القسطنطينية «عاصمة دولتهم» لم يكن ملحوظا مثل بقية القوميات والأعراق طوال عمر الإمبراطورية، ولم يظهر إلا في آخر عهدها مع السلطان عبدالحميد الثاني. لا يعد ذلك غريبا على دولة اعتبرت نفسها جزءا من أوروبا وكانت عينها لا تنظر إلا ناحية الغرب والشمال.

وإلى جانب التدهور الحضاري الذي أصاب منطقتنا نتيجة للحكم العثماني الذي عـزل العرب عن العالم والقطيعة في خبرة الدولة المسـتقلة لدى شـعوب منطقتنا

العربية التي كانت لها نتائج سياسـية واجتماعية وثقافية كبيرة على المنطقة مازلنا نعيش تداعياتها، تتمثل السـوءة الكبرى للحكم العثماني في تحويل عواصم وحواضر عربية كانت متقدمة ومزدهرة ومحتكة بالعالم إلى أطراف وأقاليم منسية ومقطوعة الصلة بالعالم.

ففي مقابل كل قصر أو «يالي» [بيت خشـبي على البحر] أو «كوناك» [بيت أو قصر ليس عـلى البحر] ازدانت به القسـطنطينية، وفي مقابل مظاهر الثراء والترف التي عاشـت فيها سـلالتها الحاكمة ونخبتها، كان النسيان والترييف والتخلف يلف حـواضر العرب التي كانت في السـابق أعرق من القسـطنطينية وأكثر ازدهارا، في القاهرة ودمشق وبغداد، حيث باتت عواصم العرب النابضة بالثراء والثقافة، أطرافا منسية ومصدرا للجباية للإنفاق على مباهج العاصمة. تجلى ذلك في مستوى العمارة وعدد السكان الذي تراجع في عواصمنا بعد قرون الحكم العثماني إلى حال أسوأ من تلـك التي كان عليها قبل العثمانيين، وذلك بالطبع لحسـاب تعمير القسـطنطينية وإثراء نخبتها. فقد كانت الوفرة وحياة البذخ التي تعيشـها العائلة الحاكمة وأهالي القسـطنطينية جميعا، على حسـاب الفلاحين والحرفيين الفقراء في مصر وسـورية والعراق وغيرها من ولايات الإمبراطورية العربية والأوروبية.

أما فيما يتعلـق بعملية الترجمة، فقد حرص المترجم عـلى الوصول إلى الأصول العربية للكلمات والأسـماء التركية، وهي مهمة ليست سهلة بسبب تحريف الكثير من الأسـماء والكلمات عن أصولها العربية، لذلك حرص المترجم على كتابة الكلمات الأجنبيـة للكلمات والأسـماء التركية إلى جانب تعريبها، تحوطـا لاحتمال الخطأ في تعريبها. أما الكلمات التركية التي ليس لها مقابل في اللغات الأجنبية مثل yali [يالي] وKonak [كونـاك] وغيرهما، فقـد آثر المترجم كتابتها هي نفسـها بحروف عربية حفاظا على روح النص مـن جانب، ومن جانب آخر تفضيلا للكلمة التركية المعربة على كلمات معربة غير تركية مثل «شـاليه» مثـلا ترجمة لكلمة «يالي»، مادمنا في الحالتين سنكتب كلمات غير عربية بحروف عربية.

بترجمـة هذا الكتاب، يكون المترجـم قد نقل إلى العربيـة كتابين مهمين حول أهم حدثين للعالم الإسـلامي في العصر الحديث المبكر: سقوط الأندلس وطرد بقايا المسـلمين منها في كتاب «الدين والدم - إبادة شعب الأندلس» الصادر عن مشروع

«كلمــة» التابع لهيئــة أبوظبي للثقافة والتراث، وفتح القســطنطينية الذي شــكل تعويضا نفسيا للعرب والمسلمين في الكتاب الحالي.

لقد وجد المترجم متعة لا توصف في ترجمة هذا الكتاب، انعكست في الحواشي الكثيرة التي أضافها إلى شرح ما يحيل إليه النص باقتضاب أو ما قد يســتغلق فهمه على القارئ العربي. فلولا الاستمتاع بالترجمة لما وجد المترجم صبرا ولا عزما للوقوف أمام كل حدث وشخصية ومكان، ليضيف حاشية تزيد متعة القارئ بالنص وإفادته منــه، حيث أضافت هذه الحــواشي إلى العناء «الممتع» الذي كان زاد المترجم طوال رحلــة ترجمة هــذا الكتاب الذي يتمنى أن يجد فيه القــارئ العربي هذه المتعة في قراءته وضمه إلى مكتبته.

ولا يفوت المترجم في النهاية أن يتقدم بالشــكر إلى سلســلة «عالم المعرفة» على نشرها هذا الكتاب الذي ضَمِن بنشره عبر هذه السلسلة المرموقة أن يصل إلى أيدي أكبر عدد ممكن من قراء العربية من المحيط إلى الخليج. كما يتقدم المترجم بالشكر إلى المؤلف الذي أرســل إليه الكتاب الأجنبي عــلى نفقته ولم يبخل في الرد على كل استفسارات المترجم حول نص الكتاب.

الدكتور مصطفى قاسم

الرياض - نوفمبر 2014

تصدير

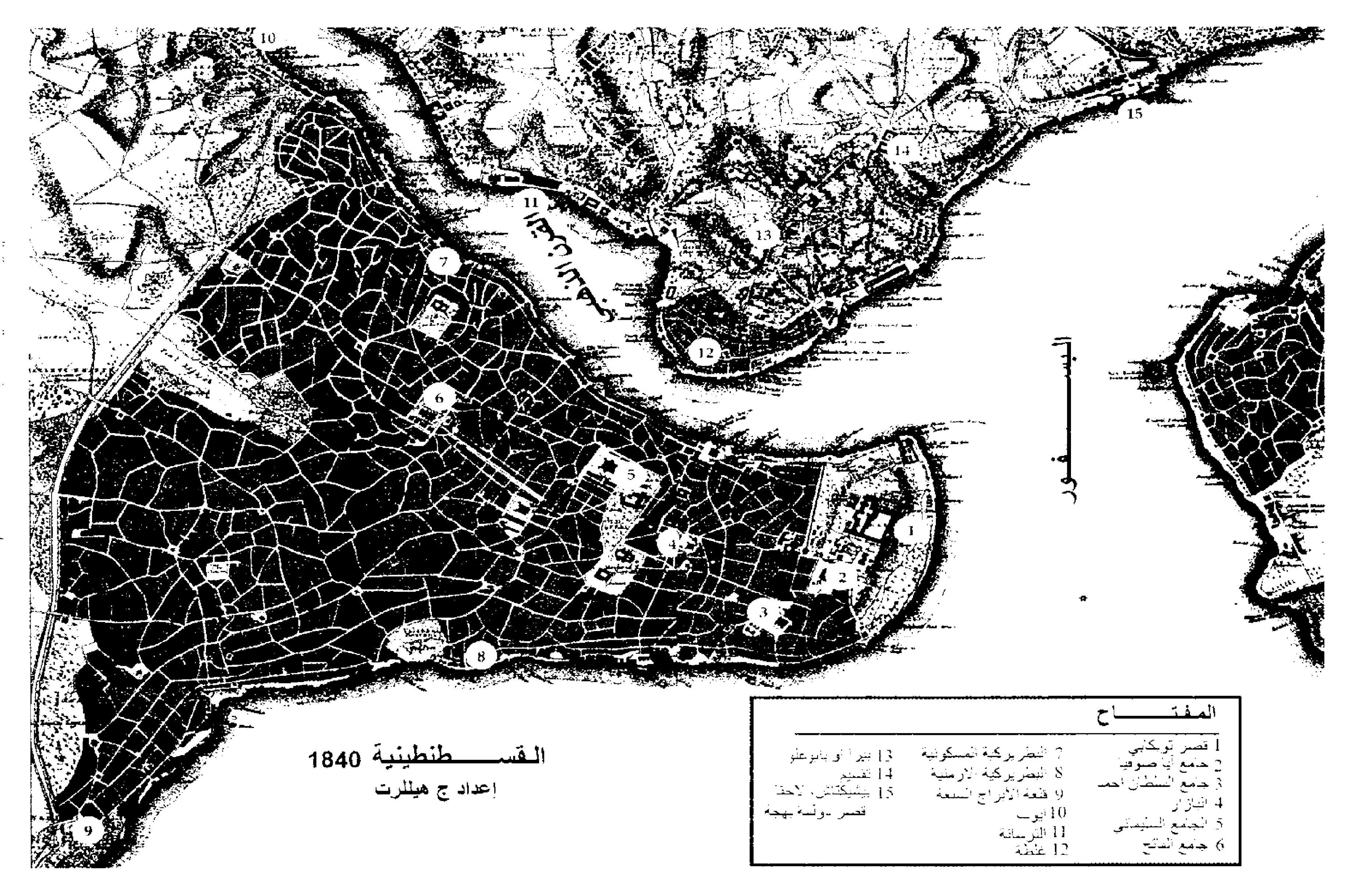
هذا الكتاب قصة لمدينة وعائلة حاكمة، كتبته إيمانا مني بأن العائلات الحاكمة لم تكن أقل أهمية من القومية والمناخ والجغرافيا في تشكيل المدن، وبين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، غطت العواصم العائلية، مثل باريس وفيينا وبرلين، على المدن التي استمدت أهميتها من الجغرافيا أو الاقتصاد، مثل ليون وفرانكفورت ونورمبرغ.

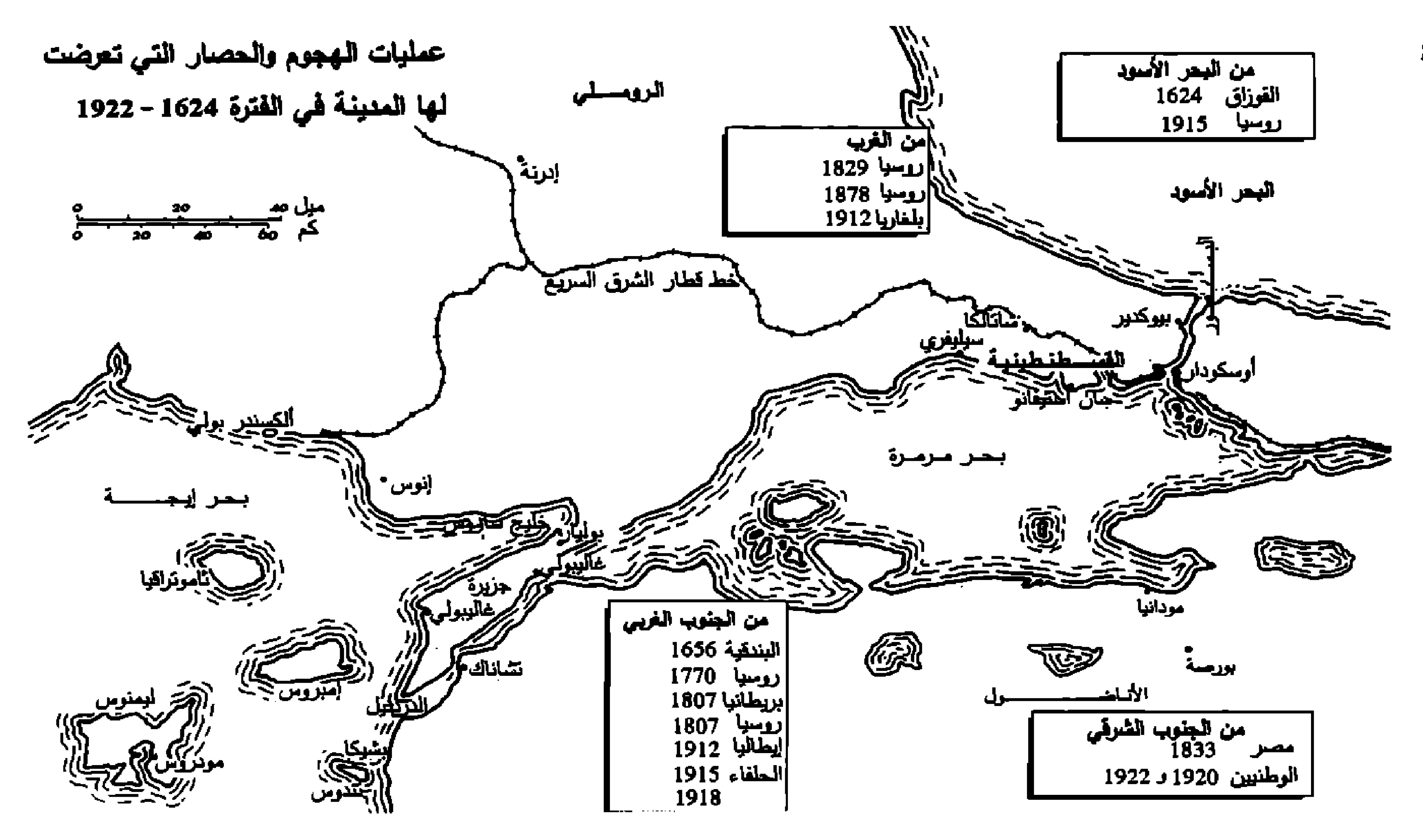
والكتاب قصة للمدينة التي ظلت فترة طويلة أعظم مدينة عائلية على الإطلاق. فقد أنتج تفاعل العائلة العثمانية مع القسطنطينية العاصمة الوحيدة في العالم التي كانت عاصمة على المستويات جميعها: السياسي والعسكري والبحري والديني (الإسلامي والمسيحي على حد سواء) والاقتصادي والثقافي والفني gastronomic.

القسطنطينية هو اسم المدينة المستخدم في هذا الكتاب، والاسم الذي استخدم كثيرا في الوثائق والعملات المعدنية العثمانية، وكان أيضا الاسم الأكثر استخداما في اللغات الأخرى. (حين تظهر أسماء أخرى في الاقتباسات، سأتركها كما هي). إذ استخدمت الجماعات المختلفة أسماء مختلفة للمدينة منها: إسطنبول وإسلامبول وكوشتا Kushta وكونس/بول Cons/ple وغوسدانتنوبوليس Gosdantnubolis وتساريغراد Tsarigrad ورومية الكبرى وروما الجديدة وأورشاليم الجديدة ومدينة الحج ومدينة القديسين ودار الخلافة وعرش السلطنة ومقر الدولة وباب السعادة وعين العالم ومأوى الكوْن والبوليس(*) والمدينة.

«الكتاب قصة للمدينة التي ظلت فترة طويلة أعظم مدينة عائلية على الإطلاق»

(*) كلمة بوليس polis في اللغة اليونانية تعني «مدينة»، وكأن القسطنطينية هي المدينة الوحيدة في العالم، وما عداها أرياف وبوادٍ وقفار. [المترجم].


القسطنطينية 1840
إعداد ج هيللرت
القرن الذهبي
البسفور
المفتاح
1 قصر توبكابي
2 جامع آيا صوفيا
3 جامع السلطان أحمد
4 البازار
5 الجامع السليماني
6 جامع الفاتح
7 البطريركية المسكونية
8 البطريركية الأرمنية
9 قلعة الأبراج السبعة
10 أيوب
11 الترسانة
12 غلطة
13 بيرا أو بايوغلو
14 تقسيم
15 بشكطاش، لاحقا قصر دولمة بهجة


عمليات الهجوم والحصار التي تعرضت
لها المدينة في الفترة 1624 - 1922
من البحر الأسود
القوزاق 1624
روسيا 1915
من الغرب
روسيا 1829
روسيا 1878
بلغاريا 1912
من الجنوب الغربي
البندقية 1656
روسيا 1770
بريطانيا 1807
روسيا 1807
إيطاليا 1912
الحلفاء 1915
1918
من الجنوب الشرقي
مصر 1833
الوطنيين 1920 و 1922
البحر الأسود
الرومـــلي
إدرنة
ميل
كم
خط قطار الشرق السريع
بيوكدير
أوسكودار
سيليفري
بحر مرمرة
الكيسندر بولي
إنوس
بحر إيجـــة
بولياز
جزيرة
غاليبولي
تشاناك
ثاموتراكيا
إمبروس
ليمنوس
مودروس
مودانيا
بورصة
الأناضــــول

القسطنطينية! القسطنطينية! ... إنها إمبراطورية العالم!

نابليون الأول، 1807

I

الفاتح

القسطنطينية كرسي الإمبراطورية
الرومانية... ما يجعلك الإمبراطور الشرعي
للرومان... ومَنْ يكن إمبراطورَ الرومان،
يكن أيضا إمبراطور الأرض قاطبة.

جورج ترابزونتيوس
George Trapezuntios
لمحمد الفاتح، 1466م

في ظهيرة التاسع والعشرين من مايو 1453م، دخل السلطان المدينة التي حلم بها طويلا. تقدم السلطان على حصان أبيض وسط طريق من الموت، إذ أحل الجيش العثماني المنتصر وسط القسطنطينية للسلب والنهب. وفي ذلك يذكر مراقب من البندقية أن الدم تدفق خلال الشوارع مثل مياه المطر بعد عاصفة مفاجئة، وطفت الجثث فوق هذه الأنهار متجهة ناحية البحر مثل بطيخ فوق مياه قناة[1]. وكتب مسؤول عثماني، هو طورسون بك

«تمتعت القسطنطينية بذاكرة تاريخية استثنائية»

Tursun Beg، أن الجند «أخذوا آنية فضية وذهبية وأحجارا كريمة وكل أنواع السلع والأقمشة الثمينة من القصر الإمبراطوري وبيوت الأغنياء. ومن خلال ذلك، انتقل أناس كثيرون من الفقر إلى الغنى، وامتلأت خيام الجند جميعها بالغلمان المليحين والفتيات الجميلات». ظل السلطان على ظهر جواده حتى وصل إلى الكنيسة الأم للمسيحية الشرقية وكرسي البطريركية المسكونية، كاتدرائية الحكمة المقدسة التي كان بناها الإمبراطور جوستينيان بأكبر قبة في أوروبا قبل تسعمائة عام، وهناك ترجل السلطان وانحنى إلى الأرض وأخذ قبضة من التراب، ثم نثرها فوق عمامته، تعبيرا عن التواضع لله.

وداخل الكاتدرائية التي اعتبرها اليونانيون «الجنة الدنيوية وعرش مجد الرب وبيت الملائكة», نادى أحد الأتراك أن «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وتحولت كاتدرائية هاغيا صوفيا Haghia Sophia إلى جامع آيا صوفيا. وبينما كان السلطان يدخل الكاتدرائية، كان الجنود الأتراك يجمعون مئات اليونانيين الذين لجأوا إليها انتظارا لمعجزة إلهية لإنقاذهم، ويسوقونهم أسرى خارج الكنيسة. أوقف السلطان واحدا من جنوده كان يقطع رخام الأرضية وقال له بزهو الفاتح: «اشبعوا بالغنائم والأسرى، أما بنايات المدينة فهي لي». وصلى السلطان تحت الفسيفساء الذهبية للسيد المسيح ومريم العذراء والقديسين الأرثوذكس والأباطرة البيزنطيين. وبعد أن تلقى التهاني من حاشيته، قال: «حفظ الله آل عثمان! وأدام عزهم إلى الأبد!»[2].

كان محمد الثاني، سلطان الإمبراطورية العثمانية المعروف في اللغة التركية باسم الفاتح، في العشرين من عمره فقط يوم فتح القسطنطينية، في العام 1453. ومحمد، المولود في إدرنة العاصمة العثمانية السابقة الواقعة على مسافة مائتي ميل شمال غرب القسطنطينية، كما جاء في تاريخ كلّف هو نفسه بكتابته، سيطرت عليه منذ طفولته فكرة فتح القسطنطينية، وكان يلح دائما على ضرورة الاستيلاء على المدينة من دون إرجاء. وسنحت له الفرصة لتحقيق حلمه بعد أن ورث العرش في العام 1451، بعد موت أبيه مراد الثاني.

كانت القسطنطينية بطبيعتها مطمعا للجميع، كأن الجغرافيا والتاريخ قد أعداها لتكون عاصمة لإمبراطورية عظيمة. فالمدينة الواقعة على طرف شبه جزيرة مثلثة، تحيطها المياه من ثلاث جهات. فإلى الشمال منها، يمتد مرفأ بعرض كيلومتر

واحد وطول ستة كيلومترات يسمى القرن الذهبي Golden Horn، ربما لأن مياهه تتلألأ بلون الذهب تحت أشعة الشمس، وإلى الشرق منها يوجد البسفور, ذلك الممر المائي الضيق الذي يفصل أوروبا عن آسيا، وإلى الجنوب منها يوجد بحر مرمرة, ذلك البحر الداخلي الصغير الذي يربط بين بحر إيجة والبحر الأسود. لذلك كانت المدينة حصنا طبيعيا وميناءً عميقا منقطع النظير، تمتع بالوصول السهل بحرا إلى أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، كما أنها كانت تقع أيضا على تقاطع الطرق البرية الرئيسة بين أوروبا وآسيا، وحوضي الدانوب والفرات. كأن موقعها قد خُلق لكي يكون مصب الثروة من أربعة أركان الكرة الأرضية.

تأسست بيزنطة كمستعمرة يونانية إبان القرن السابع قبل الميلاد على ما يقال، ثم أعاد قسطنطين الأكبر تأسيسها في العام 324 باسم روما الجديدة, لتكون عاصمة جديدة في موقع إستراتيجي أفضل من روما القديمة الواقعة على نهر التيبر. وعلى مدار أكثر من ألف عام تالية، كانت المدينة عاصمة الإمبراطورية الرومانية في الشرق. وإبان القرن السادس، حكم الإمبراطور جوستينيان باني هاغيا صوفيا، من القسطنطينية، إمبراطورية امتدت من الفرات إلى مضيق جبل طارق. أضافت المدينة إلى عظمة روما عبق الزمن، إذ تعاقب اثنان وتسعون إمبراطورا على «ملكة المدن»، وهو تاريخ إمبراطوري متواصل لم تشهده مدينة أخرى في العالم. وعلى مدار ألفيتها كإمبراطورية، كانت القسطنطينية المدينة الأكبر والأكثر تقدما في أوروبا, ومستودع تماثيل ومخطوطات الماضي الكلاسيكي، والمركز العصبي للمسيحية الشرقية. وقد دفع ثراؤها أحد رحالة القرون الوسطى، هو بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela(*)، إلى أن يكتب: «السكان اليونانيون أغنياء جدا بالذهب والأحجار الكريمة، ويلبسون الحرير المطرز بالذهب، ويركبون الخيول ويبدون كالأمراء في أبهتهم... وثراء القسطنطينية على هذا النحو لا نظير له في العالم أجمع». وكتب فارس صليبي، هو سير دي فيلاردوا Sieur de Villehardouin، أن القسطنطينية أذهلت رفاقه الصليبيين في العام 1203م، حين رأوا هذه الأسوار العالية وتلك الأبراج الشاهقة التي تحيطها كاملة، وتلك القصور الفخمة والكنائس الشامخة التي ضمت المدينة منها عددا لا يصدقه المرء ما لم يره بأم عينه».

(*) نسبة إلى مدينة تطيلة بمقاطعة نفارا الإسبانية. [المترجم].

كانت القسـطنطينية محاطة بأسـوار هي الأعظم والأفخـم في أوروبا، بُنيت بين العامـين 412 و422 بعـد الميـلاد. امتدت أسـوار المدينة، بالخندق المـائي بجوارها، وفتحات إطلاق النار فيها، والأبراج المائة والاثنين والتسـعين التي تتخللها، وسـمكها الضخم، امتدت بطول 6.67 كيلومتر من القرن الذهبي إلى بحر مرمرة، وكانت ترتفع وتنحدر وفقا لتفاوت ارتفاع سطح الأرض. وامتدت أيضا على طول بحر مرمرة والقرن الذهبـي لتطوق المدينة كاملة. وبحلول القرن التاسـع عـشر، كان الخندق المائي قد غطته البسـاتين والجبّانات. وبعد أن تهدم السـور وكسـاه اللبلاب، غدت الدوريات فوق ظهره تقوم بها الماعز والأغنام بدلا من الحرس الإمبراطوري. ومع ذلك، فقد كتب بيرون Byron: «لقد شـاهدتُ حطام أثينا وإفسـوس(*) ودلفي(**)، وعاينت الجزء الأكبر من تركيا وأجزاء أخرى كثيرة من أوروبا، وكذلك آسـيا، لكنني لم أر عملا طبيعيا أو فنيـا يعطـي الانطباع الباهر الـذي يعطيه المنظر على جانبي السـور من الأبراج السبعة حتى نهاية القرن الذهبي»[3].

بُنيت الأسـوار لأن القسطنطينية - كما كتب أحد البيزنطيين - كانت «المدينة التي يشـتهيها العالم». فلم تتعرض مدينـة لعدد الهجمات ونوبـات الحصار التي تعرضت لهـا القسـطنطينية: مـن القـوط (في العامـين 378م و476م) والهـون(***) (441) والسـلاف(****) (540 و559 و581) والأفـار(†) (617) والفرس والأفار (626) والعرب (669-79 و717-18) والبلغـار (813 و913 و924) والـروس (أربـع مرات بين العامين

(*) إفسوس أو إفسس Ephesus مدينة يونانية قديمة، ولاحقا مدينة رومانية رئيسة على ساحل أيونيا، كانت إحدى المدن الاثنتي عشرة بالحلف الأيوني إبان العصر اليوناني الكلاسـيكي، توجد حاليا ضمن غرب الأناضول التركية، ارتبط اسمها في العصر المسيحي بمجامع إفسوس المسكونية في الأعوام 431 و449 و575. [المترجم].

(**) دلفـي Delphi موقع أثـري ومدينة حديثة في اليونان على الرَّعن الجنوبي الغربي لجبل بارناسـوس في وادي فوكيس Phocis، تقول الأسـاطير إنها كانت موقع بيثيا Pythia وسيط الوحي الأهم في العالم اليوناني القديم والموقع الرئيس لعبادة الإله أبولو بعد أن ذبح التنين بيثون Python الذي كان يعيش هناك ويحمي صرة الأرض، ويعتقد أن اسم المدينة مشتق من اسم التنين الذي هزمه أبولو. [المترجم].

(***) الهـون Huns مجموعـة من القبائل البدويـة ظهرت في أوروبا من شرق نهر الفولغا بمنطقة السـكوثيين الأوائل بالقرب من بحر قزوين. [المترجم].

(****) السـلاف Slavs (يسمون الصقالبة في التاريخ العربي الإسلامي) شعوب تتحدث اللغات السلافية، قطنت أوروبا الوسطى والشرقية ومنطقة البلقان وغزت شمال آسيا في قرون متأخرة [المترجم].

(†) الأفار Avars قبائل بدوية فروسية سيطرت على آسيا الوسطى إبان القرنين الرابع والخامس، وحين أجْلَتهم قبائل أقـوى منهـم، اندفعوا غربا وأقاموا إمبراطورية شـملت أجزاء كبيرة من أوروبا الوسـطى والشرقية من أواخر القرن السادس حتى القرن التاسع. [المترجم].

860 و1043) والبجنــاك(*)(1087). و«لم تتعــافَ المدينة مطلقا مــن نهبها على أيدي حملة صليبية غربية في العام 1204، نظمتها منافِســتها التجارية: البندقية (**). وبعد أن عــادت المدينة إلى البيزنطيــين في العام 1261، أدت الهزائــم المتكررة للإمبراطورية البيزنطية أمام أعداء مســلمين والحــروب الأهلية بين الأباطرة المتنافســين إلى تقليص عدد ســكان المدينة من ذروته التي بلغت أربعمائة ألف إلى نحو خمســين ألف يوناني أو «روماني» كما كانوا يطلقون على أنفســهم بفخر(***). وبحلول العام 1400، كانت المدينة قد تقلصت إلى مجموعة من البلدات الصغيرة تفصلها المزارع والبساتين.

وفي العــام 1453، كان ســلطان الإمبراطــور الأخير قســطنطين الحادي عشر لا يتجاوز المدينة وبضع جزر ومناطق ســاحلية وشبه جزيرة بيلوبونيز. كانت التجارة قــد انتقلت إلى أيــدي البنادقــة والجنويين، والتماثيل الكلاســيكية قــد بيعت أو سُرقت، والرصاص المســتخدم في ســقف القصر الإمبراطوري قد نُزع لســك العملة. عاين الســلطان محمــد الفاتح القصر الخرب من فوق ســطح آيا صوفيا، وتفكر في الإمبراطوريات والأباطرة الآخرين البائدين وقال البيتين التاليين:

يحرس العنكبوت قصور الأكاسرة.
وتنادي البومة الحراس في قصر الأفراسياب(4)(****).

وإذا كان التاريــخ والجغرافيــا قد جعلا من القســطنطينية عاصمة إمبراطورية لا تضاهَــى، فقــد رأى العثمانيون أنهم مقدر لهم أن يحكمــوا إمبراطورية عظيمة. حتــى حين كان الأتراك لايزالون بدوا في وســط آســيا، كان كثــيرون منهم يعتبرون

(*) البجناك Pechenegs شــعب تركي شــبه بدوي ظهر في ســهول آسيا الوســطى بين الفولغا الدنيا ونهر الدون وجبال الأورال يتحدث اللغة البجناكية التي تنتمي إلى عائلة اللغات التركية، حكموا إبان القرنين التاســع والعاشر معظم السهول الواقعة إلى جنوب غرب أوراسيا وشبه جزيرة القرم. [المترجم].

(**) كان الهــدف المعلــن لهذه الحملة - مثل كل الحملات الصليبية الأخــرى - هو غزو بيت المقدس من خلال مصر، لكن يأســا من تحقيق مطلبهم بســبب قوة الدولة الأيوبية، اتجهت الحملة إلى القسطنطينية واحتلتها وبنتها وأسست ما عُرف باســم الإمبراطورية اللاتينية التابعة للبندقية، بينما واصل البيزنطيون المقاومة من نيقية وطرابزون حتى اســتعادوا عاصمتهم في العام 1261. كان هذا الاحتلال والحروب التي رافقته أحد العوامل الرئيسة في تكريس الانقسام بين الكنيسة الأرثوذكســية الشرقية والكنيســة الكاثوليكية الرومانية، وأحد الأسباب الأساسية لتراجع الإمبراطورية والمسيحية في الشرق الأدنى. [المترجم].

(***) لاتزال الدولة التركية حتى اليوم تطلق اسم «الروم» على مواطنيها الأرثوذكس. [المؤلف].

(****) الأكاسرة هم حكام بلاد فارس القديمة، وأفراســياب أحد أبرز شــخصيات الشاهنامة، تقول الأسطورة إنه ملك مائتين أو أربعمائة سنة، وآل أفراسياب أيضا هم حكام إمبراطورية القرخطاي أو الخيتان السود في آسيا الوسطى. [المترجم].

أنفسهم «شعب الله المختار». فالأتراك، الشياطين في الحرب والملائكة في السلم، البطوليون والعطوفون بالقدر نفسه، كان مقدرا عليهم أن يحكموا العالم. تنتمي العائلة العثمانية إلى قبيلة قايي Kayi من فرع الأوغوز Oghuz التركي الذين جاءوا إلى الأناضول من وسط آسيا مع آلاف من الأتراك الآخرين إبان القرن الثاني عشر. كانوا بدوا رعاة جذبهم المناخ وفراغ السلطة الناتج عن تدهور الإمبراطورية البيزنطية والسلطنة السلجوقية، والأخيرة كانت هي الأخرى في السابق دولة تركية قوية مركزها قونية في غرب الأناضول. وفي أوائل القرن الرابع عشر، تمكن السلطان العثماني الأول - عثمان - من اقتطاع إمارة مستقلة في شمال غرب الأناضول على حافة الإمبراطورية البيزنطية حول بورصة: العاصمة العثمانية الأولى.

وبفضل تعاقب سلسلة من السلاطين الأفذاذ وتكوين قوة خاصة منيعة عرفت باسم الانكشارية (من الاسم التركي yeni ceri الذي يعني «القوات الجديدة»)، وأيضا بفضل ضعف الدول المجاورة والشقاق بينها، حقق العثمانيون صعودا خاطفا إلى القوة العالمية. فاستغلوا حماس المسلمين للغزو والجهاد ضد المسيحيين، وهي حروب كانت تضمن فرصا للنهب. واستفاد الصعود العثماني أيضا من الانقسامات بين المسلمين والمسيحيين. فقد حارب الأتراك من أجل اليونانيين وضدهم، حتى إن الأتراك العثمانيين انتقلوا إلى أوروبا لأول مرة في العام 1352 للعمل مرتزقة للإمبراطور يوحنا كانتاكوزينوس John Cantacuzenus في حرب أهلية بيزنطية. وفي خمس مناسبات منفصلة، تزوج أمراء عثمانيون أميرات يونانيات أو سلافيات (والفاتح مع أن أمه كانت جارية من أصل مسيحي أو يهودي، لم يكن يجري في عروقه دم بيزنطي إمبراطوري). كان العثمانيون في بادئ الأمر مرتزقة يعملون لحساب الإمبراطور البيزنطي، وسرعان ما تحوّلوا إلى منافسين له، ساعدهم في ذلك تحالفهم مع جمهورية جنوى التجارية الغنية. وبحلول العام 1366، كانت العاصمة العثمانية قد انتقلت من بورصة في آسيا إلى إدرنة في أوروبا. وفي السنوات الثلاثين التالية، هزم العثمانيون المملكتين الأرثوذكسيتين الكبيرتين بلغاريا وصربيا اللتين تطلعتا إلى الاستيلاء على القسطنطينية.

توقف التوسع العثماني فترة قصيرة بسبب صعود الغازي التركي المنافس تيمورلنك في وسط آسيا. وفي العام 1402، هزم تيمور السلطان العثماني بايزيد

الأول وأسره، فالأخير - على ما يبدو - لم يكن يستحق اسم يلدريم Yildirim أو «الصاعقة» الذي أطلقه على نفسه. وبعد موت تيمورلنك، استؤنف الصعود العثماني إلى القوة العالمية. ففتحوا معظم الأناضول والبلقان، وأصبحت القسطنطينية جزيرة يونانية في بحر عثماني، وحاصرها بايزيد الأول ثم مراد الثاني أبو محمد الفاتح. وكان صمودها أمامهما ضربا من المعجزات.

بعد سقوط المدينة، وبموجب القانون الإسلامي الذي يَحكم معاملة المدينة التي ترفض الاستسلام، أُعْطِي جنود السلطان الحق في استعباد نحو ثلاثين ألف ساكن مسيحي وإبعادهم. وأُعْمِل السيفُ في آلاف غيرهم. ومات الإمبراطور الأخير قسطنطين الحادي عشر في أثناء القتال، وكانت الإمبراطورية الرومانية كفنه. وأُعدِم كبير وزرائه لوكاس نوتاراس Lucas Notaras، إما خوفا من أن يعمل لحساب عدوتي السلطان الغربيتين: البندقية والبابوية، وإما لأنه رفض أن يقدم ابنه لمتعة السلطان. وهو المصير الذي شاركه فيه معظم النبلاء اليونانيين والبنادقة الذين بقوا في المدينة.

لقد أُخِذت القسطنطينية بالسيف، وحتى نهاية الإمبراطورية العثمانية بعد أربعمائة وتسعة وستين عاما، ظلت القوة الوسيلة الأساسية للسيطرة في أيدي العثمانيين، تماما كما كانت بالنسبة إلى العائلات الحاكمة الأخرى. ففي العام 1452، ومن باب الإعداد للحصار، صمم السلطان قلعة روملي حصاري Rumeli Hisari العظيمة وشيّدها على البسفور. و«في عجالة» بين العامين 1453 و1455، شُيِّد حصنُ يدي كول Yedi Kule (أي «الأبراج السبعة» في اللغة التركية) الضخم ذو الأبراج السبعة في غرب المدينة، حيث تلتقي الأسوار البرية ببحر مرمرة. بيد أن إهمال ذلك الحصن حاليا لا يشي بأن الرعب الذي كان يبثه في القلوب لم يكن يقل بحال من الأحوال عن ذلك الذي ارتبط بسجن الباستيل(*)

(*) الباستيل Bastille قلعة في فرنسا أنشئت بين العامين 1370 و1383 كحصن للدفاع عن باريس، ثم تحولت إلى سجن للمخالفين السياسيين والدينيين، وعلى مر السنين أصبحت رمزا للطغيان، لذلك انطلقت منها الشرارة الأولى للثورة الفرنسية في الرابع عشر من يوليو 1798. [المترجم].

أو برج لندن(*). ففي هذا الحصن، كانت الثروة تُكنَز، وسفراء الأعداء يُسجَنون، وأعداء السلطان – وفي بعض الأحيان السلطان نفسه - يُعدَمون. تلقى الحصن معمودية الدم في الأول من نوفمبر 1463، حين أُعدِم ديفيد كومينوس David Comnenus آخر إمبراطور يوناني لطرابزون(**) الواقعة على البحر الأسود، أمام زوجته الإمبراطورة هيلينا، بسبب الشك في تعاونه مع أعداء السلطان، وقُتل معه ستة أبناء وأخ وابن أخ. وألقيت جثثهم جميعا خارج الحصن، حيث أكلتها الكلاب. وغُرِّمت الإمبراطورة على محاولة دفنهم[5].

لم يهِم شاعر أو رحالة بالقسطنطينية كما هام بها الفاتح. استخدم السلاطين العثمانيون اللقب التركي «خان» الذي يعني «إمبراطور»، وكذلك اللقبين الفارسيين «باديشاه» Padishah (الملك العظيم) و«شاهنشاه» Shahinshah (ملك الملوك) واللقب العربي «سلطان». وبداية من العام 1453، أخذ محمد الثاني، وكذلك فعل خلفاؤه من بعده، ينظرون إلى أنفسهم أيضا على أنهم ورثة الإمبراطورية الرومانية والأباطرة الحقيقيون الوحيدون في أوروبا. وفي ذلك كتب جنويٌّ كان يقيم في المدينة، بعد بضعة أيام من الفتح: «بإيجاز، لقد زادت غطرسته كثيرا بعد الاستيلاء على القسطنطينية، لدرجة أنه يعتقد أنه سيصبح قريبا سيد العالم أجمع، ويقسم علنا بأنه قبل أن يمر عامان سيكون قد وصل إلى روما». فقد كانت أوروبا وروما موضع اهتمام العثمانيين كمجال للتوسع، أكثر من المناطق الناطقة بالتركية في وسط آسيا أو القوقاز. وكانت الاستعارة التركية للسيادة العالمية هي «التفاحة الحمراء». قبل العام 1453، تمثلت التفاحة الحمراء في الكرة الأرضية التي حملها في يده اليمنى تمثال عملاق للإمبراطور جوستينيان، كان منتصبا أمام هاغيا صوفيا. وبعد تحطيم التمثال في العام 1453، انتقلت التفاحة غربا، وأصبحت تشير إلى الهدف التالي للعثمانيين، وهو مدينة روما. فكانت «إلى

(*) برج لندن Tower of London أو القصر والقلعة الملكيين لصاحبة الجلالة، قلعة تاريخية على الضفة الشمالية لنهر التايمز بوسط لندن، بني في العام 1066 كجزء من الغزو النورمندي لإنجلترا، وفي العام 1078 أمر وليام الفاتح ببناء البرج الأبيض الذي أصبح رمزا للقمع الذي أنزلته النخبة الحاكمة بلندن، وبداية من العام 1100 استخدمت القلعة كسجن من حين إلى آخر، وجاءت ذروة استخدامها كسجن إبان القرن السادس عشر، حين أصبحت العبارة «أُرسِل إلى البرج» كناية عن أن المبتلى في طريقه إلى التعذيب والإعدام. [المترجم].

(**) إمبراطورية طرابزون Trebizond إحدى ثلاث إمبراطوريات يونانية بيزنطية خلفت الإمبراطورية البيزنطية، تأسست في العام 1204 في المدينة التي لاتزال تحمل الاسم نفسه في شمال شرق تركيا على ساحل البحر الأسود. [المترجم].

روما! إلى روما!» الصيحة الدائمة لابن حفيد محمد الثاني الشـهير باسم سليمان القانوني. وبالنسبة إلى السلاطين اللاحقين، تمثلت التفاحة الحمراء في ڤيينا عاصمة الأباطرة الرومان المقدسين من آل هابسبرغ[6](*). فالطموح العثماني لم يكن له نظير. وفي المقابل، ظل شاه فارس مكبلا، وملك فرنسا متواضعا، والإمبراطور الروماني المقدس محليا.

دفعـت العثمانيين أيضا الرغبةُ في مضاهاة المجد الذي بلغه الإسـكندر الأكبر. فقد توحـد محمد الثاني مع الإسـكندر بقوة لدرجة أنه كلّف موظفـا يونانيا صغيرا يدعى ميخائيـل كريتوفولوس Michael Kritovoulos بكتابة سـيرته باللغـة اليونانية على الورق نفسه - وبالصيغة نفسها - الذي كتبت عليه نسخة أريان Arrian من سيرة حياة الإسكندر الموجودة في مكتبة السـلطان، التي كانت تُقرأ عليه «يوميا». وكتب مبعوث بندقيٌّ أن محمد الثاني «يعلن أنه سيتقدم من الشرق إلى الغرب، كما تقدم الغربيون في مرات سابقة من الغرب إلى الشرق. ويقول إنه يجب أن تكون هناك إمبراطورية واحدة ودين واحد وسلطة واحدة في العالم. ولم يكن ثمة مكان أهم لخلق هذه الوحدة العالمية من القسطنطينية»[7].

كانت الإمبراطورية التي حكمها محمد الثاني وخلفاؤه من القسـطنطينية دولة عائلية. ومع أن الأوروبيين حبيسي العقلية القومية كانوا غالبا يطلقون على السلطان اسـم «عظيم الترك» Grand Turk وعلى الإمبراطورية العثمانية اسم «تركيا»، كأنها دولة قومية، فإن اسـمها الرسـمي ينقل جوهرها العائلي، إذ كانت تسمى دولة آل عثمان «المحروسـة» أو «العليّة»، أو «الدولة العليّـة». وكانت النخبة الحاكمة من الجنود والمسـؤولين والقضاة، وبداية من منتصف القرن التاسع عشر كل المواطنين، يُسـمون عثمانيين على اسم العائلة الحاكمة. وحتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت كلمة «تركي» لفظة ازدرائية تستخدم للفلاحين الأناضوليين.

(*) آل هابسـبرغ Habsburg أو آل النمسـا، واحـدة مـن أعرق العائـلات الحاكمة في أوروبا العصور الوسـطى والعصر الحديث المبكر، كان منهم الأباطرة الرومان المقدسون من العام 1538 إلى العام 1740 وحكام الإمبراطورية النمسـاوية والإسـبانية وبلاد أخرى كثيرة، أخذت الأسرة اسـمها من قلعة هابسـبرغ التي بناها بين العامين 1020 و1030 في سـويسرا الحاليـة الكونت رادبوت الكيتاغـي Radbot of Kettgua وكان ابنه أوتو الثاني أول من أضاف اسـم القلعة «الهابسـبرغي» إلى لقبه، وحكمت العائلة مناطق واسـعة من أوروبا والعالم الجديد في أوجها، وكانت أقوى ممالكها في إسبانيا وانتهت بموت آخر ذكورها في العام 1700، الذي أطلقت وفاته حرب الخلافة الإسبانية، وفي النمسـا التي اسـتمرت فيها بعد حرب الخلافة النمساوية (1740 - 1748) في شـخص ماريا تريزا أرشيدوقة النمسا وملكة المجر. [المترجم].

وكما أوجد آل هابسبرغ ڤيينا، كذلك كانت القسطنطينية من خلق آل عثمان. فقد كانوا في حاجة إلى مدينة عالمية في مستوى إمبراطوريتهم. أطلق محمد الثاني وخلفاؤه على أنفسهم لقب «فاتح العالم» أو «ملك العالم». وكان من الألقاب المفضلة التي انتشرت سريعا لكل من السلاطين ومدينتهم «عالم بيناب» alem penab التي تعني «مأوى العالم». وقد بدا من الملائم خلق عاصمة متعددة القوميات لإمبراطورية قُدِّر لاحقا أن ضمت اثنتين وسبعين قومية ونصف قومية(*).

غدت التعددية القومية جوهر القسطنطينية. وكان من الأدوات الأدبية الشائعة بين الكتاب العثمانيين أن يقارنوا مزايا ومحاسن القوميات الكثيرة التي تعيش في الإمبراطورية وعاصمتها. وإبان القرن الخامس عشر، غدت الاختلافات القومية المستندة إلى التاريخ والجغرافيا أكثر منها إلى العرق، محسوسة جدا للناس، ومن ذلك وصف البطريرك المسكوني الأول في عهد العثمانيين جناديوس Gennadios لليونانيين بأنهم «عرق لا يوجد أرقى منه على وجه الأرض». ويقول مَثل بولندي من القرون الوسطى: «مادام العالم بقي كما هو، فلن يصير البولندي أخا للجرماني». وأثنى مؤرخ القرن السادس عشر البارز مصطفى علي Mustafa Ali على تعدد القوميات في الإمبراطورية باعتباره مصدرا للقوة. كان من بين هذه القوميات الأتراك واليونانيون والفرنجة والأكراد والصرب والعرب وغيرهم(**). وإبان القرن التاسع عشر، وصف أحد وزراء السلطان، هو جودت باشا Cevdet Pasha، الإمبراطورية العثمانية بأنها مجتمع عظيم «لأن شعبها يتحدث لغات كثيرة، ولأنها انتقت أفضل المواهب والعادات والأخلاق من بين أقوامها المتنوعين»[8]. وكانت القوميات المختلفة في القسطنطينية تعلن عن نفسها بفخر عبر الرسوم والصور الفوتوغرافية وتكوين حرس السلطان، وإبان القرن العشرين في المواكب السياسية والوفود المرسلة لخلع السلطان.

كانت السياسة الواقعية Realpolitik السبب الرئيس لتنوع القوميات وتعددها في القسطنطينية. فقد احتاج الفاتح في عاصمته الجديدة إلى سكان

(*) كان الغجر يعتبرون نصف قومية. [المؤلف].

(**) تشير كلمة الفرنجة إلى الفرنسيين تحديدا، أي الفرانك Franks، كما تُعمَّم كثيرا إلى الأوروبيين الغربيين جميعا. [المترجم].

كثيريـن ومزدهريـن لخدمة القـصر وماكينة الدولة. ولم يكن هنـاك ما يكفي من الأتراك المسـلمين لجعل القسـطنطينية مدينة تركية تماما. فقد كانت غالبية سكان الإمبراطورية مسـيحية في هـذه المرحلة. وكان الأتراك مطلوبـين في مختلف أرجاء الإمبراطورية، لتأهيل مدن البلقان والريف الأناضولي بالسـكان. ونتيجة لذلك كتب المؤرخ كريتوفولوس أنه بعد العام 1453 جمع السـلطان في القسـطنطينية أناسـا «من كل أرجاء آسـيا وأوروبا، ونقلهم بكل عناية وسرعة، وهم أناس من كل الأمم، خاصة المسـيحيين. فقد كان ولعه بالمدينة شديدا، وكذلك بتأهيلها بالسكان وإعادة ازدهارها السابق». وفي العاصمة الجديدة، كانت كل محلة أو رَبع (وحدة المعيشة الأساسـية بالمدينة التي تضم دور عبادة لقاطنيها ودكاكين وأسـبلة وحراسا ليليين) تحتفظ باسـم المدينة الأصليـة التي جاء منها سـكانها، وكذلـك عاداتهم الخاصة ولغاتهم وأساليب عمارتهم[9].

كان الأتراك الجماعة الأولى والأكبر عددا التي جلبها السلطان إلى القسطنطينية. فعلى مدى السنوات التالية للاستيلاء على المدينة في العام 1453 ظلت المدينة خرابا، كأن الطاعون قد ضربها. وكان على السلطان أن يستخدم الأسلوب العثماني المعروف باسـم السـورغون surgun، أي التهجير القسري للسكان، لنقل الأتراك إلى عاصمته الجديدة. وفي ذلك كتب المؤرخ عاشق باشا زادا Ashikpashazade أن السلطان:

> أرسل مسؤولين إلى كل ربوع دولته يعلنون أن القسطنطينية تفتح أبوابها لكل رعايا الدولة، وتعدهم بامتلاك البيوت والبسـاتين والحدائق بلا مقابل... لكن على رغم هذا الإجراء، ظلت المدينة قليلة السـكان، لذلك أمر السـلطان بأن يؤتى بالقوة من كل ناحية بالأسر الفقيرة والغنية على حد سـواء. وأُرسِـل المسـؤولون بالفرمانات إلى القضاة وحكام كل ولاية... وبعد ذلك بدأ سـكان المدينة يزدادون كثيرا.

ذهب محمد الثاني شـخصيا إلى بورصة لإجبار صنـاع هذه المدينة التجارية الغنية وتجارهـا على الانتقال إلى العاصمـة. ولايزال الرثاء موجودا لمصـير الفنانين والحرفيين الذين نقلوا بقسـوة مـن العاصمة السـلجوقية القديمة قونية بالأناضـول إلى المدينة الملطخة بالدماء على شاطئ البسفور. وفي بعض اللحظات، انتابت الفاتح نفسه شكوك حول جائزته الجديدة، وفكر في العودة إلى العاصمة السـابقة إدرنة التي كانت تتمتع

بعوامل الجذب الثلاثة: السكينة والقرب من أراضي الصيد والجغرافيا، والأخيرة جعلتها مركز التعبئة الطبيعي للحملات العثمانية على أوروبا[10]. لكن شكوك السلطان لم تدم.

فكما فعل قسطنطين الأكبر قبل ألف ومائة عام حين استدعى أعضاء مجلس الشيوخ من روما إلى القسطنطينية، وكما فعل بيتر الأكبر بعد مائتين وخمسين عاما في سانت بطرسبرغ، أمر السلطان «دعائم الإمبراطورية» بالانتقال إلى عاصمته الجديدة. وطلب منهم «أن يشيّدوا بيوتا ضخمة في المدينة في الأماكن التي يختارها كل منهم. وأمرهم أيضا ببناء حمّامات عامة وخانات وأسواق، والكثير من الورش الجميلة جدا لتشييد دور العبادة». وكان محمود باشا، رجل الدولة المقتدر في زمانه، من أوائل الأعيان الذين شيّدوا مساجد، يوجد مسجده حاليا في منطقة الخانات والأزقة المزدحمة بجانب البازار الكبير [11] Grand Bazaar.

كما استورد الفاتح يونانيين أيضا. لم تكن بعض مناطق المدينة قد فقدت سكانها اليونانيين. فعلى خلاف الفتح بالسيف الذي حدث مع المدينة، استسلمت بساماتيا Psamatya التي تُعرف حاليا باسم كوجا مصطفى باشا Koca Mustafa Pasha في جنوب غرب المدينة بالقرب من السور، وأفلتت بذلك من السلب والنهب، الأمر الذي يفسر وجود عدد كبير من الكنائس فيها اليوم. وفي قلب المدينة، وبرغبة صريحة من السلطان، بقيت ثانية أكبر كنيسة في المدينة، كنيسة الرسل المقدسين ومقبرة الأباطرة البيزنطيين والنموذج الأصلي لكنيسة سانت مارك في البندقية. كان محمد الثاني في حالة حرب مع الحكام المجاورين، المسيحيين والمسلمين، في الأناضول والبلقان على مدار معظم عهده. وفتح طرابزون والقرم(*) وصربيا ووابية(**) ودولة قرمان(***) التركية المنافسة في الأناضول. ومع اتساع إمبراطوريته، نقل الفاتح يونانيين أكثر وأكثر بالقوة إلى القسطنطينية. ووطّن مزارعين عبيدا يونانيين (تحرروا إبان القرن التالي) في القرى خارج المدينة لضمان تزويدها بالمؤن الغذائية[12].

لم تكن هناك حواجز دينية بين اليونانيين والأتراك الذين عاشوا معا. فالمسيحيون «أهل كتاب»، ومع أن الإسلام، باعتباره وحي السماء الأخير، قد نسخ دينهم، فقد ظل

(*) القرم Crimea شبه جزيرة على الساحل الشمالي للبحر الأسود، تتمتع بحكم ذاتي ضمن جمهورية أوكرانيا، استولت عليها روسيا منذ بضعة أشهر. [المترجم].

(**) وابية Euboea أكبر الجزر اليونانية بعد كريت. [المترجم].

(***) قرمان Karaman تشكل حاليا مدينة ومحافظة في جنوب وسط تركيا. [المترجم].

هذا الدين قريبا من الإسلام. ويجل المسلمون إبراهيم ومريم، ويعد «المسيح الذي ينزل عليه الخلاص»، كما جاء في مرسوم عثماني، أحد أعظم الأنبياء في الإسلام. وتقر الشريعة الإسلامية، كما جاءت نصا في القرآن، أن ينال المسيحيون في مقابل دفع الجزية والضرائب الأخرى وضعية أهل الذمة أو الرعايا المحميين، وكذلك الحق في حرية العبادة وإنفاذ شرائعهم الدينية.

ذهب محمد الثاني أبعد من ذلك. فنتيجة للنزاع بين مؤيدي المصالحة مع البابا ومعارضيها، لم يكن هناك بطريرك في القسطنطينية في العام 1453، وكان بوسع السلطان أن يترك الكرسي شاغرا حتى يختفي، كما حدث مع الكثير من الأسقفيات الأرثوذكسية في الأناضول العثمانية. لكن الفاتح كان الحاكم الأكثر استنارة في زمانه. وكان من علامات أصالته الفكرية أن أعاد البطريركية المسكونية التي كانت تترأس الكنيسة الأرثوذكسية من القسطنطينية منذ القرن الرابع.

كان الراهب جورج جناديوس اسكولاريوس George-Gennadios Scholarius ابن القسطنطينية من أكثر الكهنة الأرثوذكس تعليما ومكانة في المدينة في زمانه. وفي الخمسين من عمره تقريبا، أصبح زعيم جماعة المؤمنين الأرثوذكس المعارضة للاتحاد مع روما. وحين أسره الأتراك في أثناء نهب القسطنطينية، أكرمه آسروه ووقروه في قرية قريبة من إدرنة. وهناك، كما ذكر كريتوفولوس، وكما أكدت الدراسات الحديثة، أرسل الفاتح في طلبه ومنحه الحرية والهدايا: «وفي النهاية عيّنه بطريركا وكاهنا أعلى للمسيحيين، وأعطاه - من بين حقوق وامتيازات أخرى كثيرة - حكم الكنيسة وسلطة لا تقل عما كانت لأسلافه في عهد الأباطرة». وقد كرّسه الفاتح وتوجه في الخامس من يناير 1454 في كنيسة الرسل المقدسين.

لم تبق وثيقة تعيين جناديوس. بيد أنه من المؤكد أن اليونانيين اللاحقين بالغوا في الامتيازات التي مُنحت لجناديوس، إذ تُعلق اليوم في حجرة الانتظار بالبطريركية في اسطنبول صورة غير واقعية تظهر محمد الثاني وجناديوس متعادلين كنّدين. بيد أن الحقيقة هي أن البطريرك أصبح منذ ذلك الحين خادما للإمبراطورية العثمانية. وحصل البطريرك الجديد على راتب كبير، ومعه تأكيد شخصي من السلطان الذي خاطبه بالصيغة: «أتمنى أن تكون بطريركا سعيد الحظ. اطمئن إلى صداقتنا، واحتفظ بكل الامتيازات التي تمتع بها أسلافك من البطاركة».



محمد الثاني فاتح القسطنطينية يمنح الامتيازات الإكليروسية للبطريرك المسكوني جناديوس في العام 1453. طبعة من رسم زيتي أصلي يقال إنه من عمل جيرالمو غالازي دا سانتاكروز Girolamo Galazzi da Samacroce (1500-1550). يظهر البطريرك والسلطان شبه نِدين. طُبع هذا التصوير للعلاقات بين الحكومة العثمانية والجماعة اليونانية في القرن التاسع عشر وعليه تعليقات باللغات العثمانية والفرنسية واليونانية والأرمنية لتعزيز التعايش الديني.

انطوى تعيين البطريرك على صفقة، حمى السلطان بمقتضاها البطريرك من الكنائس الأرثوذكسية السلافية المنافسة ومن المتعصبين من المسلمين. وفي المقابل، ساعد البطريرك في جمع الضرائب للسلطان، ونظريا ضمن ولاء اليونانيين ومنعهم من مساعدة عدوتي الإمبراطورية الكاثوليكيتين: البندقية والبابوية اللتين ساعدتا في الدفاع عن المدينة في العام 1453، وحاولتا أن تستردداها. والبطريرك، باعتباره رئيس الجماعة الأرثوذكسية، أدار نظاما قانونيا أرثوذكسيا منفصلا، يقوم على قوانين جوستينيان، وامتلك سلطة التغريم والسجن والنفي على شعبه. وعلى رغم أن البطريركية في القسطنطينية كانت أضعف وأفقر من مكافئها الغربي في الڤاتيكان، فقد كانت أهم لشعبها. وكانت الرمز والمؤسسة التي حافظت على الدين والأمل حيين في القلوب، وبعد فتح القسطنطينية تراجعت معدلات الدخول في الإسلام في المناطق العثمانية[13].

كان محمد الثاني الذي أخذ المبادرة في هذه الإجراءات جميعها، يقدّر الثقافة اليونانية، وكذلك الازدهار الذي يمكن أن يجلبه اليونانيون إلى عاصمته. فكانت القسطنطينية، في بعض الأحيان، بابا في الحائط الفاصل بين الإسلام والمسيحية. ففي

العام 1455 أو العام 1456، ذهب السلطان مع وجهاء بلاطه إلى مقر البطريرك وطلب مـــن جناديوس أن يكتب شرحا للمسـيحية، تُرجِم من اليونانيـة إلى التركية على نفقة السـلطان. جاءت هــذه الوثيقة المعنونة «خلاصـة موجزة للدين المسـيحي» طويلة ومعقــدة جـدا، إذ كان من الصعب حتى على المسـيحي أن يفهم عبـارات مثل «إننا نؤمن بأن كلمة الله، والإنسـان الذي نُزِّلت عليه كلمة الله، هو السـيد المسيح، وحين تكون حياة المسـيح في لحمه حياة إنسان مقدس تماما، تكون قوة حكمته وأعماله من قوة الله»(*). واحتفظ السـلطان باهتمامه بالمسيحية، وكان من بين مقتنياته من الآثار المسـيحية المهد «الذي وُلد فيه المسـيح»، الذي قال عنه لمبعـوث بندقي إنه لا يبيعه بخمسمائة ألف دوقية(**)، وعظْمة ذراع القديس يوحنا المعمدان وجمجمته[14].

كان بعض أتباع البطريرك أقل انفتاحا واسـتنارة. فبعد بضعة أشهر من تكريس جناديوس، وُجد تركي مقتولا في فناء كنيسـة الرسل المقدسين. حتى السلطان نفسه لم يكن في مقدوره حماية البطريرك من حشد غاضب من المسلمين كانوا مستعدين لتقبل أسـوأ الأفكار حول المسـيحيين. نقل جناديوس البطريركية وآثارها المقدسـة وكنوزها إلى كنيسـة «أم الرب البهيجة» التي بُنيت بالطابوق إبان القرن الثاني عشر في منطقة الفنار بقرب شـاطئ القرن الذهبي. ونتيجة لأن السـلطان كان قد وطّن الكثير من الأسرى اليونانيين هناك، فقد كانت منطقة يونانية إلى درجة كبيرة.

كان الأرمن عنصرا مسـيحيا آخر جلبه السـلطان إلى القسـطنطينية. وكانوا قومية متميِّزة عاشـت في شرق الأناضول والقوقاز منذ القرن السـادس قبل الميلاد على الأقل. منـذ انعقاد المجمـع الدينـي في خلقيدونية (قاضيكـوي Kadikoy حاليـا) المقابلة للقسـطنطينية في العام 451، تبنى الأرثوذكس والكاثوليك كلاهما الاعتقاد بأن المسيح ذو طبيعتـين متمايزتين: بشرية وإلهية. بينما كان الأرمن من القائلين بالطبيعة الواحدة للمسـيح: طبيعة واحدة بشرية وإلهية في الوقت نفسـه. وقد أدى اسـتخدامهم للغة والأبجديـة الأرمنيتـين إلى الحفاظ على هويتهـم المميَّزة، على الرغم مـن اختفاء آخر مملكـة أرمنيـة في جنوب الأناضول إبان القـرن الرابع عـشر. وكان وجودهم بارزا في

(*) ربما كان الغموض في أمثال هذه الوثائق مقصودا لحجب الأفكار التي تتعارض مع الإسـلام، مثل ألوهية المسيح أو بنوته لله، وما شابه ذلك. [المترجم].

(**) الدوقية أو الدوكاتية ducat كان اسـم العملة في كثير من البلاد الكاثوليكية مثل إسـبانيا والإمارات الإيطالية في ذلك العصر. [المترجم].

شرق البحـر الأبيض المتوسـط كصاغة وحرفيين (خاصة كبنائـين) وتجار، وهي مهارات كانـت مهمـة للفاتح. وفي ذلك كتـب كريتوفولوس أن «محمد الثـاني نقل إلى المدينة رعايـاه الأرمن الذين كانـوا مميّزين في مجال المِلكية والـثروة والمعرفة التقنية وغيرها من الكفاءات الأخرى، فضلا عن الطبقة التجارية». وتلك هي نسخة السلطان الرسمية اللطيفة للحدث، بينما ألقى تاجر أرمني يدعى نيرسيس Nerses، كتب في العام 1480، باللائمة على السـلطان في حشـد «عاصفة هائلة على المسيحيين وعلى شعبه، من خلال نقلهم من مكان إلى آخر... فقد كتبتُ هذه الوثيقة في أوقات المرارة، حيث جلبونا من أماسيا(*) إلى كونستاندنوبوليس(**) بالقوة وعلى غير رغبتنا، وقد كتبتُ ذلك بمداد من دموعي أسى على حالنا».

تؤكد التقاليد الأرمنية التي تكشـف عن نفسـها في النقـش الموجود على واجهة البطريركيـة الأرمنية الحالية الكائنـة في منطقة كومكابي Kumkapi باسـطنبول، أن محمـد الثاني عيّن بطريركا أرمنيا في القسـطنطينية في العـام 1461. والحقيقة هي أن البطريـرك الأرمني ظل في سـيس(***) في قيليقية Cilicia أو إيتشـيمادزين(****) في القوقاز، ولايزال هناك إلى اليوم. وهذا النوع من الأسـاطير التاريخية نتج عن رغبة الأرمن في رفع مكانتهم في الإمبراطورية العثمانية، وعن اشتهار محمد الثاني كبطل لكل القوميات، من نوع الإسـكندر الأكبر، تسـتدعيه قوميات مختلفـة حاميا لها. لكن مع صعود الأرمن في الثراء والنفوذ، ارتفعت منزلة أسقفهم. وإبان القرن السابع عشر، كان معترفا به بطريركا شرفيا أو «أسـقفا يدعى بطريركا»، يدير المحاكم العدلية والسجن، تماما مثل البطريرك المسكوني[15].

إلى الشـمال من القرن الذهبي، وعلى النقيض تماما من القسـطنطينية نفسها، توجد منطقة غَلَطَة Galata الغنية. سـيطر الجنويون على هذه المنطقة منذ القرن الثالث، حين اسـتقروا فيها. فكانت بمنزلة شـنغهاي المشرق، أي مسـتعمرة شـبه

(*) أماسيا Amasya حاليا مدينة ومحافظة في شمال تركيا. [المترجم].

(**) كونستاندنوبوليس Konstandnupolis أحد أسماء القسطنطينية. [المترجم].

(***) كانـت مدينة سـيس Sis قديما عاصمة مملكة قيليقيـة Cilicia الأرمنية، تقع حاليـا في مقاطعة أرارات الأرمنية. [المترجم].

(****) إيتشـيمادزين Echmiadzin أو فاغارشـاباد Vagharshabat مدينة أرمنية في مقاطعة أرمافيز تشتهر بأنها مقر كنيسة الأرمن الأرثوذكس المعروفة باسم «الكرسي الأم لإيتشيمادزين المقدس». [المترجم].

مستقلة تستأثر بالتجارة الإقليمية من الإمبراطورية البيزنطية الآفلة، على نحو ما فعلت شنغهاي مع الإمبراطورية الصينية الآفلة بعد أربعة قرون. ففي مقابل القسطنطينية جنوب القرن الذهبي، كانت غَلَطَة (تعرف كذلك باسم بيرا Pera من كلمة يونانية تعني «ما وراء») أقرب إلى مدينة إيطالية صغيرة، حيث الكنائس الكاثوليكية والشوارع المستقيمة والمنازل المتينة المبنية بالحجارة والساحة العامة. وكانت أعلى بناية فيها، التي لاتزال تهيمن على الأفق اليوم، هي برج غَلَطَة المدبب، ذلك النصب القوطي الذي ضل طريقه إلى ضفاف البسفور. وفي العام 1453، كانت غَلَطَة أكثر ازدهارا وسكانا من المدينة البيزنطية جنوب القرن الذهبي.

كانت جنوى والإمبراطورية العثمانية حليفتين منذ فترة طويلة. ومع ذلك، فقد قاتل الكثير من الجنويين الغَلَطيين ضد العثمانيين، وقال السلطان إنهم هم الذين منعوا سقوط المدينة من أول يوم للحصار. ومع ذلك، فقد كان السلطان أكثر اهتماما بازدهار المدينة منه بالانتقام. فمنح امتيازا في الأول من يونيو 1455 باللغة اليونانية(*) إلى «أهالي غَلَطَة ونبلائها»، لايزال موجودا في المكتبة البريطانية. ففي مقابل الاستسلام ودفع الجزية، أصبحوا رعايا يحظون بحماية الإمبراطورية. وسمح لهم بالاحتفاظ بممتلكاتهم و«إنفاذ عاداتهم وشعائرهم»، ما عدا «دق أجراس كنائسهم» التي كانت أصواتها تمثل خوفا مرضيا لدى العثمانيين الذين لم يطيقوا أي منافسة لصوت الأذان الصادر من المآذن. وصودرت أسلحة المواطنين، وهُدم جزء من سور المدينة (كل ما يبقى منه اليوم هو جزء قريب من القرن الذهبي كانت تعتليه أسلحة أسرة دوريا Doria الجنوية العظيمة). وما عدا ذلك، لم تتعرض غَلَطَة لأي عقوبات. وكما جاء في رسالة كتبها العمدة السابق بعد أيام قليلة لأخيه في جنوى، فـ «قد أمر [السلطان] أيضا بوضع قوائم بكل ممتلكات التجار والمواطنين الذين فروا من هنا، وقال إن عادوا، فسوف تعاد إليهم، وإن لم يعودوا، فسوف تكون لي»[16]. وقد عاد معظمهم واستردوا ممتلكاتهم.

كان السلطان يُحِبُّ وجود الفرنجة Franks (أي الأوروبيين الغربيين) في بلاطه. فعلى مدى سنوات كثيرة، استعمل السلطان تاجر شبّ غنيا من أصل جنوي، يدعى فرانسيسكو درابيريو Francesco Draperio، كديبلوماسي غير رسمي (تحتفظ كنيسة القديسة ماريا

(*) حتى أوائل القرن السادس عشر، كان السلاطين العثمانيون يستعملون بعض السكرتيرين اليونانيين ويصدرون الوثائق باللغة اليونانية، إلى جانب اللغة التركية. [المؤلف].

درابريس في شارع الاستقلال بذكرى أسرته إلى اليوم). فقد كان السلطان مولعا جدا بجو غَلَطَة اللاتيني، حتى إنه ذات مرة دخل كنيسة فرانسيسكانية وشاهد قداسا.

ومع اتساع فتوحات السلطان، جلب مزيدا من الإيطاليين إلى المدينة، في العام 1460 من المستعمرات الجنوية على شواطئ بحر إيجة، وفي العام 1475 من القرم. وقد كان الإيطاليون مفيدين للسلطان، تماما مثل اليونانيين. وفي البحر الأدرياتيكي وبحر إيجة، واجه السلطان البندقية، إحدى القوى العظمى في ذلك الزمان، التي كانت تمتلك أسطولا أقوى من أسطول العثمانيين. وكانت فلورنسا المنافس الإيطالي الرئيس للبندقية. لذلك شجع السلطان الفلورنسيين على الانتقال إلى غَلَطَة ومنحهم بيوت البنادقة المطرودين، حتى إنه استشار القنصل الفلورنسي في قراره إعلان الحرب على البندقية في العام 1463. وفي ذلك العام، زيَّن الفلورنسيون في غَلَطَة بيوتهم احتفالا بالفتح العثماني لمملكة البوسنة المستقلة (التي تحولت سريعا إلى حصن عثماني، وأصبحت تعرف باسم «الأسد الذي يحرس أبواب القسطنطينية»). وفي العام 1465، حلَّ السلطان ضيفا على الفلورنسيين، إذ تناول معهم العشاء في مستودعهم التجاري الرئيس الذي استُقبل فيه بكل أبهة وفخامة. وبحلول العام 1469، كانت خمسون شركة فلورنسية تعمل في الإمبراطورية العثمانية، كانت تستورد الحرير والمخمل والزجاج وفراء الثعلب والورق، حيث كانت معظم الوثائق العثمانية تكتب على ورق إيطالي. وكانت المشكلات الأساسية التي تواجههم في «الحفاظ على استمرار حركة السوق» - وفقا للعبارة الشائعة آنذاك - تأتي من الطاعون ومن البنادقة، وليس من العثمانيين[17].

يكشف مثال غَلَطَة أن الشرق والغرب كان بإمكانهما أن يتعايشا معا في القسطنطينية. فلم تكن الإمبراطورية العثمانية مطلقا على نحو ما يزعم بروديل Braudel «نقيض أوروبا ومضاد المسيحية». فالأسر التجارية بغَلَطَة، مثل تيستا Testa ودرابريس Draperis وفورنيتي Fornetti، كانت الأعرق في المدينة. وأطلق عليهم الأتراك «الفرنجة العذبيين» Sweet Water Franks، في مقابل «الفرنجة المالحين» Salt Water Franks من أوروبا. وكانت هيئة مكوّنة من اثني عشر مستشارا، تسمى جمعية بيرا المبجلة، تدير كنائس الجماعة الكاثوليكية. وكان التجار يجتمعون مرتين في اليوم لمناقشة التجارة في نظير لبورصة لندن، هو رواق القصر البلدي Plazzo del Commune، تلك البناية القوطية التي شُيِّدت على غرار قصر

سان جورجو Plazzo San Giorgio في جنوى(*). وفي وقت السلم بين الإمبراطورية والبندقية، كان البايلو Bailo أي ممثل البندقية يدير محكمة عدلية للقضايا المدنية الخاصة بالرعايا البنادقة (والأوروبيين الآخرين)، كانت السلطات العثمانية تنفذ أحكامها(**). ونظم هذا الممثل أيضا خدمة بريدية كانت تغادر مرتين في الشهر، برا خلال البلقان إلى كاتارو(***) على ساحل دالمسيا، وبعد ذلك بحرا إلى البندقية. وكانت الرسائل بين المدينتين تستغرق عموما زهاء شهر للوصول إلى مقصدها.

كانت غَلَطَة مركزا للمتعة فضلا عن التجارة. فكل فترة صوم فيها كانت كرنڤالا، لدرجة أن «المرء قد يعتقد أنه في بلدة إيطالية»، كما كتب مارك أنطونيو بينافيتا Marcantonio Pignafetta. وكان ألفيس غريتي Alvise Gritti واحدا من أوروبيين غربيين كثيرين كوّنوا ثرواتهم على ضفاف البسفور. ولد غريتي في القسطنطينية التي عمل أبوه سفيرا بندقيا فيها، وحرمته الولادة غير الشرعية من العمل في البندقية، وعاش في أبهة في غَلَطَة (يقال إن اسمه التركي بايوغلو Beyoglu الذي يعني «ابن البيه» son of the Bey(****) جاء من كوّنه ابن دوج البندقية(†). كان غريتي ممثلا ديبلوماسيا للصدر الأعظم(‡) وتاجر جواهر، ويقال إنه كان يعيش حياة المسلمين بين الأتراك وحياة المسيحيين بين الأوروبيين الغربيين. وفي العام 1524، وبعد أن أصبح أبوه دوج البندقية مباشرة، أقام مأدبة في القسطنطينية لثلاثمائة ضيف، من بينهم أتراك، تعشوا لحم أيل وحجَل وطاووس. ثم رقصت لهم نساء غَلَطَة «بحركات خليعة

(*) مجردا من شعار النبالة الجنوي والنوافذ القوطية، يشكل القصر حاليا ورشة تسمى بركة هاني Bereket Hani في زاوية برج غَلَطَة Galatakulcsi وشارع البنوك Bankalar Caddesi. ربما يعد أقدم بناية مدنية في المدينة. انظر Studia Turcologica memoriae Alexii Bombaccii Dicata, Naples, 1982, 166-79. [المؤلف].

(**) على امتداد الكتاب، سيستعاض عن كلمة «بايلو» بكلمة «سفير»، لأن حاملها كان سفير البندقية. [المترجم].

(***) كاتارو Cattaro أو كوتور Kotor: مدينة ساحلية في مونتنيغرو على خليج كوتور. [المترجم].

(****) البيه Bey هو اللقب أو الرتبة العثمانية التي تلي رتبة الباشا. وقد استقر المترجم على هذا التعريب لها، لأنه أقرب في النطق إلى الأصل التركي «بي» من الشكل الآخر لتعريبها وهو «بيك» الذي ربما يكون تعريبا لأحد تنويعات الكلمة التركية نفسها، وهو beg أو baig [بيك] الذي ربما يرجع استخدامه في المنطقة العربية إلى ما قبل الحكم العثماني إلى المماليك الذي كانوا في أغلبيتهم يشتركون في الأصل العرقي والنشأة الجغرافية مع الأتراك العثمانيين. [المترجم].

(†) الدوج Doge هو لقب القاضي الأول وحاكم جمهوريتي البندقية وجنوا، تترجم الكلمة أحيانا إلى «دوق». [المترجم].

(‡) الصدر الأعظم أو الوزير الأول هو أعلى منصب في الحكومة العثمانية، دون السلطان، كان يحمل ختم السلطنة ويرأس جلسات الوزراء في الباب العالي ويدير شؤون العاصمة. [المترجم].

تذيب المرمر»، وتلا ذلك المسرحية الكوميدية «الروح وكيوبيد» Psyche and Cupid، ومبارزة وتمثيل للاحتلال البرتغالي لسيلان. قال كاتب تركي إبان القرن السابع عشر عن غَلَطَـة: «من يذكر غَلَطَة يذكـر الحانات، عافانا الله! حيث تجمد البيرة في عز الصيف بالثلج القادم من جبال بورصة. أما نسـاء غَلَطَة بثيابهن الرائعة، اللاتي كن يرتدين كل ثرواتهن في شكل جواهر، فقد احتفظن حتى القرن العشرين باشتهارهن بالقدرة على تحويل الملاك إلى شيطان[18](*).

هكذا، كانت القسـطنطينية بداية من العام 1455 عاصمة للإمبراطورية العثمانية، وكذلك للكنيسة الأرثوذكسية، وكانت أيضا موطنا للثقافة التجارية المميّزة لموانئ شرق البحر الأبيض المتوسط المعروفة باسم المشرق(**). وحتى أوائل القرن التاسع عشر، كانت اللغة الإيطالية - لغة التجارة والبحر - اللغة الثانية في القسـطنطينية، إذ كان يتحدثها كل الفرنجة ومعظم اليونانيين والأرمن وبعض الأتراك. وقد دخلت مصطلحات ملاحية إيطاليـة كثيرة إلى اللغـة التركية، مثل caravel [الكارفيـل] وbombarda [البومباردا] اللتين تشـيران إلى نوعين من السفن، أو كلمة iskele (من كلمة scala الإيطالية) التي تشـير إلى مكان إبرار السفن. (في تجل آخر للهيمنة الإيطالية، كان التجار الإنجليز قبل العام 1830 يشـيرون إلى موانئ شرق البحر الأبيض المتوسـط باسـم «لوفانت سكيلز» Levant scales [موانئ المشرق]). وانتشر في موانئ البحر الأبيض المتوسـط أيضا شكل من اللغة المبسـطة الإيطالية، ضمت كلمات فرنسية ويونانية وإسبانية وعربية وتركية عُرفت باسـم اللغـة المشـتركة lingua Franca. وحتى أوائل القـرن العشرين، كانت نـداءات أو صرخات مثل Guarda! Guarda! [انتبـه] لتفادي الاصطدام أو Monsu, arrivar! [هـا قد وصل] لإعلان الوصول، لاتزال تُسـمع في المدينة[19]. وفي عهد محمد الثاني كانت غَلَطَة ضاحية تابعة، لكنها في السـنوات التالية مارست نفوذا قويا ومهيمنا على التجارة والثقافة والديبلوماسية في القسطنطينية.

(*) يقول مَثل لاحق: إذا أردت أن تدمر حياتك، فتزوج من امرأة مشرقية. [المؤلف].

(**) كما اشـتُقت كلمة «الشرق» Orient من الكلمة اللاتينية oriens التي تعني الشروق، كذلك اشـتُقت كلمة المشرق Levant من المقابل الفرنسي الذي يعني الشروق أيضا. وبالنسـبة إلى الأوروبي الغربي، أصبحت كل تنويعات كلمة المشرق في اللغات الأوروبية تشير إلى الأراضي التي تشرق منها الشمس، وبالتالي الأراضي الواقعة على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسـط، وهي تحديدا الدول الحديثة: اليونان وتركيا وسـورية ولبنان وفلسطين ومصر، التي كانت من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين، جزءا من الإمبراطورية العثمانية. [المترجم].

وكما حدث في المدن العالمية الأخرى، مثل أمستردام إبان القرن السابع عشر، وفيينا إبان القرن التاسع عشر، ونيويورك إبان القرن العشرين، جذبت القسطنطينية اليهود. عانى يهود القسطنطينية من فتحها، كما عانى سكانها الآخرون. وقد وصلتنا قصائد عبرية ترثي استعبادهم وإبعادهم ووحشية العثمانيين معهم. فقد جُلب معظم اليهود من الإمبراطورية العثمانية إلى القسطنطينية رغما عنهم من خلال السورغون أو التهجير القسري. وحيث إن اليهود كانوا ممنوعين من مغادرة أماكنهم من دون إذن رسمي، فقد اعتبروا أنفسهم «مكبلين بأغلال الأسر». وحتى القرن التاسع عشر، ظل المهجرون قسريا surgunlu متميّزين في الطقوس ودفع الضرائب عن اليهود الذين جاءوا إلى المدينة بإرادتهم kendi gelen[20].

وبعد العام 1453، شجعت الإمبراطورية اليهود على الهجرة إليها من أوروبا. والرسالة التالية من حبر يهودي إلى إخوته المضطهدين في أوروبا، تفيض بحماسة من النوع الذي ميّز نشرات الهجرة الصهيونية لحث اليهود على الاستيطان في الأرض الموعودة:

> هنا في أرض الأتراك، ليس ثمة ما نشكو منه. فنحن نمتلك ثروات عظيمة، وتحت أيدينا فيض من الذهب والفضة. ولا نخضع لضرائب ثقيلة، وتجارتنا حرة ولا يعوقها شيء. وهذه الأرض وفيرة الثمار. وكل شيء فيها رخيص، وكل واحد منا يعيش في أمن وحرية. واليهود هنا لا يُرغمون على ارتداء نجمة صفراء علامة على الذل، كما هي الحال في ألمانيا التي لا يغني فيها الثراء العظيم عن اليهودي لعنة الذل(*)، لأن الثروة نفسها تثير الغيرة بين المسيحيين، ولذلك تجدهم يدبرون له كل أنواع الافتراءات لتجريده من ذهبه. قوموا يا إخوتي وشدوا أحزمتكم واحشدوا كل قواكم وتعالوا إلينا.

فعلى خلاف الحال في أوروبا الغربية، لا يوجد في «مأوى العالم» قيود على حرية التجارة، ولا يحد بناء المعابد إلا قيود قليلة للغاية. وسرعان ما ازدهر اليهود كعطارين وحدادين ونجارين، وفي حالات استثنائية كملتزمي ضرائب ومموّلين وأطباء(**). واعتمادا على ثروتهم الجديدة، تمكّنوا من التغلب على اتحادات تجارية مسيحية وإسلامية بالحصول

(*) كان إجبار اليهود على ارتداء شارات صفار كعلامة على مكانتهم المتدنية تقليدا متبعا أيضا في إسبانيا بعد «استرداد» المسيحيين لها، وربما في أماكن أخرى كثيرة عبر أوروبا، لكن يبدو أن رسالة الحبر اليهودي كانت موجهة إلى يهود ألمانيا، ولذلك خصهم بذل الشارات الصفراء. [المترجم].

(**) لم تكن هناك بنوك في هذه الأزمان، لكن وظيفة المموّل banker موجودة منذ فجر التاريخ، وهو شخص كان يقرض المال للأشخاص أو الحكام بفائدة كبيرة. [المترجم].

على إيجار جمارك القسطنطينية. وبعد العقود الأولى، كان تاريخهم في القسطنطينية استثناء في التاريخ اليهودي، فكان قصة سعيدة في وسط بحر من المآسي. ففي القسطنطينية، لم يكن لكلمات «مذبحة» و«غيتو» و«محكمة تفتيش» معنى أو وجود.

منــذ أواخــر القرن الخامس عشر حتــى وقت قريب، تركزت تجمعــات اليهود في القسطنطينية في منطقتي بالات Balat وهاسكوي Haskoy على جانبي القرن الذهبي، اللتــين آوتا الســكان اليهود من قبــل الفتح. وكان يقال إن «فتيان بالات شــبان أقوياء جدا، وفتيان هاســكوي مجرد زبيب مجفف». ســيطرت المعابد على الحياة اليهودية، وحافظــت على عــادات المنطقة التــي أتى منها المصلون وطقوســهم، وأدارت المدارس المحلية والجمعيات الخيرية، ونظمت دفع الضرائب للدولة. وكان الأحبار قضاة المحاكم اليهودية التي تمتعت باستقلال غير معهود، فضلا عن سلطة التشريع لليهود[21].

كان من أنجح اليهود في القسطنطينية طبيب يدعى جياكومو دي غايتا Giacomo di Gaeta، كان قــد ترك تعصب إيطاليا عصر النهضــة إلى ملاذ الإمبراطورية العثمانية. ونال طبيب السلطان يعقوب باشا Yakup Pasha، كما سُمي بعد اعتناقه الإسلام، امتياز الإعفاء الضريبي له ولأحفاده، ســواء اليهود أو المســلمين. كانت القســطنطينية مدينة مزدوجة الهوية. وكما كانت الحال مع جناديوس وألفيس غريتي والســلطان نفسه، كان يعقوب باشا ينتقل بسهولة بين العوالم المختلفة. فكان يتردد على قصر السلطان، وكذلك بيت ســفير البندقية في غَلَطَة. وربما بأمر من الســلطان، نقل معلومات كاذبة لتشويش صناع السياسة البنادقة، مثل الادعاء في العام 1465 بأن السلطان اعتنق المسيحية[22].

جلبت الإمبراطورية اليونانيين والأرمن والإيطاليين واليهود إلى المدينة، في المقام الأول لأسباب اقتصادية. واســتوردت الدولة العائلية بنفسها عنصرا عرقيا خامسا. فقد كانت الحكومة العثمانية تسمى «الباب»، وهو اسم مستمد من الجزء من قصر الحاكم الأكثر ارتباطا بالسلطة، إذ كان الجميع ينظرون إلى الحكومة العثمانية باعتبارها إدارة الدولة والعدالة، التي تجري أمام باب السلطان عن طريق أسرته الممتدة ومديريه. وكان الجزء الأســاسي من مسؤولي السلطان وجنوده عبيدا يعرفون باسم القبة قولي kapi kulu أو «عبيد الباب»، عكس تركيبهم الإيمان العثماني بالتنوع العرقي. كان هؤلاء العبيد فتيانا بين الثامنة والسادســة عشرة يُجنَّدون وفقا للحاجة من بين السكان المسيحيين الريفيين في البلقان، وبدرجة أقل من الأناضول، عبر عملية عرفت باســم الدفشرمة devshirme

أو «الجمع». لم يكن مسـموحا بأن يكون هؤلاء الفتيان من الأتراك. فبعد غزو البوسنة في العام 1463، وعلى الرغم من أن القرآن يحرم استعباد المسلمين، شرعت الإمبراطورية في «جمع» السلاف المسلمين، دون المسلمين من أصل تركي.

كان تاريخ ميلاد الفتيان يسـجل، وكذلك تفاصيل نسـبهم. وبعد ذلك، كانوا يؤخذون إلى القسـطنطينية ويُختّنـون ويُدْخَلون في الإسـلام(*). وكان أفضل هؤلاء الفتيان شـكلا ونسبا يعلمون في مدرسة القصر أو بيت الباشا، وفي النهاية يدخلون الخدمة العامة. وكان الآخرون «يعطون للأتراك» ويرسـلون إلى المزارع في الأناضـول لتعلم اللغة التركية. وبعد ذلك كانوا يعملون بسـتانيين في القصر الإمبراطوري أو بحارة في الأسـطول الإمبراطوري أو عمالا في أماكن البناء في المدينة، وفي النهاية كانوا ينضمون إلى الانكشارية التي تكوّنت من زهاء خمسة عشر ألفا أو عشرين ألف جندي وشكلت رأس حربة الجيش العثماني والقوة العسكرية والشرطية الأساسية في القسطنطينية نفسها. وكانت تقوم بدوريات على الأسوار وترابط في الأبراج السبعة وتفرض القانون والنظام وتحرس البطريرك والسلطان نفسه.



رسام مجهول، دورية الانكشارية ليلا، في نحو العام 1590. كانت أمثال هذه الدوريات تقبض على اللصوص وتضمن أن الأهالي داخل بيوتهم. يركب أغا الانكشارية حصانه، ويحمل جنوده الفوانيس أمام أسوار المدينة.

(*) كان الختان في هذه الأزمان لصيقا بالإسـلام، حتى أنهم في إسـبانيا كانوا يكشفون عورة من يشكون في أمره من الموريسـكيين، وهم المسـلمون الذين بقوا بعد سـقوط ممالكهم ونُصِّروا قسرا، للتأكد من ممارسـته للإسلام سرا. فإن وجدوه مُختّنا، فإن ذلك كان يُتخذ قرينة على ممارسـته للإسـلام سرا. وكذلك في حظائر العبيد في الجزائر في العصر الحديث المبكر، كان لزاما على من يعلن إسلامه من العبيد الأسرى أن يُختّن ولو كان طاعنا في السن. [المترجم].

كانت قلوب بعض الأسر المسيحية تنفطر حزنا حين يؤخذ أطفالهم «للجمع». وكان من بين الأغاني الشائعة واحدة تقول:

لعنة الله عليك أيها الإمبراطور، لعنك الله ثلاثا
على الشر الذي فعلته، والشر الذي تفعله.
فأنت تقبض على العجائز وكبار الكهنة وتكبلهم
لكي تأخذ الأطفال انكشارية لك.
فتبكي أمهاتهم وآباؤهم، وكذلك أخواتهم وإخوتهم
وأنا أبكي حتى يضنيني البكاء
وسأظل أبكيهم ما دمت حيا
ففي السنة الماضية أخذوا ابني، وهذه السنة أخذوا أخي.

لكن في مقابل فجيعة أمثال صاحب هذا الرثاء، كانت الأسر الأكثر دراية بالأمور تسعد برؤية أطفالها يضمنون موطئ قدم لهم في السلم الإداري العثماني. علاوة على أن العبودية كانت أقل إذلالا في العالم الإسلامي منها في العالم المسيحي. فقد كان فتيان الدفشرمة الذين يتعلمون في قصر السلطان أو الوزراء تتهيأ لهم الفرص لشغل أعلى المناصب في الإمبراطورية، والعناية بأقاربهم. وكان «عبيد الباب» معفيين من كثير من القيود القانونية المفروضة على العبيد الآخرين في أمور الزواج والملكية. لذلك كان السلاف البوسنيون يطلبون بأنفسهم استمرار إجراء عمليات «الجمع» في أوساطهم، على الرغم من تحوّلهم من المسيحية إلى الإسلام. وفي ذلك كتب سفير البندقية أن جنود الانكشارية «يجدون فخرا في القول بأنهم عبيد السيد الكبير»، لأنهم يعرفون أنها دولة عبيد، يمتلك العبيد الأمر والنهي فيها». ألم يكن الشبان الكاثوليك الأيرلنديون - قبل مائة عام - يشعرون بفخر مماثل حين يُحَوَّلون إلى البروتستانتية ويُرسَلون إلى كلية إتون Eton، ثم يُطلب منهم أن يحكموا الإمبراطورية البريطانية كخدم للإمبراطورة الملكة؟[23](*).

كانت الدفشرمة كممارسة عثمانية خاصة تحظى برعاية محمد الثاني. وفي ذلك كتب أحد الإيطاليين: «إنه في ذلك يُظهِر إصرارا رائعا على غايته، كأنه يبتغي بجهوده إنتاج شعب جديد». أسهمت هذه العملية في استبعاد ثوار محتملين وتحويلهم إلى عثمانيين موالين. علاوة على أن «مرايا الأمراء»(**) الإسلامية التقليدية التي كان

(*) الإمبراطور الملك أو الإمبراطورة الملكة: لقب للحاكم الذي يتحد تحت عرشه إمبراطورية ومملكة. [المترجم].

(**) مرايا الأمراء أو الملوك أو الآداب السلطانية هي نوع الأدب العربي والإسلامي الذي يتناول أصول الحكم والحكمة السياسية ويقدم النصائح والإرشادات للحكام. [المترجم].

البيروقراطيون العثمانيون يقرأونهـا، أكدت مزايا التنوع العرقي. وقد جاء في كتاب الحِكم أو نظام الملك أن السلطان إذا استعمل أعراقا مختلفة، فإن «الأعراق جميعا ستسـعى إلى أن تتفوق إحداها على الأخرى... وحين يكـون الجند من عرق واحد، تنشأ مخاطر، إذ يفتقرون إلى الحماس وتعم الفوضى».

كان الشـك في الأتراك السـبب الرئيس لتقليد «الجمـع» أو الدفشرمة. وفي ذلـك كتب أحـد نزلاء القصر: «لا يوجد غير القليل مـن الأتراك الناطقين باللغة المحلية في القصر لأن السـلطان يجد لنفسـه خدما أكثر إخلاصا بين المسـيحيين معتنقي الإسلام الذين لا موقد لهم ولا بيت ولا أهل ولا أصدقاء. وهؤلاء يكنون للسـلطان مودة ويظهرون حرصا عـلى خدمته، حتى إنهم لا يترددون طوعا عن تقديـم ألف روح لحماية حياته وتوسـيع إمبراطوريتـه». وفي المقابل، كان كثير من أعضاء النخبة الإسـلامية التركية سابقين في الوجود على نشأة دولة آل عثمان وينظرون إليهم بعين الحسـد، إذ كانت هناك دول تركية أسبق في الأناضول مثل الروم(*) والدانشيمنديين(**)، وكان العثمانيون مجرد «قادمين جدد». وقد تعلم محمـد الثاني نفسـه أخطار وجود نخبة إسـلامية قوية، فبعـد أن حكم عامين، خُلِـع في العام 1446، ربما بتحريض من الصدر الأعظم جندرلي خليل Candarli Halil، سليل أسرة قدمت ثلاثة صدور عظماء، ورجع أبوه مراد الثاني إلى العرش لعامين. وخوفا من رد الفعل الغربي، ظل الصدر الأعظم يعارض قرار محمد الثاني بمهاجمة القسـطنطينية، ووصف القرار بأنه «حماقة شـاب ثمل». وبعد الحصار مبـاشرة، أعدمه محمد الثـاني. ولذلك كان معظم الصدور العظماء والباشـوات مـن «عبيد الباب»، فمن بين أول ثمانية وأربعـين صدرا أعظم بعد العام 1453، كان ثمانيـة عشر منهم فقط أتراكا محليين. ونقمة على ذلك الوضع، أطلق بعض الأتراك على مجلس السلطان أو الديوان اسم «سوق العبيد»[24].

كان وجود الانكشـارية يعنـي أن كثيرا من الجنود - وبنائي المسـاجد والوزراء العظـماء - في القسـطنطينية من السـلاف. وفي ذلك يذكر رحالـة فرنسي في العام

(*) سـلطنة الروم أو سـلاجقة الروم Rum: دولة تركية - فارسـية سـنية حكمت الأناضول بين العامين 1077 و1307. [المترجم].

(**) الدانشيمنديون Danishmend: عائلة تركية حكمت في المناطق الشرقية والشمالية من الأناضول إبان القرنين الحادي عشر والثاني عشر، تُنسب إلى مؤسسها دانشيمند غازي، كان مركزها في سيفاس وتوكات ونيكسار. [المترجم].

1542 أن اللغة السلافونية Sclavonian (الصربية - الكرواتية) كانت اللغة «الأكثر استخداما وتداولا في القصر... بسبب انتشارها بين الانكشارية». وعلى خلاف ما اعتقد المؤرخون في السابق، كان عبيد الباب أيضا قادرين على الوجود في عالمين، إذ كانوا من العاصمة يحافظون على التواصل مع أسرهم في الولايات. على سبيل المثال، أجرى الصدر الأعظم محمود باشا مفاوضات مع صربيا في العام 1457. وإذا كانت هذه المفاوضات قد أدت إلى سلام مواتٍ وجزية أعلى للإمبراطورية العثمانية، فإن ذلك رجع بلا شك إلى أن المسؤول الأعلى في البلاط الصربي القائد العسكري الأعلى ميخائيل أنغلوفيتش Michael Angelovic كان أخاه[25].

شكل بعض عبيد الباب جماعة ضغط صربية في العاصمة، كانت في نزاع دائم مع البطريركية التي هيمن عليها اليونانيون. كان من أبرز صرب القسطنطينية وإحدى أبرز الشخصيات في التاريخ العثماني ذلك الرجل الذي ولد بعد خمسين عاما من الفتح، في العام 1505، باسم باجيكا صوكولوفيتش Bajica Sokolovic، في بلدة فيشغراد Visegrad الصغيرة على الحدود الصربية - البوسنية. ترقى هذا الرجل ذو الطلعة المهيبة واللحية السوداء والأنف المعقوف، سريعا خلال رتب الدفشرمة، وتولى - على التوالي - مناصب مربي الصقور وأمير البحر الأعلى ووزير ونائب الإمبراطور في أوروبا. وأخيرا، من العام 1564 إلى العام 1579، شغل محمد باشا صوكولو، كما عُرف بعد إسلامه، منصب الصدر الأعظم. كان محمد باشا صوكولو رجلا دمثا وحصيفا وحريصا على المال، ما جعله رجل دولة يتمتع برؤية عالمية. فمن قصوره في القسطنطينية، خطط الباشا قنوات بين نهر الدون والفولغا وبين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط لمساعدة الدول الإسلامية ضد روسيا والبرتغال على التوالي، وأرسل الذخائر إلى سومطرة، وشارك في اختيار ملك جديد لبولندا، وطلب صورا وساعات من البندقية، ورتب سلاما ناجحا مع إسبانيا والبندقية والبابوية، على الرغم من الهزيمة البحرية العثمانية في ليبانتو في العام 1571.

لكنه مع ذلك، احتفظ بروابط مع جذوره الصربية. ووضع أقاربه في الحكومة المركزية العثمانية، وفي العام 1557 ونتيجة لإصراره، أعيدت الأسقفية الصربية في بيتش(*)، على غير رغبة البطريركية، وكان أخوه أول رئيس أساقفة لها. كان صوكولو

(*) بيتش Pec (بالصربية) أو بيجا Peja (بالألبانية): مدينة في غرب كوسوفو الحالية. [المترجم].

نفسه متجها إلى الكهانة حين «جُمِع» للسلطان، ويقال إنه في بعض المناسبات رافق أبناء إخوته إلى الكنيسة وهم في زياراتهم إلى القسطنطينية.

خلَّدت العمارة الصلات بين العالمين اللذين عايشهما محمد باشا صوكولو. ففي القسطنطينية، شيّدت له زوجته أسمهان سلطان ابنة السلطان سليم الثاني، إحدى تحف العصر الذهبي في العمارة العثمانية، وهو جامع محمد باشا صوكولو بجوار ساحة الألعاب الرومانية القديمة. وبالقرب من مسقط رأسه في البوسنة، كلَّف الصدر الأعظم نفسه ببناء جسر من إحدى عشرة قنطرة على نهر درينا River Drina، يعد «من أفخم القناطر التي يمكن أن تراها»[26](*).

بعد أربعة وعشرين عاما من الفتح، في العام 1477، جمع قاضي مدينة القسطنطينية إحصاء للسكان بغرض تزويد السلطان بالمعلومات عن المدينة وسكانها. كانت القسطنطينية وغَلَطَة تضمان تسعة آلاف وأربعمائة وستة وثمانين بيتا للمسلمين، وثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثة وأربعين بيتا لليونانيين، وألفا وستمائة وسبعة وأربعين بيتا لليهود، وأربعمائة وأربعة وثلاثين بيتا للأرمن، وثلاثمائة وأربعة وثمانين بيتا للقرمانيين ذوي الطلعة الأرمنية(**)، وثلاثمائة واثنين وثلاثين بيتا للفرنجة (جميعها في غَلَطَة)، ومائتين وسبعة وستين بيتا للمسيحيين من القرم، وواحدا وثلاثين بيتا للغجر. وإجمالا ضمت المدينة زهاء ثمانين ألف ساكن (فيما عدا عبيد الباب). فقد كانت القسطنطينية مدينة تتحدى القومية، وكانت تُستخدم في شوارعها اللغات اليونانية والأرمنية والإيطالية واللغة المشتركة والألبانية والبلغارية(***) والصربية بانتظام، فضلا على العربية والفارسية والتركية.

ونتيجة لكون القسطنطينية العاصمة الوحيدة متعددة القوميات في أوروبا، فقد كانت لها أسماء في لغات متعددة أكثر من أي مدينة أخرى. فقد أحب الصرب

(*) «جسر درينا»: عنوان لواحدة من أشهر الروايات السلافية على الإطلاق للروائي إيفو أندريش، كما كان الجسر الذي بُني كحلقة وصل بين القوميات والأديان مسرحا لعمليات إبادة بحق البوسنيين على أيدي القوات الصربية إبان العقد الأخير من القرن العشرين، حيث كان الضحايا يُلقون في النهر من فوقه. [المترجم].

(**) قرمان Karamania إيالة (ولاية عثمانية يرأسها أمير أمراء) عثمانية في الأناضول، عاصمتها قونية، ضمها محمد الثاني في العام 1468. وكان الاسم قرمان يشير حتى القرن التاسع عشر إلى الساحل الجنوبي للأناضول على البحر الأبيض المتوسط. [المترجم].

(***) ثمة جماعة سلافية أخرى في القسطنطينية، حتى أوائل القرن العشرين، هي الوينوق voynuks أو السيّاس ومربو الصقور البلغاريون الذين كانوا يعملون في الإسطبلات الإمبراطورية. وكانوا يكملون دخلهم بالرقص في الشوارع على صوت مزمار القِربة. انظر:

Nicolas de Nicolay, Dans l'Emptn de Soliman Ie Magnifique, 1989, 185.

والبلغار والروس تساريغراد Tsarigrad التي تعني مدينة القياصرة، وعاش الأرمن في غوسدانتنوبوليس Gosdantnubolis التي تعني مدينة قسطنطين. وفي اللغة اليونانية اليومية يسمونها البوليس polis، أي المدينة، كأنه لا مدينة سواها. وكان اسمها اليوناني الرسمي هو كونستانتينبوليس نيا روما Constantinoupolis Nea Roma [القسطنطينية روما الجديدة] والذي أخذ منه العثمانيون اسمها الذي سجلوه على العملات المعدنية ومعظم الوثائق الرسمية، وهو القسطنطينية Kostantiniyye (وهو أيضا اسمها في اللغة العربية). وفي الكتابات الأدبية العثمانية، تسمى دار السعادة، أو دار الحظ السعيد»، إذ من حسن حظها أن اختارها السلطان مقرا له، أو الأستانة Asithane التي تعني باللغة الفارسية «مقر الدولة». ومع ذلك، فإن اسمها في اللغة التركية الدارجة، حتى من قبل الفتح، كان تحريفا للعبارة اليونانية «إلى المدينة»، eis teen polin، أي إسطنبول.

كانت الرؤوس والأقدام، فضلا على الأسماء، تشي بالطبيعة متعددة القوميات للمدينة. فسكان القسطنطينية، أيا كان دينهم، كانوا عموما يرتدون عباءات بسيطة، تشبه ما يرتديه عرب الخليج اليوم، لكن بألوان داكنة. وفوق العباءة، كانوا يلبسون دلمانا(*) من الحرير أو الكتان، يبطن بالقطن في الشتاء، وزنارا. وكانوا يسخرون من الأوروبيين الغربيين الذين كانوا يفسدون ملابسهم بالزركشة والطيات والفتحات.

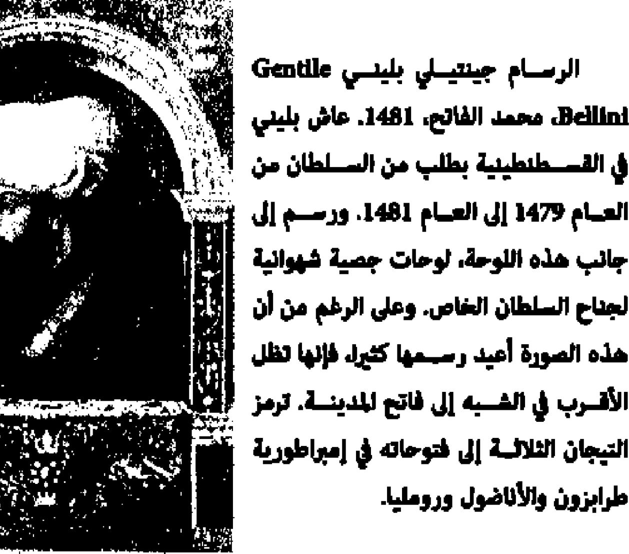
حتى القرن التاسع عشر، وبغرض إظهار السيادة الإسلامية وتشجيع التنافس بين القوميات، فرضت الحكومة العثمانية اختلافات في اللباس بين الجماعات المختلفة. فكان المسلمون وحدهم مسموحا لهم بارتداء العمائم البيضاء أو الخضراء والنعال الصفراء. وكان اليونانيون والأرمن واليهود يُميّزون، على التوالي، بالقبعات الزرقاء السماوية والزرقاء القاتمة (أو الحمراء لاحقا) والصفراء، والنعال السوداء والبنفسجية والزرقاء. وكانت القواعد الحاكمة للباس الأقليات الدينية يعاد التأكيد عليها بانتظام. ففي العام 1580، على سبيل المثال، و«على اعتبار أن حال اليهود والمسيحيين من منظور الشريعة والمنطق يجب أن تكون حال الضِّعة والذل»، فقد حرموا رسميا من «اللبس مثل المسلمين» أو لبس الحرير أو الفراء أو الأحذية الحمراء، وأجبروا بدلا من ذلك على ارتداء الألوان القاتمة أو الزرقاء. وحرموا أيضا في مرسوم بعد آخر من العيش بالقرب من المساجد أو بناء بيوت عالية أو شراء العبيد[27].

(*) الدلمان Dolman: معطف واسع الردنين عند الإبط ضيقهما عند الرسغ. (المترجم).

يكشف تكرار صدور هذه المراسيم أن قواعد اللباس كانت تتعرض كثيرا للخرق، إذ كانت مكانة المسلمين جذابة لدرجة يصعب معها كبت رغبة الأقليات في التشبه بهم. وكان بمقدور الأفراد أيضا أن يشتروا إعفاء من قوانين اللباس. لكن بالنسبة إلى معظم الناس وفي أغلب الأوقات، كان اللباس يعزز الإحساس بالانتماء إلى جماعة معينة. وكانت الاختلافات في الشكل والملامح تعزز الاختلافات في اللباس.

لايزال معظم سكان القسطنطينية يدعون قدرتهم على تمييز ما إذا كان جارهم تركيا أو يونانيا أو يهوديا أو أرمنيا بالنظر فقط. وإبان القرن التاسع عشر، وبعد إبطال قوانين اللباس، كتب كاتب رحالة يدعى إدموندو دي أميتشيس Edmondo de Amicis، أن التركي واليوناني الجالس أحدهما بجانب الآخر، حتى إن كان لباسهما واحدا، يمكن التمييز بينهما بسهولة بجمود الأول وصمته، وتعبيرات الحياة الكثيرة المختلفة في جسم الأخير وعينيه «وهو يهز رأسه» مع حركة حصان مفعم بالحيوية». وإبان القرن الأول للإمبراطورية، كانت الوجوه والإيماءات تكشف التعددية القومية في القسطنطينية بسهولة وجلاء[28].

في العام 1477، وهي سنة التعداد، كان مؤسس هذا العالم المصغر متعدد القوميات، محمد الثاني في عامه الخامس والأربعين من العمر. وقد ذكر غلام في بلاطه، يدعى جيان ماريا أنجيوليلو Gian Maria Angiolello أن السلطان كان «متوسط الطول وبدينا، ذا جبهة عريضة وعينين كبيرتين وحاجبين سميكين وأنف معقوف، وفم صغير ولحية غزيرة مستديرة محمرة، ورقبة ممتلئة قصيرة، وبشرة شاحبة، وكتفين مرتفعين وصوت عال»[29]. وبعد عهد من الفتوح، كان الفاتح في ذلك العمر يرتاح في عاصمته.




الرسام جينتيلي بليني Gentile Bellini، محمد الفاتح، 1481. عاش بليني في القسطنطينية بطلب من السلطان من العام 1479 إلى العام 1481. ورسم إلى جانب هذه اللوحة، لوحات جصية شهوانية لجناح السلطان الخاص. وعلى الرغم من أن هذه الصورة أعيد رسمها كثيرا فإنها تظل الأقرب في الشبه إلى فاتح المدينة. ترمز التيجان الثلاثة إلى فتوحاته في إمبراطورية طرابزون والأناضول وروملبا.

وعلى نحو ما كانت المدينة نفسها، كان محمد الفاتح مُركبا من التناقضات: وحشي ووديع، وقاس ومتسامح، وتقي ولوطي. بنى مدارس وأسواقا بالحماسة نفسها التي أمر بها بالتعذيب وارتكاب المذابح. ونظرا إلى أنه اعتبر نفسه الغازي الأكبر أو مجاهد الإسلام، وكذلك الإسكندر الجديد، فقد كان يقرأ القرآن أو يستمع له، وكذلك شروحات للإنجيل والشعراء الفرس وتواريخ الأباطرة والباباوات وملوك فرنسا وحياة الإسكندر لأريان وهوميروس Homer وهيرودوت Herodotus وليفي Livy وزينوفون Xenophon[30]. وتعامل مع اللغة باعتبارها وسيلة للتواصل، وليس وسيلة للهيمنة. فعلى الرغم من أن محمد الثاني لا يقارن بالعدو اللدود للإمبراطورية العثمانية الإمبراطور كارلوس الخامس الذي قيل إنه كان يتحدث الإسبانية مع الرب والفرنسية مع النبلاء والإيطالية مع السيدات والألمانية مع حصانه، فإن محمدا كان يتحدث التركية والفارسية والعربية، وكان بالتأكيد يمتلك بعض المعرفة باللغة اليونانية والصربية - الكرواتية. وفي قصائده يسمي نفسه عوني Avni أي المُعِين، وليس الفاتح. وقد ألف البيتين التاليين اللذين طبعا الشعر العثماني من بعده:

صُبَّ لي بعض الخمر يا ساقي، لأن حديقة الزنبق ستبيد يوما ما
إذ سرعان ما سيأتي الخريف ويتوارى فصل الربيع!

وعلى الرغم من أنه كان يكتب ويحكم باللغة التركية، فقد كان يقدر الثقافة الفارسية التي تمتعت في العالم الإسلامي بشيء من المكانة التي كانت للثقافة الفرنسية في أوروبا إبان القرن الثامن عشر. وثمة لغة أخرى أضيفت إلى التنوع اللغوي للمدينة. كان من بين العلماء الفرس الذين جذبهم السلطان إلى القسطنطينية آخر علماء الفلك الإسلامي العظماء إبان القرون الوسطى علي القوشجي السمرقندي(*) الذي درَّس في المدرسة الملحقة بآيا صوفيا. وحين اكتشف محمد الثاني شاعرا آخر من أصل تركي، على الرغم من تعليمه الفارسي هو الآخر، سحب الكنيسة اليونانية الخربة التي سبق أن منحها للسمرقندي كعلامة على الحظوة[31].

كانت الثقافة الفارسية عميقة التأثير لدرجة أن لغة القصر والنخبة الحاكمة، المعروفة باسم العثمانية، على الرغم من أنها تركية في تركيبها، كانت جزئيا فارسية -

(*) هو علاء الدين علي بن محمد القوشجي السمرقندي: عالم فلك ورياضيات وفقيه حنفي، كان أبوه من خدام ألغ بك ملك بلاد ما وراء النهر، أسهم في بناء مرصد ألغ بك وجامعة صحن السلطان. [المترجم].

وعربية - في مفرداتها، ومن ذلك أنه في العقد الثالث من القرن العشرين، كان 57 في المائة فقط من الكلمات في المعجم من أصل تركي. تسببت تعقيدات المفردات وبناء الجملة في جعل اللغة العثمانية أحد العوائق الأساسية أمام انتشار معرفة القراءة والكتابة والتواصل مع العالم الخارجي. ففي تعارض مع التركية البسيطة المتداولة في الشارع، انتشرت تعبيرات مزخرفة. فحين مات خطّاط مشهور، على سبيل المثال، قيل إن «نقاط مخطوطاته تحوّلت إلى شامات على خدود حوريات الجنة». لكن ظهر بضعة متمردين، منهم شاعر القرن السادس عشر يحيى بيه Yahya Bey الذي رفض أن يكون «ترجمان الفرس» أو أن «يترمم على أموات الفرس»، وأخذ يكتب بلغة تركية قوية، مع أنه لم يكن تركيا، وإنما انكشاري فخور بأصله الألباني[32].

رعى محمد الثاني الدارسين وعلماء الدين المسلمين، وقام بزيارات مفاجئة كثيرة إلى الكلية التي أنشأها بجانب جامعه لسماع المحاضرات واختبار المعلمين والتلاميذ. لكنه مع ذلك كان تلميذا للفلسفة الإغريقية، والراعي الأكبر الوحيد لوسام عصر النهضة الإيطالي، وأول حاكم مسلم يقدّر الفنانين الإيطاليين. كان من بين الفنانين الذين استضافهم في القسطنطينية واستعملهم ماتيو دي باستي Matteo de' Pasti من ريميني Rimini والموسيقار باولي Paoli من دوبروفنيك Dubrovnik وصانع الأوسمة كوستانزو دا فيرارا Constanzo da Ferrara [33].

وفي السنوات الأخيرة من عهده، كانت القسطنطينية ديبلوماسيا وتجاريا وثقافيا جزءا من أوروبا. وفي العام 1479، وبعد ستة عشر عاما من الحرب، توصل محمد الثاني إلى سلام مع البندقية. وفي شهر سبتمبر، وردا على طلب السلطان «رسام جيد»، جاء الفنان الرسمي للدوج المدعو جينتيلي بليني إلى القسطنطينية وقدمه سفير البندقية إلى السلطان. والرسام الذي أمضى خمسة أعوام سابقة في إعادة رسم قاعة المجلس الكبير بقصر الدوج، أمضى السنة وربع السنة التالية في رسم صور لمحمد الثاني وبلاطه واللوحات الجصية الشهوانية «للغرف الداخلية» بالقصر الذي كان السلطان يبنيه في أقصى شرق القسطنطينية.

وبحلول العام 1481، كان السلطان قد وهنت قواه وخارت، مع أنه كان لايزال في الثامنة والأربعين من عمره فقط. في تلك السنة، لم يكن وزراؤه أنفسهم يعرفون البلد الذي كان السلطان ينوي غزوه، حين مات بسبب انسداد الأمعاء، وهو يقود جيشه

شرق القسـطنطينية إلى آسـيا. ثمة ظروف صاحبت احتضاره تعزز الشكوك في أنه مات بالسم، ربما بمساعدة طبيبه الفارسي اللاري al - Lari لمصلحة ابنه بايزيد الثاني[34].

تـرك موت محمد الثاني عاصمته على مفترق طرق، كأن المدينة كانت في تجربة كيميائيـة تحتوي عناصر متباينة يمكـن أن تنتج اتحادا أو احتراقـا. فنظريا، كانت المدينـة عاصمة عائلية متعـددة القوميات، وعمليا اسـتحثت نزاعات بين القومية والإمبراطورية، والطموح والواقعية، وحب المدينة والرغبة في تغييرها أو هجرها.

كانت القسـطنطينية، بسـكانها اليونانيـين وماضيها البيزنطـي، اختيارا خلافيا كعاصمة عثمانية. ومع أن كريتوفولوس تغنى ثناء بالفاتح، فقد سخط بعض الأتراك، خاصة المرتبطين بالعاصمة السـابقة إدرنة على سياسات التهجير التي اتبعها الفاتح معهم. وعلى الرغم من وعود السلطان الأولى بتمليك العقارات للمهاجرين من دون مقابل، فقد أُجبر الأتراك في بعض الأحيان على دفع إيجار للسلطان أو حتى للمالكين اليونانيـين الأصليين. وقد أغضبهم ذلك: «لقد أجبرتنا عـلى ترك بيوتنا القديمة التي كنـا نملكها. هل أتيت بنا إلى هنا لكي ندفع إيجـارا لبيوت الكفار؟»، وهجر البعض أسرهـم وهربوا من المدينة. ووجهت انتقادات كثيرة إلى السـلطان وصدره الأعظم يوناني الأصل محمد باشا:

إذا كان السلطان متقلبا في قراراته،
فإن بلاده ستتكبد العناء دوما.
وإذا كان صدره الأعظم كافرا،
فإنه سيسعى دوما للإضرار بدين الله الحق.

وفي النهاية، اشـتد الاحتجاج حتى اضطر محمد الثاني لإصدار شهادات ممهورة بعلامة الطغراء (رمز السلطان)(*) تعفي الأتراك من دفع الإيجار.

كانت كوزموبوليتانية بلاط الفاتح مصدرا آخر للسخط. وفي ذلك كتب أحد الشعراء:

إذا أردت أن تكون صاحب حظوة على عتبة السلطان،
فلا بد أن تكون يهوديا أو فارسيا أو فرنجيا.

(*) الطغراء tughra: ختم باسـم السـلطان على هيئـة توقيع بخط اليد، مزيج من الخـط الديواني والإجازة، اسـتعمله السـلاطين العثمانيون في توقيع الفرمانات والرسائل السـلطانية، كان السلطان أروخان غازي أول من استعمله. [المترجم].

وبالنسبة إلى المؤرخين المجهولين الذين كتبوا باللغة التركية اليومية البسيطة، كانت القسطنطينية «جزيرة العذاب والضيق، واجتماع النكبات، ومصدر الفشل والبطلان». ويجب ترك المدينة الملعونة خربة إلى يوم الدين. ويجب أن تعود العاصمة إلى إدرنة[35].

وإلى جانب المتذمرين الأتراك، فرضت الدولة العثمانية نفسها تهديدا على مستقبل العاصمة. ففي ظل عدم وجود جمعيات تمثيلية أو طبقة نبلاء وراثية قوية، تركزت القوة في أيدي عبيد الباب. وكما قال جوفينال حول حرس إمبراطوري آخر، هو الحرس البريتوري للإمبراطورية الرومانية، فمن ذا الذي يحمي من الحرس أنفسهم؟[*] فقد ينادي السلطان انكشاريته في وجوههم بالقول «يا حملاني الوديعة»، وهو يعرف أفضل من غيره أنهم ذئاب مفترسة. وفي العام 1451، غرتهم قوتهم حتى صاحوا في السلطان: هذه أول حملة لسلطاننا، ويجب أن يكافئنا بالعلاوة المعتادة»[36]. وكانوا يتذمرون كثيرا من سياساته. لكن ما الذي منع هذه الماكينة العسكرية الفريدة من الإطاحة بالسلطان كلما أرادت، أو حتى الاستيلاء على السلطة من العائلة كما فعل الحراس العبيد الآخرون في البلدان الإسلامية الأخرى، مثل بغداد والقاهرة؟

لم يكن الأتراك الشعب الوحيد الذي استاء من القسطنطينية العثمانية. فسياسة السلطان الموالية لليونانيين استندت إلى مقامرة، ذلك أن قوة الإمبراطورية العثمانية والأرباح الناتجة عن منطقتها التجارية المستقرة والشاسعة كان من شأنها أن تجعل المسيحيين راضين بوضعية «الرعايا» التي يجزها الراعي العثماني.

لقد بالغ المؤرخون الملوثون بلوثة القومية التي تفشت منذ العام 1830، في تصوير مداها وقوتها. والحقيقة في الإمبراطورية هي أنه كما جمعت العائلة العثمانية سمات إسلامية وتركية وأوروبية، جمع كثير من رعاياها أيضا عدة هويات. فقد كان من الممكن أن يشعر الفرد بأنه يوناني (أو عربي أو يهودي أو صربي) وعثماني في الوقت نفسه. وظل بعض اليونانيين أشد عداء للغرب منهم للعثمانيين، على أساس أن «عمامة السلطان أفضل من قبعة الكاردينال». كان من هؤلاء مانويل باليولوجو ابن أخي الإمبراطور الأخير الذي عاد إلى القسطنطينية من إيطاليا في العام 1477 ومُنِح ضيعة، واعتنق

(*) عبارة أو سؤال «من ذا الذي يحمي من الحرس أنفسهم؟» quis custodiet tpsos custodies: عبارة لاتينية تنسب عادة إلى الشاعر الروماني جوفينال Juvenal من عمله «الهجاء»، وتشير إلى معضلة ضمان ولاء الحرس المسؤولين عن تأمين الولاء للحاكم. [المترجم].

أحـد أبنائه الإسـلام، وظل الآخر يونانيا(*). وبعد قرن قال زائـر ألماني إن اليونانيين «لا يريدون أحدا يحكمهم غير الأتراك، ولا حتى من المسـيحيين»[37]. ومع ذلك، فقد نظر يونانيـون آخرون إلى الإمبراطورية العثمانيـة على أنها دولة أجنبية وقمعية. من هؤلاء البطريرك جناديوس نفسه الذي أعلن امتنانه للفاتح واعترف بأن بعض العثمانيين كانوا أكثر دعما لسياسـاته من رجال الدين التابعين له، لكنه في جلسـاته الخاصة كان يصف الأتراك بأنهم «كلاب هاجر الدمويون(**)» و«الدخلاء». فعلاقته بالسلطان كانت تنبع من الضرورة، وليس الولاء.

وإذا كان الشـخص الذي عيّنه السـلطان شـخصيا يكنّ للعثمانيين هذا الحقد كله، فليس من الصعب تخيل مشاعر اليونانيين الأقل حظوة. ففي صلوات الكنيسة في القسـطنطينية، كانـوا يلعنون الأتـراك دائما بأنهم «كفـار» و«ملعونون». ومن النعـوت الألطـف التي منحها المـؤرخ دوكاس الكـورفي Ducas of Corfu(***) لمحمد الثاني أنه «البهيم الوحشي... نذير المسيخ الدجال». فقد كانت صدمة سقوط القسـطنطينية مدوّخة، لدرجة أن اليونانيين كانوا حتـى وقت قريب يعتبرون يوم الثلاثـاء - الذي سـقطت فيه المدينة - يوم نحس. وآمـن كثير من اليونانيين ببعث الإمبراطورية البيزنطية، تماما كما آمنوا ببعث السيد المسيح.

ومنـذ اليوم الذي فتح فيه العثمانيون المدينة، ظهرت نبوءات طردهم. فقد قوطع كاهن كان يقيم القداس في هاغيا صوفيا بسـبب وصـول «الكلاب التركية»، فتخفى في شكل عمود مرمري بالكنيسة انتظارا لعودة اليونانيين، وحينها سيخرج من مخبأه بوجه متألق وفي يده كأس ويصعد خطوات المذبح الأسـاسي، ويستأنف القداس الذي قوطع يوم الغزو. والإمبراطور الأخير نفسـه لم يمت، بل تحول إلى مرمر وأخذ ينام في كهف في باطـن الأرض تحت الباب الذهبي Golden Gate للمدينة الذي كان النقطة التقليدية لدخـول الأباطرة المنتصرين منذ أن بناه ثيودوسـيوس الأكبر في نحو العام 390، والذي

(*) لاحظ الخلط الحادث في ذلك الزمن بين دين المرء وقوميته، فحين يعتنق اليوناني الإسلام يصير تركيا، وحين يظل على مسيحيته يظل يونانيا. [المترجم].

(**) دأبـت الكتابـات الغربية المعادية للإسـلام في العصور الوسـطى والعصر الحديث المبكـر على نعت العرب والمسـلمين بالهاجريين Hagrites أو Hagarite أحفاد «الجارية» هاجر التي حُرم نسـلها من النبوة التي قُصرت في أبناء سارة، مع أن إسماعيل ابن هاجر نبي في الإسلام. [المترجم].

(***) نسـبة إلى جزيرة كورفو اليونانية الواقعة في البحر الأيوني في شـمال غرب اليونان بالقرب من سواحل ألبانيا. [المترجم].

دخل منه ميخائيل باليولوجو في العام 1261(*). فيوما ما، سيسمع الإمبراطور نداء من السماء، «ويعطيه أحد الملائكة سيفا ويعيده إلى الحياة ويمكنه من طرد الأتراك بعيدا، حتى التفاحة الحمراء على التخوم الفارسية»، بالتحالف مع شعب أشقر الشعر من الشمال[38]. بالنسبة إلى الأتراك، كانت التفاحة الحمراء ترمز إلى القوة التركية، فيما كانت ترمز بالنسبة إلى اليونانيين إلى قرب الهزيمة التركية.

تمتعت القسطنطينية بذاكرة تاريخية استثنائية جدا. وحتى القرن الحالي، ساعدت أمثال هذه الأساطير المألوفة لكل اليونانيين في إلهاب أحلام اليونانيين بالإمبراطورية. ففي حضور الأتراك، وفي جامع آيا صوفيا نفسه، كان المرشدون اليونانيون يحكون لزوار أجانب متعاطفين أسطورة القداس الذي قوطع. ومن جانبهم، رد العثمانيون، مدفوعين بخرافات كثيرة مماثلة حول غزو مسيحي وشيك لهم أو ثورة مسيحية عليهم، ببناء حائط حول الباب الذهبي للمدينة[39].

كان للقسطنطينية العثمانية أعداء خارجيون وداخليون. ففي فلورنسا والبندقية وروما (التي عيّن البابا فيها اليوناني المؤيد للغرب الكاردينال بساريون Bessarion بطريركا للقسطنطينية في العام 1463)، ظل المنفيون اليونانيون من «المدينة» يحثون القوى الغربية على شن حملة صليبية على العثمانيين، وظلوا يؤمّنون الدعم اليوناني لها. كان من هؤلاء يانوس لاسكاريس Janus Lascaris الذي ولد في القسطنطينية في نحو العام 1445، وقضى معظم حياته المهنية معلما للغة اليونانية في فلورنسا والبندقية، يحث الملوك المسيحيين والبابا والإمبراطور الروماني المقدس وملك فرنسا على توجيه حملة صليبية على الإمبراطورية العثمانية[40]. وقد تمنى كثير من البنادقة والجنويين استرداد المدينة التي كانت لهم في أثناء الحملة الصليبية الرابعة في العام 1204. فما أسماه رجال الدولة إبان القرن التاسع عشر «المسألة الشرقية» التي تشير إلى مخطط القوى الأوروبية لغزو الأراضي العثمانية، بدأت في العام 1453.

كان السلطان يتحسب من الأعداء الأقوياء وعاقدي العزم - المجر والنمسا والبندقية - الذين كانوا يحيطون بإمبراطوريته. وقد تذكر جندي صربي في خدمة السلطان أنه حين كان يثار كلام حول قيادة البابا لحملة صليبية أوروبية، «كان

(*) استرد ميخائيل باليولوجو القسطنطينية من اللاتين الذين استولوا عليها في الحملة الصليبية الرابعة في العام 1261، وأسس عائلة باليولوجو وأعاد الإمبراطورية البيزنطية وضم إليها إمبراطورية نيقية. [المترجم].

الإمبراطــور [محمد الثــاني] يخشى من أن تثــور عليه كل الأراضي المســيحية التي فتحهــا». ومع أن محاولات البابا لم تثمر شــيئا، فإن التهديد مــن ملك المجر أقلق السلطان، ما اضطره في العام 1473، حين كان ينفذ حملة في الشرق، إلى أن يستخدم عشرة آلاف عامل لتقوية أسوار العاصمة[41].

كانت أوروبا الغربية تمتلك طابورا خامسا ممكنا في القسطنطينية ممثلا في المستعمرة الأوروبية في غَلَطَة والديبلوماسيين الأوروبيين. كان هؤلاء مصدرا للمعلومات والربح للدولة العليّة، وكذلك مصدرا للدسائس. ففي غضون أيام من دخول السلطان إلى القسطنطينية، كتب الممثل الجنوي السابق من غَلَطَة إلى جنوى أنه يتمنى أن «تكون القسطنطينية بداية انهياره». كما نفذت البندقية أربع عشرة محاولة لتسميم السلطان[42].

وهكــذا، فمنذ اللحظة التي أصبحت القســطنطينية فيها عاصمة الإمبراطورية العثمانية، كانت مدينة متنافسا عليها. فهذا العالم المصغر للإمبراطورية لم يكن ولاء سكانه الأتراك واليونانيين والأرمن واليهود والإيطاليين خالصا له. فقد كانت عاصمة الفاتح إما مكانا للالتقاء بين هؤلاء أو ساحة للحرب بينهم.

2

مدينة الله

«يخلق الفن الحقيقي مدينة مجيدة، ويملأ قلوب الناس بالهناء».

محمد الثاني، استهلال أعمال تأسيس جامع الفاتح

فرض الإسلام نفسه تحديا على العاصمة العثمانية. فالإسلام ديانة ذات مضامين ثورية. والحكام فيه لا يحوزون الشرعية إلا إذا فرضوا الشريعة، وهي القانون الإلهي للإسلام المستند إلى نصوص القرآن. وكان الناس يعتبرون الشريعة أعلى من الدولة، وليس أحد منتَجاتها. وفي ذلك يمكن القول إن الحكمة الفرنسية «من أراد الملك، فعليه بالقانون» (Si veut le roi, si veut la loi) كانت غير واردة في الإمبراطورية العثمانية. وقد تميّز تاريخ المدينة كله بالنزاع بين الحكم الأسري والإسلام.

«كانت المساجد العثمانية تأكيدا للسلطة، إذ كانت بمنزلة إعلان عن حق السلطان في الحكم بصفته ظل الله على الأرض».

كان جيــش الســلطان الذي حاصر المدينة يضم بين جنــوده صربا ومجريين مســيحيين. ومع ذلك فقد كان الكثيرون من جنود الســلطان يعتبرون أنفســهم غزاة، أي محاربين مقدسين تواقين إلى النصر أو «رحيق الشهادة». وحين ننظر إلى ســقوط القسطنطينية الآن بعد اكتمال الحدث، نجد أنه صُوّر كمعجزة إسلامية. فقد قاتل في جيوش الســلطان علماء الديــن بعباءاتهم البيضاء بقيادة أعلى عالم مســلم وهو الخِضر أو «الرجل الأخضر»(*) أو إلياس المسلمين(**). حتى الكهنة اليونانيــون الذين انســحقوا أمام حجة الإســلام، تقاطروا خارجــين من المدينة لينضموا إلى صفوف المسلمين[1].

لاحقــا، اعترض بعض الدراويش المســلمين(***) على محمــد الثاني أن فتح المدينــة كان انتصارهــم، وليس انتصاره. وكــما هي الحــال في الجزائر أو مصر الحديثتين، كان الســخط الاجتماعي والســياسي في القسطنطينية يعبر عن نفسه من خلال الإســلام. من دلائل ذلك أن الفيلسوف والكاتب السياسي العثماني إبان القرن السادس عشر مصطفى علي شجب الوعاظ الذين «جمعوا حولهم حشودا من الرعاع البلهاء... وأخذت ألســنتهم تطول بوقاحة وبكلام فارغ سلوك خليفة الله وكلامه، ونظام الملك، وكذلك سلوك رجال الدولة الإمبراطوريين وأفعالهم».

كــما أرجع العثمانيــون غلبتهم إلى النجاح العســكري. فعــلى خلاف الأسر الإســلامية الأخرى، مثــل الأشراف وهم أحفاد النبي الذيــن كان لهم حكم مكة والمدينــة المنــورة منذ القرن العــاشر، لم يكن بمقدور العثمانيــين أن يدعوا حقا ثابتا أو نســبا إلى قبيلة قريش التي ينتمي إليها النبي محمد. وقد تســبب هذا «النقص في الشرعية» في نشــوب نزاعات حتى داخل عقــل الصدر الأعظم إبان

(*) ربما بســبب إجلال الإســلام التركي العثماني أو الطرق الصوفيــة للرجل الصالح «الخضر» الــذي اتخذوه «وليا» ومصدرا للإلهام، أو لأن شيخ الإسلام، وهو أكبر علماء الدين المسلمين، الذي سمي أولا قاضي عسكر ثم قاضي القضاة ثم شيخ الإسلام، كان يرتدي عباءة خضراء، ربما أيضا تشبها بالخضر «الذي أوتي الحكمة».[المترجم].

(**) إلياس أو إيليا أحد أنبياء اليهود ذكر في التناخ وفي القرآن، كان في الكتاب المقدس كثير المعجزات، وتشبيه شيخ الإسلام به ربما ناتج عن تجوال الأول عبر البراري لدعوة الناس إلى الدين الحق. سيأتي في حاشية لاحقة أن مِنْ المسلمين من يعتقدون أن الخضِر وإلياس شخص واحد وأنهما لايزالان حيين إلى الآن.[المترجم].

(***) الدرويش هو السائر على «طريقة» الزهد والتقشف في الإسلام، الذي يعيش على إحسان الناس زهدا منه في امتــلاك عــرض الدنيا، وأمثال هذه الطرق الصوفية كانت - ولاتزال - تطبع الإســلام الــتركي، وربما منه انتقلت إلى المسلمين غير الأتراك، ومنهم العرب.[المترجم].

القرن السادس عشر لطفي باشا[2](*). هل كان من حق السلطان العثماني أن يكون «ظل الله» كما كان يلقب نفسه؟

وتمثل الحل العثماني في توثيق الروابط بين الإسلام والأسرة الحاكمة، فكان السلاطين العثمانيون مسلمين أتقياء يحاولون إنفاذ شريعة الله. وكانوا أيضا أمراء وحكاما، شأنهم في ذلك شأن الأباطرة الهابسبرغيين وقياصرة روسيا، استخدموا الدين أداة للسيطرة على رعاياهم. حتى خطبة محمد الثاني ذات اللغة الإسلامية الحماسية لجيشه قبل الفتح، كانت خطابا عائليا بلا مواربة: «إن الغزو هو واجبنا الأساسي، كما كان بالنسبة إلى آبائنا. والقسطنطينية التي تقع في منتصف ممتلكاتنا، تؤوي أعداء دولتنا (كان منهم مسلم هو عمه أورخان Orhan) وتحرضهم علينا. لذلك يعد فتح هذه المدينة ضرورة لمستقبل الدولة العثمانية وسلامتها».

كشفت العمارة عن توقير الأسرة الحاكمة للإسلام. فكان من أشهر البنايات التي شيّدها محمد الثاني مسجدا بُدئ فيه في نحو العام 1459، على قمة القرن الذهبي، في المكان الذي ادعى المرشد الروحي المبجل للسلطان آق شمس الدين(**) أنه عثر فيه على قبر الصحابي أبي أيوب الأنصاري الذي مات في أثناء حصار الجيش العربي للقسطنطينية في العام 669(***). وقد وفر هذا الاكتشاف المواتي رابطا عاطفيا بين العاصمة الجديدة والنبي محمد.

(*) لطفي باشا (Lutfi Pasha) ابن عبدالمعين الألباني (توفي نحو العام 1562) من وزراء الدولة العثمانية، تعلم العلم الديني في عهد بايزيد الثاني، وكتب شرحا لأربعين حديثا جمعها بعنوان «الكنوز في حل الرموز» وكتاب «خلاص الأمة في معرفة الأئمة»، تزوج من شاه سلطان أخت السلطان سليمان القانوني، وشغل منصب الصدر الأعظم من 13 يوليو 1539 إلى أبريل 1541.[المترجم].

(**) آق شمس الدين (Akshemseddin) عالم دين تركماني من أبناء سورية، كان أحد معلمي الأمير محمد الفاتح، وشاركه فتح القسطنطينية، كان من مبلغ تأثيره في شخصية محمد الفاتح وطموحه أن لقبه بعضهم باسم «الفاتح المعنوي» في مقابل «الفاتح بالسيف».[المترجم].

(***) سُمي المسجد «أيوب سلطان» على اسم الصحابي أبي أيوب الذي تقول رواية إنه كان في جيش يزيد بن معاوية القاصد فتح القسطنطينية في زمن خلافة معاوية، وأنه حين دخل في مرض الموت، جاءه يزيد يعوده وسأله: «ما حاجتك؟»، فأجاب: «حاجتي إذا أنا متُّ، فاركب، ثم سغ في أرض العدو ما وجدت مساغا، فإذا لم تجد، فادفني ثم ارجع». ولما توفي فعل به الجيش ما أراد، ودفنوه بالقرب من القسطنطينية، وأمر يزيد بالخيل، فأخذت تقبل وتدبر على قبره، حتى عفا أثر القبر. ويقال إن الروم حين علموا بدفن أبي أيوب في أرضهم، قال لهم المسلمون: «هذا رجل من أكابر صحابة نبينا وأقدمهم إسلاما، وقد دفناه حيث رأيتم، ووالله لئن نُبش، لا ضُرب لكم بناقوس في أرض العرب ما كانت لنا مملكة». ويقال إن الروم يستسقون بقبره إذا عز المطر.[المترجم].

توافد الحجاج لزيارة القبر في الفناء الذي أحيط بحاجز من الفضة وشمعدانات مطلية بالذهب ومصاحف مفتوحة. كتب سفير مغربي بعد زيارة له إلى القسطنطينية في العام 1591:

> تتدافع حشود من الزوار بلا انقطاع حول القبر. ويتنافس نبلاء الإمبراطورية على أماكن الدفن المتاحة بالقرب منه، ويشترون هناك قطع أرض صغيرة بأعلى الأثمان. ولا يدخر أخيار الناس، حتى أفقرهم، وسعا للحصول على مكان لهم بجانب هذا القبر. وقد زرنا هذا الصحابي الجليل، ونالنا من رحيقه. ومن خلال وساطته - نسأل الله أن يتقبلها! - وجهنا دعاءنا وصلاتنا إلى الله[3].

أصبح أبو أيوب راعي القسطنطينية العثمانية(*). ولم يكن مسموحا لغير المسلمين بأن يفتحوا دكاكين في هذه المنطقة المقدسة. واليوم، تعد المنطقة المحيطة بقبره والتي تحمل اسمه - «أيوب» - من أقدس المواقع الإسلامية في تركيا. وفي شهر رمضان تحديدا، يتجلى اختلاف هذه المنطقة عن بقية المدينة. ومسجد أيوب المحاط بالجبّانات وصفوف الأضرحة المرمرية، يظل مفتوحا أمام حشود المؤمنين حتى وقت متأخر من الليل.

ومن خلال تقديس الصحابي أبي أيوب، غدت القسطنطينية مدينة إسلامية مقدسة. وسُكَّ اسم إسلامي للمدينة، ربما سكّه محمد الثاني نفسه، هو «إسلامبول» (Islambol) الذي يعني «حيث يسود الإسلام»[4]. وشيّد الفاتح مسجدا آخر بين العامين 1463 و1470 في وسط القسطنطينية في مكان كنيسة الرسل المقدسين، وباتخاذ أنقاضها مواد للبناء. وهذا المسجد الذي سُمي «الفاتح» على اسم السلطان نفسه، يكشف عن رؤية السلطان لعاصمته، وهو في هذه المهمة لا يقل في شيء عن قلعة الأبراج السبعة. كانت المساجد التي بناها العثمانيون في بورصة وإدرنة متواضعة نسبيا، وتكشف زخرفتها عن تأثير سلجوقي وفارسي قوي. أما العاصمة الجديدة، فقد كانت في حاجة إلى أسلوب أكثر جرأة وبروزا، وفي ذلك كان جامع الفاتح المشروع المعماري الأكثر طُموحا على الإطلاق بين أعمال العثمانيين

(*) الراعي أو النصير أو الحامي على عادة الفكر الديني المسيحي، مثل القديس جيمس الكبير، أو يعقوب بن زبدي كما يسمى في المصادر العربية، الذي اتخذ ضريحه في سانتياغو دي كومبوستيلا (Santiago de Compostela) أو شنت ياقوب كما أسماها العرب، بمنطقة جليقية بشمال غرب إسبانيا مقصدا للحجيج المسيحيين، وبالمثل اتخذته الإمبراطورية الإسبانية الهابسبرغية راعيا وحاميا لها.[المترجم].

ومعماريهم الشـهير «عتيق سـنان» (الذي أعدم لاحقا بأوامر سيده(*)) الذي ربما كان من أصول مسـيحية. وعلى غرار جامع آيا صوفيـا الذي أريد بجامع الفاتح أن ينافسـه، تُوِّج الأخير بسلسـلة من القباب المطلية بالرصـاص تنتهي إلى أضخم قبة بينها جميعا، وهي أكبر ما شيّده العثمانيون على الإطلاق. وبعد أن أعيد بناء الجامع وفقـا لتصميمه الأصلي، بعد زلزال العام 1766، غدا مكانا يفيض بشـعور التواضع المادي والديني على المتعبدين بداخله. فشـبَّه مؤرخ الفاتح ومعاصره طورسون بك الجامع مـن الداخل بـ «معجزة العليقة المشـتعلة»(**). كما شـبَّهه كاتب القرن السابع عشر العظيم أوليا جلبي Evliya Celebi، الذي غدت أوصافه للقسطنطينية والإمبراطورية من الكلاسيكيات، بـ «قبة السماء».

يصطف في الفناء المربع ذي الأبواب الثمانية وفي سـعة المسـجد نفسـه، صف من الأعمدة في وسـطها نافورة. وعلى لوح أبيض من المرمر بداخل المدخل الأساسي للمسـجد نُقِش حديـث نبوي بحروف من ذهب، سـبق أن اقتبسـه الفاتح وهو يخاطب جنوده قبل الهجوم النهائي على المدينة، يكشـف أن شـهرة القسطنطينية وصلت إلى النبي نفسه: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»!

وعلى الجانب الآخر من المسـجد، يوجد ضريح مقبب ثماني الأضلاع يحوي القبر الحجري البسيط للفاتح، مغطى بقماش أخضر، وعلى أحد طرفيه عمامة بيضاء. وقد تحول هذا القبر الذي يحرسـه الشـيوخ الدينيون ليلا ونهارا إلى مقصد للحج. وصار أهل القسطنطينية يؤمنون بأن شفاعة الفاتح تضيف قوة إلى الأدعية التي يقولونها وهم يمسون على نوافذ الضريح. وظل السلاطين اللاحقون يتمنون أن ينالوا حظا من شجاعته وحماسته من خلال زيارة قبره[5].

(*) المعماري عتيق سـنان Old Sinan (بالتركية Atik Sinan) أو سـنان الأكبر تمييزا له عن رائد العمارة العثمانية سـنان باشـا أو معمار باشا أو خوجة باشا. يُروى أن السلطان محمد الفاتح بعد أن أكمل عتيق سنان بناء الجامع، لم يعجبـه بنـاء الجامع، وبالأخص قبته التي أراد لها أن تكون أكبر من قبة آيا صوفيا، وأمر بقطع يد سـنان، لكن رواية إعدامه غير متواترة.[المترجم].

(**) في سـفر الخـروج بالتـوراة، تجلى الله لموسى في هيئة نـار: «وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسـط عليقـة، فنظر وإذا العليقـة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق» (تكويـن، 3-2)، وكلفه بالخروج بالإسرائيليين من مصر إلى أرض كنعان. والتشبيه من جانب المؤرخ العثماني ربما يؤكد البهاء والإشراق الإلهيين اللذين ينبعثان من الجامع.[المترجم].

كان جامـع الفاتح بؤرة حياة المدينة. وكما هي الحال في كل المسـاجد الأخرى، تمثلت الوظيفة الأساسـية لمسجد الفاتح في كونه مكانا طاهرا وبسيطا للعبادة. وفي أوقـات صلاة الجماعة المعلومة، كان الرجال بعـد أن يتوضأوا على النافورة الكائنة خـارج المسـجد، يخلعون نعالهـم ويصطفون في المسـجد بأعداد غفـيرة يركعون ويسـجدون وينهضون ذاكرين اسم الله بصوت مسموع، أو يستمعون إلى الخطب. وفي غـير أوقات الصلاة، كان المسـجد يكتظ بأفـراد يصلون أو يقـرأون القرآن[6]. في الغـرب، جمعت الكنائـس أدوار المسرح والنادي والسـوق، وكان من الوارد أن تجدها غير نظيفة. فكانت كاتدرائية القديس بول في لندن، على سـبيل المثال، تعج بالمومسـات والتجار والعمال الذين ينتظرون من يستأجرهم. أما في القسطنطينية، كما كتب مسـيحي مذهول، فـ «لم يكن أحدهم يتسـكع أو يتمشى في أي كنيسـة (مسجد)، ولا أحد يثرثر مع غيره، ولا يسمع فيها شيء غير صلاة متلهفة»[7].

وكانت المسـاجد تسـتخدم للتعليم فضلا على الصلاة. وعـلى جانبي جامع الفاتح، كانت توجد مجموعتان من ثماني مدارس أو كليات كثيرة القباب، بارتفاع طابق واحد أو اثنين، تسـميان- أي المجموعتين- باسـمي البحر الأسـود والبحر الأبيض المتوسـط على التوالي، كانت توفر الطعام والسكن والتدريس لنحو ألف طالب. واليوم تعد المؤسسة الأكاديمية الإسلامية العليا في الإمبراطورية التي كانت الروضة لأجيال من القضاة وعلماء الدين (الرجال المتعلمين الذين كانوا يقومون على أمر المسـاجد والنظام القانوني) المعروفة باسم مدرسة الفاتح، سلف جامعة إسـطنبول، حتى إن بعض أبنية المدرسـة كانت تسـتخدم لإسـكان طلاب هذه الجامعة. عملت المدرسـة التي أُهديت إليها مكتبة مكوّنة من ألف وسـبعمائة وسـبعين كتابا، منها ثمانمائة وتسـعة وثلاثون كتابا تبرع بها الفاتح نفسـه، على تقديم تعليم إسلامي تقليدي، يقوم على العلوم العشرة: النحو والصرف والمنطق والفلسفة المدرسية والعلوم الإنسانية والتعبير والشرح والبيان والهندسة والفلك. وكان الطـلاب الناجحـون يصبحون أئمة أو معلمين في المسـاجد، أمـا إذا تابعوا دراسـات أعلى في الفقه أو البلاغة أو الحديث الشريف أو العقيدة أو التفسـير، فقد كان يفتح أمامهم الطريق لكي يصبحوا قضاة، إما في القسـطنطينية وإما في المدن الأخرى في الإمبراطورية.

وحول جامع الفاتح، بنى السلطان أيضا مزيدا من المُجمّعات المقببة المنظمة كما لو كانت جيشا في حالة استعراض. ضمت هذه المُجمّعات تكية للدراويش، وخانا أو نزلا للمسافرين، ومستشفى يقدم للمرضى وجبتين يوما (كان طائرا الحجَل والدراج موجودين دائما ضمن قائمة الطعام) وموسيقى لتهدئة المرضى والمجانين، وعمارة(*) أي مطعم الفقراء الذي كان يوزع الطعام على الفقراء، وحمّاما. كان أكثر من ألف شخص يحصلون يوميا على وجبتين من عمارة الفاتح. وقد نُسِخ مُجمّع الفاتح في القسطنطينية وخارجها، ذلك أن الإمبراطورية العثمانية إلى جانب كونها دولة أسرية، كانت نظاما من نوع دولة الرفاه الاجتماعي. وبتعبير يوناني من المدينة، يدعى تيودور كانتاكوزينوس Theodore Cantacuzenos عاصر محمد الثاني وابنه بايزيد الثاني: «لم يكن الأمراء الأتراك من كل المقامات يفكرون في شيء غير بناء الكنائس (بالنص)(**) والمستشفيات، ووقف الممتلكات عليها، وإقامة الخانات للمسافرين، وشق الطرق، وبناء الجسور وبواليع الصرف وغيرها من الأعمال الخيرية الكثيرة التي كانوا يقيمونها، لذلك فإنني أعلن احترامي لكل الأمراء الأتراك الأكثر سخاء بكثير من أمرائنا المسيحيين».

كانت مساجد القسطنطينية كذلك جزءا من النسيج الاقتصادي للمدينة. وكانت تُموّل من عائدات المؤسسات أو الأوقاف التي كانت تمتلك بيوتا أو الأنظمة المائية أو البازارات في المدينة. وقد اشتمل الوقف الذي أوقفه محمد الثاني على جامع الفاتح على ممتلكات مثل سوق قريب للجلد أو السروج ضم مائة وعشرة دكاكين. ومن بين عائدات الوقف التي بلغت مليونا ونصف المليون أقجة(***) أي ما يعادل ثلاثين ألف دوقية ذهبية بندقية، كان ثمانمائة وتسع وستون ألفا ومائتان وثمانون أقجة تنفق على الموظفين، وأربعمائة وإحدى وستون ألفا وأربعمائة وسبع عشرة أقجة

(*) العمارة (imaret) مطعم مجاني للفقراء انتشر كثيرا في عواصم الولايات العثمانية حتى قبل انتقال العاصمة إلى القسطنطينية، كشكل من أشكال كفالة الفقراء مثل التكايا، من أمثلتها «العمارة السليمية» التي أنشأها السلطان سليم الأول في دمشق و«العمارة العامرة» التي أقامتها زوجته السلطانة خاصكي سلطان في دمشق أيضا في العام 1522، كانت تقدم رغيف خبز وطبقا من الشوربة مع قطعة لحم، وربما لذلك سميت في اللغات الأوروبية «مطاعم الشوربة» (soup kitchens). [المترجم].

(**) نقل المؤلف اقتباس الشخص اليوناني بالنص، كما ذكر بين قوسين، لكن الإشارة إلى الكنائس تنصرف يقينا إلى المساجد.[المترجم].

(***) الأقجة (akce) هو اسم العملة العثمانية التي بدأ سكها في العام 1327، كانت تحمل على أحد وجهيها شهادة الإسلام وعلى الوجه الآخر اسم الأمير كنوع من الدعاء له بدوام الملك.[المترجم].

تنفق على طعام التكية، واثنتان وسبعون ألف أقجة تنفق على المستشفى نفسه، وثمانية عشر ألفا وخمسمائة واثنتان وعشرون أقجة على الترميمات. وبلغ إجمالي الموظفين في المُجمّع كله ثلاثمائة وثلاثة وثمانين موظفا(8).

كان كل مسجد يضم هيئة موظفين واسعة من العلماء. وكان هؤلاء على خلاف خدم السلطان وانكشاريته، مسلمين بالمولد. كانت هذه المهنة تمتص معظم طاقة أتراك القسطنطينية وطموحهم. وكان الشيوخ يلقون الخطب، والأئمة يؤمون الصلاة، والمؤذنون يرفعون الأذان أو يتلون آيات القرآن، كما كتب رحالة إيطالي «بصوت نديّ مملوء بالحماسة والوضوح والعذوبة. فلو سمعتهم من دون أن تراهم لظننتهم أطفالا صغارا». وكان يعمل في المساجد أيضا بوابون وقراء للدروس ومشرفون على الوضوء، كلهم محددون بالاسم والأجر في مؤسسة الوقف، إعمالا للهوس العثماني بالقوائم والنظم. تفسر النسبة الكبيرة من عائدات الوقف المخصصة لرواتبهم، السبب الذي دفع الكثير من الأتراك إلى إنشاء المساجد أو العمل فيها. حتى القرن الحالي، كان أحفاد المؤسسين يرثون الحق في إدارة الأوقاف والحصول منها على رواتب. وكما هي الحال مع الممتلكات المخصصة للائتمانات الأسرية المعفاة من الضرائب في بريطانيا ما بعد الحرب، كان الوقف يوفر بيتا ودخلا آمنين من مصادرة الدولة.

كانت حياة مشاهير الكُتاب، ومنهم مثلا «سلطان الشعراء» باقي (Baqi) (1520 - 1599) الشاعر المفضل لدى سليمان القانوني، تبدأ وتنتهي في جامع الفاتح(*). تحول باقي ابن أحد مؤذني المساجد، بعد فترة من العمل صبيا لصانع سروج، إلى دراسة الفقه، وترقى إلى معلم في مسجد آخر بالمدينة. في قصيدة مبكرة له، احتفى بأحد الأعمال التي دأب عليها العثمانيون، وهي تحويل أبراج الكنائس و«أجراسها الرنانة» إلى مآذن وأصوات المؤذنين الداعية إلى الصلاة. كان التحرك الصحيح في العاصمة يمكن أن يعطي صاحبه وظيفة عالية وممتلكات في مدينة إقليمية بعيدة. من ذلك أن باقي أصبح قاضيا أولا في مكة، ثم في القسطنطينية نفسها، وارتقى بعد ذلك إلى المسؤول القضائي الأعلى (قاضي عسكر) للولايات الأوروبية بالإمبراطورية. شهد مفتي القسطنطينية بنفسه مراسم جنازة باقي أمام حشد هائل في جامع الفاتح(9).

(*) هو محمود عبدالباقي أحد أبرز المؤثرين في الأدب التركي العثماني، ألحقه أبوه صبيا بمحل صنع سروج، لكنه كان يهرب من العمل ليحضر الدروس في مدرسة جامع الفاتح القريبة.[المترجم].

ازداد الطابع الإسلامي للقسطنطينية بعد موت محمد الثاني. فابنه بايزيد الثاني كان حاكما ورعا ومسالما عُرِف باسم «الولي». رأى بايزيد أن أباه بسبب مشورة مستشاري السوء والمنافقين «خالف شريعة النبي»، فباع معظم الصور والمنحوتات الإيطالية للفاتح قرفا منها. ووضع طلاء فوق اللوحات الجصية الشهوانية في القصر. وعدَّل بايزيد عن استخدام محمد الثاني المتكرر للعرف والسلطة التنفيذية للسلطان والقانون أي قانون الدولة(*) كأساس للنظم الحكومية، وشجبها بوصفها مخالفة لشريعة الإسلام(**).

على رأس العلماء، استقر مفتي القسطنطينية، وهي الوظيفة التي استنها محمد الثاني. ومع نهاية القرن الخامس عشر كان المفتي يُعرَف أيضا باسم شيخ الإسلام، وكان الرجل الثالث في الدولة بعد السلطان والصدر الأعظم. وفي بعض الأحيان كان بايزيد الثاني يقف عند استقباله ويجلسه في مقعد أعلى من مقعده. كان المفتي يصدر فتاوى تقرر أن أفعال السلطان موافقة للشريعة. ورغم كل القوة العسكرية للسلطان، كان هذا الدور المتعلق بإضفاء الشرعية مهما جدا، حتى إن أحد المفتين كتب: «كان السلطان محمد يظل يلح عليّ إلى أن أصدر فتوى في النهاية». ومع نهاية القرن السابع عشر، غدا من الممكن وصف المفتي بأنه «يمتلك سلطة مطلقة في أمور الدين. وأمور الدولة مشتقة من الدين، وبذلك يكون الدين الأصل، والدولة الفرع. وكان الرئيس الوحيد للدين هو شيخ الإسلام، والرئيس الوحيد للدولة هو الصدر الأعظم، لكن فوقهما معا كان السلطان».

في ذلك الوقت، كان العلماء قد أصبحوا طبقة من نبلاء الثوب(Noblesse de robe) شبه الوراثية(***)، متميِّزة عن نخبة السلطة ممثلة في الباب العالي، بيد أنها تمارس تأثيرا كبيرا في تصرفات المدينة نفسها وعاداتها. فإبان القرن الثامن عشر، كان

(*) في مقابل الشريعة.[المترجم].

(**) ومع ذلك، ظل قانون الدولة مهما. وفي إشارة إلى العرف، طلب أحد أبناء بايزيد، هو قورقود (Korkud)، في العام 1508 أن يُعفى من السلطنة، لأنه في أرض مثل أرض الروم (الإمبراطورية العثمانية) كان من المستحيل أن تكون حاكما جيدا ومسلما جيدا في الوقت عينه.[المؤلف].

(***) في النظام القديم السابق على الثورة الفرنسية، يشير مصطلح «نبالة الثوب» أو «نبلاء الثوب» إلى الأرستقراطيين الذين نالوا مكانتهم بفضل المناصب القانونية أو الإدارية التي شغلوها في الدولة، تمييزا لهم عن «نبالة السيف» (noblesse d'epee) المستمدة من الانتماء التقليدي للأسرة إلى الطبقة العسكرية.[المترجم].

أربعة وعشرون مفتيا من مفتي القسطنطينية أبناء مفتين سابقين للمدينة، كانوا يُسمّون «مهد العلماء». من ذلك مثلا أن أسرة دوري زاده Durizade قدمت ستة مفتين شغلوا المنصب عشر دورات بين العامين 1734 و1920. وكان العلماء يقابلون السلطان دوما في صلاة الجمعة، وكان يشار إليهم في البعثات الديبلوماسية باسم «طبقة النبلاء القديمة»[10].

كان بايزيد الثاني سلطانا مسالما نوعا ما، وذلك جزئيا بسبب التهديد الذي كان معلقا فوق رأسه من أخيه جم Cem، الابن المفضل لمحمد الفاتح والأمير المحبوب الذي كان من الممكن أن يواصل سياسات أبيه المنفتحة. هرب جم إلى أوروبا التي أصبح فيها بيدقا في اللعبة الكبرى بين الإمبراطورية العثمانية وأعدائها. كان جم العثماني الوحيد الذي حقق حلم الأسرة بالوصول إلى روما، وإن لم يكن كقائد فاتح. وفي مقابل إعانة مالية من بايزيد الثاني، جرى التفاوض عليها عبر تاجر جنوي من غَلَطَة، احتجز البابا جم في الفاتيكان كـ «ضيف مكرم»، أي سجين، وربما مات بالسم في نابولي في العام 1495. وفي العام 1512، خلف بايزيد الثاني ابنهُ سليم المعروف باسم ياوز أو سليم القاطع.

اعتبر سليم الأول نفسه، كما فعل جده الفاتح، اسكندرَ أكبر جديدا، مكلّفا من الله بفتح العالم من أقصاه إلى أقصاه. وفي العام 1517، هزم غريمه المسلم الأساسي السلطان المملوكي المصري وشنقه على أحد أبواب القاهرة(*). وعلى مدار القرون الأربعة التالية، ظلت مصر وسورية والجزء من بلاد العرب الذي يضم المدينتين

(*) الباب هو باب زويلة، والسلطان هو الأشرف أبو النصر طومان باي آخر سلاطين المماليك الشركس في مصر الذي قاد في القاهرة المحتلة حرب شوارع ضد جيش سليم بمعاونة الأهالي، وكان النصر فيها قريبا، وكاد حتى يظفر بسليم نفسه، لولا أن العثمانيين أمطروا المماليك والأهالي بالبنادق من فوق المآذن. قيل إن خمسين ألف نفس أُزهقت في فتح القاهرة، كان من بينها نصف جيش سليم. وبعد أن انكسرت المقاومة، لجأ طومان باي إلى أحد شيوخ البدو يدعى حسن بن مرعي سبق أن أطلق طومان سراحه بعد أن ظل سجينا في عهد عمه السلطان قانصوه الغوري، لكن الشيخ غدر به وأسلمه إلى سليم. أعجب سليم بمهارة طومان العسكرية وشجاعته في الدفاع عن قضيته وموقفه بعد أن قبض عليه، حتى إنه قرر أن يبقي على حياته ويصطحبه إلى القسطنطينية، لولا أن أمراء المماليك الذين انضموا إلى سليم بعد سقوط دمشق، على رأسهم خير بيك (Khayr Baig) وجان بردي الغزالي (Jannerdi Al-Ghazali)، ألحوا على سليم كثيرا أن يقتله حتى يستتب له حكم مصر. وفي 15 أبريل 1517، أخذ طومان مكبلا على حصان إلى باب زويلة يحرسه أربعمائة انكشاري، وحين رأى الحبل يتدلى من قبو الباب وتيقن من حتفه، ترجل عن الحصان وسار في ثبات إلى المشنقة، ثم نظر إلى الأهالي المحتشدين وطلب منهم أن يقرأوا له الفاتحة ثلاثا، وبقي جثمانه معلقا على الباب ثلاثة أيام، ثم دفن بعدها.[المترجم].

المقدستين مكة والمدينة، ولايات تابعة للإمبراطورية العثمانية(*). حكم السلطان العثماني نصف الشرق الأوسط تقريبا وكل منطقة البلقان. وكان أقوى حاكم مسلم، والإمام الأكبر، وحامي طرق الحج إلى مكة والمدينة. واتخذ منذ ذلك الحين أحد أعز ألقابه إليه: «خادم الحرمين الشريفين». وبفضل قوة السلطان العثماني وورعه ومقامه، لم يكن له منافس على لقب «خليفة الله في الأرض»، إلا في المغرب والهند البعيدتين، بعد أن مات آخر خليفة عباسي اسمي من سلالة خلفاء بغداد العباسيين الذي كان قد أصبح موظفا براتب لدى السلطان المملوكي في القاهرة، وطواه النسيان في العام 1543[11]. وبعد العام 1517، أصبحت القسطنطينية عاصمة الإسلام، على نحو لم تشهده من قبل. وفي القوائم الرسمية لمدن الإمبراطورية العثمانية، كانت تليها العاصمتان السابقتان للأسرة الحاكمة: إدرنة وبورصة، اللتان سبقتا المدن المقدسة مكة والمدينة والقدس. أما العواصم الإسلامية السابقة دمشق «التي تزفر برحيق الجنة» وبغداد «دار الخلاص» والقاهرة «التي لا نظير لها»، فقد جاءت في المراتب السابعة والثامنة والتاسعة على التوالي(**).

أرسل سليل النبي وأمير مكة وشريفها إلى سليم الأول مفاتيح الكعبة والحجر الأسود المقدس الموجود في منتصف المسجد الأكبر بمكة(***). كانت القوة العثمانية، وليس التضامن الإسلامي، هي التي دفعت الأمير إلى الخضوع إلى السلطان من دون أن تُطلق طلقة واحدة. وكان شريف مكة في حاجة إلى القمح المصري لإطعام أهل الحجاز، وكذلك الحماية العثمانية من الخطط البرتغالية للسيطرة على البحر الأحمر وغزو مكة من قاعدة الحكم البرتغالي في الهند. وفي المقابل، كان مقام الأشراف كبيرا

(*) كان من العوامل الأساسية لهزيمة المماليك أمام العثمانيين، إضافة إلى تنافس أمرائهم على السلطة والحروب الأهلية فيما بينهم وضعف اقتصاد دولتهم بعد تحول التجارة عنها إلى طريق رأس الرجاء الصالح أو رأس العواقب كما أسموه هم، أن المماليك في آخر عهدهم كانوا قد تخلفوا عسكريا بسبب رفضهم تبني الأسلحة الحديثة مثل مدافع الميدان والبنادق التي رأوا أنها تنتقص من فروسيتهم. لكن الفروسية التي كانت معركة المنصورة في العام 1250 التي هزموا فيها الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع الفرنسي آخر تجلياتها، كان زمانها قد ولى وانقضى. وفي المقابل، تميّز العثمانيون باللهفة إلى تبني الأسلحة الحديثة.[المترجم].

(**) يقدم هذا الترتيب للمدن العثمانية دليلا على ما جاء في تقديم المترجم من إهمال للحواضر العربية جعلها بعد قرون الحكم العثماني أكثر تخلفا من حيث العمران والنشاط الاقتصادي والثقافي وعدد السكان مما كانت عليها قبلها، أو على الأقل فوّت هذه القرون من عمرها وهي في حالة من الجمود والركود.[المترجم].

(***) أمير مكة حينئذ هو الشريف بركات بن محمد، لكن رواية إرسال الحجر الأسود لا أصل لها في المصادر العربية.[المترجم].

جدا لدى العثمانيين، حتى إنهم نالوا امتيازات ورواتب أكبر من تلك التي تمتعوا بها إبان عهد التبعية لسلاطين مصر[12].

ومع عودة ازدهار الإمبراطورية وتوسعها، نما سكان القسطنطينية سريعا. فمن نحو ثمانين ألف شخص في السنوات الأخيرة من عهد الفاتح، وصلت إلى زهاء أربعمائة ألف في العام 1530. وتوسعت حركة بناء المساجد مع نمو السكان. صُممت مساجد القسطنطينية، أيا كان تاريخ بنائها، بالأسلوب الإمبراطوري العثماني المتجهم نفسه، باستخدام حجارة رمادية مقتطعة من الشواطئ الجنوبية لبحر مرمرة. وكما يقول غودفري غودْوين (Godfrey Goodwin)، فإن التقاليد كانت «المهندس العثماني الأبرز في كل العهود». كان المسؤولون والأميرات، وقبل الجميع السلاطين أنفسهم، ينفقون على المساجد. كان آيا صوفيا الجامع الإمبراطوري الأعلى مقاما في المدينة الذي تمتع بأكبر وقف من عائدات جمارك المدينة وسوقها الرئيس والبيوت المبنية خارج أسوار المدينة. بنى ابن الفاتح بايزيد مسجدا (1500 - 1506) عند مدخل البازار الكبير. وبغرض إظهار تدينهما، بنى حفيده سليم الأول وابن حفيده سليمان مساجد على تلال تطل على القرن الذهبي: السليمي (1518 - 1522) وشاه زاده (1542 - 1548) والسليماني (1548 - 1557).

كان الجامع السليماني محاطا بمُجمّع من الكليات والمكتبات العامة والدكاكين والمستشفيات أكبر من ذلك المحيط بجامع الفاتح، ولاتزال المكتبة والمستشفى، الذي اشتهر بعلاج المرضى «خلال ثلاثة أيام» يعملان إلى اليوم، كان جامعا شاه زاده والسليماني من أعمال سنان رئيس هيئة المعماريين الإمبراطوريين من العام 1538 حتى وفاته بعد خمسين عاما، في نحو التسعين من عمره. وسنان الذي ربما كان أرمنيا بالمولد من وسط الأناضول «جُمِع» في الدفشرمة، عمل أولا جنديا انكشاريا ثم مهندسا. بنى سنان أو أعاد بناء أربعمائة وسبع وسبعين بناية (منها مائة وتسعة وخمسون مسجدا)، ثلاثمائة وتسع عشرة منها في القسطنطينية، وكان في العادة تُعد نماذج هندسية يعاينها السلطان قبل بدء البناء. يكشف سيل الطلبات التي أرسلها سنان حول فتح نوافذ جديدة في مساجد قديمة أو شق بواليع أو نقص النجارين المهرة، عن تمكنه من أدق التفاصيل. وتثبت بناياته الباقية أنه أغزر المعماريين إنتاجا في التاريخ العثماني[13].

لم تكن المســاجد الإمبراطورية أماكن للعبادة وحسب، وإنما كانت كذلك تأكيدا ماديــا بالحجارة على تديــن الأسرة الحاكمة وعدلها وإحســانها وكرمها. فقد كانت تقــوم بالوظيفــة التي تؤديها المعارض الفنية التي ينفــق عليها المليونيرات في زمننا الحالي أو المساجد التي يشيّدها شيوخ الخليج، حيث كانت مساجد السلاطين تعلن ثراءهــم وتطهــره في الوقت عينه. يذكر أحد التقديرات مــن القرن الثامن عشر أن هذه المساجد كانت تطعم ثلاثين ألف شخص يوميا في العاصمة، ما ساعد في ضمان عدم وصول الجوع إلى مســتوى الخطر الذي وصــل إليه في باريس في العام 1789. وقد اتفق الزوار الغربيون على أن عدد الشحاذين كان أقل في القسطنطينية منه في أي مدينة أخرى في أوروبا، باستثناء المقاطعات اليونانية[14].

كانت المســاجد العثمانية أيضا تأكيدا للســلطة، إذ كانت بمنزلة إعلان عن حق الســلطان في الحكم بصفتــه «ظل الله على الأرض» وكذلك عــن دوام إمبراطوريته ومجدها. وكانت القبة رمزا للوحدة الإمبراطورية. وكانت مســاجد السلاطين تحوي عددا من القباب أكبر من المساجد الأخرى، فضلا على مئذنتين أو أربع، بينما لم تكن المســاجد الأخرى تضم غــير مئذنة واحدة. وبغرض تحدي إنجازات الملك ســليمان والإســكندر الأكبر وجوستينيان، أمر ســليمان القانوني، في أعمال انطوت على تعقيد ونفقات هائلة، بنقل أعمدة الصوان من بعلبك[*] والإسكندرية ومن القسطنطينية نفســها لاســتخدامها في الداخل الفخم للجامع الســليماني. وقد بدأ العمل في بناء المسجد بعد أن وافق الإمبراطور كارلوس على دفع الجزية لسليمان في العام 1547، وربما جاء بناؤه احتفالا بسيادته في أوروبا[15][**].

(*) من معبد الشمس الذي أخذت منه أعمدة أيضا قبل ألف عام لبناء كنيسة هاغيا صوفيا.[المؤلف].

(**) كان ســليمان القانوني من أقوى ســلاطين بني عثمان وأكثرهم حزما، وقد اتسعت الإمبراطورية في عهده كثيرا، وأدخلت هزيمته للقوى الأوروبية في معركة موهاج (Mohacs) في العام 1526 الرعب في قلوب القوى الأوروبية، ولم يوقفه عن التوغل في أوروبا إلا فشــله في الاســتيلاء على فيينا في العام 1529. وكان كارلوس ملك إســبانيا والإمبراطور الروماني المقدس من ألد أعدائه على اليابســة الأوروبية وعلى صفحة البحر الأبيض المتوســط، إذ كان الأخير بحكمه لإســبانيا التي نجحت في القضاء على دولة الأندلس وشغله منصب الإمبراطور الروماني المقدس يسوّق نفسه باعتباره «سيف النصرانية» وحاميها، وشن عدة «حملات صليبية» على شمال أفريقيا واحتل بعض موانئها، ودخل في مواجهات كثيرة مع العثمانيين في البر والبحر. ونتيجة للحروب المستمرة لكارلوس ضد العثمانيين وضد قوى أوروبية - من أهمها فرنسا التي كانت في حلف مع سليمان القانوني - ومن أجل هدنة لالتقاط الأنفاس، اضطر كارلوس في العام 1547 إلى توقيع معاهدة مذلة مع ســليمان، اعترف فيها بأنه ملك إســبانيا وحسب، لأن العالم لا يمكن أن يتحمل إلا إمبراطورا واحدا، هو سليمان القانوني، وقدم بموجبها جزية إلى الأخير.[المترجم].

وفي العـام 1609 كانت الإمبراطورية قد استُنزفت بسـبب الحـروب الطويلة والفاشـلة مع النمسـا وبلاد فارس. ودُمر الاقتصاد، حتى إن الصدر الأعظم والمفتي كانا يتوسـلان إلى السـلطان أحمد الأول كي لا يبني مساجد جديدة، لكنه أصر على بناء مسجده، بل سـاعد في حفر أساساته بنفسه. كشف الشاعر جعفر Ca'fer عن الغرض من بناء المسـجد الجديد، وهو الأكبر في المدينة والمرئي لكل السـفن المبحرة من الجنوب، بالكلمات التالية:

حيث إن العالم يكشف عن نفسه عبر الصور الجميلة،
فإن مسجد حاكم العالم يعلن عن صفته تلك...
فلا أحد (غير السلطان أحمد) يستطيع أن يبني مسجدا كهذا
إذ لا يدانيه أحد في كونه الحاكم المبجل للشعب
إنه الشاه المنتصر والحاكم ذو السيادة أحمد خان
انظروا أعماله في تلك الكعبة المتقنة[16](*)

يعد جامع السـلطان أحمد المسـجد الوحيد خارج المدينـة المنورة الذي يضم ست مآذن. وبحلول النصف الثاني من القرن السابع عشر، ضمت القسطنطينية بين جنباتها أربعمائة وخمسـة وثمانين جامعا وأربعة آلاف وأربعمائة واثنين وتسـعين مسـجدا (لا تقام في الأخيرة صلاة الجمعة)(**). لم تكن القسـطنطينية أكبر مدينة إسـلامية في العالم، لكن لم تضاهها مدينة أخرى في عدد المسـاجد. وعلى ذلك، فإن بناء المساجد يقدم إحدى الإجابات عن السؤال الذي يثار كثيرا: إلى أين كانت ثروة الإمبراطورية العثمانية تذهب؟[17].

تهيمن قباب المسـاجد الإمبراطورية ومآذنها على الأفق الذي لا نظير له لمدينة إسـطنبول الحديثـة. وفي الماضي، كانت فضاءاتها المسـتطيلة المسـطحة وصفوفها المسـتقيمة النظيفة وأبنيتها الشـاهقة من الحجارة الرمادية أو البيضاء، تبرز جلية على خلفية البيوت ذات الأسـقف الحمـراء. ونظرا إلى وجود وفرة في الفضاء داخل

(*) مـن غير الواضح من الترجمة الإنجليزية للأبيات، ما إذا كان ذكر الكعبة جاء من باب تشـبيه جامع السـلطان أحمد بالكعبة، أم للإشادة بأعمال الترميم التي نفذها السلطان أحمد في الكعبة، إذ أمر بترميمها بنطاقين من النحاس الأصفر المطلي بالذهب بعد أن تصدعت جدرانها.[المترجم].

(**) في المقابل، كان هناك نحو مائة كنيسة في مدينة لندن إبان القرن السادس عشر، ومائة واثنتين وستين كنيسة ومصلى في باريس إبان القرن الثامن عشر.[المؤلف].

أســوار المدينة، فقد كان في مقدور معظم أهالي المدينة أن يتمتعوا بالخصوصية في بيــوت صغيرة تضم من غرفتين إلى أربع غــرف، بدلا من العيش في عمارات ضخمة مشــتركة، كــما كانت الحال في البندقيــة أو القاهرة. توضح لوحــة الفنان ميلخيور لوركس (Melchior Lorichs) التي تعود إلى العام 1560 تقريبا، البيوت في صفوف متصلة على القرن الذهبي تمتد من القصر إلى أســوار المدينة. كان الرحالة الغربيون يزدرون هذه البنايات ويصفونها بأنها رديئة البناء و«أقل من متوسطة».

أعطت الجدران الخشــبية للبيوت والطوابق العليا البــارزة والمشربيات - لمنع الرجال المارين في الشــارع من رؤية النســاء بالداخل - شوارع القسطنطينية «سمة متفــردة من الغمــوض والكآبة». فقد كانت هيئة المعماريــين الإمبراطوريين ملزمة باحــترام الخصوصية التي يفرضها الإســلام. وكانت البيــوت الخاصة تبنى من دون تخطيط، مثلها مثل شواهد القبور الإسلامية المبعثرة في الجبّانات. وفي بعض الأحياء، كانت الشوارع معوجة وضيقة جدا وتفتقر إلى الانتظام أو النظام، لدرجة أن البيوت كانت تتلاصق من الجانبين بعضها مع بعض. وبغرض زيادة الخصوصية، كان الكثير من الشوارع عبارة عن أزقة مسدودة النهاية. والشارع الأكبر في المدينة، وهو شارع الديوان (المؤدي إلى القصر) الذي كان يقطع وســط المدينة إلى الأســوار، كان نسخة من الطريق العام البيزنطي، فلم تمتلك القسطنطينية الشوارع المخططة رسميا التي ظهرت في روما أو فلورنســا أو البندقية والتي خُططت في باريس بعد العام 1600. ولم تعرف المدينة مكافئا لسلســلة المستطيلات المتحدة المركز، التي بُنيت العاصمة الإمبراطورية الصينية الجديدة بكين وفقا لها بعد العام 1421.

ازداد الارتباك بســبب وجود خمســة تلال منفصلة جنوب القرن الذهبي وتل غَلَطَة الكبير على الجانب الآخر. لذلك كانت الشوارع ترتفع مع التلال وتنخفض مع الوديــان في كل اتجاه، ما جعل المدينة كتلة من الأزقة المعوجة والبيوت الخشــبية والأســوار والحدائق والجبّانات. ولايزال جو المدينــة العثمانية غير المنظمة قائما في بضعة أحياء ســكنية، مثل منطقة الشــوارع الملتوية والبيوت الخشبية الواقعة بين جامع الســلطان أحمد والبحر. يتأكد ذلك من الصورة التي رســمها كاتب الرحلات الإيطــالي الكبــير إدموندو دي أميتشــيس الذي زار القســطنطينية في العام 1874، وحينها لم يختلف وصفه لمعظم الأحياء عما كانت عليه منذ قرون سابقة:

الشــوارع تنعطف بزوايا لا تحصى، وتلتف بين تــلال صغيرة، وترتفع مع هضــاب صاعدة، وتنخفض مع وديان هابطة، وتمر من تحت قنوات، وتتقاطع مــع أزقة، وتهبط من مرتفعــات وتمر خلال غابات وصخــور وخرائب ورمال وتــلال. تبدو المدينة العظيمة في بعض جنباتها وكأنها مقطوعة الصلة بالدولة، ثم سرعان ما تجدها مجددا حاضرة ونابضة بالحياة وكثيرة الألوان...[18].



شــارع في حي بايكــوز، 1860 يضم الحي الــتركي العادي، من النــوع المصوّر في هذه الصورة، بيوتا خشــبية وشــوارع ملتوية ضيقة في هذه المدينة الخشــبية الفوضوية، شكلت مُجمّعات المساجد العنصر الوحيد للنظام الحضري.

إن نسخة الإسلام التقليدية صارمة بعض الشيء، لا مكان فيها للاحتفال والموسيقى. لكن القســطنطينية جذبت شكلا مختلفا للإســلام، هو تكايا الدراويش. كان الدراويش يمارسون الصوفية، ذلك التوق إلى النشوة الباطنية والتحلل من الذات بالتوحد مع الله. وغالبا ما كان هذا البحث الشخصي عن الله يتخذ شكل حلقات الذكر[*].

(*) حلقــات الذكــر طقوس يمارســها المتصوفة يذكرون فيها اســم الله وهم يتمايلون يمينا ويســارا وهم وقوف في صفوف، يقولون «الله» مع كل لفتة يمينا أو يســارا أو أحد أســماء الله مثل «حي» أو «مدد» طلبا للمدد من أولياء الله الصالحين، مع فواصل من الإنشاد الديني، يصل بعضهم خلالها إلى حد الإغماء والهلوسة من الإجهاد.[المترجم].

كان الدراويـش منظمين في طرق يترأس كلا منها مرشـد أو شـيخ معين، مكرسـة لذكر «أولياء الله»، الذين كانوا بالنسـبة إلى بعض المسلمين في مقام القديسـين بالنسـبة إلى المسـيحيين. كانت تكايا الدراويش تُبنى عادة بجوار قبور «أولياء الله»، ولها نوافذ مفتوحة على الشوارع يستطيع المارة من خلالها أن ينقلـوا تحياتهم. كان الدراويش يؤمنون بـأن «أولياء الله»، من أمثال أبي أيوب الأنصاري أو محمد الفاتح نفسـه، يعيشـون داخل قبورهم في «العالم اللامتناهـي»، وأنهم هناك يمتلكـون القدرة على حمايـة أتباعهم في «العالم المتناهي» ومنحهم المدد.

وكان المسـلمون يقومون بزيـارات متكررة إلى قبورهم طلبا للشـفاء من الأمراض، وللدعاء بسـلامة الولادة أو الختان أو نجاح الزواج، أو لمجرد تنسـم «الرحيق الإلهي» لأولياء الله. وعلى غرار مثيلاتها في البلدان المسـيحية، كانت الموسـيقى تُعزف، والبخـور يُحرق، وتُقدم النذور في شـكل لحوم أو أموال أو شيلان. وكان مصباح يضاء بزيت الزيتون يوضع في كوة في الجدار. وكان الناس يربطـون خِرقا ملونة بقضبان النافذة أو القبر لتذكير ولي الله بالبركات المنتظرة منـه. وبجانب قبر أحد «أولياء الله» في ميرديونكوي (Merdivenkoy) المقابلة للقسـطنطينية في آسـيا، توجد صخرة كان يُعتقد إبان القرن التاسع عشر أنها تحقق أمنية أي شـخص يقف عليها، كما ذكـرت مقيمة إنجليزية تدعى لوسي غارنيـت (Lucy Garnett): «أرجعت سـيدة تركية من معـارفي هي الراحلة بسـمة سـلطان Besma Sultan صعودها إلى المكانة السـامية والاسـتثنائية بكونها الزوجة القانونية للسـلطان عبدالمجيـد، إلى أمنية عبّرت عنها في ذهنها وهـي واقفة على هذه الصخرة، بالطبع بعـد أن قدمت نذورها ودعواتها عند الضريح المجاور».

كانت التكايا الكبيرة تضم أجنحة معيشة منفصلة للأسر والعزاب والشيخ، وقاعة للإنشاد تسمى «سماع خانة» (semahane) تقام فيها حلقات الذِكر، ومكتبة، وقاعة طعام، ومطبخ كبير. كان الطعام مقدسـا في أعين الدراويش، ولذلك كان الشيخ بعد الانتهاء من الإعداد الطقوسي لوجبة الطعام، ينشد:

نحن الصوفيين على الطريق، نحن مَنْ يتعشون على مائدة الملك.
يا إلهي أدم علينا هذه الطاسة وتلك المأدبة[19].

كانـــت المولويـــة أكثر طرق الدراويـــش رواجا في القســطنطينية. وكانت تكيتها الأساســية تقع في نهاية ما يسمى حاليا شارع الاســتقلال في غَلَطَة (بايوغلو). تشبه تكايا الدراويش، في بعض النواحي، الأديرة المسيحية، حتى إن السلطان محمد الثاني أقــام التكية المولوية بغَلَطَة على أنقاض دير بيزنطي، ربما لكي يؤكد تفوق الإســلام على المســيحية. كان هؤلاء المولويون، تحت عمائمهم المميّــزة وبتنوراتهم الصوفية الطويلة، يــؤدون (ومازالوا في بعض الأحيان) رقصة طقوســية بطيئة. وكان الواحد منهم يلف حول نفسه وذراعيه مفرودين إلى أقصاهما وعينيه مغلقتين ورأسه مائلة على كتفه الأيسر، وعباءته تتموّج حوله متطايرة في الهواء «على أنغام الناي والدف، مع أنشــودة رتيبة عن وحدانية الله وبطلان الوجود الدنيوي». وكانت النشوة تبلغ بأحدهم أن يستمر في اللّف لخمس عشرة دقيقة متواصلة في المرة الواحدة من دون أن تصيبه دوخة أو إرهاق[20].

ثمة طريقة أخرى، هي الدراويش الرفاعية أو الصارخون الذين كانوا يجدون متعــة في الألم. في تكيتهم الواقعة في أوســكودار Uskudar بآســيا، كانوا يؤدون صرخاتهم أو تشــنجاتهم «يا الله يا هو» مع صرخات كئيبة، تعلو وتنخفض مثل حقــل قمح في مهب الريح. وحين كانوا يصلون مرحلة الهذيان، كانوا يســحبون آلاتهــم المعدنية ذات الحواف عند نهاياتها المنتفخــة من على الجدران. وكانت تُحمَــى في كانــون (bararier) وتوضع متقدة على جلــد الدرويش أو تُدخَل في فمه أو يضغط بها على مقلتي عينيه. بينما «يسحب آخرون الخناجر من أماكن تعليقهــا على الجدران ويقطعون بها جلودهم، أو يمســكون جمرات متقدة من الكانون ويحرقون بها لحومهم. ويقع بعضهم من الاهتياج بين أذرع إخوتهم، وفي النهاية يســقطون جميعا على الأرض خائرين منهكين وفاقدي الوعي (وملطخين بالدماء)». وكانوا يعتقدون أن نَفَس شــيخهم، أي الكلمات المقدسة التي يتلفظ بها تشفي كل الجروح.



الرســام فوســتو زونارو Fausto Zonaro، ممارسات الدراويش، في نحو العام 1900. تشاهد سيدات أوروبيات شيخ الطريقة الرفاعية وهو على وشك البدء في علاج رجال مسنين منكفئــين على الأرض من خلال المشي فــوق ظهورهم. وتقف خلفهم بنات صغيرات ينتظرن دورهــن في العلاج. وعلى اليســار، يحملق الدراويش الرفاعية، بينهم الرســام الذي كان هو نفســه درويشــا، يقف الخامس بين الرجال على الجهة اليسرى. وعلى اليمين، رســم زونارو، على خلاف ما يحدث في الطريقة الرفاعية، درويشــا مولويــا يعزف الناي. تعد هذه اللوحة من أفضل تمثيلات توهج الدراويش، ويعاد اليوم إنتاجها كثيرا في الكتب المتعلقة بالدراويش أو تعلق على جدران التكايا.

إبان القرن التاســع عشر، ذكّرت التكية الرفاعية بـ «الآلات الشــنيعة» المعلقة على جدرانها، تيوفيل غوتييــه (Theophile Gautier) بغرفة التعذيب في محكمة التفتيش. لكن غوتييه كان ينظر من خلال عيون باريســية ســاخرة. أما بالنسبة إلى الدراويش، فقــد كان ألمهم يرمز إلى الزهد في الإرادة الفردية والعالم المادي. وكانت جروحهم «ورودا» تقرّبهم من معية الله «غصن الورد»[21].

كانت طقوس الدراويش وتوهجهــم «وصرخاتهم المروعة» تثير امتعاض علماء المســاجد. وكانوا يتهمونهم بأنهم من متبعي البدع أو الممارســات المكروهة. وكان الكثير من عقائدهم يُربط ببدعة مذهب الشــيعة الممقوت، وهي نســخة منافسة من الإســلام، تضاعفت كراهيتها بعد تبني بلاد فارس - العدو الأساسي للإمبراطورية - لها دينا رســميا للدولة في العام 1506. جذب درويش يدعى إســماعيل معشــوكي (Ismail Mashuki)، كان يُعرَف باســم «الشــيخ الصبي»، حشــودا بالآلاف في آيا

صوفيا. وانزعج المفتي من باطنيتــه الوجدية (Ecstic Mysticism)، فأمر بإعدامه في العام 1529 وهو في عمر الحادية والعشرين. لكن سرعان ما تحوّل المكانان اللذان دفنت فيهما رأسه وجثته إلى مقاصد للزيارة.

كان الدراويــش، من جانبهم، مزهوين بقربهــم الباطني من الله، وكانوا في أغلبهم يهــزأون مما اعتبروه جهل العلــماء ونفاقهم. كتب أحد الدراويــش: «اعلم أيها المعلم التقليدي أن المسجد والحانة عندي سيان، وصوت التقي وصرخة السكير عندي سيان». كانت الصوفية، أكثر من المســجد، تشــبع توق الكثير من المسلمين إلى الاتحاد مع الله. وكان بايزيد الثاني نفســه صوفيا أدخل الطريقة الخلوتية إلى القســطنطينية وأقام لها موضعا في دير أرثوذكسي سابق. ومريدو الطريقة الخلوتية يتميّزون بالاعتزال الصامت الانفــرادي في زنازيــن بلا نوافــذ، ويتناولون أقل قــدر ممكن من الطعــام والنوم، ولا يخرجون إلا للذهاب إلى المسجد عبر مجاز يفصلهم عن الاتصال بالبشر.

بحلول القرن التاســع عشر، ضمت القســطنطينية ثلاثمائة تكية وسبعا وثلاثين طريقة نشطة، كان أغلبية المسلمين ينتسبون إلى إحداها. وكانت بعض التكايا تضم بعــض مباهج دور الأوبرا والكوميونات وفصــول الأيروبيكس الحديثة. امتدح أحد الدراويش مهارات «مرشده» في أبيات تنقل قوة الصوفية:

معلمي وسيدي هو ذاكري Zakiri.
يَصْعُب أن تجد ندا له في كل الفنون.
اسمه حسن وهو في طباع الحسين.
جمله الله بالبصيرة الروحية،
وشهرة ذكره تبلغ الآفاق.
ولحن صوته زاد لأرواح المحبين.
ويؤم الصلوات الخمس بالناس.
إنه بهجة من يعرفون الإيقاع.
يقضي الشهور والسنوات في الصلاة.
إنه الحقيقة لمن يعرفون الاتحاد[22].

تتمثل الفروض الدينية الأساســية على المسلمين في الحج إلى مكة والزكاة وصوم رمضان والشــهادة، وقبل ذلك جميعا أداء الصلوات الخمس. والملتزمون منهم كانوا

يجيبــون نداء المؤذن للصلاة، الذي كان يتجول في الشرفــات المفتوحة للمآذن التي بُنيت خصيصا لضمان أن يُسمَع نداؤه في كل الاتجاهات:

> اللــه أكبر. أشــهد أن لا إله إلا الله. وأشــهد أن محمدا رســول الله. حي على الصلاة. حي على الفلاح. الله أكبر. لا إله إلا الله.

في الشــوارع الهادئة القريبة من المساجد، كان صوت المؤذنين يصم الآذان. قبل القرن التاسع عشر، لم يكن هناك غير بضع مركبات وخيول، وكانت الشوارع «هادئة تماما لدرجة أن أصوات الناس في الشارع كانت تُسمَع وكأنهم معك في الغرفة»، على حد تعبير رحالة بريطاني يدعى الدكتور ميريون Meryon في العام 1810، وكان نداء المؤذنين للصلاة من أعلى الأصوات في المدينة.

كان الزمن نفســه إسلاميا. فبالنســبة إلى المسلمين واليهود، تقاس ساعات اليوم بداية من غروب الشــمس، وليس من منتصف الليل. وبالنسبة إليهم كانت الساعة الثانية عشرة صباحا وقتا متغيرا في المساء، وليس وقتا ثابتا من الليل. وكان المؤذنون بمنزلة ســاعات بشريــة، إذ كان صوت ندائهــم للصلاة الوســيلة المعيارية لتدقيق الوقت. وعلى الرغم من وجود مستعمرة لساعات الحائط وصناع الساعات الأجانب في غَلَطَــة (شــملت في أوائل القرن الثامــن عشر والد جان جاك روســو) وواردات متواتــرة من الخارج، فلم تكن الســاعات الميكانيكية متوافرة إلا لأثرياء المســلمين، وكانت كثيرة الأعطال.

حتى ســقوط الإمبراطورية، كان الإسلام هو مقياس الساعات، فضلا عن وسيلة شــغلها. وعلى الرغم من أن القرآن نزل باللسان العربي، وهو لسان لا يفهم متحدثو التركيــة في أغلبيتهم إلا بضع كلمات منه، فإن الكثير من المســلمين كانوا يحفظونه عــن ظهر قلب. وكان أوليا جلبي، على ســبيل المثال، يســتطيع أن يتلوه سريعا في ســبع ســاعات، وبتؤدة في ثماني ســاعات، ومكافأة له على ذلك، عُيِّن مصاحبا(*) في القصر الســلطاني. كانت تلاوة القرآن التسلية الأساســية في المدينة الإسلامية. وكان ظهور قارئ جديد للقرآن يثير في القســطنطينية البهجــة والثناء اللذين كان ظهور مغني أوبرا جديد يثيرهما في ميلانو. وكان المسلمون يتوقفون عن أي شيء يفعلونه

(*) المصاحب (musahib) في الدولة العثمانية شــخص يختار من بين أرباب العلم والفن لتســلية السلطان بحسن الحديث.[المترجم].

بمجرد أن يسـمعوا الأذان للصلاة. وفي ذلك كتب موراجيا دوسـون (Mouradgea d'Ohsson) الأرمني المولود في القسطنطينية وأحد أعظم مؤرخي المدينة:

> إذا لم تـر هذه الأمة عـلى أرضها، فلن تتمكن من تكوين فكرة كاملة عن حرصهم الدائم والمدقق، رجالا ونسـاء، وجهاء ووضعاء، فقراء وأغنياء، علماء وعامة، على إشـباع ذلك التـوق إلى أداء الصلوات الخمـس. حتى إن الواحد ليقول إن هذه الكتلة السكانية الهائلة ليست سوى طائفة دينية واحدة.

وفي ليالي رمضان التي كانت المسـاجد فيها تكتظ بالمصلين وتضاء قبابها ومآذنها بالشـموع، كانت المدينة تتوهج بالإسلام. (كان تأثير ذلك أكبر كثيرا من أنوار الزينة في رمضـان في الأزمـان الحديثة التي تتنافس فيها تلك الأنـوار مع أضواء الإعلانات وعلامات الشـوارع). وفي ليلة السـابع والعشرين من رمضان، وهـي «ليلة القدر» الأفضل من ألف شـهر، كان جامع آيا صوفيا يضيق بالمصلين، وكان نوره يسـطع في الليـل كالنيزك. في هذه المدينة المؤمنة، لم يكن ثمة مكان للمتشـككين. كان لطفي طوقادي Lutfi Tokadi من أوائل أمناء مكتبة الفاتح ومن محاسـيب الفاتح وعالم رياضيات بارزا، لكنه سخر من الخرافات، فأُعدِم في العام 1494 بأوامر بايزيد الثاني أمام حشود ضخمة في ساحة الألعاب الرومانية على «إهماله»[23].

وكذلك أضفى الإسلام على الأسرة العثمانية هالة من القداسة. فداخل المساجد، كانت الخطب تلقى باسـم السـلطان. ومن أوائل القرن السـابع عشر حتى نهاية الإمبراطورية، كان جزء من طقوس تنصيب السـلطان يتمثل في أن يقلده أحد أكبر الشـيوخ، عادة شـيخ الطريقة المولوية، سيف عثمان مؤسـس الأسرة، الذي يتخذ مقبضـه هيئة تنين، وهي الطقوس التي كانت تجرى على منصة في الفناء الأسـاسي لأقدس مسجد في المدينة، وهو جامع أيوب.

كانت أفخم المراسـم السنوية في القسطنطينية، وهي مغادرة قافلة الحج إلى مكة في الثاني عشر من رجب(*)، ترتبط بالأسرة العثمانية. كان يترأس القافلة مسـؤول خاص يسـمى أمين الصرة. وفي كل عام حتى الحرب العالمية الأولى، كان السـلطان يرسل ثوبا من القماش الأسـود مغطى بتطريز من الذهب، يسمى المحمل لكسوة الكعبة المشرفة في مكة، ويرسل إلى أمير مكة ذهبا ورسالة موضوعة في أربعة أكياس من الحرير وعباءة

(*) المقابل الميلادي لتاريخ هذا الاحتفال يتغير لأن التقويم الإسلامي قمري. [المؤلف].

من القماش المخطط بالذهب وفرو القاقم. كان رئيس الخصيان الســود يسـلم هدايا السلطان إلى أمين الصرة في القصر. وكان جمل مزيّن ببهارج نفيسة، يقال إنه متحدر من الجمال التي استخدمها النبي، يحمل المحمل من القصر، يليه جمل آخر يحمل أثر سرج النبي، وسبعة بغال محملة بمزيد من الهدايا. وكان موكب يسير فيه المسؤولون والحرس والراقصون العرب والدراويش ورشاشـو العطر وضاربو الدفوف ونصف سـكان المدينة المســلمين، يرافق المحمل من القصر خلال الشوارع حتى بيشيكتاش بالقرب من المكان الذي بُني فيه أول جسر للسيارات عبر البسفور. وكان الحجاج ينضمون إلى القافلة على طـول طريقها. وفي حين كان الجمـل المقدس يعاد إلى القصر حتى السـنة التالية، كان الحجاج يعبرون إلى أوسـكودار في آسـيا، وهناك كانت علامات التأثر بسبب الفراق بين الأقارب تتكشف قبل أن يبدأ الحجاج طريقهم الطويل الشاق إلى مكة[24].

تمثل أحد المصادر الأساسـية لتقدير الذات لـدى الأسرة العثمانية والتقدير الشعبي لها بعد العام 1517 في حمايتها لطريق الحج إلى الحجاز من خلال نظام مكلف من الخانات والحماية المسـلحة للقوافل ورشوة القبائل البدوية. وأنشئ صندوق خاص في القسطنطينية تُجمع فيه عائدات من مصادر متنوعة، من بينها أوقاف، وتُرسـل سـنويا إلى المسـاجد والفقراء في الحجاز. وبحلول القرن الثامن عـشر، كان الحج يكلف أكثر من صيانة القصر الإمبراطوري، إذ كان يمتص ما بين 10 و17 في المائة من الإيرادات الحكومية[25].

اكتسب السلطان وقصره مزيدا من القدسية مع وصول أثر النبي من القاهرة ومكة بعد العام 1517، الذي شـمل بردة النبي وختمه وسـيوفه وإحدى أسنانه وشعرات من لحيته. كما جاءت راية الرسول المصنوعة من الصوف الأسود من دمشق في العام 1595. لم تعـرض هذه الآثار في أحد المسـاجد حتى يراها العامـة، على غرار ما حدث مع كفن تورينو المقدس(*)، بل بقيت معزولة في قصر الحاكم، ككنز خاص بالأسرة الحاكمة، على الرغم من أن الأتراك، كما سنرى لاحقا، كانوا يسيّرون مواكب خلال شوارع القسطنطينية برايـة النبي في لحظات اشـتداد التوتر. وقد بُني في القـصر الثالث بالبلاط الإمبراطوري بالقـرب من غرفة نوم السـلطان، مقصورة خاصة للبردة الشريفـة، كانت قبالتها ألواح من المرمر أخـذت من القاهرة. وكان القرآن يتلى في هذه المقصورة ليل نهار بلا انقطاع

(*) كفـن تورينو المقـدس Holy Shroud of Turin قطعة من قماش الكتان تحمـل صورة رجل يبدو أنه تعرض لرضوض بدنية تشـبه ما ينتج عن الصلب، موجودة في كنيسة تورينو في شمال إيطاليا، يعتقد أنه كفن المسيح عيسى الناصري، على الرغم من أن اختبار التأريخ بالكربون المشع أرجع تاريخ نشأة الكفن إلى العصور الوسطى. [المترجم].

مــن خلال تبديل القراء. وفي مرة واحــدة في كل عام، في الخامس عشر من رمضان، كان غلمان الغرفة الخاصة يغسلون البردة المقدسة بماء الورد. وكان أفراد الأسرة الإمبراطورية (الرجال والنساء) وأعضاء الحكومة يسمح لهم بالدخول بترتيب الأسبقية لتقبيلها. وكان كل فــرد من هؤلاء يُعطى قنينــة تحتوي ماء من ذلك الذي غُســلت فيه البردة وورقة مطبوعا عليها ختم النبي، كان الواحد منهم ينقع الورقة في هذا الماء ويشربه[26].

كانت صلاة الســلطان للجمعة، وهي المراســم التي عُرِفت لاحقا باسم السلاملك، تكشــف للمدينة عن ورعه وقوته. وفي المقابل، كان الملوك الغربيون، إلا في الاحتفالات المقدســة، يصلون في مصليــات خاصة في قصورهم، لا يراهم فيها إلا حاشــيتهم وعدد محدود من الجمهور. لكن في القســطنطينية، كان معظم السلاطين يذهبون في موكب رســمي لصلاة الجمعة في أحد المساجد العامة، عادة جامع الفاتح أو الجامع السليماني. وصف لويجي باســانو Luigi Bassano الوصيف السابق موكب سليمان القانوني وهو ذاهب إلى المسجد على النحو التالي:

> يســير موكبه بالترتيب التالي: أولا يتقدم ثلاثون مــن حملة الصولجانات ينادون «أفســحوا الطريق لمولانا السلطان»، ويبعدون الناس بضربات عنيفة. يلي هؤلاء نحو ألفين من جنود الانكشــارية مترجلين، وســيوفهم وبلاطيهم في أغمدتها المشــدودة إلى خصورهم، وبنادقهم المعلقة على ظهورهم تعلو فوق رؤوسهم بمواســيرها التي يبلغ طول الواحدة منها خمســة أشبار، يليهم عدد مماثل تقريبا من الســباهية [سلاح الفرسان] والصولاق [حرس السلطان] على ظهور الجياد، وسيوفهم وأقواســهم وأسهمهم وصولجاناتهم معلقة في أقواس سروجهــم. يتقــدم الموكب في حالة من الصمت، ولا يُســمَع غــير وقع أقدام الســائرين والخيول. يأتي بعد ذلك زهاء خمسة عشر أو عشرين حصانا مزيّنة ببهارج نفيســة على رؤوســها، منها العقيق الأحمر والماس والياقوت والفيروز واللآلــئ العظيمة، لا تُرى سروجها من المخمل القرمزي الذي يغطيها، يقودها جنــود مترجلون. بالقرب من عظيم الترك(*) نفســه لا يركب أحد حصانا، بل يترجل أربعة ســيّاس عن يمينه وشــماله على بعد رمح منه لإبعاد الناس عنه، إلا إذا دعا صاحب الموكب أحد الباشــوات أو الضباط الآخرين ليتحدث معه. ويســبقه دائمــا ثلاثة غلمان، أحدهم يحمل قوس الســلطان وأســهمه، وآخر يحمل ســيفه، وثالث يحمل قنينة ذهبية بماء معطر ليتوضأ به السلطان عند

(*) عظيم الترك Grand Turk أحد ألقاب السلطان العثماني المستخدمة في الدوائر الغربية حينذاك. (المترجم).

باب الجامع الكبير. وفي المسـجد، بعد أن يدخل السـلطان، يذهب إلى موضع أعـلى عما عـداه بنحو أربع أذرع محاطا بسـتائر تسـمى الغمامة، مخصص لاسـتخدامه هو فقط. يصلي السـلطان وحده في هذا المكان، إلا إذا اصطحب أحـد أبنائه. ويجلس مرافقـوه الذين يربو عددهم على أربعة آلاف شـخص في صحن المسـجد بأسفل. يفعل السـلطان ذلك كل يوم جمعة لإرضاء شعبه، أو كـما يقـول البعض، وهو ما أميل إلى تصديقـه، لأن ذلك فرض عليه. يبقى السـلطان في الجامع نحو سـاعتين، يعود بعدها دائما من الطريق نفسه الذي جاء منه [عادة شـارع الديوان]، وهو يلقي على العامة نظرات العطف ويرد على تحيات الجميع، سـواء كانوا من المسـيحيين أو الأتراك أو اليهود، الرجال أو النسـاء، ويدير رأسـه قليلا إلى اليمين، ثم إلى اليسـار، تقديرا للناس الذين اصطفوا على جانبي الطريق. على أن هؤلاء الناس لا يرفعون أغطية رؤوسـهم لتحيـة السـلطان [كما يفعل الناس في الغرب]، إذ يعـد ذلك تصرفا غير لائق، بل يحنون رؤوسـهم. وعلى ذلك، فإن عظيم الترك يظهر على الناس في كل يوم جمعة، وليس كما يدعي الكاذبون أنه لا يظهر للناس مطلقا.

اسـتمرت مراسم السلاملك بأشـكال مختلفة حتى السابع والعشرين من فبراير 1924. وفي العـام 1573 أبـدى ديبلومـاسي فرنسي يدعى فيليـب دو فرنس كاناي Philippe du Fresne Canaye إعجابه بالصمت المحيط بالسلطان سليم الثاني، إذ بدا أن السـلطان يمتلك القدرة على تحويل الرجال إلى حجارة. كان حصان السلطان يُحرَم من الطعام والنوم طيلة الليلة السابقة للسلاملك لضمان أن يمشي بـ«الخطوة البطيئـة والثقيلة الملائمة لفخامة هذا الملـك العظيم». ووفق تعبير توماس واتكينز Thomas Watkins، بعد مائتي عام من كاناي، كان السلاملك:

أفخـم وأروع [موكب] شـاهدته عـلى الإطلاق، حيث الملابـس الفاخرة والمتنوعة، وجمال الخيول العربية وزينتها، والمظهر الجميل لجنود الانكشارية والبسـتانجية وهم الحـرس الإمبراطوري(*) (ذوو القبعـات القرمزية فريدة الشكل ورائعة المنظر)، باختصار أعتقد أن فخامة هذا المشهد وجِدته وصمته وجلاله تترك أقوى انطباع في أي مشاهد أجنبي[27].

(*) على خلاف الاسم «بوستانجي» الذي يعني البستاني أو الجنائني (بستان زائد لاحقة اسم الفاعل في اللغة التركية «جي»، كما في الكلمات العربية العامية الكثيرة المشتقة بالطريقة التركية)، كان البستانجية من قوات الحرس الإمبراطوري، مسؤولين تحديدا عن تأمين قصر السـلطان والبنايات التابعة له، وكان كبيرهم يدعى «البسـتانجي باشي» ويحمل رتبة باشا، وربما جاء الاسم من انتشارهم في حدائق القصر الإمبراطوري، أو لأنهم كانوا يبدأون حياتهم المهنية بستانيين في القصر. [المترجم].



الرسام باولو فيرونا Paolo Verona، عبدالمجيد الأول في طريقه إلى الصلاة في جامع أيوب، في نحو العام 1840. يرتدي السلطان راعي الإصلاح ملابس أوروبية الطراز وعباءة. ربما تصوّر هذه اللوحة مراسم تنصيبه في العام 1839.

قُتِل أحد السلاطين في مراسم السلاملك. وفي الثالث عشر من ديسمبر 1754، صمم السلطان محمود الأول على الذهاب إلى صلاة الجُمعة، على الرغم من أنه كان يحتضر، وفي طريق عودته من المسجد، مات في الفناء الأول للقصر، ولذلك يمكن القول حرفيا إنه مات «في سرجه»[28].

ترتبت على أسلمة القسطنطينية نتيجتان أساسيتان. فبعد موت محمد الثاني، كانت هناك بضع إشارات إلى وجود سلطان «أثيم» و«مدينة ملعونة». ولم تكن هناك خلفية إسلامية لهذه المدينة ذات المساجد والأولياء. لكن سرعان ما اكتسى السلطان العثماني الذي كان في بادئ الأمر شخصية علمانية نسبيا مثل الخليفة العباسي أو الإمبراطور البيزنطي، بهالة من القداسة. وأخذ رعاياه يصلون ويدعون له بطول العمر والفلاح في المساجد والأسواق وبعد وجبات الطعام. وأخذ الناس يزورون قبور السلاطين المتفرقة عبر المدينة من جامع أيوب إلى آيا صوفيا، في رمضان وفي الليالي السبع المقدسة(*)، كأن قبورهم كانت أضرحة. كان الناس ينظرون إلى العثمانيين على أنهم أسرة مباركة قُدّر

(*) ربما تكون السبع الأواخر من رمضان. [المترجم].

لها الخلود. وفي ذلك كتب كاتب أواخر القرن السادس عشر مصطفى علي الذي لم تخلُ كتاباته - على الرغم من ذلك - من الروح النقدية: «إن معتقداتهم الدينية لا تشـوبها شـائبة، وطبيعتهم تشـبه المرآة السـاطعة، ولم يحدث إطلاقا أن فردا من هذه الأسرة النبيلة انحرف عن الطريق القويم»[29].

كما أسـهمت أسلمة المدينة أيضا في إغلاق العقل العثماني. فقد أصيب هذا العقل بتخمة دينية، تماما كما يصاب العقل الحديث بتخمة التلفزيون. وافتقرت القسطنطينية الإسلامية إلى الأصالة الفكرية والروح الاستقصائية التي ميّزت بغداد أو قرطبة. ولم تنتج غير بضع روائع أدبية. وبسـبب ولعه بالثقافة الفارسـية، أتى محمد الثاني بالفيلسـوف الشـهير نصير الدين الطوسي(*) من إيران ليناقش المسـألة الجدلية الإسـلامية القديمة حول إمكانية التوفيق بين الدين والفلسـفة وضرورة المنطق الإنسـاني من أجل إدراك وجود الله. وخَلُص العلماء العثمانيون، ربما بسبب رفضهم وجهة النظر الفارسية، إلى أن إعمال العقل في الدين يمكن أن يوقع المرء في الزلل، وركزوا عوضا عن ذلك على مقاربة مدرسية ظلت تزداد ضيقا مع مر الزمن(**).

وبعـد العام 1454، غيّرت الطباعة وجه أوروبا. وبحلول العام 1500، كانت المطابع قد انتشرت في كل المدن الكبرى، من أكسفورد إلى نابولي، وأصبح النشر من أكبر الصناعات في أوروبـا الغربية. وأخذت الكتب المطبوعة تنشر القراءة والكتابة والمعرفة، ومن خلال إحلال النسـخ المطبعي محل النسـخ اليدوي نشرت روح الدقة أيضا. وفي المقابل، صدر في العام 1515 فرمان من سليم الأول توعد بالموت أي شخص يحترف علم الطباعة. ربما كانت الحكومة تريد أن تقصر استخدام الكتب على النخبة. وربما عارض العلماء الطباعة تأسيسـا على خطرها على النظام العام وتفسـيرهم للإسلام. وفي المقابل، ما كان للانتشار الخاطف للبروتستانتية في أوروبا الكاثوليكية، على سبيل المثال، أن يحدث، لولا الثلاثمائة ألف نسخة من أعمال مارتن لوثر التي طُبعت بين العامين 1517 و1520[30].

(*) لم يتزامن نصير الدين الطوسي (1201 – 1274م) مع محمد الثاني (1432 – 1481م). والمثير للاسـتغراب ورود هذه القصة في كتاب تاريخ الإمبراطورية العثمانية الصادر عن كيمبردج. والمرجح في شأن الصلة بين الرجلين أن اهتمام محمـد الثـاني بالعلوم والآداب دفعه إلى التوفر على جمع الكتب، ومن بينها، كما يقول مؤرخ العلوم التركي إحسـان فازيوغلو، مجموعة المتوسطات للطوسي الجامعة لرسائل في الفلك والميكانيكا والموسيقى. وقد أعدت بأمر من محمد الثاني نسخة منها. [المحرر].

(**) بمعنـى توظيـف العلم للدفاع عن الدين كما فعـل أتباع المدرسـية scholasticism في أوروبا إبان العصور الوسطى، ما أضر بالدين والعلم معا. [المترجم].

ثمة سبب آخر لمعارضة الطباعة، تمثل في الرابطة الباطنية بين الإسلام وفن الخط اليدوي الرفيع. ونظرا إلى أن القرآن كلام الله الحرفي، ونظرا إلى كونه أزليا ومقدسا، فإنه يستحق الكتابة اليدوية، علاوة على أن نسخه بالماكينة قد يبدو تجديفا. وثمة من يعتقدون أن النبي نفسه قال إن «الخط الجيد يبرز الحقيقة». ولم تُظهِر عائلة حاكمة إسلامية التقدير للخط اليدوي الذي أظهره له العثمانيون، حتى إن كثيرا من السلاطين كانوا أنفسهم خطّاطين. بل إن أعظم الخطّاطين العثمانيين، حمدالله الأماسي Hamdullah al-Amasi (1429 -1520) الذي نسخ القرآن سبعا وأربعين مرة، كان يعمل في القسطنطينية في الوقت الذي كانت أوروبا الغربية فيه تتبنى المطبعة. كانت لحمدالله ورشة في القصر السلطاني، وكان تلميذه بايزيد الثاني مزهوا بشرف اقتناء محبرة معلمه. والخط الذي ابتدعه المعروف باسم «خط الشيخ حمدالله» Seyh Hamdullah style، ازدهر خلال القرون الثلاثة التالية.

ثمة مقولة تقول إن «القرآن نزل في مكة، وقُرئ في مصر، وخُطّ في إسطنبول». ولذلك كان القلم والحبر (المعطر أو الملوّن أو المُذَهّب في أغلب الأحيان) ينالان في القسطنطينية التوقير الذي كانت السيوف أو الأقواس تحظى به في الثقافات الأخرى. وكان «جيش مظفر» من النقوش اليدوية يغطي جدران المساجد وقصور المدينة. وكان الخطّاطون إحدى الطوائف الحرفية الأساسية بالمدينة، وكانوا قادرين على توفير النسخ بسرعة وبأسعار رخيصة. وكانت الأساليب التي يتبعونها (أنواع الخطوط) يمكن أن تكون مختلفة تماما، كالفرق بين دورر وكلوت(*). وثمة حرفيون آخرون كانوا يؤطرون الأوراق المنسوخة يدويا، أو يحيطونها بورق مجزّع، أو يذهّبونها، أو يزيّنونها بالزهور. كانت هذه المخطوطات تعلق بعد ذلك على الجدران، في المساجد أو في البيوت، بالطريقة نفسها التي كانت الصور واللوحات تستخدم بها في الغرب. لكل هذه الأسباب، الأيديولوجية والتجارية والجمالية، وقبل ذلك الأسباب المتعلقة بالأسرة الحاكمة، لم تشهد القسطنطينية ثورة الطباعة التي شهدتها أوروبا. وفي ذلك كتب أحد سفراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة إبان القرن السادس عشر، هو بارون دي بوسبيك Baron de Busbecq المراقب حاد الملاحظة للمدينة، أنه:

(*) ألبريخت دورر Albrecht DÜrer (12 مايو 1471 إلى 6 أبريل 1528) رسام ونحات ألماني من نورمبرغ، وجان كلوت (1480 - 1541) Jean Clout رسام ونحات فرنسي عاش في عصر النهضة. [المترجم].

> لم تُظهِر أمة أخرى قدر الإقــدام على تبني الاختراعات المفيدة التي يبتكرها الآخــرون كما يفعل العثمانيون، ومن ذلك على ســبيل المثــال أنهم تبنوا المدافع الكبيرة والصغيرة والكثير من اكتشــافاتنا الأخرى وطوروها لاستخداماتهم. لكنهم مــع ذلك لم يتمكنوا قــط من تقبل طباعة الكتب وإنشــاء ســاعات في الميادين العامة. فثمة اعتقاد لديهم بأن كتابهم المقدس لن يظل مقدســا إذا طبع، وأنهم إذا أقاموا ســاعات في الميادين العامة، فإن ذلك ســيلحق الضرر بوظيفة مؤذنيهم وطقوسهم القديمة[31].

على أن كراهية الطباعة لم تكن شائعة كذلك بين غير المسلمين. وفي العام 1493، طبع ديفيد وصمويل ناحمياس David and Samuel Nahmias كتابا في الشريعة اليهوديــة باللغة العبرية بعنوان «الأعمدة الأربعة»، صَدّراه بهذه الكلمات: «هنا في القسطنطينية العظيمة في ظل الحكم الإسلامي للملك العظيم السلطان بايزيد، أمد اللــه في عمره، وكان في عونه، وأعلى شــأنه!» كان هذا الكتــاب أول كتاب يطبع في الإمبراطورية العثمانية، وتلته أعمال أخرى في الشريعة اليهودية والشروح الدينية.

وفي العام 1567، أنشأ أرمني تعلم في البندقية، أول مطبعة أرمنية في كنيسة القديس نيقولاس بالقرب من ينيكابي Yenikapi. اســتمرت المطبعة الأرمنية ثلاث سنوات فقط، وبعد انطلاقة فاشــلة أخرى في الأعوام 1677-1679، كانت بالقسطنطينية دوما مطبعة أرمنية تعمل، مع أن المدينة لم تجارِ في ذلك مدنا عالمية أخرى مثل البندقية وأمستردام، كمراكز للطباعة الأرمنية حتى القرن التاســع عشر. وفي العام 1627، وهو وقت متأخر فعلا، بدأت مطبعة يونانية، بمساعدة السفير الإنجليزي، بجوار سفارته في غَلَطَة، كانت أغلب مطبوعاتها الأولى كتيبات معادية للكاثوليكية واليهودية. لم تدم هذه المطبعة إلا أقل من ســنة، إذ قام جنود الانكشــارية بتحطيمها بعد اعتراضات من السفير الفرنسي، حامــي الكنيســة الكاثوليكية في الإمبراطوريــة العثمانية. لكن لم تكــن هناك أي قيود على اســتيراد الكتب(*). ومن خلال الكتب المطبوعــة في الخارج، في أغلبها في البندقية، كانــت الأقليات في القســطنطينية أسرع في الوصول إلى المعلومــات المطبوعة وأحدث الاكتشافات من الطبقة الحاكمة العثمانية. وبذلك تَقوّض تفوق النخبة العثمانية.

(*) في مقابل تحريم الطباعة، لم تحظر الإمبراطورية استيراد الكتب كما فعلت دول غربية كثيرة في ذلك العصر مثل إســبانيا بدعوى الخوف من الهرطقة والانشقاق الديني والأفكار المستوردة الهدامة، في المقام الأول بتحريض محكمة التفتيش وتحت رقابتها. [المترجم].

بيد أن كراهية الطباعة لم تكن المثال الوحيد لمقاومة انتشـار المعرفة من جانب العلـماء. ففي العام 1580، حرض المفتي الغوغاء على تحطيم مرصد ضخم حديث جـدا كان السـلطان مراد الثالث قـد أكمله قبل ثلاث سـنوات في غَلَطَة، إذ اعتبره المفتي نذير شـؤم ومصدر وبال على الإمبراطورية. ولم يُفتتح المرصد العثماني التالي إلا في العـام 1868. وفي العام 1605، حُطم أرغـن ميكانيكي، كانت الملكة إليزابيث الأولى قد أرسـلته إلى محمد الثالث، لأن وضعـه على التراب المقدس لقصر توبكابي اعتـبر أمرا مدنسـا. وفي العام 1716، منـع المفتي التبرع بكتـب في التاريخ والفلك والفلسـفة من مكتبة أحد الصدور العظماء السـابقين لإنشاء مكتبة عامة. يبدو أن العائلة العثمانية، بعد أن أنشأت المدينة الإسلامية، تحوَّلت دون أن تدرك ذلك كليا، إلى سجناء داخل هذه المدينة[32].

كانت القسـطنطينية، ولاتزال، مدينة التناقضات. فقد أُصبحت مدينة مقدسة للمسلمين، وفي الوقت عينه ظلت مدينة مقدسة للمسيحيين الأرثوذكس. ألم يصفها الإمبراطـور البيزنطي الأخير في خطابه إلى جنوده بالقـول: «هذه هي المدينة التي باركها قسـطنطين الأكبر [يعد قديسـا في التقويم الأرثوذكسي] ثلاثا وأسسها وكرّسها لأم الرب البتول المقدسة، السيدة مريم العذراء الخالدة؟» كما بوركت المدينة بفعل وفرة الآثار المقدسـة على أرضهـا، إذ احتوت عباءة أم الـرب و«العباءة الأرجوانية والرمح والإسفنج والسهم [التي عُرِضت على السيد المسيح أثناء الصلب] التي كانت تمكّننـا حين نقبلها من الاعتقاد بأننا رأيناه مرفوعا عـلى الصليب». وثمة آثار دينية أخرى أقل شـأنا، شملت طاولة العشاء الأخير، وأبواب سفينة نوح، ورفات الحواري أندراوس. ومع أن معظم الآثار اختفت خلال أعمال النهب التي تعرضت لها المدينة في العام 1204 و1453(*)، فقد بقيت هالة القداسة[33].

بعد العـام 1453، كان معظم الأوروبيين يؤمنون بأن الدولة لا يمكن أن تزدهر إلا إذا فرضـت الوحدة الدينية على رعاياها(**). وإبان القرن السـادس عشر، كان «الزنادقـة يُحرَقـون أحيـاء في لندن وبرلـين، ويذبحون في باريـس، ويطردون من

(*) يشـير التاريخ الأول 1204 إلى نهب المدينة على أيدي الحملة الصليبية الرابعة بقيادة البندقية. ويشـير التاريخ الثاني 1453 إلى سقوط المدينة أمام جيش محمد الفاتح. [المترجم].

(**) بهاجـس الوحدة الدينية التي كانت أساسـية لأمن الدولة وقوتها، طرد ملوك إسـبانيا اليهود ثم المسـلمين، وأطلقوا محاكم التفتيش لمطاردة المخالفين والخارجين على هذه الوحدة. [المترجم].

فيينــا. وفي العام 1685، طرد لويــس الرابع عشر الفرنــسي الهوغونوت جميعا من فرنسا(*)، وحتى العام 1700 كانت حشود فرحة على رأسهم ملوك إسبانيا وملكاتها، يشــاهدون الزنادقة وهم يُحرَقون أحياء في الساحة الكبرى بمدريد. لكن في المقابل، منحــت الإمبراطورية العثمانية الحرية الدينية للمســيحيين واليهود. وفي ذلك كتب جــورج المجــري George of Hungary إبان القرن الخامس عــشر أن «الأتراك لا يُكرِهون أحدا على ترك دينه، ولا يحاولون إقناع أحد بذلك، وليست لديهم مواقف متشــددة من المرتدين». وإبان القرن الســابع عشر، ومن منظور الرحالة والكاتب مسيو دي لاموتراي Monsieur de La Motraye، «لم يكن ثمة بلد على وجه الأرض تُمارَس فيه كل الأديان بالحرية والرحابة التي تُمارَس بها في تركيا». كان المســيو يعي ما يكتبه جيدا نظرا إلى كونه هو نفسه من الهوغونوت الذين طُردوا من فرنسا بعد العام 1685[34].

حدثت نقطة حاســمة إبان القرن الســادس عشر. ففي العــام 1521، ومجددا في العام 1537، في وقت الحروب مع القوى المســيحية، فكر ســليمان القانوني ابن ياوز ســليم في تحويل كل الكنائس إلى مســاجد، بل فكر في العام 1521 في قتل كل المســيحيين الذين لا يقبلون الإســلام. لم يكن ســليمان الذي عُرِف باسم «القانوني» بعــد ذلــك في اللغــة التركيــة (**)، يتفهم لماذا أبقــي على الكنائــس، على خلاف الشريعة الإســلامية، مادامت القسطنطينية رفضت الاستسلام وأُخِذت بالسيف. وفي المناســبتين، تدخلت كنيسة المدينة لحماية الوضع الراهن. ففي العام 1521، أسرع المفتي والصدر الأعظم إلى تحذير البطريرك قبل أن يتخذ سليمان القرار. وأتى محام للبطريرك بثلاثة انكشــاريين مسنين أقسموا أمام سليمان إنهم رأوا وجهاء اليونانيين يسلمون مفاتيح أحيائهم ومناطقهم إلى الفاتح على صينية ذهبية.

(*) الهوغونوت أو البروتستانت الكالفينيون هم أعضاء كنيسة فرنسا الإصلاحية البروتستانتية خلال القرنين السادس عشر والســابع عشر الذين تأثروا بآراء المصلح جون كالفن، تعرضوا للاضطهاد في فرنســا، وفر كثيرون منهم إلى الدول البروتستانتية. [المترجم].

(**) يُعرَف الســلطان سليمان في الكتابات الغربية باســم Suleyman the Magnificent، بمعنى سليمان المهيب أو الجليل، ولقبه المتداول عربيا وتركيا - «القانوني» - غير متداول تماما في الكتابات الغربية. وثمة اختلافات أخرى في ألقاب الحاكم الواحد ترجع إلى اختلاف النظرة إلى الحاكم بين الحب والكراهية من جانب الثقافات والأمم المختلفة، مثل ياوز ســليم والد ســليمان الذي يسمى في الكتابات الغربية باسم «ســليم العبوس» ويسمى في الكتابات التركية والعربية «سليم القاطع». [المترجم].

وفي المناسبة الثانية، اكتظت المنطقة الواقعة بين القصر وجامع آيا صوفيا بالمسلمين والمسيحيين واليهود في انتظار قرار السلطان. وغرق البطريرك في عرقه مثل المسيح على الصليب. لكن الصدر الأعظم كان يدعمه، وكذلك أعلن المفتي باعتباره السلطة القانونية الإسلامية الأعلى في الإمبراطورية أن «القسطنطينية على حد علمنا أخذت بالقوة، لكن عدم المساس بالكنائس يعني أن المدينة استسلمت بمعاهدة». وقد قبل السلطان هذا القرار[35](*).

وعلى مدار معظم التاريخ العثماني، ظل سكان القسطنطينية نحو 58% مسلمين و42% مسيحيين ويهودا، ربما بسبب سياسة متعمدة من الحكومة (كانت النسب نفسها معتادة في المدن العثمانية الأخرى). فلم تبذل الحكومة محاولات لإكراه غير المسلمين على دخول الإسلام، حيث كان المسيحيون يدفعون ضرائب أعلى من المسلمين، وكانت الحكومة العثمانية أحرص على زيادة عائداتها منها على إنقاذ الأرواح. وفي العام 1547، كانت هناك سبع وستون كنيسة عاملة في القسطنطينية، وعشر (أغلبها كاثوليكية) في غَلَطَة. وبحلول العام 1640، كان لكل من الفرانسيسكان والدومنيكان واليسوعيين والكبوشيين، وهم أعمدة الحركة المضادة للإصلاح، كنيسة في غَلَطَة. وكانت المواكب الكاثوليكية، ومنها مواكب جلد الذات العامة، تجوب الشوارع في عيد الميلاد وعيد القربان.

مارست الكنيسة الأرثوذكسية دورا أكثر بروزا في حياة المدينة. ففي عيد الظهور (في السادس من يناير)، وأمام حشد متحمس في أرناؤوطكي Arnavutkoy وطرابيا Tarabya وغيرها من القرى ذات الأغلبية الأرثوذكسية، كان أحد الأساقفة يبارك مياه البسفور. وبعد ذلك كان الأسقف يقذف صليبا إغريقيا في البحر بكل قوته، ثم يندفع الرجال خلف الصليب شبه عراة مصحوبين بالهتافات والصيحات، وتشاهدهم حشود من اليونانيين فوق القوارب. وكان السباح الذي يتمكن من الإتيان بالصليب وحمايته من منافسيه، يكسب مبلغا ماليا كبيرا، ويحمل الصليب من بيت إلى بيت، ويعد من المحظوظين بقية السنة. وعلى مدار ثلاثة أيام في كل عيد فصح، وكما يحدث مع تلاميذ

(*) على خلاف ذلك، ومع أن غرناطة سُلمت للملكين الكاثوليكيين بمعاهدة كفلت للمسلمين حقوقهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية كافة، فإن الملوك الإسبان، وأولهم الملكان الكاثوليكيان أنفسهما فرناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية اللذان وقعا المعاهدة، خرقا هذه التعهدات وشرعا في تنصير المسلمين قسرا، وفي النهاية طردهم من إسبانيا في أكبر سابقة من نوعها في التاريخ في الأعوام 1606-1614 .[المترجم].

المدارس الذين يُعطون إجازة، كان اليونانيون مسموحا لهم بالرقص في شوارع المنطقتين ذات الأغلبية اليونانية: الفنار وبيرا. وكما يذكر المؤرخ دابونتيز Dapontes، فإن الصدر الأعظم نفســه كان يأتي أحيانا لمشــاهدة الرقص، «وكانت القســطنطينية تشهد بهجة واحدة واحتفالا واحدا طوال تلك الأيام الثلاثة».



الرســام لويجي ماير Luigi Mayer منظر للألعاب النارية التي أطلقها اليونانيون في عشية عيد القديس يوحنا في طرابيا، في نحو العام 1790. بعد العام 1780، كانت طرابيا أحد منتجعات المتعة الأساســية في المدينة ومقرا صيفيا للسفراء. تحتوي البيوت فيها على إفريز تركي عريض وطوابق علوية بارزة. تبيّن أمثال هذه المشــاهد الحرية التي تمتع بها اليونانيون في الاحتفال بأعيادهم ومهرجاناتهم. كان ماير رســاما محترفا، عمل بمبلغ خمســين جنيها في السنة لمصلحة سير روبرت ايْنزلي Sir Robert Ainslie.

كان انتخــاب البطريرك الجديد من جانب المطارنة والوجهاء حدثا نظاميا، وإن كان مكلفا (ذلك أن الســلطات العثمانية كانت تطالب برســوم أعلى باطراد). وكان هناك دائما مرشــحون كُثر متلهفون للســلطة، حتى إنه بين العامين 1595 و1695، حدث واحد وســتون تغييرا للبطريرك، على الرغم من أن الفترة نفسها لم تشهد غير واحد وثلاثين بطريركا فقط[36].

كانت الهوية المتعددة جوهر القسطنطينية، وكانت المدينة تكتسي تعبيرا بصريا لدى عودة البطريرك الجديد من قصر السلطان بعد أن يسلمه الأخير براءة berat تعيينه. كان البطريرك، مصحوبا بالكهنة الأرثوذكس على ظهور الخيول وجنود الانكشارية العثمانيين، يرتدي قفطانا عثمانيا زاهيا فوق أرديته الأرثوذكسية السوداء. وأمام الكنيسة البطريركية، كان أحد سكرتيري الصدر الأعظم يقرأ فرمان التعيين، ثم يأخذ بيد البطريرك المُعيّن عبر صحن الكنيسة إلى العرش البطريركي (المصنوع من الخشب المطعم بعرق اللؤلؤ والعاج، فكان بذلك عثمانيا مثل القفطان). وبعد أداء القداس، كان البطاركة السابقون والمطارنة يقولون كلمات فيها ثناء على البطريرك الجديد، ثم يتتابع المؤمنون الذين تكتظ بهم الكنيسة لتقبيل يد البطريرك ويتلقون بركته ويضيئون الشموع احتفالا بالمناسبة.

كانت تقوم على خدمة البطريرك، بصفته وريثا لشيء من غموض الأباطرة البيزنطيين، حاشية مرافقة وإدارة. فكان أمين المالية Grand Economus يشرف على أموال الكنيسة الكبرى وضياعها الممتدة، وأمين الأختام Grand Logothete يمسك بالأختام، وأمين الاتصال Grand Referendius يتولى اتصالات البطريرك - باللغة اليونانية - مع السلطات العثمانية. ومع أن هؤلاء المسؤولين الكبار كانوا عموما من العلمانيين الأثرياء، فإن بيت البطريرك البسيط كان يقوم رهبان على خدمته، حيث كان نحو خمسة عشر كاهنا وراهبا يجلسون على الطاولة مع «قداسته» الذي كان يرتدي عادة عباءة رهبانية وقبعة من اللباد، ويخاطبه مرؤوسوه بلا خجل[37]. وكان الإنفاق على بيت البطريرك يأتي من الرسوم التي تحصل على الزواج والتعميد وترسيم الكهنة، ورسم صغير على البيوت المسيحية وبيع الكراسي الأسقفية.

كان نفوذ البطريرك المسكوني يمتد أبعد من نفوذ السلطان إلى دولتي جورجيا وموسكوفا الأرثوذكسيتين المستقلتين. فإذا كان طريق الحج يأخذ المسلمين من القسطنطينية إلى مكة والمدينة، فثمة طريق آخر كان يأتي بالمسيحيين إلى القسطنطينية من «روسيا المقدسة». لم يكن هؤلاء يأتون إلى القسطنطينية لوجودها في الطريق إلى القدس فقط، بل أيضا لزيارة الأضرحة والآثار الأرثوذكسية الباقية. وكانت المدينة كذلك مشهدا لمجالس منتظمة للكنيسة الأرثوذكسية، كان يحضرها دائما البطاركة التابعون في الإسكندرية وأنطاكية والقدس الذين كانوا في الأغلب

يقيمون في القسطنطينية. وفي عيد الفصح للعام 1704، على سبيل المثال، أقام البطاركة الأربعة جميعهم القداس في المدينة.

كانت الصلات الأسرية مع روسيا تعيد تأكيد قدر القسطنطينية الأرثوذكسي. فابنة شقيق الإمبراطور البيزنطي الأخير زوي باليولوجينا Zoe Palaeologina التي تعلمت على يد البابا، كانت قد تزوجت من إيفان الثالث أمير موسكو الأكبر في العام 1472 (*)، ما قوى ادعاء روسيا بوصفها القوة العظمى الأرثوذكسية الأخيرة بأنها «روما الثالثة»(**) ووريثة الإمبراطورية البيزنطية. وفي العام 1498، تُوّج الأمير الأكبر لأول مرة قيصرا، مستخدما نسخة من مراسم التتويج البيزنطية. وعاد النسر ذو الرأسين شعار الإمبراطورية البيزنطية ليفرد جناحيه على سترة القيصر وذراعيه. وفي العام 1516، لمّح البطريرك المسكوني ثيوليبتوس الأول Theoleptus I إلى القيصر بإمكانية خلق إمبراطورية روسية - بيزنطية[38].

وقد سُمِح لأحد البطاركة المسكونيين، هو أرميا الثاني Jeremiah II «الأكبر» بأن يجوب البلاد طلبا للمال. وفي موسكو قال أرميا للقيصر في العام 1588: «حيث إن روما الأولى سقطت بسبب البدعة الأبوليناريوسية(***)، وإن روما الثانية، وهي القسطنطينية، أخذها الأتراك الكفرة، فإن القيصرية الروسية العظيمة الأكثر إيمانا من المملكتين السابقتين، يا أيها القيصر الورع، هي روما الثالثة .. وأنت الوحيد تحت قبة السماء الذي يسمى الآن الإمبراطور المسيحي لكل المسيحيين في العالم أجمع». من الواضح أن البطريرك لم يكن لديه اعتراض على أن «يقوم الإمبراطور المسيحي لكل المسيحيين» بطرد «الأتراك الكفار». على أنه إبان القرنين

(*) بعد روما الأولى الإيطالية وروما الثانية الشرقية ممثلة في القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية. [المترجم].

(**) بسبب زيجة مماثلة دخلت أمة الروس في المسيحية في العقد الثالث من القرن الحادي عشر. كانت الوثنية هي الديانة الرسمية لأمراء نوفغورود (روسيا)، واحتار حاكمها فلاديمير في الاختيار بين الأديان السماوية الثلاث، إلى أن حُسمت المسألة عندما طلب منه الإمبراطور البيزنطي الجديد باسيل الثاني Basil II (967 - 1025) المساعدة العسكرية لقمع ثورة داخلية، في مقابل تزويجه أُخته أنّا Anna واعتناقه المسيحية. [المترجم].

(***) ينسب هذا المذهب إلى أبوليناريوس اللاذقي Apollinaris of Laodica الذي قال إن عقل المسيح لا يمكن أن يكون بشريا، وإن جسد المسيح وروحه (مستقر المشاعر) بشريان، لكن عقله إلهي. واعترف مجمع نيقية للعام 325 بمذهب الثالوث الأقدس ردا على المذهب الآريوسي الذي يقول إن المسيح بشر، فيما استمر الجدل حول معنى الثالوث الأقدس. أثارت آراء أبوليناريوس جدلا ورفضها سنودس الإسكندرية في العام 362، وأعلنها المجمع الأول بالقسطنطينية هرطقة لكونها تنزع عن المسيح كونه إلها وبشرا معا، معلنا أنه بشري كليا وإلهي كليا. [المترجم].

السادس عشر والسابع عشر، كانت الإمبراطورية العثمانية أقوى من أن يتمكن القياصرة من التوسع في أراضيها، علاوة على أن تركيز القياصرة كان منصبا على استعادة الأراضي التي انتزعتها منهم مملكة بولندا - ليتوانيا في الغرب. لكن المشهد تهيأ لواحدة من سلاسل الأحداث الدرامية في التاريخ الأوروبي إبان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهي اندفاع الروس جنوبا إلى البحر الأسود ومنطقة البلقان والجائزة النهائية: تساريغراد أي مدينة القياصرة، «ينبوع التعميد بالنسبة إلى روسيا»(*). وقد كان بطريرك القسطنطينية أحد مؤلفي هذه السلسلة الدرامية.

عمل أرميا الثاني أيضا على إحياء التعليم اليوناني، فقرر في العام 1593 إنشاء مدارس «للكتب المقدسة الإلهية والباطنية لأولئك الذين يريدون التعليم والتعلم». وكانت الأكاديمية البطريركية أفضل مدرسة تُفتح لليونانيين، وحظيت برعاية الكثير من قادتهم الدينيين والفكريين، وكانت استمرارا مباشرا لجامعة القسطنطينية السابقة على العام 1453[39].

أدت الصلات بين القسطنطينية وروسيا إلى واحدة من حالات الإعدام الأربع للبطاركة المسكونيين خلال عمر الإمبراطورية العثمانية. كان القيصر أليكسيس Alexis والد بيتر الأكبر، أحد أقوى القياصرة الروس منذ إيفان الرهيب، وقد تزامن حكمه مع إحياء للآمال الأرثوذكسية باستعادة القسطنطينية، أو ربما كان هو مبعثها. فأخذت الكنيسة البطريركية بالمدينة إبان العقد السادس من القرن السابع عشر تقدم صلواتها له ولزوجته، ووعد القيصر بأنه سيعمل «لآخر قطرة» من دمه على إنقاذ اليونانيين. وفي الحادي والعشرين من مارس 1657، شُنق البطريرك بارثينيوس الثالث، بأوامر الصدر الأعظم، على أحد أبواب المدينة، لأنه كتب إلى أمير ولاشيا قائلا إن عصر الإسلام يقترب من نهايته، وقريبا «سيكون أمراء الصليب والأجراس سادة الإمبراطورية». وفيما بعد، ونتيجة لذلك، وفي علامة على الخزي، أخذ الصدر الأعظم، وليس السلطان، يسلم البطريرك كسوته وقرار تعيينه[40].

كان التوتر والتسامح الديني معا يسمان الحياة الدينية في القسطنطينية. فكان المسلمون يعبّرون دائما عن احتقار المسيحيين والارتياب فيهم. وتفاخر

(*) تساريغراد Tsarigrad هو الاسم المحبب للقسطنطينية لدى الصرب والبلغار والروس. [المترجم].

خوجة سـعد الدين Hoca Sa'deddin معلم مراد الثالث ومحمد الثالث، بأن «كنائـس المدينـة أفرغت من أصنامها الحقيرة وطُهرت من الشـوائب القذرة والوثنية، ومن خلال طمس صورهم ونصب محاريب الصلاة والمنابر الإسلامية، أصبـح كثـير من الأديـرة والمصليات لآلـئ في حدائق الجنـة». كان التحويل المتكـرر للكنائس (إجمالا اثنتان وأربعون كنيسـة) إلى مسـاجد، تأكيدا على سيادة الإسـلام. صاحب ذلك التجصيص فوق الفسيفساءات والرسوم الجصية المسـيحية، والتخلص مـن الأيقونات، وإدخـال محاريب الصـلاة البيضاوية المتجهة ناحية الجنوب الشرقي إلى مكة إلى يمين المذبح الأساسي السابق المتجه ناحيـة الجنوب إلى القدس. وفي العقد الأخير مـن القرن الخامس عشر، جرى تحويل كنيسة سانت سيفيورSt Saviour البيزنطية المتأخرة الواقعة في خورا بالفسيفسـاء الفريدة لحياة السيد المسـيح فيها(*)، إلى جامع كاري Kariye Cami. وفي غَلَطَة في العام 1545، طُمست معالم كاتدرائية القديس ميخائيل، وحل محلها خان رسـتم باشـا. وفي العام 1586، أُخِذ مقر البطريرك نفسـه - كنيسـة باماكاريتسـوس Pammacaristos المتألقة - بحجـة أن محمد الثاني صلى فيها حين زار البطريرك جناديوس[41]، وسُميت جامع الفتح، احتفالا بفتح الإمبراطورية لأذربيجان(**).

وبعـد عملية نقل ثانيـة في العام 1601، أقيمت البطريركية بجوار كنيسـة القديـس جورج في الفنار، وهو المكان الذي توجد فيه اليوم. ثمة رواية تقول إن السـلطان أرسـل المعماريين الذين استخدمهم في جامع السـلطان أحمد لإعادة بناء الكنيسـة. وكان سـكن البطريرك عبارة عن بناية خشـبية من ثلاثة طوابق تختفي تماما وراء حائط الفناء الخارجي. وبذلك غدت الكنيسـة الأم للمسيحية الأرثوذكسية بانخفاض بنايتها وافتقارها إلى قبة مرئية، أصغر من معظم الكنائس الأبرشـية الإنجليزيـة. وتتمثل زخرفتها الأساسـية في الفاصل الأيقوني الخشـبي

(*) تُعرَف أيضا باسـم كنيسـة خورا Chora التي تعني «خارج الأسوار» في إشـارة إلى وقوع الكنيسة خارج أسوار المدينة [المترجم].

(**) ثمـة كنائس أخرى حُوّلت إلى مسـاجد في الأعـوام 1627 و1640 و1695. من الكنائس التي ظلت كنائس بلا انقطاع منذ العام 1453، الكنيسـة الصغيرة القديسـة مريم للمغول St Mary of the Mongols الواقعة في الفنار، التي لاتزال تعرض فرمان الحماية الإمبراطوري على جدارها. [المؤلف].

المنحوت في الداخل، ونسر بيزنطة ذي الرأسين في الخارج. تتضح هذه البساطة بالمقارنة مع بهاء جوامع السلاطين في القسطنطينية ومقابلها الكاثوليكي، وهو كنيسة القديس بيتر في روما.

نظريا، وكما تقضي الشريعة الإسلامية، لا يمكن بناء كنائس جديدة في مدينة إسلامية، ولا يمكن إعادة بناء كنيسة، إلا إذا شهد شيوخ المسلمين المحليين بأن كنيسة كانت توجد فعلا في هذا المكان، على أن يقوم أحد المعماريين الحكوميين بالتحقق من أن الكنيسة لم يعد بناؤها على مساحة أكبر. لكن على أرض الواقع، كانت الغلبة دائما للمال والتصميم اليونانيين على القوانين العثمانية. ومع فقدان كنائس قديمة، كانت أخرى جديدة تُبنى، وإن اشْتُرِط أن تكون بلا أبراج أو قباب مرئية وبلا بهارج، وحتى اليوم لاتزال الكنائس التي بُنيت قبل العام 1800 تختفي وراء أسوار عالية وغير مرئية للناظر من الشارع. وكانت أجراس الكنائس محظورة، فكانوا ينادون للصلاة بمخشخشات من أعواد الخشب أو قضبان الحديد أو منادين يجوبون الشوارع. وبحلول القرن الثامن عشر، كانت هناك أربعون كنيسة أرثوذكسية، ثلاث منها فقط بُنيت قبل الفتح(*). ومنذ فتح المدينة في العام 1453 حتى اليوم الحالي، بُنيت خمس وخمسون كنيسة أرمنية جديدة في القسطنطينية، بعضها إبان القرن السادس عشر، وهو وقت مبكر فعلا[42].

كان التوتر بين المسلمين والمسيحيين يؤدي أحيانا إلى شهداء فرديين من المسيحيين، لأسباب لا تتعلق بالدين الأصلي للمقتول، بل لاتهامات من الجيران بأنه اعتنق الإسلام ثم ارتد إلى المسيحية. والردة عن الإسلام، بموجب الشريعة تُعاقب بالقتل. غير أن السلطات العثمانية كانت تحجم غالبا عن تنفيذ هذا الحد، وكانت تشجع المسيحيين المتهمين على التظاهر بالإسلام، لكن قلة من المسيحيين كانوا يقبلون ذلك. تكشف الحادثة التالية التي سجلها ديبلوماسي هابسبرغي يدعى بارون راتيسلاو Baron Wratislaw في العام 1599 مثالا لثبات المسيحيين أمام الضغط الإسلامي.

(*) على مدار تاريخ المدينة البيزنطية كاملا، بُني نحو أربعمائة وخمسين كنيسة. [المؤلف].

جمع الحب بين شاب وفتاة من اليونانيين. فغادر الشاب القسطنطينية ليشتري أفضل خمر حلو من جزيرة كريت لحفل الزفاف. وفي أحد الأيام، بينما كانت الفتاة في طريقها إلى الحمّام بلا حجاب (في الشوارع، كانت النساء المسلمات «يغطين أنفسهن تماما»)، رآها شيخ تركي، فقال «يالها من فتاة جميلة فاتنة!» ووقع في حبها. ولأنه رسول ثري في بلاط السلطان، فقد تمكن من سجن أسرتها والزواج منها. وبذلك أصبحت الفتاة مسلمة(*)، على الرغم من أنها ظلت مسيحية من داخلها.

وحين عاد حبيبها من كريت، بدأ الحبيبان يلتقيان سرا في خيمة في حديقة زوجها. وكانت تعطي لحبيبها المال. واكتشف الزوج الأمر في النهاية، «إذ إن كل شيء هناك كان يمكن أن يشترى بالمال» (وهو الرأي الذي كان سائدا بين معظم المراقبين الأجانب إزاء القسطنطينية العثمانية). واستطاع الزوج الغاضب أن يدينهما بجريمة الزنا. مضى الشاب في طريقه إلى الإعدام في ثبات إلى درجة أن كبير الرسل الإمبراطوريين أعجب به وعرض عليه أن ينقذ حياته إذا أسلم. «لكن الشاب لم يتزحزح عن ثباته، وأجاب بأنه وُلِد لأبوين مسيحيين وعُمِّد ونشأ مسيحيا وسيموت مسيحيا أيضا». وحيث إن رفض الشاب كان يقرر مصير الفتاة أيضا، فقد أخذت الفتاة تحثه على إعلان اعتناق الإسلام «بكل التوسلات الممكنة وأشدها». لكن ثبات الشاب دفعها إلى سبّه: «كلب! خائن! وثني! يهودي! مت لأنك تستحق الموت». وفي النهاية لعنت الفتاة اليوم الذي قابلت فيه الشاب. وتعاطفت الحشود المسلمة مع العاشقين الشابين، فأخذت تحثه هي الأخرى على اعتناق الإسلام. لكنه قاوم. وقاسى الشاب ثلاثة أيام «معلقا على الخطاف»، إلى أن أشفق عليه أحدهم وأطلق عليه النار. وأُخِذت الفتاة إلى البحر وألقيت من المركب وأمسكت تحت الماء حتى ماتت غرقا، لكنها لم تكن على أي حال المرأة الوحيدة في القسطنطينية التي كان البسفور قبرا مائيا لها[43](**).

(*) زواج غير المسلمة بالمسلم لا يوجب اعتناقها للإسلام. [المترجم].

(**) لا شك في أن قصص الثبات على الدين من هذا النوع وقعت كثيرا على الجانبين كليهما، المسيحيين الخاضعين للحكم الإسلامي كما في حالة الإمبراطورية العثمانية، والمسلمين الخاضعين للحكم المسيحي كما في حالة إسبانيا بعد سقوط ممالك المسلمين فيها. لكن من المؤكد أيضا أن قصصا كثيرة من هذا النوع اختلقها البعض في الجانبين لتثبيت الخاضعين والمضطهدين على دينهم، حتى إن بعضها تحوّل إلى أساطير، ومنها مثلا - في جانب المسلمين المضطهدين - حكاية «كركايونة Carcayona العذراء مقطوعة اليدين» التي هدتها للإسلام ←

حدث كثير من أمثال هذه المآسي. ففي أواخر القرن السابع عشر، سُمِع صبي يوناني يقلد أذان المؤذن. وحيث إنه بذلك اعتنق الإسلام دون قصد، فقد طلب منه أحد المارة الأتراك أن يعتنق الإسلام، وحين رفض، وُضع في السجن وأعدم في النهاية، وعدَّه اليونانيون شهيدا آخر.

كانت مناظر المساجد وأصوات المؤذنين تجعل الإسلام مرئيا ومسموعا في أنحاء القسطنطينية كافة. لكن تحت سطح الإسلام المنتصر، كان هناك عالم مسيحي مائي. ينشأ مفهوم الماء المقدس أو الينابيع المقدسة من الاقتران البدائي بين الماء والحياة والتطهر. ولا يقتصر الأمر على المذهب الأرثوذكسي، فثمة ينابيع مقدسة كاثوليكية في أيرلندا وفرنسا، وكذلك زوار ضريح أبي أيوب كانوا يعتقدون أن المرء يبرأ من الأسقام إذا شرب من الصهريج المجاور للضريح. لكن لا توجد مدينة تحتوي على عدد الينابيع المقدسة الذي تحتوي عليه القسطنطينية. كانت هذه العيون ينشئها عادة أناس من العلمانيين، ما كان يعد شهادة على الحماس المسيحي، وكذلك على حقيقة أن قوانين البناء العثمانية لم تمتد إلى ما دون سطح الأرض.

كان المسيحيون يعتقدون أن الماء المقدس يجلب الحظ ويبرئ من الأمراض، تماما مثل اعتقاد المسلمين في العبير الذي يفوح من أضرحة «أولياء الله» المسلمين. وفي يوم عيد القديس الذي تسمى العين (التي تعني أيازما ayazma باللغة اليونانية) على اسمه، كان الزوار يأتون ويصلون، ثم يشربون من الماء المقدس ويغسلون وجوههم وشعرهم ويصبونه على ملابسهم، ولاحقا أضافوا الأكل والرقص والمصارعة. وحتى القرن العشرين، كان كثير من هذه العيون يكتشف في أنحاء المدينة كافة، تحت البيوت الخاصة، وبالقرب من المساجد، وحتى بجانب قصر السلطان. وقد أحصى مؤرخ يوناني من المدينة،

← حمامة ذهبية، فقطع أبوها الوثني يديها لإسلامها. طرِدت كركايونة من بيتها بسبب دينها، وعاشت في كهف في رعاية الحيوانات البرية إلى أن وقع ملك أنطاكية في حبها وتزوجها. وحين دفعتها زمرة غيورة في بلاط الملك إلى البرية مرة أخرى، أنقذها أصدقاؤها الحيوانات وأعيدت يداها في معجزة مكافأة لها على إيمانها وورعها قبل أن ينقذها زوجها أخيرا ويعيدها إلى العرش. انتشرت هذه الأسطورة بين الأندلسيين الذين أكرهوا على التنصر بعد سقوط ممالك المسلمين في إسبانيا، ما يكشف أن كثيرا من هذه القصص اختلقت عمدا لتثبيت المضطهدين على دينهم (ماثيو كار، الدين والدم – إبادة شعب الأندلس، ترجمة مصطفى قاسم، أبوظبي: مشروع كلمة - هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، 2013). [المترجم].

هو نيقولاوس أديموغلو Nikolaos Adjemoglou رئيس جمعية القسطنطينية بأثينا، خمسمائة وأربع عشرة بئرا في المدينة[44].

كانت أشــهر بئر تقع خارج أسوار المدينة، في فناء الكنيسة الأرثوذكسية المبجلة ســيدتنا للسمك Our Lady of the Fish بحي باليكلي Balikli، التي أنشئت إبان القرن الخامس. في العام 1453، كان أحد الرهبان يقلي سمكا في الكنيسة، حين قالوا له إن المدينة قد سقطت أمام العثمانيين. لكن الراهب رفض أن يصدق الخبر إلا إذا عاد السمك نصف المقلي إلى الحياة وقفز من المقلاة إلى البئر، وهو ما فعله السمك الذي ظل محفوظا نصف مســود بفعل القلي، وكان يُعرض على الزوار في بئر عميقة حتى القرن الحالي. وآمن كثير من المســيحيين بأنه حين يكتمل قلي السمك، سترجع المدينة مسيحية مرة أخرى(*).

كانت الأسر تأتي إلى كنيســة ســيدتنا للســمك تطلب منها الإنجاب. وكانوا حين يصلون يدفعون للدير نذرا سنويا صغيرا عن سبع سنوات. وطلبا للشفاء، كان الزوار المرضى يأتون حفاة مرة كل أســبوع. وكانت تباع في الفناء أعين وأســنان وأذرع من الفضة حتى تُركّب في العضو الملائم. وإذا رأى الحجاج ســمكة في البئر، فإنهم كانوا يصيحــون فرحا. وكان الكهنة يصبــون عليهم أباريق من الماء في مقابل أجر. وكانت أيقونة ســيدتنا للســمك تتنقل بانتظام في أرجاء المدينة، لتجلب السكينة إلى أسرة المرضى والبركة إلى بيوت المتزوجين حديثا.

لم تكن القســطنطينية مدينة التناقضــات antitheses فقط، بل كان القصر نفسه، خاصة في الفترة الكوزموبوليتانية إبان عهد محمد الثاني، مصدرا للتوليف بين الشرق والغرب. وكذلك كان الدين الشعبي مصدرا آخر لهذا التوليف. كانت القســطنطينية واحدة من المدن القليلة التي عاش فيها المســلمون والمسيحيون جنبا إلى جنب لعدة قرون، بنســب متســاوية تقريبا. ليس مفاجئا إذن أن يؤثر الدينان أحدهما في الآخر. من ذلك على ســبيل المثال، أن المسلمين كانوا يوقرون كنيســة باليكلي مثل المســيحيين. وفي العام 1638، قيل إن السلطان مراد الرابع طلب من الرهبان أن يصلوا ويدعوا له بالنصر على الفرس، وفي اليوم الذي صلوا فيه، استولى السلطان على بغداد.

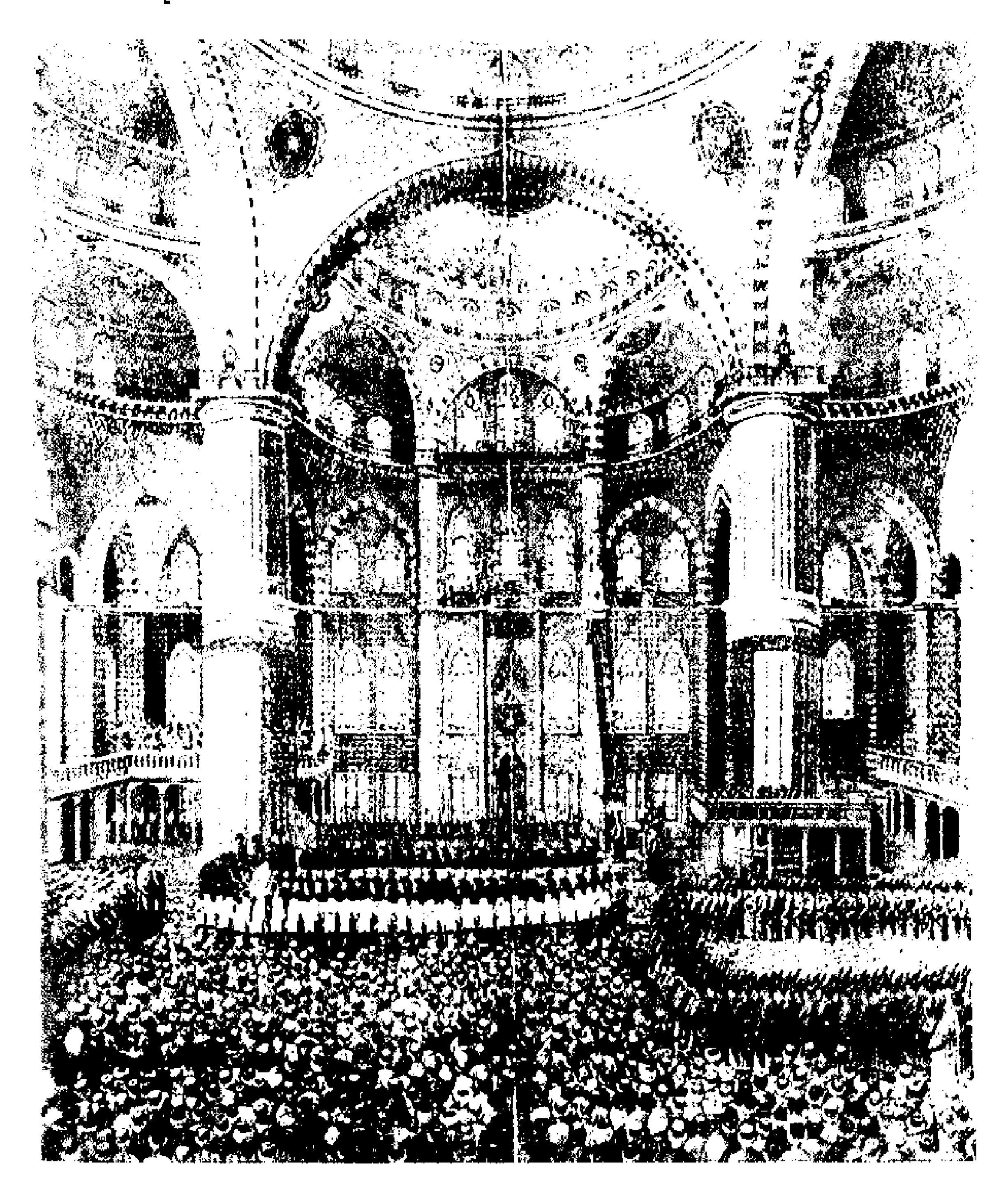
(*) في زيارة في يوم أحد من شهر أبريل 1992 إلى الضريح الخالي من المصلين، لم أر في البئر سمكا. تراه مات أخيرا؟ [المؤلف].

يقام عيد سيدتنا للسمك في الجمعة التالية لعيد الفصح، وفيه كان المحتفلون بعد الطواف حول الدير، وفقا لرواية من القرن التاسع عشر لا تخلو من مبالغة لطيفة، «يجلسون في الهواء الطلق ويطلقون العنان للمتع البريئة التي يحبها الناس»، كالطعام والشراب والرقص. وكان الحشد الذي يجمع الفقراء والأغنياء، والمسلمين والمسيحيين، والبلغار والأرمن والكاثوليك، يتضخم أحيانا حتى يبدو كأن المدينة كلها قد حضرت[45].

ثمة أضرحة أخرى جذبت أناسا من أتباع الأديان المختلفة، خاصة النساء. فمن بئر تحت كشك اللآلئ(*) داخل القصر، كانت المياه تجري إلى عين المسيح المنقذ بين جدران القصر والبحر. وفي عيد التجلي في السادس من أغسطس، كان المسيحيون يأتون بالمراكب ليغمروا أنفسهم في العين، وكانوا بعد ذلك يرقصون على أنغام القرون والطبول ويسبحون في البحر. ومن من وراء مشربيات الكشك، كان السلطان المستمتع بالجو الكرنفالي، يلقي عملات معدنية على رعاياه المسيحيين. ثمة عيون مقدسة أخرى، مثل عين القديس يوحنا المعمدان بجوار آيا صوفيا، كانت تخضع لسيطرة مسؤولين مسلمين كانوا يعيشون على عوائد بيع الماء المقدس للمسيحيين.

وعلى الرغم من أنه لا توجد براهين مكتوبة على ذلك، فإن هناك طقوسا إسلامية ربما نشأت نتيجة للتأثير المسيحي. والاعتماد الرسمي لطقوس المولد النبوي في العام 1588 الذي كان يقام دائما في جامع السلطان أحمد، ربما نتج عن الرغبة في مجاراة الاحتفالات المسيحية بعيد الميلاد. وكذلك تبجيل الدراويش للأولياء الذي كان كثير من المسلمين التقليديين يرفضونه، يكشف عن آثار واضحة من الممارسات المسيحية وما قبل المسيحية. حتى إن الطريقة البكتاشية التي كان معظم جنود الانكشارية ينتسبون إليها، كانت تجمع بين الله ومحمد وزوج ابنته علي في ثالوث مقدس. كان أتباع هذه الطريقة الذين كانوا يسمون أنفسهم «عُثّ في النار الإلهية» يشربون الخمر. وعلى النقيض تماما من الطقوس التي تمارس في المساجد، كانت طقوس البكتاشية تشمل النساء، بل إنها في بعض الحالات كانت تقتصر على أزواج من الذكور والإناث[46].

(*) كشك اللآلئ Kiosk of Pearls قصر يقع على البسفور مباشرة، أنشأه الصدر الأعظم خوجة سنان باشا في العام 1590 كقصر ترفيهي للسلطان. [المترجم].



الرسام إل. إن. كوتشين L. N. Cochin، الاحتفال بالمولد النبوي في جامع السلطان أحمد، في العام 1787. ترتفع على اليسار منصة السلطان المغلقة التي يصلي فيها محتجبا عن المصلين. وفي المنتصف تحت المحراب الذي يشير إلى اتجاه مكة، يجلس الصدر الأعظم والانكشارية. كان المولد النبوي واحدا من أعظم الاحتفالات في التقويم الإسلامي، وأصبح احتفالا رسميا في القسطنطينية في العام 1588 إحياء لذكرى مولد النبي وتلاوة المدائح باللغة العربية، ونادرا باللغة التركية. كان هذا الاحتفال يقام في جامع السلطان أحمد لأنه فسيح بما يكفي لأهل بيت السلطان.

ومع أنه كان من الممكن للزوار الغربيين عموما أن يزوروا المساجد، فنادرا ما كان مسيحيو القسطنطينية يدخلون المساجد، ربما باختيارهم. ومع ذلك، فعلى الرغم من أن الحمّامات والعمارات كانت تُبنى بجانب المساجد لأغراض خيرية إسلامية، فقد كان مسموحا للمسيحيين واليهود باستخدامها.

كانت نساء المسيحيين واليهود والمسلمين يذهبن إلى ضريح الحلوجي بابا Helvaci Baba بجامع شاه زاده القريب من جامع الفاتح، يصطحبن معهن الأطفال المشلولين طلبا للشفاء، والبنات أو الأرامل الشابات الراغبات في الأزواج، والأصدقاء الذين ليست لديهم أماكن للسكنى. وبناء على طلبات كل منهن، كن يعطين المؤذن طربوش طفل أو منديلا أبيض أو مفتاح بيت. وكان المؤذن وهو ممسك بالهدايا التي أعطيت له، يرفع أذان الصلاة من فوق المئذنة. وحتى اليوم، لاتزال النساء المسيحيات يضحين بديك إلى «ولي الله» المسلم سنبل سنان Sunbul Sinan الذي يقع ضريحه في جامع خوجة مصطفى باشا. ويذهب المسلمون إلى الكنائس الأرمنية، مثل كنيسة القديس هيرشداغابيت Surp Hireshdagabet أو القديس كورك Surp Kevork في بالات، ويقضون الليل هناك أحيانا، طلبا لشفاء الأطفال الصرعى أو لاستشارة أحد الوسطاء[47].

وكان أتباع الديانات المختلفة يستخدمون المحاكم العدلية للديانات الأخرى تماما مثل قديسيها وأوليائها. فكان المسيحيون يلجأون كثيرا إلى محاكم المسلمين، بدلا من محاكمهم، في قضايا الزواج والميراث. وفي أوائل القرن التاسع عشر، كان المسيحيون يستخدمون المحاكم اليهودية أحيانا كذلك، وكان بعض المسلمين يستخدمون المحاكم البطريركية. وكان اليهود يلجأون كثيرا إلى المحاكم الإسلامية هربا من شدة المحاكم الربانية، على الرغم من احتجاجات الأحبار بأن مثل هذه الأفعال تدحض صدق الشريعة اليهودية[48]. فقد كانت الحياة اليومية واحتياجات الناس العاديين تضعف الحواجز بين الأديان في القسطنطينية، ما أكسب الذاكرة والعقل الجمعيين للمدينة تسامحا طبيعيا إزاء الأديان الأخرى أو تقبلا لها. وقد ثبت صدق تقدير الفاتح بإمكان إدارة عاصمة متعددة الأديان، مع أن الكراهية كانت تتبدى في الكلام، لكنها نادرا ما كانت تنفجر في شكل أفعال.

3

القصر

كان السـيد الكبير... يجلس في قصر
عظيم، غير أن منظره لم يكن شـيئا يذكر
مقارنة بالحاشـية التي تقف خلفه، التي
كان منظرها يشعرني بأنني في عالم آخر.
توماس دالام
Thomas Dallam, 1599

كانـت القسـطنطينية مرادفـا للعظمـة الإمبراطورية التـي كانت تنبع من القصر الذي بُني عـلى الطـرف الشرقي لشـبه الجزيرة، في المكان الذي يلتقي فيه البسفور والقرن الذهبي وبحـر مرمرة. كان هذا القصر الواقع على حافة أوروبا يعطي نظرة السـيطرة على آسـيا. وكان هذا الموقع مناسبا لـ«فاتح العالم».

كان القـصر محاطا من ناحيـة البر والبحر بسـور عال مزود بشرفات لجنود الحراسة. ومع أن معظم السور المطل على البحر تحطم حاليا، فإن السـور البري لايزال صامدا من بحر مرمرة

«كانـت أبهـة السـلطان وأسرته تُستخدم لإبهار المدينة»

عبر أحد التلال التي تقع عليها القسطنطينية هبوطا إلى القرن الذهبي. وفي منتصف السور يقود باب شاهق من المرمر الرمادي، يسمى الباب الإمبراطوري، الزائر بعيدا عن ضجيج المدينة إلى سكينة فناء محفوف بالأشجار. إنه البلاط الأول بين البلاطات الثلاث التي بُني حولها القصر.

مثـل الكثير من بنايات القسـطنطينية، يرجع قصر توبكابي، كما يسـمى حاليا (نسـبة إلى أحد أبوابـه وهو باب المدفـع top kapi)، إلى محمـد الفاتح. بُدئ في بنـاء القصر في العام 1459، وأُنجز في العام 1478، واتخذ الاسـم الرسـمي «القصر الإمبراطوري الجديد»، نظرا إلى أن الفاتح سبق أن بنى قصرا في منتصف المدينة.

حتى مغادرة السـلطان وأسرته إبان القرن التاسـع عشر، كان الفناء الأول يضم مكاتب خارجية للأسرة، ومستودع أسلحة في مكان كنيسة القديس إيرين البيزنطية القديمـة لضمان الأمن، وإسـطبلات تؤوي أربعة آلاف حصان، ودارا لسـكّ العملة، ومستشـفى، وكشـكا للكُتـاب al - Kuttab الذين يتسـلمون العرائض ويوزعون فرمانات السـلطان. وكما هي الحال في دوائر القصـور الملكية في العواصم الغربية، كان الفنـاء الأول مفتوحـا للجميع، حتى الأجانب. عبر القـرن الذهبي، كان القصر أشبه بجزيرة من المقصورات، تحيط بها أشجار وحدائق ينخفض مستواها في اتجاه البحر، وكانت النوافذ أشـبه بعيـون إمبراطورية ترقب العالم في الخارج. لكن داخل هـذا الفناء، كان القصر خليطا متنافرا مـن البنايات، رأى معظم الزوار أنها لا تليق بالسـلطان. تمثلت العناصر المرئية الوحيدة للعظمـة في حجم الفناء ووجود أعداد كبـيرة من الجنود بملابـس أنيقة، فضلا على حيوانات غريبة، كان من بينها من حين إلى آخر نمر أو فيل[1].

كان السـلطان وحده مسموحا له بركوب الخيل عبر الباب التالي المعروف باسم باب التحية الذي يقود إلى الفناء الثاني. يمتلئ هذا الفناء بالنافورات وأشجار السرو، إذ كان بمنزلة فناء وحديقة، وكان واسـعا لدرجة أن الناس على أحد طرفيه كانوا لا يسـمعون من يتحدث على الطرف الآخر. وهنا يجد الزائر نفسـه محاطا بسلسلة من البنايات المقنطرة المنخفضة ذات الأفاريز العريضة. وبما يعكس الهوس العثماني بالقواعـد والحدود، تبدو كل بناية كأنهـا منفصلة لوظيفة محددة، كأن المكان كله سلسـلة من الخيام. ضمت هذه البنايات مسـاكن لمجموعـات مختلفة من الخدم

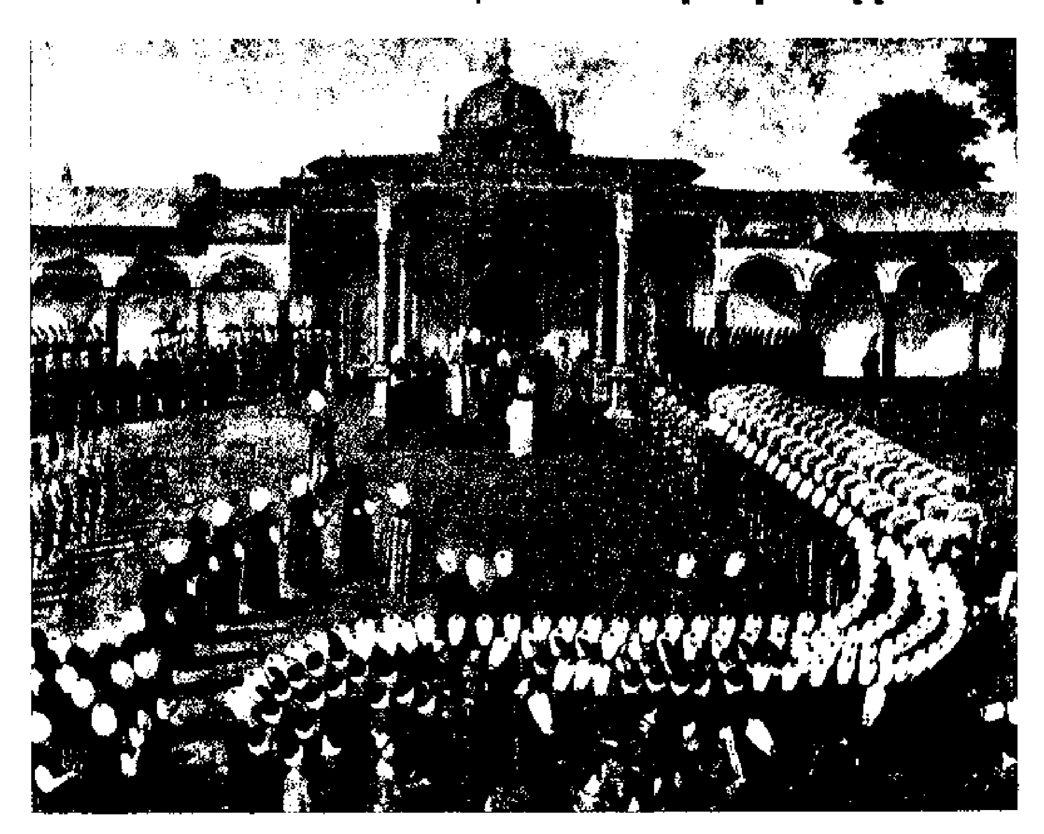
المنزليـين، مثل «حملة المطارد ذوي الضفائر» الذين كانوا يربطون جدائل طويلة في شـعرهم لمنعهم من رؤية النسـاء حين يوصلون الحطب إلى الحريم. والبنايات هنا في المستوى الإنساني والمنزلي العادي، أكثر منها في مستوى البلاطات الفخمة، مقارنة بالوحدات المعمارية التي بُنيت بغرض الإبهار مثل اللوفر في باريس أو القصر الملكي في البندقية أو الجوامع الإمبراطورية.

وكـما هي الحال في معظم قصور الملوك حتـى القرن الثامن عشر، كان المُجمّع السـكني نفسـه يؤوي كلا من المكاتب الحكومية وأسرة الحاكم. على يسـار الفناء الثاني، كان يوجـد أحد مراكز القوة في أوروبا، وهو الديوان الإمبراطوري، أي الغرفة التي كان الصدر الأعظم والوزراء الآخرون يناقشـون فيها أمور السياسة ويحكمون في الدعاوى القضائية، من بعد صلاة الفجر، أربع مرات في الأسـبوع. نظريا، كان كل الرعايا العثمانيين، أيا كان جنسهم أو عرقهم أو رتبتهم أو دينهم، يحق لهم الوصول إلى الديوان لتقديم المظالم. وإلى هذا المكان، جاء البطريرك في العامين 1521 و1537، على سـبيل المثال، لإنقاذ كنائس المدينة. واتباعا لعادة البسـاطة الشـديدة في كثير من أمور الحكومة العثمانية، كان المدعي يعمل في الوقت عينه محاميا عن نفسـه، وكانـت الأحكام تصدر في الحال. فعلى الرغم مـن أن البيروقراطية العثمانية كانت بطيئـة، غير أن نظامها القانوني لم يكن كذلك. وعلى الجانب الآخر من الفناء، كانت توجد المداخن العالية لمطابخ القصر التي كانت من السـعة والكفاءة ما مكّنها من إطعام اثني عشر ألف شخص في المرة الواحدة.

وفي نهاية البلاط الثاني، كان يوجد الباب المسـمى «الباب العالي» Bab - i Aali الذي يُعرَف لدى الأوروبيين الغربيين باسـم «الباب السامي» Sublime Porte(*)، وهو عبارة عن بنية تقوم على أعمدة ولها سـقف عريض بارز من النوع الذي يميّز العمارة التركية، كان عرش السـلطان ينصب تحته في الاستقبالات التي تسبق العيد الإسـلامي الذي يأتي في نهاية شهر رمضان(**). وفيما وراء الباب، كانت توجد غرفة عرش السلطان.

(*) بُدِّل اسمه لاحقا إلى «باب السعادة»، ونُقِل اسم «الباب العالي» إلى مقر الصدر الأعظم خارج القصر. ولذلك غدا اسم «الباب العالي» مرادفا للحكومة العثمانية. [المؤلف].

(**) في اللغة التركية، تشـير الكلمة المسـتخدمة هنا، وهي Bayram، إلى أي عيد على المستوى الوطني، سواء كان ذا طابع ديني أو غير ديني، لكنها تشير في هذا الموضع إلى عيد الفطر تحديدا. [المترجم].



الرســام قسطنطين كابيداجي Konstantin Kapidagi، حفل استقبال العيد في الفناء الثاني للقصر، في نحو العام 1800. يجلس السلطان سليم الثالث على عرشه في باب السعادة، محاطـا بالصدر الأعظم ورئيس الخصيان الســود وحملة الســيوف ووجهــاء آخرين. وعلى اليســار، يقف حرس القصر المعروفون باســم البييق بخوذاتهم المُذَهّبة. وعلى اليمين، حرس القصر الآخرون المعروفون باسم الصولاق بخوذاتهم المُرَيّشة. تبَيّن هذه اللوحة، التي رسمها أحد يونانيي القسطنطينية، التأثير المتزايد للفن الغربي في عهد سليم الثالث.

وهنــا، في مركز القصر، يلــزم أن نحدد الروح التي كانت تدفع ســاكني القصر، من الســلطان إلى أصغر خدمه، حتى يكرّسوا أنفسهم من أجل قوة الأسرة العثمانية وعظمتها. قبل العام 1453، كانت البلاطات العثمانية في بورصة وإدرنة عادية نسبيا. وفي ذلك كتب أســير مســيحي، يدعى الأخ جورج من مولينباخ Brother George of Muhlenbach أنــه «لا توجد علامــات الزهو أو الثراء... يكشــف كبار الحكام والأمراء عن هذه البســاطة في كل شيء، حتى إن الواحد لا يســتطيع أن يميّزهم من بين الحشــد». وكان الســلطان يرتاد المسجد ومعه غلامان، ويصلي على سجادة على الأرض، جنبا إلى جنب مع المســلمين الآخرين، لكن يبدو أن القســطنطينية فرضت معايير مختلفة. ربما تأثر محمد الثاني بكُتابه وباشواته من أصول يونانية وذكرياتهم

عن الطقوس المهيبة المحيطة بشـخصية الإمبراطور شبه المقدسة: «الحواري الثالث عـشر»(*) (اعتنق الإسـلام اثنان من باشـوات محمد الثاني من أقـارب الإمبراطور البيزنطـي الأخير). ومن المؤكـد أن الأمراء اللاجئين تحدثوا إلى السـلطان عن أبهة البلاطات الفارسـية. وقبل كل شيء، كان محمد الثاني يريد أن يعبّر من خلال قصره عن رؤيته لنفسه كباديشاه وقيصر وخان[2].

كان القانون الأسري، أو قانون نامة Kanunname، الذي سنّه محمد الثاني (ربما كُتِب في الأعوام 1477 - 1488)، قد ألغى عادات مثل ظهور السلطان لخمس عشرة دقيقة كل فجر ليأكل وجبة طقوسية مع قواده: «تقضي أوامري بألا يتسحر أحد مع الذات العليّة غير أهل بيتي. يقال إن أسـلافي العظماء كانوا يتسحرون مع وزرائهم، وها أنا أبطل هذه العادة».

في البداية، كان السلطان يجلس في الديوان مع وزرائه. وحدث ذات مرة في عهد محمد الثاني أن دخل طالب حاجة وسـأل: «أيكم هو الملك السـعيد؟»، ما أغضب السـلطان، وجعله فيما بعد يحضر الديوان «من وراء ستار»، إذ كان يجلس في كوة تشرف على غرفة المجلس، تسـترها ستارة حريرية خضراء، حتى لا يعرف الوزراء إن كان السلطان يسمعهم أم لا[3].

وإلى جانب عزلة السـلطان، زادت مهابة الموت من سـلطة الأسرة وقوتها. ثمة مقولة عثمانية تقول إن «رقبة خادم السـلطان أرفع من شـعرة»، ذلك أن السلطان كان كثيرا ما يستخدم سـلطة العفو والقتل على عبيده وأسرته. وكان فتح السلطان لمشربيـة في برج العدالة أعلى غرفـة الديوان في الفناء الثـاني أو وطأه بقدمه على الأرض في أثناء المقابلات في غرفة العرش، إشارات إلى الإعدام، إما بالخنق وإما الفأس وإما الخنجر[4]. وقُتل شـاغلو الصدارة العظمى أحيانا على يدي السـلطان نفسـه، حتـى صار من بين اللعنات العثمانيـة والدعوات التي يدعو بها الناس على بعضهم أن يقول أحدهم للآخر «جعلك الله وزيرا لسليم»، في إشارة إلى عدد الوزراء الذين أعدمهم سليم الأول. وفي العام 1606، خنق البستانجية الإمبراطوريون الصدر الأعظم درويش باشا، و«حين لوحظ أن قدمه لاتزال تتحرك»، كما كتب مؤرخ القرن السابع عشر العظيم مصطفى نعيمة Mustafa Naima، «سحب الإمبراطور خنجره وقطع

(*) بمعنى أنه التالي في القدسية للسيد المسيح وحوارييه الاثني عشر. [المترجم].

حنجرته». ومن بين سـبعة عشر صدرا أعظم بين العامين 1644 و1656، مات اثنان فقط ميتة طبيعية(*). بيد أن أغلبية العثمانيين كانوا يتخذون إعدام المسؤولين دليلا على يقظة السلطان وعدله، وكذلك وسيلة لضمان الطاعة. وكان إقرار المفتي للقتل مطلوبا عموما، وإن لم يكن دائما. كتب حسـين حصارفين Huseyin Hezarfenn في العام 1669: «ليتهـم لا يلغون العقاب البدني التقديري تماما، ذلك أن العقاب أحد شروط المُلك»[5].

كان إحسـاس الضحايا بواجب طاعة السلطان قويا لدرجة أن أغلبهم لم يدفعوا الموت عن أنفسـهم، فإذا كان العثمانيون يذهبون إلى الحرب كذهابهم إلى العرس، فإنهم أيضا كانوا يذهبون إلى الإعدام كذهابهم إلى صلاة الجمعة. كان أمر الباديشاه مطاعا، لأن سلطته مسـتمدة من الله. سأل أحد الصدور العظماء درويشا: من هو الأحمق الأكبر؟ فجاءته الإجابة: «أنت أيها الوزير العظيم. لأنك فعلت كل ما تستطيع لـكي تصل إلى منصبك، على الرغـم من أنك مررت بحصانك فـوق الرؤوس النازفة لأسلافك، ورأسك ستسقط في البقعة نفسها التي طارت إليها رؤوس سابقيك»[6].

وفي حـين كانت رؤوس المتمردين في لندن تُعرَض عموما على جسر أو على باب المدينة، كانت رؤوس الوزراء والباشـوات تُعرَض على أعمدة مرمرية بيضاء في الفناء الأول للقصر، مع كتابة التهمة المنسـوبة لـكل قتيل، وفي بعض الحالات موقعة من الضحايا أنفسـهم. وكانت رؤوس المذنبين الأقل شـأنا تُعرَض في كُوّات على الجانبين الأيمـن والأيسر للواجهة الخارجية للباب الإمبراطـوري، وفي حال كثرة القتلى، كانت أكـوام من الأعضاء البشرية صغيرة الحجم (كالأنوف والآذان والألسـنة) توضع على الأرض أمـام الباب. كانت المادة التي تُحشى بها الـرأس تعكس رتبة القتيل: القطن للـوزراء والقـش للموظفين الأقل شـأنا. وكان جمهور القسـطنطينية يحب عرض الرؤوس، لأنها كانت تؤكد اعتقادهم بأن المقتولين كانوا مصاصي دماء استنزفوا أموال الدولة. أما المذنبات من النساء، فكن يعدمن بطريقة أكثر تكتما، إذ كن يؤخذن في أجولة ممتلئة بالحجارة ويرمون في البسفور، حيث كان من المزايا الجغرافية الأخرى للقسـطنطينية ذلك التيار المتدفق عبر البسـفور الـذي كان يجرف الجثث سريعا.

(*) إجمالا، وحتى العام 1839، مات اثنان وثلاثون صدرا أعظم من مائة وثمانية وسبعين (بنسبة 18 في المائة) ميتة عنيفة. [المؤلف].

وإبان القرن الســادس عشر، حين مزق جنود الانكشارية جثة تاجرة يهودية مقربة من القصر تدعى ســبرانزا مالخي Esperanza Malchi في شوارع المدينة لاتهامهم لهــا بأنها غشــت العملة التي كانــوا يقبضون بها رواتبهم، عَنَّفت والدة الســلطان محمد الثالث ابنها قائلة: «في حال الحكم على المرأة اليهودية بالموت، فهل كان لزاما أن ينفذ الحكم بهذه الطريقة القذرة؟ لماذا لم تُلق في البحر؟»[7](*).

بلغــت أبهة القصر، وكذلك قــوة الإمبراطورية، أوجها في عهد أقوى الســلاطين جميعا: ســليمان القانوني ابن حفيد الفاتح، الذي أكمل عهده تحويل القسطنطينية إلى مــرادف للعظمة، كما أكمل عهد أبيه ســليم الأول تحويلها إلى مدينة مقدســة للإسلام. بعد أقل من شهر من تنصيب سليمان في العام 1520، كتب أحد البنادقة:

> إنه في الخامســة والعشرين من العمر، طويل لكن نحيل، ورقيق المظهر، ورقبتــه طويلة جدا، ووجهه نحيف، وأنفه معقوف، لديه ظل شــارب ولحية صغــيرة، لكنه مــع ذلك يتمتــع بطلعة لطيفــة، وإن كانت بشرتــه أميل إلى الشــحوب. يقال إنه ملك حكيم، مولع بالدراســة، وينتظر الناس جميعا الخير من حكمه[8].

بحلول العام 1523، كان سليمان قد فتح معقلين مسيحيين استعصيا على الفاتح نفســه: مدينة بلغراد وجزيرة رودس. وفي معركة موهاج في العام 1526 أباد طبقة النبــلاء المجرية، وقُتِلَ آخر ملك مســتقل للمجر في أثناء فراره من ســاحة المعركة. وبحلول العام 1540 كانت بودا(**) قد أصبحت مدينة عثمانية، وأصبحت الحدود العثمانيــة عــلى بعد مائة ميل من فيينــا. ومن الجزائر إلى الهند، كانت الأســاطيل العثمانية تحكم البحار. وعلى البر، كان سليمان يفتخر قائلا: «حصاننا مُسرَج وسيفنا في خصرنــا ليــل نهار». وكما فعل مــع المجريين في الغرب، تمكّــن كذلك من توجيه الضربات المدوّخة نفسها لـ«ذوي الرؤوس الحمراء الملاعين» (الاسم العثماني للفرس

(*) نتيجة لعزلة «الحريم» في هذا المجتمع، فإنهن كن يتخذن وكلاء اقتصاديين من النســاء تســمى الواحدة منهن كــراء kira (بمعنــى أجيرة، ربما مــن الأصل العربي «أكرى» و«إكــراء» بمعنى أجر وتأجير) كانــت تقوم بكل الأعمال التجارية نيابة عن ســيدتها. شــغلت ســبرانزا مالخي (توفيت في العام 1600) هذه الوظيفة للســلطانة صفية والدة السلطان محمد الثالث، وقد أثْرَت كثيرا من هذا العمل، لذلك فحين ثار الفرسان الإمبراطوريون في العام 1600 بسبب انخفاض قيمة العملة، نفسوا عن غضبهم بقتل سبرانزا وابنها. [المترجم].

(**) بــودا Buda: هو الاســم الســابق لعاصمة مملكة المجر، تشــكل حاليا الجزء الشرقي مــن العاصمة المجرية بودابست الواقع على الضفة الغربية لنهر الدانوب. [المترجم].

المأخوذ من الغطاء الأحمر الذي كانوا يضعونه فوق رؤوسهم) في الشرق. وفي عهده غدا اللقب «ملاذ الكون» حقيقة واقعة، فمن القرم والمجر، والمغرب وبلاد فارس، كان الأمراء يلوذون ببلاطه. والتمس ملك فرنسا مساعدته، فاضطر الهابسبرغيون إلى أن يدفعوا له جزية.

انعكس الاتساع في إمبراطورية السلطان على لقبه. ففي النقش الذهبي المكتوب باللغة العربية فوق الباب الإمبراطوري على السور الخارجي للقصر، وصف محمد الثاني نفسه بأنه:

> سلطان القارتين وإمبراطور البحرين، ظل الله في هذا العالم والعالم الآخر، مَنْ فضّله الله على الأفقين (الشرق والغرب)، ملك البر والبحر، فاتح قلعة القسطنطينية، سلطان الفتح محمد خان ابن السلطان مراد خان ابن السلطان محمد خان، أدام الله ملكه ورفع مقامه أعلى من نجوم السماء الساطعة!

أما سليمان الأول، فكانت رسائله تبدأ بالقول: «من مقر السلطنة العليّة، القسطنطينية المحروسة والمحمية» ثم صيغة العظمة الكونية التالية:

> إنه مني أنا سلطان السلاطين وملك الملوك وموزع التيجان على ملوك الأرض، ظل الله على الأرض، سلطان وباديشاه البحر الأبيض والبحر الأسود والروملي(*) والأناضول وقرمان(**) والروم وذو القادر(***) وديار بكر وكردستان وأذربيجان وبلاد فارس ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة المنورة والقدس وكل بلاد العرب واليمن والبلدان الأخرى التي فتحها أسلافي العظماء - أنار الله قبورهم - وكل البلاد التي فتحتها أنا صاحب الفخامة الجليلة بسيفي المضطرم السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم ابن السلطان بايزيد.

وفقا لرؤية العالم العثمانية، لم يكن الملوك الآخرون يدينون بتيجانهم إلى سيوفهم أو أسلافهم، وإنما إلى سيدهم الأعلى السلطان. وهذا الأخير وحده كان الإمبراطور. أما الإمبراطور الروماني المقدس الهابسبرغي كارلوس الخامس في الغرب، غريم سليمان

(*) الروملي: كلمة تركية تعني أرض الروم (روم لي) كانت تشير إلى الولايات الأوروبية في الإمبراطورية العثمانية. [المترجم].

(**) راجع هامشا سابقا للمترجم حول إيالة قرمان. [المترجم].

(***) ذو القادر Dulkadir إيالة هي ولاية عثمانية يرأسها أمير أمراء في الأناضول عاصمتها ماراش Maras. [المترجم].

الذي حاول الأخير أن يتفوق عليه في العظمة الطقوسـية وفي القوة العسكرية، فقد كان «ملك أرض إسـبانيا والأماكن التابعة لها». وأطلق سليمان على ورثة كارلوس في منصب الإمبراطور الروماني المقدس اسـم «ملك فيينا». وفي العام 1531 ذكر سـفير البندقية أن «السلطان سليمان... ينكر على الإمبراطور أن يلقب نفسه بالقيصر، لأنه يعتبر نفسـه قيصرا». وكان الشـعراء العثمانيون قد بدأوا في وصف السـلطان بأنه «إمبراطور العالم ومسيح آخر الزمان»، وربما صدقهم السلطان[9].

عبّر السـلطان عن إحساسـه بالنصر داخـل القصر، إذ اعيـدت زخرفة جدار الديوان بالذهب والجواهر. وفي العام 1527، وبعد غياب سـتة أعوام، كتب سـفير للبندقيـة: «وجدت الباب العالي ممتـازا في تنظيمه، إذ اختلف عن آخر مرة جئت إلى هنا سـفيرا... فثمة فرق كبير بين هذه المرة والمرة السـابقة». كان سليمان أول سلطان يجلس بفخامة على عرش على الطريقة الأوروبية، بدلا من جلسة القرفصاء على سـجادة، وبنى غرفة عرش جديدة في العام 1533. ووجد سـفير من كارلوس الخامس السلطان:

> جالسا على عرش مرتفع قليلا مغطى كاملا بقماش مُذَهّب ومطرز بالكثير من الأحجار الكريمة، ويوجد في كل الجوانب الكثير من المسـاند النفيسة، أما جدران الغرفة فقد غُطيت بأعمال فسيفسائية تتلألأ باللازورد والذهب. وكانت مدفأة الغرفة من الخـارج مصنوعة من الفضة الصلبة ومغطاة بالذهب، وفي أحد جوانب الغرفة توجد نافورة تتدفق مياهها من الحائط.

في حالـة السـلام أو الحرب، النـصر أو الهزيمة، ظلت غرفة العـرش تتلألأ مثل صنـدوق جواهر. أظهر جرد لموجودات القصر إبان القرن السـابع عشر أن العرش نفسـه كان مزخرفا بخمس وسائد، وسـت «تنورات» وخمسة عشر مسندا، مرصعا بزمـرد وياقـوت ولآلئ، وكانـت مثلها مثل حـصران الأرضية مطعمـة بخيط من الذهب[10]. وفي العام 1799، حين تسـللت زوجة لورد إلجين Lord Elgin السـفير البريطاني إلى غرفة العرش متنكرة كواحد من حاشية زوجها، كتبت:

> كانـت غرفة صغيرة ومظلمة، لكـن بين أفخـم وأروع الأماكن في العالم، أعتقـد أنها الأولى. كان عرشـه يشـبه سريرا إنجليزيا بسـيطا جيـدا، وكانت الوسـادة التي يجلس عليها الوحش (هكذا كانت تطلق على السـلطان سليم

الثالث) مطـرزة كلها بلآلئ كبيرة هائلة. وإلى جانبـه كانت توجد محبرة من كتلة واحدة من الألماس الكبير، وعلى جانبه الآخر يستقر سيفه مرصعا من كل جانب بألماسات ضخمة متألقة.

كان يضع في عمامته الرأسـية الشـهيرة(*)، وكانت عباءتـه من الأطلس الأصفر وبها فرو سمور أسود، وفي إحدى النوافذ كانت هناك عمامتان مغطاتان بالألماس. لا تتخيل أن شيئا في «ألف ليلة وليلة» يضاهي تلك الغرفة.

وإلى جانب قدرة السلطان على العفو والقتل وانعزال غرفة عرشه وعظمتها، ثمة ثـلاث قواعد أضفت على السـلطان هالة مـن الفخامـة لم تعرفها القصور الأخـرى: العـادات والصمت والزي. ففـي شرق القسـطنطينية وغربها، كانت البلاطات الأخرى في هذه المرحلة بعيدة نسـبيا عن الطابع الرسـمي (بالاستثناء الجزئي لفيينا ومدريد). ولم يكن شـاه فارس ولا الإمبراطور المغولي يفرضان قدر الاحترام الذي كان السـلطان العثماني يسـتحثه. وقد أبدى سـير توماس راو Sir Thomas Roe الـذي عمل أولا سـفيرا إنجليزيا لدى الإمبراطور المغولي ثم لدى السـلطان العثماني في العقد الثالث من القرن السـابع عشر، تفضيله الطابع غير الرسـمي لدلهي التي «تعامل فيهـا بطريقة حميمة مع أمـير دمث ولطيف»، على صلابة القسـطنطينية حيث كان يمسـك بمرفقيه مرافقان كبيران، والتي كان يتحدث فيها «مع صورة بكماء».

أوجد وقار العادات العثمانية وجاذبيتها سلسلة من الإذعان تربط السلطان في غرفة عرشه بأصغر جندي انكشاري في الفناء المجاور. في بلاطات آل تيودور(**) وآل فالوا(***)، لم يكن أفراد الحاشـية يفعلون شيئا غير الانحناء للملك وتقبيل يده. لكن في المقابل، كان الوزراء والسفراء الذين ينالهم شرف الدخول إلى غرفة العرش الإمبراطوري يسـجدون ثلاث مرات على الأرض، مع أن هذه الذلة كانت تُحذَف عادة من رسائل الدبلوماسيين. وبناء على رتبهم أو قربهم من السلطان،

(*) الرأسية: حلية للرأس تصنع من الريش والجواهر. [المترجم].

(**) آل تيودور Tudor: أسرة حاكمة من أصول ويلزية حكمت مملكة إنجلترا وتوابعها من العام 1485 إلى العام 1603، أخذت العرش بعد حرب الوردتين، أول ملوكها هنري السابع. [المترجم].

(***) آل فالوا Valois: أسرة حكمت فرنسا بعد الأسرة الكابيتية من العام 1328 إلى العام 1589، كان أول ملوكها فيليب السادس وآخرهم هنري الثالث. [المترجم].

كان يســمح لهم بتقبيل إما يده المثبتة بتصلب على ركبته أو حاشية قفطانه أو طرف كمه المتدلي. وعند مغادرة غرفة العرش، كان الجميع يســيرون بظهورهم. كتب سفير مغربي عن الوزراء:

> لا يمكن لأي منهم أن يتصرف كندٍّ مع من يعلوه، ســواء بالسير إلى جانبه قدما بقدم، أو ارتداء عمامة أو غيرها من الملابس الأخرى من النوعية نفســها التي يرتديها الأعلى، أو بالجلوس على مقعد مماثل لمقعده. لم أر أناسا يدققون في مراعاة الأســبقية مثــل الأتراك. وفي حضرة الســلطان، لا يمكن لأحدهم أن يجلــس، ســواء أمام الســلطان أو في مدى بــصره، بل يقــف الجميع في وقار وأيديهم مشبكة على بطونهم بالطريقة التي يفعلونها في الصلاة[11].

في عــصر كانت العادات فيه تُعلم، مثل ركوب الخيل أو اللغة اليونانية، وكانت معيــارا للحكم على الأشــخاص لا يقل أهمية عن الرتبــة أو الثروة أو اللباس، كانت عادات النخبة العثمانية وســيلة لإبهار الأتباع والأجانب والسيطرة عليهم. في العام 1749، كتب لورد تشارلمونت Lord Charlemont عن الوزراء:

> كانت تصرفاتهم مبجلة لأقصى ما يصل إليه الخيال، لكنها كانت في الوقت عينــه مبهجة لأقصى ما يصل إليــه الخيال. فهم يمتلكون - من دون أن يعرفوا هم أنفســهم ذلك - سيماء من السمو لا يدّعونها بأي حال من الأحوال، وهي نفســها تفرض احترامهم من دون أن يطلبوا هم ذلك. إلى هذا الحد يختلفون عن وقاحة فرنسا التي ينتحل كل مغرور فيها سيماء السمو، ما يحيل كل لطفه إلى وقاحة وإهانة! لكن ما أذهلني أكثر من أي شيء آخر وبدا لي أنه تجاوز أي شيء رأيتــه هو طريقتهم في الحديــث وطريقتهم في تحريك الرأس والذراعين، فكل إيماءة هي مزيج من السلاســة والوقار والجــلال... وكان منظر حديثهم ذاته، إذا جاز لي التعبير، ممتعا جدا بالنسبة إليّ.

كان الاحترام يعبّر عن نفسه في أقوى صوره من خلال الصمت. وفي الفناءين الثاني والثالث كان الصمت عميقا جدا، كأن مسرحية ســتبدأ. بعد عهد ســليمان القانوني، كان السلطان نفســه يستقبل السفراء في صمت، ونادرا ما يتعطف بقول كلمة غير «حســنا». وإذا حاول أن يتحدث، كان الــوزراء - الملكيون أكثر من الملك - يذكرونه بأن ذلك غير لائق. وفي الفناء الثالث، في حضرته، لم يكن أي وزير يتحدث ســوى في

العمل الرسمي، ويلزم غلمان الغرفة الخاصة ومرافقوه الشخصيون «الصمت المطبق في حضرته مهما طالت»، ويمشـون عـلى أطراف أصابعهم. وكانـوا يتواصلون بلغة إشـارة أدخلها سـليمان القانوني لزيادة الاحترام المحيط بالسـلطان. وبحلول القرن السابع عشر كان خبراء بُكم «يعرفون معنى كل شيء بالإشارة» يعلمون هذه اللغة التي حلت محل اللغة الصربية - الكرواتية باعتبارها اللغة الثانية للقصر[12].

كان السـلطان العثماني يفـرض الصمت في قصره، وكذلـك في طريقه إلى صلاة الجمعة. وبغرض إبهار السـفراء الأجانب، تحدد موعد مقابلتهم للسـلطان في يوم دفع رواتب جنود الانكشارية. وفي الفناء الثاني تجمع من ألفين إلى ستة آلاف جندي انكشـاري، وظلوا واقفين لسـاعات بـلا حراك كالتماثيل، لا يجـرؤ أحدهم على أن يبصق أو يسعل. وعلى نحو ما ذكر بارون راتيسلاو في العام 1591:

> على الرغم من وجود بضعة آلاف من الناس هناك، فإنك لا تسمع صياحا أو حديثا، ولا ترى حركة صغيرة إلى هنا أو هناك، وإنما يقف الجميع في هدوء شـديد، ما أثار تعجبنا، حتى جنود الانكشارية الصاخبون والفجرة في المعارك يُظهِرون هنا طاعة لقائدهم أشد من طاعة الأولاد لمعلمهم، ويقفون جامدين كما لو كانوا منحوتين من المرمر.

وفي العـام 1657، دعا الصدر الأعظم السـفير السـويدي إلى وليمة في الديوان: «سـاد الصمت في أثناء العشـاء لدرجة أن كلمـة واحدة لم تُنطق، ولم تُسـمع أي ضوضاء»، إذ كان معروفا أن السلطان يراقب من كوته[13].

على أنه في لحظات معينة من النهار، كان هذا الصمت يتبدد بموسـيقى الفرقة الإمبراطوريـة التي كانت تضم النـاي والأبواق والطبول والصنج النحاسـية. كانت الموسـيقى الصاخبة جدا تحيي السـلطان قبل ساعة من الفجر وبعد ساعة ونصف السـاعة من الغروب. وكانت ترافقه كذلك في الاسـتعراضات، وكان مما يزعجهم أن يطلب منهم أن يعزفوا للسفراء الأجانب في سفاراتهم بعد مقابلتهم للسلطان[14].

كانت الأزياء نظاما آخر ينقل عظمة السـلطنة العثمانية. للنبي حديث شريف يقول: «لا تشربوا في إناء الذهب والفضة، ولا تلبسـوا الديباج والحرير، فإنه لهم في الدنيا، وهو لكم في الآخرة يوم القيامة»(*). لكن في القصر، كان سحر القفاطين أشد

(*) حديث مرفوع من كتاب اللباس والزينة بصحيح مسلم. [المترجم].

تأثـيرا من حديث النبي. كانت القفاطين عبارة عن عباءات من جزء واحد، مفتوحة من الأمام من الرقبة إلى القدمين، وفي أغلب الأحيان تتسـع عند الخصر، تصنع من المخمـل أو الأطلس أو الحرير المقصب. كانت الملابس إحدى الصناعات الأساسـية بالقسـطنطينية. وبحلول العام 1577 ضمت المدينة مائتين وثمانية وستين نولا، كان ثمانية وثمانون منها «ملحقة بالقصر»، كانت هي وحدها المصرح لها بصنع «القماش الذهبي». وفي بعض الأحيان، كانت دار سّـك العملة مهددة بنفاد الذهب والفضة بسبب كثرة ما يستخدم منها في عمل الخيوط الذهبية والفضية. ومن دون جدوى، أصدر السلطان مراسـيم تحظر استخدامها في الملابس، ذلك أن أوامره لم تكن تطاع إلا قليلا[15].

بقيت إلى أيامنا مجموعة مكوّنة من ألف قفطان في قصر توبكابي، بفضل العادة العثمانيـة المتمثلـة في وضع مقتنيات السـلطان الراحل في أغلفة وختمها باسـمه وتخزينهـا إما في ضريحه وإما في خزانة القصر. وأغلب القفاطين أحادية اللون وغير مزخرفة (مثل القفطان الحريري الأسـود الذي كان سـليمان القانوني يلبسه كثيرا). بيد أن بعض القفاطين مزخرف بزهور وأشجار بألوان ساطعة، وزنابق في جداول ماء قرمزية متموجة، وأوراق نباتات ذهبية تدفعها رياح غير مرئية. وثمة قفاطين أخرى كانت أكثر أصالة. يكشـف قفطان منقط أو مقلم بالذهب على أطلس قرمزي صُنع لأحد سلاطين القرن السـابع عشر وقفطان آخر مزخرف بزخرفة من مثلثات بيضاء عـلى أطلس قرمزي داكن يبدو أنه صُنع إبان القرن الثامن عشر، يكشـفان بوضوح عن قفزات في صناعة القفاطين. وكما هي الحال مع المنسوجات القبطية أو فضيات بيدرميـير(*)، تبدو هذه القفاطـين كأنها صُممت لباريس إبـان العقد الثالث من القرن العشرين.وكما هي الحال في عدد المآذن المسموح بها للمسجد الواحد، كانت الملابس محكومة بالأسـبقيات الأسرية. ومع أن أسلاف سليمان كانوا يلبسون نسيج الكاميلوت أو الموهير، فإنه أخذ يرتدي أقمشة من الذهب. وعلى الرغم من أن هذا القـماش كان من الناحيـة النظرية مقصورا على السـلطان وحده، فقد تفضل على صدره الأعظم المقرب إبراهيم باشا بالسماح له بارتداء «قماش مطرز بالذهب»، وفي إحدى الحملات سـمح له بارتداء عباءة من قماش ذهبي». كان السـلطان ووزراؤه

(*) فضيات بيدرمير Biedermeier silver: أسلوب ألماني في تشكيل الفضيات يعرف بالمبسط. [المترجم].

يلبسون أحيانا ثلاثة قفاطين، حتى يعطي التضارب بين الأنسجة والألوان التي تظهر من تحت الأكمام مزيدا من الأناقة. وقبل ثلاثة قرون من ظهور الأزياء الرسمية الموحدة في البلاطات الغربية، كانت ألوان عمائم المسؤولين وعباءاتهم في المناسبات الطقوسية منظمة بالقانون. فكان العلماء يلبسون اللون الأرجواني، والوزراء اللون الأخضر، والغلمان اللون القرمزي. وبسبب هذه الملابس، كتب الكُتاب العثمانيون بزهو أن خدم السلطان يشبهون روضة من الزنبق[16].

في نظام التشريفات العثماني، كانت القفاطين التي كان العثمانيون يلبسونها بالدرجة الأولى في المناسبات الطقوسية، في أهمية أوسمة الفروسية عند البريطانيين. فكان السفراء يحكمون على مقاماتهم في القسطنطينية بعدد ونوعية القفاطين التي يحصلون عليها عندما يدخلون القصر الإمبراطوري لتقديم احتراماتهم. وإبان القرن السابع عشر، حصل السفير الفرنسي عموما على أربعة وعشرين قفطانا، والبريطاني على ستة عشر، والبندقي والهولندي على اثني عشر لكل منهما. لكن بحلول العام 1775 كانت الإمبراطورية العثمانية قد ضعفت تماما لدرجة أن السفير الروسي تلقى مائة قفطان. وكان السفراء يرفضون الانتقال من ديوان الصدر الأعظم إلى غرفة عرش السلطان إلا بعد أن يرسلوا خدما إلى دهليز مجاور للتأكد من وجود عدد مناسب من القفاطين في انتظارهم. وكانوا بعد ذلك يرتدون القفاطين فوق الملابس الأوروبية كعلامة على احترام السلطان[17].

كان الفراء بمنزلة لغة ثانية للأبهة في القصر. كانت الرياح القادمة من الشمال تجعل المدينة شديدة البرودة. وفضلا على الفائدة العملية للفراء، كان أيضا من علامات الفخامة، لذلك غدا شراؤه في روسيا من جانب الخزانة العثمانية شأنا من شؤون الدولة. كان السلاطين وحدهم يلبسون فراء الثعلب الأسود. وثمة أنواع أخرى من الفراء كان السلطان ومسؤولوه يرتدونها في تتابع خاص موقوت: فراء حيوان القاقم في الخريف، يليه فاصل لفراء السنجاب، ثم فراء السمور في الشتاء. وفي اليوم الذي كان السلطان يغيّر فيه الفراء، كان الصدر الأعظم والباشوات يتبعونه على الفور[18].

جمع القصر بين اللون والاحترام والصمت والفخامة. وفي ذلك سجل المؤرخون العثمانيون أن السفراء أو الأمراء الأجانب كانوا «يذهلون ويتعجبون ويصعقون وينتشون إلى أقصى حد» بمنظر السلطان وبطانته. وقد كتب سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة

بارون دي بوسبيك: «يتلألأ الذهب والفضة والأرجوان والحرير والأطلس في كل مكان... لا توجد كلمات تستطيع أن تعبّر عن طرافة هذا المنظر. أستطيع أن أقول إن عيني لم ترَ منظرا أجمل من ذلك قط». وبعد قرنين مما كتبه السفير الإمبراطوري كتب الدارس الفلورنسي دومينيكو سيستيني Domenico Sestini بعد أن شاهد الوزراء وضباط الانكشارية في الفناء الثاني، وكل منهم يرتدي عمامته الرسمية وترافقه حاشية من الخدم: «في هذه الحالة عينها، تتجلى للمرء كل فخامة العثمانيين وأبهتهم وزهوهم». وبداية من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر، كان الأوروبيون الغربيون يطلقون على السلطان العثماني اسم «السيد الكبير» The Grand Signore، مُعرَّفة هكذا، كما لو كان هو الوحيد الذي يستحق هذا الوصف[19].

كان الفن وسيلة أخرى أوصل القصر من خلالها رسالة العظمة الإمبراطورية. على مدار القرون الخمسة التي شكلت عمر الإمبراطورية العثمانية، أهدى السلاطين الكثير من القطع الفنية إلى أخواتهم وبناتهم، أو إلى المساجد في القسطنطينية ومكة والمدينة المنورة، أو إلى الملوك الأجانب. وثمة قطع فنية أخرى صُهِرت في أوقات الأزمات لدفع رواتب الجند. وعلى أي حال، يوجد نحو ستمائة قطعة في متحف قصر توبكابي يبدو أنها لم تغادر القصر، فقد كان القصر هو المكان الذي صنعها من أجله حرفيو السلطان، وفي الأغلب من مواد ثمينة (الذهب واليشب والعنبر والعاج وسن القرش)، وكانت تخزن في خزانة السلطان. هناك أربع غرف مقببة ومقنطرة بناها محمد الثاني في الفناء الثالث، ظلت لثلاثة قرون ونصف القرن تؤوي الخزانة الخاصة للسلاطين (غير خزانة الدولة المجاورة للديوان في الفناء الثاني)، وإلى اليوم لاتزال الغرف نفسها تُتخَذ خزانة لمتحف قصر توبكابي. تجعل هذه الاستمرارية من توبكابي أحد أعظم القصور والخزائن الأسرية في العالم، لا يدانيه إلا الكرملين(*) أو هوفبيرغ(**). ونظرا إلى أنه لا توجد عاصمة إسلامية

(*) تشير كلمة كرملين إلى مُجمّع مركزي ضخم ومحصن من البنايات كان شائعا في المدن الروسية التاريخية (تعني بالروسية «قلعة محصنة داخل المدينة»)، وكان مُجمّع الكرملين في موسكو مقر الحكام المتعاقبين لروسيا على اختلاف أسرهم وألقابهم منذ القرن الرابع عشر، وربما من قبله. [المترجم].

(**) قصر هوفبيرغ Hofburg Palace: قصر في فيينا بالنمسا آوى أقوى الحكام في التاريخ الأوروبي والنمساوي، بداية من العام 1279، ومنهم آل هابسبرغ، يتخذ حاليا مقرا رسميا لرئيس النمسا، ويضم متحفا لمقتنيات ملوك النمسا المتعاقبين. [المترجم].

أخــرى آوت أسرة واحــدة ومقتنياتها لهذه المدة الطويلــة، تعد مقتنيات توبكابي أيضا المجموعة الوحيدة في العالم الإســلامي التي ظلت تنمو بلا انقطاع منذ القرن الخامس عــشر. وإلى أن فُتح القصر للجمهور إبان القــرن العشرين، كانت خزانة القصر أحد المفاتن الخفية للقســطنطينية، يتخيلها الناس ويضخّمونها، لكن أحدا منهم لم يرها قط.

ضمت الخزانة فيضا من «أشــياء القصر» لا يمكن تخيلها في أي ســياق آخر، من بينها مصحف مُجلد بالذهب واليشــب، وحلية ذهبية للعمامة توضع مع ياقوتات وزمردات ولآلئ وماسات وتُتوّج بريش الطاووس. ومنها أيضا قارورة ذهبية مرصعة بالجواهــر كان يوضــع فيها ماء الشرب لســليمان القانوني. وتضــم الخزانة أغطية لسروج الخيول مطعمة بالألماس والياقوت والزمرد. أما العرش الذي كان يســتخدم لحفلات اســتقبال الأعياد، فواجهته مغطاة بألــواح من الذهب. كانت هذه الكنوز مخزنة في صناديق تحت سلطة مفتش مخصصات السلطان وموظفين تابعين له مثل حــرس حلي العمامة وعباءات الاحتفال. وفي الغرفة الثالثة، يوجد صندوق لا يحوي شيئا سوى الجواهر، وفيه كان الألماس يخزن في درج، والياقوت في درج آخر، والزمرد في درج ثالث. وبالقرب من هذه البناية، كانت توجد خزانة الســلطان السرية التي كانت تحوي أكياســا من العملات الذهبية مختومة بالشــمع الأحمر المطبوع عليه بخاتم السلطان الشخصي من خاتمته الذهبية[20].

يرجــع الكثير مــن المقتنيات الموجودة في خزانة القــصر إلى غنائم من فتوحات الســلاطين، خصوصا من عواصم ســابقة مثل تبريــز والقاهرة وبــودا. كانت هذه المقتنيــات مخزنة بعناية شــديدة، لدرجة أن الكتب التــي أخذت بعد العام 1526 من مكتبــة الملك ماتياس كورفينــوس Matthias Corvinus عاهــل المجر، أمكن إرجاعهــا إلى بــودا في العام 1877، حين كانت الإمبراطوريــة العثمانية في حاجة إلى دعم المجر في أثناء الحرب مع روسيا. ثمة أشياء أخرى كانت تخص باشوات وأخذها السلطان بعد موتهم. على أن معظم المقتنيات صنعتها طائفة من الحرفيين الخاصين بالســلطان كانوا يسمون «أهل الحرف» ehl - I hiref، ضموا بين صفوفهم رسامين ومجلدي كتب وحائكي فراء وصاغة وصناع الكرات الزخرفية التي كانت تعلق فوق عرش الســلطان. كان من هؤلاء الحرفيين إبراهيــم اليهودي الذيّ كان متخصصا في

تبطين الجواهر بلبقات من الذهب أو الفضة لإعطائها مزيدا من البريق[21](*). وكان السلاطين يزورون الحرفيين كثيرا، حتى إن بعضهم تعلم الحرفة، ومنهم سليمان الذي كان صائغا، كما مارس سلاطين لاحقون أعمال التطريز أو النجارة أو الرسم على مناديل الموصلين.

بلغ عدد الحرفيين ثلاثمائة وستين في عهد بايزيد الثاني في نحو العام 1500، ثم ارتفع إلى خمسمائة وثمانية وتسعين في 1526، ثم إلى ستمائة وستة وثلاثين في العام 1566، وأخذ عددهم ينخفض فيما بعد. بيد أن تنظيم الحرفيين كان عشوائيا ويفتقر إلى الكفاءة، فكان أغلب الحرفيين يعملون لمصلحة زبائن خاصين، إلى جانب السلطان، في بنايات قريبة من القصر، وكانت بعض الورش توجد في الفناء الأول للقصر، «أمام القصر مباشرة كما كانت الحال في براغ»، على حد تعبير بارون راتيسلاو. وكان للصاغة محال وسط البازار في المكان الذي لاتزال توجد فيه محال الصاغة إلى اليوم. وكان مصنع النسيج الإمبراطوري يقع بالقرب من جامع بايزيد[22].

جُمِع الحرفيون من أماكن بعيدة مثل تبريز والقاهرة والبوسنة(**). كان هؤلاء الحرفيون يعملون في منسوجات قادمة من البندقية وينسخون تصاميم من الصين. لكن في القسطنطينية سرعان ما أصبح أسلوبهم عثمانيا مثل مساجد السلاطين. ومن خلال وسائل فنية مختلفة، كرر الحرفيون أنماطا متماثلة، باستخدام الأرابيسك والخط اليدوي، وقبل كل شيء الزهور. ربما نتج هذا التكرار عن الاستخدام الفطري للرموز التقليدية، ففي تقاليد الشرق الأوسط ترمز الورود إلى الحب المقدس، وأشجار السرو إلى صعود الروح إلى السماء. لكن بعد عهد محمد الثاني، حين غدت المدينة منفتحة أمام الكثير من الأساليب المختلفة، ربما بذلت جهود مقصودة لخلق أسلوب إمبراطوري عثماني باستخدام الألوان المتضاربة النابضة بالحياة ذات التأثير البصري الفوري.

وأيا كانت الأسباب، فإن القسطنطينية امتلكت إمبراطورية فنية لا تقل اتساعا عن باريس أو البندقية. بنى التجار بيوتا في بلوفديف(***) أو دمشق، وشيّد

(*) اللبقة: رقاقة معدنية توضع تحت الأحجار الكريمة في الخواتم لتقوية لونها ولمعانها. [المترجم].

(**) تذكر المصادر التاريخية أن سليم الأول بعد أن غزا مصر أخذ معه إلى بلاده قافلة جمع فيها شيوخ المهنيين والحرفيين والصناع المهرة لإعمار عاصمته، ما أسهم في تجفيف القاهرة من قوتها العاملة وطليعة طبقتها الصناعية وأسهم في الأخير في ركودها وتخلفها. [المترجم].

(***) بلوفديف Plovdiv: ثاني أكبر مدن بلغاريا بعد العاصمة صوفيا. [المترجم].

الباشوات مساجد في سالونيك أو القاهرة، وكلف الكهنة ببناء كنائس في القدس وجبل أثوس(*)، شكلت جميعها روابط بصرية واضحة مع العاصمة العثمانية. وفي أماكن في بُعد السويد وبولندا والبندقية، جزئيا من خلال هدايا السلطان الديبلوماسية المتمثلة في الخيام والقفاطين، انتشرت موضات المنسوجات والأزياء والجواهر والزخرفة الداخلية العثمانية. حتى إن الأزياء الوطنية للملوك والأمراء المجريين والبولنديين بعد العام 1550، ولوحدات عسكرية مثل الخيالة في الدولتين، كانت مستوحاة من الأسلوب العثماني، فقد كانت الأبهة والبراعة العثمانيتان تفتنان الناس في كل مكان، حتى إن النبيل كلما ازداد غنى زاد حرصه على أن يلبس على طريقة السلطان[23].

يشكل الخزف العثماني الذي لا نظير له في صلابته ومدى ألوانه، إحدى الذرى العالية في التاريخ التقني للفن العثماني. كان البلاط والطاسات والدوارق تصنع في بلدة إزنيق Iznik القريبة، لكن تستخدم بالدرجة الأولى في مساجد القسطنطينية وقصورها. وعلى غرار ما حدث مع أشكال كثيرة من الأبهة العثمانية، بلغت هذه الفنون أوجها في عهد سليمان، خصوصا بعد إدخال الأحمر الضارب إلى السمرة، الذي يسمى عادة الأحمر الأرمني، في نحو العام 1550. حتى القرن السابع عشر، كان بلاط إزنيق يستخدم في أنحاء القصر كافة، فتجده يبطن «الممشى الذهبي» من جناح السلطان إلى الحريم الذي سمي بذلك الاسم لأن السلطان كان يلقي عملات ذهبية على سيدات الحريم وهو يمشي فيه في الأعياد، وكذلك مقصورة بغداد في الفناء الرابع، بل إن جدران الجوامع الكبرى، مثل الجامع السليماني وجامع السلطان أحمد، عبارة عن حدائق خزفية تذكّر المصلين بحدائق الجنة التي وُعد بها المتقون في القرآن. وتشكل أوراق النباتات والزهور والأشجار والأجمات صورا على البلاط باللون الأحمر والأبيض والأزرق، وتعد «معجزة في الدقة ونعومة الملمس والبراعة الفنية لا يمكن لأي نسخ أن يَعْدلها»[24]. يتعزز تأثير هذه الرسوم بفضل تضارب ألوانها الكثيفة والقوية مع الحوائط الرمادية للمساجد.

(*) جبل أثوس Mount Athos: جبل في شبه جزيرة اليونان يعرف باسم الجبل المقدس، يضم عشرين ديرا أرثوذكسيا شرقيا تتبع البطريركية في القسطنطينية مباشرة. [المترجم].

تعــد صحــون إزنيق حاليــا تحفا فنية، لكنهــا مع ذلك لم تكــن رائعة بما يليق بعظمة الســلطان. كانت هذه الأطباق التي تسمى «فخاريات» تستخدم في مطابخ القــصر، وهناك كانت تتحطم عادة في النــيران والزلازل. وكانت الأسرة الإمبراطورية وكبار المسؤولين يستخدمون قطعا قادمة من الصين، جاء الكثير منها غنيمة في أثناء الحروب في ســورية وإيران. كانت هذه الآنية التي تسمى «الصيني»، تُحفظ بعناية في أقبية القصر، لذلك تعد مجموعة العشرة آلاف وستمائة قطعة صيني التي لاتزال موجــودة في متحف قصر توبكابي، ثالث أكبر مجموعة في العالم بعد مجموعة بكين ودرسدن(*). وكان السلطان نفسه يأكل في آنية من الفضة أو الذهب أو السيلادون الأخضر(**) التي كان يعتقد أنها تكشف السم وتبطل مفعوله.

كان الأستديو الكائن خارج الأسوار المسمى النقاشين nakkashane أحد أهم الورش التابعــة للقصر، وكانت تســتخدمه مجموعة من الرســامين ومجلــدي الكتب والكُتاب الرســميين ممن يتقاضون رواتب جيــدة، كان بعضهم يصاحب الســلطان في الحملات لتســجيل انتصاراته. وفي عهد بايزيد الثاني وسليم الأول، أعد هؤلاء الكُتاب مخطوطات مزخرفة تقليدية لشعراء فرس مثل سعدي وحافظ للمكتبة الإمبراطورية، وكذلك لأشعار ســليم الأول نفســه الذي كان شاعرا بارعا باللغة الفارســية، وهنا أيضا نجد أنه في عهد سليمان الأول، ابتعد الفنانون عن الموضوعات الفارسية، وانبثق أسلوب عثماني مميّز.

تميِّز الواقعيــة ودقة التفاصيل والاهتمام بالأحداث التاريخية والناس، رســامي المنمنمات في القسطنطينية عن الرسامين المسلمين الآخرين. وعلى الرغم من الرفض الشــعبي لتمثيل الهيئة البشريــة، لم يكن هناك نهي قرآني صريــح. وتمثيل الوجوه والأجســام في الرسم العثماني على الرغم من تصلبه، كان أقل جمودا وتكرارا منه في ممالك إســلامية أخرى، باســتثناء الرســم في الإمبراطورية المغولية. يهيمن على هذا الفن تركيز مفرط على إنجازات الأسرة الحاكمة. ففي هذه الرســوم، تجد الســلطان يذهب إلى المســجد، ويستقبل الســفراء، ويحقق الانتصارات. وقد أدى الاستخدام المسرف للون الذهبي والفضي والقرمزي والأرجواني والأخضر المصفر المميّز، إلى إنتاج جرأة في اللون أكثر من تلك التي ميّزت خزف إزنيق.

(*) درسدن Dresden: عاصمة ولاية سكسونيا شرق ألمانيا. [المترجم].

(**) السيلادون celadon: اسم لخزف صيني يتميز بنوع اللمعة واللون الأخضر. [المترجم].

كـما أنتج رسـامو المنمنـمات التابعون للقـصر مناظر جغرافيـة، مثل تصوير القسطنطينية لمطراقي نصوح Matrakci Nasuh في العام 1537. وقد صُوِّرت معالم مثل برج غَلَطَة والأبراج السـبعة وآيا صوفيا وجامع الفاتح من الواجهة ومن الهواء، بقـوة الفن الفطري. وانخفضت أعداد الحرفيين العاملين في أسـتديو النقاشـين من مائة وأربعة وعشرين في العام 1596 إلى نحو سـتين في منتصف القرن السابع عشر، وفيـما بعـد إلى نحو عشرة. ويلاحظ حـدوث تراجع في النوعيـة في الفترة عينها في المنسـوجات العثمانية مع التراجع في الكم، فقد كانـت العاصمة العثمانية في ذلك الوقت مشغولة بالبقاء أكثر منها بالمجد[25].

في الفنـاء الثاني، أنتجت مجموعة من الكُتاب وثائق بخطوط متنوعة مثل خط السـياقات Siyakat، للسجلات المالية (خط خاص بحروف يصعب تمييزها لإضعاف إمكانية تزييفها) والخط الديواني الذي كان نوع الخط الرسمي المستخدم في رسائل السلطان ومراسيمه (التي تسـمى فرمانات من كلمة فارسية بمعنى «أمر»). كانت الفرمانات تتعامل مع كل شيء، من مؤن الجيش إلى نظم السوق. وقد وُجِد أن عهد سليمان وحده أنتج مائة وخمسين ألفا من هذه الوثائق[*].

كانت ترويسـة الفرمان عبارة عن شكل فني ميّز القسطنطينية، هو طغراء السـلطان. ظهرت الطغراء أيضا عـلى العملات المعدنية وبعـض البنايات، ما يجعلهـا مكافئـا أسريا عثمانيا للوحات الملوك أو تماثيلهـم التي كانت منتشرة في الممالـك الغربية. تتكـوّن الطغراء من حلقات من الخطـوط بألوان ذهبية وزرقاء وسوداء، تحيطها الغيوم ولوالب من الزهور وأشكال الأرابيسك في بعض الأحيان. ومن أجل ضمان قانونية الوثيقة التي تُصدَّر بها الطغراء، فإن صيغتها لم تختلف كثيرا على مدى سـتة قرون. وفي عهد سـليمان القانوني على سـبيل المثال، كان نص الطغراء هو: «الإمبراطور سـليمان، ابن الإمبراطور سليم، الخان المظفـر للأبد». كان ارتفاع الطغراء يمكن أن يزيد على مائة سـنتيمتر أو حتى مائتين، وفي بعض الأحيان كان أطول من الإنسـان. يقـدم التوكيد المطلق على العظمة الإمبراطورية عبر الخط اليدوي والمخطوطات تفسيرا لإحجام السلاطين العثمانيين عن إدخال المطبعة[26].

(*) ومن ذلك استمد لقبه: «القانوني». [المترجم].

بيد أن القصر لم يكن ماكينة للأبهة والفخامة وحسب، بل كان أيضا مقر إقامة السلطان وأسرته. كان عدد موظفي القصر سبعمائة وستة وعشرين موظفا قبل العام 1481، ازدادوا في ذروة العظمة في عهد سليمان إلى نحو خمسة آلاف. شمل الموظفون الخدم المكرسين للرفاه الشخصي للسلطان، مثل لفافي العمائم وصانعي القهوة والرسل والحُجّاب، وكوكبة خارجية من الموظفين يديرون مدارس وورشا ومخابز ومستشفيات ومساجد (كان هناك ثلاثة عشر مسجدا على الأقل داخل أسوار القصر).

كانت مدرسة القصر أهم هذه الإدارات، وكان محمد الثاني قد أعاد تنظيمها لتشمل بين ثلاثمائة وأربعمائة شاب يمثلون زبدة الدفشرمة، كانوا يسكنون البنايات الواقعة على يمين الفناء الثالث. كانت هذه البنايات، التي تحطمت حاليا بفعل الحريق، تضم غرفا للمعيشة وفصولا للدراسة ومكاتب للمعلمين ومعهدا للموسيقى، ومسجدا وحمّاما تابعين للمدرسة. ووفقا لجيوفانتونيو مينافينو Giovantonio Menavino الذي كان هو نفسه غلاما في «بلاط ملاذ العالم» من العام 1505 إلى العام 1514، كان كل نزلاء المدرسة يتعلمون على أيدي معلمين وخصيان لمدة أربعة عشر عاما لكي يصير الواحد منهم «رجل دولة محارب ومسلما صادقا، وفي الوقت عينه يجب أن يكون أديبا وخطيبا مفوها يتمتع بكياسة شديدة وأخلاق حميدة». أما منهج هذه المدرسة، الذي كان أكثر علمانية من مدارس المساجد، فقد شمل آداب القصر، والألعاب الرياضية، والثلاثي اللغوي العثماني الكلاسيكي المتمثل في اللغات التركية والفارسية والعربية التي كانت لغات الحكومة والأدب والدين. وكان الغلمان يدربون أجسامهم بحمل الأثقال الخشبية، وعقولهم بالقرآن وألف ليلة وليلة(27).

كان علي بيه Ali Bey - وهو الاسم الذي عُرِف به - أحد الوسطاء الكثيرين بين القسطنطينية والعالم الغربي الذين أسهموا في تحديث القسطنطينية من جانب، ومعرفة الغرب بالإمبراطورية العثمانية من جانب آخر. كان علي في طفولته صبيا بولنديا اسمه ألبرت بوبويسكي Albert Bobowski سباه تتر القرم وباعوه في القسطنطينية، وتعلم في القصر في أوائل القرن السابع عشر. أصبح علي أحد مترجمي السلطان، وكان أيضا أول من دوّن كلمات الأغاني والموسيقى التركية

ونغماتها. دوَّن الفروق بين الموسيقى العسكرية العثمانية، وموسيقى القصر الناعمة والحزينة والمعقدة التي تعتمد على الكمان الصغير والعود ثلاثي الأوتار والناي والمزمار الفارسي، والأغاني الشعبية «التي كانت ألحانها مطبوعة في آذان الجميع. تسمى هذه الأغاني «التركو» Turku، وتتعامل موضوعاتها في أغلبيتها مع حروب الدولة وانتصاراتها والحب والمعاناة والفراق وما شابهها، وهي أغان لا يثمّنها المتعلمون والمتمدنون».

بعد أن فُصِل بوبويسكي وطُرِد بسبب سكره في نحو العام 1657، كتب بحثا عن القصر، ربما لمصلحة السفارات في بيرا. وعلى الرغم من أن الأتراك المحليين كانوا يتسللون إلى صفوف الانكشارية منذ فترة طويلة، فقد سجل بوبويسكي «إنك على الرغم من ذلك تقابل كل الأمم داخل القصر، وإن ظلت النسبة الكبرى من الغلمان من الرعايا المسيحيين للإمبراطورية العثمانية». وكما كانت الحال مع مؤسستين أسريتين أخريين - كلية إتون(*) والمدرسة الثانوية الإمبراطورية في تسارسكوي سيلو(**) - كانت مدرسة قصر توبكابي تعد أفضل مدرسة في الإمبراطورية ومصنع كبار الوزراء. من بين إجمالي ستين صدرا أعظم، تعلم ثمانية وأربعون فيها، منهم محمد باشا صوكولو ومحمد كوبرولو مؤسس أسرة من كبار الصدور العظماء إبان القرن السابع عشر وبعض المصلحين إبان القرن التاسع عشر[28].

كان القصر عالما قائما بذاته، وكان دخول غلام جديد يحدث عبر مراسم تطهر purification صارمة، فكان الغلام الجديد يترك ثلاثة أيام وحده من دون أن يكون هناك أحد يتحدث معه إلى أن يخبره رئيس الخصيان بأنه قد انضم منذ ذلك الحين إلى صفوف عبيد السلطان. كان شعر الغلمان يقسم إلى ضفائر بالقرب من آذانهم، «كتذكير لهم بأنهم يجب أن يظلوا عبيدا للسلطان إلى الأبد، مثلما كان يوسف غلاما لفرعون مصر وكان يلبس ضفائر مماثلة». وكانوا يعاملون معاملة الكلاب المربوطة بمقود من رقبتها، فكانوا إذا خالفوا قاعدة، يضربون ضربا مبرحا لدرجة

(*) أنشأ الملك هنري السادس كلية إتون Eton College في العام 1440 لتقديم التعليم اللازم لإلحاق الشباب بكلية الملك ممثلة في كامبريدج. [المترجم].

(**) تسارسكوي سيلو (بمعنى «قرية القيصر») Tsarskoye Selo: مدينة قديمة كانت تضم مقر إقامة الأسرة الحاكمة الروسية، تسمى حاليا بوشكين Pushkin، ضمت لاحقا مدارس تابعة مباشرة للأسرة الحاكمة. [المترجم].

أن الســلطان نفسه الذي كان يسمع صرخاتهم، كان يطلب الرحمة لهم أحيانا. وفي أثناء وجودهم في الصلاة، كان الخصي يفتش صناديقهم بحثا عن المأكولات والرسائل الغرامية المخبأة.

إيمانا بأن العقل الجيد لا يسكن جسدا ضعيفا أو بغيضا، كان أقدر وأوسم أربعين غلامــا يختارون للخدمة في غرفة الســلطان الخاصة. كان لــكل غلام عمل منفصل، فأحدهم كان يعتني بسيف السلطان، وآخر ببغاواته، وثالث يحلق للسلطان، ورابع يقلم أصابع يديه وقدميه. وحتى انسحاب السلطان إلى الحريم في العقد الثامن من القرن السادس عشر، كان الغلمان يعدون مائدته ويعتنون بخزانته وينظفون غرفة نومــه الملكية التي كانت جدرانها تتلألأ «بفيض من الذهب والفضة» ويحرســونها. وفي الليــل، كانت أسرة الغلمان توزع على زوايا الغرفة الأربعة. وفي وســط الغرفة، كان يوجد سرير السلطان العريض، مغطى بدثر حريرية فارسية وألحفة من بورصة وجلد نمر، تحيط به شــمعدانات فضية(29). كان غلامان يرافقان السلطان في نزاهته إلى العــالم الأبعد من الفناء الثالــث. يظهر الغلمان في المنمنــمات العثمانية صغار السن وأبرياء إلى حد مبالغ فيه، يرتدون عباءات حمراء وذهبية، إلى جانب السلطان ووزرائه ذوي الوجوه المتجهمة.

يعد اختيار الوزراء والغلمان من بين صفوف العبيد دليلا على إحدى السمات المميّزة للقصر العثماني والقســطنطينية نفســها، وهي التحرر من الطبقية. فلم تكن هناك تراتبية الازدراء ولا الهوس بالعائلة اللذين غشيا في الغرب (وبين بعض القبائــل العربية) على الكثير مــن العقول وكان لهما القول الفصل في الكثير من التعيينات. وحتى أواخر القرن التاســع عشر، كان من الممكن أن يتولى أشخاص ممــن يعتبرون في الغرب «وضعاء وحقراء»، مناصب قيادية في القصر. من ذلك أن السلطان محمود الثاني في العام 1830 دقق في وجه رجل في البازار المصري(*) وسأله: «ما اسمك؟»، فأجاب الرجل: «رضا»، فقال له السلطان: «حسنا، اتبعني يــا رضا بيــه». في لمح البصر، أصبح عامل في دكان «بيــه». وبعد ذلك ارتقى إلى

(*) البازار المصري Egyptian Bazaar (أو Misri Carsisi) ثاني أكبر الأســواق التقليدية في إســطنبول بعد السوق الكبير، كان متخصصا في العطارة، سُمي بهذا الاسم، كما يذكر المؤلف في الفصل الخامس، لأن التوابل كانت تأتيه من مصر، لكن ثمة رأيا آخر يرد هذه التسمية إلى أن البازار بُني بالخراج القادم من إيالة مصر. [المترجم].

غلام، ثم سائس، ثم شماشرجي، ثم المشير الأكبر للقصر، ثم وزير الحربية، ثم المستشار المقرب إلى السلطانة الوالدة. وفي العام 1843، وُصف بأنه «الرجل الأقوى والأكثر تأثيرا في الإمبراطورية». وحين مات في العام 1877 قيل إنه كان أغنى باشا في القسطنطينية[30].

ثمة اختلاف آخر بين البلاط العثماني والبلاطات الغربية، هو غياب مجتمع البلاط، ذلك أن الرفاق الاجتماعيين للسلطان وأسرته وكبار الوزراء كانوا يختارون عموما من داخل أسرهم. كانت الأسر الغنية البارزة في الولايات، التي كان بعضها سابقا في الوجود على العثمانيين، نادرا ما يستقرون في القسطنطينية. ولم تكن تقام حفلات في البلاط لجذب هذه الأسر وترويضها، كما كانت الحال في فيرساي وفيينا. ولم يكن القصر أداة لممارسة السيطرة وتوزيع الرعاية. وكانت علاقات الوجهاء المحليين مع الحكومة المركزية تجري من خلال الحاكم الإقليمي، وليس الإمبراطور.

تمثل أحد الاستثناءات لهذه القاعدة في عائلتين أتى بهما السلطان إلى العاصمة كرهائن وضيوف مكرمين في آن معا لضمان ولائهما. فبعد العام 1532، كان يقيم فرد أو اثنان من أفراد الأسرة الحاكمة للقرم - آل كراي خان Giray Khans - في القسطنطينية وبالقرب من ممتلكاتهم في تشالجا(*) التي كانت جيدة للصيد. ونظرا إلى تمتع هذه الأسرة بمكانة التحدر من جنكيز خان، فقد كانت أول من يقدم الاحترامات للسلطان في الأعياد، وكان يقال إنها الأحق بالعرش إذا انقرضت الأسرة العثمانية. ومع أن روسيا انتزعت القرم من العثمانيين في العام 1783، فقد ظل أفراد الأسرة يعيشون في القسطنطينية، ولايزال بعضهم يعيشون فيها إلى اليوم.

قام أفراد الأسرة الهاشمية، حكام مكة الذين قبلوا السيادة العثمانية في العام 1517، بزيارة العاصمة لأول مرة لإعلان البيعة لسليمان القانوني في العام 1539، وزاروها ثانية في العام 1589 والعام 1677، وأجبر بعضهم على الإقامة هناك، مع أنهم في هذه المرحلة ربما كانوا يفضلون الإقامة في مدينة القاهرة الناطقة بالعربية. وظلت العلاقات بين الأسرتين الهاشمية والعثمانية تجمع بين الخوف والاحترام

(*) تشالجا Catalca: منطقة ريفية في إسطنبول في تراقيا الشرقية بين بحر مرمرة والبحر الأسود. [المترجم].

والولاء والرشــوة والتنافس والاحتياج المتبادل. وقع عداء بين الهاشــميين والحاكم العثماني للحجاز على السيطرة على عوائد الحج والجمارك. واستاء بعض الهاشميين من الخضوع «لابن العبيد»، أي الســلطان، لذلك أراد السلطان أن يبقي أفراد هذه الأسرة الخطـرة تحت عينيه في القســطنطينية. وكان ذلك بداية التحول في العلاقة بين القســطنطينية ومكة الذي قُدِّر له أن يســيطر على نمط حياة الهاشميين حتى نهاية الإمبراطورية[31].

كانت أبهة الســلطان وأسرته تستخدم لإبهار المدينة، فكان السلطان يذهب إلى المســجد في موكبه الرســمي في معظم أيام الجمع. وكانت نزهات الســلطان على البســفور، لزيارة قصوره في بيشيكتاش وبليرباي Beulerbey التي بُنيت في أوائل القرن الســابع عشر، أو عبر آسيا للصيد، توفر مزيدا من الفرص لاستعراض الأبهة. وفي القســطنطينية، كان الرجال والمراكب، وليس الخيول والمركبات، هي وســائل النقل الأساســية. وكان قارب الكياك kayik الضيــق الأنيق ذو المقدمة المدببــة الطويلة رمزا للمدينة، تماما كــما كان الجندول رمزا للبندقية. كان أفراد من البســتانجية الإمبراطوريين يجدفون بمراكب الكياك الخاصة بالســلطان، فلم يكن البســتانجية مجرد بســتانيين إمبراطوريين وحســب، بل كانوا أيضا وحدة بحرية وعســكرية مميّزة مكوّنة من ســبعة أو ثمانية آلاف جندي، منفصلة عن الانكشارية، وظيفتها حراسة الســلطان والسيطرة على البسفور والقرن الذهبي وشــواطئهما. وفي الليل، كانوا يسيّرون بدوريات في ميناء القسطنطينية في زوارق لاعتقــال المخالفين، وفي النهــار تكون دورياتهم في ضواحــي المدينة لمنع التجار الذين يتهربون من الجمارك.

كان ستة وعشرون من البســتانجية، يرتدون طرابيش حمراء ذات شُرابات زرقــاء وسراويل وقمصان بيضاء فضفاضة من الموصلين تكشــف عن صدورهم وأذرعهم، يجدفــون على مركب الكياك الإمبراطوري الذي كان طوله بين ثلاثين وأربعــين مترا. يجلس الســلطان في نهاية القارب محميا من الشــمس والرياح ومســتندا إلى وسائد في كشك من الخشــب المُذَهّب المطعم بالعاج والأصداف والجواهر. وكان البســتانجية يجدفون بقوة لدرجة أن القارب كان يخترق الماء كَسَــهْمٍ أطلق من قوس، حتى إن قاربه إبان القرن التاســع عشر كان يستطيع

أن يسبق مركبا بخاريا. وكان قارب السلطان تسبقه عادة ستة قوارب كياك تحمل مرافقيه.

وعلى صفحة الماء، كما على سطح الأرض، كان هناك حاجز صوت يحجب السلطان، وكان صعوده إلى القارب ونزوله منه ومرور قاربه يُحيي بوابل من طلقات المدافع المتمركزة على الشاطئ ومن البوارج الراسية في البسفور. ومع تبدد سحب الدخان الناتجة عن طلقات المدافع، كان البستانجية يبدأون في «النباح كالكلاب» حتى لا يسمعوا حديث السلطان مع قائدهم البستانجي باشا الذي كان يتشرف بتوجيه الدفة[32].

كانت الأبهة الإمبراطورية تفيض على شوارع القسطنطينية في أثناء الاحتفالات بختان أبناء السلطان أو زواج بناته. وكما هي الحال في السلاملك، كانت احتفالات السلطان في القسطنطينية أبعد في طابعها الجماهيري منها في الممالك الغربية. في الثلاثين من يونيو 1530، بدأ سليمان القانوني في أوج قوته ومجده، الاحتفالات بختان أبنائه مصطفى ومحمد وسليم. نُصِبت الخيام في أوسع فضاء مفتوح بالمدينة، وهو ساحة الألعاب الرومانية القديمة. كانت خيام السلطان المحمية من المطر بغطاء أخضر والمخاطة من الداخل بالزنبق والورد والقرنفل المطرز بالفضة والذهب وترفعها سوار مطلية بالذهب، بمنزلة قصور من الحرير والقنب. وكان عرشه يوضع تحت مظلة من القماش الذهبي، حيث يجلس السلطان الذي كان حينئذ في الثانية والثلاثين من عمره، محاطا بوجهاء الإمبراطورية برئاسة الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وحضور الأمراء الأسرى.

ففي المكان الذي كانت الإمبراطورة المستقبلية تيودورا تكشف فيه عن عورتها أمام حشود بيزنطية مهللة(*)، أخذ المشعوذون والمهرجون يُضْحِكون رعايا السلطان العثماني الأكثر احتشاما. وفي المكان الذي كانت فيه فرق من الزرق

(*) تشير الصفة «المستقبلية» إلى أن تيودورا (من نحو العام 500 إلى 28 يونيو العام 548) في ذلك الوقت لم تكن قد أصبحت بعد إمبراطورة، ذلك أن الإمبراطورة الأقوى والأكثر تأثيرا في تاريخ بيزنطة كانت قبل أن تتزوج جوستينيان الأول، ابنة مروّض دببة في سيرك، أكله دب، ما اضطرها هي وأخواتها إلى احتراف الدعارة، كما أنها عملت راقصة وممثلة في المسارح الشعبية حول البسفور، وكانت تمثل مسرحيات خليعة تتعرى فيها أمام الجمهور، ربما لذلك سنت تيودورا بعد أن أصبحت إمبراطورة قوانين توسع حقوق النساء وتمنع الدعارة القسرية، كما أغلقت المواخير، وأنشأت ديرا على الجانب الآسيوي من الدردنيل - «دير التوبة» - تستضيف فيه المومسات السابقات. [المترجم].

والخضر تتنافس في سباقات المركبات ذات العجلتين(*)، قاتل جنود السلطان بحارة في معركة تمثيلية. ومشى البهلوانات على حبال مشدودة من ناحية إلى مسلة تحتمس الثالث (1549 - 1503 قبل الميلاد) التي جلبت من مصر ونصبت هناك في عهد ثيوديسيوس الأول في العام 590، ومن ناحية أخرى إلى عمود حجري يعود إلى الفترة نفسها. وعُرِضت على الجمهور الهدايا التي قدمها الوزراء والبهوات الأكراد والسفراء الأجانب إلى السلطان، مثل البلور والخزف الصيني والدِمَقْس السوري والموصلين الهندي والعبيد من الحبشة والمجر، وألقى الشعراء قصائد دُبِّجت خصيصا للمناسبة.

على أن مظاهر الإسلام لم تُنس كليا. وفي إحدى المسابقات العلمية القرآنية بين العلماء، مات أحدهم كمدا لأنه لم يستطع أن يأتي بالكلمات الصحيحة. وفي اليوم الثامن عشر، أُتي بأبناء السلطان من القصر القديم في قلب المدينة، وجرى ختانهم في القصر الذي بناه الصدر الأعظم إبراهيم باشا المطل على ساحة الألعاب (حاليا متحف الفن التركي والإسلامي). وفي الاحتفال، أعطى السلطان قفاطين للوزراء والعلماء. وأكل الجمهور ثيران مشوية، وأطلقت ثعالب وأبناء آوى وذئاب حية بين الحشود كشكل من الإثارة[33].

وفي العام 1582، كان ختان الأمير محمد بن مراد الثالث شأنا رسميا، خُطِّط قبل سنة من إقامته. وحُدِّدت للمسؤولين الكبار مهام احتفالية خاصة، فعُيِّن القائد العام للأناضول على سبيل المثال مشرفا على الشَربات(**). وأعد زهاء ألف وخمسمائة طبق وصينية نحاسية للمآدب. وأعدت القصور المحيطة بساحة الألعاب لتكون مكانا للجلوس والمشاهدة للسفراء من سمرقند وفارس وجورجيا والمغرب والبندقية وبولندا والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكذلك سيدات القصر من وراء ستار.

(*) أثبتت تيودورا قوتها وتأثيرها في هذا السباق الذي شهد أعمال شغب بين الحزبين السياسيين المتنافسين - «الزرق» و«الخضر» - في يناير العام 532 وانتشرت الحرائق وعمت الفوضى المدينة وطالب الثوار بإمبراطور جديد، وبالفعل قرر الإمبراطور وحكومته الفرار، قبل أن تدخل تيودورا على مجلسهم وتحثهم على رفض الهروب والتصدي للثوار قائلة إن «الأرجوان الإمبراطوري هو أنبل كفن»، فعدل الإمبراطور والحضور عن قرار الفرار، وقاد جوستينيان حربا على الثوار انتصر فيها وقتل ثلاثين ألف ثائر في ساحة الألعاب واستتب له الحكم ثانية. [المترجم].

(**) كان الشَربات حتى عهد قريب إحدى المتع الأساسية في الريف المصري، وكان الناس يقدمونه في الأعياد والحفلات والأفراح، وكان جزءا من جهاز العروس، ويباع في الأعياد والموالد، حتى إنه اتخذ اسما للبنات. ربما نتج ذلك عن قرون الحكم العثماني، أيا كان اتجاه التأثير من تركيا إلى مصر أو العكس. [المترجم].

وفي الأول مـن يونيـو انطلقـت الاحتفالات بوصول السـلطان. ثمـة تجديدان يكشـفان عن انبثـاق روح حضرية. مرت كل الطوائف الحرفية بالقسـطنطينية في موكب من أمام عرش السـلطان الذهبي، بمعدل طائفتين أو ثلاث في اليوم، إذ مرت من أمامـه عربات يجر الواحدة حصان واحد، تعرض مهـارات كل طائفة في حرفة معينـة. عرضت إحـدى العربات حمّاما مـن القرميد وفيه رجال بتنورات سـوداء يؤدون الوضوء والتدليك. ومر طباخون يعرضون رؤوس خراف وثيران وأقدامها وهم ينادون «تعال فَخُذْ يا عزيزي، كُل ما عندنا، فطعامنا كله مدهن، كله سـاخن، كله بالخل، كله بالثوم». ومر صناع القطران وهم يلقون الزفت والقطران على الحشـود ويشـخصون حكاية «ألف خدعة مرحة من ذلك النوع». ومر مراقبو مستشـفيات المجانين وهم يقتادون مجانين ضاحكين وباكين مقيدين في سلاسـل ذهبية وفضية. ومرت فرقة من مائة وخمسين صبيا وقد تغطوا بكسرات من الزجاج عكست أشعة شـمس الصيف على المشـاهدين لعرض مهارة صناع المرايا. كما أعدت ألعاب نارية ترمـز إلى المدن والكنائس والحيوانات الخرافية، بمسـاعدة مهندس إنجليزي أسـير يدعى إدوارد ويب Edward Webbe. وقدم السلطان سلسلة من المآدب في المساء، إحداها للباشوات، والتالية للعلماء، والثالثة لقواته. وفي كل مساء، كان يجري تحضير ألف طبق من البيلاو(*) وعشرين ثورا مشويا لأهل القسطنطينية.

شارك اليهود والمسيحيون في الاحتفالات على نحو مهين. فكان البطاركة اليونانيون والأرمن، فضلا عن المفتي والدراويش، ينحنون للسلطان ويباركونه بالكلمات: «أدام الله السعادة على السلطان!» وأجريت معركة تمثيلية في ساحة الألعاب بين المسلمين والمسـيحيين، وبالطبع انتصر المسـلمون وانتزعوا قلعة المسـيحيين التي خرج منها أربعة خنازير، في إشارة ازدرائية إلى أكل المسيحيين للحم الخنزير(**). وأمْتِع العامة

(*) البيلاو pilav: طبق تركي يطبخ فيه الأرز في مرق متبل، وفي بعض الحالات يضاف إليه بصل مطبوخ مبشور وتشكيلة كبيرة من التوابل، وبناء على البيئة يضاف إليه اللحم أو السمك أو الخضراوات أو الفواكه المجففة. [المترجم].

(**) عـلى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسـط ومن طرفي الحرب الدينية المتواصلة، كانت تقام في إسـبانيا عروض تمثيلية طقوسية تصوّر انتصار المسيحيين على المسلمين. من ذلك أنه قدم في سرقسطة على شرف الملك فيليب الثاني وحاشـيته في العام 1585 عرضا مسرحيا خاصا من «الأندلسيين والمسيحيين»، أدى فيه صيادون مورسكيون دور أندلسيين يدافعون عن حصن بُني خصيصا لهذا العرض، فيما يقتحمه المسيحيون ويدمرونه، قبل أن يأسروا المدافعين ويسـوقوهم في موكب مظفر إلى قصر الدوق المحلي. وفي العصور الوسـطى المتأخرة، كانت المدن والقرى الإسـبانية تنظم مواكب ورقصات مهرجانية تعرف باسـم «الأندلسيين والمسيحيين»، كان المسيحيون المحليون فيها يلبسون زي أندلسيين يهزمهم المسيحيون في معارك تمثيلية. وفي بعض الحالات، كان المسيحيون يحتفلون بانتصارهم بتحطيم دمى للنبي محمد أو إغراق مقلّد أو ممثل له في البئر المحلية. [المترجم].

بمسرحيات كوميدية ورقصات يهودية. وأدى مائة يوناني من غَلَطَة بسترات حمراء وقبعات فريغية(*) رابطين أجراسا في سيقانهم، رقصات خليعة من الإسكندرية. انسحق بعض المسيحيين (وليس اليهود) أمام المناسبة، أو وفقا لمصدر مسيحي، أمام عروض المال، لدرجة أنهم كانوا يرفعون إبهامهم، في إشارة إلى استعدادهم إلى اعتناق الإسلام. وكان هؤلاء يُحمَلون فورا إلى القصر ليجري ختانهم.

أما الأمير محمد، الذي أصبح لاحقا السلطان محمد الثالث، المدثر بالأطلس القرمزي والقماش الأبيض المطرز، وريش البلشون في عمامته، وياقوتة حمراء في أذنه اليمنى، فقد جرى ختانه في السابع من يوليو. وأرسلت القلفة(**) على طبق من ذهب إلى أم الأمير، وأرسلت إلى جدته السكين التي قطعت بها. وكوفئ الشخص الذي أجرى ختان الأمير بثلاثة آلاف قطعة ذهبية، وطاسة وإبريق ذهبيين، وثلاثين ثوب قماش وعباءات تشريفية، وزُوّج بعد ذلك من إحدى بنات السلطان. ثم عاد السلطان أخيرا إلى القصر في الثاني والعشرين من يوليو. دامت الاحتفالات طويلا جدا - خمسة وخمسين يوما - لدرجة أنها تسببت في تأخير بداية موسم الحملات العسكرية[34]. ربما كانت القسطنطينية «كابوا» أخرى(***)، وهي المدينة التي ألهت مباهجها جيش هانيبال عن الهجوم على روما.

كان من بين الزينات الغريبة التي تعرض في مهرجانات المدينة، النخيل التركي التقليدي الاصطناعي المصنوع من حبال وشموع. كان هذا النخيل المزيّن بالأحجار الكريمة والفاكهة والزهور والمرايا، يعد رمزا للرجولة والخصوبة، وكان طول النخلة الواحدة يصل أحيانا إلى اثنين وعشرين مترا. وعلى مدار أسبوع قبل الختان في العام 1582 حُملت خمس نخلات كبيرة وثلاثمائة وستين نخلة صغيرة ومتوسطة الحجم

(*) فريغيا Phrygia: إقليم قديم في الوسط الغربي للأناضول، استوطنه شعب أطلق عليهم اليونانيون اسم «الفريغيين»، حكموا آسيا الصغرى بعد انهيار الإمبراطورية الحثية إبان القرن الثالث عشر قبل الميلاد حتى انهيارهم وصعود ليديا إبان القرن السابع قبل الميلاد. [المترجم].

(**) القُلْفَة: هي جلدة الذكر التي تقطع في الختان. [المترجم].

(***) كابوا Capua: مدينة في كامبانيا بجنوب إيطاليا، استولى عليها وغيرها جيش قرطاج بقيادة هانيبال بعد هزيمة جيش الجمهورية الرومانية في معركة كاناي Cannae في العام 216 قبل الميلاد، يقال إن حياتها المترفة ضيّعت بأس هانيبال وجيشه وأوهنت روحهم المعنوية، حتى إنهم لم يحققوا بعدها انتصارا، وانتزعها الرومان منهم ثانية، لذلك اعتبر بعض المؤرخين سكنى هانيبال وجيشه لكابوا بمنزلة «كاناي» أخرى، لكن المهزوم فيها كان هانيبال وجيشه. [المترجم].

مــن هذا النوع في مواكب بالمدينة. وفي الشــوارع الضيقة جدا، كان الأمر يســتلزم هدم بعض البيوت لمــرور الموكب بالنخيل، ذلك أن العظمة الإمبراطورية كانت لها الأسبقية على أبنية المدينة(35).

كان استعراض العظمة في زفاف بنات السلطان أهم من الزفاف نفسه. في زفاف الأميرة فاطمة ابنة السنوات الخمس (*)، في العام 1709، حُملت هدايا العريس التي كانت عبارة عن صناديق مــن الجواهر ومصاحف وأحذية مرصعة باللؤلؤ ونخلتين من الفضة وخمسة عشر كيسا من الذهب ومائة وعشرين صينية من الحلويات، في موكب رسمي في المدينة إلى القصر. وداخل القصر، عُرِض جهاز العروس على الوزراء الذيــن قاموا بدورهم بإضافة هدايــا أخرى. ثم حُمِّل جهاز العروس على خمســة وخمســين بغلا، برفقة أغلب الأسرة الإمبراطورية بملابسهم الرسمية، إلى قصر الأميرة الجديد في أيوب، وسط حشود مهللة. أما العروس نفسها، فقد نقلت إلى قصرها في موكب مكوّن من 31 مركبة.

وعلى مدار الأيام التالية، شهدت المدينة ألعابا نارية ومشعوذين ومسابقات مصارعة ومعــارك تمثيلية جر الجنود فيها بارجة حربية خلال شــوارع المدينة. بيد أن مجد الســلطان الذي عُرض في شوارع القسطنطينية لم يتجل في ساحات المعــارك الأوروبيــة (كانت جيوشــه قد تكبــدت هزائم متكررة مــن الجيوش النمســاوية منذ فشل حصار فيينا في العام 1683)(**). وعلى أي حال، فإن هذا الزواج لم يكتمل، إذ قبل أن تصل العروس ســن البلوغ كان العريس قد قُتِل في هزيمة عثمانية أخرى(36).

(*) ســيتضح في نهايــة الفقــرة التاليــة أن الزواج لم يكن يتم قبل أن تصل العروس ســن البلــوغ، إذ يبدو أن هذه الاحتفالات كانت شكلا من الخطبة المبكرة. [المترجم].

(**) بعد حصار لشهرين لمدينة فيينا، وقعت «معركة فيينا» في 11 و12 سبتمبر 1683 بالقرب من فيينا بين الجيش التركي وجيش الحلف المقدس الأوروبي المكوّن من الإمبراطورية الرومانية المقدســة ومملكة بولندا - ليتوانيا والنمســا الهابســبرغية، قــاد الجيش التركي فيها الصدر الأعظم قرة مصطفى باشــا الذي أقنع الســلطان محمد الرابع بضرورة التحرك لإيقاف خروقات القوات الهابســبرغية على الحدود، وانتصر فيهــا الحلف المقدس، وكانت تأكيدا لصعود آل هابسبرغ على الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأوروبا الوسطى من جانب، وتراجع الإمبراطورية العثمانية من جانب آخر، وأطلقت «الحرب التركية» الكبرى التي استمرت خمسة عشر عاما. استعصت فيينا من قبل على سليمان القانوني نفسه الذي حاصرها في العام 1526. [المترجم].

وفي العام 1720، جرى ختان أربعة من أبناء السلطان وتزويج اثنتين من بنات أخواته. صُنعت أربع نخلات بطول تسعة أمتار، وأربعون نخلة صغيرة لكل أمير. تواصلت الاحتفالات في ساحة أوكميدان Okmeydan خارج أسوار المدينة بالقرب من غَلَطَة، خمسة عشر يوما وليلة، وخُتِّن خمسة آلاف صبي آخر في أثناء الاحتفالات. وكانت مواكب من الطوائف تمر أمام السلطان الجالس في كشك الألاي Alay Kiosk (الخاص بالتشريفات) الذي بُني له فوق سور القصر لتمكينه من مشاهدة ما يحدث خارج القصر. وجُرَّت عربات على حبال مشدودة بين سواري السفن الراسية في البسفور[37].

ثمة احتفالات فخمة أيضا كانت تعلن عن ولادة طفل للسلطان، فكانت المدافع المثبتة في السور البحري للقصر تطلق دفعات من سبع طلقات للولد وثلاثا للبنت، لخمس مرات على مدار أربع وعشرين ساعة، وتُنشر فرمانات تعلن الخبر على بقية الإمبراطورية، وتُسيَّر مواكب ترافق مهدا وغطاء مهد مزيّنين خلال شوارع المدينة إلى القصر الإمبراطوري. وفي القصر، كانت غرفة نوم الأم تكتظ بزوجات كبار المسؤولين في الإمبراطورية اللاتي كن يقفن احتراما للمهد حين يصل إلى القصر.

كانت السماء ليلا هي الأخرى تعكس عظمة السلطان. فمن أجل الإعلان عن حفلات الزفاف والختان للأسرة الحاكمة والأعياد الدينية مثل مولد النبي كانت السفن والمساجد والقصور تنار بمصابيح صغيرة. وكانت رسائل مضيئة تعلق بين المآذن مكتوبا عليها: «عاش ملكنا ألف سنة!» وكانت مراكب معلقة عليها فوانيس ورقية حمراء وزرقاء وخضراء تجوب البسفور والقرن الذهبي مثل يراعات في بحر من النار(*). حين شاهد هانز كريستيان أندرسن Hans Christian Andersen أنوار الزينة في مولد النبي في العام 1841، شعر بأنه دخل في إحدى حكاياته(**):

«فكل شيء يبدو كأنه محاط باللهب... كل شيء مغلف بضوء سحري»[38].

(*) البراعة أو الحُباحب: خنفساء مضيئة. [المترجم].

(**) هانز كريستيان أندرسن Hans Christian Andersen: شاعر وكاتب مسرحي وروائي وكاتب أدب رحلات دنماركي. [المترجم].

كانت السـفارات وسيلة مكّنت السـلطان والملوك الأجانب من استعراض قوتهم وثرائهـم أمـام أهالي القسـطنطينية. كانت المدينـة إحدى العواصم الديبلوماسـية العالمية، وكان السفير الموفد إلى القسطنطينية ملزما بأن يجلب معه أسرة أميرية. وفي ذلك كتب سفير البندقية في 1583: «من المؤكد أنه لو كانت الأبهة ضرورية في بلاطات الأمـراء الآخرين، فإنها في القسـطنطينية كانـت ضرورية جدا». كانـت هذه الأبهة يشاهدها الناس والسلطان وتدخل البهجة على قلوبهم. من ذلك أنه في العام 1575، كتـب فيليب دو فرنس كاناي وهو في طريقه إلى قصر توبكابي بين حاشـيته كسـفير لفرنسـا: «كانت ضفة البسـفور تغص بالناس، وكذلك الأسـوار وأسقف البيوت كان يعلوهـا الكثير من المتفرجين، في احتشـاد للناس في وقت واحد لم أر حجمه في حياتي قط». ووصل هير فون كوفشـتاين Herr von Kuefstein من فيينا سفيرا إمبراطوريا في العـام 1628، وكتب عن وصوله «أرسـلت الحكومة حرسـا رافقني بفخامة خلال المدينـة التي غصت كل نوافذها وشـوارعها بمتفرجين لا تحـصى أعدادهم». وكانت الحشود حادة الملاحظة تلاحظ أي تجديد في عدد المسؤولين المرافقين أو ملابسهم[39].

كان خروج السـلطان إلى إدرنة أو في حملة عسكرية أو عودته منها يوفر فرصا أخرى للاسـتعراض. من ذلك أن أوليا جلبي شاهد حشودا هاذية خرجت للترحيب بمـراد الرابع في العام 1638 حين عاد من إعادة فتح بغداد، إذ احتشـد الناس فوق الأسـقف وفي النوافذ وهـم يهتفون: «بوركت يـا فاتح! عود أحمد يـا مراد! نصرا مؤزرا!» وأخذت سفن كثيرة تطلق النار تحية للسلطان حتى بدا البحر كأنه يحترق. تقدم السلطان إلى القصر في خيلاء المنتصر، واضعا على رأسه عمامة فارسية في إشارة إلى انتصاره على الجيوش الفارسـية، يليه قادتهم مكبلين في الأغلال، «كأسـد أمسك فريسـته». وفي القـصر، تلقى مـراد الرابع تهاني بلاطه وهـو جالس على عرش من الذهب كُتِبت عليه أبيات الشعر التالية:

أنت القطب الذي يتجه إليه العالم.
يرتعش العالم أمامك مثل الإبرة في البوصلة.
إنه لا يرتعد خوفا من الإبادة،
وإنما رغبة في أن يقدم نفسه أضحية أمام عرش قوتك.
وانتهت الأيام السبعة للاحتفال حين ذهب السلطان للصلاة في أيوب.

وفي العام 1671 كتب السفير الفرنسي مركيز دي نوينتيل Marquis de Nointel وصفا لخروج السلطان محمد الرابع من القسطنطينية إلى إدرنة يرافقه الحرس والوزراء، متلألئين بالجواهر والمخمل والشيلان المطرزة. يذكر نوينتيل نفسه وهو في وسط بعثته أنه سفير لويس الرابع عشر وأن ملك الشمس لا يعبأ بالمنافسين(*)، ويستخدم دفاعات الحاشية الفرنسية: «إذا كانت هذه المراسم تنطوي على شيء من العظمة، فلا بد أن يحترس المرء من أن ينسحق أمامها... ويتمثل العلاج الحقيقي لتجنب الانسحاق في التفكير في عظمة أسرة الملك... فلو أراد جلالته أن يجاريه في ذلك، لأمكنه بمنتهى السهولة إنتاج أبدع المشاهد والعروض في هذه المناطق وفي بقية المشرق». تُرى هل السفير يفرط في توكيد الذات؟

ونتيجة لهذه الطقوس الروتينية، ممثلة في حفلات الزفاف والختان الإمبراطورية وأنوار الزينة والسفارات والسلاملك، كانت القسطنطينية تشهد عروضا عامة أكثر مما كانت تشهده العواصم الأخرى. وإلى جانب الفخامة الخفية للحريم والجمال الواضح للمكان وأفق المدينة، جعلت هذه المواكب العظمة الإمبراطورية جزءا من صورة القسطنطينية في العالم الخارجي.

كما أنتجت هذه المواكب عشق المدينة للأبهة والعظمة الذي غدا أحد معالمها حتى القرن العشرين. وكما كانت الحال مع سكان فيينا قبل العام 1918 وسكان لندن قبل العام 1960، كان سكان القسطنطينية إمبرياليين بالفطرة(**). إذ شكّل الوعي بالإمبراطورية عقولهم، تماما كما شكّلت حقائق الإمبراطورية حياتهم المادية. ألم يقل الرحالة الذين زاروا كل مدن العالم إنهم لم يروا مدينة مثلها؟ ألم يصفها الكُتاب بأنها «موضع حسد ملوك العالم»؟ ألم يكن مقدّرا لها أن تزدهر «حتى آخر الزمان»؟ في أوائل القرن الثامن عشر، كتب الشاعر العثماني نديم Nedim في مديح المدينة:

(*) ملك الشمس أو الملك الشمس: أحد ألقاب لويس الرابع عشر. [المترجم].

(**) الإمبريالية Imperialism، بمعنى التوسع الإقليمي وبناء الإمبراطوريات، تعني إقامة علاقة اقتصادية وثقافية وإقليمية غير متكافئة بين الدول، وفي الأغلب من خلال التوسع العسكري والهيمنة والإخضاع، وتقوم على استغلال الشعوب التابعة لإثراء المراكز الاستعمارية، بدأت في شكلها الحديث في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مع تكوين الإمبراطوريات الأوروبية فيما وراء البحار، وانتهت في شكلها السافر مع تصفية الاستعمار في الربع الثالث من القرن العشرين، وإن كانت العلاقات الإمبريالية الاستغلالية لاتزال قائمة بين المراكز الاستعمارية السابقة وتوابعها. [المترجم].

أنت يا مدينة إسطنبول لا نظير لكِ ولا ثمن!

أضحي بكل بلاد فارس فداء لِحَجَر واحدٍ من حجارتكِ!

وحتى إبان القرن التاسـع عشر بعد أن تكبـدت الإمبراطورية العثمانية هزائم متكررة، ونظرا إلى أن الصين لم «تأتِ إلى القسطنطينية»، بمعنى أنها لم ترسل سفارة إليهـا، لم يكن العثمانيون يصدقـون أن الصين كانت إمبراطورية حقا [40]. فربما ظن أهل فيينا أن مدينتهم هي المدينة الإمبراطورية الحقيقية الوحيدة التي تستحق أن تكـون عاصمة أوروبا، وربما ادعى أهـل أصفهان - عاصمة بلاد فارس حينذاك - أن مدينتهم «نصف العالم». لكن أهل القسـطنطينية - في المقابل - كانوا على يقين من أن مدينتهم هي مركز الكون.

4

الحريم والحمّامات

والله ثم والله إن فراقك يؤجج فيّ نارا لا ينطفئ لهيبها.

خُرّم سلطان إلى زوجها سليمان القانوني،

في نحو العام 1535(*)

صدقني يا باشا! ليست العبرة بشيب اللحية أو سوادها،

فالسياسة الجيدة لا تنشأ عن عمر الرجل، بل عن ذكائه.

تورهان والدة محمد الرابع إلى باشا كان

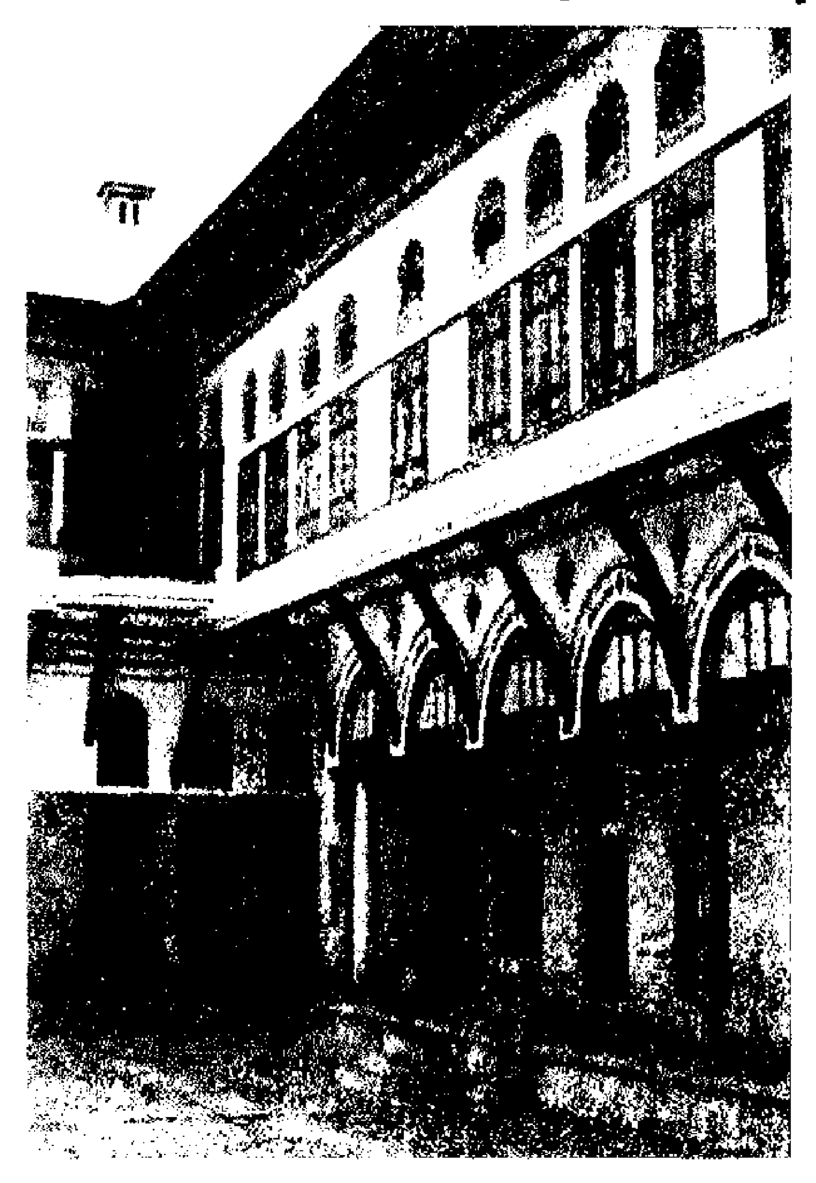
يزهو بعمره وحكمته، في نحو العام 1655.

«كان الحريم ماكينة لإعادة إنتاج العائلة، حتى ضد إرادة السلطان»

على مدى قرون، ظلت الأمهات في القوقاز يغنين لبناتهن الرضيعات أغنية تبدأ بالكلمات «متعكِ الله بالعيش بين الماس والأبهة زوجةً للسلطان». وكانت بعض البنات بسبب توقهن إلى تحقيق هذه الأمنية يعرضن أنفسهن بلا ثمن على تجار الرقيق الزائرين[1]. كانت أعينهن على الحريم الإمبراطوري في القسطنطينية. تعني كلمة حريم «الحرم المقدس»، وتعني

(*) خُرّم سلطان Hurrem Sultan أو خُرّم خاصكي سلطان (اسمها بالمولد روكسلانا) (1506 إلى 15 أبريل 1558) زوجة السلطان سليمان القانوني وأم ابنه وخليفته سليم الثاني، في اللغة التركية يعني اسمها خُرّم←

بالاشـــتقاق أجنحة النســـاء. وكان الحريم الإمبراطوري يشـــير إلى الأجنحة المحرمة للنســـاء والخصيان eunuchs، التي أثرت في الحياة العامة في القســـطنطينية، فضلا على الحياة الخاصة للسلطان.



فنـــاء المحظيات بالحريم الإمبراطـــوري. يعد الحريم الإمبراطـــوري واحدا من الأماكن القليلـــة التـــي بقيت فيها عـــمارة عثمانية من القرن الســـابع عشر من الخشـــب والقضبان والنوافـــذ البارزة. يطل على هذا الفناء الجناح الذي كان الأمراء الإمبراطوريون يوضعون فيه قيد الإقامة الجبرية، و«الممشى الذهبي» بين مقصورة البردة الشريفة وفناء السلطانة الوالدة.

← «الضاحكة» أو «الباســـمة»، ويعني الاســـم خاصكي سلطان «والدة ولي العهد»، وتُعرَف في المصادر العربية باسم خُرَّم أو خُرَم أو هُرَم أو كريمة أو أم محمد، وســـميت «هيام» في المسلســـل التركي «القرن العظيم» أو «حريم السلطان». كانت جارية من أصل أوكراني بيعت للقصر وتزوجها السلطان سليمان القانوني ووقع في غرامها وخضع لتأثيرها. ارتبط اسمها بأحداث أو مؤامرات شهيرة من أهمها قتل الســـلطان ســـليمان لابنه الأكبر من زوجته الأولى ماه دوران الأمير مصطفى وإعدام السلطان لصدره الأعظم ورفيق صباه إبراهيم باشا .[المترجم].

كان القصد من وجود الحريم هو إشباع رغبات السلطان ولأغراض التناسل من أجل مصلحة العائلة. تبيّن حرب الخلافة الإسبانية(*) وحرب الخلافة النمساوية(**) النتائـج الكارثية التـي تتكبدها العائلة الحاكمة التي تفتقـر إلى وريث ذكر. كيف عملت العائلة على ضمان بقائها البيولوجي عبر سلسـلة الذكور؟ في بعض الأحيان، اتبع السـلاطين الأوائل التقاليد الأسرية الشـائعة بالزواج مـن أميرات من العائلات الحاكمة المسـيحية أو المسـلمة المجاورة، لكن هذه الزيجات كانت تحدث لأسباب سياسـية، وليسـت بيولوجية، أي بغرض تقوية التحالف مع دولة ما، وليس بغرض إنجـاب وريث. وربما لم يكن السـلطان ينام مـع هؤلاء الزوجـات مطلقا لتجنب الإنجـاب منهن. وبعد العام 1500، أصبح السـلطان قويا لدرجة تغنيه عن الحاجة إلى التحالفات العائلية التي يحتاج إليها الملوك الأقل شأنا (على رغم توافر مرشحات ملائمـات من عائلة كراي حكام القرم السـابقين وعائلـة أشراف مكة). وكان بايزيد الثاني (1481-1512) آخر السلاطين الذين أتموا زيجة عائلية مع أميرة من عائلة ذو القادر التركية الأناضولية.

آثـرت العائلـة العثمانية أكثر من أي عائلة أن تتناسـل باتخـاذ المحظيات مع الجواري Concubinage. كان السبب الأساسي وراء ذلك الاختيار هو الرغبة نفسها في السـيطرة التي دفعت هذه العائلة إلى اتخاذ عبيد الانكشـارية حرسـا لها. فلم يكن لدى المجموعتين- الجواري وعبيد الانكشـارية - أقارب طموحون أو طماعون

(*) حـرب الخلافة الإسـبانية (1701-1714): حرب بدأت مع موت كارلوس الثاني ملك إسـبانيا وآخر ملوك الفرع الإسـباني لسلالة هابسـبرغ الذي لم ينجب أبناء، فأورث كامل مملكته إلى فيليب دوق أنجو حفيد أخته غير الشقيقة ماريا تريزا - إليزابيث ملكة فرنسـا - من الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، الذي أصبح ملك إسـبانيا باسـم فيليب الخامس. أصبحت أسرة البوربون بذلك تحكم إسبانيا وفرنسـا، فضلا على أن فيليب كان الوريث الشرعي لعرش فرنسـا نفسها. طالب الإمبراطور الروماني المقدس ليوبولد الأول بالعرش الإسباني، وخافت القوى الأوروبية الأخرى، على رأسـها بريطانيا والجمهورية الهولندية والبرتغال ودوقية سافوي، من توسع النفوذ الفرنسي، فاتحدت في حربها ضد مملكتي البوربـون، وامتدت الحرب من الـتراب الأوروبي إلى العالم الجديد، وانتهت بتوقيع معاهدة أوتريخت في العام 1713 ومعاهدة راسـتات في العام 1714 التي أقرت فيليب الخامس ملكا على إسبانيا، لكن مع استبعاده من خلافة العرش الفرنسي، للحيلولة دون الاتحاد المسـتقبلي بين مملكتي إسـبانيا وفرنسـا، وبسببها انتقلت معظم ممتلكات إسبانيا في إيطاليا وهولندا إلى النمسا، وتضعضعت الهيمنة الفرنسية على القارة الأوروبية. [المترجم].

(**) حرب الخلافة النمساوية (1740-1748): حرب بدأت بموت شارلز الخامس الهابسبرغي ملك النمسا وجلوس ابنتـه ماريا تريزا على عرش ممتلكاته، إذ تذرعت بروسـيا وفرنسـا بالقانون الصـالي Salic Law الذي لا يجيز وراثة العـرش في النسـاء للانقضاض على ممتلكات النمسـا، وانضمت إنجلترا والجمهورية الهولنديـة، العدوان التقليديان لفرنسـا، إلى صف النمسـا، وامتدت الحرب من أوروبا إلى أمريكا الشـمالية والهند، وانتهت بتوقيع معاهدة إكس لا شابيل Aix la Chapelle التي ثبتت ماريا أرشدوقة للنمسا وملكة للمجر وأعطت صقلية لبروسيا. [المترجم].

في العاصمة. وكان أفرادها- نظريا- معتمدين كليا على السلطان. وكانت السيطرة على المحظيات من جواري القصر من أجل مصلحة العائلة أسهل من السيطرة على الحرائر المسلمات اللاتي يتمتعن بحقوق قانونية حددتها الشريعة. وكانت محظية التناسل بعد أن تنجب ابنا واحدا، لا يمسها السلطان، ما وفر لكل ابن دعم أم مكرسة له وحده(*).

كانت الرغبة سببا آخر من أسباب اتساع حجم الحريم، ذلك أن معظم السلاطين كانوا يرغبون في تنوع شريكات الجنس. وتعد العشيقات الملكيات في فرنسا سابقا وفي إنجلترا إلى اليوم، أمثلة للارتباكات الناتجة عن الغراميات العائلية داخل النخب الحاكمة. وكانت المحظيات من الجواري اللائي كن يخترن بناءً على عافيتهن وجمالهن وليس نسبهن، تشبعن رغبات السلطان بلا عواقب مدمرة.

كانت البيولوجيا السبب الثالث لنظام الحريم، ذلك أن أبناء المحظيات - على خلاف أبناء العشيقات المتزوجات(**)، كانوا يزيدون الاحتياطي العائلي. فعدد المحظيات كان يضمن دائما وجود وريث ذكر، ما جعل السلطان يحرص على النوم مع مزيد ومزيد من الجواري لكي يزداد نسله. لم تقع حرب خلافة عثمانية، كما كان يمكن أن يحدث لو أن العائلة كانت تتزوج بغرض النسب وليس التناسل. لكل هذه الأسباب، كان السلطان بالوعي وباتباع التقليد الأسري، يقتصر على الجواري ضمن جدران الحريم[2].

غير أن أعظم السلاطين - سليمان القانوني - أظهر تحديا لقواعد القصر، ففي بداية عهده كان سليمان «الشهواني جدا» يتردد كثيرا على «قصر الحريم»، وهو أول قصر بناه محمد الثاني في وسط القسطنطينية، وهناك كان «يختلي بالحريم»، بيد أنه بحلول العام 1524، شذّ عن أسلافه بأن آثر الزواج الأحادي من امرأة تدعى خُرَّم. كان السلطان يغيب كثيرا عن المدينة في حروبه، وفي أثنائها تبادل رسائل

(*) ثمة سبب آخر لتفضيل الجواري على الزوجات، إذ يقال إن السلطان بايزيد الأول عندما هزمه تيمورلنك وأسره مع حريمه ومنهم زوجته الصربية ماريا دسبينا في العام 1402، أجبر تيمور ماريا على أن تخدم الحضور في حفل انتصاره وهي عارية تماما على مرأى من زوجها المكبل، ويقال إن السلطان الأسير مات بسببها كمدا، لذلك كان قرار الأسرة العثمانية ألا يتخذ السلاطين من جواريهم زوجات، وظل هذا التقليد إلى أن كسره سليمان القانوني بزواجه من جاريته خُرَّم. [المترجم].

(**) العشيقة في البلاطات الغربية التي يذكرها المؤلف كان يمكن أن تكون غير متزوجة أو متزوجة، طبعا من غير الملك. [المترجم].

شعرية معها. تكشف هذه الرسائل أن السلطان الذي كان مثالا للقوة الإمبراطورية ورعبا لجيرانه، كان تقيا ووديعا ومخلصا لزوجته.

كان الحريــم مدينــة محرمة، فمــن الصعب التحقق مــن الحقائق حول حياة نزيلاته قبل التحاقهن به. فكما كان يحدث مع الخدم في البيوت الريفية الإنجليزية الكبيرة، كانت النســاء لدى التحاقهن بالقصر يعطين أســماء جديدة، في إشــارة إلى القطيعة مع هوياتهن الســابقة. كانت الأســماء في معظمها فارســية، مثل مهرماه Mihrimah وماهبيكـير Mahpeyker وشــويكار Shevkiyar، وحتــى لا تُنــسى أســماؤهن، كانت تعلق على صدور النزيلات الجديدات. ربما كان اسم خُرَّم بالمولد أليكساندرا ليسوفســكا Alexandra Lisowska، وكانت ابنة كاهن أرثوذكسي من أصل أوكراني عاش بالقرب من لفيف ببولندا(*). وقد سُبيت في إحدى غارات السبي عــلى أيدي خانية تتر القرم المجاورة. وخُــرَّم، التي تعني «الضاحكة»، تمكّنت سريعا من التخلص من منافستها الأساسية.

فبعد أن انجذب ســليمان إلى خُرَّم مباشرة، دخلت الشركسية ماه دوران أم ابن السلطان الأكبر مصطفى في مشاجرة مع خُرَّم وخمشت وجهها ووصفتها بـ«الخائنة» و«ذات اللحم الوســخ». وحين استدعى ســليمان خُرَّم بعد هذه المشاجرة، رفضت المجيء قائلة إنها «لحم وسخ» وغير جديرة بعطف السلطان. وأخيرا، سأل السلطان مــاه دوران عن صحــة قصة عراكهما. ووفقــا لتقرير بندقي، «أجابــت بأن القصة حقيقية، وأنها فعلت فيها [خُرَّم] أقل مما تســتحق. إنها تظن أن كل النســاء يجب أن يذعن لها ويعترفن بها سيدة للقصر منذ أن كانت في خدمة صاحب الجلالة لأول مرة». طُردت ماه دوران وماتت منسية في بورصة في العام 1581[3].

أما خُرَّم فقد أصبحت مركز قوة في القصر. بعد ســنوات كتب ســفير البندقية: «لم يســبق في تاريخ البيت العثماني أنّ امرأة تمتعت بكل هذه الســلطة. يقال إنها مقبولة ومتواضعة وإنها تعرف رغبات الســلطان جيدا». وفي نحو العام 1534، ربما من خلال التهديد بحجب وصالها عنه، أقنعت الســلطان بمنحها شرف الزواج الذي لم تكن إحداهن تطمح إليه في خيالها.

(*) لفيــف Lvov أو Lviv (أو لويــو أو لفــوف): مدينــة تقع حاليا في أوكرانيا وتشــكل أحد أهــم المراكز الثقافية والاقتصادية في أوروبا الشرقية. [المترجم].

وكـما كانـت الحال في بلاط هـنري الثامن أو لويس الرابع عـشر، كان امتلاك مكان الإقامة الصحيح إحدى الوسائل الأساسية للاحتفاظ بحظوة السلطان وإظهار تلك الحظوة. وبعد أن شبَّ حريق في القصر القديم، انتقلت خُرَّم إلى القصر الإمبراطوري الجديد عينه بالقرب من زوجها. وصفت وصيفة سابقة بالقصر جناح خُرَّم على النحو التالي:

> تقـع سراي Seraglio السـلطانة في نفـس [مُجمّع] عظيـم الترك، وفيه يسـتطيع أن ينتقـل عبر غرف سرية من سراي إلى أخـرى. لا أحد يدخل قصر السـلطانة غير عظيم الترك والخصيان وشـخص آخر يدعى كتخدا وهو وكيل السـلطانة الذي يدخل القـصر ويخرج منه حينما يريد ... وغرف السـلطانة سـواء في الأبهة، فضـلا على قاعات الصلاة والحمّامـات والحدائق وغيرها من وسائل الراحة[4].

كان قـصر خُرَّم نـواة لما أصبح لاحقا إحدى أقوى المؤسسـات في المدينة، وهي الحريم الإمبراطوري.

يعد العشـق بين سـليمان وخُرَّم إحـدى العلاقات النادرة بـين زوج وزوجة في القسـطنطينية، إذ سُـجلت بكلماتهما. كان للعائلة العثمانية إرث من الشـعر. من ذلك أن بايزيد وجم Cem بينما كانا يتنافسـان على العرش، كانا يتراسـلان بالشعر. وقد مارس سليمان القانوني الكتابة باسم «محبي» Muhibbi. يقول المؤرخ الأجنبي الأول للشـعر العثـماني إدوارد غب Edward Gibb: «لا تتمثل السـمة الأساسـية لقصائـده، كـما هي الحال مع الكثـير من معاصريه، في أناقـة ألفاظه فقط، بل في صدق مشاعره الواضح الذي يذهلنا بأقوى ما يكون عندما نقرأ تلك الأشعار بمسحة التواضع الرصين الساكنة فيها». يكتب سليمان عن غرور القوة الدنيوية وعن ملذات الفقـر وعن الخمر (ربما يكون مجازا لحب الله). لقد أذل السـلطانَ اعتلال صحته الدائم الذي جعل وجهه «في لون سيئ جدا» (لدرجة أنه أحيانا كان يضع أحمر على وجهه لخداع السفراء الأجانب). يقول في أشهر أشعاره:

ليس على وجه الأرض إلا طالبا للثراء وللهناء
ولا هناء إلا في برهة من عافية
فما يدعوه الناس ملكا ليس إلا صراعا دنيويا وحربا مستمرة
وعبادة الله هي التاج الأسمى والمنزلة الأسعد

كثير من قصائد سـليمان موجهة إلى خُرَّم. فلا رغبة له في ثراء ولا عروش، مادام أنه يرفل في السـعادة اللانهائيـة بكونه عبدا في قصرهـا. «تعاملينني برفق أحيانا، وتعذبينني في أحيان أخرى. حبيبتي، أيا كانت معاملتك، فسـوف أتقبلها دائما». إنه سـلطان العشق، بالتعبير المفضل له، الذي كانت الدموع المنهمرة على وجنتيه هي جنوده وفيالقه. ومن أجل التعبير عن عشقه جاب السلطان الطبيعة وإمبراطوريته بحثا عن المجازات metaphors. فهي خُرَّم التي قال فيها:

يا حديقتي، يا سكري الحلو، يا كنزي، ويا حبي الذي
ما اهتممت بأحد في هذه الدنيا سواه.
يا عزيز مصري ويوسفي(*)، يا كل شيء لي، يا مليكة قلبي.
يا اسطنبولي وقرماني وأرض أناضولي
يا بدخشاني وقبجاكي وبغدادي وخراساني
يا حبي ذات الشعر الأسود، والحاجبين المعقوصين، والعينين الطافحتين بالغواية
أنا إن مت فأنتِ قاتلتي، أيتها المرأة القاسية الجاحدة[5]

لا تقلّ رسـائل خُرَّم شوقا عن كتابات حبيبها، وإن كانت قد أملتها على موظف الحريـم(**)، وفيها تصفه بأنه «البهاء الذي سرق قلبهـا» و«أفق البهجة» و«أملي في العالمين»: «آه لو كان اليوم في قربك ألف [يوم]!» والشـعرة الواحدة في شـاربه تساوي أكثر من خمسة آلاف أو مليون فلورين. وتطلب منه «الشفقة على وحدتها وفراقها عن سيد العوالم ... لو كانت البحار مدادا وهذه الأشجار أقلاما، لما استطاعت أن تصـف حرقة هذا الفراق؟» وتعتذر عن نوبة شـجار بينهما بالقول: «أدعو الله أن يمحو الكلمات التي أبعدتك عني». وتبدأ إحدى رسـائلها بالقول: «بعد أن أمرِّغ وجهي القبيح في التراب الشريف تحت قدميك المباركتين» وتنهيها بالقول: أتمنى لك الهناء في العالمين. خادمتك المتواضعة خُرَّم».

وتنقـل له أخبار المدينـة: «حاليا يوجد مرض، لكنه أخف مـن ذي قبل. فهل يأتي سلطاني، لينعم الله علينا ويزيح المرض. يقول الأطباء إن الخريف عندما يسقِط أوراقه، سيزول المرض». وأصبحت ابنة الكاهن الأرثوذكسي الأوكراني عثمانية متحمسة:

(*) أي عزيز مصر والنبي يوسف، في إشارة - ربما - إلى استبداد حبيبته به كما كان عزيز مصر يستبد بها. [المترجم].
(**) لأنها لم تكن تجيد اللغة العثمانية، المكتوبة على الأقل. [المترجم].

> وصلتنا أخبار انتصارك. يعلم الله يا باديشاهي وسلطاني أن الموت كان قد نال مني وما ردني إلى الحياة إلا هذه الأخبار. ألف ألف شـكر لله. لقد انبثق العالم كله من الظلام، وغمر نور رحمة الله الجميع. أتمنى أن تخوض الحروب وتسوي الأعداء بالأرض وأن تأخذ الممالك وتفتح الأقاليم السبعة.

ومـن خلال أطفالهما، منحت خُرَّم السـلطان مسـتوى مـن الحياة الأسرية غـير معهود في تاريـخ العائلـة العثمانية. وتحرص دائمـا على إطلاعه عن مدى اشتياقهم إليه:

> إن رسـائلك الشريفـة عندمـا تُقرأ، ينفجـر خادمك وابنـك مير محمد وخادمتك وابنتك مهرماه في البكاء والنحيب شوقا إليك. لقد أخافني بكاؤهما الـذي لا ينقطع كما لـو كنا في جنازة. يا سـلطاني، إن ابنك مير محمد وابنتك مهرماه وسـليم خان وعبدالله يرسـلون إليك السـلام ويمرِّغـون وجوههم في التراب بين قدميك[6].

لم يكن الحـب الرابطة الوحيدة بين خُرَّم والسـلطان، فما كان لزوجة أقوى ملـك في أوروبا أن تعتزل السياسـة. على خلاف معاصرتهـا آن بولين(*)، لم تحظَ خُرَّم سـلطان بحفل تتويج عام تحتفل فيه العاصمـة كلها بتنصيبها، كما أنها لم تحصل على مرتبة عامة في البلاط وفي البيت الذي ضم مئات الرجال والنسـاء في مكانتها. لكنها من وراء جدران الحريم، مارست تأثيرا أكبر من تأثير ملكة إنجلترا. وعلى الرغم من أن سـليمان وهنري الثامن كليهما اسـتخدما لغة مماثلة تعبيرا عن عشق كل منهما «لخليلته» والخضوع لها، فإن السلطان كان أكثر إخلاصا من هنري. وعلى كل حال، فإن خُرَّم امتلكت الكنز الذي افتقرت إليه آن بولين، وهو الأبناء الذكور.

كان السـلطان يستشـيرها في السياسـة، على الأقل بقدر ما كان هنري الثامن يستشـير آن بولين. على أن خُرَّم لم تفقد التواصل مع هويتها السـابقة كليا. ومن أجل نشر السـلام، تراسـلت مع ملك بولندا وأرسـلت إليه منديلا طرزته بيديها.

(*) آن بولـين Anne Boleyn (مـن نحو 1501 إلى 19 مايـو 1536) ملكة إنجلترا بين العامين 1533 و1536 لكونها الزوجـة الثانية للملك هنري الثامن وأم الملكة إليزابيث، تزوجها الملك بعد أن رفضت أن تكون عشـيقته مثل أختها ماري. أُعدمت في برج لندن بعد إدانتها بالخيانة والزنا، ربما لأنها فشـلت في إنجاب طفل ذكر للملك أو لأنه أراد أن يتزوج من جين سيمو Jane Seymour بعدها. [المترجم].

وأعلن الســـلطان دورها، ربما تعبيرا عن اهتمامه برعاياه النســـاء، بأن شيّد باسمها مُجمّع مســـاجد ضخما باسم خاصكي (ســـلطاني) في غرب المدينة. كان ملحقا بهذا المُجمّع مطعم للفقراء ومستشـــفى ومدرسة. ويعد هذا المُجمّع الوحيد من نوعه الذي بُني لزوجة ســـلطان أو محظيته في حياته، فضلا على مؤسســـات أخرى كثيرة بُنيت بأوامر خُرَّم في إدرنة والقدس والمدينة ومكة، يفوق عددها ما بُني بتكليف من زوجة ملك إنجلترا.

كان الســـلطان سليمان القانوني بوفائه لخُرَّم يثير سخط القصر والمدينة. وكما حـــدث مـــع آن بولين، اتهمت خُرَّم بأنها «ســـحرت» زوجها، «لكـــن نظرا إلى أنه يحبهـــا، فلا أحد يجرؤ على الاحتجـــاج»[7]. كانت خُرَّم أيضا داهية في السياســـة تعمل لحســـاب نفسها. كان دافعها الأســـاسي هو إنقاذ أرواح أبنائها. قبل العام 1607، لم تكن الإمبراطورية العثمانية تتبع قاعدة ثابتة للخلافة على العرش. وكان العرش يؤول إلى الأمير الذي يصل إلى القســـطنطينية والخزانة الإمبراطورية قبل غيره. فكان نجاحه يعني مباركة الله ويغدو لذلك الســـلطان الشرعي. وكان من الـــوارد أن يثير الأمراء الآخرون حروبـــا أهلية، على النحو الذي ابتليت به العائلة العثمانيـــة في أوائـــل القرن الخامـــس عشر، أو أن يكونـــوا أدوات في أيدي مراكز القوة في القصر أو الانكشـــارية، لذلك كان الســـلطان الجديد يأمر عادة بقتلهم، فقـــد كان الأمراء عرضة للقتل كالوزراء تماما. بهـــذه الواقعية الفجة التي ميّزت الأســـلوب الرســـمي العثماني تماما مثل التفخيم الإمبراطوري، كتب محمد الثاني: «يتعين على ابني الذي يرث عرش السلطان- أيا كان هو- أن يقتل إخوته من أجل مصلحـــة النظام العالمي [الإمبراطوريـــة العثمانية]. وقد أقره معظم الفقهاء على هذا الإجراء. لتســـير الأمور على هذا النحو». وكما في حالة الفصل المادي لشـــبان الدفشرمـــة عن عائلاتهم، كانت هذه السياســـة تتجاهل الروابـــط العائلية التي وصى بها القرآن. وعلى أي حال، فإن القصر الإمبراطوري كانت تحكمه متطلبات العائلة الحاكمة، وليس شريعة الإســـلام. فمحمد الثـــاني أعدم أخوين له، وأعدم ســـليم الأول أخويـــن وثلاثة أبناء وأربعة من أبناء إخوتـــه. وربما أمر الأخير أيضا بوضع الســـم لأبيه. وعلى امتداد تاريخ هـــذه العائلة قُتل نحو ثمانين أميرا، عادة بالشنق بخيط قوس، وذلك لتجنب إراقة دم العثمانيين المقدس[8].

بيد أن القتل كوسـيلة للسـيطرة العائلية لم يكن اختراعـا عثمانيا، فثلاثون مـن الأباطـرة البيزنطيين الثمانية والثمانين، ماتوا بالخنق أو السـم أو التعذيب في القسـطنطينية نفسـها. وإدوارد الخامس وأخوه قُتلا في برج لندن بأوامر من عمهما ريتشـارد الثالث، كما قُتل مارشـال دانكر Marechal d'Ancre في قصر اللوفـر بأوامر من لويس الثالث عشر في العام 1616. وسـجلات الأباطرة المغول في دلهـي ملطخة بالدماء. غير أنه في حين كانت إراقة الدماء في العائلات الأخرى اسـتثناء - ولو نظريا على الأقل - جعلت العائلـة العثمانية وحدها قتل الإخوة (وإعدام الوزراء) قاعدة.

في الغابـة المتألقة للقصر العثـماني كان الهجوم خير وسـيلة للدفاع، حيث تمثل نجـاح خُرَّم الأول في تدمير صديق زوجها الأقـرب: الصدر الأعظم إبراهيم باشـا. كان إبراهيـم يونانيا من برغة Parga الواقعة عـلى البحر الأيوني، ولد في نحـو العام 1493، وأسره القراصنة وبيـع إلى أرملة تعيش في العاصمة الإقليمية مانيسـا Manisa، والتحق بعدها بمدرسـة القصر. كان إبراهيم القصير والأسمر والذكي وواسـع الاطلاع يعرف اللغات الفارسـية واليونانية والصربية - الكرواتية والإيطاليـة، وكان يعزف العود. وعندما دخل إبراهيم بيت الأمير سـليمان افتتن به الأمير الشاب.

وكـما كانت الحال في البلاطات الأخرى، كانت الخدمة الشـخصية للملك يمكن أن ترفـع صاحبهـا إلى أعلى المناصب في الدولة. وبعد اعتلاء سـليمان العرش، ترقى إبراهيـم سريعا خلال مناصب البلاط الخصوصية إلى مدرب الصقور ورئيس الغرفة الخاصة، إلى أن أصبح الصدر الأعظم في العام 1523، على الرغم من مطالبات الوزراء الأكـبر سـنا بهذا المنصب. وعلى خلاف قواعد السـلوك الإمبراطوري، كان سـليمان وإبراهيم يتعشـيان معـا، وكانا ينامان على سريرين متجاوريـن. يتفرد إبراهيم في التاريـخ العثماني بشرف أنه كانت تنصب إلى جانب خيمته سـتة من ذيول الخيل- أقل بذيل واحد فقط من السـلطان نفسـه - وهو الرمز الـتركي القديم للمكانة[9]، وأصبحت الحكومة العثمانية شراكة بينهما.

كان إبراهيـم باشـا جـنرالا ووزيرا مقتدرا، شـبَّهه أحد العثمانيـين المعاصرين بـ«الشمس التي ترسـل أشعتها إلى الكون». وفي العام 1535، كانت معاملته لمدينة

تبريز التي اســتولى عليها أكثر رحمة من معاملة كارلوس الخامس لتونس في الســنة عينهــا(*). تعــبر محادثاته المســجلة في بعثات الســفراء الأجانب، عن الغطرســة البسماركية التي هيمنت على العاصمة العثمانية:

> يــا لهم من حمقى أولئك الذين يظنــون أن الملوك يصيرون ملوكا بفضل تيجانهم. فلا الذهب يعطي الســلطة، ولا الجواهر، وإنما الحديد - الســيف - هو الذي يؤمّن الطاعة.
>
> ومع أنني عبد الســلطان، فإن ما أريده يكون. فأستطيع بكلمة أن أجعل من ســائس خَيلٍ باشــا. وأســتطيع أن أمنح ممالك وولايات إلى من أشاء، ولن يعارضني سيدي. وحتى إن أمر هو بشيء، وكنت أنا لا أريده، فإن هذا الشيء لا يكون. وإذا أمرت أنا بشيء وأمر هو بعكسه، فإن ما أريده هو ما يكون[10].

كان إبراهيم باشا رجلا مزدوج الهوية وفقا للإرث الكوزموبوليتاني لمحمد الثاني. فقد اســتدعى فنانين من بروكسل والبندقية إلى القسطنطينية، وقيل إنه كان يقوم «بالكثير من أعمال الخير مع المســيحيين». وكان مما أثار اشــمئزاز بعض المسلمين، أنــه وضع تماثيــل لهرقل وأبولو وديانا مأخوذة من القــصر الملكي ببودا أمام القصر الذي بناه السلطان له بالحجارة مطلا على ساحة الألعاب الرومانية. فنتيجة للرفض الإسلامي لتمثيلات البشر، كانت هذه التماثيل الوحيدة من نوعها التي تنصب علنا في القســطنطينية بين العامين 1453 و1924. وقد ســخر أحد الشعراء من أنه بينما حطم أبونا إبراهيم الأصنام نصبها إبراهيم، وهو الشــاعر الذي اقتيد عبر المدينة في موكب على حمار وشُنق.

وفي حياته الشــخصية، اتخذ إبراهيم محظيا مــن الرجال هو الديبلوماسي التجاري المؤثــر ألفيس غريتــي. وكان يحب زوجته خديجة أخت الســلطان التي كتب لها: «لا أتوقــف عــن الدعاء لكِ ليلا ونهــارا. يعلم الله أنني مازلت أحبــك بكل مهجتي». وفي ســنوات مجده، لم ينسَ أسرته، إذ أتى بأمه وأخويه وأســكنهم في قصره، بينما كان أبوه «رجلا عديم الجدوى والقيمة، سكيرا يتردد على الحانات وينام في الشوارع كالبهائم»[11].

(*) بعد أن ضم أمير الجزائر العثماني خير الدين بربروس تونس وطرد حاكمها مولاي حسن الموالي لإسبانيا في العام 1534، قاد كارلوس الخامس أســطولا مكوّنا من خمســة وعشرين ألف جندي لاسترداد المدينة في السنة التالية. وتلا الهجوم النصراني الناجح أعمال عربدة، هُدمت فيها المكتبات العامة والمســاجد إلى الأرض، وذبح عشرات الآلاف من المسلمين الذين استسلموا في الشوارع أو أخذوا عبيدا. [المترجم].

ظـل إبراهيم خلال معظم حياته المهنية يلقى دعم أم السـلطان، وهي حماته حفصـة، تلـك المرأة القوية التي كانت لا تفارق ابنهـا إلا قليلا. وبعد موت حفصة في العام 1534 كشـفت خُرَّم عداوتها الضارية للصدر الأعظم، مدفوعة بغطرسـته وتبذيره. نشر وزير المالية إسكندر جلبي افتراءات من قبيل طموح إبراهيم المفترض إلى تقاسـم السـلطنة. في إحدى الرسـائل، سأل سـليمان خُرَّم عن سر سخطها على «الباشـا». ردت خُرَّم، الأذكى من أن تتهم إبراهيم وهي بعيدة عن السـلطان، بلغة البلاط الإيجازية: «والآن تسـتفسر حول سخطي على إبراهيم باشا. سأخبرك إن شاء الله حين أنال شرف لقائك. لكن حاليا بلغ تحياتي للباشا، وأتمنى أن يقبلها»[12].

وفي الخامس عشر من مارس 1536، تعشى إبراهيم مع السـلطان كعادتهما، وقـضى الليل في غرفة مجـاورة. وفي الصباح التالي، وُجـد جثمانه مخنوقا خارج القـصر(*). وأظهـرت الندبـات في وجهه ورقبتـه أنه قاوم بشـدة. وظلت بقع دم إبراهيـم المزعومة تعرض كتحذير على مدار السـنوات المائـة التالية. وبعد سـنوات، اقترحت خُرَّم وابنتها مهرماه أن يُسـمح لزوج مهرمـاه الصدر الأعظم رسـتم بأن يدخل إلى الفناء الثالث ويتعشى مع السـلطان، وأجاب السلطان بأن خطأ واحدا من النوع نفسـه يكفي[13]. وبعد موت إبراهيم تراجع تذوق الترف والكوزموبوليتانية في القصر.

لم يكن التخلص من إبراهيم انتصار خُرَّم الوحيد، ففي العقد الخامس من القرن السـادس عشر، شـكَّلت ثالوثا مع ابنتها مهرماه وزوج ابنتها رسـتم باشا ضد الأمير المحبوب مصطفى ابن غريمتها السـابقة ماه دوران. كتبت ابنة السلطان مهرماه إلى أبيهـا تصف مصطفـى بـ«ذلك الكلب النابح». واقتنع السـلطان بأن مصطفى كان يخطط للإطاحة به. في رسائل تالية استخدمت هذه الأميرة القوية التي تراسلت مع ملـك بولندا أيضا، صيغة الأمر مع أبيها: «سـلطاني اكتب ببعض الرقة أيضا، لكن في النهاية اكتب شـيئا بقوة». وفي العام 1553، خنق ثلاثة من البُكم **mutes** مصطفى في خيمة أبيه[14] ومات أخو مصطفى غير الشقيق الأحدب جيهانكير كمدا أو خوفا بعد شهرين.

(*) كانت لإبراهيم ألقاب كثيرة في حياته، منها إبراهيم باشا المقبول Makbul Ibrahim Pasha (بمعنى المقرب من السلطان) الذي تحول بعد موته إلى إبراهيم باشا المقتول Maktul Ibrahim Pasha .[المترجم].

قلب جنود الانكشــارية قدور طعامهم غضبا لدى وصول أخبار مقتل مصطفى وطالبوا بجلد رســتم باشا. كتب سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة بوسبيك: «في البداية لعنوا ســليمان العجوز الخرف، ثم نددوا بخيانة زوجة الأب ووحشيتها وشر رســتم، اللذين أطفآ النجم الألمع لبيت عثمان». وعبّرت كذلك مرثية للشاعر الألباني يحيى بيه عن السخط الذي ساد العاصمة. وعندما لام رستم باشا على الشاعر أجابه الأخير: إننا حقا أدنّاهُ مع الباديشاه لكننا بكيناه مع الناس»(*).

ومن أجل اســترضاء الناس فصل ســليمان رستم باشــا. كتبت خُرَّم إلى سليمان احتجاجا: «رســتم باشــا عبدك. فلا تحجب عنه وجهك الشريف يا ولي نعمتي. ولا تسمع إلى ما يقولونه. هذه المرة فقط، أعده من أجل خادمتك مهرماه يا ولي نعمتي وإمبراطــوري ومن أجل صالحك ومن أجلي أيضا يا ســلطاني المظفر»[15]. تعبّر عبارة «هذه المرة فقط» عن الإلحاح وتكرار الطلب. وماتت خُرَّم في العام 1558. وألقيت عليها اللائمة في سياسات زوجها، غير أنه حتى بعد موتها واصل سليمان مثل ساتورن التهام أبنائه(**). ففي العام 1561، قتل ابنا آخر هو بايزيد الذي حارب الأمير سليم على الخلافة، إذ خُنق مع أربعة من أبنائه بأوامر السلطان(***). ومات سليمان في العام 1566، وعلى الرغم من اعتلال صحته، فربما عجل بنهايته قراره بالقيام بحملة عسكرية أخرى على المجر، وخلفه ابنه سليم(****).

وقع الســلطان الجديد في عشــق امــرأة تدعى نوربانــو Nurbanu (الأميرة نور)، وربما تزوجها، وهي امرأة طويلة ســوداء الشعر والعينين دقيقة الملامح، أنجبت له ابنه

(*) أي الأمير مصطفى. [المترجم].

(**) في الميثولوجيا اليونانية، كان كرونوس Cronous آخر سلالة العمالقة، خوفا من أن يطيح به أي من أبنائه من الســلطة، يأكلهم لدى مولدهم، وهي الأســطورة التي صوّرها الرسام الإسباني فرانسيسكو غويا Francisco Goya في لوحة شــهيرة باسم «ساتورن يلتهم ابنه». وعلى خلاف سليمان وأسلافه ونسله، نقل معاصر سليمان وغريمه كارولس الخامس الســلطة إلى ابنه فيليب وهو لايزال على قيد الحياة، ولم يشــهد انتقال السلطة كل هذا الدم في إسبانيا، ربما بسبب وجود وريث واحد دائما. [المترجم].

(***) بعد قتل الأمير مصطفى وموت أخيه جهانكير حزنا عليه أو خوفا على نفســه، لم يبقَ من أبناء ســليمان إلا ســليم وبايزيد، اللذان عينا حاكمين لجزأين مختلفين من الإمبراطورية، واندلعت الحرب بين الشــقيقين على الخلافة التي أعطاها ســليمان في حياته لســليم، واستطاع ســليم بمســاعدة جيش أبيه أن يهزم بايزيد الذي لجأ هو وأبناؤه الأربعة إلى الصفويين الذين باعوهم لســليمان في مقابل كمية كبيرة من الذهب، فأســلموهم إلى جلاد عثماني خنق خمستهم على الطريقة العثمانية. [المترجم].

(****) مات سليمان في أثناء حصار مدينة سيكتوار المجرية في السابع من سبتمبر. [المترجم].

السلطان المستقبلي مراد الثالث. ظل حجاب السرية المضروب على الحريم قويا حتى وقت متأخر، وهو السبب في الغموض المحيط بأصل هذه المرأة التي يعتقد بأنها من البندقية تدعى سيسيليا فينير بافو Cecilia Venier Baffo، أسرها العثمانيون من جزيرة باروس Paros في بحر إيجة في العام 1527 في أثناء حربهم مع البندقية. غير أنها على الأرجح كانت نبيلة يونانية ثرية تدعى كالي كاستانوس Kale Kastanos أسرها العثمانيون من جزيرة كورفو Corfu خلال الحرب نفسها. وربما روّجت هي نفسها الشائعات عن أصلها البندقي لانتزاع هدايا أعلى قيمة من الحكومة البندقية.

مات سليم الثاني من وقعة على الأرض في العام 1574، ربما كان مخمورا حينها، وهو يعاين بنايات جديدة في حمّام الحريم. تكتمت نوربانو على خبر موت سليم واحتفظت بجثته في صندوق من الثلج إلى أن وصل ابنها مراد الثالث العاصمة من مانيسا بالأناضول التي كان يحكمها. وبعد أن أُعلِن مراد سلطانا، أعدم خمسة من إخوته غير الأشقاء، ودفنوا مع أبيهم بموجب قانون قتل الإخوة العثماني[16].

كان مراد الثالث رجلا صغير الجثة وبدينا ومتغطرسا، له «عينان كبيرتان باهتتان وأنف معقوف وبشرة حسنة اللون ولحية كبيرة شقراء». ومع اعتلائه العرش في العام 1574، وفي خطوة ذات أهمية رمزية، نقل مراد غرفة نومه وجناحه الخاص من عالم الذكور بالفناء الثالث إلى عالم النساء بالحريم على يسار الفناءين الثالث والرابع. كانت حاجته إلى غرفة نوم جديدة ماسة حتى إنه لم يكن مسموحا بصناعة قرميدة أخرى في إزنيق إلى أن تنتهي صناعة جناح النوم الجديد للسلطان. وجاءت غرفة السلطان عبارة عن قاعة مقببة فخمة، جدرانها مبطنة بقرميد إزنيق الأحمر والأزرق والأخضر. توجد نقوش قرآنية على حزام من القرميد الأزرق والأبيض يطوّق الغرفة، ومصاريع النوافذ مطعمة بعرق اللؤلؤ. كانت عادة السلطان مراد الثالث أن ينام في الحريم، وبعد أن يتناول إفطاره في وقت متأخر من الصباح كان يعود إلى عالم الذكور بالفناءين الثاني والثالث. وهناك كان يقابل الصدر الأعظم وأغا الانكشارية والباشوات وكبار الجنرالات الذين كانوا يحملون لقب بليرباي(*)، ويستقبل السفراء. وكان يتعشى دائما في الحريم، لأن الوصال هناك كان يمتعه «إلى أقصى حد»، بتعبير ديبلوماسي بندقي[17].

(*) بليرباي Beylerbey: لقب عثماني بمعنى «باي البايات» أو «أمير الأمراء» كان يحمله كبار قادة الجيش وولاة الولايات الكبيرة الذين يرأسون في ولاياتهم أمراء لمقاطعات أصغر. [المترجم].



رسام مجهول، مراد الثالث، في نحو العام 1590 كان مراد الثالث واحدا من أوائل السلاطين الذين قضوا معظم وقتهم في العاصمة، بدلا من خوض الحروب على الجبهة. يلبس السلطان أحد القفاطين الفخمة الباقية حاليا في متحف قصر توبكابي.

كان مراد الثالث أول من استن عادة السلطان الذي لا يبرح قصره. فمراد النهم إلى إشباع حاجاته وليس إلى الانتصارات العسكرية، لم يغادر القسطنطينية إلا قليلا. وبدأت القسطنطينية، والقصر نفسه ضمن المدينة، يغطي ضياؤها على بقية الإمبراطورية ويحجبها. ومع أن السلطان وقع في حب محظيته صفية Safiye، بيد أنه استسلم أخيرا إلى الإغراءات التي وضعتها في طريقه أخته أسمهان زوجة الصدر الأعظم محمد باشا صوكولو وأمه نوربانو. فمن خلال توفير الحسناوات للسلطان، كانت السلطانة الوالدة والأميرات يؤدين واجبهن العائلي بزيادة عدد الأمراء. كتب موظف القصر إبان القرن السابع عشر بوبويسكي عن سلطانة أم لاحقة: «كانت تبحث دوما عن البنات الجميلات لتقديمهن إليه». كانت الوجوه الجديدة من الحسناوات يصبن القهوة للسلطان عندما يأتي لزيارة

أمــه. وإذا وقعت عينه على إحداهن، فإنها كانت تســمى غــوزده gozde التي تعني «في العين»(*). وإذا أراد إحداهن في مخدعه فإنه كان يخبر رئيس الخصيان الأســود (قصة اختيار السلطان للمحظية بإيقاع المنديل أمامها أسطورة لا أساس لها). وكانت بقية النســاء يهنــئن المحظية المفضلة الجديدة، وكــن يرافقنها إلى الحمّام ويلبسنها ويعطرنها ويزيّنها، ويسرن بها في النهاية على أصوات الموسيقى والأغــاني إلى غرفة نوم الســلطان. وبعد أن ينام الســلطان معهــا، كانت تدعى «إقبــال» Ikbal التــي تعني مفضلة أو أثيرة. مع نهاية عهــده، كان مراد الثالث قد فقد كل أشــكال ضبط النفس وقيل إنه كان «ينـام» مـع امرأتين أو ثلاث في الليلــة الواحدة، وإنه أنجب مائة طفل واثنين. وفي النهاية، بدأ الســلطان يصاب بنوبات صرع[18].

في عهد مراد الثالث إبان العقد الثامن من القرن السادس عشر، شهد الحريم زيادة في حجمه المادي وأهميته السياسية وأعداد نزيلاته. كان الحريم يتألف من شــبكة من الغرف والممرات والأفنية: أفنية النساء والخصيان والسلطانة الوالدة والأثيرات والمستشفى. حظيت السلطانة الوالدة بجناح ملوكي يضم حمّاما وغرفة صلاة وغرفة طعام وقاعة عرش وغرفة نوم. وكان جناح الســلطانة الوالدة الواقع في مركز الحريم يتمتع بوصول ســهل إلى كل أجنحة الحريم، وكذلك إلى ســجن الحريم الواقع تحت الحريم مباشرة.

كانــت الغــرف الثلاثمائة الأخرى صغــيرة جدا، ربما لتســهيل عملية تدفئتها. وكانت مزيّنة بأبواب من المرمر وأســقف من الأرابيســك المُذَهّب وبلاط إزنيق. وكانــت بعض تجاويف النوافذ مزودة بنافورات للتغطية على المحادثات الخاصة بصــوت الماء المتدفق. وكانت النقوش المنحوتة على البلاط تعلن رســالة العظمة الإمبراطوريــة التي تســتحوذ على المدينة. ففــوق المدخل الأســاسي إلى الحريم إلى جانــب الديوان، يعلــن نقش من عهد مراد الثالث أنــه المدخل إلى حوريات الجنة اللاتي تســحر مفاتنهن الجنة نفســها. ونقشــت على البلاط بالداخل جمل مثــل: «حفظ الله ســلطان عثــمان ... وجعل هذا الباب دوما البــاب إلى انتصار الإمبراطور!»، «أجلس في صفاء أدامك الله إمبراطورا للعالم!»، «بنى القصر سعادة

(*) من معاني gozde في اللغة التركية «قرة العين» و«محبوبة». [المترجم].

السلطان أحمد- الإسكندر الثاني- بعد أن صممه بنفسه. يعطر هذا القصر الدماغ، وكل نفَس ونسمة فيه هي أصفى مسك الحب وكهرمانه»[19].

ومــن العام 1574 حتى موتها في العــام 1583، كانت أم مراد الثالث نوربانو الأولى بين السلطانات الوالدات العظيمات. ومع أن نوربانو كانت تعيش في قصر منفصل خارج أسوار المدينة، فقد كانت تسيطر على الحريم والسلطان، وفي ذلك قيل إن «كل الخير وكل الشر يأتي من الملكة الأم». ومن خلال كرائها kira اليهودية إستر Esther، احتفظت الســلطانة الوالدة بالتواصل مع العالم الخارجي، وكتبت كثيرا إلى ســفير البندقية في بيرا تطلب هدايا من الحرير والقماش المطرز والوثار. ومنذ أن ســاعدت في الحفاظ على الســلام بين البندقيــة والإمبراطورية العثمانية ورتبت فديات لأسرى الحرب، أخذ ســفير البندقية يســارع إلى إرضائها. وتراسلت نوربانو أيضا بصفتها «الملكة الســلطانة الوالدة للســيد الكبير» مع «الملكة الأم» كاثرين دي ميديشي حول المعاهدة بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية(*). تكشف الملحوظة التالية لها من العام 1583 النبرة المتجبرة للحريم والأهمية التي أضفتها نزيلاته على الأشياء المادية أو الحيوانات: «أحيط علم سفير البندقية أنك أرسلت اثنــين مــن كلاب الحِجر(**). ونحــن الآن لا نريدهما، فقد كــبر حجمهما وطال شعرهما، لذلك أحيط علما بأننا نريدهما بيضا وصغار الحجم!».

وفي العام 1582، كلَّفت نوربانو التي نشأت مسيحية أرثوذكسية، كبير المهندسين المعماريين الإمبراطوريين سنان ببناء مسجد يشع ببهجة الدين، وهو جامع السلطانة الوالدة العتيق Atik Valide Cami الذي بُني فوق تل على أوسكودار. كان ملحقا بالجامع مستشفى وحمّام وخان وعمارة «للفقراء والبؤساء». ويمكن تحديد الدافع الأســاسي لنوربانو مــن وراء هذا العمــل إن كان التقوى أو الخيــلاء من نص صك تأسيس وقف الجامع:

(*) كاثريــن دي ميديــشي Catherine de Medici (مــن 13 أبريــل 1519 إلى 5 يناير 1589): ســليلة أسرة نبيلة فلورنســية تزوجــت من هنري الثاني ولي عهد فرنســا الذي اعتلى العرش في العــام 1547، وبعد أن مات هنري الذي أهملها لحساب عشيقاته، هيمنت على الحكم في عهد ابنها الضعيف فرانسوا الثاني الذي تولى الحكم في العام 1559 وهو في عمر الخامسة عشرة، ومع وفاة الأخير في العام 1560 عُيِّنت وصية على نجلها شارل التاسع بسلطات واسعة، وظلت مؤثرة بعد موته وتتويج ابنها هنري الثالث حتى آخر أيامها. [المترجم].

(**) كلب الحِجر lap-dogs : كلب صغير يوضع على الحِجر. [المترجم].

> تنفيذا لرغبتها في نيل نعمة نظرة الله، خصصت السلطانة الوالدة من حر ممتلكاتها ومقتنياتها الأجزاء التالي ذكرها بالتفصيل في هذا الصك. وأمرت بنية خالصة صادقة خالية من الرياء والنفاق وبأنقى المقاصد، بتشييد الكثير من الصروح العظيمة والرائعة لفعل الخير.

كما بُني بجانب المسجد ثلاث مدارس لتعليم القرآن وتلاوته ودراسة الحديث «لأنها تولي اهتماما وتضفي قيمة كبيرتين على التعليم بغرض رفع شأن العلم وتعظيمه بين الشعب[20].

تقبل أهل القسطنطينية والحكومة العثمانية سلطة السلطانة الوالدة التي كانت أحيانا لا تقل عن سلطة الملكة الأم كاثرين دي ميديشي وماري دي ميديشي(*) وآن النمساوية(**) في باريس. في مواقفهن المختلفة، كانت النساء الأربع يأمرن الرجال وساعدن في الحفاظ على سلطة أبنائهن. بصفتها أما، كانت السلطانة الوالدة رمزا للاستقرار والتراتبية. وبعد العام 1574، وبفعل مصادفة البيولوجيا العائلية، غدا السلاطين أحدث سنا وأقل اقتدارا من أسلافهم. وغدت السلطانة الوالدة، بدرجة لا تقل عن السلطان نفسه، تمثل هيبة العائلة وسخائها، وفي بعض الأحيان آخر بقايا الفطرة السليمة. ويمكن وصف السلطانة الوالدة العثمانية بأنها «ملكة تاج البسطاء المحتجب» أو «أم كل المؤمنين».

بحلول القرن السابع عشر، كانت عائدات بعض أراضي التاج تخصص لوالدة السلطان، وكانت تتقاضى أعلى راتب في الإمبراطورية - أعلى من الصدر الأعظم- وهو ثلاثة آلاف أقجة akces في اليوم، تزاد عليها الهدايا الكثيرة من السفراء والباشوات وابنها السلطان. وكانت قوتها تتجلى كثيرا في المدينة، فعندما عادت إحدى السلطانات الوالدات من زيارة إلى إدرنة في العام 1668، دخلت القسطنطينية محاطة بما لا يقل عن خمسة آلاف من الجنود والخدم وبستانجية البلاط ورؤساء التشريفات والخصيان والعلماء وحاشية السلطان مدثرين بالعباءات المطرزة

(*) ماري دي ميديشي Marie de Medici (من 26 أبريل 1573 إلى 3 يوليو 1642): ملكة فرنسا زوجة هنري الخامس البوربوني. بعد اغتيال زوجها في العام 1610 الذي وقع في اليوم التالي لتتويجها، عُيِّنت وصية على عرش ابنها لويس الثالث عشر حتى بلوغه سن الرشد، عرف عنها المكائد السياسية في البلاط الفرنسي ورعايتها للفن. [المترجم].

(**) آن النمساوية Anne of Austria (من 22 سبتمبر 1601 إلى 20 يناير 1666): أميرة إسبانية وبرتغالية المولد، زوجة ملكة فرنسا ونافار ووصية على عرش ابنها لويس الرابع عشر، عرف عنها تدخلها في السياسة في أثناء وصايتها على العرش. [المترجم].

الحمراء. استغرق الموكب ثلاث ساعات حتى وصل إلى القصر. وعندما كان السلطان الجديد يعتلي العرش كانت أمه تؤخذ في موكب عام من القصر القديم الكائن في وسط المدينة إلى سراي النساء بالقصر الجديد. كانت السلطانة الوالدة تسير في مركبة تجرها ست جياد، يحيطها الخدم والحشم وحملة المطارد والانكشارية، ورمز مرئي للأمومة، وتتبعها مركبة أصغر تُبعثَر منها عملات معدنية على الحشود المبتهجة. وكانت تعطى هدايا لكل بيوت حراس الانكشارية على طول الطريق. وفي الفناء الخارجي للقصر كان ابنها السلطان ينتظرها لأداء التمينة(*) ويقبّل يدها من خلال نافذة المركبة[21].

ثمة ثقب في الجدار يرمز إلى قوة الحريم، ففي تاريخ غير معلوم في أواخر القرن السادس عشر حفر ثقب مستدير في الممشى الذهبي في الحريم يطل على قاعة المجلس. ومنه كانت آخر المعلومات السياسية تصل الحريم حرفيا من خلال النافذة، قبل أن تصل إلى أي أحد، وبالطبع باستثناء كبار المسؤولين الحكوميين[22].

من الصعب التثبت من الشكل المحدد لتأثير الحريم والغرض منه. وعلى أي حال، فقد اعتبر المراقبون العثمانيون والأجانب المعاصرون عهد مراد الثالث نقطة تحول في حظوظ الإمبراطورية العثمانية والحريم. وفي ذلك كتب المؤرخ مصطفى السيلانيكي Mustafa Selniki في نهاية القرن السادس عشر: «لقد تجاوز تفاخر الدولة الحد وزادت الأبهة الإمبراطورية، وبلغ الهدر والإنفاق المفرط مداه حتى إن الخزانة العامة لم تعد تكفي ... لم يعد أحد يهتم بشن حملة لوجه الله. ولم يعد الناس يرغبون في نعمة الاستشهاد». كانت بقايا الطعام والشراب في القصر، كما يذكر كاتب عثماني آخر هو مصطفى علي، «لا توصف ... وكان الجيل الفاسد من الطباخين والخبازين وخدم خزانة الطعام يلقون الحماية من أغوات فخامة الحريم... كان بحر هادر يجتاح الباب العالي سرا أو علنا. وهناك يبدأ فيضان غزير من المشروبات الغالية في الانتقال جرة بعد أخرى من خزانة الطعام الإمبراطورية إلى غرف حراس القصر». كان القصر يستهلك يوميا نحو مائة وثمانية وستين كيلوجراما من اللوز ومائتين وأربعة وعشرين كيلوجراما من ماء الورد المعطر بالمسك. وإذا

(*) التمينة temenna: هي إيماءة التعبير عن الاحترام بوضع أصابع اليد اليمنى على الشفتين ثم الجبهة، وهي عادة لاتزال تلاحَظ في بعض المجتمعات العربية. [المترجم].

حـــاول أحد الـــوزراء أن يكبح الهدر، كان الخدم يسرعون إلى الســـلطان باكين «لقد قطعوا الطعام المخصص لنا!»، فيبطل السلطان أمر الوزير[23].

كان ســـفير البندقية أكثر تحديدا، إذ قـــال إن «الحريم والخصيان يوجدون دائما حوله [مراد الثالث] وعادة ما تكون لهم الكلمة الأخيرة ... وليس له شخص ذو شأن يتحـــدث معه ... ولا يثق بأحد، وذلك لحكمة فيه، لأنه يعرف أن كل من يخدمونه يمكن رشـــوتهم بسهولة». فقد اشتهر باشوات أوائل القرن السادس عشر بأن توقهم إلى المال كان أكثر من توق «الشياطين إلى قبض الأرواح». وفي عهد مراد الثالث بدأت الرشـــوة تلتهم صرح الإمبراطورية. كان شـــمسي باشا Semsi Pasha الشاعر المقرب من ثلاثة ســـلاطين ومن الصـــدر الأعظم محمد صوكولو، الأخـــير في عائلة كانت لها إمارة مســـتقلة بالقرب من البحر الأسود قبل صعود العثمانيين. كان شمسي يساعد مراد الثالث في الرد على العرائض التي تقدم إليه وهو في الطريق إلى صلاة الجمعة. في أحد الأيام شـــوهد يبتسم وهو خارج من القصر. وعندما سئل عن السبب أكدت إجابته أن الرعايا المســـلمين أنفسهم كانوا من أشد أعداء العثمانيين: «أخيرا انتقمت لعائلة كيزيل أحمد أوغلو Kizil Ahmedoglu من آل عثمان، فإن كانوا قد تسببوا في دمارنـــا، فإنني اليوم أعددت لدمارهم». وعندما ســـئل عـــما فعل من أجل هذه النتيجة، أجاب: «بالمشـــورة على الســـلطان بأن يبيع حظوته ... من اليوم ســـيكون الســـلطان نفسه مثالا للفســـاد، وسوف يقضي الفســـاد على الإمبراطورية»[24]. لكن الباشا استخف بقدرة الإمبراطورية على التعافي.

في القصريـــن القديم والجديد، ارتفعت أعداد النســـاء سريعا من مائة وســـبع وســـتين في العـــام 1552 إلى مائتين وثلاثـــين في العام 1574، ثـــم إلى ثلاثمائة وثلاث وســـبعين في العـــام 1600، ثم إلى ســـتمائة واثنتين وســـتين في العـــام 1622، ثم إلى تســـعمائة وسبع وســـتين في العام 1652. وإلى جانب الزيادة بواقع ستة أضعاف في العدد، حدثت زيادة بواقع أربعة عشر ضعفا في الإنفاق. وإبان القرن الثامن عشر، تفاوت عدد النســـاء في الحريم بين أربعمائة وثمانمائة، لكنه ارتفع ثانية إلى ثمانمائة وتسع في العام 1870.

كان وجود الخصيان في الحريم لا يقل أهمية عن النساء أنفسهن. وفي العام 1605، ضـــم القصر مائة وأحد عشر خصيا[25]. كان الصبية الســـود المشـــترون أو

المختطَفون من السودان يؤخذون إلى أسيوط على النيل، وفيها، ومن أجل زيادة السعر السوقي لهؤلاء الصبية، كانوا يخصون على أيدي نفر من الأقباط، وذلك لأن الإخصاء Castration محرم في القرآن، ولأن المسلمين كانوا يخجلون من أداء هذا العمل(*). وكانوا يُشحَنون بعد ذلك إلى القسطنطينية ويشترون للحريم من سوق العبيد الذي كان يقع بجانب البازار في وسط المدينة. وكانوا يُعطَون أسماء رقيقة، ربما في تعارض مقصود مع مظهرهم، مثل زنبق أو زعفران أو حسون أو زمرد. في منمنمات جنازات السلطانات الوالدات أو ختان الأمراء، تشكل وجوه الخصيان السود تضاربا جليا مع العمائم البيضاء التي تعلو رؤوسهم والوجوه العثمانية البيضاء من حولهم. وعلى مدار ثلاثمائة وثلاثين عاما - من العام 1574 إلى العام 1908 - تمثل أحد أقوى الرجال في الإمبراطورية، وهو رئيس الخصيان السود، في شخص أفريقي. كان هذا الخصي الأفريقي، الذي لم يكن أقل تأثيرا من الصدر الأعظم أو المفتي، يسيطر على مالية الحريم، وبحلول القرن السابع عشر على مالية المساجد الإمبراطورية في القسطنطينية أيضا.

كان رئيس الخصيان يسيطر أيضا على الدخول إلى الحريم وعلى الانضباط بداخله، والدخول على السلطان نفسه. كتب بوبويسكي: «هذا المسؤول ... كان يتمتع أكثر من غيره بالوصول إلى الأمير والقرب منه في أي ساعة، حتى بعد أن يختلي الأمير بخليلاته»، و«يمتلك ألف حيلة لجعل السلطان ينفذ ما يريد». وكما كانت الحال مع كثير من موظفي القصر، كانت سلطة رئيس الخصيان تمتد أبعد كثيرا من المدينة. فكان يسيطر على أموال الأضرحة في مكة والمدينة، ومن العام 1645 إلى العام 1760 في مدينة أثينا. وبلغ الثراء بأحد رؤساء الخصيان السود حد أنه بنى ميناء جديدا على فم نهر الدانوب[26].

يذكر أحد أفراد الحاشية الناقمين أن الخصيان كانوا قادرين على نكاح النساء، كتب مؤرخ القرن الثامن عشر علي سيدي بيه Ali Seydi Bey:

(*) كانت هذه العملية البشعة تجري بقطع ذكر الصبي المسكين ثم دهن الجرح بالقار ودفن الصبي في الأرض حتى رقبته، وكان من ينجون منها قلةً، ولذلك كانت أسعارهم مرتفعة، وكذلك لأنهم كانوا يباعون لعلية القوم. [المترجم].

أنا شـاهد عيان على أن هؤلاء الكفار السـود خونة إلى درجة أن الواحد فيهـم كان يمكن أن يقع في حب واحـدة أو اثنتين من الجواري وينفق كل ما يكسـبه عليهما، وأنهم كانوا يسـتغلون كل فرصة للاجتماع بهن سرا وممارسة الجنس معهن ... قد تتسـاءل: وهل الجواري اللواتي يقمن علاقات مع هؤلاء الخصيـان السـود يجدن متعـة معهم؟ والإجابـة هي أنه مـن المعروف في إسـطنبول أن الجواري يجدن فيهم هذه المتعـة. من ذلك أن اثنين من حملة المطارد Halberdiers في وحدتنـا تزوجا من جاريتين من القصر الإمبراطوري وطلقاهما خلال أسـبوع عندمـا قالت كل جارية لزوجها: «إنني لا أسـتمتع بعلاقتي بك كما كنت أستمتع مع الخصيان السود»[27].

كان من الواجبات الأساسـية للخصيان الإشراف على الأمراء الإمبراطوريين. اسـتمر قانون قتل الإخوة الذي اسـتنه محمد الثاني طوال القرن السادس عشر. وعندما جلس محمد الثالث على العرش في العام 1595، أُتي بتسـعة عشر من إخوة السلطان الجديد من الحريم، وقبلوا يد السلطان وخُتنوا، ثم خنقوا بمنديل حريري. قال أمير صغير كانت بيده جوزة يأكلها: «دعني آكل جوزتي واخنقني بعدها». وكما يذكر مؤرخ القرن السابع عـشر العظيم أوليا جلبي، فقد انتُزع طفل آخر من ثدي أمه وقُتل، فخرج لبن أمه من أنفه في الوقت الذي خرجت فيه روحه من فمه. في ذلك اليوم خرج من القصر تسـعة عشر تابوتا صغيرا خلف تابوت أبيهم السلطان الراحل. وكانت زوجات السلطان الراحل وبناته يؤخذن بعد ذلك إلى القصر القديم في وسط المدينة الذي كان يعرف لذلك باسم «قصر الدموع». وكان الموكبان يسـيران على مرأى من أهل المدينة. كتب أوليا: «كانت الملائكة في السماء تسمع نحيب أهل إسطنبول وعويلهم»(*). وعلى خلاف ذلك، كانت الروابـط العائليـة بين عامة الناس، وفقـا لوصف لاحق لأحد سـكان المدينة، قوية في مشاعرها وتقوم على الحب والإخلاص[28].

وبعد العام 1607، أدى الخوف من انقراض العائلة إلى تغيير في السياسـة (على الرغم من أن أسـباب ذلك لم تسـجل كما هي الحال مع كثير من قرارات الحكومة

(*) من هنا جاء في خطاب العرش الذي ألقاه هنري الخامس على إخوته:

إخوتي أراكم تمزجون الحزن بشيء من الخوف.

إنه البلاط الإنجليزي، وليس التركي

وعلى أي حال، فإن الحروب على الخلافة على العرش التي وصفها شكسبير في مسرحياته التاريخية هو تحديدا ما أريد بقانون قتل الإخوة أن يحول دونه. علاوة على أن عائلات لانكستر ويورك وتيودور - كما تبيّن المسرحيات - بلغت لاحقا معدلات الإعدام العثمانية تقريبا. [المؤلف].

العثمانية). فأفسح قتل الإخوة المجال إلى سياسة سجن الأمراء في أجنحة داخل الحريم الإمبراطوري، وهي سجون مترفة. وتحت حراسة الخصيان الذين كانوا يعلمون هؤلاء الأمراء تعليما عثمانيا رسميا فضلا عن حرف مثل صنع الخواتم العاجية أو التطريز. وفي عزلتهم ليس عن العرش فقط، بل أيضا عن العالم الخارجي، كانت تسلي الأمراء جوارٍ معقمات(*). وبعد ذلك أصبح من يخلف السلطان ليس أول من يستولي على القسطنطينية من أبنائه، بل أكبر الذكور سنا في العائلة.

وإلى جانب الخصيان، كان يسكن الحريم أيضا البُكم والأقزام الذين كانت إعاقاتهم الجسدية تجعل منهم - في نظر السلطان- خدما أو مهرجين ممتازين. وفي إحدى المرات إبان القرن السابع عشر، قُدمت للسلطان ظاهرة فريدة: خصي قزم أبكم. ومنذ دخول هذا الخصي، أصبح الحريم الإمبراطوري جنته. فنظرا إلى حظوته عند كل من السلطان والسلطانة الوالدة، كان بمقدوره أن يذهب إلى حيث يشاء، «مرتديا أثوابا ثمينة»، و«لا ينقصه أي شيء»[29].



رسام مجهول، حفلة أقيمت للسلطانة الوالدة في القصر بحضور مدام جيراردين Madame de Girardin زوجة سفير فرنسا التي كُلفت برسمها في المكان وأخذتها إلى باريس، في نحو العام 1689. على اليسار، يوجد خصي أسود، ونساء، وأقزام يرقصون ويعزفون الموسيقى ويقدمون المرطبات. كان مسيو جيراردين سفيرا لفرنسا من العام 1686 إلى العام 1689، وهي فترة اتحد فيها البلدان على عداء النمسا.

(*) بمعنى أن هؤلاء الجواري كان يتم تعقيمهن لمنع الإنجاب من الأمراء السجناء، ليكن بذلك - من بعض النواحي- المقابل النسائي لوظيفة الخصيان، فالأخيرون يحرسون الحريم بلا خوف منهم عليهن، والأوليات يمتّعن الأمراء السجناء بلا خوف من أن ينجبن لهم أطفالا. [المترجم].

كان الحريــم ماكينة لإعادة إنتاج العائلة، حتى ضد إرادة الســلطان. وكانت أيضا مدرســة يشبه نموذجها مدرســة الغلمان، في أنها تنشّــئ نخبة تتوافر فيها الموهبــة والــولاء. كانــت التلميذات فيهــا يتعلمــن آداب الســلوك والخياطة والموســيقى وفن التسلية والإمتاع والقراءة والكتابة، وإن لم يكن تعليم الأخيرتين جيــدا دائما كما يتضح مــن أدلة الخطابات الباقية. وإذا فشــلت الواحدة منهن في لفت انتباه الســلطان، فإنهن كن يساعدن في إدارة الحريم. كانت المسؤولات الكبيرات يسمين «الأُســطى» أو «القلفة»[*]، وهما الكلمتان عينهما اللتان كانتا تســتخدمان في الطوائف لأربــاب الحرف. كانت القلفة بردائهــا المبطن بالفراء وذيلها وغطاء رأسها الكبير المزيّن وقبقابها العالي الرنان، وعصا طقوسية في يدها تشــير إلى منصبها، كانت تبدو مســؤولة قوية جدا، وكانــت كذلك حقا. وتحت القلفة كانت توجد المساعدات وهن الجواري اللاتي كن يقمن بالعمل في الغرف والأجنحة وحجرة غســل الملابس وغرف الخزين وغرف الغلي والمستشفى، فضلا على الإشراف على ولادة أطفال السلطان وتربيتهم[30].

بفضل ميكانيكي إنجليزي يدعى توماس دالام Thomas Dallam، نســتطيع أن ننظر من خلال ثقب المفتاح ونرى ســيدات الحريم. وصل دالام إلى القســطنطينية في العام 1599 مُرسَــلا من قبل الملكة إليزابيث الأولى بأرغن هدية للسلطان. طُلب منه أن يركب الأرغن Organ في الفناء الرابع للقصر. وهناك أراه جندي الانكشارية المرافق فتحة مُشــبّكة في الحائط يســتطيع من خلالها أن يرى سيدات الحريم. كن يلعبن بكرة:

> للوهلة الأولى، اعتقدت أنهن شــبانا، لكني عندما رأيت شــعر رؤوســهن يتــدلى على ظهورهن مضفرا برباط من اللآلــئ الصغيرة معلقا في نهايته وغير ذلك من الحلي البســيطة، عرفت أنهن نســاء، بل حســناوات بالفعل. لم يكن يلبســن على رؤوســهن شيئا ســوى قبعة صغيرة من القماش الذهبي، لم تكن تغطــي غير قمة رؤوســهن، ولا طــوق حول رقابهن ولا أي شيء غير سلاســل

(*) ربما تكون الكلمة التركية kalfa التي تعني حرفيا العريف أو شــيخ الصنعة، الأصل للكلمة التي كانت تستخدم حتى وقت قريب في العامية المصرية، وربما لاتزال، «قلفة» مع نطق القاف ألفا، على طريقة المصريين، كما في قولهم «ألفة الفصل» بمعنى الطالب رئيس الفصل. وكذلك كلمة «أُســطى» usta لاتزال شــائعة الاســتخدام في مصر وبعض الدول العربية التي كانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية. [المترجم].

> جميلة من اللؤلؤ وجوهرة تتدلى على صدورهن وجواهر في آذانهن، وكانت ستراتهن تشبه سترات الجنود، بعضها من الحرير الأحمر، وبعضها من الأزرق، وبعض الألوان الأخرى مربوطة بنطاق من لون متضارب، وكن يلبسن سراويل من قماش ناعم من الوبر القطني بيضاء مثل الثلج ورقيقة مثل الشاش، حتى إنني استطعت أن أتبيّن بشرة أفخاذهن من خلالها.

وأخيرا جَره الجندي بعيدا، «وعلى الرغم من أن ما فعلته سلوك منفر، فإن المنظر أسعدني وأذهلني تماما».

بعد تسع سنوات في الخدمة، كانت النساء اللاتي لم «يلاحظهن» السلطان يستطعن أن يتركن القصر ويتزوجن، إن طلبن ذلك رسميا. وكان تعليمهن وعلاقاتهن يجعلان منهن عرائس مرغوبات. في نهاية الإمبراطورية كتب أحد المعلمين: «عندما رأيت سلوكهن ولطفهن الرائع، أدركت السبب الذي يجعل الباشوات يفضلون دائما أن يتزوجوا نساء خدمن في القصر»[31].

لم تكن خُرَّم ولا نوربانو أقوى امرأة حكمت الحريم، بل السلطانة الوالدة كوسِم Kosem الفاتنة والطموحة (اسمها يعني إما «صلعاء» أو «قائدة»، لأنها ذات صباح كانت البنت الأولى في طابور في استقبال السلطان). ولدت كوسِم في نحو العام 1589، ربما لكاهن يوناني على جزيرة تينوس Tinos، وكانت زوجة السلطان أحمد الأول الذي بنى الجامع الشهير الذي يحمل اسمه. وبرغم الإغراءات المتوافرة، والضغط من أمهاتهم، نجح عدة سلاطين في التمتع بعلاقات حب أصيلة. في حياة أحمد، كان يقال «إنها [كوسِم] تستطيع أن تفعل أي شيء تريده مع السلطان، وإنها تمتلك قلبه تماما، وإنه لا يرفض لها طلبا». وبعد أن أبعدت إلى القصر القديم عند موت السلطان أحمد في العام 1617، عادت إلى القصر الجديد بصفتها السلطانة الوالدة عندما اعتلى ابنها الشاب مراد الرابع العرش في العام 1623.

من قاعدة سلطتها في الحريم، ساعدت كوسِم المسؤولة عن ابنها السلطان[*]، في تثبيت أركان الحكم من خلال صهر معظم الذهب والفضة الموجودين في القصر لدفع رواتب الجند. كانت مصالح السلطان تهدد أحيانا مصالح عائلته. من ذلك

(*) بعد موت زوجها، مارست السلطانة كوسِم (من نحو 1590 إلى 3 سبتمبر 1651) السياسة من خلال ابنها مراد الرابع ثم ابنها إبراهيم الأول «المجنون» وأخيرا من خلال حفيدها محمد الرابع، وكانت من أقوى النساء في التاريخ العثماني. [المترجم].

أن مـراد الرابع عندما أصبح رجلا، عاد إلى إرث قتل الإخوة، وأمر بقتل شـقيقين له للتخلص من المنافسين. ومنعته أمه من قتل أخيه المتبقي إبراهيم من خلال إقناعه بـأن إبراهيم مجنون ولا يمكن أن يشـكل تهديدا. بيد أن كثيرا ما كانت السـلطانة الوالدة تجد صعوبة في السيطرة على كل من السلطان والإمبراطورية. من ذلك أنها كتبـت إلى الصدر الأعظم: «لا بد أن نفعـل أي شيء في اليمن، فهي الباب إلى مكة. يجب أن تفعل كل ما تستطيع ... فولدي يخرج في الصباح ويرجع في الليل، ولا أراه قـط. أريده أن يبتعد عن البرد، لأنه سـيمرضه ثانيـة. لا أخفيك أن حزني على ابني يدمرني. تكلم معه عندما تأتيك الفرصة». وعندما أصر ابنها على الذهاب إلى ساحة الألعـاب لمزاولة الرياضة العثمانية المفضلة «الجريدة» أو رمي الرمح من فوق ظهر الفرس(*)، قالت: «ماذا بوسـعي أن أفعل؟ لقـد أصبح كلامي مُرا عليه. ليبقى على قيـد الحياة فقط، لأن بقاءه حيوي بالنسـبة إلينا جميعا. وأنا عندي مشـكلات لا تحصى لا أسـتطيع أن أشرع في كتابتها جميعا». وبعد عهد وحشي لكنه ناجح، مات مراد الرابع في العام 1640[32](**).

في بادئ الأمر، كان وريثه إبراهيم مرعوبا من مغادرة غرفته في الحريم. وإلى أن أمرت كوسِـم بأن تعرض عليه جثة أخيه، ظل مقتنعا بأنه مأخوذ إلى الخنق، وليس التنصيـب. وفي عهده بلغ الحريم ذرى جديدة من الترف في العطور والمنسـوجات والجواهر. دفع إبراهيمَ ولعُه بالنسـاء والفراء إلى تخصيص غرفة مبطنة كليا بفراء الوشـق والسمور حتى «يختلي» فيها. وساعدت كوسِم في تزويده بالعذارى والنساء السـمينات. وعندما فترت قوته، اقتصر على امرأة جديدة كل يوم جمعة. وفي خرق لتقاليد العائلة، تزوج إبراهيم محظية في مراسـم عامة، حيث عمل رئيس الخصيان السـود وكيلا لها والصدر الأعظم وكيلا عن السـلطان. كان إبراهيم غريب الأطوار حتى إنه هدد صدره الأعظم بحشـوه بالتبن إن لم يسـتعد هدايا قدمها السـلاطين السـابقون إلى قـبر النبـي في المدينة المنـورة، وكان يشرب قهوة بطعـم الكهرمان لتهدئـة أعصابه[33]. وانزلقت الحكومة في عهده إلى حالة من الفوضى. وقطّع جنود

(*) اسم الرياضة jirid مأخوذ من جريدة النخل. [المترجم].

(**) كان مراد الرابع آخر السلاطين المحاربين، فقاد جيوشه في الحرب ضد الصفويين وغزا أذربيجان وريفان وتبريز وهمدان، واسـتعاد بغداد من الصفويين بعد حصارها وبعد أن أمن أهلها الذين أعمل فيهم القتل برغم ذلك، حتى قيل إن ألفا من جلادي مراد كانوا يقطعون ألف رأس من الأسرى بالتزامن أمام مراد الذي سرّه المشهد. [المترجم].

الانكشـــارية الغاضبون من تأخـــر رواتبهم الذين تجرأوا بســـبب ضعف الحكومة، جسد صدر أعظم سابق وبيعه في الشارع(*).

كان على السلطانة الوالدة أن تتصرف، فاجتمعت كوسِم بكبار الوزراء في مدخل الحريم، وهي ملفوفة من رأسها إلى قدميها بالحرير الأسود، بينما يقوم خصي أسود كبير بالتهوية عليها بمروحة كبيرة. خاطبها أغا الانكشــارية قائلا: «ســيدتي الكريمة، لقد أصبحت الإمبراطورية في خطر بســبب حماقة الباديشاه وجنونه، فأخذ الكفار أربعين قلعة على حدود البوسنة ويحاصرون الدردنيل بثمانين سفينة، بينما لا يفكر الباديشــاه إلا في المتــع والملذات وبيع المناصب. وأصوات الزمــر والأبواق والفلوت الخارجــة من القصر تغطي على الأذان للصــلاة الصادر من مآذن آيا صوفيا»، وهذا الأخير كان الهاجس الدائم في القسطنطينية العثمانية[34].

وأخيرا، وافقت كوســم على عزل ابنها. ولم يكن لديها وازع من أســف لأن ابنها حــاول أن ينفيهــا إلى رودس (التي كانت - إلى جانب قــبرص ومصر - منفى معتادا من العاصمــة العثمانية)، وأجبر بناتها الأميرات على خدمة محظيته المفضلة بحمل الصابون والماء لها. وفقا لإحدى الروايات، قدمت كوســم ابن السلطان الأمير محمد ابن الســابعة من العمر إلى المجلس قائلة: «ها هو ذا! فانظروا ما يمكن أن تفعلوه معه!» وبفتوى مســاندة من مفتي القسطنطينية، عزل إبراهيم وخنق لاحقا. وحين اقترب الجلاد من إبراهيم كانت كلماته الأخيرة: «أليس بين أولئك الذين أكلوا خبزي مَنْ يشفق بي ويذود عني؟ لقد جاء هؤلاء الرجال القساة لقتلي. الرحمة! الرحمة!».

كان من أمارات قوة الشــخصية التي تمتعت بها كوســم أنها ظلت السلطانة الوالــدة بدلا من تورهان Turhan أم الســلطان الجديد محمــد الرابع. وفي العام 1651، في أوج مجدها، أمرت كوســم التي باتت تعرف باســم الســلطانة الجدة، وبمــا يتفق مع طبيعتها العملية، ليس ببناء جامــع، بل ببناء أكبر خان في المدينة، هو خان الســلطانة الجدة كثير القباب القريب من البازار الكبير. كان هذا الخان، المبنــي حول ثلاثــة أفنية والمكوّن من ثلاثة طوابق، كبيرا إلى درجة أنه كان يســع ثلاثة آلاف مسافر.

(*) هذا الصدر الأعظم هو حافظ أحمد باشا الذي قتل في 8 أغسطس 1648 وقطعت جثته أشلاء حتى سمي بعد ذلك أحمد باشا «الألف قطعة». [المترجم].

نالت كوسِـم حب أهل المدينة بسـبب أعمالها الخيريـة الكثيرة. فكانت تعتق الجواري بعد سنتين أو ثلاث في الخدمة، وتعطيهن مهورا وسكنا مؤثثا لتمكينهن من الزواج. وفي شهر رجب، كانت تخرج من القصر متنكرة وترتب بنفسها إطلاق سراح المسجونين الغارمين وسداد ديونهم[35]. وفي حال ضرورة حضور السلطان اجتماعات المجلس، كانت كوسِـم تجلس بجانبه تحجبها ستارة. وكانت صراحتها تفوق تعقلها. فكانـت تنتقد الـوزراء في وجوههم بنبرة تاتشرية صريحة. ومـن ذلك قولها لأحد الـوزراء: «هل عينتك وزيرا لكي تقضي وقتك في الحدائـق ومزارع الكرم؟ كرّس كل جهدك لشؤون الإمبراطورية، ولا أريد أن أسمع المزيد حول تصرفاتك!»[36].

وفي النهاية، وكما في حالة ويسـت مينستر في العام 1990، تحوَّل ولاء الناس إلى جلادهـم(*). كان لأعداء كوسِـم حليف وحيد داخل الحريم، هو والدة السـلطان تورهان، المرأة التي اكتشـفتها كوسِـم وقدمتها بنفسها إلى إبراهيم(**). ربما كانت كوسِم تخطط لتعزيز سلطتها بعزل ابن تورهان محمد وتتويج أخيه الأصغر سليمان الذي اعتبرت أمه أكثر انقيادا لها من تورهان. هكذا قال أحد عبيد كوسِم لتورهان. وسرت شـائعة، ربما أطلقها رئيس الخصيان السـود، تقول إن كوسِم تريد أن تخنق الباديشـاه. وفي الثاني من سـبتمبر 1651، طاردها الخصيان والغلمان الغاضبون في الحريم. وحاولت جارية مخلصة أن تنقذ سيدتها بالقول «أنا السلطانة الأم!» لكنهم لم ينخدعـوا. ويقـال إن كوسِـم اختفـت في دولاب في حائط تحت سـلم في جناح السلطانة الوالدة. لكن فضحتها قطعة من ثوبها كانت بائنة من تحت الباب، فرآها أحد حملة المطارد، الذي خنقها بستارة. صارعت كوسِم حتى تفجر الدم من أذنيها وأنفهـا ولوَّث ملابس القاتل. تركـت «الوالدة المذبوحة»، كـما باتت تعرف، ألفين

(*) عـلى الرغم من كل نجاحات تاتشر التي تعد أحد أبرز السياسـيين الإنجليـز والعالميين في القرن العشرين، فقد أثرت سياسـاتها الضريبية وموقفها من الاتحاد الأوروبي على شـعبيتها، ما دفع نائبها جيفري هاو Jeffery Howe إلى الاسـتقالة والترشح أمامها في انتخابات الحزب والفوز عليها في الجولة الأولى، بعدها قدمت تاتشر استقالتها من دون أن تدخل جولة الانتخابات الثانية. [المترجم].

(**) بسبب قانون قتل الإخوة، ولأن مراد الرابع قتل إخوته الأربعة، ولم ينج إبراهيم من يده إلا توسل أمهما بأنه مجنون ولا خوف منه على العرش، فقد كان إبراهيم الذكر الوحيد المتبقي من آل عثمان، لذلك شـجعته أمه كوسِـم على التردد على الحريم وكانت تزوده بالجميلات، منهن تورهان خديجة Turhan Hatice التي أنجبت له (السلطان) محمد الرابع، وصالحة ديل العشـب Saliha Dil-Asub التي أنجبت له (السـلطان) سـليمان الثاني وخديجة معزز Hatice Muazzez التي أنجبت له (السلطان) أحمد الأول. [المترجم].

وسبعمائة شال وعشرين صندوقا من الذهب وسمعة باقية في المدينة بتقواها وكرمها. وعندما علم أهل القسطنطينية بموتها، دخلوا من تلقاء أنفسهم في حداد لثلاثة أيام(37).

لم يأت بعدهما سلطانة والدة في قوة كوسم أو نوربانو. وعلى أي حال، فإن أحد الرموز الباقية لهذه الفترة المعروفة باسم «سلطنة النساء» التي كانت سلطة السلطانات الوالدات فيها لا تقل عن سلطة السلطان، يتمثل في جامع السلطانة الوالدة الكبير والرائع على القرن الذهبي. لا يقع هذا الجامع على حافة المدينة مثل المساجد السابقة التي كلّفت ببنائها نساء العائلة، بل يقع في قلبها التجاري بين الميناء والبازار. أنشأت هذا الجامع السلطانة صفية التي كانت السلطانة الوالدة من العام 1595 إلى العام 1603 وقيل إنها كانت تبيع منصب الصدر الأعظم كما تريد. بدأ العمل في الجامع في العام 1597، ثم توقف في العام 1603 مع موت صفية، ولم يكمله غير تورهان في العام 1660. لا أحد ينتقل بين غَلَطَة وإسطنبول تفوته رؤية هذا الصرح.

نادرة هي الخطابات أو القصائد أو المذكرات التي نشرت لنساء إسطنبول اللاتي كن يعشن خارج الحريم الإمبراطوري، ما يفرض صعوبة جمة على تصوير حياتهن. وإبان القرن التاسع عشر فقط، بدأ الكثير من الأصوات الفردية يتردد. كان الزواج الهدف الأهم للنساء. وكان الزواج يبدأ، وفي بعض الحالات ينتهي، في الحمّام. فوفقا لتعاليم القرآن، كان التطهر جزءا لا يتجزأ من التقوى. وكان كل حي بالمدينة يضم حمّاما عاما يتألف من سلسلة من الغرف المرمرية المقببة تحوي مغاطس وفسقيات ساخنة وباردة، تخصص للنساء في أيام معلومة من الأسبوع، ولعله من اللافت للانتباه في هذا الصدد أن خُرَّم بنت حمّاما مزدوجا رائعا بين آيا صوفيا وجامع السلطان أحمد، كان يستقبل الرجال والنساء في الوقت عينه في قسمين منفصلين ومتناظرين تماما. وإجمالا، ضمت المدينة نحو مائة وخمسين حمّاما.

أنتجت هذه الصروح المرمرية حياة اجتماعية قائمة على الاستحمام والتدليك والمحادثة تشبه ثقافة الشاطئ بكاليفورنيا. وكما هي الحال في حمّامات المياه المعدنية الغربية المعروفة باسم سبا spa، كانت الصحبة دافعا لا يقل أهمية عن

دافع الإصحاح بالنسبة لمرتادي الحمّامات. كانت المرأة الغنية تذهب إلى الحمّام العام مرة واحدة في الأسبوع على الأقل، حتى لو كان عندها حمّام في بيتها. وكانت المرأة لدى دخول الحمّام، تتولى الخادمات العناية بها بالمناشف والفرش والحناء والكحل وقطعة من الصابون الكريتي وقبقاب حمّام مطعّم بعرق اللؤلؤ. أصبحت زيارات الحمّام حفلات يأتون فيها بالطعام والحيوانات الأليفة، ويمكن أن تدعى إليها الصديقات والموسيقيات. وبعد الحمّام والتدليك، كانت النساء بقمصان داخلية فقط ينتفن حواجبهن، ويحنين شعرهن، وأحيانا أقدامهن وأيديهن. يوجب المذهب الحنفي الذي يتبناه الأتراك إزالة الشعر من كل أجزاء الجسم: الأذنين والخياشيم والسيقان والآباط. وكانت النساء يستخدمن عجينة خاصة لإزالة الشعر مصنوعة من شراب السكر أو من الليمون والزرنيخ[38].

ثمة وصف نابض بالحياة لعالم الحمّام الذي يختلف كليا عن عالم المدينة خارجه، قدمته ليدي ماري ورتلي مونتغو Mary Wortley Montagu زوجة السفير البريطاني في العامين 1717 و1718، وهو وقت كانت تتحول فيه الإمبراطورية من الحرب إلى المتعة.

> كانت الصوفات الأولى مغطاة بوسائد وسجاد فخم تجلس عليها السيدات(*)، وعلى الصوفات الثانية كانت تتبعهن جواريهن بلا تمييز للمكانة عن طريق الملبس، لأنهن جميعا يكن في حالة الطبيعة، أي عاريات تماما من دون حجب أي من مفاتنهن أو عيوبهن. ومع ذلك فلم تظهر أي ضحكة خليعة أو إيماءة بذيئة بينهن ... والكثير من النساء الجميلات عاريات تماما، في أوضاع مختلفة، بعضهن يتجاذبن أطراف الحديث، وبعضهن يعملن [خياطة]، وبعضهن يشربن القهوة أو الشَربات، بينما تنهمك جواريهن (بنات جميلات معظمهن في عمر السابعة عشرة والثامنة عشرة) في تضفير شعرهن بعدة طرق جميلة. إنه بإيجاز مقهى النساء الذي تُتبادل فيه كل أخبار العالم وتخترع الفضائح وما إلى ذلك. وهن عموما يأخذن هذه التسلية مرة في الأسبوع ويبقين في المرة الواحدة أربع ساعات أو خمسا على الأقل[39].

(*) الصوفا sofa العثمانية- كما سيرد لاحقا - لا يشترط أن تكون أريكة أو قطعة أثاث، بل قد تكون جزءا من الأرضية مرتفعا بقدم أو اثنتين عن بقية الغرفة، كما كان ديوان الباب العالي نفسه قبل أن تنتشر التأثيرات الأوروبية. [المترجم].

في أثناء الاسترخاء في الحمّام، كانت الأم تستطيع أن تسأل صديقاتها عن عروس مناسبة لابنها أو أن تختارها بنفسها (على الرغم من أن بعض الأمهات كن يعتمدن على خاطبات محترفات يتنقلن من بيت إلى بيت). وبعد ذلك، كانت تحدث زيارات طقوسية إلى عائلة البنت، للتعرف على جمالها واختبار مهارتها في التطريز وعمل المربى وغيرها من ضرورات الحياة. وإذا أعجبت الأم بالعروس، فإنها في هذه الحالة تخبر ابنها عنها. وإذا حدث وفاق، فإن الشاب يرسل هدية إلى العروس: شال أو رداء مطرز أو ألماس. وكان قبول الهدية يعني الارتباط والخطبة.

وقبل يومين أو ثلاثة من الزواج، كانت عائلة العروس تستأجر الحمّام ليوم كامل. وتأتي الصديقات إلى بيت العروس ويشاهدن الراقصات ويستمعن إلى الموسيقى والقصص البذيئة ribald. وفي اليوم السابق على الزفاف، الذي عادة ما يكون يوم الأربعاء، وفي إشارة إلى انتقالها من حياة العزوبية إلى الحياة الزوجية، تقام للعروس حفلة حناء في البيت، تدعى إليها ضيفات يرتدين أفضل ما لديهن من الفساتين الحريرية والمخملية. كانت العملات المعدنية تُنثَر على رأس العروس في إشارة إلى الغنى والوفرة. وكانت صديقات العروس يحملن شموعا مثبتة في صواني الحناء ويسرن جيئة وذهابا بين البيت والحديقة ويغنين أغاني حول ليلة الزفاف التالية:

ألواح الغرفة الجديدة .. يا ليلي
تشعل الشموع بالذهب والفضة .. يا ليلي
لم أتمنَ ذلك منك .. يا ليلي
هل تتحقق الأمنية .. يا ليلي(*).

ثم تقوم حماة العروس بوضع الحناء في يدي العروس وتؤدي الغجريات رقصة وصفتها في العقد الثامن من القرن التاسع عشر سيدة تدعى ليدي بلنت Lady Plunt زوجة تاجر بريطاني في العاصمة العثمانية بأنها «منفلتة وفاحشة».

وفي صباح يوم الخميس، ترتدي العروس بهارجها وتغطى بالجواهر وتتسلم من أبيها زنارا يرمز إلى مكانتها الجديدة كامرأة متزوجة. وتقوم امرأة تدعى الباشليكجية bashlikci بإعداد غطاء رأس العروس من الجواهر والزهور قبل أيام من ليلة الزفاف. قُتلت امرأة باشليكجية عُرف من حجم بيتها أنها «نصف قسطنطينية»

(*) لاتزال كلمة «ليل» تتكرر في الأغاني والمواويل العربية. [المترجم].

لسرقـة جواهرها.وفي يـوم الزفاف يجتمع أصدقاء العريـس وأقاربه في بيته. وبعد أن يطلقوا النار في الهواء، يسـيرون إلى بيت العروس يسوقون حمارا. وهناك توضع العروس المحجبة كليا فوق الحمار ويسـيرون بهـا في موكب إلى بيت العريس يضم مهرجين وأناسـا آخرين يحملون جهاز العروس وسـعفة الزفاف. وفي بعض الحالات كان أفـراد من عائلة العـروس يعملون في جهازها منذ يـوم مولدها، وكان الجهاز يحتوي عادة على سـجادة صلاة ومرآة فضية وقبقاب حمّام وصناديق من خشـب الجوز. وفي البيت الجديد، كان جهاز العروس يوضع للعرض على الضيوف.

كانت العائـلات الغنية تحاول أن تبـاري فخامة جهاز العـروس الإمبراطوري. مـن ذلك أن أحد الباشـوات صمـم أن تخرج ابنته بجهاز لا يمكـن لأحد أن يتكلم فيه بالنقص. صنع الباشـا لابنته تاجا من الذهب المصمت. وتخفى في مكان قريب ليسمع إطراء الناس، لكنه سـمع امرأة عجوزا تقول: «كله مظهر خادع! كله مظهر خادع!» وعندما اندفع الأب ليسألها عما تعنيه، قالت: «لقد نسيتَ الملقاط!».

كانت الموسيقى والراقصات والمرطبات تقدم في كل من الحرملك (جناح النساء) والسـلاملك (جناح الرجال) في بيت العريس. وفي نحو الساعة التاسعة مساء، ينتقل الإمام بين العريس والعروس ويعلنهما زوجا وزوجة. «بعد ذلك تقاد العروس وحدها إلى غرفة العرس وتترك وحدها. وفي النهاية، يأتيها العريس ويلتمس الإذن بأن يرفع حجابهـا ويمتع ناظريه بجمالهـا. وتتمنع العروس مرارا وتكرارا، لكنها تستسـلم في النهاية. ويبدأ في تقبيلها». وتدخل العروس عالما جديدا[40].

هـل كانت السـعادة في انتظارها؟ يبدو أن معظم النسـاء كن يتقبلن فرحات العـالم المغلق للعائلة الذي يلتزمن فيه بطلبـات التنظيف والطبخ وتربية الأطفال، وذلـك جزئيا لأن مكانة المرأة ترتفع عندما تتزوج. وحتى فرص العمل خارج البيت، في الخدمـة المنزلية على سـبيل المثـال، كانت تلقى منهن الرفـض. كان الحريم في البيـوت الخاصة أصغر كثيرا من الحريم الإمبراطـوري، لأن الأفراد العاديين كانوا لا يتوافرون على ثروة السـلطان وحاجة العائلة الحاكمة إلى ضبط البيولوجيا وضمان التناسل. لكن لا شك في أن البيوت الخاصة في القسطنطينية كانت تسع بين جدرانها كثيرا من النسـاء المعشـوقات من أزواجهن مثل خُرَّم سـلطان، والمتسـلطات مثل نوربانو وكوسِم.

كانت القسطنطينية جنة للرجل الغني الذي يشتهي النساء ويحب التنويع فيهن. كان بعضهم يغير الزوجات كثيرا، أو يشترون أعدادا كبيرة من الجواري، على نحو ما كان السلطان يفعل. سأل السلطان شاعر القرن السابع عشر فيناني Fenani ذات مرة إن كانت هناك متعة لم يتمتع بها السلطان. فجاءته الإجابة: «نعم، إنها متعة أن تطلق أربع زوجات شرعيات دفعة واحدة، فذلك أمتع شيء في العالم. إنها متعة ملكية بكل معنى الكلمة». يحق للمسلم أن يجمع أربع زوجات، شريطة أن يعاملهن بالعدل، وأن يطلقهن متى يشاء. وحتى إن لم يطلق المسلم زوجاته، كان بوسعه أن يشتري ما يشاء من النساء لخدمة بيته. ولم تكن تجرؤ على التهديد بالعودة إلى بيت أبيها إلا الزوجة الغنية أو المحبوبة جدا من زوجها[41].

كانت أكثر من زوجة واحدة يعشن في انسجام في بيت واحد من خلال التوافق على إعطاء الأسبقية للزوجة الأولى بصفتها رئيسة الحريم. فيما كانت زوجات أخريات للرجل الواحد تعيش كل واحدة منهن في بيت منفصل في أحياء مختلفة. احتفظ رجل عجوز في العقد الخامس من القرن التاسع عشر بزوجة في القسطنطينية وأخرى في طوب خانة Tophane وثالثة في أوسكودار ورابعة على البسفور، حتى يجد حيثما حل في المدينة بيتا ينام فيه وزوجة تطبخ له طعامه. كان من الوارد أن يكتشف النساء الموسرات مصادفة أن زوجها له زوجة أخرى في بيت آخر منذ سنوات. وقد التقى مؤلف الكتاب الحالي بامرأة في إسطنبول ذكرت أن عمة أبيها زوجة طاهر باشا قائد حرس السلطان سألت عن هوية زائرة جديدة جميلة إلى حمّامها المفضل، فجاءها الرد: «إنها زوجة طاهر باشا»[42].

وفي حين ظل الأمراء العثمانيون معزولين في قصر توبكابي، كانت أكبر البيوت على البسفور تخص أخوات السلطان وبناته اللاتي كن يتميزن عن النساء الأخريات بالاسم «سلطان» في أسمائهن الأولى (مثل عائشة سلطان وفاطمة سلطان وما إلى ذلك). كان أزواج هؤلاء النساء الملكيات، الذين كانوا من الباشوات وعلية القوم في زمانهم، ينفقون ثرواتهم للحفاظ على المستوى الملكي لزوجاتهم، على نحو ما أراد السلطان. وفي حين كان القنال الكبير في البندقية دليلا مرئيا على ثروة وقوة عائلات أرستقراطية مثل غريتي Gritti وكونتاريني Contarini وموشينيغو Mocenigo الذين كانت قصورهم تصطف حوله، كان البسفور يعكس الحضور الطاغي في المدينة لعائلة واحدة، هي العائلة العثمانية.

كان أزواج الأميرات يعتبرون عبيدا لزوجاتهم. وفي ليلة الزفاف، كان الزوج عندما يدخل غرفة نوم زوجته إذا سمح له بذلك، لا يجرؤ على الاقتراب منها إلا من تحت سريرها. وكان أزواجهن يُرسَلون أحيانا من العاصمة لحكم الأقاليم. لكن نادرا ما كانت الأميرات توافق على الذهاب معهم(*). كانت مساحات قصورهن تعكس مكانتهن، وليس عدد أطفالهن. وبغرض التخلص من المنافسين المحتملين للسلطان، اتبعت بعد العام 1607 عادة قتل أبناء الأميرات عموما عند مولدهم. وفي العام 1842، أراد السلطان أن يبطل هذا التقليد. لكن محظياته كن عثمانيات أكثر من سيدهن، وكسرن أوامره، ورتبن قتل رضيع كان قد ولد حديثا لعطية Atiye أخت السلطان. ويقال إنهن بررن فعلتهن بالقول: «ماذا تزن حياة رضيع واحد في مقابل أهوال خمسين حربا أهلية؟» وماتت الأميرة الأم بعد شهرين حزنا على ابنها[43](**).

تمتعت بعض الأميرات بزيجات سعيدة. كان من بين هؤلاء إبان القرن السابع عشر كايا سلطان Kaya Sultan ابنة مراد الرابع التي أعطاها ذات مرة خراج مصر كاملا، وكانت مسلمة ورعة ومديرة ماهرة لبيتها. تحدث معها المؤرخ أوليا جلبي كثيرا من خلال مشربية Latticed Window (وهي إشارة إلى أن الفصل الجنسي كان أقل صرامة مع النساء المتقدمات في السن). كتب عنها أوليا: «إنها لا تجد متعة في رفقة النساء، وتفضل الاعتزال في خلوة في أحد الأركان وتخلص في العبادات. وكانت هي والباشا [زوجها ملك أحمد Melek Ahmed] يحرصان على أداء الصلوات اليومية الخمس معا ... وفي النهاية أحبت الباشا ونبذت كل الرفيقات المفسدات وتفرغت لتبادل الحديث مع الباشا». كان الزوجان يستمتعان

(*) إبان القرن التاسع عشر أقسمت امرأة من حريم السلطان لجأت إلى السفارة البريطانية إنها تفضل أن تتزوج حمّالا على أن تغادر القسطنطينية. [المؤلف].

(**) على الرغم من بشاعة إرث قتل الإخوة، فإن هذا الإرث اللعين ربما يمكن تفهمه بالنظر إلى الحروب الأهلية التي دامت أحد عشر عاما بين أبناء السلطان بايزيد بعد هزيمته وأسره على أيدي تيمورلنك، وربما يرجع هذا التقليد إلى ما بعد فترة خلو العرش من العام 1402 إلى العام 1413 التي انتهت بانتصار محمد الأول وقتله إخوته سليمان وموسى وعيسى وفرار رابعهم - مصطفى- إلى سالونيك التي وعد حاكمها السلطان بأن يضعه قيد الإقامة الجبرية. فكأن هذا الإرث من الحروب الأهلية والفتن والمكائد وتأليب أصحاب الغرض الإخوة بعضهم على بعضهم - ونجاحهم في كل حالات الإخوة الذين لم يقتلوا- قد علم أهل القسطنطينية، وتحديدا قاطني توبكابي- أن قتل بضعة أفراد أرحم كثيرا من قتل الآلاف في حروب أهلية وضياع الدولة كليا. [المترجم].

بـ«مباريات مصارعة لطيفة» في الفراش ثماني وأربعين مرة في الســنة. وســاعدته في الحصول على منصب مرموق. وبعد موتها، تزوج زوجها من أميرة أخرى، هي فاطمة ســلطان المسنة. ذكر الباشــا لأوليا: «إن العذاب الذي نلته من زوجتي هذه في ليلة زواجــي لم يذقــه أسرى مالطة [الأسرى المســلمون في أيدي فرســان القديس يوحنا بمالطة الذين كانت معاملتهم مثالا للبربرية]. ليرحمني الله، يالها من امرأة متهورة ووقحة وصفيقة!»[44].

ومع ذلك، فحتى هؤلاء النساء العثمانيات صاحبات النفوذ والامتيازات كان من الممكــن تعذيبهن بالغيرة. تزوجت عادلة ســلطان Adile sultan ابنة مصلح القرن التاســع عشر العظيم السلطان محمود الثاني، من ضابط بالجيش يدعى محمد علي باشــا Mehmed Ali Pasha. جمــع الحب بين الزوجين. وفي أحد الأيام، اســترعت انتباهــه في مكان عام على القــرن الذهبي يدعى «المياه الحلــوة لأوروبا» Sweet Waters of Europe. وحيــث إن حجابها كان ســميكا، فإنه لم يتمكن من التعرف على شــخصيتها، فأوقع منديلا معطرا عند قدميهــا كنوع من الغزل. وفي تلك الليلة وجد الباشا المنديل على الوسادة بجانب زوجته النائمة.

وفي مناســبة أخرى، ذهبت عادلة إلى مسجد بعيد للصلاة. وعندما احتاجت إلى أن تستريح في الطريق، طرقت على باب قصر، رحب بها أصحابه، وقدموا لها القهوة والشربات، وحين ســألت مضيفتها عن اســمها، أجابت الســيدة بأنها زوجة محمد علي باشا. فشكرتها عادلة سلطان وانصرفت. وعاشت بعدها في خلوة تكتب قصائد تفوح منها رائحة الحزن. وعندما ماتت في العام 1898، دفنت بجانب زوجها. لم يأتِ في قصائدها إشارة إلى الخيانة التي ارتكبها زوجها بحقها[45].

كانت البيوت الأقل شــأنا تشــهد عواصف مــن الغيرة. كان الرجــال أحيانا يقضــون حاجتهم مع جواريهــم. وكانوا أحيانا يطلبون مــن الإمام رخصة بعدم الاغتســال بعد الجماع لأن ذلك كان يثير غضــب زوجاتهم على الجواري. كتبت ليدي بلنت: «كل خانوم [زوجة] عرفتها كانت تنزل إلى حجرة الغســيل بانتظام لتشــطف بيديها ملابس زوجها بعد الغسيل، خوفا من أنها لو تركت هذا العمل للجواري فإن الواحدة منهن يمكن أن تتلو على الملابس تعاويذ أو أســحارا لتحل محل الزوجة في قلب زوجها»[46].

كتبت واحدة من أعظم كُتـاب تركيا الحديثة، هي قائدة الموجة الأولى للحركة النسـوية بالقسـطنطينية خالدة أديـب Halide Edib، عن بيـت أبيها في العصر الذهبي الأخير للمدينة قبل العام 1908: «كان [تعدد الزوجات] لعنة، سُـم لم ينجُ منه بيتنا التعس ... كان التوتر الدائم في بيتنا يحيل حتى الطقوس البسـيطة إلى ألم مـادي، ولم أنجُ أنا نفـسي من نتائج ذلك. كانت غرف الزوجـات متقابلة، وكان أبي يزورها واحدة بعد الأخرى ...»[47].

تمثل أحد مصادر التسـلية في الحريم في اسـتضافة الصديقـات، من اليونانيات واليهوديات والأرمنيات فضلا على المسـلمات. وكانت تحدث زيارات متبادلة دائمة بين الحريم: زيارات للسـؤال وللتفتيش وللتحية وللتهنئة وللتعزية. وكانت الزائرات يقضـين الليل غالبا عند مضيفاتهـن. وكانت المرأة ذات العلاقـات المتينة يمكن أن تقضي عاما كاملا في الزيارة الواحدة. وكانت الزائرات بمنزلة سـعاة بريد وصحافيي شائعات يسردن أخبار المدينة. وكانت التاجرات المحترفات يتنقلن أيضا من بيت إلى بيت لبيع أو شراء الملابس والتطريز.

سـعى بعض السـلاطين إلى فرض العزل الصـارم. كان من هؤلاء السـلطان عثمان الثالث (1754-1757) الذي حظر على النساء الخروج من البيت في أكثر من أربعة أيام في الأسبوع، والسلطان مصطفى الرابع (1807-1808) الذي أصدر مرسوما يحظر عليهن الخروج من البيت مطلقا. تعلمت بعض النساء أن يخفن من الرجال الأغراب، حتى إن الواحـدة منهن لو حاصرتها النيران كانت تفضل أن تحترق حتى الموت على أن تنقذها ذراعا أحد الجيران أو جنود الانكشـارية. وكانت النساء يتعرضن للنقد أحيانا حتى على نشـاطات تقليدية مثل الذهاب إلى الأسواق «بين الرجال» أو زيارة المقابر. وكن يصلين عادة في البيوت، أو في المسـاجد في أبهاء خاصة أو وراء حواجز، وليس في صحن الجامع الأسـاسي. وحتـى امرأة في قوة خُرَّم قيل إنها لم تكن تخـرج إلى المدينة إلا ليلا، مع أنها كانـت تقوم برحلات إلى الولايات لرؤية أبنائها. ولم يكن بمقدور النسـاء أن يزرن خان الجدة الكبير Buyuk Valide Han الذي بنته كوسِم إلا بإذن من المشرف وبرفقته.

وفي الحريـم الإمبراطوري، حتى مع الحرية النسـبية إبان القرن التاسـع عشر، ظلت السـيدات يعشـن حياة منعزلة تماما. وكن يقعن في حـب رجال لم يروهن، بسـبب سماع صوت يغني في ليلة مقمرة على البسفور، أو رجل يعزف على الكمان

على بعد. وفي الحالتين، كانت البنات تظل في حالة الحب من دون أن يعرفن شيئا عن أحبائهن لسنوات. إن بيرون لم يبالغ حين كتب في «دون خوان»(*) أن الزواج wedlock والقفل padlock عند الأتراك لا يختلفان[48].

لكن كانت هناك - على الرغم من ذلك - دروب للاستقلالية. ففي الغرب، كان الأزواج يسيطرون على ثروات زوجاتهم. وحتى شخصية شرسة مثل سارة دوقة مارلبورو(**) كانت تستطيع أن تدير ممتلكاتها الشاسعة من خلال وصية من زوجها تستوجب تنفيذ رغباتها. ربما جزئيا من أجل الحيلولة دون أن ينفق الزوج ممتلكات زوجة على زوجة أخرى، ضمن الإسلام أن تحتفظ النساء بالسيطرة على ممتلكاتهن الخاصة. وفي القسطنطينية، كانت النساء يدرن ممتلكاتهن إما مباشرة وإما من خلال وكلاء. وكان بعض النساء يمتلكن دكاكين في السوق، وكان بعضهن يقرضن مبالغ كبيرة للمسؤولين الحكوميين أو السفراء الأجانب، على نحو ما كان يفعل أزواجهن. تبيّن السجلات القانونية أنه في العام 1548، كانت امرأة واحدة، هي نفيسة بنت كمال Nefise bint Kemal تمتلك طاحونة مائية، وفي العام 1804 كانت هوشيار هانم Hoshyar Hanim تمتلك مخبزا. وكذلك كانت النساء، كما سيرد لاحقا، تجار عبيد أكفاء جدا[49].

كانت العمارة أحد المجالات الأساسية التي شاركت فيها نساء القسطنطينية الموسرات. فمن بين التسعمائة والثلاثة والخمسين مسجدا التي كانت منتشرة في المدينة في العام 1962، كان ثمانية وستون منها أو سبعة في المائة قد كلّفت ببنائها نساء أو بُنيت لنساء. ومن بين الأسبلة العثمانية الأربعمائة وواحد وتسعين المتبقية في إسطنبول في العقد الرابع من القرن العشرين التي تميّز واجهاتها المرمرية الرمادية الهادئة مدينة إسطنبول كما تميّز النافورات الباروكية البيضاء الدوّامة روما، كلّف نساء ببناء 28 في المائة منها[50]. على السبيل القائم في بيشيكتاش الذي شيّدته تورهان سلطان (التي كان اسمها الأول خديجة) يقرأ المارة:

(*) «دون خوان» Don Juan : قصيدة هجائية للورد بيرون تقوم على أسطورة دون خوان، يقلب فيها بيرون الأوضاع، فيحيل خوان من زير نساء يلعب بهن إلى رجل يسهل على أي امرأة الإيقاع به. [المترجم].

(**) سارة دوقة مارلبورو Sarah Duchess of Marlborough (من 5 يونيو 1660 إلى 18 أكتوبر 1744): زوجة جون تشرشل دوق مارلبورو الأول، كانت صديقة مقربة من الأميرة آن؛ ولذلك حين أصبحت الأخيرة الملكة آن، ازداد نفوذ سارة وقوتها، وغدت الشخصيات البارزة والعامة تتودد إليها أملا في التأثير في الملكة لمصلحتهم. [المترجم].

بنيــة خالصة من الرياء، أمرت خديجة ســلطان تــاج العفة الحصين، وأم
محمد خان ســلطان السلاطين، بأن يتدفق هذا الســبيل السامي مجانا، حتى
يرتوي منه العطشى في الكون كله.

ونُقش على سبيل انتهى العمل به في العام 1741: «عندما روَّت والدة علي باشا الوزيــر في عهد الســلطان محمود، عطش الناس بماء إحســانها الصافي الرائق، نطق الدرويش النقشــبندي رضا البيشــيكتاشي بالحكمة التالية: تعال واشرب ماء الحياة الأبدية من هذا الســبيل»[51]. وعلى الرغم مــن وضوح الهيمنة الأمومية، فإن المرأة التي كلَّفت ببناء السبيل قد عرَّفت نفسها بابنها.

لم تســتطع أن تتحدى التقاليد إلا قلة من نســاء القسطنطينية. من هؤلاء الشاعرة حبي خاتون Hubbi Hatun التي بقيت في البلاط في عهد سليم الثاني بعد موت زوجها وسرت شائعات بأنها كاتمة أسرار السلطان وعشيقة العديد من أفراد حاشيته. وفي بداية القرن السابع عشر، كتبت امرأة من المدينة تدعى ليلى Leyla قصائد عشق:

عندما أكون بين ذراعيك، لا تزد ألمي
فالجنة بين ذراعيك، وليس الجحيم.

وإبــان القــرن الثامن عشر، لقيت فتنت هانــم Fitnat Hanim أخت وابنة أخ وحفيدة علماء شــغلوا منصب شيخ الإسلام، التشــجيع من عائلتها على كتابة الشــعر. وجهت فتنت قصيدة إلى الصدر الأعظم المهذب رجب باشا، وترددت في زيارات على صالونه الأدبي. وكانت النساء يعملن موسيقيات أو خطّاطات. كتبت خطّاطة انفصلت عن زوجها تســعة أوصاف للنبــي اعتبرتها أعمالا فنية تعوضها عن الأطفال[52].

عاشــت النســاء الفقيرات حياة أقــرب إلى حياة ربات البيــوت في الغرب، وإن ظل الفصل في البيت بين مســكن الذكور والإناث متبعا، ولو حتى بســتارة تعلق في منتصف غرفة. وكن يظهرن كثيرا ســافرات مع أزواجهن في الســوق أو جالسين معا في المســاء على عتبات بيوتهم، أو وهن يجــررن أزواجهن من الحانات. وكان بعض النساء يبعن ما يصنعنه في البيت، مثل السجق والمناشف المطرزة الكتانية، في أسواق أسبوعية كانت تقام للنساء في أحياء مختلفة من المدينة[53].

بعيدا عن المهام المنزلية، كان العمل الأساسي لنساء القسطنطينية هو التطريز، في مقابل صنع السجاد في الأناضول الريفية. لم تخصص إمبراطورية أخرى كل هذه الطاقة لأعمال الإبرة والخيط. في منتصف القرن السابع عشر، قالت زائرة فرنسية تدعى جين ثيفنوت Jean Thevenot: «عملهن الوحيد في البيت هو الكروشيه والتطريز، بينما تقوم جاريات بكل أعمال المنزل». وبعد مائة عام، كتب واحد من أعظم المؤرخين العثمانيين، هو موراجيا دوسون: «تحتفظ كل النساء بكميات كبيرة من التطريز لتزيين ملابسهن وكذلك كل الكتان المستخدم في الأعمال المنزلية العادية: منديل اليدين والمناشف [كانت المناشف المطرزة تستخدم جوائز في مسابقات الرماية] ومناديل المائدة والقماش. لقد كن يطرزن كل شيء حتى السراويل والزنانير». وفي أوائل القرن العشرين، كتبت دارسة الأعراق لوسي غارنيت Lucy Garnett التي عاشت سنوات طويلة في البلقان: «يحظى التطريز بمكانة خاصة، وقبل عدة سنوات من الزواج تجد البنات عملا في ساعات فراغهن في تطريز الملاءات والمناشف والألحفة ومناديل المائدة وغيرها من الأشياء التي تظهر لاحقا في جهاز عرسها وتزيّن غرفة عرسها».

باستخدام بعض أنماط الزخرفة الموجودة على بلاط إزنيق والقفاطين المخملية، كان التطريز يمارس في كل شيء متاح، من المهد إلى اللحد: أغطية الفراش وأغطية الوسائد وأغطية العمائم والمحافظ وبهارج الخيول وسجادات الصلاة، وكانت أعمال التطريز الأقيم على الإطلاق تتمثل في الكسوة التي كانت ترسل سنويا إلى الكعبة بمكة. كان التطريز يغطي كذلك قطع القماش التي كانت تُرسَل فيها الخطابات والأشياء من شخص إلى آخر، لأن الأظرف الورقية لم تستخدم حتى القرن التاسع عشر. وكلما كان التطريز أنفس، كان التقدير أعلى من المتلقي. وفي البيوت الموسرة، كان شرب القهوة نفسه يمكن أن يؤدي أيضا إلى استعراض للتطريز، حيث كان الخادم الأول يرتدي وشاحا مستديرا معلقا على كتف واحدة، كان يصنع من الحرير أو المخمل ويطرز بكثافة بخيوط الذهب، وأحيانا بالجواهر، وكانت الشُّرابات تخاط باللآلئ. كان الغرض الوحيد من ذلك هو إظهار الجمال والثراء.

كان التطريز أيضا يغطي الملابس، كما يتجلى في الأثواب الفخمة المعروضة في متحف صدبيرك هانم Sadberk Hanim Museum في حي بيوكدير Buyukdere، التي تجعلها الخيوط الذهبية متصلبة مثل سترات السفراء. لم يتغير أسلوب أعمال

التطريز كثيرا من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر. وقد أبدت ليدي ماري ورتلي مونتغو إعجابها بالتنورة الداخلية والقفطان الدمقسيين المطرزين والزنار المغطى بالجواهر التي كانت ترتديها سيدة عثمانية، لكن ما «أحزن عينيها» كثيرا كانت مفارش ومناديل المائدة المطرزة. في الشتاء، كانت النساء الموسرات يرتدين أثوابا من الحرير المبطن بفرو القاقم أو السمور، وغطاء رأس من المخمل مطرزا عادة باللآلئ أو الألماس. وعلى أحد جانبي الشعر، كن يعلقن باقة من الجواهر مرتبة على هيئة الزهور، تمثل اللآلئ فيها البراعم، والياقوت الورد، والألماس الياسمين. وعندما تخرج النساء من البيوت، كن يلبسن أوشحة للرأس من الشاش الأبيض الرقيق بها فتحتان للعينين وفراجي(*) أو عباءات واسعة تغطي كل شيء من الرقبة إلى أصابع القدمين[54].

كان الافتتان بالتطريز- مثله مثل الدين الشعبي والمواكب الإمبراطورية - يوحد الجماعات المختلفة بالمدينة. من ذلك أنه في العام 1673، عرض سنيور تيريسا Signor Tersia ترجمان البندقية والكاثوليكي المقيم في بيرا، مهر ابنته على أصدقائه، فكان يتألف في الأساس من فساتين ومناديل وقفاطين وأغطية فراش، جميعها مطرزة بسخاء «على طريقة أهل البلد» بخيوط من الذهب أو الفضة أو اللآلئ أو البلور، من كل الأسعار. وكانت أغطية التوراة وشيلان الصلاة اليهودية تطرز بالأسلوب نفسه وعليها موضوعات الزهور عينها التي كانت تظهر على المنسوجات الإسلامية. وكانت المعابد تستخدم أبسطة أشبه بسجادات الصلاة الإسلامية عليها «شكل الفتحة التي يصلي عليها الإسماعيليون (المسلمون)»[55].

وصلت شهرة التطريز التركي إلى معقل آخر من معاقل الترف، هو البلاط الفرنسي. ففي العقد الثامن من القرن السادس عشر، استدعت كاثرين دي ميديشي، وبعد خمسين عاما ماري دي ميديشي، بنات من القسطنطينية للقيام بأعمال التطريز لبيتهما. ومع أن المدينة كانت تتبنى الأساليب الغربية في كل المجالات تقريبا، ظل التطريز الهدية المفضلة للزوار البارزين إلى العاصمة. من ذلك أن أولى الهدايا التي قدمتها السلطانة الوالدة إلى الإمبراطورة أوجيني زوجة نابليون الثالث لدى زيارتها إلى القسطنطينية في العام 1869، كانت منديلا مطرزا بالطريقة التقليدية[56].

(*) الفراجي: جمع فراجة ferace، وهي عباءة تلبسها النساء عادة فوق الملابس عند الخروج من البيت. [المترجم].

5

مدينة الذهب

يعتنق اليهود والأتراك والمسيحيون عقائد عدة.

لكن الجميع يعترفون بإله واحد.. إنه الذهب

من مجموعة «خطابات تاريخية ومهمة من جنتلمان في القسطنطينية إلى صديق له في لندن»، 1730.

لا توجد مدينة أكثر تشجيعا للتجارة من القسطنطينية.

Ogier Ghislain de بوسبك، 1555 Busbecq

في حر الصيف، كان السلطان ينتقل كثيرا من القصر إلى الأكشاك المطلة على البحر. وهناك مع برد النسيم، كان السلطان يستطيع أن يستمتع بمشهد مذهل لدرجة أن كثيرين ممن يرونه لأول مرة يشكون أنه حقيقي، وهو الجريان السريع للماء الناتج عن التقاء القرن الذهبي بالبسفور، الذي تغطي صفحته دائما مواكب متحركة من المراكب. كانت

«كانت الإمبراطورية العثمانية عالما اقتصاديا مصغرا، وكان المسلمون هم التجار الأنشط فيه»

أعداد المراكب تتكاثر أحيانا، على نحو ما رسمها ميلخيور لورك في العام 1560، حتى إن الصواري والأشرعة كانت تحجب الماء تقريبا. وبين السفن الأكبر حجما، كان عدد كبير من المراكب الصغيرة (نحو خمسة عشر ألف مركب يعملون في الميناء إجمالا) يندفع سريعا فوق سطح الماء مثل الذباب[1]. كانت هذه المراكب، التي تربط ضواحي المدينة بمركزها عبر شبكة من الرحلات البشرية اليومية، تتحرك في سرعة النوارس التي تنقض من أعلى أو الدلافين التي تقفز من الماء. كانت صيحات المجدفين وصفيرهم يجعل الميناء أكثر صخبا من ميناء نابولي. فقد كانت القسطنطينية تجمع بين كونها عاصمة وميناء، بدرجة أكبر من لندن أو لشبونة. ولم يكن البحر يمر على المدينة فقط، بل كان شريانها.

كان النظر عبر الماء إلى يمين السراي يكشف أوسكودار، ذلك الخليط من القرى والمساجد والقصور، حيث تنتصب القباب والمآذن البيضاء على خلفية خضرة الحدائق وبساتين السرو وأول تلال آسيا. وعلى اليسار، عبر القرن الذهبي من السراي مباشرة، كانت توجد مدينة غَلَطَة، ذلك المدرج من البيوت ذات الأسقف الحمراء المكللة بالنباتات الخضراء والمتوجة ببرج رمادي.



الرسام جان فان دير ستين Jan van der Steen، منظر للقسطنطينية من بيرا، في نحو العام 1770. من اليسار إلى اليمين: أوسكودار، والتقاء البسفور بالقرن الذهبي، والقصر، وجامعي آيا صوفيا والسلطان أحمد، وعلى البعد جبال الأناضول المغطاة بالثلوج. يعد هذا المنظر الصورة الكلاسيكية للمدينة، الذي دفع شاعرا عثمانيا لأن يكتب أن الجنة نفسها تنظر إليها بعين الحسد، والذي اعتبره الزوار الأوروبيون أجمل منظر في العالم.

لمسافة ميل ونصف الميل على يسار غَلَطَة، كان يمتد مركز القوة البحرية للسلطان، وهو أحد أكبر المُجمّعات البحرية في العالم، الذي كان يضم الترسانة وأحواض بناء السفن الإمبراطورية. والترسانة التي كانت مدينة أخرى داخل المدينة يطوّقها سور عال، كانت تضم سقيفات تَسع لبناء حتى مائتي قادس في وقت واحد(*). تظهر الترسانة في لوحة من العام 1650 أشبه بصف من مرائيب الحافلات ذات الأسقف الحمراء. وبجانب الترسانة، كانت توجد مصانع البارود والذخيرة وقصر القبطان باشا Kaptan Pasha أو أمير أمراء البحر - بعد نقل مقر الأسطول العثماني من غاليبولي في العام 1516. وسرعان ما أصبح القبطان باشا أحد المسؤولين الكبار في القسطنطينية ويحق له حضور الديوان، فضلا على السلطة على جزر بحر إيجة وغَلَطَة نفسها. كان أفراد الأسطول من الأتراك واليونانيين والدلماسيين، وكانوا يسمون «مشرقيين» levents من الكلمة الإيطالية levantino (المشرق)، وكانت المراكب التي كان يجري بناؤها عادة وفق نماذج بندقية، تحمل أسماء نصف إيطالية مثل باترونا Patrona وريالا Riyala (Reale) وقبطان Kaptan[2].

وبجانب الترسانة، كان يوجد الصرح المشؤوم المعروف باسم البانيو محاطا بسور عال(**)، كان نزلاؤه الأساسيون نحو ألفين أو ثلاثة آلاف عبد أسروا في أثناء الحروب وعمليات القرصنة التي ابتلي بها البحر الأبيض المتوسط بين فرسان القديس يوحنا والقراصنة الجزائريين(***). كان الرعب الساكن في حياة العبيد الذين كانوا يشيّدون قوادس السلطان ويجدفون عليها(****)، يخففه وجود الكنائس

(*) القادس، والجمع: قوادس، سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف. [المترجم].

(**) البانيو bango كلمة إيطالية تشير إلى المكان الذي كان يحتجز فيه العبيد الأسرى في الجزائر والقسطنطينية. [المترجم].

(***) كانت القرصنة في العصر الحديث المبكر شكلا من الحرب غير النظامية، مارستها كل الدول تقريبا، فمارستها إنجلترا عبر سفن الأسطول الملكي ضد سفن الذهب والفضة الإسبانية القادمة من العالم الجديد، ومارستها الجمهورية الهولندية ضد السفن الإنجليزية والإسبانية، غير أن القرصنة الأشهر في التاريخ كانت تلك التي وقعت في البحر الأبيض المتوسط بين شماله وغربه المسيحي وجنوبه وشرقه الإسلامي، التي تجاوزت الاستيلاء على السفن في عرض البحر إلى الإغارة على المدن والبلدات الساحلية طلبا للغنائم والعبيد، خاصة في عهد الأخوين أميري البحر العثمانيين عروج وخيرالدين بربروس في إمارتهما على الجزائر التي وصفها النبيل الفرنسي دوغرامي في العام 1619 بأنها «السوط المسلط على العالم النصراني. فهي رعب أوروبا ولجام إيطاليا وإسبانيا وصاحبة الأمر في الجزر». [المترجم].

(****) كانت السفن الحربية تعمل في معظمها بمجدفين من العبيد، يعرفون باسم عبيد القوادس galley slaves، كانوا يؤدون عملهم وهم مكبلون في أماكنهم، غالبيتهم أسرتهم الجيوش أو اختطفهم القراصنة لهذا الغرض من الأمم المعادية. كانت بعض الدول تقضي على المدانين بقضاء بعض السنوات على القوادس كعقوبة، وهي عقوبة كانت أقرب إلى حكم الإعدام، وكانت تدخر في إسبانيا القرن السادس عشر للمسلمين الأندلسيين الذين أطلق عليهم اسم الموريسكيين. ويقال إن أسطول التحالف الأوروبي بقيادة إسبانيا حين هزم الأسطول العثماني في معركة ليبانتو البحرية في العام 1571 حرر ثلاثين ألف مجدف نصراني كانوا عبيدا على السفن العثمانية. [المترجم].

الكاثوليكيــة والأرثوذكســية التي كانت تقــدم الخلاص في «العــالم الآخر» وجهود السفراء المســيحيين والأخويات الدينية لإطلاق سراحهم. أضاف عبيد القوادس لغة هجينة أخرى إلى توليفة الأصوات التي كانت تُســمع في القسطنطينية. كان معظم العبيد الأسرى يأتون من إســبانيا أو إيطاليا أو فرنســا، ويتحدثون مزيجا من هذه اللغات يدعى الفرانكو Franco[3].

في الســادس من مايــو من كل عام، في عيــد ولي الله العظيــم الخِضر، تحتفل القســطنطينية بدورهــا كعاصمة بحرية في يوم للمــسرح الطقوسي. على مرأى من بقية المدينة ومن مراكب الكياك والســفن المبحرة، كان القبطان باشا وكبار الضباط بالأسطول يبحرون ببطء من الترسانة عبر القرن الذهبي إلى كشك اليالي Yali Kiosk الواقع على الجبهة المائية للقصر. وهناك، كان الســلطان يســتقبلهم رسميا محاطا بعائلته. وكان يُلبِســهم القفاطين ويدعوا لهم برحلة آمنة وناجحة. كان قادة البحر بعد ذلك يأخذون الأســطول، وســط تحية بطلقات من المدفعيــة تصم الآذان من حصون الشاطئ وأصوات الموسيقى العسكرية التي تعزفها فرق فوق كل سفينة، في جولة للتفتيش وجمع الضرائب في جزر بحر إيجة. في العام 1583، شاهد أول سفير إنجليزي، هو وليام هاربورن William Harborne، مغادرة القبطان باشــا «متجها إلى البحر بستة وثلاثين قادســا مزيّنة بطلاء ذهبي ورسوم وممتلئة بالأعلام المربعة والمثلثة»[4]. لم تكن هذه المراســم تقل فخامة عن مراسم «زفاف البحر» التي كانت تقام في البندقية في الثامن من مايو والتي كانوا يجدفون فيها بسفينة الدوج المُذَهّبة بوســنتارو Bucentauro تتبعها مئات الســفن الأصغر لإلقــاء خاتم زواج في البحر الأدرياتيكي. يكشــف تشــابه التاريخ والهدف والأبهة عن تأثير البندقية الذي تخلل معظم جوانب الحياة البحرية في القسطنطينية.

كانت الســفن التجارية ترســو إلى اليمين من مقر الأسطول على طول الأرصفة وحواجــز المــاء في غَلَطَة وإمينونــو Eminonu قبالة القصر وتحته. يســمح عمق الميناء الشــديد لأكبر الســفن بأن تفرغ حمولتها على الشــاطئ مباشرة باســتخدام ألواح خشبية، وقد كانت جودة الميناء أحد الأسباب التي دفعت الاستيطان اليوناني الأول للموقع. بعد أن ترســو السفينة، كان قائدها يقدم بيانا بحمولته إلى موظفي الجمارك العثمانيين الذين كانوا بعد ذلك يتحققون من السلع بأنفسهم. كان جنود

الانكشارية يظلون على ظهر السفينة حتى تدفع رسما جمركيا من ثلاثة إلى خمسة بالمائة. وبعد أن يقدم قائد السـفينة إيصالا بالسداد، كان يمكن إفراغ السلع. كانت خانات غَلَطَة وإمينونو وأسواقهما مركز الحياة للميناء، حيث كان التجار والحمّالون والبحارة يأتون إليهما يوميا بحثا عن الشراب والعمل. وفي الشـتاء، حين كانت سفن الأسطول العثماني المائة وعشرين أو نحوها ترسو في الحوض الجاف في الترسانة، كان سلوك المشرقيين في خانات غَلَطَة يغدو مثالا للفسوق.

كانت القسـطنطينية أكبر مدينة على البحر الأبيض المتوسط وأحد أكبر موانئه. كانت كل طرق السـفر ومعظم طرق التجـارة في الإمبراطورية العثمانية تؤدي إلى العاصمة: من بولندا عبر ولاشـيا، ومن أوروبا الوسـطى خلال بلغراد وإدرنة، ومن البندقيـة عبر البحر الأدرياتيكي إلى دوبروفنيك، وعبر طـرق البلقان الجبلية. كانت قافلة تحوي نحو ألفي بغل وبعير تأتي إلى أوسكودار مرة واحدة في الشهر على الأقل، من بلاد فارس ومن ميناء البصرة الكبير على رأس الخليج العربي ومن سورية. وبحرا، كانت القسـطنطينية مقصدا لطرق التجارة من مرسـيليا والبندقية والإسـكندرية والقرم. كان البحر الأسود للإمبراطورية العثمانية مثل أمريكا الجنوبية للإسبان. فبين العامين 1592 و1774، كانت تجارته مقصورة على الرعايا العثمانيين[5].

كانت الأيديولوجيا الإمبريالية وكذلك المصلحة الشـخصية تؤيدان التجارة. من ذلك النصيحة التالية التي قدمها أحد باشوات القرن الخامس عشر إلى السلطان:

> انظر بعين العطف إلى التجار على الأرض، واهتم بهم دائما، ولا تدع أحدا يضايقهـم أو يتحكم فيهـم، فمن خلال تجارتهم تزدهـر الأرض، وعن طريق سـلعهم تنخفض الأسـعار في العالم، ومن خلالهم تنتقل سيرة السلطان الطيبة إلى الأراضي المحيطة، وعن طريقهم تنمو الثروة على الأرض.

وإبان القرن السـادس عشر، دخلت الإمبراطورية في حروب مع بلاد فارس على السيطرة على تجارة الحرير، ومع البرتغال على السيطرة على طرق التوابل من جزر الهند الشرقية إلى أوروبا، وأدارت أسطولا تجاريا حكوميا[6].

ومـن أجل تقوية الإمبراطوريـة، أراد العثمانيون أن تتوافـر كل المنتجات وكل الأعراق في القسـطنطينية. كتب أحد تجار القماش والحرير الفلورنسيين من غَلَطَة في العـام 1502 عن بايزيد الثـاني يقول: «يمنحنا السـلطان كل العطف ويريد منا

أن نمــارس أعمالنا في بلاده». كذلك كان القصر أفضل زبون للتجار على ســلع الترف الأجنبيــة. كما ســاعد وجود التجار الأجانــب القســطنطينية في الاحتفاظ بطابعها كمدينــة عالمية. ومكّنــت معاهدات التجــارة الحرة المعروفة باســم «الامتيازات» التجار الأجانب من العيش في القسطنطينية والمدن العثمانية الأخرى تحت سلطان ســفرائهم وحمايتهم. منح السلطان امتيازات للبندقية في العام 1454، ثم لفرنسا في العــام 1569، ثم لإنجلترا في العام 1581، ثم لهولندا في العام 1612. وحصلت عليها فلورنسا وجمهورية دوبروفنيك قبل سقوط المدينة(*)، وحصلت عليها الإمبراطورية الرومانية المقدسة وروسيا والســويد إبان القرن السابع عشر، والدنمارك إبان القرن الثامن عشر.

كانت التجارة أحد الأسباب الرئيسة لإرسال السفارات الكثيرة إلى القسطنطينية. فبالنســبة إلى البنادقة كان «الواجب الأساسي لســفير القسطنطينية هو الدفاع عن تجــارة الأمة». وعلى الرغم من أن الحكومتين الإنجليزيــة والعثمانية كانتا تكرهان إسبانيا، فقد اجتمع ثلاثتهم على حب التجارة، ما أدى إلى إقامة علاقات ديبلوماسية بينهــم. وفي ذلك كتب مراد الثالث إلى إليزابيث الأولى في الســابع من مارس 1579 ما يلي:

> كــما يأتي الناس من بلاد فرنســا والبندقية وبولنــدا - المخلصة حقا لبابنا العالي - ويمارسون التجارة، كذلك يمكن أن يأتي أيضا التجار من مقاطعة إنجلترا ويذهبون (و) لن يعترضهم أحد في أثناء قدومهم أو رحيلهم أو تنقلهم بغرض التجارة في ممتلكاتنا المحروسة.

كان أول ســفير إنجليزي إلى القســطنطينية - وليام هاربــورن - تاجرا أيضا، يستورد الرصاص والقصدير والقماش إلى القسطنطينية ويصدر منها خمر الممزي والكشــمش. حتى القرن التاسع عشر، ظلت شركة المشرق التي ساعد في إنشائها، تدفــع راتب الســفير، وليس الحكومــة البريطانية. وبحلول العــام 1640 كانت هناك خمس وعــشرون شركة إنجليزية في القســطنطينية تعمل بالدرجة الأولى في القماش[7].

(*) جمهورية دوبروفنيك أو راغوزا جمهورية بحرية مستقلة في دالمسيا شهدت أوجها تحت الحماية العثمانية إلى أن احتلها نابليون في العام 1808. [المترجم].

وعلى أي حال، فإن فرنسا التي كانت في حلف سياسي مع الإمبراطورية العثمانية منذ العام 1535، كانت الشريك التجاري الغربي الأساسي للإمبراطورية، وليس إنجلترا. كان من المعتقد أن «تجارة المشرق» الفرنسية (أي التجارة مع الإمبراطورية العثمانية) التي كانت تخضع لسيطرة غرفة التجارة بمرسيليا، تشكل نصف كل التجارة البحرية الفرنسية في أوائل القرن السابع عشر. كانت التجارة الفرنسية إبان القرن الثامن عشر أحد العوامل التي أسهمت في نفوذ فرنسا في العاصمة العثمانية. وفي العام 1789 كانت الإمبراطورية العثمانية تأتي في المرتبة الثالثة بين أسواق فرنسا بعد إسبانيا وأمريكا، وكانت فرنسا تسيطر على نحو نصف كل التجارة الأوروبية مع الإمبراطورية. كانت القسطنطينية تستورد القماش والورق والجلد والزجاج من فرنسا، وتصدر إليها الصوف الخام والجلود والحرير وسلع الترف مثل الكافيار والشمع الأصفر الممتاز ووبر الماعز المعالج الذي كان يصبح بعد ذلك باروكات على رؤوس أوروبا. ثمة منتجان من المدينة كانت لهما مكانة خاصة: الشغرين (جلد القرش المدبوغ الذي كانت صلابته مطلوبة لمقابض السيوف وأغلفة الكتب) والورق المجزع المسمى «ورق تركيا» الذي كان يلصق داخل ألواح الكتب[8].

في العصر الذهبي للإمبراطورية إبان القرن السادس عشر، كان طريق التجارة يسير سلسا، كما يدلل الارتفاع المفاجئ لعدد سكان القسطنطينية من ثمانين ألفا إلى أربعمائة ألف بين العامين 1477 و1530. كتب سفير البندقية في العام 1523: «لا أعرف دولة أسعد من هذه، لقد وهبها الله كل نعمه. فهي تسيطر على الحرب والسلام مع الجميع، كما أنها غنية بالذهب والبشر والسفن وطاعة الرعايا للحكام، إنها باختصار لا تضاهيها دولة أخرى». لكن إبان القرن السابع عشر، ولأسباب كثيرة، ضعفت الإمبراطورية وتحولت شروط التبادل التجاري في غير مصلحتها. وبدأ التجار الأجانب في القسطنطينية يخضعون لجزية تسمى الأواني avanies (تعني حرفيا «إهانات») تجمعها الحكومة العثمانية في مقابل تجديد الامتيازات (التي يفترض نظريا أن كل سلطان جديد يجب أن يجددها)، أو لأغراض زيادة الدخل فقط. وكان الاستياء العثماني من الفساد المنظم الذي مارسه التجار والسفراء الأجانب، سببا آخر لهذه العقوبات.

كانت الحكومة العثمانية تسك بضع عملات معدنية ذهبية. وبعد العام 1584 أخـذت الحكومة تخفض قيمة الأقجة الفضية والقـرش النحاسي العثمانيين - من حيـث الـوزن والقيمة - اللذين كانـا يُزيّنان دائما بطغراء السـلطان الحاكم وختم قبيلة قايي Kayi التركية. ونتيجة لذلك، وعلى الرغم من التحريم الحكومي المتكرر، كان العثمانيـون عادة يفضلـون أن يسـتخدموا العملات المعدنيـة الأجنبية على عملاتهـم في الصفقات التجارية. كانت القسـطنطينية منفتحة تماما أمام التجارة الخارجية حتى إن العملات المعدنية البندقية والهولندية والنمسـاوية والإسـبانية والبولنديـة كانت تسـتخدم فيهـا. وبعد العـام 1650، انتشرت دور سرية لسـك العملة في أفينيون وأورانج(*) ومونتـي كارلو وليفورنو، كانت متخصصة في تزييف العمـلات المعدنية الأوروبية بتقليل محتوى المعدن النفيس فيها بنسـبة ثلاثين أو أربعين بالمائة، لاسـتخدامها في الإمبراطورية العثمانيـة. وبهذه الطريقة كان التجار الأجانب يسـتطيعون أن يحققوا أرباحا تصل إلى سـتمائة بالمائة. كان الفرنسـيون والهولنديـون مـن مزيفـي العملة الدائمـين. كتب تاجـر فرنسي يدعى شـيفالير شـاردين the Chevalier Chardin عـن الأتراك: «إنهم بطبيعتهم أناس بسـطاء وبلهاء، يسـتطيع المرء أن يخدعهم بسـهولة. لذلك يلعب المسيحيون عليهم عددا لا يحـصى من الحيل الخبيثة ويغشـونهم، لكن ما إن تخدعهـم مرة واحدة، حتى يفتحوا أعينهم، ثم يضربون بقسـوة وينتقمون لـكل شيء في مرة واحدة». ونتيجة ليأسها، بدأت الحكومة العثمانية نفسها في نهاية القرن السابع عشر تزيف العملات المعدنية الأجنبية[9].

كان النظام الذي حافظت عليه الحكومة العثمانية في المدينة يشجع التجارة فيهـا. فمعظم التجار الأجانب كانوا يعيشـون في أمان في غَلَطَة أو في تل يغطيه الكرم فوقها مميّز بهوائه الجيد يسـمى بـيرا (كلمة يونانية تعني «ما وراء»، أي «ما وراء» القرن الذهبي). ومن أجل تجنب عداوة الأهالي، كان التجار الغربيون عادة يرتدون لباسا عثمانيا ويطلقون لحاهم، ويقال إن الهولنديين والإنجليز كانوا

(*) إمـارة أورانـج Orange إمارة في منطقة بروفنس الواقعة بجنوب فرنسـا الحالية، كانت مقر آل أورانج الذين تزعموا حرب التحرير الهولندية ضد إسـبانيا الهابسـبرغية بقيـادة وليام الأورانجي الذي حكم إنجلترا باسـم وليام الثالث. [المترجم].

يمرون في هيئة الأتراك، لكن الفرنسـيين كانوا دائما ما يكشفون عن أنفسهم. بيد أنه بحلول القرن السـابع عشر، غدت الملابس الغربية مألوفة. ولم يواجه الرحالة الفرنسي جان ثيفـنو الذي اسـتأجر بيتـا في بيرا في العـام 1650، أي مشـكلات في التجـول خـلال المدينة، وهو مـا أثار ذهـول سـفير بلاده. لكن في القسطنطينية نفسـها، كان بعض الأطفال يرمونه ببـذر التفـاح، فكان «بعض التجار يخرجون مـن دكاكينهـم ويركضـون وراءهـم ويصرفونهم». يبـدو أن التجارة وحّدت ما فرقته الأديان.

مقارنة بمدينتي لندن وباريس المشـاغبتين اللتين كانت السرقة وأعمال الشغب شـائعة فيهما، كانت القسطنطينية مطيعة للقانون نسـبيا. وثمة اعتقاد بأن النظام الجيـد كان يرتبط مباشرة بالخوف الذي كان السـلطان يبثه في نفوس الناس. يتفق مع ذلك بعد قرن رحالة إيرلندي يدعى لورد تشارلمونت:

> أعتقـد أنه لا توجد في أوروبا مدينـة الشرطة فيها منظمة جيدا كما هي الحال في القسـطنطينية، فجرائم اقتحام البيوت والسرقة في الشوارع المنتشرة للأسـف في مدننا الكبيرة وتجعـل الإقامة فيها بغيضة وخطـرة(*)، لا تحدث مطلقـا في العاصمـة التركية (على خلاف الغابات الخارجية)، ويسـتطيع المرء أن يتمشى في شـوارعها في كل سـاعات الليل أو حتى ينام فيها وجيبه مملوء بالمـال، من دون أدنى خوف أو خطر مـن المضايقات. ولا تقع هنا جرائم قتل ولا اعتداءات ولا اضطرابات، ولا يُسـمع هنا عن أعمال العنف الوحشية التي يولع بها شبابنا المتهورون سيئو التربية لإبراز أنفسهم.

كانـت هذه الحالة السـعيدة في رأيـه ناتجة عن «الصرامة المفيـدة عبر عمليات الإعدام المتكررة»[10]. وكتب زائر إنجليزي أن الناس في الشوارع كانوا «معنا أكثر تهذبا ولطفـا مما يمكن أن نعاملهم نحـن الإنجليز به». كان الأجانـب يتعرضون للتحديق فيهم، وأحيانا يرمون بالحجارة (وهو ما كان يحدث كثيرا في لندن مع الأجانب والرجال والنساء الإنجليز حسني المظهر)، لكنهم كانوا يستطيعون أن يرتادوا المطاعم الشعبية. وفي غرفـة خاصة، كانـوا يأكلون «الكابوبو cabbob وهو عبـارة عن قطع صغيرة من اللحم في حجم الجوزة تعلق في أشـياش حديدية طويلة». وإبان القرن السـابع عشر

(*) باستثناء الفترة 1920 - 1980. (المؤلف).

كانت الشـوارع قذرة وسـيئة الرصف. وفي العام 1730، كانـت «معبدة لكنها لم تكن نظيفة مثل لاهاي، ومع ذلك فإنها لم تكن في قذارة شوارع لندن»[11].

في العام 1662، أدرك المحترم دودلي نورث Hon. Dudley North الابن الأصغر للورد نورث، وهو بعد في عمر التاسـعة عشرة، تضـاؤل فرصه في وراثة ثروة، لذلك قرر الشاب الطموح والوسيم الانضمام إلى «شركة إقراض» في القسطنطينية، لأنه «لا يوجد سوق على وجه الأرض أكبر من القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية الشاسعة، التي لا يمكن أن يخطئ فيها تاجر يتمتع بالدافعية وحسن القرار الطريق إلى الثراء». أجـر نـورث بيتا في بيرا من ثري مسـلم، وتعلم اللغة العثمانيـة والقانون العثماني وجمـع ثروة طائلة مـن العمل ممولا وصائغا وتاجر «سـلع عديمة القيمة». فكان يقرض المال للباشوات بفائدة عشرين أو ثلاثين بالمائة ويوفر الجواهر للقصر. لذلك يسـتند رأيه في الفساد العثماني إلى خبرة مباشرة وصداقة جمعته بقاض مسن. كان نورث يعتبر الهدايا الصغيرة أتعابا لولاها لشعر القاضي بأنه تعرض للاحتيال: «عموما لن يقترف القاضي مظلمة صريحة من أجل أي هدية، وإذا لم يتجاهله أحد الطرفين، مهما كانت الهدايا غير متساوية، فإنه سيحكم بالحق».

عـاش الكثير من الأتـراك في عزلة عن المسـيحيين المحليين، فضـلا على التجار الأجانب الذين كانت تحيط بهم حواجز من الازدراء. تسـجل مذكرات درويش من القرن السـابع عشر وجودا مسـالما ومنظما: يميّز الدرويش الأيام بعضها عن بعض بإعطاء الصدقات والدعوات الاجتماعية وحفـلات القهوة وزيارات القبور ودكاكين الحلاقـين، وكان يحب زوجته، ولم يرد ذكر أحد من غير المسـلمين. مقارنة بمعاصره بيبس(*)، كان هذا الدرويش قانعا وراضيا [12].

على الجانب الآخـر، وخارج العالم المغلق للأتقياء، جذبت المشروبات الكحولية والربح الأتراك إلى بيوت الأجانب وحاناتهم. فتح دودلي نورث بيته لأصدقائه الأتراك، ومن بينهم كبير موظفي الجمارك الذي كان بدوره يسـتضيف دودلي في بيته. وكان دودلي يـرد على محاولات أصدقائه بأن يعتنق الإسـلام بالقول إنه «تربى على شرب

(*) صامويل بيبس Samuel Pepys (من 23 فبراير 1633 إلى 26 مايو 1703) موظف إداري في الأسطول الإنجليزي وعضو برلمان، اشتهر بيومياته التي كتبها على مدار عقد في شبابه والتي تكشف عن تفاصيل الحياة اليومية والأحداث الكبرى في أيامه، ترقى من خلال الرعاية وعمله الدؤوب إلى منصب السكرتير الأول لإمارة البحر في عهد تشارلز الثاني، رغم عدم خبرته في البحرية. [المترجم].

الخمر وأكل لحم الخنزير». وفي العام 1680 قرر أن يغادر القسطنطينية، لكن أغنى كثيرا مما جاءها. لم يصدق أصدقاؤه أنفسهم. «لماذا يا كافر هل أنت مجنون؟ هل ضاع عقلك تماما حتى تترك هذا المكان؟»، وفي لندن أصبح دودلي المدافع عن حرية التجارة والمَلكية القوية، مفوضا للخزانة وعضوا في البرلمان، ومات في العام 1691[13].

على الرغم من أن التجار الأجانب كانوا يحققون أرباحا كبيرة، فإن التجارة الخارجية لم تكن لها الغلبة على الاقتصاد العثماني. فحتى القرن التاسع عشر كانت الإمبراطورية العثمانية عالما اقتصاديا مصغرا، وكان المسلمون هم التجار الأنشط فيه. فثمانية ونصف بالمائة فقط من مجموع السفن التي غادرت القسطنطينية إبان القرن الثامن عشر ذهبت إلى أوروبا، وذهب البقية كلها إلى موانئ داخل الإمبراطورية العثمانية. ومن مجموع تراخيص السفن بالمدينة إبان القرن الثامن عشر، كان واحد وسبعون ونصف بالمائة منها لسفن إسلامية (سبعة أثمانهم سفن تركية والبقية سفن عربية) وأربعة وعشرون ونصف بالمائة مسيحية وثلاثة ونصف بالمائة يهودية[14]. وكان الأتراك يسيطرون على أهم تجارة في المدينة وهي الطعام.

كانت مهمة إشباع جوع أهل القسطنطينية وإرواء ظمئهم تشغل السلاطين والصدور العظماء بدرجة أكبر من حماية طريق الحج إلى مكة. أوصل سليمان إمداد المياه للمدينة إلى قمة كفاءته، حين أمر مهندسه المعماري سنان بأن يعيد بناء القنوات وأبراج الماء البيزنطية القديمة في العامين 1563 و1564. وفي الغابات والوديان الواقعة إلى الشمال من المدينة، فاق مُجمّع السدود وخزانات الماء والقنوات التي شيّدها السلاطين المتعاقبون ما بناه أسلافهم البيزنطيون في الحجم والفائدة والأناقة. وكما فعل الأباطرة الرومان، زود السلاطين العثمانيون عاصمتهم أيضا بالطعام الرخيص، إذ تحتوي الوثائق كثيرا عبارات مثل «يعد توفير الحبوب أحد الاعتبارات الأساسية لحكومتي الإمبراطورية». تكشف كلمات قانون للأسعار من العام 1676 عن السبب وراء حرص الحكومة العثمانية على تنظيم الأسعار:

> سيطبق موظفو الدولة بأنفسهم عمليات تثبيت الحد الأقصى للأسعار، وسيحرصون دائما على أن يتابعوا بأنفسهم ظروف حياة السكان، ذلك أن تطبيق الحد الأقصى للأسعار يشكل أحد العناصر في هدوء الناس، لذلك يلزم تنظيم شؤون الناس والأسواق.

لم يكن بمقدور الحكومة أن تطمئن إلى «هدوء الناس»، لذلك كان الصدر الأعظم يقوم بنفسه كل يوم أربعاء بالتفتيش على أسواق المدينة. وإبان القرن التاسع عشر شاهد ديبلوماسي إنجليزي شاب مسؤولا حكوميا يقوم بمعايرة موازين التجار يرافقه رتلان من الانكشـارية يحملون صولجانات بيضاء. اكتشـف المسؤول تاجرا موازينه خفيفـة، فأخذه أحد جنود الانكشـارية ليلقى عقابه. وثمة مذنبـون آخرون كانوا يساقون خلال المدينة معلقة برقابهم ألواح خشبية تتدلى منها أجراس مصلصلة[15].

على طول شاطئي القرن الذهبي أقيمت مخازن للحوم والحبوب والأطعمة الأخرى المشـحونة إلى العاصمة. كان السمك يباع على أرصفة الميناء بغَلَطَة فيما أسماه الرحالة الفرنسي جان ثيفنو «أفضل سـوق للسـمك في العالم». كان الباعة جميعهم تقريبا من الأتـراك وكانوا يقفون متراصين حول الميدان أمامهم أكوام من السـمك على حصر على الأرض أو على طاولات طويلة يلتف حولها المشـترون ويسـاومون على الأسعار، بينما تعـوي الكلاب حولهم. كان سـمك البوري يصطاد من البسـفور، وأحيانا من صناديق نصبـت فوق ركائز خشـبية. وكان المحـار يأتي من بحر مرمرة، والإسـقمري من البحر الأسود. وكان لسمك السيف والسردين وسمك التن المملح محبون أيضا(*).

وعلى الجانب الجنوبي للقرن الذهبي، وبجانب جامع السلطانة الوالدة الجديد Yeni Valide Cami، كان يوجـد بـازار التوابل، وهو عبـارة عن بناية طويلة على شـكل حرف تي T، كان يتميّز برائحة الثوم والفلفل والزعفران واللبان، وكان يدفع إيجـارا للجامع الذي أقيم في جواره. كان هذا السـوق يسـمى أيضا البازار المصري لأن معظـم التوابل والعطور كانـت تأتيه من مصر مع حمولة مـن الأرز والقهوة والعدس والبخور والحناء في «قافلة القاهرة السـنوية» المكوّنة من عشر سـفن أو يزيد(**). كان تنظيم هذه القافلة إحدى المهام الأساسـية لوالي مصر، وكان وصولها إلى القسـطنطينية لا يقـل أهمية عن الوصول السـنوي «للأسـطول الأطلسي» من أمريكا إلى إشبيلية[16](***).

(*) كان صيادو السـمك في البسـفور يتمتعون بمهارة فائقة، حتى إن وزير البحرية الفرنسي كلّف الرسـام جان - باتيسـت فانمور Jean - Baptiste Vanmour في العام 1713 برسم اثنتي عشرة لوحة تصور طرقهم في الصيد، كجزء من برنامج لإنعاش الصيد الفرنسي. [المؤلف].

(**) راجع حاشية سابقة للمترجم حول البازار المصري والسبب وراء اسمه. [المترجم].

(***) أسـطول الأطلسي الإسباني أو «الإبحار الهندي» هو الأسـطول الذي كان يأتي من العالم الجديد إلى إشبيلية بحمولة المعادن النفيسة مرة واحدة في العام. [المترجم].

وفيــما كانت مصر توفر التوابــل، كانت اللحوم تــأتي إلى المدينة من الأناضول والبلقان. وكانت الإمدادات يضمنها نظام معقد يقوم على تحديد حصص للمزارعين الريفيين المســجلين، وإرسال موظفين يعرفون باسم الجلابين celebs لشرائها بأسعار منخفضة محددة رســميا، وفحــص الأعداد لدى وصولهــا إلى المدينة. وبين العامين 1544 و1829، كان أمراء ولاشيا ومولدافيا ملزمين بإرسال مائة ألف رأس من الخراف (وأكثر من ذلك في أغلب الأحيان) ســنويا إلى القســطنطينية. ولاحقا، انسل النظام من يدي الدولة إلى أيدي «تجار القسطنطينية وأثريائها». كتب مؤرخ القرن السابع عشر مصطفى نعيمة أنهم «اعتادوا تقديم مبالغ مالية إلى كل أمير جديد من أمراء ولاشيا ومولدافيا شريطة أن يجمعوا من الفلاحين الأصناف المذكورة أعلاه»[17].

كان الاســتهلاك الســنوي للخراف من جانب القصر (وهو ما قد يشمل الثمانين أو المائــة ألف موظف حكومي الذين كانــوا يقيمون دائما في العاصمة) ضخما. بلغ هذا الاستهلاك في 1490/1489 إجمالي 16,379 من الضأن، وهو الرقم الذي ارتفع في 1574/1573 إلى 38,226 ضأنا، وفي 1670/1669 إلى 99,120 ضأنا، وفي 1762/1761 مشــتملا استهلاك الانكشــارية إلى 211,116 ضأنا، وفي 1804/1803 ارتفع إلى 336 ألف ضأن. كانت معدة مواطني القســطنطينية مميّزة عن غيرهم من البشر لدرجة أنه في إحدى المناسبات في العام 1577 منع ذبح الضأن والحملان تماما في البلقان، إذ حُجزت للعاصمة، وتُرك للقرويين أكل لحم الماعز والأبقار.

كان عيــد الخِــضر، وهو اليوم الذي يبحر فيه القبطان باشــا، يــوم عيد للجزارين أيضا، إذ كان يسمح لهم بالبدء في ذبح الحملان (كانت معظم مجازر الحيوانات توجد بالقرب من مجازر البشر الواقعة في قلعة الأبراج السبعة). ونتيجة للإصرار الذي ألمحنا إليه آنفا على توفير لحوم رخيصة للمدينة، فقد كانت هوامش ربح الجزارين منخفضة وكانــوا يتعرضون كثيرا للإفلاس. ومع نهاية القرن الســادس عشر، كان الوجهاء الأغنياء من الأناضــول أو البلقان يُجبرون على العمل كجزارين في القســطنطينية، وكانوا عادة يحصلون على وظائف حكومية لتجنب هذا المصير. كان الضحية من هؤلاء يؤخذ تحت حراســة مســلحة إلى العاصمة بعد أن يُرغم على بيع ممتلكاته لضمان أن يتوافر معه المال الكافي للاســتثمار في الجــزارة. كان تردده ينتج جزئيا عن أخطــار العناية بمهنتهم الجديدة. وفي العقد السادس من القرن السابع عشر، كان محمد الرابع يجوب الأسواق متخفيا يتبعه الجلادون على مسافة بعيدة. كتب ثيفنو: «كان أحيانا يذهب إلى المخابز

ويشتري خبزا، وأحيانا يذهب إلى الجزار ويشتري لحما، وفي أحد الأيام عرض عليه جزار سعرا للحم أعلى من السعر الذي حدده هو، فأومأ السلطان بإشارة إلى الجلاد الذي قطع رأس الجزار في الحال»[18].

لم تكن اللحوم الجزية الوحيدة التي تُنتزع من ولاشيا ومولدافيا، إذ كانتا تمدان القسطنطينية بالعسل والجبن وجلود الثيران والشحم للشموع والقمح والشعير للإسطبلات الإمبراطورية. بينما كان الزبد والملح يأتيان من القرم، والسكر من قبرص، والصابون من سورية. وكانت الفواكه الطازجة والدواجن تُنتج في «بستان الإمبراطورية العثمانية»، وهو المنطقة التي تمتد شرقا على طول ساحل البحر الأسود. وكان الزبيب واللوز والتين وشمع النحل تأتي من منطقة غرب الأناضول حول ميناء إزمير الكبير. بحلول العام 1650، وبفضل موقعها الجغرافي وتحررها النسبي من التدخل الحكومي، بدأت إزمير التي كانت توصف بأنها «لؤلؤة المشرق» في منافسة القسطنطينية نفسها كعاصمة تجارية، وظلت على هذا النحو حتى العام 1922[19].

وبحلول العام 1700، كانت القسطنطينية تستهلك زهاء أربعة ملايين ضأن وثلاثة ملايين حَمل ومائتي ألف بقرة في السنة، وخمسمائة طن من القمح في اليوم. وفي الشتاء، كانت الحكومة توفر لأفران المدينة مائة وثلاثة وثلاثين احتياطيا لثلاثة أشهر من إمدادات القمح لضمان رخص أسعار الخبز. وحظرت الحكومة كذلك تصدير القهوة والأرز من المدينة «حتى تسود الوفرة في القسطنطينية». وقد ساعدت السياسة الحكومية ونظام إطعام الفقراء من خلال المساجد في جعل القسطنطينية إحدى أفضل المدن في أوروبا من حيث وفرة الغذاء للناس. كتب لورد بالتيمور Lord Baltimore في العام 1763 أن: «الإمدادات دائما وفيرة جدا ورخيصة جدا وجيدة جدا»[20]. فالندرة والمجاعات التي شهدتها فرنسا وإيرلندا وبوهيميا وأعمال الشغب من أجل الطعام التي غيرت مسار التاريخ في باريس في العام 1789(*) وفي بيتروغراد في 1917(**)، لم تعرفها العاصمة العثمانية تقريبا.

وكما كانت الحال مع أنواع التجارة الأخرى، كانت تجارة الطعام تدار عن طريق نظام الطوائف الحرفية، الذي ربما ترجع جذوره إلى النقابات البيزنطية. وبحلول

(*) يقصد المؤلف الثورة الفرنسية التي كان على رأس الأسباب المباشرة لاندلاعها انهيار الاقتصاد بسبب الحروب وسوء الحصاد وارتفاع أسعار الغذاء وسوء نظام النقل الذي أدى إلى زيادة الغلاء. [المترجم].

(**) بيتروغراد Petrograd كان اسم مدينة سانت بطرسبرغ التي كانت عاصمة روسيا حين انطلقت الثورة الشيوعية منها باقتحام البلشفيين بقيادة فلاديمير لينين القصر الشتوي للقيصر في حادثة عرفت باسم ثورة أكتوبر. [المترجم].

منتصف القرن السابع عشر، كما يذكر أوليا جلبي، كانت هناك ألف ومائة طائفة حرفية منظمة ضمن سبع وخمسين مجموعة. لم يقتصر تكوين الطوائف الحرفية على الجزارين والخبازين وصناع القفاطين فقط، بل كانت للصوص والمومسات طوائف خاصة بهم أيضا. كانت هذه الطوائف الشكل الأساسي للهوية الجمعية في المدينة خارج الوظائف الحكومية. نظمت الطوائف دخول الأعضاء الجدد إلى الحرفة، وكانت لها ماليتها الخاصة ووفرت شكلا من الضمان الاجتماعي للمرضى ومصدرا للقروض للأعضاء الراغبين في توسيع أعمالهم. وكانت الطوائف الحرفية تشرف على تنظيم اجتماعات الصلاة في أيوب وعلى توزيع الطعام على الفقراء وعلى المهرجانات خارج أسوار المدينة التي كانت تقام أيضا كشكل من المعارض التجارية[21]. وكانت العائلة الحاكمة تضمن السيطرة على الحياة الاقتصادية للمدينة من خلال تعيين مسؤول من العائلة الإمبراطورية على رأس كل حرفة في المدينة، فوضع الصاغة تحت رئاسة القيومجي باشي kuyumcubasi أو رئيس الصياغ الإمبراطوري، ووضع الأطباء تحت رئاسة الحكيم باشي hekimbasi أو رئيس الأطباء الإمبراطوري، ووضع الخياطون تحت رئاسة الترزي باشي terzibasi أو رئيس الخياطين الإمبراطوري.

كان اليونانيون يلون المسلمين مباشرة في العمل بالتجارة، وكانوا التجار الأساسيين في القسطنطينية. وقد أعطتهم منطقة التجارة الحرة الشاسعة للإمبراطورية العثمانية وحروبها المتكررة مع المنافس الاقتصادي القديم لليونانيين - البندقية - مكانة تجارية أقوى من تلك التي تمتعوا بها في القرون الأخيرة للإمبراطورية البيزنطية. وفي العام 1476 منحت عقود إيجار لأرصفة ميناء غاليبولي وغَلَطَة لائتلاف يوناني شمل اثنين من أفراد عائلة باليولوجوس من أقارب الإمبراطور البيزنطي الأخير. قدم هذا الائتلاف عطاء أكبر من منافسيهم المسلمين، إذ عرضوا المبلغ الهائل أربعمائة وخمسين ألف دوقية. وفي العام 1477، اشترى يونانيان الحق في إدارة الرسوم الجمركية على استيراد القمح للمدينة بمليون أقجة[22]. فكان النجاح في التجارة بديلا لهؤلاء عن حكم إمبراطورية.

تصوِّر حياة ميخائيل كانتاكوزينوس Michael Cantacuzenos المكافآت والأخطار التي كانت تنتظر التاجر اليوناني في القسطنطينية. ولد ميخائيل في نحو

العام 1515، وكان حلقة الاتصال البشرية بين العاصمتين البيزنطية والعثمانية. تحدر ميخائيل من الإمبراطور جون كانتاكوزينوس الذي دعا العثمانيين إبان القرن الرابع عشر إلى أوروبا وزوّج ابنته ثيودورا من أورخان Orhan ثاني السلاطين العثمانيين. مات أحد أفراد عائلة كانتاكوزينوس، كان يحمل لقب رئيس العائلة. في أثناء حصار العام 1453 وصفه ميخائيل كانتاكوزينوس بأنه «شرف اليونانيين في كلامه وأفعاله»، ومن المؤكد أن ابنه مات بسبب الطاعون في الخامس والعشرين من يونيو 1522 ودُفن في كنيسة القديسة باراشيفا في هاسكوي. كانت هذه العائلة أبرز عائلة يونانية في المدينة. نشر أحد أقاربه، هو ثيودور كانتاكوزينوس سباندوغينو Theodore Cantacuzenos Spandugino، في العام 1515 واحدة من الروايات المبكرة للإمبراطورية العثمانية التي يعتمد عليها الكتاب الحالي.

جمع ابن ميخائيل كانتاكوزينوس الذي يسمى ميخائيل هو الآخر، بين العمل تاجر فراء للسلطان وملتزم جمارك، وبين كونه القوة الحامية للعرش البطريركي والصديق الحميم للصدر الأعظم صوكولو. أقام في القسطنطينية وفي قصر على البحر الأسود، وكانت تخدمه بطانة من الخدم والعبيد والغلمان خدمة الملوك. وفي القسطنطينية، ووفقا للسجين الألماني جيرلاتش Gerlach، كان ميخائيل «يتنقّل في المدينة كرجل عجوز بشوش على ظهر حصان مدثر بالمخمل الأسود، يتقدمه ستة رجال، ويسير وراءه رجل آخر متواضع الثياب». وكما كانت الحال مع اليونانيين الفناريين الذين سنناقشهم في الفصل التالي(*)، جمع ميخائيل بين الفخر بالإمبراطورية البيزنطية وبخدمة العثمانيين، فكان يختم رسائله بالنسر ذي الرأسين الذي كان شعار الإمبراطورية البيزنطية، لكنه أيضا بنى عشرين قادسا على نفقته الخاصة للأسطول العثماني بعد هزيمته أمام أسطول الحلف المقدس المكوّن من البندقية وإسبانيا والبابوية في ليبانتو في العام 1571.

أكسبه جشعه اسم «ابن الشيطان» Seytanoglu بين الأتراك، بينما عده اليونانيون تطفليا ولصا. وقد فرح الجميع عندما أمر السلطان في الثالث من مارس 1578 بشنقه على مدخل قَصْره الريفي دون إمهاله لكي يتوب بين يدي كاهن أو

(*) الفناريون Phanariot نسبة إلى حي الفنار وهو الحي اليوناني الرئيس في القسطنطينية الذي توجد فيه البطريركية المسكونية. [المترجم].

يكتب وصية. ورط ميخائيل نفسه في اثنتين من شبكات المكائد: النزاع بين الإمارات التابعة للعثمانيين مولدافيا وولاشـيا والقرم التي تورط فيها شـخصيا؛ لأن أخاه كان قد تزوج ابنة أمير ولاشـيا، وفي القسطنطينية نفسها في صراع سري على السلطة بين السلطان مراد الثالث والصدر الأعظم صوكولو. صُعق صوكولو بموته، لكنه تمكن من حماية ابنه وأرملته.

عند بيع ممتلكات كانتاكوزينوس خارج جدران القصر، كان المشـترون يختارون من «عـدد لا يحصى من الملابس الحريريـة والمخملية والأقمشـة المطرزة، بعضها يحتوي على أزرار ذهبية تؤطر أحجارا من الياقوت والفيروز، وفراء السـمور الرائع، وخيول فخمة، احتفظ السـلطان بعشرين منها لنفسـه. ودخلت العبارة «اشتريته من مزاد كانتاكوزينـوس» المفردات المتداولة للمدينة. وتسـابقت جامعة توبنغن والأديرة الأرثوذكسـية الغنية بجبل أثوس عـلى اقتناء مخطوطاته اليونانية. غادرت عائلة كونتاكوزينوس القسـطنطينية إلى ولاشيا في أوائل القرن السابع عشر، وصارت حلقة الاتصـال الأولى بين اليونانيين العثمانيين وإمارات حوض الدانوب التي بلغت أوجها إبان القرن الثامن عشر[23].

تحت أمراء التجارة من نوع كونتاكوزينوس، كان يوجد آلاف التجار اليونانيين وأصحاب الدكاكين والحانات والنوتية. كان اليونانيون متلهفين إلى التجارة لدرجة أنهم واصلوا العمل في القسطنطينية حتى بعد أن طرد الطاعون التجار الآخرين إلى الريـف. وكانت الطوائـف الخاضعة لهيمنة اليونانيين تشـارك - مع مجمع الاثني عشر أسـقفا ووجهاء المدينـة - في انتخاب البطريرك حتى منتصف القرن التاسـع عشر. كانت تجارة الفـراء، التي كانت مهمة لأبهـة القصر وصعود ابن الشيطان، تنظمها طائفة قوية، كانت تدفع نفقات صيانة المدارس والمستشفيات في العاصمة وكنيسـة المهـد، فقد كانـت القسطنطينيـة تقـدم العـون المـالي إلى القدس ومكة[24].

ثمـة مزيج مـن التوتر والتسـامح ميّز العلاقـات الاقتصادية بين المسـلمين والمسيحيين واليهود في المدينة، تماما كما ميّز العلاقات الدينية بينهم. في فيلنيوس Vinla بليتوانيا قبل القرن العشرين، ونظرا إلى أن الأعراق المختلفة كانت تحتكر حرفا ومهنا مختلفة، كانت اللغة اليديشية تستخدم لمخاطبة الحوذي، والبولندية

لمخاطبة معلم المدرسة، والألمانية لمخاطبة طبيب الأسنان، والليتوانية لمخاطبة الجارية. بيد أن مثل هذا التخصص لم يكن ضروريا في القسطنطينية، إذ لم تكن هناك حرفة واحدة، حتى حرفة بناء المساجد، حكرا على جماعة بعينها. فمن بين الثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وعشرين حرفيا الذين عملوا في الجامع السليماني في العقد السادس من القرن السادس عشر، كان 51 بالمائة من المسيحيين. ومن بين الثلاثمائة وواحد وثلاثين جزارا بالقسطنطينية في العام 1681، كان هناك مائتان وخمسة عشر من المسلمين، وسبعون من المسيحيين، وستة وأربعون من اليهود. ومن بين ثمانية وعشرين جراحا كانوا يحملون رخصة مزاولة المهنة في العام 1700، كان هناك اثنا عشر من اليونانيين وثمانية من اليهود وأربعة من المسلمين واثنان من الإنجليز وواحد من الفرنسيين وواحد من الأرمن. ومع أن معظم الطوائف كانت لها رعاة روحيون مسلمون، مثل داود لصناع الأسلحة أو يونس لصيادي السمك، فإن الكثير منها كان يتألف من المسلمين وغير المسلمين على حد سواء[25].

كانت العلاقات بين المسيحيين واليهود في القسطنطينية أسوأ منها بين المسيحيين والمسلمين. ففي بعض الأحياء اليونانية، كان اليهودي إذا ظهر في الشارع في أثناء أسبوع الآلام، كان الصبية يدهنون لحيته بالقطران ويشعلون فيها النار. وكانت مواكب الجمعة الحزينة تتضمن مجسما ليهوذا مرتديا زي حبر محلي، كان الصبية يقذفونه بالأوساخ ويوجهون إليه - على نحو ما يتذكر أحد اليونانيين - «أقذع الشتائم». وكان الموكب يتوقف عند كل بيت مسيحي لكي يعطي أهل البيت الموكب مالا أو بيض الفصح، كانوا يشترون بالمال خشبا لحرق «يهوذا» ويأكلون البيض احتفالا بموته.

وفي المقابل، كان سكان المدينة المسلمون متسامحين مع اليهود أو غير مبالين بهم. وفي العام 1492، إثر سقوط غرناطة، طُرد اليهود من قشتالة، وتبعتها آراغون والبرتغال مباشرة بطردهم. ففتحت الإمبراطورية العثمانية أبوابها لليهود. وفي تعليق شهير مشكوك في صحته، قال بايزيد الثاني: لا يمكن أن يكون الملك فردناند ذكيا كما يشاع، إذا كان يطرد هذا العدد الكبير من الرعايا الماهرين لإثراء ملك منافس[26].

وبعد العام 1502، رحب العثمانيون أيضا بالعرب المطرودين من غرناطة. فبعد أن خيّرهم الملكان الكاثوليكيان(*) بين اعتناق النصرانية والهجرة، آثر الكثيرون منهم الرحيل، ليس إلى المدن العربية القريبة، وإنما إلى القسطنطينية، وفيها استولوا على كنيسة القديس بول الكاثوليكية في غَلَطَة وحولوها إلى جامع العرب(**)، وهو الاسم الذي لايزال يحمله الجامع إلى اليوم. وبعد أن تلقت غَلَطَة مزيدا من «الغرناطيين» مع اشتداد الاضطهاد للمسلمين الباقين في إسبانيا أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، أصبحت المدينة مركزا للبحارة العرب الذين كانوا يلبسون اللباس العربي وأدخلوا الحلوى والمشروبات العربية[27]. وبالنسبة إلى اليهود والعرب، ولسيل المسيحيين الذين ظلوا يغادرون أوروبا الغربية إلى الإمبراطورية العثمانية حتى القرن التاسع عشر، كانت القسطنطينية المدينة الملاذ، إذ وفرت لهم ثلاث مزايا: التسامح والازدهار والانتقام، وهذا الأخير لكونها عاصمة لإمبراطورية تدخل كثيرا في حروب مع الدول التي نبذتهم.

كان ميناء سالونيك الكبير المعروف باسم «القدس الجديدة» الذي سرعان ما أصبح اليهود الأغلبية فيه، معقل اليهودية العثمانية. ومع ذلك، فقد ضمت القسطنطينية ثمانية آلاف وسبعين بيتا يهوديا بحلول العام 1535، أي خمسة أضعاف الرقم المقابل في العام 1477. تكشف أسماء المعابد اليهودية بالمدينة مثل لشبونة وقرطبة وميسينا وأوخريد(***)، وكذلك أسماء العائلات مثل

(*) بعد أن استرد فردناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية إسبانيا بالاستيلاء على مملكة غرناطة، كرمهما البابا بلقب «الملكان الكاثوليكيان»، ولاحقا استغل الملكان ثورة أندلسية في أوائل القرن السادس نتجت عن نقضهما اتفاقية تسليم المملكة لشن حملة إبادة ضد الأندلسيين وتخييرهم بين البقاء في إسبانيا مع اعتناق المسيحية و النفي، فآثر بعضهم النفي، ودخل غالبيتهم المسيحية مكرهين تحت حد السيف، وبعد أن أصبحوا «مسيحيين جددا» أخضعتهم محاكم التفتيش لمعاملة قاسية، فكانت حرب البشرات (1568 - 1570) التي أبادت منهم ما أبادت وشتت الباقين على التراب الإسباني، وأخيرا طرد الباقون (نحو خمسمائة ألف شخص) في نهاية العقد الأول وأوائل العقد الثاني من القرن التالي. [المترجم].

(**) جامع العرب Arap Cami هو الجامع الوحيد في المدينة الذي بني على طريقة العمارة القوطية الأندلسية، سُمي بهذا الاسم لأن السلطان بايزيد الثاني خصصه للاجئين العرب «الأندلسيين» المطرودين من إسبانيا خلال عملية التهجير الجماعي التي نفذتها إسبانيا بحق بقايا المسلمين هناك في العقدين الأول والثاني من القرن السابع عشر. ثمة أسطورة عثمانية تذهب إلى أن من بنى هذا الجامع هو الأمير والقائد الأموي مسلمة بن عبدالملك في أثناء الحصار العربي الأول للقسطنطينية في العامين 717 و 718. [المترجم].

(***) أوخريد Ohrid أو Ohrida مدينة على الشاطئ الشرقي لبحيرة أوخريد بمقدونيا وعاصمة محافظة بالاسم نفسه. [المترجم].

الإشبيلي والطليطلي والليوني والتارانتي عن تنوع أصولهم. كانت القسطنطينية مدينة الهويات المزدوجة. ومع ذلك فقد حمل اليهود السيفارديم ثلاث هويات، إذ كانوا يهودا وعثمانيين و«سيفارديين» أي إسبان(*). وأضيفت لغة جديدة إلى اللغات التي كانت تُسمع في شوارع القسطنطينية، هي القشتالية (الإسبانية) المحنطة التي تسمى اللادينو (اللغة المكتوبة) أو الجوديزمو (اللغة المنطوقة).

لم يكن للغة اللادينو استخدام كبير في السياسة أو التجارة. وكان السبب الأساسي لبقائها دينيا، إذ كانت اللغة التي يقرأ بها الكتاب المقدس ويرتل في البيت وفي الكنيس. وفي القسطنطينية، وعلى الرغم من بقاء الطوائف «الرومانية» الناطقة باليونانية، كان اليهود واللغة الإسبانية مترادفين، حتى إن كثيرا من الأتراك كانوا يطلقون على اللغة الإسبانية اسم «اليهودية». وحتى العام 1869، وهو وقت متأخر فعلا، وفي أثناء زيارة الإمبراطورة أوجيني، خاطبها الحبر الأكبر بالإمبراطورية العثمانية بلغتها الأصلية: الإسبانية. وفي العام 1873، عندما افتتح أول خط حديدي بالقرب من المدينة، لم يتمكن اليهود من العمل فيه، لأنهم لم يكونوا يعرفون لغة البلد الذي كانوا يعيشون فيه لأكثر من ثلاثمائة عام[28].

ففي البيوت الغنية في المناطق اليهودية في حي بالات وحي هاسكوي على جانبي القرن الذهبي، كان اليهود يسمعون التركيتو turkito («التريكي» أي المؤذن) على الفرندا verandado (قاعة كبيرة في الطابق الأول). وفي الكونفيتات convitas (الحفلات)، كانوا يأكلون أطباق مثل البسكادو رينادو Piskado reynado (السمك بالجوز)، ويغنون رومانسيروات romanceros (أغاني) تندب نفيهم من إسبانيا. أما العائلات الأفقر، فكانت تعيش في الكورتيخو cortijo، وهو عبارة عن بناية منخفضة تحتوي على مساكن ودكاكين، قد تشترك فيها عائلتان أو ثلاث في غرفة واحدة[29](**).

(*) كلمة سيفارديم Sephardim مشتقة من الاسم العبري لإسبانيا سيفاراد Sefarad التي اعتبرها اليهود وطنهم نتيجة للتسامح الذي وجدوه فيها من جانب الممالك الإسلامية والمسيحية قبل أن تكتمل عملية «الاسترداد» ويسيطر هوس الوحدة الدينية على حكام إسبانيا. [المترجم].

(**) آثر المترجم أن يبقي على الكلمات الإسبانية مكتوبة بحروف عربية ولاتينية حتى لا يضيع المعنى، وهو تمسك اليهود بتراثهم الإسباني. [المترجم].

وفي عالم التجارة والطب، كان تطور التكافل بين اليهود والمسـلمين أشـبه بذلك الذي تبلور بين اليونانيين والأرمن. ونجح يهودي إسـباني بارز، هو موسى بن هامون Moses Hamon، الطبيـب المفضل لسـليمان القانوني، في اسـتصدار فرمان أواخر العـام 1553 أو أوائـل العـام 1554 يقضي بأن تحـال كل اتهامـات جرائم القتل الطقوسي للأطفال المسـيحيين التي تنسـب إلى اليهود إلى الديوان الإمبراطوري(*). أثـارت الاتهامات من هذا النـوع من جانب المسـيحيين في الإمبراطورية العثمانية التي ظلت تتواتر كثيرا حتى القرن العشرين، أعمال شغب من جانب اليونانيين ضد اليهود في القسطنطينية نفسها حتى العام 1874.

ثمة رمز مادي للتسـامح الإسلامي - اليهودي يتمثل في القرب المكاني بين كنيس يهودي صغير ومسجد على الطابق الأول من خان قورباشي الكبير Buyuk Corapci Han، وهـو خـان صناع الجوارب الذي بُني في عهد سـليمان القانـوني في المنطقة التجارية بحـي إمينونو بين البازار والقرن الذهبي. اسـتغل يهود المدينة معرفتهم باللغات والطرق المحاسـبية الغربية، فصعدوا إلى آفاق جديدة إبان القرن السادس عـشر على حسـاب التجار الإيطاليـين. وفي ذلك كتب الديبلومـاسي الفرنسي الذي عاش في القسـطنطينية في عهد سليمان القانوني نيقولاس دي نيكولاي Nicolas de Nicolay بلغة تنم عن الحسد:

> تحت أيديهم الآن معظم نقل البضاعة ومال سائل يعمل بالفعل في المشرق كله. وأفضل الدكاكين والأكشـاك تجهيزا بكل أنواع السـلع في القسـطنطينية يملكها يهود. وبينهم أيضا ممارسـون ممتازون جدا في كل الفنون والصناعات، خاصـة المارانو(**) الذين لم يمـض على طردهم من إسـبانيا والبرتغال وقت

(*) القتل الطقوسي هو قتل البشر، خاصة الأطفال، في شعيرة دينية، وهي جريمة كان المسيحيون في إسبانيا ينسبونها كثيرا إلى اليهود قبل طردهم، ثم إلى المسلمين بعد طرد اليهود، وكانت في الغالب تحيط بها ظروف وملابسات غامضة، وربما كانت تنتج فحسب عن حالة الهوس والعداء الدينيين، من أدلة ذلك الجريمة التي وقعت في بلدة لاغوارديا La Guardia بقشتالة التي اتُهم فيها مجموعة من اليهود والمُنَصَّرين بقتل طقوسي لطفل مسيحي، فمع أنه لم يُعثر على طفل مقتول مطلقا، ولم يتضح أن أي عائلة في البلدة فقدت طفلا، فقد قضت محكمة التفتيش بانتزاع أحشاء يهوديين بكلاليب ساخنة وإحراق خمسة مُنَصَّرين في مكان عام. [المترجم].

(**) المارانو marranos اسم إسباني من أصل عربي بمعنى «المحرَم» أطلقه المسيحيون في أيبيريا على اليهود الذين اعتنقوا المسيحية أو نُصِّروا كرها، وبعضهم ظل يؤدي الطقوس اليهودية سرا. وقد ظهر هذا المصطلح في العام 1492 في مرسـوم الحمراء الذي نقض اتفاقية غرناطة لعام 1491، واكتسـب الاسم دلالات ازدرائية، إذ أصبح يعني الخنازير والأقذار والغادرين. [المترجم].

طويل، الذين يلحقون ضررا بالغا بالمسيحية بتعليمهم الأتراك عدة اختراعات وحيل وماكينات للحرب مثل طرق صنع المدافع والقربينات والبارود وقذائف المدافع وأسلحة أخرى[30](*).

وبفضل معرفتهم الطبية، عمل اليهود أطباء في القصر حتى القرن التاسع عشر.

كانت عائلة ناسي Nasi أشهر عائلة بين يهود القسطنطينية. تضرب رحلتها الطويلة عبر الزمان والمكان المثل على غياب التسامح عن وجه أوروبا عصر النهضة، إلى أن وصلت العائلة إلى التخوم العثمانية. ففي العام 1492، غادرت العائلة قشتالة إلى البرتغال التي أجبرت فيها على اعتناق الكاثوليكية. وفي العام 1536، انتقلت إلى أنتويرب العاصمة المالية لأوروبا، ثم إلى البندقية في العام 1544، ثم إلى فيرارا في العام 1550(**). وفي كل مدينة كان ينتظرهم الاضطهاد وتقييد الحركة (أنشئ الغيتو في البندقية في العام 1515). وفي العام 1553، جزئيا بسبب رسائل كتبها سليمان القانوني نفسه إلى دوج Doge البندقية (بتشجيع من موسى بن هامون)، سُمح لرأس العائلة الدونا غراسيا ناسي بأن تغادر إلى القسطنطينية. وبعد أشهر قليلة، دخلت السنيورة، كما كانت تسمى، المدينة دخول المنتصرين، يتبعها أربعون فارسا وأربع مركبات من الخدم. وباستخدام ثروتها الشخصية وودائع من المسلمين، عملت السنيورة سيدة أعمال مستقلة وملتزمة ضرائب. ودفعت - مع ابن أخيها جوزيف - مقدما ثمن امتياز لإمداد المدينة بالخشب والخمر نقدا. كما أدارت شركة للتصدير والاستيراد، حيث كانت تصدر الفلفل والقمح والصوف الخام وتستورد القماش الأوروبي[31].

كان جوزيف ناسي Joseph Nasi من أفراد الحاشية ومموّلا ورجل أعمال دوليا. وجوزيف الذي كان معروفا للبرتغاليين باسم جواو ميكس Joao Miques وللإسبان باسم خوان ميغيث Juan Miguez وللفرنسيين باسم جيهان ميكيز Jehan Miquez ولأعدائه باسم «اليهودي العظيم»، ولد في لشبونة في العام 1526.

(*) يتجنى هذا الرجل على العثمانيين - وليس اليهود - لأن العثمانيين كانوا في وقت من الأوقات أكثر الدول تقدما في العالم في صنع المدفعية واستخدامها، وكانت انتصاراتهم في أوروبا وفي مصر وغيرهما بفضل استخدام المدفعية، حتى في مجال البحرية ربما لم يكن يفوقهم في بعض الفترات غير البحرية الملكية البريطانية، حتى إن القوى الغربية لم تستطع أن تهزم الأتراك في معركة ليبانتو في العام 1571 إلا باتحادها ضمن الحلف المقدس. [المترجم].

(**) فيرارا Ferrara مدينة ومقاطعة إيطالية تقع على نهر دي فولانو من روافد نهر البو على بعد 50 كيلومترا شمال شرق بولونيا. [المترجم].

وبعــد انتقال العائلــة إلى أنتويرب، تلقى تعليمه في جامعــة لوفان Louvain التي زامله فيها تلميذا الإمبراطور الروماني المقدس المســتقبلي ماكسيمليان الثاني. شاهد ساكن ألماني دخول ناسي إلى القسطنطينية في العام 1554 بـ«أكثر من عشرين خادما إسبانيا حسني الثياب، كانوا يلازمونه كما لو كان أميرا، وكان هو نفسه يرتدي ملابس حريرية مبطنة بفراء السمور، ويتقدمه انكشاريان راكبان بهراوات وزي رسمي، على عادة الأتراك، حتى لا يحدث له مكروه ... أما هو فكان شــخصا ضخم الجثة بلحية ســوداء مهذبة». وفي القســطنطينية، سرعان ما أصبح، بتعبير طبيب إســباني، «أحد أتباع الشيطان»، إذ ارتد إلى اليهودية(*).

حضر ثلاثة آلاف ضيف زفاف ناسي على ابنة عمه الغنية رينا Reyna. وعاشا على طريقة النبلاء الإســبان في قصر يدعى بيلفيدير Belvedere يطل على البسفور فوق أورتاكوي Ortakoy. وفي مكتبته المفروشة بالسجاد، كان يناقش السياسة مع السفير الفرنــسي، وعلم الأحلام مع الحبر ألموســنينو Almosnino، والتنجيم مع البطريرك المسكوني. وكان ملحقا بقصره مطبعة وأكاديمية وكنيس وميدان مبارزة[32].

سرعان ما أصبح ناسي صديقا لولي العرش الأمير سليم وصائغا وممولا له، فضلا على إمــداده بكل من الخمــر والمال. وقد ذكر ديبلوماسي بندقي: «يشرب صاحب الســمو الخمر بكثرة، ويرســل إليه المدعــو دون جوزيف الكثير من القنــاني من حين إلى آخر، وغيرها من أطعمة الترف». وعند اعتلاء ســليم العــرش، عُيِّن جوزيف ناسي دوقا برتبة ســنجق باي sancakbey لدوقية ناكســوس Naxos في بحر إيجــة التي كانت تخضع ســابقا للبندقية. وعلى ذلك، فإن نجاح يهودي في العاصمة العثمانية، مكّنه من إعطاء الأوامــر للنبلاء الكاثوليك (الذين كانت لاتزال لهم ممتلكات كثيرة في بحر إيجة). يالها من لذة لهذا المنبوذ من أوروبا الكاثوليكية أن يصدر الأوامر تحت الصيغة:

> جوزيــف الذي يشــغل بفضل الله دوق الأرخبيل وســيد أندروز وغيرها
> ... صــدر في قصر بلفيدير الدوقي بالقرب من بيرا في القســطنطينية، في اليوم
> الحادي عشر من يوليو 1577
> بأمر الدوق
> جوزيف كوهين، سكرتير وكاتب[33]

(*) كانت العائلة قد أدخلت في الكاثوليكية قسرا في البرتغال، ثم عادت إلى دينها في القسطنطينية. [المترجم].

واصلت أعمال ناسي التجارية التوسع. وبدأ في تصدير الخمر الكريتي إلى بولندا، واشترى احتكارا لتجارة الشمع. وساعدت الحكومة العثمانية في جمع ديونه في نزاع طويل مع الحكومة الفرنسـية على مال كان قد أقرضه إلى السـفراء الفرنسـيين، إذ كتب سـليمان القانوني ما لا يقل عن ثلاث رسـائل إلى ملك فرنسا نيابة عن «مثال وجهاء الأمة الفسيفسـائية ورفيق ابني سليم». وكانت حظوته لدى سليم معروفة. وأرسـل إليه ماكسـيمليان الثاني ثلاث قوارير شرب ذهبية، بينما وصفه ملك بولندا الذي كان مدينا له، بأنه «السيد الممتاز والصديق المحبوب!».

مكّنت جوزيف علاقاته في أوروبا الغربية من الاحتفاظ بشبكة استخبارات دولية سـاعدته في الانتقام من إسـبانيا وفرنسـا. ومن الوارد أنه من على ضفاف البسفور شجع ثورة هولندا ضد فيليب الثاني ملك إسبانيا. وجاء مبعوث من زعيم الثوار أمير أورانج لمقابلته في العام 1569. وكتب المؤرخ فاميانوس استرادا Famianus Strada: «بالنسبة إلى الفلمنكيين، مارست رسائل ميشيز (أي ناسي Nasi) وإقناعه تأثيرا كبيرا عليهم»، لكن لم تظهر للباحثين أي من رسائله[34].

كان ناسي لاعبا مهما في صراع مراكز القوى في البلاط، وكان معاديا للبندقية بسبب معاملتهـا لليهود البنادقة. حاول محمد باشـا صوكولو الـذي كان له وكيل ديبلوماسي يهودي (طبيبه رابي سالومون أشكنازي Rabbi Salomon Ashkenazi) ويفضل السلام مع البندقية، أن يدمره. لكن ناسي، كما كتب سفير البندقية، «نجح دوما في إنقاذ نفسه، حتى إن السـيد الكبير نفسه عفا عنه ودافع عنه في عدة مناسبات». شجع ناسي حرب الإمبراطورية على البابوية وإسـبانيا والبندقية في العـام 1570، ربما على أمل أن يصبح ملك قبرص، أو لمساعدة الثوار الهولنديين. وبعد معاهدة السلام في العام 1573، وموت سـليم الثاني في العـام 1574، تراجع نفوذ نـاسي. وعلى أي حال، فـإن ناسي هو الذي ضحك أخيرا، إذ شُنق كانتاكوزينوس، وربما بتحريض من السلطان طعن أحد الدراويش صوكولو حتى الموت في غرفة الديوان بالقصر. ومات ناسي بسلام في قصره[35].

كان نـاسي وأقاربه يناصرون القضايا اليهوديـة تحديدا. وفي العام 1556 حاولوا إنقـاذ أربعة وعشرين يهوديا من أنكونـا(*) كان البابا قد أمر بحرقهم حتى الموت. وكتب السـلطان رسـالة شـخصية إلى البابا، من دون جدوى. كان نفوذ عائلة ناسي

(*) أنكونا Ancona مدينة في شمال إيطاليا، عاصمة إقليم ماركي. [المترجم].

وغيرها من العائلات اليهودية بالمدينة كبيرا لدرجة أن الديبلوماسيون البنادقة كانوا على قناعة بأن نتيجة محادثات السلام كانت تتوقف على معاملة البندقية لرعاياها اليهود. أنشأت عائلة ناسي أكاديمية حبرية شهيرة في طبرية بالجليل، وأعادت بناء أسوار المدينة وشجعت الاستيطان اليهودي هناك[36]. لكنهم كمعظم يهود القسطنطينية كانوا قانعين بكونهم رعايا «سلاطين الرحمة» كما أطلقوا على سادتهم الأتراك، ولم يخططوا للحصول على دولة يهودية.

وبعد العصر الذهبي لليهود إبان القرن السادس عشر، ظل لهم نفوذ كبير. فجُددت الفرمانات التي تسمح ببناء المعابد في الأعوام 1604 و1693 و1744 و1755. وعمل الكثير من اليهود في مكتب الجمارك بالمدينة لدرجة أن التجارة كانت تتوقف في أثناء العطلات اليهودية. كتب رحالة فرنسي يدعى ميشيل فيفر Michel Febvre في أواخر القرن السابع عشر: «لا توجد عائلة ذات اعتبار بين التجار الأتراك والأجانب (لا يرد ذكر المسيحيين المحليين كثيرا) لا يعمل عندها يهودي، إما لتقدير قيمة البضاعة ونوعيتها، أو للعمل مترجما، أو لتقديم المشورة في كل شيء يحدث»[37].

لكن بداية من العام 1700، بدأت مكانة اليهود تتراجع، مع تراجع الإمبراطورية التي كانوا يخدمونها. فوقعت بعض المعابد بالمدينة في الدين، وأخذ عدد الكتب اليهودية التي تطبع في القسطنطينية يتراجع عقدا بعد آخر، وأخذ التجار الأوروبيون الأغنياء والمظللون بحماية جيدة يسيطرون على تجارة المدينة[38].

تسارع تراجع اليهود بفعل صعود جالية تجارية منافسة، هي الأرمن. فبداية من أوائل القرن السابع عشر، بدأ الأرمن في التوافد على القسطنطينية بأعداد كبيرة هربا من الثورات والحروب في شرق الأناضول. في بادئ الأمر عملوا بوظائف متواضعة مثل الحمّالين وصناع المقشات وباعة الخبز واللحم المجفف المسمى بسطرمة، لكن سرعان ما انتقلوا إلى حرف أخرى. ساعدتهم في ذلك الحماية التي نالوها من القصر، ذلك لأن كلا من مراد الرابع و«إبراهيم المجنون» كانت لهما محظيات أثيرات من أصل أرمني. وشهد القرن الثامن عشر ثقة وطاقة متزايدتين لدى الأرمن. وفي العام 1727، كان جد عائلة من المعماريين قُدِّر لها أن تغيّر وجه المدينة، هو القلفة سركيس باليان Sarkis Kalfa Balian، قد أصبح معماري القصر. وفي العام 1757،

عُيِّن أحد أفراد عائلة دوزيان Duzian الكاثوليكية الأرمنية مديرا لدار سك العملة الإمبراطورية، بدلا من اليهودي ياغو بونفيل Yago Bonfil، وهو المنصب الذي ظل في عائلته، بفجوة ثلاثة عشر عاما، حتى العام 1880. وسرعان ما أصبح أغلب الموظفين من الأرمن، وغدت السجلات تحفظ باللغة العثمانية مكتوبة بالأبجدية الأرمنية التي كان قليلون من الأرمن فقط هم من يستطيعون قراءتها. وأصبحت عائلة دوزيان أيضا حراسا لجواهر السلطان.

حل الأرمن الذين اعتُبروا أكثر أمانة وموثوقية من غيرهم، محل اليهود كمموّلين أساسيين للمدينة. وكان آخر ممول يهودي لصدر أعظم هو يوسوفا سونسينو Jesova Soncino في العامين 1746 و1747، وآخر مموّل يوناني هو سكانافي كابسالوني Scanavi Capsaloni في العامين 1770 - 1771. وفيما بعد، صارت الهيمنة للأرمن. ولعبوا بين العامين 1770 و1840 دورا محوريا في تمويل حكام الأقاليم وتنظيم جمع الضرائب. وتراوح سعر الفائدة التي كانوا يفرضونها من ثمانية عشر إلى أربعة وعشرين بالمائة[39].

نال المموّلون الأرمن أو الأمراء amiras، كما كانوا يسمون، ألقابا وأوصافا منها «زعماء الأمة» و«الأمراء المتألقين» و«أمراء الشرف العظيم». ونظرا إلى كونهم جزءا بارزا من النخبة العثمانية، لهم الحق في ارتداء العمائم المبطنة والسترات ذات الفراء وركوب الخيل في المدينة، زعموا أنهم من نسل ملوك أرمنيا القدماء. ولا شك أنهم في ذلك كانوا يريدون أن يجاروا دعاوى اليونانيين بتحدرهم من الأباطرة البيزنطيين[40]. بحلول العام 1750 تمكنت عائلة سيربوس Serpos، التي وصلت من سيواس(*) في نحو العام 1700، من امتلاك إمبراطورية تمويلية تمتد من البندقية إلى الهند، وتمتعوا بالحماية الدبلوماسية من بريطانيا والسويد. وكان أحد أفراد عائلة سيربوس المموّل الأساسي لاثنين من الصدور العظماء من العام 1732 إلى العام 1746. ورتب آخر نقل المعونة المالية العثمانية إلى السويد عن طريق هامبورغ في العام 1789، حين كان البلدان يحاربان روسيا[41].

سيطر أمراء الأرمن على البطريركية الأرمنية، وشاركوا في اختيار البطريرك. وبحلول العام 1700 أصبح للبطريرك سلطات استبدادية على رعيته ومدارسه

(*) مدينة سيواس Sivas عاصمة محافظة بالاسم نفسه في وسط تركيا حاليا. [المترجم].

وكنائسه ومطابعه، حتى صارت الدعوة «الأب المقدس يود أن يراك» تبث الرعب في أفــراد رعيته. وفي أيام الصيام، علما بأن جماعة لم تكن تلتزم بالصيام أكثر من الأرمن، كان خدم البطريرك يجوبون الشوارع يتشممون كالكلاب بحثا عن رائحة اللحم. وكان المذنبون يُغرمون، وأحيانا يســجنون أو يرسلون إلى حرم المجاذيب. وفي أثناء إحــدى الصلوات أخذ «المجاذيب» Lunatics المكبلون في قبو أســفل الكنيســة يخشخشون بسلاسل قيودهم ويصرخون صرخات قابضة للنفس، حتى إن أحــد الأرمن الأثرياء عرض أن يبني لهم مستشــفى خارج المدينة[42]. وغدت مســألــة ما إذا كانـــت ثـــروة أمــراء الأرمــن يجب أن تتحول إلى ســلطة في مدينة القســطنطينية وداخل جماعتهم مســألة تواجه العاصمة في بداية القرن التاسع عشر.

كان كل تجار المدينة، المســلمين واليونانيــين واليهود والأرمن، يلتقون في البازار الكائن عــلى حافة التل الواقع بين القرن الذهبي وبحر مرمرة. على خلاف شــوارع القســطنطينية التي كانت هادئة جدا، كان البــازار يحيي زواره بدفقة من الحرارة والألوان والعطور والضوضاء: «اشــترِ قماشي الفخم بألف قرش! اشترِ قماشي الفخم بألفي قرش!».

كان البازار صرحا فسيحا جدا من الحجارة، لدرجة أنه قيل إن أحدا من أهل القســطنطينية لم يره كاملا أبدا. كان البازار محاطا بأسوار رمادية عالية ويعلوه سقف من القباب فيها فتحات لإدخال الضوء، وضم متاهة من الممرات المقنطرة تتوجها قناطر من الجص بأشــكال الأرابيســك الأزرق والأحمــر العثماني المتقن. وعلى جانبي كل ممر كانت تصطف أكشــاك تســمى دواليــب dolaps بعرض نحو ســبعة أو ثمانية أقدام وعمق ثلاثة أو أربعة أقدام، مزيّنة بزهور ورســائل دينية من القرآن. وكان البازار يضم زهاء أربعة آلاف من هذه الأكشاك، أي نحو عُــشر عددها في المدينة ككل. وكان كل دولاب يحــوي طاولة في مدخله يعرض عليها البائع سلعه. وكان معظم حراس الأكشاك مسلمين، شيّدوا لأنفسهم مختلى صغيرا للوضوء كانوا يأوون إليه قبل أداء صلواتهم على المقعد. كان البازار مدينة صغيرة تحوي مســاجدها وأفنيتها وأسبلتها الخاصة. شــيّدت أحد الأسبلة أميرة إمبراطورية «تكريما لصانع أحذية كان يرسل عمله إلى بيتها في موعده».



الرسام أميديو بريزيوسي Amedeo Preziosi، البازار، 1851. كان بريزيوسي نبيلا مالطيا تزوج من امرأة يونانية، وعمل في القسطنطينية رساما محترفا من العام 1842 حتى وفاته في العام 1876. تبيّن اللوحة البضائع والملابس المتعددة في البازار. يرتدي بعض الناس العمائم، ويرتدي غيرهم القبعات. وتظهر طغراء السلطان على الدرع المعلقة على اليسار.

كان البازار يفتح أبوابه كل صباح في نحو الساعة الثامنة والنصف بالدعاء للسلطان وجنده وأرواح كل العمال السابقين في البازار، والنصيحة: «لن يحدث غش! لن يحدث احتكار! لن يحدث بيع للسلع بلا ضمان!» وبعد ذلك يدخل التجار. وكانت الأكشاك تغلق في نحو الساعة السادسة مساء[43].

كانت نواة البازار تتمثل في البدستان Bedestan أي السوق المغطى الذي يسمى حاليا البازار القديم الذي بناه محمد الثاني في الأعوام 1456 - 1461. وبحلول العام 1473، كان هناك مائة واثنان وسبعون دكانا داخل البدستان واثنان وسبعون خارجه. كان أكثر من ثلثي الدكاكين يملكها مسلمون. وكان البدستان محاطا بأربعة أبواب: لباعة الطواقي، وباعة الأقمشة، والصاغة، وبائعي الكتب المستعملة. بلغ اشتهار الأخيرين بالوضاعة حد أن العبارة «أسوأ من بائع الكتب المستعملة» دخلت مفردات البازار المتداولة. وخارج البدستان، كان لكل منتَج شارعه المحدد. وفي شارع تجار الأسلحة، أذهلت الرحالة الفرنسي إبان القرن السادس عشر فيليب دو فرنس كاناي «ألجمة من الفضة المُذَهّبة منحوتة بدقة بالغة، والكثير من الزهريات

الذهبية، وريشــات نادرة جدا بها أحجار من الياقوت والفيروز بكمية لا تصدق ... باختصار، يجد المرء فيه الكثير من الأشـياء الجميلة التي يصعب معها أن يغادر من دون أن يضع يده في محفظته». كانت الإيجارات المحصلة من البدستان تذهب إلى الوقف الذي ينفق على جامع آيا صوفيا [44].

احتوى البازار أيضا على خزائن وزعتها الدولة، مبنية وراء الأكشــاك، كان الأفراد يودعــون فيهــا الجواهر والمــال. كان البازار أكثر خلوا من الجريمة من الأســواق في الغــرب. كان التجــار يســتطيعون أن يتركوا أكشــاكهم من دون رقابــة، وكان باعة الفطائر يأتمنون الناس فيتركون بضاعتهم على أســاس أن الناس ســيتركون ثمنها على صينية مســتديرة صغيرة. وفي العام 1591، أحدثت سرقــة الخزائن في البازار الكبير رعبا غير مسبوق. كان المذنب شابا يعمل لدى صائغ أرمني، أخفى المسروقات تحت القش الذي يغطي أرضية الدكان. شُنق هذا الشاب في حضور السلطان. وإبان القرن التاسع عشر فقط، ومع وصول السياحة الحديثة اشتهر البازار بأنه عش للعقبان[45].

جمع البازار بين أدوار مركز التســوق وســوق الأوراق المالية والبنك، وكان أيضا ناديا يلتقي فيه التجار لتخطيط الصفقات والرحلات. شــعر دودلي نورث بحنين إلى البــازار أكثر من أي مكان آخر في القســطنطينية، ذلك لأنــه يوجد هناك «أي شيء تقريبا يريده أي إنســان أو يســتخدمه». وكان البازار فوق كل شيء ملتقى. أما في لندن، وعــلى الرغم من وجود المقاهي والبورصة، فــ«لم يكن بمقدور من يريدونه (دودلي سميث) أن يجدوه، ولا بمقدوره هو أن يجد من يريدهم».

كان البازار محاطا بواحد وعشرين خانا، من بينها خان السلطانة الوالدة الكبير، بُنيت لتشــجيع التجــارة. والخانات التي كانت تتألف مــن طابقين أو ثلاثة طوابق مقنطرة، حول فناء ممتلئ بالأشجار، كانت تسع السلع والحيوانات في الطابق الأرضي والحرفيــين والتجار في الطابقين الأول والثاني. وعلى خلاف معظم البيوت في المدينة، كانت الخانات تبنى من الحجارة. وبحلول العام 1700 كان خان الســلطانة الوالدة الكبير قد أصبح المركز التجاري والديني للفرس بالمدينة (جاء أغلبهم من أذربيجان)، إذ كان عدة آلاف منهم يعيشــون هناك، وكان أشــبه بدولة صغيرة مســتقلة. تمتع الفــرس أيضــا بالامتيازات التي لم تكــن مقصورة بحال من الأحــوال على الجاليات الأوروبية. وإبان القرن التاسع عشر، لاحظ حاج فارسي كان عابرا من القسطنطينية

في طريقــه إلى مكة: «أن المــلاذ القانوني للإيرانيين هو الســفارة أولا وأخيرا، فهم لا يخضعون لسلطان القسطنطينية».

كانت الاتجاهات نحو المذهب الشــيعي قد ارتخت بعد القرن الســادس عشر. كان المسجد الشــيعي الأساسي في القســطنطينية يقع في منتصف الفناء الأول. وفي العــاشر من شــهر المحرم مــن كل عام كانت تقــام طقوس إحياء ذكــرى اثنين من شهداء الشــيعة، هما حفيدا النبي الحسن والحسين، كانت تبرز تقوى فُرس المدينة وهويتهم. أولا، كان يقيمون الصلوات في المسجد، وبعد ذلك، وعلى أضواء المصابيح ووســط دقات الطبول ونداءات يا حســن! يا حســين، كان يشاهدهم نحو عشرين ألف متفرج وهم يســيرون في موكب طويل من رجال يرتدون ثيابا بيضاء ويجلدون أنفســهم في حركات موّحدة بعصي وســيوف مســنونة حديثا. كان الدم يسيل على أجنابهم، وكانت رؤوسهم وصدورهم تبدو كاللحم النيئ. وكانوا يتوجهون بعد ذلك إلى الخانات الأخرى لأداء الطقوس عينها. وكانوا في اليوم التالي يعبرون إلى أوسكودار، إلى جدول ماء في الجبّانة حيث كان ينتظرهم أطباء بالضمادات[46].

وفي حين كان خان الســلطانة الوالدة الكبير مخصصا لتجارة منطقة معينة، كان يهيمــن على الخانات الأخــرى ذوو حرف معينة، كالنجاريــن والصاغة ومن إليهم. فكان خان سليمان باشا الواقع إلى جنوب البازار متخصصا في واحدة من أكثر السلع رواجــا في العاصمة العثمانية، وهي البشر. كانت القســطنطينية مركزا لتجارة عبيد كانــت خطوط إمدادها تبدأ في بولندا والقوقاز والســودان. وكانت الحكومة تجبي ضريبــة على كل عبد يدخــل المدينة (أربع دوقيات ذهبية عــلى الرأس إبان القرن الســادس عشر)، وكانت أيضــا تجبي ضرائب من كل من المشــترين والبائعين، كما هــي الحال في مــزادات لندن الحديثــة. كان الذكور، الذين كانــوا يُعرَضون أحيانا عــراة، يباعون أيضــا في البازار القديــم. وفي العام 1547، شــاهد الرحالة الفرنسي جان شــينو Jean Chesneau تجارا يســوقون أطفالا في عمــر الثالثة خلال البازار وهم ينادون بأســعارهم. كان العبيد الشركس يأتون على رأس سلم التفضيل، يليهم البولنديون، ثم الأباظيون (من منطقة أخرى من القوقاز)(*) ثم الروس. كان ســوق

(*) الأباظيون أو الأباظة Abaza مجموعة عرقية في القوقاز قريبة عرقيا من الأبخاز والشركس، تعيش غالبيتها حاليا في تركيا ومصر وشمال القوقاز الروسي. [المترجم].

العبيد بالقسطنطينية يعتبر الرجال الآتين من أوروبا الغربية ناعمين أكثر مما ينبغي والنساء أشـداء أكثر مما ينبغي. وكان للسود نصيب أيضا في سوق العبيد، من ذلك أن والد جدة بوشكين(*) كان إثيوبيا اشتراه السفير الروسي من القسطنطينية.

قبل الشراء كانت هذه السـلع البشرية تُختبر كما تُختبر الماشية، فكان المشترون يبصقون في وجوه العبيد حتى إذا كانت على وجوههم مستحضرات تجميل تسيل، وكانوا يتحسسـون «أسنانهم وسـيقانهم وأفخاذهم والمواضع الأكثر خصوصية من أجسـامهم. وكان المساكين، رجالا ونساء، يسـلمون أنفسهم لسوء المعاملة من أعين عابسـة لا رحمة فيها». كان الافتقار إلى الأسنان أو الجمال أو العذرية يقلل السعر. وفي العام 1600، بيعت عذراء شابة بمائة دوقية، وبيعت امرأة في الستين من العمر بسـتة وثلاثين دوقية. وكان المشتري قبل أن يشتري أنثى، يمكن أن يأخذها إلى بيته ليلة ليرى إن كانت تشـخر في أثنـاء النوم[47]. حتى القرن العشرين كانت النسـاء حاضرات أكثر من الرجال في تجارة العبيد، حيث كانت البنات الشابات تُشترى بعد الفحص البدني والمسـاومة المالية المعتادين من تجار للجواري مستقلين يتنقلون من حريم خاص إلى آخر. وكانت البنات تُعلّمن حسن التصرف والخياطة والغناء، ويبعن بعد ذلك بربحية [48].

كان العبيد المنزليون في العائلات المسلمة (نظريا لم يكن مسموحا للمسيحيين أو اليهود بامتلاك العبيد) يلقون معاملة أفضل نسبيا من معاملة العبيد في الأمريكتين أو الكثـير مـن الخدم الأحرار في أوروبـا الغربية. كانت العبوديـة يمكن أن تتحول إلى شـكل من أشـكال القرابة، وبالتالي - كما خَبَر الانكشـاريون جيدا - إلى وسـيلة للصعود الاجتماعي. وإذا لم يكن العبد يطيق سيده، فقد كان بمقدوره - نظريا - أن يلتمس من القاضي أن يباع من عند هذا السيد. وقد كسب بعض العبيد المال لشراء حريتهم بالعمـل على العبّارات العاملة بين أوسـكودار وأوروبا. وثمة عبيد آخرون كانوا يشـترون لغرض المتعة الجسـدية. كتب عثماني من القرن السابع عشر يدعى لطيفي Latifi:

(*) ألكسـندر بوشـكين Alexander Pushkin (من نحو 6 يونيو 1799 إلى 10 فبراير 1837) أمير شـعراء روسـيا وكاتبها الروائي والمسرحي الفذ، نشـأ في أسرة من النبلاء، ترجع أصوله الحبشية إلى والدته التي كانت حفيدة إبراهيم غانيبال العبد الذي صار ضابطا مقربا من القيصر بطرس الأول، أخذ من أصوله الأفريقية الشـعر المجعد والشـفتين الغليظتين. [المترجم].

كان مــن بينهم بنات وأولاد يتمتعون بجمال اســتثنائي يُطيّر عقول الناس ويجعلهم يبــذرون ثرواتهم كاملة، قائلين إن المــال لا قيمة له مقارنة بالروح والحب ... وكما يقول الشاعر:

فــإن أمتع شيء في العالم هو الاتحــاد مع الجمال، وإلا فما بغية الباحثين عن الحب في هذا البازار؟!

لم يكــن الرجــال الذين أنفقــوا كل مالهم على الجواري يســتطيعون أن يمنعوا أنفسهم عن العودة إلى سوق العبيد، رغم الألم الكامن في رؤية الجميلات معروضات للبيع مع عدم القدرة على شرائهن. كان العبيد، بمن فيهم عبيد الســلطان في الباب العالي، يشــكلون نسبة كبيرة من ســكان القســطنطينية، نحو عشرين بالمائة وفقا لخليــل إينالجــك Halil Inalcik، مقارنة بنحو ثلاثة بالمائة من ســكان البندقية في العام 1600[49].

وإذا كان البشر قد شــكلوا أحد الواردات الأساسية إلى العاصمة، فقد شكلوا أيضا أحــد صادراتها الأساســية، إذ كان الجنود والمســؤولون والعلماء يغادرون المدينة ســنويا بالآلاف لحراســة الإمبراطوريــة أو حكمها. بيــد أن قليلين منهم بلغوا ذرى من الشــهرة أعلى من أفــراد العائلتين العظيمتين كوبرولو Koprulu ومافروكوداتو Mavrocordato.

6

الوزراء والترجمانات

إذا كان الأمير كونتيز أمير الإمبراطورية الرومانية المقدسة(*)، فأنا أمير الإمبراطورية العثمانية الأكثر قدسية... أنا السيد، أنا أمير ولدت لعائلة تحكم منذ مائتي عام، عائلة حاكمة ذات سيادة، سأقول ما أريد، فأنا لا أخشى الإمبراطور ولا الأمير كونتيز.

ألكسندر مافروكورداتو أمير مولدافيا للقنصل النمساوي استيفانو ريسيفيتش، في 30 نوفمبر 1784

«شكلت اللغة العثمانية، بتركيب الجُمل المعقد ومفرداتها المركبة، حائطا بين الإمبراطورية والعالم الخارجي»

في العام 1622، تحدى السلطان عثمان الثاني ابن السابعة عشرة تقاليد عائلته ومصالح عاصمته. فبدلا من أن يقصر نفسه على الرفيقات من الجواري تزوج ثلاثا من النساء الحرائر، منهن ابنة مفتي القسطنطينية. وارتدى عند الذهاب إلى صلاة الجمعة في أحد الأيام

(*) أمير الإمبراطورية الرومانية المقدسة Prince of the Holy Roma Empire لقب كان يمنحه الإمبراطور الروماني المقدس وراثيا للحكام أو النبلاء أو الأساقفة من الخاضعين له مباشرة. [المترجم].

قفطانا من نسيج بندقي قرنفلي باهت، واستخدم جُلا «فاتحا جدا» للحصان(*).
وكتب السفير الإنجليزي سير توماس راو أنه جعل نفسه «رخيصا ومبتذلا بالتجوال ليلا، والتردد متنكرا على الحانات والأماكن الخفية، وممارسة دور الشرطي فيها». وكان جنود الانكشارية الذين يُضبطون في الحانات يغرقون في البسفور. وقد شاع أن كامل الفيلق الذي كان أداؤه سيئا في الحملة الأخيرة على بولندا، كان «على وشك التمرد والتفكك» وأن رواتب جنده قد خُفِّضت.

وعلى خلاف نصيحة الصدر الأعظم، خطط السلطان لارتكاب المحظور الأكبر، وهو مغادرة المدينة، وأداء فريضة الحج بمكة، وحشْد جيش في ولاياته العربية ليكون قوة مضادة للانكشارية. وأصدر المفتي فتوى تقول إن الحج ليس واجبا على السلاطين، إذ يفضل أن يبقى في مكانه وينشر العدل، وإن ذلك غير شرعي لأنه قد تنشأ عنه فتنة». لكن ذلك لم يُجدِ نفعا(**).

وفي السابع من مايو، بدأ في إخراج الخيام والكنوز الإمبراطورية من القصر وعبور البسفور بها إلى آسيا. ونظرا إلى أن ذلك شكّل تهديدا لهم في شرفهم وأرزاقهم، وبتحريض من باشوات كبار، اجتمعت الانكشارية في الأتميدان(***) في اليوم التالي وصاحوا: «باسم الشرع نريد السلطان مصطفى خان»، وهم عم السلطان الذي سجنه السلطان في سرداب مع امرأتين سوداوين عاريتين لأن مصطفى لم يكن يطيق الجنس الآخر. وأخيرا، في التاسع من مايو، اقتحمت الانكشارية القصر واعتقلوا عثمان الثاني وأخذوه إلى قلعة الأبراج السبعة لا يستره غير قميص تحتي أبيض. وانهالت عليه حشود الناس بالشتائم على طول الطريق حتى انهالت دموعه: «بالأمس كنت باديشاها، واليوم أصير عاريا». أمر الصدر الأعظم الجديد الذي ساعد في تخطيط التمرد بقتل عثمان الثاني من خلال توليفة من الخنق والضغط على الخصيتين. وحين تخوف البعض من أمره بقتل السلطان، قال: «لا يهم من هو السلطان مادام النظام

(*) الجُل هو الغطاء المزركش لسرج الحصان. [المترجم].

(**) وصل عثمان إلى السلطة في عمر الثالثة عشرة بانقلاب ساعدته فيه الانكشارية على عمه السلطان مصطفى الأول، وبعدما أعيد مصطفى إلى الحكم، عزله بعد عام ابن أخيه السلطان مراد الرابع، بمساعدة الانكشارية أيضا. [المترجم].

(***) الأتميدان Atmeydan هو الاسم الذي أطلقه الأتراك على ساحة الألعاب الرومانية القديمة المجاورة لجامع السلطان أحمد، كان متنزها ومُجمّع حدائق، وميدانا لتدريب الانكشارية، وفيه كانوا يعلنون عن تمردهم ورغبتهم في تغيير السلطان، وفيه أيضا أفناهم السلطان محمود الثاني في العام 1826. [المترجم].

العالمي لم يختل»[1](*). ظاهريا، كان السلطان السيد الوحيد للمدينة والإمبراطورية وكان الــوزراء عبيده. لكــن في الواقع كانت القيود المفروضة على ســلطانه لا تقل قســوة عن تلك التي كانت تفرضها المحاكم وطبقات النبلاء والبرلمانات على الملوك الغربيين في الفترة عينها. وإذا كان الســلاطين يســتطيعون أن يأمروا بإعدام الصدور العظماء، فإن الأخيرين كانوا يردون بالمثل أحيانا.

كانت قوة هــذه النخبة ومكانتها واضحة في شــوارع المدينة. وقد ذكر مراقب من القرن السابع عشر، هو بول ريكوت Paul Rycaut، أن «المرء يستطيع أن يلمح عظمة هذه الإمبراطورية من الحاشــية والأبهة وعدد الخــدم الذين يرافقون علية القوم في رحلاتهم». لم يكن غرض هذه العائلات من مظاهر الأبهة يقتصر على إبهار العامة وحســب، بل شمل أيضا الســيطرة على الحكومة المركزية. وفي العام 1656، اعترف السلطان محمد الرابع بأنه يدين بجلوسه على العرش إلى مشيئة الله وقدرته وموافقة المسؤولين الحكوميين وعلماء الدين[2].

تربع على رأس هرم الســلطة «النائب المستبد للســلطان»، صاحب السمو الصدر الأعظــم الذي كان يقــوم على خدمته بيت مكوّن من ألفي شــخص، عــلى غرار بيت الســلطان، ويحميه خمســمائة حارس مــن الألبان. في أوروبا الغربيــة، لم يحظَ بمكانة مشابهة خارج الدائرة المقدســة للعائلة المالكة إلا ريشيليو(**) ومازاران(***) اللذان جمعا بين سلطة الوزير الأول ودرجة الكاردينال (اللتين تساويان معا الأمير بالدم(****).

كان الصدر الأعظم فعليا هو عمدة القســطنطينية أيضا، بيد أن العاصمة لم تكن لها مؤسســات مســتقلة خاصة بها، إذ لم تحو مقرا للبلدية ولا دارا للنقابة، فكانت تعتمد في كل شيء عــلى الدولة. قبل أن ينزل الصدر الأعظم لمعاينة الأســواق كل يوم أربعاء، كان يعقــد اجتماعا في الديوان حول شــؤون العاصمة. كان يســاعد الصــدر الأعظم في إدارة

(*) النظام العالمي كناية عن الإمبراطورية العثمانية. [المترجم].

(**) أرماند جان ريشيليو Armand Jean Richelieu (من 9 سبتمبر 1585 إلى 4 ديسمبر 1642) رجل دين ونبيل ورجل دولة فرنسي، شغل منصب الكاردينال والوزير الأول للويس الثالث عشر من العام 1624 حتى وفاته. سعى إلى توحيد السلطة وسحق كل مراكز القوة. [المترجم].

(***) جــول مــازاران Jules Mazarin (من 12 يوليــو 1602 إلى 9 مارس 1661) كاردينــال ودبلوماسي ورجل دولة إيطالي شــغل منصب الوزير الأول لفرنســا من العام 1642 حتى وفاته، خلف معلمه ريشيليو وسار على نهجه. [المترجم].

(****) الأمير بالدم هو الأمير بالتحدر الشرعي من سلالة ملكية. [المترجم].

المدينة أربعة قضاة لإسطنبول وغَلَطَة وأوسكودار وأيوب، كان السلطان يعيّنهم ويدخلون عليه مباشرة ويتمتعون باستقلالية فعلية في تطبيق الشريعة. كان هؤلاء يشرفون على السوق، ويسعون إلى ضمان أن يعيش مسلمو المدينة حياة إسلامية حقة. وتحت القضاة، كان يوجد جيش من الموظفين الأقل شأنا، كانوا يفتشون على السلع والأسعار والتجار، ويجبون الضرائب على الدكاكين والأسواق والمنتجات التي تدخل المدينة[3].

وبسبب سلسلة من السلاطين الضعفاء وتعقيد الحكومة العثمانية، أخذ الباب العالي بداية من العام 1650 يحل محل القصر بوصفه مركز السلطة. لقي هذا التحول تأكيدا معماريا في العام 1654، حين وجد الباب العالي مقرا دائما في بيت أحد الباشوات الواقع أسفل القصر على التل في الموقع الحالي لمقر حاكم إسطنبول، ومعه جزء من الأرشيفات الرسمية العثمانية. في الباب العالي كان الدخول «مباحا لكل العالم، وكان (الصدر الأعظم) يعطي مقابلات حتى لأفقر الناس». انبهر لورد شارلمونت الذي شاهد البناية في العام 1749 بروعة الأجنحة الخاصة للصدر الأعظم «الضخمة الفخمة المتناسقة» المؤثثة بساعات إنجليزية ومرايا فرنسية وسجاد فارسي.

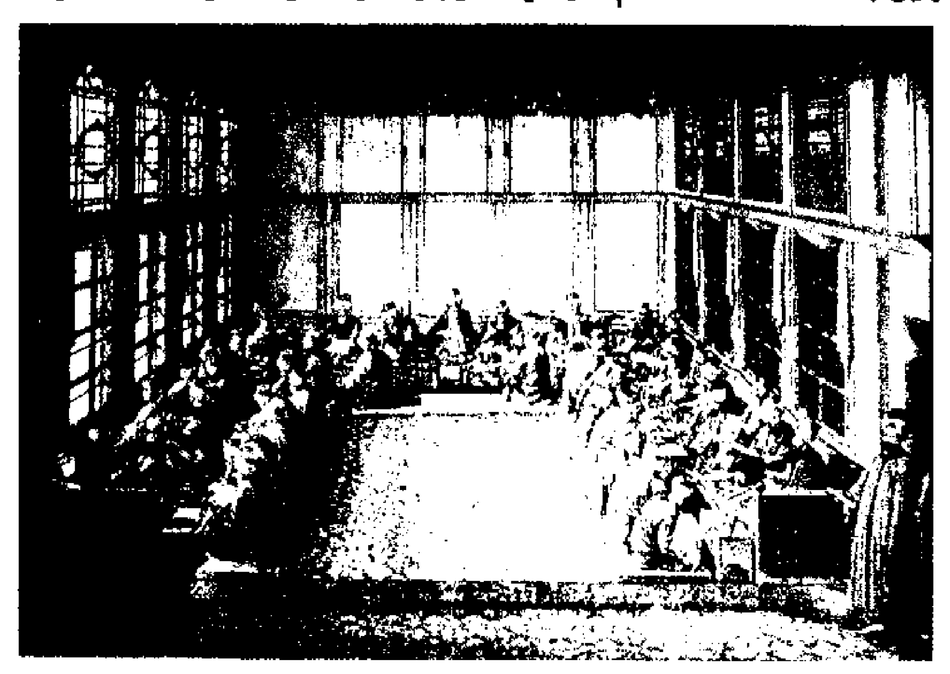


الرسام توماس ألوم Thomas Allom، مدخل الديوان، في نحو العام 1840. البوابة هي الباب العالي أي المدخل إلى مكاتب الصدر الأعظم ووزارة الخارجية. على اليسار، رجل يخيف قطيعا من الكلاب، وعلى اليمين جنود بزيهم الجديد وكشك الألاي الذي كان السلاطين يشاهدون منه المواكب.

كانت تعمل بالباب العالي بيروقراطية كفؤة من الكُتاب والنساخ (قوامها ثمانمائة وتسعة وستون في أواخر القرن الثامن عشر) يخدمون الصدر الأعظم ونائبه الرئيس أفندي (وزير خارجية) والباشوات الآخرين. وقد أسهم هؤلاء في بقاء الإمبراطورية بقدر إسهام العائلة الحاكمة والجيش. كتب لورد شارلمونت:

> لكل الوزراء الذين يمارسون وظائفهم في الباب العالي بجانب أجنحة سكناهم غرف مجاورة تضم مكاتب الوزير يعمل فيها الكتبة التابعون له. وقد دخلت خمسة أو ستة منها، وأذهلني عدد الكتبة والوضع الجسماني الفريد الذي يتخذونه للكتابة (على ركبهم بلا طاولات) والسرعة والنظام الكبيران اللذان يجري بهما العمل... وتُحفظ سجلات السابقين بأقصى حرص ممكن في العالم، ومن مبلغ دقتهم ونظامهم أن أي مذكرة أو أي حقيقة أيا كانت لمائة عام سابقة توجد في فترة نصف ساعة في أيديهم.

في نهاية القرن التاسع عشر، تباهى مسؤول بالباب العالي بأن الباب على مدار أربعمائة عام لم يفقد وثيقة واحدة. في هذه الإمبراطورية شديدة المركزية كان كل حاكم إقليمي يوجه بانتظام تقارير مكتوبة غزيرة إلى القسطنطينية، لدرجة أن وفرة التوثيق باتت تشكل عائقا أمام المؤرخين الذين يعملون على الأرشيفات العثمانية[4].



جي. إن. دي. ليسبناس J. N. de Lespnasse، مكتب حكومي في الباب العالي، 1787. كانت الإمبراطورية العثمانية إمبراطورية ورقية، تضم أجزاءها معا بيروقراطية مدققة وكفؤة، إلى جانب قوة الجيش. كانت خمسة وعشرون مكتبا بهذا الحجم تتعامل مع الشؤون المالية وحدها.

بلغ بعض الصدور العظماء من القوة ما مكّنهم من نقل المكانة والثروة إلى نسلهم. من هؤلاء محمد باشا صوكولو الذي قيل إنه أنفق على بناء ثلاثمائة مسجد، ومات وهو يمتلك أربعة قصور في القسطنطينية، وقصر مكوّن من ثلاثمائة وستين غرفة في إدرنة، وثمانية عشر مليون قرش ذهبي. ورث ابنه من أسمهان سلطان ابنة سليم الثاني، إبراهيم خان زاده جزءا من ثروة أبيه. يصف إبراهيم في إحدى وثائقه أحد أقسام سراي أبيه في أوسكودار على النحو التالي:

> القصر الخارجي تحيطه أسوار عالية ويضم قاعة استقبال كبيرة بجانبها قاعة التماسات تحيطها غرفتان، كما يضم غرفتين خاصتين وقاعة، ورواقين، وشرفة تمارين، وغرفة وضوء تواجه حديقة ونافورة، وغرفة فسيحة مسيّجة بسلك معدني أنيق ونوافذ مطعمة بعرق اللؤلؤ... كان هذا هو مجموع القصر الذي ورثته عن أبي، بيت الراحل محمد باشا.

شغل إبراهيم خان زاده عدة مناصب في القصر والحكومة مثل كبير حراس الأبواب ومدير مطابخ السلطان. عاش أحفاد خان زاده في حي كاديرغا Kadirga بالقسطنطينية في قصر صممه سنان على دخل ممتلكاتهم في إدرنة وبلغراد وفيشغراد وحلب. وكانوا يكتبون على قبورهم حول ضريح صوكولو المهيب شبه الملكي في منطقة أيوب لقب باي فندي beyefendi أي اللورد. وكما كانت الحال مع الحاشية الملكية في الغرب، كانوا رفاقا اجتماعيين للسلطان، فكان السلطان يزورهم ويسمح لهم بالدخول عليه ويستخدمهم كمديرين وراثيين للصيد. وعلى غرار السلطان، كانوا يتناسلون من خلال اتخاذ المحظيات، أكثر منهم من خلال الزيجات. وصفهم سفير بريطاني بأنهم «يحظون باحترام لا يضاهى من الناس». وكانوا أثرياء جدا لدرجة أن أحد أفراد عائلته، هو إبراهيم علي بيه Ibrahim Ali Bey، كان مطالبا في العام 1696 بأن يقدم خمسمائة جندي للجيش الإمبراطوري، مثل كبار اللوردات في فرنسا أو إنجلترا القرن السادس عشر.

ثمة فرع آخر للعائلة، هو صوكولو زاده، تحدر من اتخاذ محمد باشا صوكولو محظية أخرى. شغل الكثيرون من نسله مناصب أمين الخزانة، ورئيس الكُتاب reis - ul kuttab (رئيس المحفوظات الإمبراطورية) أو حكام أقاليم. وفي نهاية القرن الثامن عشر، كان أحد أفراد عائلة صوكولو زاده مسؤولا عن بناء سد لإمداد

القسطنطينية بالمياه[5]. وإلى هذه العائلة تنتمي والدة دينتش بلغين Dinc Bilgin مالك واحدة من أنجح الصحف التركية خلال العقد الأخير من القرن العشرين، هي جريدة الصباح Sabah.

تجلت قوة الباب العالي والنخبة المهيمنة، وإن لم تكن رسمية، مع ظهور إحدى أكثر العائلات الوزارية تمكنا في تاريخ أوروبا، وهي العائلة الوحيدة التي قدمت خمسة صدور عظماء (واثنين آخرين من أقاربها)، وهي عائلة كوبرولو Koprulu التي ظهرت على الساحة في اللحظة المناسبة.

شهدت الإمبراطورية العثمانية أزمة ثقة منذ أواخر القرن السادس عشر. وفي العام 1622، كان السفير الإنجليزي السير توماس راو الذي وصف الإمبراطورية بأنها «مستنقع من الرجال والبغاء»، على اقتناع بأن انهيارها كان وشيكا. ألقى الكُتاب من النخبة باللائمة على النظام التعليمي وتطلعوا إلى الوراء إلى عصر ذهبي أسطوري رأوه في السلطان سليمان القانوني. وأخذ العامة ينتقدون الفساد الرسمي المنتشر. وفي العام 1624 أبحر القوزاق ذوو الأصول الأوكرانية خلال البحر الأسود إلى البسفور وأحرقوا قرية يينيكوي Yenikoy ونهبوها (*).

وعلى الرغم من تعافي الإمبراطورية في عهد مراد الرابع في العقد الرابع من القرن السابع عشر، ففي العام 1656، بدا الانهيار وشيكا. فللمرة الثالثة في عشر سنوات، حاصر أسطول البندقية التي كانت تحاول الإمبراطورية أن تأخذ منها جزيرة كريت، الدردنيل. وهرب أربعة آلاف من عبيد القوادس المسيحيين وانضموا إلى البنادقة. وهجر الناس القسطنطينية بحثا عن حياة أفضل في الأناضول. وارتفعت أسعار المواد الغذائية. وصاحت الانكشارية المتمردة في السلطان: «إننا نترنح في زوايا الخانات

(*) القوزاق Cossacks جماعة من السلاف الشرقيين، تعيش حاليا في أوكرانيا وجنوب روسيا، كانت تعيش في المناطق والجزر منخفضة السكان في أحواض أنهار الدنيبر Dnierper والدون Don والتيريك Terek والأورال Ural الدنيا في جماعات بدوية ديموقراطية شبه عسكرية، أدت دورا تاريخيا كبيرا في المنطقة، اشتهرت بغاراتها على الإمبراطورية العثمانية ورعاياها بداية من النصف الثاني من القرن السادس عشر، وكانوا رأس حربة لروسيا في الحروب على الإمبراطورية العثمانية وانتزاع الأقاليم منها. ردا على إلزام الإمبراطورية العثمانية لقياصرة بولندا بكبحهم، وصلت غارات للقوزاق إلى ضواحي القسطنطينية في العامين 1615 و1625، فنهبوها وأجبروا السلطان على الفرار من قصره. في أثناء الحرب الأهلية الروسية (1917 - 1923) وقف القوزاق في صف الحركة البيضاء ضد البلاشفة الحمر، وعندما انتصر الأخيرون، فر آلاف من القوزاق إلى خارج روسيا وتعرض الباقون إلى قمع شديد، وبعد الحرب العالمية الثانية سُلم الفارون إلى الاتحاد السوفييتي بعد أن شكلوا فرقا حاربت إلى جانب دول المحور. [المترجم].

من الجوع والفقر ورواتبنا لا تكفي حتى لتغطية ديوننا إلى أصحاب الخانات». وفي يأس تحولت السلطانة الوالدة تورهان التي كانت تعيّن الصدور العظماء منذ مقتل غريمتها كوسم قبل خمسة أعوام، إلى رجل عجوز في الثمانين من العمر لا يحظى بشعبية يدعى محمد كوبرولو Koprulu Mehmed[6].

ربما يرجع محمد كوبرولو الذي ولد في قرية روزنيك Ruznik الواقعة في ألبانيا الحالية، إلى أصول ألبانية. ومحمد، الذي يرجح أنه ضُم إلى خدمة السلطان من خلال نظام الدفشرمة، عمل في مطابخ القصر قبل أن يُفصل منها بسبب كبريائه وحِدته. أخذ محمد اسم كوبرولو عن زوجته التي جاءت من بلدة كوبرو Kopru الصغيرة بالأناضول. وبعد أن شغل مناصب متعددة، منها المشرف على الطوائف الحرفية ومفتش الترسانة وحاكم إقليمي، عاد إلى الخدمة في القصر.



الرسام جاي تورينفليت J. Toorenvliet، محمد كوبرولو باشا، 1660. أول صدر أعظم من عائلة كوبرولو، تولى الصدارة العظمى من العام 1656 إلى العام 1661، وأعاد النظام إلى الإمبراطورية ورد أسطول البندقية عن الدردنيل.

ومن خلال اتصالاته مع كبير المعماريين ومعلم القصر اللذين كانا ألبانيين أيضا، حصل محمد على مقابلة سرية مع السلطانة الوالدة تورهان في الثالث عشر من سبتمبر 1656. ونظرا إلى أن الحكومة كانت في حالة من الفوضى، فقد تمكن محمد

الكوبـــرولي من فرض أربعة شروط مذهلة، وطدت لســـيطرة الباب العالي على القصر والحريم لعقود. اشترط الكوبرولي - أولا - أن يوافق السلطان على كل طلباته، وثانيا ألا يضغط عليه لمنح عطايا، فـ «تلك الطلبات غير المعقولة هي مصدر كل الاضطرابات»، وثالثا ألا يكون هناك وزراء عســكريون مســتقلون، وأخــيرا أن يكون الصدر الأعظم محصنا من الاتهامات «من كل شخص يريد نصيبا من شؤون الدولة». وقبلت تورهان بالشروط. كانت التشريفات المحيطة بالســلطان مجرد واجهة. حتى أم الســلطان لم تكن مؤمنة بأنه يجب أن يمارس الســلطة الحقيقية إلى جانب السلطة المظهرية. وفي الخامس عشر من سبتمبر 1656، عُيّن محمد باشا الكوبرولي صدرا أعظم[7].

قال الناس في الولايات: «عشــنا وشــهدنا ذلك اليوم المشــؤوم الــذي وصلت فيه الدولة العثمانية إلى أن يكون صدرها الأعظم تعيســا بائســا مثــل الكوبرولي الذي لا يستطيع حتى أن يقدم القش إلى زوج من الثيران!». بينما كان آخرون أكثر تبصرا: «هذا الكوبرولي لا يشــبه الصدور العظماء الآخرين. لقد تقلبت عليه الأقدار، وتكبد الفاقة والعوز وتقلبات الدهر، واكتسب خبرة كبيرة من الحملات ويعرف دروب العالم»[8].

وعــلى أرض الواقع، أعــاد الكوبرولي الحكومة المركزية إلى مســتوى من الكفاءة لم تعرفــه منذ زمن محمد باشــا صوكولو. عــيّن رجاله في وظائف المفتــي وأمين الخزانة، وخفّض رواتب التقاعد الحكومية، وأســس شــبكة من المخبرين في أنحاء القسطنطينية قاطبة. وهُزِمت البندقية، واســتعيدت ليمنوس(*)، وأُخمِد تمرد في الأناضول الذي كان دائمــا أكثر ميلا إلى العصيــان أكثر من منطقة البلقان. حكم الصــدر الأعظم من خلال الإرهاب. وفي ذلك أحصى جلاد حكومي واحد أنه وحده ألقى بأربعة آلاف جثة في الماء. تكشف رسالة من الكوبرولي إلى حاكم إقليمي عن أسلوب الصدر الأعظم في الحكم:

> صحيــح أننا نشــأنا معا في الحريم الإمبراطوري، وأن كلينا من محاســيب الســلطان مــراد الرابع، لكن ليكــن في علمكم أنه من هــذه اللحظة فصاعدا إذا نهــب القــوزاق الملاعين أيا من القرى والبلدات الواقعة على ســاحل إيالة أوزو(**) أو أحرقوها، أقســم بالله العظيــم أنني لن أرحمك ولن أعير انتباها إلى شخصيتك المستقيمة، بل سأقطعك إربا لتكون عبرة للعالمين.

(*) ليمنوس Lemnos جزيرة يونانية تقع في الشمال الشرقي لبحر إيجة. [المترجم].

(**) إيالة أوزو Ozu Eyalet إيالة عثمانية على طول ســاحل البحر الأسود والضفة الجنوبية لنهر الدانوب، كانت تسمى في السابق إيالة سيليسترة Silistra. [المترجم].

وقــد أمر بإعــدام بطريركين مســكونيين وبطريرك أرمني بناء على شــكوك في إجرائهم اتصالات بقوى أجنبية تكشف عن خيانتهم[9].

تمثل السلاح الأهم بيد الصدر الأعظم في استعداد السلطان الشاب محمد الرابع الــذي كان يدعوه «أبي» لأن يكون رمزا للحاكم وليــس حاكما فعليا. وُصِف محمد الرابع بأنه «رجل داكن البشرة، ذو وجه مشرق وعينين واسعتين جميلتين وسوداوين متلألئتــين... كانــت طلعتــه تبعث الكثير مــن الفخامة، والرعب أيضــا إذا أراد أن يظهره». كان الســلطان المولع بالصيد قادرا على أن يبقى في السرج من قبل الفجر إلى ما بعد الغســق. وكان يضع في رقاب صقــوره المفضلة أطواقا مرصعة بالجواهر، بينــما كان الأتباع الذين يثيرون له الطرائد يتجمــدون من البرد حتى الموت أحيانا. وكان أحد باشوات البســتانجية يكفن جثثهم بسخط مكتوم. وكان السلطان يلعنه على تعيين أمثال هؤلاء الرجال النتنين. وقيل إن الصدر الأعظم حوَّل ولع الســلطان بالذبح إلى الحيوانات لكي يحمي رعاياه، وبما يســمح للصدر الأعظم بأن يحكم من دون أن يراجعه أحد. حتى إن الصدر الأعظم الذي كان أقوى كثيرا من أي وزير أول في الغرب، كان يخبر الســلطان بما يجب أن يقوله للمســؤولين الذين يأتون لتقديم الولاء في حفلات الاســتقبال في الأعياد. تذكَّر أهل القسطنطينية في أفعاله «إبراهيم المجنون»، فأخذوا يغنون:

كان الأب مجنونا بالمرأة
وجاء الابن مجنونا بالاصطياد[10].

وعــلى رغم الاختلافــات الجلية عن العائــلات الحاكمة الأوروبيــة الأخرى، كانت العائلة العثمانية عرضة لبعض المشــكلات عينهــا التي واجهتها نظيراتها الأوروبية، مثل التطرف الدينــي والضعف البيولوجي اللذين كانا يجتمعان معا في الحاكم نفســه[*]. ونتيجــة لتزامن اعتــلاء ملوك ضعفاء أو صغار الســن العرش، مارســت الســلطانات الوالدات الســلطة إبان القرن نفسه - من 1560 إلى 1660 - الذي مارست فيه الملكات الأمهات لفرنســا كاثرين دي ميديشي وماري دي ميديشي وآن النمساوية السلطة. وفي

(*) في آل هابســبرغ حكام إســبانيا، اجتمع التطرف الديني والضعف الجسدي في شخصيات مثل كارلوس الخامس الذي اعتبر نفسه سيف الكاثوليكية وحامي العالم المسيحي ضد المسلمين، وكان فكه السفلي مشوها، ما جعله يطلق لحيته لإخفاء هذه العاهة. [المترجم].

الإمبراطوريـــة العثمانية كما في الملكيات الأخرى، تســبب الولع الملــكي بالصيد في ترك البلاط للعاصمة لفترات طويلــة. وفرت إدرنة للعثمانيين مباهج لا تقل عما وفرته لهم القسطنطينية، لكن من دون متاعب الأخيرة. فإحاطة غابات الصيد بها، جعلتها عاصمة مضــادة. فجوامعها تضاهي جوامع العاصمــة، إن لم تتفوق عليها، كما في حالة الجامع الســليمي الذي بُني للسلطان سليم الثاني. وعلى حافة المدينة، على ضفاف نهر ماريتزا Maritza، كان قصر إدرنة توبكابي آخر من الأجنحة والأكشــاك والأفنية، محاطا بمتنزه. وكانــت إدرنة أيضا نقطة تجميع للجيش في الحمــلات على أوروبا أفضل من العاصمة لأنها كانت تلغي الحاجة إلى إيواء آلاف الجنود في العاصمة. وسليمان القانوني الذي أخذ واجباته كســلطان مأخذ الجد، كان يقضي الشتاء في إدرنة، كما يقول سفير الإمبراطورية الرومانية المقدســة بوسبيك، «لأن له فيها سراي تفتح على أرض صيد يخرج للصيد فيها كل يوم تقريبا». وكان لا يعود إلى القسطنطينية إلا حين يرجع نقيق الضفادع في الليل وفي النهر المجاور للقصر ويجعل النوم صعبا [11].

هجر محمد الرابع القســطنطينية في الوقت عينه الذي هجر فيه لويس الرابع عشر باريس وللأســباب عينها: حب الصيد والخوف مــن التمرد. وقال إنه بدلا من العودة إلى القسطنطينية التي قضى فيها أسلافه ضحايا للكثير من الثورات، ود لو أنه يحرقها بيديه ويتفرج، فرحا بالنيران وهي تأكل المدينة والقصر.

جاء التحــدي لمحمد الكوبرولي من المســاجد، وليس من القــصر، فقد أخذت النزعة المحافظة أو التطرف الإسلامي في الاشتداد في القسطنطينية منذ تدمير مرصد الســلطان في العــام 1580[*]. فغُطيت اللوحات الجصية المســيحية الأخيرة الباقية في آيــا صوفيا في العام 1609. وأُهملت المدارس العلميــة والطبية، إذ اتجه الطلاب المســلمون إلى الدراسات الدينية. وفي منتصف القرن السابع عشر، ساءت العلاقات بين المســلمين والمســيحيين تماما حتى إنهم أنشــأوا مقرات مختلفة ضمن الطائفة الحرفيــة الواحدة، واشــتكى الأعضاء المســيحيون من أنهم باتــوا يتحملون نفقات الاحتفالات الإسلامية.

(*) بأمر السلطان مراد الثالث، أشرف تقي الدين أفندي في الفترة من 1575 - 1577 على بناء مرصد في القسطنطينية، لكن علماء الدين اعتبروه تجديفا وزندقة ورأوا أنه ســيجلب النحس على الدولة، فأمر الســلطان نفســه بهدمه بعد عامين من عمله. [المترجم].

وبداية من العقد الرابع من القرن السابع عشر، انبرى خطباء المساجد المعروفون باسم «القاضيزاديين»(*) في الترويج لما سمي «أفكارا متطرفة». شجبوا القهوة والتبغ والحرير والرقص، وكذلك ممارسات الدراويش مثل زيارة القبور. وأرادوا استئصال كل البدع الزائدة عن عصر النبي، حتى المآذن. ورأوا أن القسطنطينية يجب أن تصبح «المدينة المنورة الجديدة». وكما فعل معاصروهم البيوريتانيون الإنجليز، رأى المسلمون أنهم مطالبون «بالتفتيش» عن العصاة وإكراههم على العودة إلى «الطريق القويم». ووصلت العدوى إلى الانكشارية، ووقعت هجمات على مقرات الصوفية. وبلغ تهديد المتطرفين الذين اتخذوا من جامع الفاتح مقرا لهم مداه، حتى إن البطريرك المسكوني لجأ إلى السفارة الفرنسية معظم العام 1651، في مثال مبكر على استخدام السفارات ملاذا، وهو التشدد الذي بلغ أوجه في أواخر القرن التاسع عشر. وأخيرا، أمر محمد الكوبرولي في العام 1656 بنفي قاضي زاده إلى جزيرة المكروهين - قبرص - التي كانت بالنسبة إلى الإمبراطورية العثمانية مثل أستراليا بالنسبة إلى إنجلترا [12].

وفي الحادي والثلاثين من أكتوبر 1661، بينما كان محمد الكوبرولي يرقد في فراش الموت في إدرنة، زاره السلطان بنفسه تقديرا له. كانت نصائح الوزير الأخيرة لسيده هي: ألا يسمع للنساء، وأن يملأ الخزانة حتى لو بظلم الناس، وأن يشغل الجيش دائما بالحرب، وأن يغير أصحاب المناصب الرفيعة باستمرار، وأن يعاقب على أصغر الأخطاء بالقتل، وأن يظهر الاستخدام الواعي للإسلام كسلاح سياسي، وأن يضفي على الحكومة العثمانية «مظهر الدين والعدل». وفي قطيعة مع العرف، قال للسلطان أيضا إن تعيين ابنه (ابن الكوبرولي) صدرا أعظم يعد أفضل طريقة للحفاظ على الإمبراطورية من الفوضى. ووافق السلطان. وبعد نجاح واعد كحاكم إقليمي، وجد فاضل أحمد الكوبرولي نفسه صدرا أعظم في عمر السابعة والعشرين. وبالفعل أثبت أنه أصغر صدر أعظم في السن في تاريخ الإمبراطورية العثمانية وواحد من أكثرهم اقتدارا وأطولهم بقاء في الصدارة العظمى.

وفقا للموظف السابق في القصر بوبويسكي، كان «الصدر الأعظم الحالي»، على خلاف أبيه القاسي، «يحكم بطريقة أكثر رفقا ويعفو عن الناس بسهولة»، فقد

(*) «القاضيزاديون» نسب من الاسم «قاضي زاده» يعني أتباع قاضي زاده. [المترجم].

كان يقطع خيوط محافظ المال، وليس الحناجر. وفي مقابل الأب الذي لم يكن يعرف القراءة والكتابة، كان الابن شاعرا وراعيا للشعراء. وفي أثناء صدارته العظمى، أخذت المؤسسة العثمانية أولى خطواتها نحو إعادة تأسيس اتصالها بالمعرفة العلمية الحديثة. وفي الأعوام 1675 - 1685، ترجم أحد محاسيب فاضل أحمد الكوبرولي من دمشق، هو أبوبكر، إلى اللغة التركية أحدث عمل في الجغرافيا: الأطلس الكبير للجغرافي الهولندي يوهان بلايو Johan Blaeu. كتب القسيس الإنجليزي الدكتور جون كوفيل John Covel واصفا فاضل أحمد:

> إنه مجرد رجل ضئيل الحجم، في مشيته (كما رأيته كثيرا بعد ذلك) شيء من العرج، وفيه أيضا شيء من الاحدوداب، يقولون إنه ناتج عن مشكلات في عرق النساء. وجهه صغير مستدير، ولحيته قصيرة سوداء مدببة، وعيناه ضيقتان، وفمه صغير، ولا توجد تجاعيد في شفتيه، وجبهته ملساء مستديرة، وحاجباه مرتفعان وشعرهما سميك لكنه قصير جدا. ولديه بثرات كثيرة في وجهه. إنه بإيجاز، يتمتع بطلعة حادة، لكنها أخلاقية وجادة، وإذا جاز لي أن أصدر حكما، فإنني أعتقد أنه رجل داهية.

إنه شخص لا سبيل إلى رشوته. وهو قائد حربي اشتهر بأنه يتم ما يبدأه، وقد فتح بودوليا Podolia في جنوب بولندا وجزيرة كريت. وغدت الإمبراطورية في عهده أوسع مما كانت قبله[13].

اشتهر فاضل أحمد الكوبرولي أيضا بالعدل والرحمة، كما تجلى في حالة المسيح المنتظر الغريبة. فتحت تأثير صدمة مذابح اليهود في أوكرانيا في العام 1648 التي كانت الأسوأ من نوعها حتى هذا القرن، اعتقد بعض اليهود العثمانيين أن المسيح المنتظر تاجر يهودي وسيم وجذاب في عمر التاسعة والثلاثين من إزمير يدعى شبتاي تسفي Sabbatai Sevi. وفي الثلاثين من ديسمبر 1665 أبحر تسفي إلى القسطنطينية معلنا نيته خلع السلطان، فدخلت الجالية اليهودية في حالة من الهذيان. كتب كاهن كاثوليكي عن «حالة من النشوة والبهجة لا يستطيع أن يفهمها إلا من رآها». أعطى التجار تسفي كسوة ملكية فخمة، ودخلت النساء في نشوة من التكهنات. واقتناعا بأن «الهلال وكل التيجان الملكية في العالم المسيحي» كانت على وشك الانهيار، أخذ بعض اليهود يستعدون لمغادرة

القسطنطينية إلى أرض الميعاد. كانت فرصة الانعتاق من استبداد الأحبار سببا آخر لانتشائهم. ففي الوقت الذي أصبح الإسلام فيه أكثر تشددا، كانت الحياة اليهودية هي الأخرى تتحول نحو مزيد من الصرامة والتكلف، فكانت التعليمات لنساء اليهود ألا يمشين بجانب البحر أو في الأماكن العامة، كما حُرِّمت الألعاب وأصناف الترفيه. وفي المقابل، كان شبتاي تسفي ينشر مذهبا يقترب من مشاعية الجنس، حتى داخل العائلة الواحدة. كانت العاصمة تضعف لأسباب تجارية وليست دينية، وأُودع شبتاي تسفي السجن في فبراير 1666. وفي السادس عشر من سبتمبر، استقبله فاضل أحمد الكوبرولي في إدرنة.

أعجب الصدر الأعظم بذكائه ووقاره ولغته العربية، فخيّره بين القتل أو اعتناق الإسلام، فأسلم، وأصبح اسمه عزيز محمد أفندي، وخصص له راتبا ووظيفة، وتحول اسم زوجته سارة إلى فاطمة كادين، لكنهما عادا إلى دينهما بعد فترة قصيرة. وعاشا على القرن الذهبي في حي كاغيت خانة Kagithane، يترددان حينا على المساجد وأحيانا على المعابد. وبعد أن صار قِبلة للحج، نُفي «الكافر العنيد» كما وصفه الكوبرولي حينها، إلى ألبانيا في العام 1672، ومات هناك بعد أربع سنوات. بيد أن أتباعه المعروفين باسم الدونمة Donme باتوا يشكلون - ولايزالون - جماعة أخرى متميّزة ضمن فسيفساء إسطنبول، يعيش معظمهم كمسلمين محافظين. ويحتفظ بعضهم سرا ببعض التقاليد اليهودية، مثل تلاوة الصلاة باللغة العبرية. ولاتزال مجموعة أصغر منهم تنتظر عودة شبتاي تسفي باعتباره المسيح المنتظر[14].

أثارت حصافة أحمد فاضل وحزمه وحكمته وحسن إدراكه للأمور إعجاب سفير البندقية الذي قال إنه لو كان له ابن لما أرسله إلى مدرسة للسياسة غير البلاط العثماني. قضى الكوبرولي على أزمة الثقة العثمانية التي استبدت بالبلاط في النصف الأول من القرن. وبات بوسع نائب أحمد فاضل أن يكتب في العام 1667: «لاتزال إمبراطوريتنا كما كانت دائما منذ نشأتها وإلى الآن، تزداد قوتها وسطوتها باستمرار، وبإذن الله ستظل كذلك، ولن تزول إمبراطوريتنا إلا يوم القيامة». كانت الإمبراطورية العثمانية قوية بما يكفي لأن تنصب نفسها حامية للأمم المستضعفة، حتى لو كانوا مسيحيين. كتب فاضل أحمد الكوبرولي إلى مستشار بولندا أن الباديشاه الأمجد والأقوى على الإطلاق سيدافع عن الأوكرانيين المضطهدين الذين

التمسوا العون من ملاذ الكون، لكنه مات من الإسراف في معاقرة الخمر في العام 1676 في عمر الحادية والأربعين[15].

وعلى نحو ما سلكت نخبة العلماء، كانت عائلة الكوبرولي تشعر بأنها طبقة منغلقة. تزوجت أخوات فاضل أحمد الخمس من باشوات يحتلون مناصب حكومية سامية، مثل قائد الأسطول أو أمين الخزانة. وتزوج اثنان من رجال العائلة أميرات إمبراطوريات. أدارت عائلة الكوبرولي الإمبراطورية بمستوى التمكن نفسه الذي أظهرته العائلات السياسية الكبرى في القرن الثامن عشر مثل بت(*) وغرينفيل(**) اللتين أدارتا إنجلترا. وحيث إنه لم تكن هناك مؤسسات أرستقراطية رسمية تحد من صعودهم، فقد كانت سلطتهم أعلى في بعض الأحيان من نظرائهم الغربيين. ولكونها عائلة عثمانية حتى النخاع، فقد عمل أفرادها حكاما للأقاليم، وامتلكوا الأطيان، وشيّدوا البنايات في أنحاء الإمبراطورية كافة، من المجر إلى مصر. وبينما شيّد النبلاء الأوروبيون البيوت والقصور لإسعاد عائلاتهم ورفع مقامهم، بنى الصدور العظماء من آل كوبرولو من أجل عامة الناس: مساجد ومدارس وأسواقا وأسبلة وحمّامات وخانات وجسورا. وبالقرب من بازار القسطنطينية، بنى محمد الكوبرولي خان الوزير Vizir Han المقنطر المكوّن من ثلاثة طوابق. وهذا الخان القريب من حيث الحجم والوظيفة إلى رواق التسوق الحديث، لايزال إلى اليوم يغص بالورش والمكاتب. وعلى نحو ما فعل معاصره رئيس الوزراء الإنجليزي لورد كليرندون Lord Clarendon، أنشأ ابنه فاضل أحمد مكتبة عامة. ومكتبة الكوبرولي المقببة الأصغر كثيرا من مكتبة كليرندون في أكسفورد، لايزال يمكن زيارتها بجوار ضريح العائلة في شارع ديوان أوغلو Divanyolu بين جامعي السلطان أحمد والسلطان بايزيد. وبنى فاضل أحمد أيضا مُجمّعا تجاريا في ميناء إزمير التجاري المزدهر، كما بنى مساجد في الفتحين اللذين قادهما: كريت وجنوب بولندا. وبنى ابن عمه أمجد زاده حسين

(*) قدمت عائلة بت Pitt رجال دولة مقتدرين مثل وليام بت الأكبر (1708 - 1778) الذي قاد الحكومة البريطانية خلال حرب الأعوام السبعة مع فرنسا، وابنه وليام بت الأصغر (1759 - 1806) الذي شغل منصب رئيس وزراء إنجلترا في عمر الرابعة والعشرين ولأكثر من مرة. [المترجم].

(**) قدمت عائلة غرينفيل Greenville عددا من رجال الدولة والسياسيين الإنجليز من أشهرهم جورج غرينفيل (1712 - 1770) الذي شغل منصب رئيس الوزراء ومناصب أخرى عدة. [المترجم].

Amcazade Huscyin خمسة أسبلة ومجزرا وجسرين في القسطنطينية وحدها. كان لهـذه البنايات أربعة أغـراض، إذ كانت تعلن عن نجـاح بانيها لمعاصريه، وتحفظ ذكره في مُقبل الأيام، وتضمن دخلا لخلفه، وتخدم الإمبراطورية.

كانت بيوت الباشـوات حضّانات لرجال الدولة، كما كانت الحال في مدرسـة القصر أو بيوت كبار النبلاء في فرنسا وإنجلترا قبل العام 1600. وفي أواخر القرن السـابع عشر، كان أكثر من خمسـين في المائة من كبار المسؤولين العثمانيين قد سـبق لهم أن خدموا في بيوت الوزراء أو الباشوات، في مقابل تسعة وعشرين في المائة ممن سـبقت لهم الخدمة في القصر أو الجيش، وهي علامة على استحواذ النخبـة الحاكمة على ماكينة الدولة. يمثل أحد نتاجات تفريخ بيت الكوبرولي في قرة مصطفى باشا الذي خلف ابن عمه ونسيبه فاضل أحمد في الصدارة العظمى في العام 1676. تسـبب عنف مصطفى باشـا وجشعه في كراهية كل من الجيش ومواطنـي القسـطنطينية له. وفي العام 1683، حاصر الجيـش العثماني التفاحة الحمـراء - فيينـا - ولم ينقذها إلا تحالـف أوروبي من الإمبراطوريـة الرومانية المقدسـة والبابوية والبندقية وبولندا(*). وبعد الهزيمة العثمانية في فيينا، أُعدم الصدر الأعظم في بلغراد. وتواصل التقدم النمسـاوي، إذ سـقطت بودا في العام 1686، وبلغـراد في العام 1688. وفي القسـطنطينية، تسـبب الخوف من جيش مسـيحي على وشك الظهور خارج الأسوار في انهيار أسعار البيوت. وعلى نحو ما حدث في العام 1656، فر الكثيرون بمتعلقاتهم إلى آسيا. وبدأ انتقاد السلطان على تبذيره وإهماله شؤون الدولة[16].

عُـيّن أخو فاضل أحمد الكوبـرولي الأصغر فاضل مصطفـى صدرا أعظم في العـام 1680 في عمر الثالثـة والأربعين. كتب ديميتريـوس كانتمير Demetrius Cantemir المقيم السـابق بالمدينة في تاريخه للإمبراطورية العثمانية الذي نشر في العـام 1727 أن فاضل مصطفى الكوبـرولي كان «رجلا يمتاز على كل الأتراك بطهر الحياة والنزاهة والحصافة والشجاعة». وكان أيضا يمتلك ثروة طائلة ورثها عـن أخيه وأبيه، أفلتت بأعجوبة من المصادرة من جانب السـلطان. وقاد صهر

(*) كانت «التفاحة الحمراء» - كما ورد سابقا في أكثر من موضع - مجازا عن السيادة العالمية، وكانت تشير دوما إلى الأهداف العثمانية المتعاقبة، مثل القسطنطينية - قبل فتحها - وروما وفيينا. [المترجم].

وعبد سابق لمحمد الكوبرولي، هو سياوش باشا، تمردا ضد السلطان محمد الرابع، أعطى عائلة الكوبرولي الفرصة للعودة إلى الوزارة(*).

يقــال كثيرا إن التاريخ الإســلامي يتميّــز بغياب الجمعيــات التمثيلية التي وجــدت على نحو متواصل في الغرب منذ القرن الحــادي عشر أو ربما من قبله. بيد أن القســطنطينية كانــت قانونا في ذاتها. ومنذ عهد ســليمان القانوني، كان السلطان والصدر الأعظم يســتدعيان عادة جمعية من الوزراء والأعيان وعلماء الديــن كانت تعرف باســم «المجلس الاستشــاري العالي» لإضفــاء الشرعية على القرارات والتحلل من المسؤولية عنها(**). ومع ذلك فإن النخب العثمانية كانت تفتقر إلى التذوق الموروث للحرية والامتياز الذي كان القوة الدافعة وراء الثورة الهولنديــة والثورات الإنجليزية واندلاع الثورة الفرنســية. لذلك كان الصمت أو طلــب المزيد من الأوامر الإجابة المعتادة من هذا المجلس على طلب النصح من جانب الحكومة. وهذا الصمت الذي نشــأ عن الخوف من ســلطة قطع الرقاب التي بيد الســلطان، كان إحدى العلامات المميّزة للعاصمة العثمانية، بينما كانت الجمعيــات في البلــدان الغربية تتميّز بالراديكاليــة أو المحافظة أو الإقليمية أو الوطنية، ولم تكن صامتة إلا نادرا [17].

في آيا صوفيا في الثامن من نوفمبر 1687، دعا فاضل مصطفى الكوبرولي جمعية مــن العلماء وقرأ عليهم عريضة تطلب عزل الســلطان. كان الصمت هو الرد الذي جاءه، فقال فاضل مصطفى: «حيث إن الباديشــاه، كما تقول العريضة، لا يفكر إلا في إمتاع نفســه بالصيد، وفي الوقت الذي تتعرض فيه الإمبراطورية للهجوم من كل الجهات، نراه لا يفعل شيئا إلا إقصاء الرجال القادرين على التعامل مع هذه المحن،

(*) شــارك أباظة ســياوش باشــا Abaza Siyavus Pasha في حروب كثيرة، وفي الانتصار العثماني الوحيد في الحرب التركية العظمى نجح في الانقضاض على الجيش النمســاوي ورفع الحصار عن بودا. ألقى الجيش والرعية باللائمة، في الهزائم العســكرية وضياع بلغراد، على الســلطان محمد الرابع وصدره الأعظم ساري سليمان باشا، لذلك عندما عاد الجيش من الجبهة دبر انقلابا في العام 1687، وأجبر السلطان على التنازل عن العرش والصدر الأعظم على الاستقالة، وعُيّن ســياوش صدرا أعظم في 18 ســبتمبر ونُصِّب سليمان الثاني ســلطانا في 8 نوفمبر، لكن الأول حين فشل في توفير «بقشــيش الجلوس» وهي علاوة اعتادت الانكشــارية قبضها من السلطان الجديد، ثارت الانكشارية عليه، واقتحموا بيته وقتلوه في 23 فبراير 1688. [المترجم].

(**) لذلــك، عندما وضع أول دســتور عثماني مكتوب في العــام 1876، وصفته جريدة «الوقت» Vakit بأنه عودة حكيمة إلى الماضي. [المؤلف].

هل مازال لديكم شـك يا سـادة في شرعية خلع الباديشاه الذي يدير شؤون الحكم بهذه الطريقة؟ لماذا إذن تظلون صامتين؟»، فظل الصمت ردهم(*). ثم قاد الباشـا الجمعية إلى القصر. وخلعوا السـلطان ونصّبوا أخاه سـليمان. كان الخوف يسيطر على القصر أيضا، فالسلطان الجديد بعد أن أمضى أربعين عاما في سجن الحريم، كان متوجسا من أن الجلادين بانتظاره بالخارج، ورفض الخروج في بادئ الأمر.

اسـتجابة للضغط الشـعبي، أي «الرأي العام المقتنـع بنزاهته، وليس رغبة من السراي» - بتعبير السـفير الإنجليزي - أصبح مصطفـى الكوبرولي صدرا أعظم بعد سـنة. على غرار أسـلافه من الصدور العظماء الكوبروليـين الآخرين، تميّز مصطفى بموقـف نفعي من العائلة العثمانية. ولكي يحول دون عودة محمد الرابع أو أبنائه، وقـع اختيار مصطفى الكوبـرولي في العام 1691 على الأخ الثالـث - أحمد الثاني - سـلطانا. كان أحمد الثاني الذي «قيل إنه معتوه وإنه يسلي نفسه في الأساس بالدق عـلى طبلـة»، حاكما ضعيفا طيعا آخر، اعتاد قضاء أيامـه داخل القصر. حين طلب السفير الفرنسي من الإمبراطورية العثمانية ألا تعترف بعدو فرنسا وليام الثالث الذي خلف جيمس الثاني ملكا لإنجلترا (**)، أجاب صدر أعظم لاحق بأنه من السـخف أن يعـارض العثمانيون الذيـن اعتادوا خلع ملوكهم، على حق الأمم الأخرى في فعل الشيء نفسه[18].

اشـتهر فاضل مصطفى الكوبرولي بأنه لم يرتكب جريمة أو يتلفظ بكلمة في غير محلها. ألغى الباشـا العادة التي كان الباشـوات بمقتضاها يقدمون هدايا للسلطان في الأعياد، وأنشـأ مجالس للأعيان في المدن الإقليمية. ومن أجل الحيلولة دون دعم الرعايا المسـيحيين لأي غزو للبلاد من جانب الجيوش البندقية والنمسـاوية، خفض مصطفـى الكوبرولي الضرائب المفروضة عليهم ورفـع مكانتهم. وقيل إنه بُنيت في

(*) عُرف السلطان محمد الرابع باسم «الصياد» من انقطاعه للصيد. [المترجم].

(**) وليام الأورانجي William of Orange أمير هولندي تزعم حرب اسـتقلال بلاده عن إسـبانيا وحروبها ضد إنجلترا وفرنسـا، كانت أمه أخت تشـارلز الثاني ملك إنجلترا، وتزوج هو أيضا من ماري ابنة دوق يورك شقيق تشارلز الذي خلف تشـارلز ملكا لإنجلترا باسـم جيمس الثاني. كان وجود ماري البروتسـتانتية يطمئن الشـعب الإنجليزي البروتسـتانتي على أن حكم جيمس الكاثوليكي لن يدوم طويلا، لكن بعد أن وُلد لجيمس ولد غير شرعي، عمّ اليأس النـاس، ودعا الأنجليكانيون والمنشـقون الأمير الهولندي وليـام الأورانجي زوج ماري ابنة الملـك جيمس إلى إنجلترا «ليتفاوض» مع جيمس، فاستغل وليام الموقف وغزا إنجلترا وخلع جيمس واعتلى العرش الإنجليزي باسم وليام الثالث شريكا لماري باسم ماري الثانية. [المترجم].

أثناء صدارته العظمى (1689 - 1691) كنائس أكثر مما بُني في عهد الإمبراطور جوستينيان الذي دام خمسين عاما. وفي العام 1691، بصفته سر عسكر seraskier أي القائد العام للجيش، قاد فاضل مصطفى الكوبرولي، مصحوبا بالراية المقدسة للنبي محمد، الجيش العثماني في الحرب ضد النمساويين. ولكي يضرب المثل لجنوده، زحف بالقوات سيرا على الأقدام. لكنه مات في سلانكامن Slankamen على السهل المجري، ربما مقتولا على أيدي جنوده[19](*).

تكبدت الجيوش العثمانية هزائم أخرى. وأخيرا في العام 1697، عُيّن فرد آخر من العائلة، هو حسين الكوبرولي ابن عم فاضل أحمد وحاكم إقليمي وقبطان باشا سابق، صدرا أعظم في عمر الثالثة والخمسين. قال حسين للسلطان: «كان عمي وابن عمي صدرين أعظمين لأبيك السلطان محمد خان عشرين عاما، وقد أحسنا ورضي عنهما. ولو تجاهلت نصائح الآخرين، ولو أعطيتني الاستقلالية في الحكم، فإنني بمشيئة الله سأُحسِن العمل أفضل منهما بكثير».

فرد السطان: «لو كنت مخلصا لي، فسوف أعطيك الاستقلالية».

وأثبت الصدر الأعظم الجديد أنه عبقرية أخرى من عبقريات آل كوبرولو. خصص أحد المؤرخين العثمانيين الكبار - نعمية - تاريخه للإمبراطورية لـ «هذا الصدر الأعظم العلامة الذي يفيض صدره الهادئ بكنوز الحكمة والعلم والذي يفيض قلبه السامي بالحقيقة واليقين». أدرك الحاجة إلى السلام والإصلاح، فعقد من خلال وساطة السفيرين الهولندي والإنجليزي صلحا مع النمسا في كارلوفيتز بالقرب من بلغراد في العام 1699[20].

كان صلح كارلوفيتز نقطة فاصلة في التاريخ العثماني، إذ يؤشر إلى إغلاق الجبهة العثمانية في أوروبا وتحول الإمبراطورية من دولة هجومية إلى دولة دفاعية (على رغم أن بعض العثمانيين اعتبروه مجرد هدنة، ومنهم المفاوض العثماني الأساسي رامي محمد أفندي Rami Mehmed Efindi الذي قال إن سلاما مؤقتا يساوي «الجهاد» في معناه). كفاتحة لعصر جديد من السلام والبهجة، استضاف الصدر

(*) وضعت الهزيمة العثمانية في معركة سلانكامن حدا للحرب التركية العظمى التي دامت من العام 1683 إلى العام 1697 بمعاهدة كارلوفيتز Karlowitz للعام 1699 التي تنازلت الإمبراطورية بمقتضاها عن معظم ممتلكاتها الأوروبية. [المترجم].

الأعظم في قصره الساحلي على الجانب الآسيوي من البسفور سفراء إنجلترا وهولندا والإمبراطورية الرومانية المقدسة.

لايزال هذا القصر الساحلي الذي بُني في العام 1698 وصبغ من الخارج باللون الأحمر الصدئ يشكل وقفا لعائلة كوبرولو، كان يستفيد منه في العام 1995 مائة وسبعة عشر من نسل حسين الكوبرولي. شهد القصر سنوات من الإهمال. وفي أواخر القرن التاسع عشر، سكنه لاجئون مسلمون من البلقان. وفي القرن الحالي، أزيل معظم الحريم والبيوت الخارجية لتوسيع الطريق. وبنى أحفاد الصدر الأعظم - في مخالفة للقانون - بيوتا من طابق واحد في الحديقة، إذ أخذت البيوت السكنية تغطي التلال القريبة.

بقيت غرفة استقبال واحدة مزيّنة ببناء دائري أوسط مقبب فوق نافورة مرمرية. ظلت القاعة تسعين عاما في حالة من الانهيار الوشيك. تتلألأ مياه البسفور من خلال الثقوب المفتوحة في الأرضية. وقد غزت القاعة الأشواك واللبلاب الآتيتين من الحديقة. وبهتت الألواح الخشبية المثبتة على الجدران ووقعت. بيد أنه في العام 1700، كانت هذه الألواح مصبوغة بباقات ورد لامعة مرتبة في زهريات كوتاهية الزرقاء والبيضاء التي كانت رائجة في القسطنطينية. وفوق النافورة المرمرية، كان السقف تحفة من أعمال الأرابيسك. كانت الغرفة متقنة مثل مخادع السيدات في فيرساي، لكنها كانت أكثر صفاء. في هذا القصر الممتلئ بالزهور والمباهج، كان الصدر الأعظم يستقبل ضيوفه.

بزهو المنتصر، اندفع سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة الأمير فون أويتنغن فالرشتاين Von Oettingen Wallerstein على صفحة البسفور بحاشية كبيرة وفرقة موسيقية خاصة في ثلاثة قوادس. كان صوت الموسيقى غارقا في صليل السلاسل المكبل بها عبيد القوادس الذين يجدفون بالأسفل. وفي القصر، استمتع السفراء بعروض الرماية والمصارعة والبهلوانات والرقص، كما غنى لهم مطرب فارسي. وأخيرا، قُدم العشاء: حمام وتدرج ودجاج مشوي ومحشي ورق عنب والكثير من أنواع البيلاو والفطائر(*). لم يدم العشاء طويلا، لأن الخدم رفعوا الأطباق سريعا لكي يلتهموا البقايا. فإما أن الخدم كانوا منفلتين، وإما أن المضيف أراد أن ينهي هذه الضيافة المقيتة بأسرع ما يمكن[21].

(*) التدرج طائر ذَيّال شبيه بطائر الحجَل. [المترجم].

كان الصدر الأعظم يعرف باسم أمجد زاده amcazade التي تعني «ابن العم»، واسم مولوي Mevlevi لأنه كان عضوا في تلك الجماعة من الدراويش، واسم سرخوش sarhosh الذي يعني «السكران»، ذلك أن النزاهة لم تكن التقليد الكوبرولي الوحيد الذي حافظ عليه. كانت لديه رخصة بالتغيب عن الأعمال الرسمية في المساء لأنه كان يأخذ علاجا لقدمه العرجاء، لكنه في حقيقة الأمر كان يشرب كحولا قويا تحرق النقطة الواحدة منه الحنجرة. وفي العام 1702، استقال الصدر الأعظم واعتزل في بيت ريفي بالقرب من إدرنة. ومات بعد سنة من جراء صدمة عضوية بسبب الإقلاع عن الكحول. ولايزال يمكن زيارة قبره الكائن في مُجمّع مساجد رائع بناه بالقرب من جامع الفاتح بجانب قصره في المدينة.

ولد آخر صدر أعظم كوبرولي، هو محمد فاضل نعمان باشا Damad Fazil Numan Pasha ابن فاضل مصطفى باشا، في القسطنطينية في العام 1670. ولكونه رئيس مؤسسات العائلة، تمتع بدخل يزيد على المائة ألف إسكودو(*) في السنة. عمل وزيرا منذ العام 1700، وفي يونيو 1710 عُيِّن صدرا أعظم. وصفه السفير البريطاني بأنه:

> رجل معروف عنه العدل والنزاهة، ويحظى باحترام الناس وحبهم إلى أقصى حد، حتى إن ترقيته إلى الصدارة العظمى أثارت حالة من البهجة العامة. درس القانون ويحترمه جدا، يحرص كثيرا على معرفة مواقف الدول الأجنبية ومصالحها، وهو بارع جدا في ذلك فضلا عن براعته في تحقيق مصالح هذه الإمبراطورية التي يتميّز بحماس شديد لها.

توافد الآلاف على المدينة من كل من الأناضول والروملي بحثا عن العدل. ومع أن محمد فاضل نعمان باشا كان مخلصا جدا للسلطان الفاسد والقاسي أحمد الثالث الذي كان يحاول استعادة سلطة القصر على الباب العالي، فقد امتعض السلطان من ملاحظات من صدره الأعظم من نوع: «يجب أن تُدفع رواتب الجند من عائدات الإمبراطورية وليس من دم الناس». وكانت سياسة الصدر الأعظم المؤيدة للسلام مع روسيا تلقى معارضة زمرة تؤيد ملك السويد

(*) الإسكودو escudo عملة إسبانية وبرتغالية. [المترجم].

شارلز الثاني عشر اللاجئ(*). كما أنه كان رجلا غريب الأطوار يشعر دائما بأن ذبابة توجد في نهاية أنفه، وحين يخرجها تعود. عُزل محمد فاضل نعمان باشا بعد شهرين ومات وهو حاكم لجزيرة كريت في العام 1719[22].

فيما بعد، عاش نسل عائلة الكوبرولي في القسطنطينية في قصر عائلي كبير بالقرب من مكتبة الكوبرولي وحوله، وفي قصر آخر بالقرب من الجامع السليماني، وفي قصرين ساحليين على البسفور، على ريع الأطيان والمؤسسات الكوبرولية المبعثرة في أنحاء الإمبراطورية كافة. ونتيجة لأن العائلة لم تعد تنجب رجالا يتمتعون بالمهارة أو الحظ لنيل وظائف عالية، وبسبب تفتيت الممتلكات الناتج عن غياب حق البكورة(**)، تراجع ثراء عائلة الكوبرولي ومكانتها. وتولى أحمد الكوبرولي ابن محمد فاضل نعمان باشا الخطّاط الموهوب الذي توجد أعماله الآن في مكتبة الكوبرولي، على التوالي حكم ولايات سيلانيك(***) وجزيرة كريت وبلغراد وإزمير والبوسنة ووابية وحلب ومصر. كانت الحكومة تحرص على تدوير حكم الولايات الإقليمية بغرض الحيلولة دون قيام الولاة بتأسيس قواعد للسلطة المحلية. وقيل عن مسؤول كوبرولي آخر في إزمير إنه كان «يعتبر نفسه ندا للسلطان». وبعد ذلك، تولوا وظائف صغيرة في البيروقراطية المركزية. لكن في دور مختلف جذريا، عاد أحد أفراد عائلة الكوبرولي، هو محمد فؤاد، إلى البروز إبان القرن العشرين[23] (****).

تفسر خدمات بناة الإمبراطورية من أمثال عائلة الكوبرولي بقاء الإمبراطورية العثمانية، فضلا على أن الجيش العثماني بقي قوة هائلة ظلت قادرة على هزيمة الجيوش الغربية. ففي العام 1711، هزمت الجيوش العثمانية بيتر الأكبر نفسه وأجبرته على توقيع معاهدة سلام في غير مصلحته. وبقوة السلاح، استعادت

(*) بعد هزيمته أمام إمبراطورية الدنمارك - النرويج وسكسونيا - بولندا - ليتوانيا وروسيا في العام 1700، ثم هزيمته وتمزق جيشه الذي حاول غزو روسيا، لجأ شارلز الثاني عشر ملك السويد إلى (ملاذ الكون) - القسطنطينية - حيث استضافه السلطان أحمد الثالث على نفقة الدولة مع نحو ألف من رجاله، لكن أهل القسطنطينية ضاقوا بمكائد الملك اللاجئ ورجاله واستدانتهم من التجار، فثاروا واقتحموا المستعمرة السويدية في بيندر، فأخذته الانكشارية ووضع مكرما قيد الإقامة الجبرية، حتى عاد إلى بلاده. نجح شارلز خلال سنوات مقامه في القسطنطينية في إثارة الحرب بين الإمبراطورية العثمانية والروس. [المترجم].

(**) أي حق الذكر البكر في الإرث كله كما كان في التقاليد الأوروبية. [المترجم].

(***) سلانيك Selnik هو الاسم التركي لمدينة سالونيك اليونانية التي تسمى حاليا ثيسالونيكي Thessaloniki. [المترجم].

(****) هو محمد فؤاد كوبرولو السياسي والمؤرخ التركي المعروف بإسهاماته في التاريخ العثماني. [المترجم].

الإمبراطورية شبه جزيرة بيلوبونيز من البندقية في العام 1718، وبلغراد من النمسا في العام 1739. كان نجاح عائلة الكوبرولي نفسه يشكل خطرا على الإمبراطورية. فبدلا من اتخاذ الإجراءات الجذرية التي نجحت في تغيير نظامي الحكم الفرنسي والإنجليزي إبان القرن السابع عشر، أعادت العائلة الكفاءة إلى الماكينة القديمة(*). وفي العام 1689، ذكر السفير الإنجليزي أن فاضل مصطفى باشا الكوبرولي «أعلن نيته إقامة هذه الحكومة وفقا للطرق القديمة». ولم يضع حدا أعلى للأسعار لأن ذلك غير منصوص عليه في القرآن[24]. وأخذت النخبة تؤمن بأن إرث الماضي يحمل الأجوبة عن تساؤلات العصر.

لم يكن تسامح عائلة الكوبرولي مع المسيحيين وفي معالجة الشؤون الخارجية ناتجا عن موقف شخصي من جانبهم وحسب، بل عن وجود رجل بجانبهم أيضا يجمع بين أدوار ترجمان الباب العالي وعضو مجلس الدولة ومستشار السفراء الأوروبيين، هو ألكسندر مافروكورداتو Alexander Mavrocordato(**). تقدم عائلة مافروكورداتو مثالا جليا على أن اليونانيين كانوا كالعثمانيين تماما، يتخذون من القسطنطينية وسيلة للصعود، وبذلك كانوا يتحوّلون إلى خدم للإمبراطورية العثمانية. يتطابق تاريخ عائلة مافروكورداتو مع تاريخ جنوب شرق أوروبا.

كانت اللغة السبب وراء بروز عائلة مافروكورداتو. في العقد الثالث من القرن السادس عشر، كان إبراهيم باشا يتعامل مع بعض السفراء النمساويين باللغة الصربية - الكرواتية. لكن بعد العام 1580، ومع انغلاق العقل العثماني، لم يعد المسلمون يعرفون أي لغة غير العثمانية والفارسية والعربية. شكلت اللغة العثمانية بتركيب الجمل المعقدة فيها ومفرداتها المركبة، حائطا بين الإمبراطورية والعالم الخارجي. لذلك كان الصدور العظماء في حاجة إلى مترجمين للتعامل مع السفراء. وكان اليونانيون المتعلمون وحدهم يجمعون بين معرفة اللغة العثمانية واللغات الغربية. على أنه لم يكن غريبا أن يختار أفراد من أقلية لخدمة الدولة. فبالإشارة إلى استخدام الدولة الفرنسية للبروتستانت والإيطاليين،

(*) قامت الثورة الفرنسية للقضاء على النظام القديم القائم على النبلاء والإقطاع والحكم المطلق، وللقضاء على الحكم المطلق أيضا قامت الثورة المجيدة الإنجليزية. [المترجم].

(**) كان بنايوتيس نيكوسياس Panayotis Nicosias أول من شغل وظيفة الترجمان للباب العالي بعد توقف العثمانيين عن تعلم اللغات الأوروبية. [المترجم].

كتب جي إتش إليوت J. H. Elliott: «كان على رجل الدولة إبان القرن السابع عشر أن يتخذ رجاله وماله ومعرفته المهنية أينما وجدهم»[25].

وبعد سنوات، عندما بلغت مكانة الإمارة المؤقتة(*)، زعمت عائلة مافروكورداتو أن أصولهم ترجع إلى عهد جوستينيان. بيد أنهم في الحقيقة لم يظهروا لأول مرة في القسطنطينية إلا إبان القرن السابع عشر. ثمة تاجر يوناني يدعى اسكارلاتوس Scarlattos أو اسكرلوتوغلو Iskerlotoglu جمع ثروة طائلة في التزام الجمارك وإمداد المدينة بالطعام، وترك مليون قرش عندما قتله أحد جنود الانكشارية في العام 1631. وقعت ابنته الثرية روكسانا Roxana أرملة أمير ولاشيا، في حب جون مافروكورداتو John Mavrocordato تاجر الحرير الوسيم من خيوس، إحدى أغنى الجزر في بحر إيجة، وتزوجت منه. وولد ابنهما ألكسندر في العام 1641، ومات أبوه بعدها بثلاث سنوات.

ضمنت روكسانا مافروكورداتو أن يصير ألكسندر من صفوة مواطني القسطنطينية بأن أرسلته لكي يتلقى تعليمه في الغرب. درس أولا في الكلية اليونانية في روما التي أسسها منفيون من القسطنطينية في أوائل القرن السادس عشر، ثم في جامعتي بادوا Padua وبولونيا Bologna التي كتب فيها أطروحة عن دوران الدم وبذلك كان مواطنا عثمانيا بثقافة غربية. في عمر الثامنة والخمسين ناقش الطب وعلم النبات وأساليب النطق اليونانية مع عالم النبات الفرنسي بيتون دي تورنفور Piton de Tournefort الذي وجده «عالما بالشؤون الخارجية وملما باهتمامات أمراء أوروبا». لكنه أقر- على الرغم من ذلك- بأن عمره الكبير لا يسمح له بمحاكاة «جرأة الأطباء الأوروبيين» و«عقله لا يعمل إلا في السياسة حتى إنه تعجب من أنني قطعت هذه الرحلة الطويلة بحثا عن نباتات جديدة». ففي القسطنطينية، كانت السلطة والمال، وليس الاستكشاف العلمي، هما الدافع للترحال. كان الافتقار إلى الفضول العقلي لعنة المدينة. حتى إن بعض سكان غَلَطَة لم يجهدوا أنفسهم بعبور القرن الذهبي[26].

(*) الإمارة المؤقتة أي تعيين فرد من العائلة من حين إلى آخر أميرا على إمارات الدانوب مولدافيا وولاشيا وكذلك جزر بحر إيجة. [المترجم].

بين العامين 1665 و1672 أدار ألكسندر مافروكورداتو الأكاديمية البطريركية. شجع ذلك الرجل الطويل والبليغ، صاحب المؤلفات في النحو والبلاغة والتاريخ، إحياء العلم بين يونانيي القسطنطينية الذي كان يكتسب زخما بعد الحضيض الذي وصل إليه في أواخر القرن السادس عشر، عندما كادت الثقافة اليونانية الراقية تختفي من المدينة. ربما يشير شعار النبالة الخاص بالعائلة، وهو عبارة عن عنقاء تنبثق من تحت الرماد، إلى انبعاث العلم اليوناني، وليس الإمبراطورية البيزنطية. ومن العام 1668 حتى وفاته في العام 1709، ظل يشغل منصبا في البطريركية، إذ عمل على التوالي كبير الخطباء وكبير مسؤولي الوثائق وأمين المقتنيات وأمين الخزانة.

وفي العام 1670، تزوج سلطانة كريسوكوليوس Sultana Chrysocoleos وهي امرأة تمتعت فوق الطبيعة الحلوة بثروة كبيرة. كانت سلطانة من خلال تحدرها من ستيفن الأكبر أمير مولدافيا، قريبة للكثير من عائلات النبلاء بولاشيا ومولدافيا. استفاد ألكسندر من ممارسة الطب في الترقي خلال التراتبية العثمانية. فنظرا إلى كونه طبيبا للكثير من الباشوات، أصبح في العام 1671 سكرتير الصدر الأعظم فاضل أحمد باشا وطبيبه وترجمانه. وعند وفاته في العام 1675 خلفه مافروكورداتو ترجمانا. ومنذ ذلك الحين، مُنح إسكرليت زاده إسكندر Iskerletzade Iskander كما كان سادته العثمانيون يسمونه، حقوقا لم تكن مباحة لليونانيين الآخرين، مثل ارتداء القلنسوة المصنوعة من فرو القاقم وركوب الحصان واستخدام حرس مسلحين، فكان في مظهره عثمانيا تماما، ولم يكن قد تجاوز عمر الثانية والثلاثين[27].

فيما بعد، ارتبطت حظوظه بحظوظ الإمبراطورية. فبعد الهزيمة العثمانية في ڤيينا في العام 1683، أُخذ إلى السجن في سلاسل وغُرم ثلاثمائة كيس، بزيادة عشرين كيسا عن كامل الجزية السنوية المفروضة على ولاشيا، وسُجنت زوجته وأمه وضربتا، وماتت أمه بعد ستة أشهر من إطلاق سراحها. بيد أنه معرفته بأوروبا ولغاتها جعلت الحاجة إليه ماسة. وقد أثبت مرتد بندقي يدعى سيفراغا Seferaga كان السفير الفرنسي قد رشحه، أنه ترجمان غير كفء. وفي العام 1687 عاد مافروكورداتو إلى منصبه، وسجن مرة أخرى في هذه السنة ولجأ إلى السفارة الفرنسية لبضعة أسابيع في العام 1688. ومع ذلك، فقد ساعد مافروكورداتو، بأوامر حسين الكوبرولي، في ترتيب صلح كارلوفيتز بين الإمبراطوريتين العثمانية والهابسبرغية، حين أقنع كل

إمبراطوريــة أبيّة من الاثنتين على حدة بأن المبادرة جاءت من الإمبراطورية الأخرى. تكشف رســائله باللغة الإيطالية إلى السفير والوسيط الإنجليزي لورد باغيت Lord Paget عن تأدب شديد حتى على ذلك العصر الذي يتميّز بالطابع الرسمي:

السيد والراعي الأشهر والأبرز

لا أستطيع أن أصف سعادتي باستلام رسالة سعادتكم باللغة اللطف والرقة بتاريخ 20/10 من فبراير 1699 من بلغراد تحمل الأخبار المنشــودة بصحتكم الجيدة التي تعني عافية صحتي أنا أيضا بســبب الصلات القوية التي تربطنا معــا من خلال الالتزامات التي توجهنا ... لقد ســعد صدرنا الأعظم الســامي وسيدنا المكرم بالتحيات الودية والرغبات المخلصة من سعادتكم ...

المخلص لكم وخادمكم المطيع

من أدرينابول، في 23 فبراير 1699

أليساندرو مافروكورداتو

وكتب في رســالة لاحقة: «إن جاذبية سعادتكم عظيمة جدا لدرجة تجعل الحرمان الطويل مــن رفقتكم الحلوة وخصالكم اللطيفة أمرا لا يطاق بالمرة». وقد رحب الباب العالي بخدمات لورد باغيت، حتى إنه طلب بقاءه في القســطنطينية. ولم يســتطع أن يخلع نفسه أخيرا إلا في العام 1703، أي بعد أربع سنوات مما كان مخططا [28].

مكافــأة عــلى مفاوضات الســلام الناجحــة في العــام 1700، أصبح ألكســندر مافروكورداتــو عضوا بمجلس الدولة. وأعطاه الســلطان عباءة من فرو القاقم، فيما أعطــاه الإمبراطور الرومــاني المقدس مخطوطات بيزنطيــة. وفي العام 1703، عندما دخلت العاصمة مجددا في حالة من الثورة، لجأ ثانية إلى السفارة الفرنسية، واضطر إلى دفــع مائتي كيس للعــودة إلى منصبه. ومات ألكســندر مافروكورداتو في يناير 1710، تاركا خمســمائة كيس نقدا وســمعة تصفه بأنه عدو لا يستهان به، لكنه في الوقت عينه صديق مفيد. وصفته مرثية بالقول:

أبو اليونانيين واللاتينيين

والمستشار الأكبر للعثمانيين

النجم القطبي بين الوزراء

يا مثال العالِم الحقيقي[29]

من الطبيعي أن نسأل عن وجهة الولاء الأخير للرجل الذي وصفه ديبلوماسي فرنسي بأنه «أحد أفضل اللاعبين في أوروبا»: هل إلى الإمبراطورية العثمانية التي سجنته وضربته؟ أم إلى الأحلام اليونانية والروسية بإمبراطورية بيزنطية جديدة؟ في العام 1672، قرأ ألكسندر مافروكورداتو دراسة حول جوانب القوة والضعف لدى الإمبراطورية لدارس فرنسي يدعى أنطوان غالاند Antoine Galland أول مترجم لألف ليلة وليلة. كانت قوة الإمبراطورية تكمن في الطاعة العمياء من جانب رعاياها ومرونة أبنيتها. بينما كانت نقطة ضعفها تكمن في عائلة السلطان والباشوات المترفة، والدمار السنوي للطاعون، والعملة المعيبة والنظام القانوني، والافتقار إلى الموظفين المتمكنين، وعادات السلب والنهب. مؤكد أنه تمنى أن تنهار. وبعد خمسة وعشرين عاما، في أثناء المفاوضات في كارلوفيتز، أخذ ألكسندر مافروكورداتو رشاوى كبيرة من النمسا، وهي القوة الأجنبية المفضلة لديه، وشجب «تقلب الأتراك وغدرهم ونقائصهم الهمجية الوحشية الأخرى». كما أرسل إلى ڤيينا سرا نسخا من الأوامر التي أعطيت له من الباب العالي. وفي المقابل، اعتبره السفير الفرنسي متعاطفا مع الطموحات الروسية «بإعادة بناء الإمبراطورية اليونانية السابقة» وأنه مستعد لخدمة اليونانيين «حتى مع إلحاق الضرر بمصالح الباب العالي». وفي مراسلات سرية، أسماه السفير الفرنسي «عليا» Ali واستخدمه كمصدر للمعلومات العسكرية، وفي المقابل كان «علي» يتقاضى راتبا سنويا قدره ألفان وأربعمائة جنيه، زاد لاحقا. وبذلك يمكن اعتبار مافروكورداتو عميلا رباعيا، كان يعمل لحساب الإمبراطورية العثمانية وروسيا والنمسا وفرنسا. وعلى الجانب الآخر، ربما كان مافروكورداتو يتقاضى الأجور أو الرشاوى ويبيع المعلومات بمعرفة الصدر الأعظم. ففي العام 1699، احتفظت ديبلوماسيته للإمبراطورية بأراض أكثر مما كان متوقعا. وفي عصر مازاران ومارلبورو، وفي مدينة مثل القسطنطينية، لم يكن فساده وحماقاته استثناء بحال من الأحوال[30].

ومع ذلك كله، فإن الإمبراطورية العثمانية وفرت لعائلة مافروكورداتو مزايا ضخمة جعلت ولاءهم الأخير للعثمانيين، مهما كانت المبالغ التي حصلوا عليها

من القوى الأجنبية. وكما كانت الحال مع «كاثوليك القلعة» الأيرلنديين(*) الذين خدموا الإمبراطورية البريطانية قبل العام 1922(**)، آمنت عائلة مافروكورداتو بأنه مادامت بقيت الإمبراطورية العثمانية، فبإمكانهم هم ورفاقهم اليونانيين أن يستفيدوا منها. من ذلك أن ألكسندر مافروكورداتو ساعد بتأثيره في الباب العالي، البطريرك والرهبان الأرثوذكس في التصدي لهيمنة أعدائهم الكاثوليك على الضريحين المسيحيين الأساسيين كنيسة القيامة في القدس وكنيسة المهد في بيت لحم. فمنذ العام 1675، وفي مقابل دفع ألف قرش سنويا لجامع السلطان أحمد بالقسطنطينية، أُعطي البطريرك الأرثوذكسي بالقدس السيطرة على الثالوث المهم: المفاتيح والشمعدانات والسجادة، ما أثار توترا شديدا قبل اندلاع حرب القرم. وإلى جانب حيازة مناصب مربحة، كانت عائلة مافروكورداتو تقرض المال بفائدة قدرها عشرون في المائة. وبلغ الثراء بألكسندر أن كتب إلى البطريريك المسكوني: «إذا احتجت إلى المال، يمكنني بكل سرور أن أعطيك أي مبلغ تريده». وتمكن مافروكورداتو أيضا من تجديد امتيازات جزيرة خيوس - قاعدة عائلته - التي حظيت بفترة من السلام والازدهار فيما بعد حتى اندلاع حرب الاستقلال اليونانية[31].

كان صعود ابنه نيقولاس مافروكورداتو في العام 1709 إلى عرش ولاشيا أكثر إشباعا من أي شيء آخر. كان نيقولاس الذي ولد في العام 1680، موسوعيا يعرف اليونانية واللاتينية والعثمانية والعربية والفارسية والإيطالية والفرنسية، التي تعلمها جميعا في القسطنطينية، لأنه على خلاف أبيه لم يتعلم في جامعة غربية. وعمل بين العامين 1700 و1709 ترجمانا للباب العالي. ونظرا إلى أنه كان يستطيع دائما أن يذكر مصادر الاقتباسات من الذاكرة، فقد أسماه أبوه «مكتبته». كتب لاموتراي اللاجئ الهوغونوتي الذي ساعده في تعلم اللغة الفرنسية: «لم أر قط إنسانا في مثل ذاكرته اتساعا وتدريبا».

(*) كانت قلعة دبلن مقر الحكم الاستعماري البريطاني لأيرلندا قبل أن تستقل الأخيرة في العام 1922، واستخدم الأيرلنديون المصطلح الازدرائي «كاثوليك القلعة» للإشارة إلى أبناء جلدتهم الذين يتعاونون مع الاحتلال الإنجليزي «البروتستانتي». [المترجم].

(**) كان من بينهم سفير بريطاني إلى الإمبراطورية العثمانية، هو سير نيقولاس أوكونور Sir Nicholas O'Conor الذي مات في أثناء العمل في القسطنطينية في العام 1908. [المؤلف].

كانت هناك سـوابق لتنصيب أبناء القسطنطينية على عرش ولاشيا أو مولدافيا. وكان الارتباط بين يونانيي القسـطنطينية وإمارات حوض الدانوب يشتد أكثر فأكثر منـذ منتصف القرن السـادس عشر. وبدأ الأمـراء يحاكون الطقـوس البيزنطية في تنصيبهم ويسـددون ديون البطريرك المسـكوني. وانتقل يونانيون، من أمثال عائلة كانتاكوزينوس، من القسـطنطينية إلى مولدافيا أو ولاشيا، طلبا للثروة وطول العمر. وكما كانت الحال مع العائلات الدولية الأخرى، مثل آل هابسبرغ (الذين كان منهم في اللحظة عينها الأباطرة الرومان المقدسـون وملوك المجر وملوك بوهيميا وممالك كثيرة أخرى) أو آل هانوفر (أمراء هانوفر وبعد العام 1714 ملوك بريطانيا العظمى وأيرلنـدا)، كانـت عائلة مافروكورداتو قـادرة عـلى أداء أدوار مختلفة في الأوطان المختلفة في الوقت نفسه. مؤكد أنهم كانوا سينظرون إلى قناعة القرن العشرين التي عبر عنها رايموند آرون Raymond Aron الذي كتب «لا أحد يستطيع أن يكون له بلدان» بصفتها مقولة فارغة. فقد كانت عائلات مثل مافروكورداتو وكانتاكوزينوس وغيرها أبعد من أن يجعلوا أنفسـهم سـجناء هوية واحدة، وكانوا يبرزون الهوية - سـواء العثمانية أو اليونانية أو الولاشـية - التي تبدو أكثر فائدة في أوقات محددة. ومثلهم مثل الأوروبيين المتعلمين الآخرين، اعتبروا القومية مهنة، وليست قضية.

يئس ألكسـندر مافروكورداتو من صعود ابنه اجتماعيا، فضرب رأسه ومزق شعره، وقال إنه خراب العائلة. كان ألكسـندر يمارس حكمـة تاليران Talleyrand القائلة بأن الكلـمات أعطيت لنا لكي نخفي بها المعاني. كان من الواضح أن ألكسـندر الذي تزوج من سليلة سـتيفن الأكبر، وزوَّج كل أبنائه، ومنهم نيقولاس نفسه إلى أبناء أمراء ولاشيا أو مولدافيا، كانت لديه «اسـتراتيجية ملوكية» مثـل الأمراء الطموحين في الإمبراطورية الرومانية المقدسـة. وعلى الرغم من أن أمراء ولاشـيا ومولدافيا كان يعينهم السـلطان ويحكمـون لفترات محدودة، فإنهم بلغوا تلك المكانة «بفضل الله»، وتمتعوا بسـمات ملوكية مثل الحرس والبلاط وترشـيح الأساقفة. واعترفت بلاطات أوروبا برتبة سموهم الأكـثر صفاءً. وضمن التراتبية العثمانية، كانـوا في مرتبة الصدر الأعظم. ومع ذلك فقد عاش أمراء ولاشـيا ومولدافيا بين الموت والعرش بسبب وقوعهم في مركز الدسائس بين النبلاء المحليين المعروفين باسـم البويار boyar والباب العالي والقصر وروسـيا والنمسا وفرنسـا والقرم وحاجتهم إلى إشباع نهم الباب العالي إلى المال. على أن المخاطرة كانت

مقبولة. وفي ذلك قال أحد الأمراء: «فليأتي الموت متى يشاء. فقد عشت فترة طويلة بما يكفي منذ أن أصبحت أميرا». وبعد إعدام أمير آخر، تساءلت أمه: «أليس من الأفضل لابني أن يموت بهذه الطريقة من أن ينتظر الموت في سكون في الفراش؟»[32].

وكما هي الحال مع الأمراء السابقين له، نُصّب نيقولاس مافروكورداتو أميرا لمولدافيا في القسطنطينية، ذلك أن أمراء ولاشيا ومولدافيا كانوا الحكام الوحيدين الذين يُنصّبون في غير البلد التي كانوا يعيّنون لحكمه. كانت المراسم توكيدا مرئيا للهوية الثلاثية لطبقة النبلاء الفناريين الذين سُموا باسم حي الفنار الذي سكنوا فيه بيوت الطابوق والحجارة القديمة ذات الطوابق العلوية المطنفة والبارزة في الشارع(*). أولا، كان الأمير الجديد أو الفويفود voivode (اسمه الرسمي، وهو مأخوذ من كلمة سلافية تعني السيد) يصل بقارب الكياك إلى الباب العالي. وهناك كان يتسلم شارات الشرف العثمانية: قفطان من قماش ذهبي، وقفاطين أقل فخامة لمرافقيه وكوكا cuka وهي عمامة مزيّنة بالجواهر وريش النعام. وبعد ذلك يتقدم الأمير على ظهر حصان ترافقه الانكشارية إلى كنيسة الفنار. وهناك يستقبله البطريرك ورجال الدين والوجهاء اليونانيون بالمدينة. وخارج الكنيسة، يعلن خادم الصدر الأعظم: «أطال الله عمر باديشاهنا والأمير أفندي أمد الله في عمره وسدد خطاه».



شارع في حي الفنار، في نحو العام 1900. في السابق، كانت هذه البيوت المبنية بالطوب والحجارة بالقرب من البطريركية المسكونية، مساكن النخبة الفنارية.

(*) الطنف جزء حجري أو خشبي ناتئ من جدار داعم لشيء فوقه. [المترجم].

وحين يدخل الأمير أفندي الكنيســة، كان ينتقل من عالم الإمبراطورية العثمانية إلى عالم الإمبراطورية البيزنطية. فتبدأ الجوقة ترتيلة لمريم العذراء، ويصعد للجلوس على العرش، وترتل الصلوات بأن «يكلل ســيدنا نيقــولاس مافروكورداتو الأكثر ورعا وصفاءً وســموا بالقوة والنصر والثبات والصحة والســلامة، وأن يكون الله عونا له، ويهديه الرشاد في كل الأمور، ويضع كل خصومه تحت قدميه!» ثم يضع الأمير رأسه على المذبح لــكي يدهنه البطريرك بالزيت المقدس و«يقرأ عليه الصلوات التي تتلى عند تنصيب الأباطرة الأرثوذكس».

وبعد بضعة أيام، وفي بيته الخاص، كانت المراسم العثمانية تعيد تأكيد سلطتها. إذ تعزف فرقة الســلطان الموســيقى العثمانية، وتقدم إلى الأمــير راية، يقبلها قائلا: «أطــال الرب المقــدس العظيم عمر الإمبراطــور الأقوى والأكــرم والأعدل وأمد في أيامــه». وتمر الأيام في زيارات طقوســية من البطاركة أو إليهــم، وحتى إلى المفتي. وثمة مراســم أخرى للرسامة كانت تشــمل الاجتماعات مع المموّلين ورجال الأعمال بالعاصمــة الذين كانوا يعتبرون إمارات الدانوب «بيرو» أخرى(*). وأخيرا كان الأمير يركب إلى قصر الســلطان مصحوبا بنبلاء البويار والانكشارية. وهناك يتسلم عباءة مبطنــة بالفراء وعمامة أخرى، ويســتضيفه الصدر الأعظم على وليمة رســمية. وفي غرفة العرش، كان الأمير مصحوبا بأربعة من نبلاء البويار، يســجد ثلاث مرات أمام السلطان. وباسم السلطان، يعلن الصدر الأعظم: «نظرا إلى أن إخلاصه ووفاءه وصل إلى مســامع فخامتي، فإنني أتفضل بمكافأته بإمارة ولاشــيا. عــلى ألا ينقطع وفاؤه وخدماته في المســتقبل. فليقم على حماية الولايات والدفاع عنها خاضعا وخائفا من ارتكاب أي شيء على خلاف أمرنا أو أبعد منه».

وكان الأمــير يجيــب: «أقســم بحيــاتي ورأسي أن أبذل كل جهــدي في خدمة إمبراطوري الأعدل والأكرم، مادام أنه لم يسحب وجه رحمته وفخامته عن خادمه». وبعــد ذلك يغــادر القصر على ظهــر حصان، وهــو يلقي التحية عــلى الجماهير المصطفة في الشــوارع ويبعثر المــال عليهم. كانت توضع ثلاثة مــن ذيول الخيول معلقة على سواري في شكل طقوسي في أحد أركان غرفة عرشه، وكان يوزع قفاطين

(*) كانت بيرو منجم المعادن النفيســة للتاج الإســباني، خصوصا الفضة في مناجم بوتوسي، وقد اشترك رجال الأعمال الإسبان في استغلالها، إما بطريقة شرعية أو غير شرعية. [المترجم].

على المسؤولين العثمانيين. وكانت المراسم تؤكد قوته في التراتبية العثمانية والروابط بين الإمبراطورية ورعاياها الأرثوذكس.

وخلال الأسابيع التالية، كان موكب طويل من اليونانيين والأتراك ونبلاء البويار مصحوبين بفرقة موسيقية ورايات عثمانية وذيول خيول مركبة في سواري، يتقدم من القسطنطينية خلال جبال البلقان إلى بوخارست أو ياش(*). وكانت الأجراس في المدينة تدق فرحا، ويُتوَّج الأمير الجديد ويُدهن بالزيت مرة أخرى في الكاتدرائية، ثم ترافقه الجموع إلى قصره على أصوات الأبواق والطبول. وفي غرفة العرش، كان مرسوم السلطان يقرأ باللغة العثمانية ويترجم إلى الرومانية، ويقوم مسؤول عثماني بإلباس الأمير القفطان ويأخذ يده إلى العرش، وتطلق المدافع نيرانها، ويبتهج رسل السلطان، ويقبل النبلاء يد الأمير، وتختتم الاحتفالات بوليمة وحفلة فخمة[33].

من الواضح أن الحكومة العثمانية كانت ترفع من شأن اليونانيين الفناريين لكي تنجح في ضربة واحدة في تلطيف تهديدات كل من العدوان الدانوبي والسخط اليوناني. فلم يكن أبناء مولدافيا وولاشيا أهلا للثقة. ففي العام 1600، كان الأمير ميخائيل Michael أمير تراسلفانيا وولاشيا ومولدافيا يحلم بإقامة القداس في سانت صوفيا(**). و«لكوّنه سليل العائلة الإمبراطورية»، فقد نال سيربان كانتاكوزينوس أمير ولاشيا من العام 1679 إلى العام 1688 وعدا من قيصر روسيا بأن يكون إمبراطور اليونانيين، وفي الوقت نفسه كان البطريرك يشجع الهجوم الروسي على العثمانيين. أقام ديميتريوس كانتمير صهر كانتاكوزينوس في القسطنطينية من العام 1688 إلى العام 1710 رهينة لضمان حسن سلوك أبيه أمير ولاشيا. كان ديميتريوس دارسا وملحنا عثمانيا، بنى لنفسه قصرا رائعا يطل على القرن الذهبي. ونظرا إلى أن بلاط السلطان «أعظم البلاطات في العالم»، فقد أهدى الأمير السلطان أحمد الثالث «كتاب علم الموسيقى مشروحا بالحروف» الذي دوَّن فيه ثلاثمائة وواحدا وخمسين لحنا تركيا وفارسيا وعربيا وفقا لنظام تدوين خاص به. وعُيِّن أميرا لمولدافيا في العام 1710. وعلى الرغم من المكافآت التي نالها من هويته العثمانية، هاجر إلى روسيا

(*) مدينة ياش Jassy واحدة من أكبر مدن رومانيا الحالية، كانت عاصمة إمارة مولدافيا زمن العثمانيين من العام 1564 إلى العام 1859. [المترجم].

(**) في إشارة إلى الحلم باستعادة القسطنطينية وإعادة جامع آيا صوفيا إلى كنيسة سانت صوفيا كما كانت قبل الفتح العثماني. [المترجم].

بعد سـنة بناء على وعد بعرش مولدافيا له ولأحفاده تحت السـيادة الروسية.ففي القسـطنطينية، كما عـرف بعض الوزراء، كان يختفي تحت السـطح العثماني، مثل ينابيع المسـيحيين المقدسة التي تجري تحت الأرض، عالم سري من المؤامرات وأحلام التحرر عـلى يدي «الإمبراطور الحامي» أي القيصر. من ذلك أن الصدر الأعظم قال للسـفير البريطاني في العام 1710 إن بيتر الأكبر «يمني نفسـه بأن يكون في يوم من الأيام سيد القسطنطينية وأنه قال إنه يتمنى أن يدفن في كنيسة سانت صوفيا».

كانت الألقاب الأميرية تُدوَّر سريعا لإرضاء العائلات اليونانية، وأيضا لإشباع الخزانة العثمانية التي كانت تتلقى مبالغ كبيرة من كل أمير جديد. وقد نَصَّبت القسـطنطينية عـددا من الأمراء لا يقـل عما نُصِّب في فيينا. وبين العامين 1710 و1821، نُصِّب سـتة مـن أبناء عائلة مافروكورداتو وخمسـة من أبناء عائلة غيـكا Ghika وأربعة من أبناء عائلـة كاليماشي Callimachi وثلاثة من أبناء عائلة سـوتزو Soutzo وثلاثة من أبناء عائلة راكوفيسـتا Racovitza واثنان من أبناء عائلة مـوروسي Mourousi واثنان من أبناء عائلة إبسـيلانتي Ypsilanti وواحد من أبناء عائلة مافرويني Mavroyeni أمراءً في بوخارسـت أو ياش (إضافة إلى أربعة من أبناء عائلة مافروكورداتو وأربعة من أبناء عائلة غيكا وأربعة من أبناء عائلة سـوتزو وأربعة من أبناء عائلة كاليماشي واثنان من أبناء عائلة إبسـيلانتي وخمسـة من أبناء عائلة موروسي شغلوا وظيفة ترجمان الباب العـالي، ومنصبا آخر هو ترجمان الأسـطول، وهما منصبان أعطيـا الفناريين مزيدا من السـلطة والثروة). وصلت هذه العائلات إلى المدينة قبل العام 1650 من مناطق كثيرة مختلفة: ألبانيا (عائلة غيكا) وإبيروس(*) (عائلة سـوتزو) وطرابزون (عائلتا إبسيلانتي ومـوروسي) ورومانيا (عائلتـا كاليماشي وراكوفيسـتا) وجزر بحر إيجـة (مافرويني). اسـتجابت هذه العائلات التي كانت تعمل أصلا في التجارة وملكية السـفن إلى إغواء العظمـة الذي كانت تبعثه المدينة فيمن يراها، وبـدأوا بادعاء الأصول البيزنطية (كما ادعى المموّلون الأرمن انتسـابهم إلى الملـك داوود). وربطتهم الإمارة المؤقتة في حوض الدانوب بالإمبراطورية العثمانية، وأشـبعت توقهم الشـخصي إلى المال والسلطة، فضلا عـن رغبتهم القومية في دعم القضايا اليونانية. كما وفرت لهم الوسـائل لبناء الكنائس

(*) إبيروس Epirus منطقة تاريخية في جنوب أوروبا تقع بين جبال بندوس Pindus والبحر الأيوني، تتقاسمها حاليا اليونان وألبانيا. [المترجم].

والمدارس وإثــراء البطريركية. وفي أوج قوة الفناريين، وبما يصب في مصلحة البطريركية المسكونية، لكنه جاء على حساب الأرثوذكس الناطقين باللغة العربية، نال رجال الدين الناطقين باليونانية السـيطرة عـلى البطريركيتين الواقعتـين في أنطاكية والقدس ودير جبل سـيناء(*). وألغيت الأسقفيتان الصربية والبلغارية المنفصلتان الواقعتان في بيتش وأوخريـد في العامين 1766 و1767 على التوالي. ومنذ ذلك الحين، بدأت الأوامر الدينية تأتي إلى العرب والسلاف باللغة اليونانية[34]. شبّه بعض الفناريين دورهم في الإمبراطورية العثمانية بالدور التمديني الذي مارسه اليونانيون في ظل حكم الرومان(**).

في بوخارسـت أو ياش- المعقلان الوحيدان في البلقان للثروة والترف الموروثين- كان الأمـير يدخل عالما جديدا يقع عـلى تقاطع ثلاث ثقافات: الأرثوذكسـية والكاثوليكية والإسـلامية، وثلاث إمبراطوريات: الهابسـبرغية والروسـية والعثمانية. كان يقوم على خدمة الأمير مسـؤولون ذوو مناصب فخمة شغلها جميعا في أوقات مختلفة أفراد من عائلـة مافروكورداتو، وهي الجراند بوسـتولنيك Grand Postelnic (وزير الخارجية) والجراند سباتار Grand Spatar (وزير الداخلية) والجراند هيتمان Grand Hetman (وزيـر العـدل). وكانت القصور تؤثـث بطريقة نصف شرقية ونصـف أوروبية، وكان نبلاء البويار يعيشـون حيـاة البطالة التي تتخللها الحفلات الراقصـة وتبادل الزيارات والعلاقات الغرامية. وبحلول القرن الثامن عشر، كان التأثير العثماني قد بلغ أوجه، فأخذ هؤلاء النبلاء يأكلون طعاما عثمانيا ويلبسون أزياء عثمانية.

في نهاية القرن، أبهر بلاط أمير مولدافيا، وهو ألكسـندر مافروكورداتو لاحق، في ياش، الكاتب والنبيل تشـارلز جوزيف أمير لاين الذي يمثل أوروبا المتحضرة(***). كان بـلاط الأمير في رأيه يحوي «مـا يكفي من المقتنيات الشرقية ما يجعله في قلب آسـيا، ومن الحضارة ما يفوق بعض البلاطات الأوروبية»(****). كان الأمير يعطي أصدقاءه من الرجال «تفويضا مطلقا للمتعة» بالسماح لهم «بزيارة» النساء في بيت

(*) لايزال اليونانيون يسيطرون على دير سانت كاترين بسيناء إلى اليوم. [المترجم].

(**) عـلى أسـاس المقولة التاريخية الرائجة بأن الرومان غزوا اليونانيين عسـكريا، بينهـما غزاهم الأخيرون ثقافيا وفكريا. [المترجم].

(***) آل لاين Ligne واحدة من أقدم عائلات النبلاء البلجيكية، ترجع أصولها إلى القرن الحادي عشر إلى قرية بالاسم نفسـه بمنطقـة والونيا Wallonia بجنوب بلجيـكا، ترقت في المراتب حتى منحها الإمبراطـور رودولف الأول لقب أمير لاين وأمير الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وتشارلز جوزيف (1735-1814) هو الأمير السابع بهذه العائلة. [المترجم].

(****) على أساس أن الحضارة سمة لأوروبا من دون غيرها. [المترجم].

زوجتــه، شريطة أن يجتازوا أولا فحصا طبيــا. «كان مافروكورداتو لا يرى إلا وجوها ســعيدة. فيأخذ الناس بعضهــم، ويتركون بعضهم، بلا حســد ولا غيرة». انبهر لاين بالأذرع المرمرية والفســاتين الشفافة للســيدات المتكئات على الديوان، والتعليقات الجانبيــة في محادثاتهن من نوع «هنا ذُبــح أبي بأمر من الباب العالي، وهنا ذُبحت أختي بأمر من الأمير»[35].

تــضرب حياة نيقــولاس مافروكورداتــو المثل على المكافــآت والأخطار التي كانت تحيط بعرش ولاشــيا ومولدافيا. فحــين عُيّن أمير آخر لمولدافيا خلفا له في الســابع والعشرين من نوفمبر 1710، لجأ لدى عودته إلى القســطنطينية، كما فعــل أبوه من قبله، إلى الســفارة الفرنســية، إلى أن دفع تبرعــا ضخما للخزانة العثمانية لإعفائه من تهم بالفســاد. وقبل أن يُعيّن أميرا لولاشيا في العام 1716، أثبت نيقولاس ولاءه للإمبراطورية العثمانية بتحمل الســجن لســنتين في سجون النمســاويين في أثناء حرب الأعــوام 1716-1719. وحث الــولاء للعثمانيين بين رعاياه من خلال تذكيرهم باضطهاد الهابسبرغيين الكاثوليك للرومان الأرثوذكس في ترانســلفانيا[36]. وكوفئ على ذلك بتعيينه أميرا لولاشــيا لمرة ثانية من العام 1719 حتى وفاته في العام 1730.

كان أبوه متمسكا بالتقاليد يؤمن بأن موسى كان أعظم المؤرخين. أما نيقولاس مافروكورداتــو، فكان مواطنا لما أســماه معــاصروه «جمهوريــة الأدب»، وهي الجماعة الفكرية بأوروبا الغربية. فأنشــأ في بوخارست مدارس ومكتبات عامة، ورعى مطابع يونانية وعربية. وإبان القرن الثامن عشر، صارت بوخارست وياش، بدرجة أكبر من القسطنطينية أو جبل أثوس، مراكز للثقافة اليونانية. جمع الأمير نفســه مكتبة رائعة، بإحضار بعض من كتب أبيه من القسطنطينية وشراء كتب جديدة من أمستردام ومخطوطات قديمة من جبل أثوس. يوجد الكثير من هذه الأعــمال حاليا في المكتبات العامة برومانيــا ومكتوب عليها (ليس عثمانيا وليس يونانيا، بل قسطنطيني). بعد العشاء الثقيل، كان نبلاء البويار ينامون ساعتين أو ثــلاث على الأقل. أما نيقــولاس مافروكورداتو الذي لم يكن يقضي أكثر من نصف ســاعة في أي وجبة طعام، فكان يذهب إلى مكتبته لدراسة علم النبات أو تعلم العبرية أو قراءة أحدث الكتب الفرنسية أو مراسلة رئيس أساقفة كانتبيري[37].

في سنوات الخلو من الإمارة، طبع نيقولاس أعمال أبيه التي تقدم - جنبا إلى جنب مع أعماله - نافذة إلى عقل الفناريين. كتب ألكسندر مافروكورداتو باللغة اليونانية الكلاسيكية، وليس بما أسماه «لهجة السوقة»، التي قصد بها اليونانية التي يتحدثها الناس. يتجنب عمله «كتاب الواجبات» Book of Duties الذي أعجب معاصروه كثيرا، إغراء النزعة المثالية. يثني فيه على التظاهر بالفضيلة كوسيلة لتجنب الفضائح، ويعتبر الفقر أشد الأمراض فتكا، ولا حديث فيه عن الحرية:

> لا تفعل ما تريد، ولا ما تستطيع، بل ما يخدم مصالحك.
> لقد نجحت من خلال التركيز في الفوز بحظوة أحد الوزراء، لكنه الآن راح وحل غيره محله، ثم الأخير وجاء غيره. وفي كل مرة، كان عليّ أن أبدأ من جديد.
> إذا زرت مكتبا حكوميا، فعليك أن تدخل أعمى وتخرج أصم.

تكشف نصيحة نيقولاس مافروكورداتو إلى ابنه في العام 1727 عن النظرة العملية عينها:

> لا تعد، وإن وعدت فلا تخلف.
> الغضب انفعال قاتل، وللدماثة قوتها.
> لا تكن كريما، بل كن مقتصدا. ولا تكن طماعا، بل أحسن تدبير ما في يدك.
> مد ساقيك بقدر ما يسمح غطاؤك.
> يؤدي الإحسان بلا تعقل إلى أمراض كبرى وإلى حياة من التبذير العام، والإحسان إلى شخص سيئ النية يضر المجتمع كاملا»[38].

وبين العامين 1717 و1720، كتب نيقولاس مافروكورداتو أول رواية حديثة باللغة اليونانية «نزهة فيلوثيوس» The Leisure of Philotheus التي تجري أحداثها في القسطنطينية، وفيها يمشي مجموعة من الأصدقاء في الأتميدان، ويقابلون ثلاثة رجال يرتدون ملابس الفرس، ويزورون غَلَطَة ويتحدثون بين الأكشاك والأسبلة والعطور المبهجة لإحدى الحدائق العثمانية. يناقشون كل شيء: الإلحاد، وحب النساء المسلمات للرجال المسيحيين، وطبيعة الغيرة، وأبطال

العصور القديمة، وحِكم لاروشـفوكو(*)، وحياة شـارلز الثاني عشر ملك السويد. شجب مافروكورداتو الممارسـات الخرافية للإسلام العثماني وافتقاره إلى «فلسفة أكـثر صلابـة تسـتند إلى الحواس». كانت معضلـة الفناريـين واضحة، كما يقول الـراوي، وهي «أننا كنا يونانيين بقدر ما سـمحت لنا الظروف». لكنه في الوقت نفسـه يثني على التسامح الديني للقسطنطينية، وعودة العلم، و- ربما على نحو ساخر- شـجاعة أحمد الثالث وشـهامته وحكمته: «تسـع روحه المتعقلة روح السـلطنة كاملة التي تعمـل وتتحرك بعبقريته الملحوظـة». ولا ذكر في الرواية للنهايات الشـنيعة التي تعرض لهـا في العام 1714 أربعة من أبناء قسـطنطين برانكوفـان Constantine Brancovan أمير ولاشـيا وصهـره، الذين أعدموا بتهمـة الخيانة العظمى وعُرضـت جثثهـم أمام البـاب الإمبراطوري للقصر ثم رُميـت في البحر. ولا يشـير نيقولاس مافروكورداتو أيضـا إلى ما حدث بعد ذلك بسـنتين من إعدام ما لا يقل عن عشرة من أفراد عائلـة كانتاكوزينوس من كل الأعـمار. ربما يرجع صمته إلى أنه أبلغ السـلطات العثمانية بنفسـه عن هؤلاء الأقارب والمنافسين(39).

كان دير فاكاريسـتي Vacaresti الذي بناه نيقـولاس مافروكورداتو في الأعوام 1716-1722 في غابة خارج بوخارست، رمزا بالحجارة لطموحات عائلة مافروكورداتو. هذا الدير الـذي يغطي مائة وثمانين ألف متر مربع، والأكبر في جنوب شرق أوروبا، والأكبر حتى من أي من مؤسسـات عائلة كوبرولو، يتكون من كنيسـة ودير وقصر ومكتبة. وفي حين كانت أجراس الكنائس غير مسـموح بها في القسطنطينية، احتوى دير فاكاريستي على برج أجراس رائع. وفي الكنيسة، توجد مجموعتان من اللوحات الجصيـة تصوِّر الأمير مـع زوجته الثانية سـمارغدا Smaragda محاطيَن بأطفالهما ونبلاء البويار. تنتمي وقفتهما وهما يحملان نماذج للكنيسـة في أيديهما، إلى الميراث البيزنطـي، وعباءاتهـما المبطنة بالفـراء إلى التأثير العثماني، والتاجـين اللذين على رأسيهما إلى ولاشيا.

(*) فرانسـوا لاروشـفوكو Francois La Rochefoucauld (1613-1680) مؤلف حِكم وقواعد سلوكية ومذكرات فرنسي، منها كتابه «تأملات أو حِكم أخلاقية». [المترجم].

كُتب على تابوت مرمري أبيض في الكنيسة متوجا بشعاري ولاشيا ومولدافيا مرثية للأمير نصها:

> يملأني منظرك أيها القبر بالعجب، لأنك تحوي نيقولاس، أمير مولدافيا أولا ثم ولاشيا. لقد هداه الله إلى تشييد كنيسة الشموس الثلاث هذه، شمس حكمته وشمس علمه وشمس مرآة من تعلموا من دراساته، إنها شموس نسل اسكارلاتي Scarlatti. كان أبوه ألكسندر عضو مجلس شورى الإمبراطورية العثمانية. ومَنْ توجته الموزيات(*) بغار المجد، متوج الآن بقبر من المرمر، إذ استسلم للسوط القاسي للطاعون تاركا أطفاله لحزن لا يحتمل، وكذلك زوجته وحشد من أقربائه. لنثني عليه بفضائله، ولندعو الله أن يسكن روحه في حدائق خضراء[40].

وفي العام 1986، أمر الرئيس نيكولاي تشاوشيسكو بهدم الدير الذي استخدم سجنا لمدة طويلة (الذي ربما كان الرئيس نفسه أحد نزلائه في يوم من الأيام). واليوم يغطي متنزه عام على اسكوريال عائلة مافروكورداتو(**).

يمكن إرجاع هذه الهمجية إلى الذكريات الباقية لدى الرومانيين حول الاستغلال الذي تعرضوا له على أيدي الباب العالي والفناريين. فعلى مدار القرن الثامن عشر، كانت القسطنطينية تتلقى كميات متزايدة من الذهب والطعام من الإمارتين، إذ كان نحو ثلثي الإيرادات الحكومية ينفق خارج الولايتين. حتى المال الذي بُنيت به مكتبة نيقولاس مافروكورداتو كان مغتصبا من الولاشيين. واشتكى المؤرخون المحليون من أن اليونانيين من القسطنطينية تكاثروا في بوخارست وياش حتى خلا الفنار منهم. حكم مافروكورداتو مولدافيا من خلال الأبهة والإرهاب، على طريقة الباب العالي، «ليس كأمير حقيقي، بل كأسد بري ... إذ نشر الرعب، حتى كان مجرد ظهوره يجعل المرء يرتعد»[41].

كان الفناريون والبطريركية - في المقابل - يشعرون بولاء متجدد إلى الإمبراطورية العثمانية. تتجلى روح التعاون بين اليونانيين والعثمانيين في الرسائل

(*) الموزية - muse - في الميثولوجيا اليونانية - إحدى الإلهات التسع الشقيقات اللاتي تحمين الغناء والشعر والفنون والعلوم. [المترجم].

(**) تشبيها للدير بمُجمَع الإسكوريال Escorial في مدريد الذي سيرد مزيد حوله في حاشية لاحقة للمترجم. [المترجم].

التي أرسلها البطريرك إلى السلطان التي يطلب فيها الإذن بسجن كهنة متهمين بالهرطقة أو غيرها من الجرائم أو نفيهم. كان البطريرك يوجه رسائله مباشرة إلى «مقامك السامي، سلطاني الأقوى على الإطلاق، أدام الله على سموك الصحة والعافية»، ويوقّعها بالعبارة «خادمك البطريرك اليوناني للقسطنطينية». ووصل الشعور بالحرية لدى اليونانيين أن جرأهم على التظاهر أمام الباب العالي في حال رفضهم البطريرك الجديد. تزوجت إليزابيث سانتي لوماتشا Elizabeth Santi Lomaca ابنة ترجمان يوناني كان يعمل في الباب العالي، من تاجر قماش فرنسي يدعى لويس شنير Louis Chenier، وأنجبا الشاعر أندريه شنير Andre Chenier. كانت إليزابيث، مثل معظم اليونانيين، تنظر إلى الحكم العثماني بعينين. فمن ناحية، أثنت على السلطان محمود الأول (1730-1754) بصفته الرحيم المهذب الذي يستحق الصفة «الأكبر». ففي طريقه إلى صلاة الجمعة، كان يمكن لأي من رعاياه، ذكرا أو أنثى، مسلما أو مسيحيا، أن يلتمس عدله. وكان قوله المفضل: «الأقوياء لا يكونون عظماء إلا إذا كانوا في عون الضعفاء». لكنها - في المقابل - تصف اليونانيين بأنهم «تعرضوا للاستعباد والذل على أيدي الشعب الهمجي»[42].

وبينما لف النسيان عائلة كوبرولو، احتفظ عرشا مولدافيا وولاشيا لعائلة مافروكورداتو بالثراء والسلطة. ففي العام 1731، انتخب نبلاء البويار قسطنطين ابن نيقولاس الذي ولد في العام 1711، أميرا لولاشيا، وهو في عمر العشرين. وحكم لمدة ستة وعشرين عاما، ست ولايات لولاشيا بين العامين 1731 و1763، وأربع ولايات لمولدافيا بين العامين 1740 و1769. كان قسطنطين الشخص الوحيد الذي كان في مقدوره أن يقول: «عندما بدأت ولايتي السابعة» أو «بالقرب من نهاية ولايتي التاسعة». أصدر قسطنطين الأقل وحشية من أبيه مراسيم في العامين 1746 و1749 تستهدف تخفيف عبء قنانة الأرض شديد الوطأة عن كاهل الفلاحين، وتخفيف الضرائب والسخرة. كان بعض الفلاحين يعيشون في حفر في الأرض ويبيعهم ملاك الأراضي ويشترونهم كالعبيد في أسواق العاصمة. ولم يكن قسطنطين مافروكورداتو متعصبا للثقافة اليونانية. فتحدث اللغة الرومانية، وكلّف بوضع أول كتاب لقواعد اللغة الرومانية، وجعل الرومانية لغة الكنيسة،

وليس السلافية أو اليونانية. ومع نهاية القرن كانت كل بلدة تضم مدرسة رومانية وأخرى يونانية[43].

وعلى نحو ما حدث لأبيه وجده، عاش قسطنطين بين العرش والسجن واللجوء إلى السفارة الفرنسية. فنتيجة لعجزه عن دفع طلبات الباب العالي الأخيرة واتهامه بالخيانة، سُجن قسطنطين في أسفل بئر على جزيرة ليمنوس في العام 1749 وفي قلعة الأبراج السبعة في العام 1758 والعام 1763. وعلى الرغم من أنه كان يقضي جل وقته في مولدافيا أو ولاشيا، فقد احتفظ أيضا ببيت في غَلَطَة، ضم مكتبته التي كانت مصدر فخر ليونانيي القسطنطينية. وعندما عرض سفراء أجانب أن يشتروا البيت، «اتحدت الأمة اليونانية كلها في مطالبته بالاحتفاظ به». لكنه اضطر في العام 1757 إلى بيع بيته ومعظم مكتبته لدفع مبلغ ثلاثمائة كيس فرضها عليه الباب العالي. وفي العام 1769، تعرض قسطنطين مافروكورداتو للسجن لآخر مرة في ياش على أيدي جيش روسي غاز في بداية الحرب الروسية - التركية. وفي هذه الحادثة، قال للروس، إما من باب الولاء للأتراك وإما الخوف منهم، حيث كان اثنان من أبنائه محتجزين رهائن في القسطنطينية: «سيعود الأتراك غدا وسيطردونكم من هنا كالكلاب». ومات في هذه السنة ودفن في كاتدرائية ياش[44].

وظل ألكسندر ابن قسطنطين - أمير مولدافيا من العام 1782 إلى العام 1785 - المعروف باسم ديلي بيه Deli Bey أو «السيد المجنون»، وفيا لميراث عائلته في خدمة العثمانيين. كانت الفقرة التي صُدِّر بها هذا الفصل، رده الغاضب على قنصل نمساوي رفض أن يخاطبه بلقب «صاحب السمو الأكثر صفاءً». ورد على ضابط روسي عرض عليه إمارة مستقلة، بالقول إن ولاء عائلته كان دائما لسلطان واحد، و«إنني أفضل الفقر مع الشرف على ثروات كروسيوس مع العار(*). ومن الأفضل لصاحبة الجلالة (كاترين الثانية) أن تتعامل معي كصديق تركي، وهو ما لا ينتقص من مسيحيتي، وعلى النقيض مما تطلبوه مني، يأمرني ديني المسيحي بأن أكون مخلصا لإمبراطوري». وبعد أن عُزل ألكسندر

(*) كروسيوس Croesus ملك ليديا Lydia من العام 560 قبل الميلاد حتى هزيمته أمام الفرس، اشتهر بثرائه، وذكر هيرودوت وبوسانياس هداياه التي بقيت في معبد دلفي. [المترجم].

بضغط نمساوي وروسي، مات في القسطنطينية في العام 1812. ثمة يونانيون آخرون أرضاهم ازدهارهم المتنامي والزيادة في أعداد المدارس والسفن اليونانية. وفي ذلك كتب أحد اليونانيين: «الإله الغالب على كل سكان القسطنطينية هو المصلحة الخاصة المالية، وكل شيء ما عدا ذلك ثانوي. إلى هذا الحضيض أنزلت العبودية أمة الرومان».

كان الله والثروة Mammon يدعمان الإمبراطورية العثمانية. ففي العام 1798، عندما غزت جيوش الجمهورية الفرنسية مصر وهددت الإمبراطورية نفسها، نشر بطريريك القدس - أو البطريرك المسكوني غريغوري الخامس مستخدما اسم الأول- في القسطنطينية اعتذارا يونانيا للإمبراطورية العثمانية بعنوان «العظة البطريركية، قال فيه إن الله رفع إمبراطورية العثمانيين فوق كل الممالك الأخرى ... لكي تكون للغربيين لجاما، وتكون لنا نحن الشرقيين مُخلِّصا ومنقذا. ولهذا السبب، يضع الله في قلوب سلاطين العثمانيين ميلا إلى الحفاظ على حرية المعتقدات الدينية لديننا الأرثوذكسي، وزيادة على ذلك يحمون هذه العقائد إلى حد أنهم من حين إلى آخر يعاقبون المسيحيين الذين ينحرفون عن عقيدتهم.

أما القيود على بناء الكنائس الجديدة، فقد أعادت الفقر المقدس الذي ميّز الكنيسة المبكرة. وكذلك الحرية، كانت «سُما مدمرا يلقي بالشعوب إلى المهالك والاضطرابات». لقد دمرت الحرية في السنة السابقة منافس القسطنطينية القديم: جمهورية البندقية (التي غزتها الجمهورية الفرنسية). واختتم البطريرك بصرخة من القلب: «إننا هنا لسنا في مدينة البقاء. فمدينتنا التي نبغي في الآخرة»[45].

وعلى أي حال، فقد بدأ بعض اليونانيين، حتى من الأمراء أصحاب الامتيازات من عائلة مافروكورداتو، ينظرون إلى الولاء لإمبراطورية العثمانيين على أنه خيانة. وجاءت قوة روسيا في عهد كاترين الثانية لترفع مستوى التوقعات. من ذلك أن أخا ديلي بيه الأصغر ديمتريوس مافروكورداتو، وزير العدل بمولدافيا في العقد قبل الأخير من القرن الثامن عشر، بدلا من أن يعود إلى القسطنطينية، بقي في وطنه الجديد الذي أسس فيه الفرع الروماني لعائلة مافروكورداتو. ثمة ألكسندر مافروكورداتو آخر، كان ترجمانا سابقا وأصبح أميرا لمولدافيا، وعرف

باســم «الفار» firari أي اللاجئ بســبب هروبه إلى روسيا من ياش في الخامس والعشرين من يناير 1787. وفي القسطنطينية، اضطرت زوجته زامفيرا Zamfira إلى أن تبيع ملابســها حتى تجد الطعام، لكنها لحقت به لاحقا. اســتقر الزوجان في موســكو، وفيها بدأ «اللاجئ» يكتب قصائد تحض اليونانيين على نيل حريتهم بأيديهم وليس بأيدي القوى الأجنبية. وبعد تسعة عشر عاما، في العام 1806، فر أبنــاء عمومة عائلة مافروكورداتو من عائلة إبســيلانتي، الذين كانوا على اتصال سري بعملاء روس منذ عقود، هم أيضا إلى روســيا. وفي العام 1813، لاحظ جون كام هوبهــاوس John Cam Hobhouse الــذي طاف بالمنطقة مع لورد بيرون، عمق كراهية اليونانيين للأتراك: «تتجه كل آمالهم (اليونانيين) إلى إعادة المملكة البيزنطية في شــخص أي مســيحي، ويا حبذا لو كان مسيحيا من كنيستهم»[46]. كان الفناريــون يغادرون العالم المألوف للطموح العائلي إلى العالم الجديد للنزعة القومية. ولم تعد المدينة ترضيهم، حتى إن أحد أفراد عائلة إبســيلانتي أســماها «بربربوليس» وليس «كونستاتينوبوليس»[47](*).

(*) تذكــر أن الاســم البيزنطــي للمدينــة هــو «كونســتانتينوبوليس» Constantinopolis الــذي يعني «مدينة قســطنطين»، وقد استعاض هذا اليوناني عن «قســطنطين» بكلمة برابرة ليجعلها «مدينة البرابرة Barbaropolis، في إشارة إلى الحكم العثماني. [المترجم].

7

وثائر المتعة

دعنـا نـزر سـعادت أبـاد يـا سَرْوَتِي
المتمايلة، هيا![*]

نديم، نحو العام 1757

كان المنظـر View هو المتعـة العظمى في القسطنطينية. فكان اجتماع الماء والعمارة أخاذا حتى وصف الشـعراء البسـفور بأنه ألماسة بين زمردتين، والجوهرة في عقد الإمبراطورية العالمية. وأثر حب المنظر في تصميـم بيوت المدينة. من ذلك أن المعـماري الإنجليزي سي آر كوكريل C. R. Cockereil كتـب: «تُخطـط الغرف بحيث يكـون لكل واحدة منهـا نوافذ على جهتين على الأقـل، وأحيانـا على ثـلاث جهات، وعـادة ما تكـون النوافذ كبـيرة جدا لدرجـة تعطي تأثير البيـت الزجاجي. يبدو أن الأتراك هم الشـعب الوحيد الذي يقدر نور الشمس الساطع ومتعة

«كان هنـاك مثل محلي يقول إن أمر السـلطان يدوم من منتصف النهار إلى الساعة الواحدة»

(*) سعادت أباد أو السعادة الأبدية Sa'adabad: قصر بناه السلطان أحمد الثالث في منطقة كاغيت خانة على القرن الذهبي. [المترجم].

المنظر الجميل». وكانت المشربيات القوسية، البارزة إلى الخارج مثل مقدمة السفينة لكي تعطي منظرا أفضل، أساسية لدرجة أنها شكّلت السمة المحلية الأساسية التي أدمجت في البيوت التي بُنيت هناك على الأنماط الأوروبية إبان القرن التاسع عشر[1].

في القسطنطينية، مدينة المناظر، كان النظر شكلا للتواصل لا يقل استخداما عن الكلام أو الكتابة. فمن شرفة قصر توبقابي، كان السلطان ينظر دائما إلى غَلَطَة من خلال منظار. وحتى سكان غَلَطَة، عندما كانت تتمكن منهم الجرأة، كانوا يوجهون المناظير إلى القصر. وفي إحدى المناسبات، أدى وميض نور الشمس على منظار السفير الفرنسي إلى تعليق العلاقات الديبلوماسية تقريبا. وكانت أميرات العائلة الإمبراطورية إبان القرن التاسع عشر «بارعات في إخفاء النظارات [المناظير] وسط طيات نطاقهن وفي حرير ستائر النوافذ حتى يختلسن النظر إلى الجيران والزوار. ولم يكن شيء مما يجري تفوت معرفته أو رؤيته على سيدات الحريم» (لاتزال المناظير أداة منزلية أساسية على البسفور إلى اليوم).

تميّزت القسطنطينية عن المدن المائية الأخرى مثل لشبونة والبندقية بانتشار الحدائق. كانت هذه المساحات الخضراء تبرز جلية من خلال التضارب اللوني مع الأسقف ذات البلاط الأحمر والمساجد ذات الحجارة الرمادية. والمثل السلافي الذي يقول «حيث يطأ التركي، لا عشب ينمو» محض افتراء. فإذا كانت الصورة المادية للجنة بالنسبة إلى المسيحيين تتمثل في مدينة متلألئة على تل، فإنها تتمثل عند المسلمين في حديقة مبهجة ذات عيون وأنهار دائمة الجريان. كان الاحتفال السنوي بالولي المسلم الخِضر إلياس(*) في أوائل مايو، احتفالا بالزهور والخضرة. وفيه كان الصدر الأعظم يرسل هدايا من الزهور والفاكهة إلى السلطان والحريم والسفراء الأجانب. وقد لاحظ دو فرنس كاناي أن العثمانيين يعاملون الزهور معاملة المسيحيين للآثار المقدسة. وكانوا دائما يحملون زهرة في أيديهم أو عمائمهم. وكانت البذور والأبصال والزهور تباع، ولاتزال كذلك، في الأفنية المجاورة لبازار التوابل.

(*) بعيدا عن اعتقاد بعض المسلمين بأن الخضر Hizir وإلياس Elyas شخص واحد وأنهما لايزالان حيين إلى الآن، يقام هذا الاحتفال في الشعوب التركية - وحتى الشعوب المسيحية التي حكمها الأتراك في البلقان - في ليلة الخامس من مايو ويستمر طوال اليوم التالي، احتفالا بمقدم الربيع. أما العلاقة بين هذين النبيين والربيع، فهي أن الأتراك يؤمنون بأن الخضر يجلب الخصب ويتجول في الأرض، وكذلك إلياس الذي يرتبط عندهم بالماء، وأن هذين النبيين يتجولان في الأرض لأداء بعض المهام ويلتقيان في الخامس من مايو. ويرمز التقاؤهما إلى انصهار الأرض والماء. [المترجم].

وكانت الزهور والحدائق الموضوع الأساسي في بلاط المدينة وتطريزها وشِعرها. كتب أحد شعراء القرن السادس عشر يقول: «ولماذا ألزم نفسي بتأمل الحديقة؟ فقلبي حديقة لي». وبالنسبة إلى الشاعر العظيم باقي، فـ «في حديقة السعادة العالمية، لا شيء غير الورود يستطيع أن يبقى إلى الأبد»[2].

أنتج العثمانيون أساليب كثيرة مختلفة للحدائق في القسطنطينية: الجنة الداخلية التي تضم بيوتا للزهور، وحديقة البهجة خارج البيت، وحدائق الشرفات المظللة بكرمات متشابكة، وحدائق الفاكهة والخضر المعروفة باسم بستان لار bostanlar، والحدائق المغمورة المحفورة في الأرض بغرض التبريد في الصيف. وفي العام 1690، انبهر الزائر الفرنسي المؤرخ جان دو مون Jean du Mont بحديقة قائم مقام (نائب) الصدر الأعظم: «إن الطرقات مفروشة بالرمل ومسيّجة في بعض الأماكن بأشجار البرتقال وفي أماكن أخرى بأشجار فاكهة. أما الأحواض، فلا تفصل بينها رياض كما هي الحال عندنا، بل حافات ومملوءة بالزهور التي يحبها الأتراك كثيرا». وكذلك كانت الأشجار تنمو أيضا في شوارع القسطنطينية وعلى جدرانها. وقد كانت الكرمات والوستارية(*)، ولاتزالان، تلف البيوت وتعبر الشوارع على حبال، ما يجعل أفقر الأحياء أقل قذارة من الأحياء الفقيرة في المدن الأخرى[3].

كان السلطان يمتلك إحدى وستين حديقة على طول بحر مرمرة والبسفور. تجنبت هذه الحدائق الأنماط الصارمة لكل من الحدائق الغربية والإيرانية، ببعثرة الزهور وأشجار يهوذا «التي تداعب العين» وأشجار الحور والسرو(**). وفي أثناء زيارات السلطان للحدائق بحريمه، كانت تحاط بأسوار شبكية لحماية السيدات من أعين الأجانب. كان البستانيون الإمبراطوريون المعروفون باسم البستانجية إحدى الوحدات الأساسية في البلاط: يسجل أحد دفاتر المحاسبة للعام 1580 النفقات التي تكلفها تجديدهم «تعريشات الياسمين القريبة من شرفة دار السعادة House of Felicity في حدائق القصر»[4].

(*) الوستارية wisteria أو الحُلوة: نبات معترش ذو زهر عنقودي أزرق أو أبيض أو أرجواني. [المترجم].

(**) شجرة يهوذا Juda tree أو الزمزريق الأثيني: شجرة متساقطة أو نفضية صغيرة من جنوب أوروبا وغرب آسيا، تمتاز بمظهرها المثمر وزهورها القرنفلية في الربيع. [المترجم].

ثمة شــكل للحدائق ميّز القسطنطينية عما عداها، وهو الجبّانات graveyards المزهــرة الممتدة عبر التــلال والوديان خارج المدينة. كانت أشــجار السرو والزهور والنباتات المعترشــة تنمو بين القبور العثمانية، أو من فتحات محفورة في منتصفها. وكانت شــواهد القبور التي قيل إنها كانت تكفي لإعــادة بناء المدينة كاملة، تُبعثر عشــوائيا، بدلا من أن تُرتب في صفــوف منظمة. وكانت بيــوت الزهور بالجبّانات رائعــة حتى إنها أصبحت متنزها مفضلا للعائلات في أيــام الجمع. وكانت المقاهي تُبنى في الجبّانات أو مطلة عليها. وكان الفرنجة يجتمعون كل مساء للتسامر والتنزه في جبّانــة في بــيرا ذات منظر رائع عبر القرن الذهبي، كانــوا يطلقون عليها «متنزه الجبّانة الصغيرة»[5].

تتحول شــواهد القبــور المطلية بالأزرق والأحمــر والذهبي الزاهــي[*]، بعد التعرض للرياح والمطر لسنوات، إلى اللون الأبيض أو الرمادي. كانت تنقش زهور أو شــيلان على شواهد قبور النساء، وتميّز عمائم حجرية الرتبة الرسمية للرجال الموتى. وتؤكد النقوش مكانة الحديقة في المخيلة العثمانية:

الدوام لله!
ماتت صادقة
واحسرتاه!
تركتني ابنتي الحبيبة.
واحسرتاه!
صادقة نور عيني
وردة حديقة آمالي
ذهبت إلى الجنة.
اقرأوا الفاتحة لصادقة
ابنة عثمان بيه
1256 هجري

البقاء لله!
لم أكد ألد وليدي وأراه

(*) في العــام 1904، أعــاد الروائي الفرنسي بيير لوري Pierre Lori بنــاء قبر محبوبته أزياده Aziyade بطلة روايته التي تحمل الاسم نفسه الواقع خارج أسوار المدينة وأعاد طلاءه باللون الذهبي. [المؤلف].

حتى وافتني المنية
غادرت حديقة هذا العالم إلى الجنة.
اقرأوا الفاتحة لعائشة زوجة أورمان أفندي[6]

كان الياسمين والسوسن والورد والزنبق والقرنفل والياقوتية(*) الزهور المفضلة في حدائق العاصمة. لكن لم تكن ثمة زهرة أكثر عثمانية من الزنبق، إذ كانوا يتعلقون بها أكثر من غيرها لأن حروف اسمها باللغة التركية- lale- هي نفسها حروف اسم الله. وكانت الإمبراطورية العثمانية تُجرَّد من الزنبق من أجل حدائق القسطنطينية. ففي العام 1574، كتب سليم الثاني إلى مسؤول بالقرب من حلب: «أريد نحو خمسين ألف زنبقة لحدائقي الملكية. وقد أرسلت لك أحد رؤساء خدمي لأخذها. وآمرك بألا تتأخر في أي حال من الأحوال». وفي العام 1577، طلب مراد الثالث ثلاثمائة ألف بصلة زنبق من القرم. كان الأتراك يعطون زهور الزنبق أسماءً مثل «أرجوان القزم» و«تألق الازدهار» و«وجه المحبوب» و«السهم الوردي»، وكانت ألوانها وسيقانها وسداتها(**) موضوعات للنقاش والمنافسة. كان الزنبق التركي يتميّز بالتويجيات المدببة. فكانت الزنبقة المثالية توصف بأنها «على هيئة لوزة، وتشبه الإبرة، ومزيّنة بأشعة لطيفة، وتويجياتها الداخلية مثل عين الماء، كما يجب أن تكون، وتويجياتها الخارجية مفتوحة قليلا، ورقيقة أيضا، كما يجب أن تكون». وفي الصيف، كانوا أحيانا يظللونها بالكتان حتى لا تحرقها الشمس. ومن القسطنطينية، انتشر الزنبق إبان القرن السادس عشر إلى أوروبا الوسطى والغربية[7].

بحلول القرن الثامن عشر، كان البسفور محاطا بمزارع الكرم والحدائق وبساتين الفاكهة. وكانت القرى المختلفة متخصصة في فاكهة مختلفة: قرية روملي كاواك Rumeli Kavak في الكرز، وقرية أورتاكي في الكرز، وقرية بايكوز Beykoz في الجوز، وقرية ميجيديكوي Mecidiyekoy في التوت. وإبان القرن السابع عشر، أكل ملك أحمد باشا وضيوفه «الكرز ياقوتي اللون كثير العصير» حتى التخمة في ياليات yalis الخشبية الاثنتي عشرة الواقعة على طول البسفور والقرن الذهبي[8](***).

(*) الياقوتية: زهرة جميلة من الزنبقيات. [المترجم].
(**) السَّداة هي العضو الذكري في الزهرة. [المترجم].
(***) تذكر أن اليالي yali بيت أو قصر أو مضيفة مبنية من الخشب على البحر مباشرة. [المترجم].

وسرعـان ما أصبحـت الياليات جزءا أساسـيا من الحياة في القسـطنطينية. في باريس، مُنع بناء البيوت الخشبية تدريجيا بعد منتصف القرن السابع عشر لتجنب الحرائق. وفي المقابل، كانت معظم البيوت في العاصمة العثمانية بعد القرن السادس عشر تُبنى من الخشب. لا ترجع أسباب ذلك فقط إلى ميزة الوفرة (تغطي الغابات الأناضـول) والرخص وسرعة البناء، إذ كان البيت الكبير يسـتغرق شـهرين أو ثلاثة أشهر فقط لإتمام بنائه، بل أيضا إلى الجغرافيا والإحساس الجمالي للمدينة. لقد بُنيت القسـطنطينية على خط صدع أرضي، وكثيرا ما دمرتها الزلازل التي وقع أسـوأها في الأعـوام 1509 («القيامة الصغـرى») و1648 و1719 و1766 و1894. ونظرا إلى أن الخشـب ينثني، فإنه يقاوم الزلازل أفضل من الحجـارة (وهو نفس ما توصل إليه المعماريون التقليديون في طوكيو). وكذلك كانت القسـطنطينية أيضا مدينة مائية، والخشب يمتص الرطوبة أفضل من الحجارة. علاوة على أن اختيار الخشب نتج أيضا عن عشـق المنظر، ذلك أن الجدران الخشبية تسمح بنوافذ أكثر عددا وأكبر مساحة من الجدران الحجرية.

ومن الخـارج، لم تكن الياليـات والكوناكات konaks (البيـوت الكبيرة المبنية بعيـدا عن الماء) أقل جمالا من الحدائـق المحيطة. كانت هذه الأبنية تطلى عموما بالأحمر الصدئ وبعض الصور المميّزة. تبيّن البيوت القديمة المتبقية، مثل يالي عائلة الكوبرولي ويالي سـعدالله باشـا في شـنغلكوي Cengelkoy على الجانب الآسيوي للبسفور، الأبنية الخشبية الفخمة ذات الطوابق الأربعة التي بُنيت لأصحاب السفن المسـيحيين، وبيت كوافيان إيـوي Kavafyan Evi الكائن في منطقة بيبك Bebek، أن جـمال هذه الأبنية من الخارج لم يكـن يضاهي القصور الحجرية العظيمة التي اصطفت حول القنال الكبير بالبندقية. ربما كانت قوة العائلة الحاكمة هي السـبب وراء ذلـك، بمعنى أن ملاك هذه البيوت كانوا يخافون من اسـتهجان السـلطان أو حسـده إذا ما مر بسفينة فوق مياه البسفور أو القرن الذهبي. وفي بعض الحالات، خصوصـا إذا كان المالك مسـيحيا، فإن أقسـام البيت الواحد كانـت تُطلى بألوان مختلفـة، حتى تبدو للناظر كأنها بيوت منفصلـة. نظريا، كانت البيوت التي يبنيها المسـيحيون واليهود على الشاطئ يجب أن تكون أوطأ بقدمين من بيوت المسلمين، على الرغم من أنهم كثيرا ما كانوا يشترون بيوتا تكسر هذه القاعدة.

كانت الغرفة الأساسية داخل اليالي تسمى صوفا sofa، وهي عبارة عن غرفة استقبال كبيرة في طابق علوي، أو يكون جزء من هذه الغرفة مرفوعا بقدم واحدة عن الأرضية، ومغطى بسجاد فاخر ويصطف حوله الديوان. وكانت الأسقف والنوافذ والإطارات والجدران تنقش وتزيّن بموضوعات زهرية زاهية الألوان ومُذَهّبة، ووردياتٍ(*) وأشغال أرابيسك، وكانت المشكاة الغائرة في الجدران تحمل زهريات أو مباخر. وكانت الزهور تُعرض إما في باقات في زهريات زرقاء وبيضاء وإما كزهرات فردية في زجاجات بندقية طويلة الرقبة. وكان المسيحيون واليهود والمسلمون يستخدمون أسلوب الزخرفة الداخلي نفسه. وفقا للمصمم الإنجليزي-الهولندي توماس هوب Thomas Hope، مؤلف الرواية الفنارية العظيمة أناستاسيوس (Anastasius, 1818)، كانت بيوت اليونانيين في الفنار تحوي «غرفا مؤثثة بكل أبهة العظمة الشرقية. فكانت الأرضيات تغطى بالسجاد الفارسي، والجدران تكسى بالمخمل الجنوي، وتحجب الأسقف العالية تعريشات مُذَهّبة. وكانت تنبعث من مباخر فضية سحابات من العطور النفيسة في كل الأرجاء». وكان كثير من بيوت اليونانيين الأغنياء تضم أجنحة منفصلة للرجال والنساء، مثل بيوت جيرانهم المسلمين[9].

ربما بسبب الإرث البدوي للعثمانيين، كان الأثاث قليلا، إذ اقتصر على مدفأة ومقاعد بلا ظهر (كانت توضع عليها صوانٍ دائرية كبيرة لتناول الطعام)، وحول الجدران ديوان مطرز. وكانت المراتب توضع في دواليب في الجدران، ثم تُفرَد على الأرضية ليلا لتعمل عمل الأسِرة. وكانت الجواهر والمنسوجات - السجاد وستائر الحوائط وأغطية المساند - الملمح الرئيس للترف. بعد أن زار ديبلوماسي روسي بيت الصدر الأعظم والقبطان باشا، كتب: «برغم ما يبدو على بيوتهم من الخارج من البساطة، فإن داخلها يغلب عليه الترف والعظمة. فالذهب والمنسوجات الفخمة واللآلئ والأحجار الكريمة توجد بها بوفرة لا توصف».

شاركته ليدي ماري ورتلي مونتغو الرأي. زارت الليدي في العام 1718، قصر فاطمة ابنة السلطان أحمد الثالث ذات الأربعة عشر عاما وأرملة علي باشا التي كان حفل زواجها الأول مثالا للأبهة في العام 1709، والتي تزوجت ثانية من الصدر الأعظم إبراهيم باشا. كان قصرها يقع في موقع قصر تشيرغان Cirgan الحالي:

(*) الوردية rosette: حلية معمارية على شكل ورد. [المترجم].

يقـع [القصر] على أحد أجمل أجزاء القنال [البسـفور]، وتوجد غابة جميلة خلفه على جانب التل. إن حجمه هائل، فقد أكد لي الحرس أنه يضم ثمانمائة غرفة. لن أتحدث عن العدد لأني لم أحصها بنفسي، لكن من المؤكد أنه عدد كبير جدا من الغرف، جميعها مزيّنة بسخاء بالمرمر والتذهيب ورسوم رائعة للفاكهة والزهور.

أما الغرفة التي كانوا يستقبلون فيها السلطان

فجدرانها مكسـوة بخشـب السـنديان مثبت فيه عرق اللؤلؤ بزمردات كالمسامير، غير عرق اللؤلؤ والخشب الزيتوني المطعمة به الكثير من الخزفيات. أما الأبهاء وهي كثيرة وواسعة جدا، فإنها مزيّنة بزهريات ورد وصحون خزفية عليها رسوم فاكهة من كل الأنواع، مرسومة جيدا بالجص وملونة بألوان مفعمة بالحياة لها تأثير السـحر. والحديقة مناسبة للبيت، حيث وزعت فيها الأشجار والنافورات والطرقات معا في فوضى مستساغة.

كانت الأكشـاك المتناثرة في حدائق اليائليات مبهجة أكثر من غيرها. يذكر سي آر كوكريل أن «الأكشـاك من أكثر الأشياء سحرا ... إنها تصنع كلها من الخشب، وحتى أكثرها اتساعا ينجز في شهرين». كانت الأكشاك المزيّنة بقباب صغيرة وأشغال كتابية مُذَهّبة «تعطيك إحساسـا بأنك تقرأ ألف ليلة وليلة». وكانت الشعريات الخارجية تخلق لوحة خضراء من الكرم والياسمين وزهر العسل[10].

كان القرب من الماء ميزة ليائليات القسـطنطينية. ونظرا إلى عدم حدوث مد بحري، فقد كان من الممكن بناء الغرف في مسـتوى البسفور نفسه، وليس أعلى منه. لذلك أعطى منظر الماء وصوته الداخلان بوفرة من خلال النوافذ، وانعكاسه على الأسـقف، لبعض اليائليات إحساس الطفو فوق سـطح الماء. وبعض الغرف كانت تتخللها قنوات ماء محفورة في الأرضية. وعلى أرضيات غرف الصوفا المقببة، كانـت النافورات المرمريـة تقذف زخات من الماء. وكانـت النافورات الحائطية توفـر التبريد، فضلا عن صوت التلاطم الناتج عن سـقوط الماء من كوب مرمري إلى آخر. وكانت الحدائق تضم شـلالات مرمرية وبركا وقنوات دائرية. وبعد أن قُلِّدت في مدن إقليمية مثل قستورية(*) وسفرانبولو(**) ودمشق، وأعيد إنتاجها

(*) قستورية Kastoria: مدينة تقع حاليا في شمال اليونان في منطقة غرب مقدونيا. [المترجم].

(**) سفرانبولو Safranbolu: مدينة ومقاطعة في محافظة كارابوك التركية على البحر الأسود. [المترجم].

على لوحات جصية في أنحاء الإمبراطورية كافة، وكذلك في وثائق مثل عقود الزواج اليهودية، أصبحت ياليات القسطنطينية رموزا جلية «للأسلوب العثماني».

كان من الطبيعي أن يأتي الطعام والشراب بين المتع الأساسية لسكان المدينة. سجل وليام هاربورن أول سفير إنجليزي المائدة التي قدمت له في القصر في العام 1582: «خروف مسلوق ومحمر، وأرز مزود بتوابل متنوعة، وفطائر من أجود الأصناف وأطباق بها مكسرات لذيذة، وأشياء أخرى لا تحصى لا أعرف كيف أعبر عنها ... أما شرابنا فكان مصنوعا من ماء الورد والسكر والتوابل مخمرة معا. كان البيلاو الطبق الأساسي والاختبار الأول لكل طباخ جديد، وهو أرز مطبوخ في مرق لحم. كان هذا الطبق يقدم للغلمان في مدرسة القصر كشكل من الترفيه كل يوم خميس. كان الفقراء يعيشون على الخبز والماء والفاكهة والخضراوات واللبنة والأرز، وإن كانوا من المحظوظين، فكانت مائدتهم تشمل الدجاج أو الضأن والبيلاو، التي كانت تؤكل بعد العمل في نحو الخامسة مساءً. وبينما كان الأغنياء يأكلون الكافيار الأسود، كان الفقراء يأكلون الكافيار الأحمر[11].

اعتمادا على مواريث البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط وآسيا الوسطى، أصبح المطبخ العثماني بمرور الوقت واحدا من أكثر المطابخ تطورا في العالم. وقد اشتاق الكثير من سكان إسطنبول السابقين إلى طعامها أكثر من أي سمة أخرى للمدينة. فبعد فترة طويلة من مغادرته المدينة شخصيا، ظل المليونير كالوست غالبينكيان Calouste Gulbenkian يعيش فيها من خلال مذاقها، إذ احتفظ بطباخ «شرقي» (تركي أو يوناني أو أرمني) لكي يعد له الأطباق التي استمتع بها في شبابه، التي كان من بينها الدجاج الشركسي المطبوخ بالجوز والفلفل الحلو، والإسقمري المحشو - دون قطع جلده - بالأرز والكشمش وحبات الصنوبر والبصل، وحلوى بودينغ الدجاج chicken pudding المعد من صدور دجاج مضروبة في لباب ناعم ومنكهة بالحليب والسكر والقرفة، وأنواع خاصة من الحلوى halva المصنوعة من بذر السمسم) التي تعد لتصفية النفوس بين الأصدقاء المتشاجرين أو لإنعاش عودة أبطال الحرب. وفي البيوت الغنية، كان الطباخون يطبخون السيقان اليسرى للحيوانات فقط (لأنهم كانوا يعتبرون السيقان اليمنى عسيرة المضغ لأن الحيوانات تقف عليها أكثر من اليسرى).

كانــت الخضراوات مفخرة المطبخ العثماني، إذ كانــت تعد بدقة يندر وجودها في البلــدان الأخــرى. كان بعــض الأطباق، خصوصــا تلك التي تعتمــد على «ملك الخضراوات» - الباذنجــان - تحتاج أياما لتحضيرها. ثمة مجموعتان من الخضراوات كانــت تقدم في الوجبات: الخضراوات الباردة مطبوخة بالزيت، والخضراوات الحارة مطبوخة في الزبد. وكانت عصائر الفاكهة تصنع من ثمر الورد البري أو البنفســج أو التــوت أو التمر الهندي، وتبرد بثلــج مجلوب من جبال بورصة ومخزن في صهاريج. وكانت تنكه بإضافــة البندق والتوابل والنعناع. وكانت الفاكهة والمربات المحفوظة تخصصا آخر للمدينة. ثمة نوع من المربى كان يســمى بسبب لونه وثرائه «مستودع الياقــوت»، لكننا غير ملزمين بأن نصــدق ادعاء الدكتور جيمس دالاوي Dr James Dallaway الــذي قال في أواخر القرن الثامن عــشر إنه كان يحوي ياقوتا مصحونا. وكان البكميــز Pekmez أو دِبْس العنب يصنع كل ســنة في بيوت القســطنطينية لتنكيه الأطباق الأخرى[12].

اشترك اليونانيون والأرمن والأتراك في الطعام نفسه، تماما كما اشتركوا في المدينة عينها. وبالاســتثناء الجزئي لمطبخ اليهود السيفارديم، لم تكن هناك مطابخ منفصلة، مثل المطبــخ الصيني والهندي في لندن أواخر القــرن العشرين، أو المطبخ اليهودي والإيطــالي في نيويورك أوائل القرن العشرين. وكانــت الاختلافات في المواد وطريقة التحضير ترجع إلى مستوى الثراء أو المنطقة أكثر منها إلى العرق أو الدين (على الرغم من أن المســيحيين كانت لهم أطعمة خاصة للصيام مثل السمك المجفف)[13]. ومن هنا تأتي التشــابهات بين كتب الطبخ «اليونانيــة» و«التركية» و«الأرمنية» في أواخر القرن العشرين، على الرغم من التنافر بين نزعاتهم القومية.

كانت تــلي الوجبات مباشرة ملذات التبــغ والقهوة. أدخل التجــار الإنجليز التبغ إلى القســطنطينية من أمريكا في العام 1601. في بادئ الأمر، مُنع في المســاجد باعتباره بدعــة كريهة. اتهم المؤرخ المعاصر إبراهيم بجــوي Ibrahim Pecevi المدخنين بأنهم يســممون الهواء، إذ إنهم من خلال «النفخ في وجوه بعضهم البعض، يجعلون الشوارع والأســواق منتنة». وفي العام 1633، حظر السلطان مراد الرابع التدخين وجعل عقوبته الموت. غير أنه كلما زاد التشــدد في تحريمه - بتعبير مؤرخ آخر هو كاتب جلبي Katib Celebi - «كانت تزداد رغبة الناس في التدخين، إعمالا لمقولة الممنوع مرغوب، وأُرسِلت

آلاف كثيرة من الرجال إلى مسكن العدم». وبدأ المدخنون- يأسا- في استنشاق رائحة أوراق التبغ المسحوقة. وأخيرا في العام 1647، أحل مفتي القسطنطينية التبغ. ومع نهاية القرن الثامن عشر، لم يكن التبغ أحد الصادرات الأساسية للإمبراطورية العثمانية فقط، بل كان أيضا إحدى الوسائل الأساسية - بعد القفاطين- لمنح المكانة والاعتبار أو الحرمان منهما. كان طول الغليون وجماله وتعقيد صنعه وفمه تشي برتبة المدخن وثرائه. وكانت أفواه الغليونات تصنع من الكهرمان أو سن فرس النهر أو العاج، وكان الكهرمان الليموني الشاحب الأكثر رواجا. وغدت وظيفة حامل الغليون مهمة حتى أصبح من أهل الثقة بين موظفي البيوت. وغدا الغليون «مكمن الإيتيكيت الشرقي»، حتى إن لم يكن الزائر من المدخنين. وفي العام 1841، في لحظة من التوتر غير المعتاد في العلاقات الفرنسية - العثمانية، هدد السفير الفرنسي بمغادرة القسطنطينية إن لم يتلقَ اعتذارا رسميا لعدم حصوله على شرف الغليون في قصر السلطان[14].

وصلت القهوة من اليمن في منتصف القرن السادس عشر. وأنشأ سوريان أول مقهى عام في العام 1554، قبل مائة عام من ظهور المقاهي في لندن أو باريس. وبعد ثلاثة أعوام، عاد الرجلان إلى سورية بثروة لا بأس بها. وسرعان ما أصبحت المقاهي المراكز الأساسية للحياة الاجتماعية للرجال في العاصمة. كان الرجال يقضون فيها ساعات، بل أياما، في لعب الورق أو الدومنة أو التدخين، ولايزال بعضهم يفعل الشيء نفسه إلى اليوم(*). كان المقهى يوفر لهم الغليون، لكنهم كانوا يحضرون الفم والتبغ معهم. تبيّن صور المقاهي الصغيرة أنها من الداخل كانت منقوشة ومُذَهّبة، وتحوي نافورات ومقاعد مغطاة بالسجاد ونوافذ كبيرة لتأمل المنظر من خلالها. كان الرجال يدخنون أو يكتبون خطابات أو يلعبون الداما. وفي الأحياء الأفقر وحول البازار، كان الرجال يتعاملون مع المقهى كدائرة عمل، أي مكان ينتظرون فيه عروض العمل. وكان المسلمون وغير المسلمين يترددون على المقاهي عينها، لكن كانت هناك أيضا مقاهٍ منفصلة لليونانيين والألبان والفرس والانكشارية[15].

وكما كانت الحال في فيينا القرن التاسع عشر، كانت بعض المقاهي ملتقى للنبهاء والكُتاب. كتب إبراهيم بجوي:

(*) في ضاحية كوزغونشوك Kuzguncuk الصغيرة على الجانب الآسيوي للبسفور، التي كُتب فيها معظم هذا الكتاب، تصطف على جانبي الشارع الرئيس عشرة مقاهٍ، لا تخلو من الزبائن أبدا.

كان بعضهم يقرأ الكتب والكتابات الرفيعة، وبعضهم ينهمك في لعب الطاولة والشـــطرنج، وبعضهم يأتي بقصائد جديـــدة ويتحدثون في الأدب... وحتى الرجال العظماء لم يســتطيعوا أن يمنعوا أنفســـهم من ارتيادها. يقـــول الأئمة والمؤذنون ومدعو التقوى: «إن الناس أدمنوا المقهى، ولم يعد أحد يأتي إلى المساجد!» ويقول العلماء: «إنه بيت الشر، وإن المقهى أسوأ مكانا من حانة الخمر».

وبالفعـــل فُرض حظـــر على المقاهي، لكنه سرعان ما رُفع. وحتـــى الوزراء بدلا من أن يقرضـــوا المال للحكومة بفوائد مرتفعة، أخذوا يســـتثمرون في المقاهي[16]. وبحلول أوائل القرن التاســـع عشر، ذهب أحد التقديرات إلى وجود ألفين وخمســـمائة مقهى في المدينة وحولها[17].

أصبحت القهوة - كالزنبق - خاصية مميّزة للقسطنطينية. كتب الرحالة الفرنسي ثيفنوت الذي أقام في المدينة في العام 1655 أن الأتراك يعتبرون أن للقهوة خصائص طبية، فـ «لا يوجد فقير ولا غني إلا ويشرب كوبين أو ثلاثة منها على الأقل في اليوم». وحتى العقد السابع من القرن العشرين، كانت المقاهي الكبيرة ملتقى للموسيقيين المحترفين والحكائين. وكان الموسيقيون يغنون فيها عن العشق:

بِصَقْرِ عينيكِ أوقعتِ طائر قلبي في شراككِ... إن البلسم الحلو الذي يخرج من شفتيكِ حبيبتي يغريني إلى أخذ رشفة!

كان الحكاؤون يبدأون عادة بالقول: «في قديم الزمان، كان عباد الله كُثرا، وقديما جـــدا جدا كان الجَمل بائعـــا والفأر حلاقا والحمار حامل ختـــم الملك والبغل صانع أسلحة». كانت الحكايات تغلب عليها محاولات الزواج وغرائب الأجانب والأقليات. أمـــا الحكايات حول البطل التركي الأســـطوري الأبله خوجـــة (معلم) نصر الدين(*)، فكانت المكافئ التركي «لحكايات الكلب الأشعث»(**).

(*) خوجة نصرالدين Hoca Nasreddin هو المقابل التركي لشـخصية «جحا العربي» الحكيم الشـعبي صاحب النوادر، وله مقابل بهذا الاســم التركي أو أســماء قريبة منه في ثقافات تمتد من جنوب وشرق أوروبا إلى وســط وشرق آسيا وروسيا، فضلا عن الشرق الأوســط. يرد البعض أصل هذه الشـخصية إلى قرية بمقاطعة سيوري حصار sivrihisar بمحافظة أسكي شــهر Eskisehir التركية الحالية إبان القرن الثالث عشر في عهد الدولة السلجوقية، ويرده آخرون إلى مدينة خوي Khoy بمحافظة أذربيجان الغربية بإيران الحالية في زمن الاجتياحات المغولية، فضلا عن أصول أخرى منافسة. [المترجم].

(**) حكايـات الكلب الأشـعث shaggy-dog stories حكايــة بتنويعات كثيرة في ثقافات غربيــة كثيرة، بطلها كلب أشـعث، يمكن أن تُطوَّل وتُطوِّل من خلال حوادث فرعية وانعطافات غير ذات صلة، وتعتمد على إثارة فضول المســتمع وتوقعاته. [المترجم].

في عيـد الخِضر في الســادس مــن مايو، وهو اليــوم الذي يخرج فيــه القبطان باشــا بالأســطول إلى بحر إيجة ويبدأ الجــزارون في ذبح الحمــلان، اعتاد الناس في القســطنطينية على الخروج إلى الريف للتمتع بزهــور الربيع والتنزه بأكل الحملان ومحشي ورق العنب والبيلاو. وكانت وجهتهم المعتادة واحدا من الواديين الأخضرين الواســعين: «مياه أوروبا الحلوة» عند نهاية القرن الذهبي، أو «مياه آســيا الحلوة» عند منتصف البسفور على الجانب الآسيوي. في إحدى السنوات، أُعطي خوجة سعد الدين حَمل. فاســتغل أصدقاؤه بساطته وطلبوا منه أن يشوي حَمله لهم لأن اليوم التالي هو يوم القيامة. وذهبوا جميعا إلى مياه آسيا الحلوة، وأخذوا غفوة من النوم بينما اللحم يُشــوى على النار. ولما كانت النار ضعيفة، فقد أخذ الخواجة عباءاتهم وملابسهم وأذكاها بها. ولما صحوا وغضبوا من فعلته، قال لهم: «حيث إن بعد الغد سيكون يوم البعث، فإن أحدا منكم لن يكون في حاجة إلى أي ملابس[18]».

كانــت المربى والعطــور، إلى جانب التبغ والقهوة، تقــدم إلى الزوار المكرمين في البيــوت الكبيرة. وكانت المربى تؤكل بملعقة مُذَهّبة. ومن قنينة فضية ضيقة العنق، كانوا يرشــون ماء الورد برائحة المســك على الأيدي. وكانت رائحة العطور المنبعثة مــن وعاء فــضي يحوي عطورا محترقــة تفوح في الغرفــة، وتعطر الزائــر كاملا إذا حملها تحت ســترته أو قفطانه(*). كان ذلك هو عطر السلطة. ففي القسطنطينية، كما كانت الحال في فيرســاي، كانت الرتبة تتكشــف من الرائحة، إضافة إلى اللباس والعادات. عندما تعلم لورد تشــارلمونت كيف يحمل الوعاء تحت قفطانه «ضحك الرئيــس أفنــدي بمودة وأخبرني بحس الفكاهة أنه كان ســعيدا وهــو يراني أبدأ في التكيــف مع عاداتهم التي تمنى ألا أظل غريبا عنها لمدة طويلة». لقد كانت عادات القســطنطينية، كشأن عظمة القصر وفخامة المســاجد، جزءا من رسالة المدينة إلى العالم الخارجي[19].

لكــن ثمة متعا ومباهج أخــرى كانت تمارس بعيدا عن الأعــين الأجنبية. كانت «وثائــر أريكة المتعة» الأربع - بتعبير إبراهيــم بجوي- هي التبغ والقهوة والأفيون والخمر. والأفيون على الرغم من تحريم الإسلام له، كان يباع في شارع بجوار الجامع

(*) فوجئ المترجم بهذه العادة نفسها في المملكة العربية السعودية، حيث يحمل الشخص المبخرة تحت غترته حتى تعبأ برائحة العود. [المترجم].

الســليماني. ومع كل غروب، كان المدمنون يخرجون من القبور كالغيلان، يرتعدون ويتأتئون وهم يحتشــدون هناك لشراء حبــوب الأفيون. كان بعضهم يتعاطى حتى أربــع حبات، يبلعونها بالماء، ويســتمتعون برؤية أكشــاك مــن اللآلئ أو حوريات الجنة. وكانت حفلات المســاء للموسيقى التركية الســوداوية الرتيبة في بيوت علية القــوم، تبلغ آفاقا أعلى مع متــع الأفيون والتبغ، حتى كان المشــاهدون الصامتون يدخلون في حالة «من الســكر بنشــوى موهنِة». وكان أفيون السلطان يخلط عادة بالعطور أو اللؤلؤ المصحون[20].

كان تحريم الكحول التقليد الإسلامي الأقل وضوحا في القسطنطينية. كان اليهود يستوردون الخمر من ألمانيا وإسبانيا، لكن الأكثر شعبية كان الخمر الحلو القادم من جزر بحر إيجة مثل ساموس وكريت، المحبوب منذ العصور الكلاسيكية، وربما لذلك كانت هناك أســباب اقتصادية ســليمة للحرب التي دامت ثلاثين عاما بين البندقية والإمبراطوريــة العثمانية إبان القرن الســابع عشر على جزيرة كريت. وبعد أن فتح جزيــرة كريت، اســتعذب فاضل أحمد الكوبرولي، وهو مســترخ في جزيرة خيوس، مــذاق الخمر الــذي أدى إلى وفاته المبكرة. وكان العنب يُــزرع، ويُنتج الخمر، على امتداد البسفور، حتى في أراضٍ تملكها أوقاف إسلامية.

من عهد بايزيد الثاني (1481-1512)، وهو وقت مبكر، كان الشعراء يترددون على حانات ســيئة السمعة على طول القرن الذهبي. وبحلول القرن السابع عشر، كما يذكر المؤرخ أوليا جلبي، كانت هناك ألف وأربعمائة حانة في القسطنطينية. مقارنة بالمساجد الحجرية الشاهقة، كانت الحانات صغيرة وقذرة، لكنها بتعبير أحد الشعراء:

> من الخارج، تبدو الحانة مكانا قذرا
> لكن بداخلها نسيم وسحر واتساع[21].

في لحظات التطهــر Puritanism أو القلاقل، أو لضبط النغمة الملائمة في بداية عهد السلطان، كان الخمر يُحظر، وتُغلق الحانات، حتى حانات اليهود والمسيحيين(*). لكن الباحثين عن المتعة كانوا يستعيضون عن بلور كأس الخمر بخزف كوب القهوة. وعلى أي حال، فقد كان هناك مَثل محلي يقول إن أمر السلطان يدوم من منتصف

(*) أغلق بايزيد الثاني وسليمان القانوني الحانات، وكذلك أغلقت في الأعوام 1613 و1622 و1670 و1747 و1754. [المؤلف].

النهار إلى الساعة الواحدة. وقد كان أغا الانكشارية وباشا البستانجية يديرون الضرائب على الحانات ويستفيدون منها. ولذلك أعيد فتحها سريعا[22].

كان السلاطين والمفتون عادة يشربون في السر ما يحرمونه على الناس في العلن. فلم تكن هناك عائلة حاكمة مسيحية، باستثناء عائلة ستيوارت، تعُبّ الخمر بنهم السلاطين العثمانيين (الذين كانوا مع ذلك أقل تفوقا عن رفاقهم المسلمين من الأباطرة المغول). وسليمان القانوني نفسه شرب الخمر حتى العقود الأخيرة من عهده، وتستخدم إحدى قصائده الخمر مجازا عن العشق، ذلك أن الخمر كان جزءا من الشعر كما كان جزءا من واقع العاصمة:

لتحتفل الحانات حتى السُكْر بشفتيكِ الياقوتتين هاتين
ولا يدع أحد كأسه من يده ليلا ونهارا،
ليشربوا ويهيموا عشقا...

ومات ابنه سليم الثاني المعروف بالسكير من وقعة في الحمّام، ربما وهو سكران. وشرب مراد الرابع الخمر أمام أوليا جلبي، وقال له حينها: «أوليا لقد اطلعت الآن على أسراري، فاحذر من أن تكشفها».

احتفى الشعراء بالخمر، وليس الشربات. وصاحوا: «أيا ساقي أين مني طاسة تعطي الحياة؟»، وتمنوا لو أن خمرا بلون الزنبق يجري في عروقهم مكان الدم. وكتب أحد المفتين إبان القرن السابع عشر:

في المسجد دع المرائين ينغمسون في ريائهم
وتعالَ إلى الحانة، وفيها يسقط عنك الرياء ولا ترى المرائين
دعهم يسموا هذا المكان خمارة إن أرادوا
وأعطني هنا القدح والساقي ودعهم يسموني سكيرا.
ودعهم يقولوا «إنه لا يفيق أبدا»[23].

ثمة قاضٍ ومفتٍ كانا معروفين - بتعبير المؤرخ النمساوي العظيم هامر بورغشتايل Hammer Purgstall - بأنهما «من أصحاب الفكر الحر، كانا مدمنين للخمر وللفسق المشين معا» كان كل منهما يدير حانة خاصة به. في الصباح، كان القاضي يسكر في حانة المفتي، وفي المساء يسكر المفتي في حانة القاضي. وإبان القرن الثامن عشر، اشتكى السفير العثماني في بلاد فارس: «إننا في تركيا نعُبّ محيطات من الخمر، بينما نشرب في

بلاد فارس في أكواب الشـاي». أما المواطنون الأقل شأنا، فكانوا يشربون نوعا من البيرة يسمى «بوظة»(*) كتب عنها أوليا جلبي أن «البوظة مسموح بشربها لأنها تعطي القوة لجنود العقيدة». وثمة نوع من الشنبص(**) يسمى «روح البطاطس» potato spirit, كان يصنعه اليهود في هاسكوي، كان يُشرب هناك في الحانات مع الخمر والمحار المقلي. ومع حلول القرن التاسع عشر، كانت «أمسيات المرح» شائعة. ونوع الطعام الذي لايزال يقدم اليوم في مطاعم إسـطنبول، كان يقدم حينهـا: البندق، والجبن والبطيخ، وبطارخ السـمك واللحم المتبل، والخضراوات الباردة كالباذنجان أو السلطات، والسمك المشوي أو المقلي، وبلح البحر، والكبد مطبوخا على الطريقة الألبانية، والجبن أو اللحم مطبوخا في الفطائر المعروفة باسـم البوريـك borek. كان ضيوف الحانات من الرجال يشربون الكحول بنكهة الينسون ويتلون القصائد إلى أن يصلهم طبق الفاكهة الذي يشير إلى أن وقت مغادرة الحانة قد أوشك[24].

كان الخمر يفتح الشـهية لممارسة الجنس. ونظرا إلى أن الزنا يورد فاعله المهالك في دنيا القسـطنطينية، فإن الأدلة المكتوبة عن علاقات العشق غير الشرعية شحيحة. لكن على الرغم من كل الضغوط التي مارسها الدين والعادات والخوف، دخلت بعض النساء في علاقـات غراميـة مع رجال لم يكـن زوجات لهم. وإذا لم يكن في مقدور النسـاء أن يخرجن من البيت، فإن أحباءهن كانوا يتواصلون معهن من خلال الدلّالات اللاتي كن في الأغلب من اليونانيات أو اليهوديات أو الأرمنيات وكن يتنقلن من بيت إلى بيت(***). وكما كتبت الشاعرة وكاتبة المذكرات ابنة القرن التاسع عشر ليلى هانم Leyla Hanim: «كانت هؤلاء الدلّالات مخادعات لأقصى حد، وكن أحيانا يمارسـن أشنع المهن». كانت الزهور التي تُلقى في الشارع إلى الحبيب تعبّر عن لغة الحب السرية. وكان حمل زهرة نرجس بري يعني: «هل يمكن أن تحبني؟» وقطع برعم وردة نصفين يرسـل السـؤال: «هـل يمكن أن تموت من أجلي؟» وكان المعنى «أقدم رقبتي لحبل المشـنقة بلا تردد» يُنقَل بنزع رأس البنفسـجة. كان للحب أيضا شـفرة مقفاة، مثل «كلمة فستق التركية

(*) كانت البوظة تباع حتى وقت قريب - وربما لاتزال- في بعض الأسواق الأسبوعية في الريف المصري. [المترجم].

(**) الشنبص schnapps: مُسكِر هولندي ثقيل. [المترجم].

(***) الدلّالة تاجرة تحمل بضاعتها فوق رأسها في خُرق أو ما شابه، وتتنقل بها من بيت إلى بيت، اكتسب دورها أهميته بسـبب منع النسـاء من الخروج من البيـت في ذلك الزمان، كانت كثيرا ما تقيم علاقـات متينة مع زبائنها، وتُطلب منها سلع بعينها تأتي بها في زيارات لاحقة. [المترجم].

fistic التي تشير إلى الكلمة المقفاة معها yastik وتلمح إلى المعنى ikimize bir yastik [لتجمعنا وسادة واحدة] ... أما خيط الحرير الذي يسمى إيبك ipek في اللغة التركية فيشير إلى العبارة المسجوعة seni seviyorum pek [أحبك بكل غبطة]»[25].

كتب عزيزي Azizi الذي كان يعمل في قلعة الأبراج السبعة ومات في العام 1585، قصائد توحي بأن المحبين تمتعوا بحرية كبيرة. «إنك يا زمان، يا ذات الشعر الطويل، عذاب الأرض الذي لا ينتهي»، فلها محبون بعدد شعر رقبتها(*). وكانت «جميلة ذات اليدين الصافيتين» و«عائشة ذات الكاحلين» تعرفان أين تجدان المتعة. كان الكثير من النساء تتاح لهن الفرصة للقيام بزيارات إلى الحريم في البيوت الأخرى وإلى الحمّامات أو السوق. وفي الشارع، وتحت غطاء العباءة والحجاب، كانت الواحدة منهن في عالم خاص بها، يحوي فرصا لما أسمته نزيلة لاحقة بالحريم «للعلاقات الغرامية غير المشروعة والوصال السري». وكن يستطعن أن يتكلمن بعيونهن الوضاءة المحدقة، فضلا عن ألسنتهن.

كتب الشاعر باقي:

> إن كانت السيدات خارج البيت يمشين دائما محجبات، فلا تعجب!
> فقطاع الطرق يغطون وجوههم عندما يتجولون بحثا عن فريسة.

كانت بعض النساء، مرتديات حجابا أرجوانيا جريئا، يتنقلن من دكان إلى آخر في البازار بصوت صاخب ويختبرن أصحاب الدكاكين بأسئلة من نوع: «هل عندك شيء يناسبني؟ إن كان عندك بضاعة جيدة فأرنيها، لكن عليك أولا أن تأخذ مقاسي». وكان صاحب الدكان يجيش إثارةً بقدر ما يرى من أصابعهن المحناة.

حُكيت قصص عن نساء تركيات كن يستأجرن غرفا خاصة في حانات بيرا - أو مواخيرها - كن فيها «يشبعن رغباتهن الشهوانية ويكافئن عشاقهن بما يستحقونه». وكان الشباب أحيانا يتسللون إلى الحريم في زي النساء. ووفقا لبارون دي توت Baron de Tott الضابط الناطق بالتركية من أصل مجري الذي أقام في المدينة من العام 1755 إلى العام 1776، كانت النساء كثيرا ما يتعرضن للقتل على أيدي عشاقهن. وكانت جثثهن تشاهَد أحيانا عارية ومشوهة «طافية في الميناء تحت نوافذ قتلتهن أنفسهم»[26].

(*) حبيبته اسمها زمان Zeman. [المترجم].

على أن بعض النساء قد وجدن الحب والصداقة في نساء أخريات. وقد عُرف عن المثليات أنهن مخلصات وقارئات جيدات. لقد كن «الرشـيقات»، وكن عادة يكشفن عن حبهن بلبس ألوان أو وضع عطور ذات مغزى. والرسالة التالية من جارية تدعى فليكسو Feleksu كتبتها إلى بهيجـة سـلطان ابنة السـلطان عبدالمجيد في العـام 1875 حين كانت فليكسـو مريضة بالملاريا، تكشف قوة العاطفة بين النساء، سواء كانت جسدية أو غير جسدية:

> لبـوتي الصغيرة، ما أشـد حبي لكِ، وأنتِ أيضا قلتِ إنـكِ تحبينني قليلا. إنكِ في هـذا العالم بهجة قلبي. من عافيتكِ، أسـتمد عافيتي. صدقيني، ليس ذلـك لأنكِ الأميرة بهيجة. هناك أميرات كثيرات، بارك الله في أعمارهن جميعا. تعلمين أني أحبكِ، لقد عطفتِ عليّ كثيرا. أحبكِ، أحبكِ، باختصار أحبكِ، بصدق أحبكِ، حقا أحبكِ. ها أنا قلت إني أحبكِ، وأنا فعلا أحبكِ، هذا كل ما في الأمر ...
>
> ماتـت بهيجة سلطان بعد سنة واحدة، بعد أن تزوجت لأسبوعين اثنين فقط[27].

على النقيض من السرية التي كانت مضروبة على النساء المسلمات، مارست النساء المسيحيات علنا العادات الفاسقة لغَلَطَة. فكانت النساء اليونانيات يُؤَجَرن بالشهر من خلال ترتيب يعرف باسـم «زواج الكابينة» marriage a la cabine مأخوذ من الكلمة التركية لشكل الزواج المؤقت الذي يسمى الكابينة(*). ذكر أحد السفراء البريطانيين إبان القرن الثامن عشر عن سـابقه أنه قضى سـنواته الاثنتي عشرة في القسـطنطينية «على صوفا مع النسـاء». ووفقا للورد شـارلمونت، فإن «النساء جميلات جدا، ومهندمات في لبسهن، وحلوات في طباعهن، وهو ما يعد أمارة على أنهن لسن أعداءً للحب». وحيث إنه من واجبات الرحالة ألا يترك شيئا من دون أن يراه، فقد «زار مواخير كانت مرخصة من جانب أغا الانكشارية وباشا البستانجية. كانت نزيلات هذه البيوت إما مسيحيات أو يهوديـات، «الكثـير منهن جميلات جدا وبارعات في كل الفنـون والإغراءات اللازمة لمهنتهن». في إحدى زياراته، أحاطته «رئيسـة البيـت»، وهي امرأة يونانية(**)، بثماني عشرة «إلهة» متجردة ذكّرنه بهيرا وأثينا وأفروديت(***). وفي نهاية القرن الثامن عشر،

(*) من معاني الكلمة التركية kabin «مقصورة» أو «مهر» أو «صداق» أو «أجر المرأة»، وربما تسـتخدم لشـكل من أشكال زواج المتعة، وإن كانت كلمة «متعة» في مصطلح «زواج المتعة» التركي مأخوذة عن اللغة العربية muta evliligi. [المترجم].

(**) اليوم «مدام ماتيلدا» Madame Mathilde ملكة حي المواخير في إسطنبول الواقع بجانب برج غَلَطَة وواحدة من أعلى دافعي الضرائب في تركيا، كاثوليكية أرمنية. [المؤلف].

(***) في الميثولوجيا اليونانية، هيرا Hera ملكة السـماء وأخت زيوس وزوجته وإلهة النسـاء والزواج، وأثينا Athene إلهة الحكمة والفنون والصنائع النسوية والخصب والإنجاب، وأفروديت Aphrodite إلهة الحب والجمال. [المترجم].

كان أفضل المواخير موجودا بجانب السفارة البريطانية. وثمة مَنْ كن يمارسن العمل مستقلات، وكن يمتعن زبائنهن في الجبّانات التي كانت النساء تذهبن إليها من دون مرافق على فرض أنهن ذاهبات لزيارة قبور الأقارب[28].

وفرت القسطنطينية شكلا من الحرية كان يصعب تحصيله في أوروبا الغربية، وهي حرية ممارسة المثلية الجنسية للرجال. كان الرجال المثليون في أوروبا الغربية يعاقبون بالسجن أو الموت. بيد أن الفاتح وعد جنوده بكل من «النساء الجميلات جدا الشابات والحسناوات» و«الأولاد أيضا الكثيرين جدا والمليحين جدا ومن عائلات النبلاء». كان رادو Radu أخو فلاد المخوّزق أمير فلاشيا (الأفلاق) الذي يعد الأصل لأسطورة دراكولا، المحظي الأشهر للسلطان(*). وصل رادو رهينة إلى البلاط العثماني في عمر السابعة، «ليس أطول من باقة ورد». في البداية، تمنع على السلطان وجرحه بسيف وهرب فوق شجرة، قضى عليها ليلته. وبعد أن أصبح محبوب السلطان، كوفئ أخوه بعرش فلاشيا (الأفلاق)[29].

وبعد قرن، كتب زائر فرنسي أن الأتراك «أيضا ضعاف أمام رذيلة سدوم(**)، وهي منتشرة بين النبلاء وعلية القوم أكثر منها بين الناس العاديين، فقلما تجد قائدا ليس له برادشي bardace واحد أو أكثر». كانت المقاهي والحانات تضم «غلمانا مليحين يعملون عمل المومسات لجذب الزبائن»، بتعبير أحد الرحالة الإنجليز. وبعد 200 عام شجب تشارلز وايت Charles White «المنظر المقرف للغلمان الراقصين اليونانيين بغَلَطَة... الذين يثيرون غثيان حتى أجلف العقول». وفي الحريم والحمّامات، كانت النساء يستمتعن بفرق من البنات ترقصن بزي الرجال على أنغام موسيقى العود والقيثارة والصنوج. وفي حانات الانكشارية وحانات البحارة، وفي حفلات الحلوى halwa الشتائية التي يقيمها الوجهاء، كان غلمان يرتدون ملابس أنيقة وشعرهم طويل، ولهم أسماء مثل «الكرة الذهبية» و«مجعد الشعر» و«العالم الجديد»، يرقصون بطريقة لا تترك شيئا للخيال[30].

تفسر هذه الانحرافات السبب الذي جعل المقيمين الأجانب في القسطنطينية يكتبون كثيرا حول «الحرية والمتع» التركية أو «السهولة والحرية في الحياة الشرقية».

(*) فلاد الثالث أو فلاد المخوزق Vlad the Implaer (من 1431 إلى 1477/76) أمير ولاشيا في حياة محمد الفاتح، اشتهر بوحشيته الشديدة، ومنها جاءت كنيته «المخوزق» لأنه كان يخوزق أعداءه حتى الموت، ومن هذه الوحشية أيضا نسج الروائي الإنجليزي برام ستوكر Bram Stoker شخصية كونت دراكولا مصاص الدم الشهير في روايته الصادرة عام 1897 «دراكولا»، ودراكولا هو اسم عائلة فلاد. قضى أخوه رادو الثالث «الوسيم» سنوات طويلة رهينة لدى الدولة العثمانية وظل تابعا لها إلى أن نصبه محمد الفاتح أميرا لولاشيا بلقب باي فلاشيا حتى موته في العام 1475. [المترجم].

(**) سدوم هي مدينة قوم لوط. [المترجم].

لم يكن هؤلاء يشيرون إلى عدم وجود بنية طبقية صارمة وحسب، بل إلى وفرة المتع المتاحة أيضا، لذلك كانت البندقية تمنع الأولاد الأقل من ستة عشر عاما من السفر إلى تركيا خوفا من أن «يصبحوا أتراكا». والكثير من الديبلوماسيين والطلاب البنادقة «الذين استهوتهم هذه الشهوة» قرروا أن يصبحوا أتراكا ويبقوا في القسطنطينية. بينما لم يستقر مسلم عثماني واحد في البندقية[31].

كتب شعراء المدينة قصائد عشق في «ظبيان إسطنبول»، وهم في الأغلب الخدم والغلمان الراقصون في الحمّامات. كانت ساحة الألعاب الرومانية القديمة المجاورة لجامع السلطان أحمد المعروفة باسم الأتميدان «الملاذ المفضل للشبان المليحين». كان الشعراء يشبّهون أجسامهم بأشجار السرو، ووجوههم بالقمر، وشفاههم بالياقوت. وكانوا شموعا، ومحبوهم فراشات تنجذب إلى اللهب. تمنى الشاعر لو أن وجهه كان حصيرة على أرضية حمّام محبوبه.

في كل ليلة تترك الغرباء يضعونك في مكنون قلوبهم
آه يا مستبد، إن لي قلبا أنا أيضا! كيف تكون قاسيا إلى هذا الحد؟
تأتي يا غلام الخمّار، وردة في يد، وفي الأخرى خمر
أيهما أختار؟ من سيشبعني الوردة أم الخمر أم أنت؟[32].

كان من أسباب الاحتفاء بالغلمان أن ذلك كان مقبولا اجتماعيا، في حين كانت الإشارة الصريحة إلى النساء في الكتابة أو المحادثة صادمة ومريعة. ونظر بعض الشعراء إلى هذا الحب باعتباره نقيا. بيد أنه في حالات كثيرة، لم يكن هذا الحب نقيا ولا بديلا. وفي القصر، كان مراد الرابع - كما ذكر أوليا الذي كان من أفراد حاشيته - يقرأ من حين إلى آخر:

ليس لي أن أقول شيئا في المأبون النظيف(*)،
لكن ألف لعنة في اليوم على المأبون القذر.

ونظر السلطان في وجه حامل السيف ضئيل الحجم مصطفى: «ما رأيك في هذه القصيدة يا مصطفى؟»، فاحمرت وجنتا حامل السيف، فأعطاه السلطان عباءة من فراء السمور تكريما. وبعد مائة عام، كتب الشاعر نديم أن كل العلماء كانوا مغرمين بالأولاد، ولم يكن منهم من يجد متعة في حب النساء[33].

(*) المأبون غلام يتخذ لأغراض جنسية شاذة. [المترجم].

وجدت نزعة الميل إلى الجنسين في القسطنطينية أوضح تجسيد لها في كتابات فاضل بيه Fazil bey (1759 – 1810). ولد فاضل في صفد بفلسطين لأسرة عربية شاركت في ثورة ضد الأتراك، وأُحضر إلى القسطنطينية وتعلم في مدرسة القصر(*). وظل مقيما في المدينة، إلا لفترة نفي فيها إلى رودس في الأعوام من 1799 - 1804، حتى مات معدما في بيشيكتاش في العام 1810. في كتابه «زناننامه» Zenanname (كتاب النساء) الذي كتبه في العقد الأخير من القرن الثامن عشر، زعم أن الجمال تجسيد لله نفسه وأن الله هو الموضوع الأسمى لعاطفة المحب. توجد بين السطور في كتبه أنشودة للمتعة، فنساء القسطنطينية لديهن بشرة وردية ومشية رائعة يود العالم بأكمله أن يقلدها. كانت بعض النساء - في رأيه - تظل محتجبات تماما لدرجة أن أحدا لا يراهن حتى في العالم الآخر، كالببغاوات في القفص «لا الشمس سبق لها أن أشرقت على وجوههن، ولا الريح طيّر شعرهن». لكن ثمة أخريات كن أميّل إلى المغامرة. وعلى طريقة العثمانيين، صنّف فاضل بيه النساء وفقا لأعراقهن: الفارسيات واسعات الاطلاع ذوات عيون مسكرة، والسودانيات وجوههن كالليل، والحجازيات جميلات لكنهن فارغات العقل وشفاههن زرقاء وأنوفهن معقوفة، واليهوديات فيهن طبائع سيئة، والأرمنيات سيئات التصرف وسيئات الملبس لكنهن لسن قبيحات جميعهن، واليونانيات فاتنات ومغريات، و«لا بد أن نتخذ حبيبات من كل هؤلاء». أما الشركسيات، فإنهن أفضل من الجميع، «يجد المحب كل ما يتمنى في المرأة الشركية». كما وصف اليمنيات والإسبانيات والهولنديات والإنجليزيات:

من حمرة وجنتيها أخذ الورد لونه
أما فمها، فيعلّم العندليب الغناء.

في كتابه «خوباننامه» Khubanname (كتاب الجمال في الرجال) احتفى - وإن كان بتفاصيل أقل - بالغلمان من القوميات عينها، إذ هدده حبيبه حينذاك بأن يتحول إلى امرأة إن لم يكتب قائمة في الغلمان، كما كتب في النساء. فكتب أن قلبه يصير ساحة مطاعنة يدفع فيها ملك ملكا. ووصف الفرس بأنهم طوال ومليحون، ولهم

(*) أعدم جده طاهر عمر وأبوه علي طاهر في العامين 1775 و1776 لاشتراكهما في ثورة ضد الدولة العثمانية. اشتهر فاضل المثلية الجنسية فضلا على عشق النساء، وتدور قصائده كلها حول اشتهاء النساء والرجال: الديوان Divan وكتاب العشق Defter-I Ask وكتاب الجمال في الرجال Hubanname وكتاب النساء Zenanname وكتاب الراقصات Cenginame. [المترجم].

حواجب مثل القوس وخدود حمراء ووجوه مستديرة وأنهم سادة الغنج. أما غلمان بغداد، فهم «كالعذاب» ولا يلتزمون بالمواعيد أبدا. والفرنسيون رغم جمالهم، فإنهم خرقاء في الفراش. والأرمن مفيدون ضد البرد، «احتفظ بسركيس للشتاء، فجسمه مثل غابة من الشعر»(*). أما الألبان فإن أصواتهم منفرة وكذلك بطونهم كبيرة ورقابهم سميكة. تأسرني صدور اليونانيين الفضية وبشرتهم البيضاء، و«أجسامهم متناسقة إلى حد أدهش العالم»، وقد يقذفون أنفسهم في أعمق بئر من أجل الحب حتى وهم في عمر الخمسين[34].

في ليالي رمضان، وبينما يفطر المسلمون بعد طول انتظار طوال النهار، كانت القسطنطينية تغرق في المتعة. كان يجري الإعلان عن الغروب والإفطار بطلقات من المدافع، فتدب الحياة في الشوارع التي عادة ما تكون هادئة في المساء، في حالة من سعار الطعام والشراب والموسيقى: «ففي خلال بضع دقائق تتحول المدينة التركية إلى وحش بمائة ألف فم يأكل ويشرب». كانت تعلق آيات من القرآن بخيوط بين المآذن بحروف مضيئة. وفي الشوارع أسفل هذه الزينات، كان العامة يستمتعون بالحواة والمشعوذين وقراء البخت ومسرح عرائس الظل المعروف باسم قره جوز(**) الذي تمثل فيه شخصيات بطول نحو خمس عشرة بوصة (غالبا بذيئة جدا) حكايات العشق والمعارك. وكانت بيوت الباشوات تشهد حلقات لتلاوة القرآن في أفنيتها. وكانت بيوت أخرى تقدم مسرحيات كوميدية بفرق من اليونانيين أو اليهود، «يقلدون المسؤولين المختلفين بالإمبراطورية وكانوا يتقنون أداءهم بالسخرية الصريحة من هذه الشخصيات»، طبعا من دون المساس بالسلطان والصدر الأعظم. وكان بمقدور الفقراء أن ينتقلوا من بيت إلى آخر ليشاهدوا هذه التسالي ويأكلوا بقدر ما يشاءون[35].

بلغت عقيدة المتعة أوجها في «عصر الزنبق» إبان أوائل القرن الثامن عشر الذي يعد - إلى جانب عهد سليمان القانوني ومنتصف القرن التاسع عشر - أحد العصور الذهبية الثلاثة للمدينة العثمانية. كان السلطان مصطفى الثاني (1695

(*) الاسم سركيس Sarkis وسرغيس Sargis منتشر بين الأرمن. [المترجم].

(**) يذهب بعض الباحثين إلى أن القره جوز Karagoz الذي يعني بالتركية «أسود العينين» في إشارة إلى سوداوية نظرته إلى الأمور، يختلف عن الأراجوز المصري الذي يردونه إلى زمن الفراعنة أو زمن قراقوش على أقل تقدير، وأن الأتراك ربما أخذوه عن المصريين، ومن أدلة ذلك أن أوليا جلبي ذكره في كتابه «سياحت نامه مصر» باعتباره من الفنون التي تميّز المصريين. [المترجم].

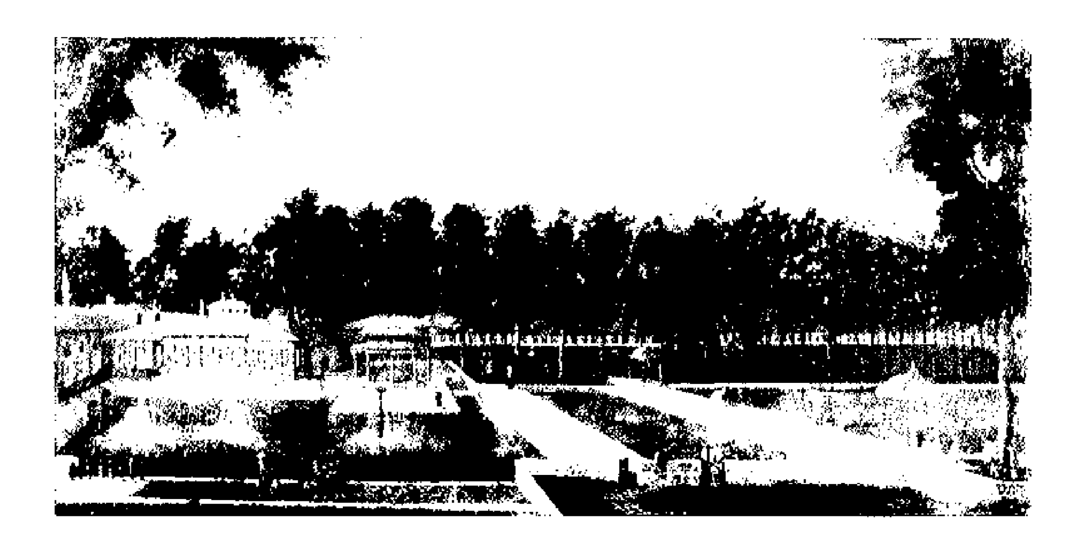
- 1703) المولع بالصيد يقيم بالكامل تقريبا في إدرنة. فانتقل السفراء والتجار إلى إدرنة، وبنت الأميرات قصورا هناك، فثارت القسطنطينية. وفي العام 1705 أدت ثورة الانكشارية المدفوعة من العلماء وعائلة الكوبرولي إلى عزل مصطفى الثاني. ووعد السلطان الجديد أخوه أحمد الثالث بألا يقيم في إدرنة[36].

لم يكن أحمد الثالث طاغية جشعا أمر بإعدام عائلتي كانتاكوزينوس وبرانكوفان وحسب، بل كان أيضا مولعا بالكتب. وفي الوقت نفسه تقريبا الذي بدأ فيه الملوك الأوروبيون الآخرون في تفضيل مقر الإقامة الخاص على المقرات الحكومية، اشتكى أحمد الثالث إلى صدره الأعظم من الإتيكيت في قصر توبكابي: «إذا صعدت إلى إحدى الغرف أجد أربعين غرفة للوصفاء. وإذا أردت أن أخلع بنطلوني لا أشعر بالارتياح. يجب أن يصرفهم حملة السيف من خدمتي ولا يتركون إلا ثلاثة أو أربعة رجال حتى أشعر بالراحة في الغرفة الصغيرة». وفي مسعاه إلى نمط الحياة غير الرسمي، بدأ السلطان في بناء أكشاك وقصور أصغر حول العاصمة كان يفضل المقام فيها على قصر طوبقابي، منها دار البهجة الأبدية House of Eternal Gaiety في دفترداربورنو Defterdarburnu ودار الشرف الأبدي House of Eternal Honour في أوسكودار. كتب سفير البندقية: «ليس من السهل أن نجد مثالا سابقا للسلطان في ابتعاده عن القصور الملكية لفترات طويلة»[37]. تتلخص روح العصر في نقش علقه السلطان على كشك في طوبقابي:

بارك الله في هذا الكشك وملأه بهجة
ليغص كشك السعادة في الهناء!

بنى السلطان قصره الأكثر شهرة المسمى سعادت أباد Sa'adabad أو قصر السعادة الأبدية في مكان تقليدي للاستجمام على جدول مائي يؤدي إلى القرن الذهبي في منطقة كاغيت خانة (التي يسميها الأوروبيون مياه أوروبا الحلوة). تأثر قصر السعادة بصور منقوشة لقصر فيرساي لاتزال موجودة في مكتبة توبكابي وبنصائح محمد سعيد Mehmed Said الذي رافق سفارة أبيه إلى فرنسا في العام 1721 لكي يتعلم حول القلاع والتجارة والعادات الفرنسية ولتقوية التحالف بين الإمبراطوريتين. جُمِع المعماريون من أوروبا. وزُرعت الحديقة على طريقة فيرساي بصفوف مستقيمة من الأشجار ومربعات من بيوت الزهور. وتحت الإشراف الشخصي للصدر الأعظم وصهر السلطان

إبراهيم وعلى نفقته، استغرق بناء القصر من يونيو إلى أغسطس 1722. عُدِّل جزء من مجرى الجدول ليصير قناة مستقيمة بضفتين مرمريتين بطول ألف ومائة متر، تصطف حولها البرك والشلالات والمظلات المُذَهَّبة. وعلى الرغم من التأثير الفرنسي، فإن القصر والأكشاك في سعادت أباد جاءت تركية جدا كذلك، بالأفاريز الناتئة العريضة والقباب الذهبية والجدران المطلية بالأزرق والأحمر والأخضر الزاهية، إذ كان من بين الحريات التي تمتعت بها القسطنطينية حرية الألوان. كان الماء ينزل من نافورات برونزية ذات رؤوس تنانين إلى برك مرمرية. واحتفالا بإكمال القصر واسمه، أنشد الصدر الأعظم يقول: «بورك السلطان أحمد الذي جلب السعادة الأبدية (سعادت أباد) إلى الدولة». وطُلب من مائتين من الوجهاء العثمانيين أن يبنوا بيوتا مختلفة الألوان بالقرب من القصر، زيّنت برموز لمناصبهم: المدافع لقائد المدفعية، والطيور لرئيس مربي الصقور. بيد أن تصميمي القصر والحديقة لم يكونا السمتين الوحيدتين للثقافة الفرنسية اللتين كانتا تدخلان البهجة على قلب السلطان، إذ طُلب من فرنسا أيضا ألف قنينة شمبانيا وتسعمائة قنينة برغندية[38](*).



رسام مجهول، منظر لقصر سعادت أباد، في نحو العام 1770. يظهر القصر والنافورات والطرقات المشجرة واضحة جدا. كان قصر سعادت أباد الواقع على الجانب الأوروبي من المدينة، منتجعا معتادا للمتعة منذ بنائه في العام 1721 حتى العام 1914. وهذه اللوحة إحدى اللوحات الثماني التي رُسمت بتكليف من السفيرين السويديين أولريك وغوستاف سيلسنغ.

(*) البرغندية burgundy خمر يصنع في برغنديا بفرنسا. [المترجم].

احْتُفِـلَ بقصر سـعادت أباد من قبل أعظم الشـعراء العثمانيين، وهو نديم «الرفيق المرح» الذي ولد في القسـطنطينية نحو العام 1680 لعائلة من العلماء، وكان أمين مكتبة وصديقا للصدر الأعظم إبراهيم. تميّز نديم بتلذذ وثني بالحياة، فغنـى لملذات الخمر والحب واللحظة العابرة. خاطب نديم صاحبه في قصيدته الأشهر يقول:

دعنا نسلي القلب الذي تعب

دعنا نزور قصر سعادت أباد يا سروتي المتمايلة، هيا!(*)

انظر، ها هو قارب الكياك يقف هناك متأهبا على الرصيف

دعنا نذهب إلى قصر سعادت أباد يا سروتي المتمايلة، هيا!...

خذ إذنا من والدتك، أخبرها بأننا ذاهبون لصلاة الجمعة في مكان بعيد.

لا بد أن نختلس يوما على الأقل من القدر وهمومه!

ونذهب إلى الشوارع الخلفية المنعزلة حتى نصل إلى درجات الميناء.

دعنا نزر قصر سعادت أباد يا سروتي المتمائلة، هيا!

هيا نضحك ونلعب ونسرق من العالم المتعة!

هيا نشرب الماء الطالع من عيون عدن!

هيا نرى ماء الحياة وهو يقفز من أفواه التنانين!

دعنا نزر قصر سعادت أباد يا سروتي المؤثرة!

كتب نديم أيضا مديحا في العاصمة، امتدادا لإرث مديح المدينة القديم.

أنت يا مدينة اسطنبول لا نظير لكِ ولا ثمن!

أضحي بكل بلاد فارس فداء حجارة واحدة من حجارتكِ!

أنتِ جوهرة نُقشت على بحرين.

أنتِ كالشمس تدفئين العالم بأكمله.

وإسطنبول هي السماء السابعة، وجنة عدن، ومنجم السعادة. في بازاراتها، تباع حلة المعرفة. ومساجدها محيطات من النور، وسكانها لطفاء ومهذبون.

إنها إسطنبول المحظوظة المزدهرة

إن لدينا ما يجعلنا نفختر بكِ!

بوسعنا أن نقول إن قصورك وتلالك وضفافك

جميعها تنفث البهجة والمتعة واللذة.

(*) شجرة السرو - كما ورد قبل فقرات - كناية عن المحبوب الذكر. [المترجم].

هل بوسع أحد أن يصفك يا إسطنبول؟ لا
أريد فقط أن أمتدح الصدر الأعظم الممتاز...
لقد غرق خادمك نديم يا سيد العوالم
في هاوية تغص بالنعم والعطايا والإحسان![39]

في أثناء هذا الفاصل من المتعة تراجع استخدام الموت كسلاح بيد العائلة الحاكمة. كان للسلطان طبيب يهودي يدعى دانيال دي فونسيكا Daniel de Fonseca، وُلد في بروتو(*) في العام 1668، وعاش في القسطنطينية من العام 1702 إلى العام 1730، وكان السفراء الأجانب كثيرا ما يستشيرونه بشأن السياسة العثمانية. كتب فونسيكا في العام 1724 أن الصدر الأعظم لم يكن من رجال القصر الجيدين ولا سياسيا بارعا وحسب، «بل كان أيضا رجلا مهذبا إلى ما بعد الوصف... منذ أن دخل الصدر الأعظم الوزارة، تخلصت هذه الأرض كليا تقريبا مما عُهد عنها سابقا من بربرية ووحشية. واليوم ينعم الجميع ويعيشون للمتعة، وكل شيء يفيض باللطف والانسجام». ووافقته ليدي ماري ورتلي مونتغو على رأيه: «أنا على يقين من أنهم يتبنون فكرة صحيحة عن الحياة، إذ يقضونها في الموسيقى والحدائق والخمر وأطايب الطعام، بينما نحن نعذب أدمغتنا بخطط السياسة أو دراسة علوم لن ننال منها شيئا، وإن فعلنا، فلن نستطيع أن نقنع الناس بأن يقدِّروها إلى الحد الذي نقدِّرها به»[40].

تحولت عقيدة الزنبق إلى هوس من نوع «هوس الزنبق» الذي بلغ ذروته في هولندا في العام 1637. كان الهواة يدفعون حتى ألف قطعة ذهبية في بصلة الزنبق الواحدة، إلى أن أصدرت الحكومة قوائم أسعار رسمية. وكان مجلس من خبراء الزهور برئاسة رئيس زراع الزهور بقصر السلطان يعاين أنواع الزنبق الجديدة، وإذا وجدها بلا عيوب يعطيها اسما رسميا[41]. أنتج أمير البحر مصطفى باشا أربعة وأربعين نوعا جديدا، والصدر الأعظم ستة أنواع. وإجمالا، سجل ثمانمائة وتسعة وثلاثين نوعا في سجل خاص بالقصر. وفي حديقة الزنبق التي أنشأها السلطان في الفناء الرابع بالقصر، كان يقيم في كل ربيع احتفالا. كانت ألوان الزنبق فيه تنسجم مع ألوان ملابس الضيوف وزهريات الزينة المملوءة بالسوائل. وفي إحدى

(*) بروتوProto (Oporto في الإنجليزية) حاليا ثاني أكبر مدينة في البرتغال بعد لشبونة. [المترجم].

الأمسيات، رتبت سيدات الحريم أكشاكا لبيع الزهور في بازار تمثيلي، وكان السلطان المتسوق الوحيد[42].

أصبح البسفور مركز حياة المدينة. ونشأ تقليد ينتقل فيه الناس إلى يالياتهم الواقعة على البسفور قبل عيد الخِضر (السادس من مايو) ويعودون إلى المدينة في روز القاسم Ruz-i Kasim (السابع من أكتوبر) الذي كان أيضا النهاية التقليدية لموسم الحملات العسكرية. كان لبطريرك القدس ومفتي المدينة المنورة والعائلتين الأرمنيتين الثريتين كومورسيان Kumurcuyan ودوزوغلو Duzoglu وعائلة علماء الدين الكبار دوري زاده وعائلتي مافروكورداتو والكوبرولي، بيوت على البسفور. وكان محمد أفندي دوري زادة يعيش في سعة من العيش، حتى إن السلطان محمود الأول (1730 - 1754) حين حل ضيفا على بيته في أوسكودار في زيارة مفاجئة لتناول إفطار رمضان، استطاع أن يكرم السلطان ومائة وخمسين من حاشيته[43].

أصبحت القسطنطينية نمط حياة، إذ كانت المدينة الوحيدة التي كانت منتجعا وعاصمة، على خلاف لندن وباريس اللتين كانتا عاصمتين فقط. وحّدت ملذات الطعام والخمر والموسيقى والحانة والمقهى والبسفور المسلمين وغير المسلمين. في لوحات جان باتيست فانمور Jean-Baptiste Vanmour واللوحات التي رسمها جان إتيان ليوتار Jean-Etienne Liotard خلال السنوات الأربع التي قضاها في العاصمة من العام 1738 إلى العام 1742، نجد اليونانيين والأرمن والفرنجة بالمدينة لا يشبهون العثمانيين وحسب، بل يفعلون أشياء عثمانية كذلك. من ذلك أن نجد سيدة ترتدي قبقابا خشبيا وعباءة مبطنة بفرو القاقم تدخل حمّاما، وسيدات متكئات على وثائر يلعبن المنكب mankab وهي أحد أنواع لعبة الطاولة، أو يعزفن الموسيقى، وأخريات تطرّزن أو تشربن القهوة، فضلا على الملابس والوثائر وأباريق القهوة التي كانت عثمانية تماما. ولا يتضح أنهن يونانيات أو فرنجيات إلا من الرجال الذين يُصوّرون بجانبهم. يتأكد دور القسطنطينية كمدينة للمتع من الكلمات التي أعطتها للعالم الخارجي: sofa (صوفا) وkiosk (كشك) وcoffee (قهوة) وkaftan (قفطان) وturban (عمامة).



الرسام جان إتيان ليوتار Jean-Etienne Liotard، هيلين غلافاني Helene Glavani والتاجر الإنجليزي السيد ليفيت Mr Levett في نحو العام 1790. ترتدي هيلين غلافاني الجالسة إلى اليسار زي تتر القرم التي عمل فيها أبوها - ابن إحدى عائلات بيرا البارزة - قنصلا فرنسيا. ويرتدي ليفيت الذي كان صديقا لليوتار ملابس عثمانية مبطنة بالفراء في إشارة إلى ثرائه ورغبته في تبني العادات العثمانية. كما رسم الفنان العظيم ليوتار، الذي عاش في القسطنطينية بين العامين 1738 و1742، أيضا مصنوعات ترمز إلى المتع العثمانية: العود على اليسار، وفواحة عطر ومبخرة موضوعتين فوق صندوق كتابة مطعم بأصداف السلاحف وعرق اللؤلؤ. تعزف الآنسة غلافاني على الطنبورة أو القيثارة، ويمسك السيد ليفيت غليونا طويلا من خشب الياسمين.

كانت القسطنطينية عالما قائما بذاته، مقتنعا بسموه على المدن الإقليمية. من ذلك ما كتبه الشاعر يوسف نبي(*): «لا شيء يكشف عن وضاعة الولايات غير مشاهدة القسطنطينية. تدور السماء مرغمة حول العالم كله، غير أنها لا ترى في أي مكان مدينة مثل القسطنطينية. انظر كيف تومض بالجمال إذ يعانقها البحر ضاحكا!»، كانت

(*) يوسف نبي Yusuf Nabi (من 1642 إلى 10 أبريل 1712) شاعر عثماني في بلاط السلطان محمد الرابع، انتقل إلى القسطنطينية من ولاية أورفة في عمر الرابعة والعشرين، وعاش فترة في حلب، ثم عاد إلى القسطنطينية التي مات فيها، تميز شعره بكثرة الأقوال والانتقادات الشعبية لعصره. [المترجم].

إمبراطوريتها للذوق مطلقة كما كانت السلطة السياسية للسلطان. كتب أمير لاين بعين فرد الحاشية الحادة: «تحدد القسطنطينية الموضة لباش، كما تحددها باريس للمحافظات، بل إن موضة القسطنطينية كانت تصل أسرع. كان اللون الأصفر هو اللون المفضل للسلطانات. وفي باش، أصبح اللون المفضل لكل النساء. وحلت الغليونات الطويلة المصنوعة من خشب الكرز في القسطنطينية محل الغليونات المصنوعة من خشب الياسمين. وها نحن نبلاء البويار لا نستخدم غير غليونات خشب الكرز حاليا»[44].

أصبحت المدينة مقصد الرحلة الكبرى(*) للزوار الباحثين عن المتعة، وكذلك للدارسين الطالبين المعرفة. زارها البريطانيون، ومنهم اليعقوبي لورد غارليز Lord Garlies في العام 1724، وإيرل رادنور Earl of Radnor في العام 1730، وجون مونتغو John Montagu الإيرل الرابع لسندويتش(**) ووليام بنسونبي William Ponsonby في العام 1738، وريتشارد بوكوك Richard Pococke ومركيز غرانبي Marquess of Granby (الذي رسمه ليوتار) في العام 1740. ورُسم الكثيرون منهم في لوحات وهم يرتدون الملابس التركية. ذكر لورد شارلمونت:

> إن نمط الحياة في القسطنطينية بالنسبة إلى الشباب لا يقل إمتاعا بحال من الأحوال عن أي مدينة كبرى. وذلك الحي من المدينة المسمى بيرا الذي تشكل كمدينة كبيرة قائمة بذاتها، أغلبية قاطنيه من الفرنجة واليونانيين الذين اختلطوا معا، وشكلوا مع الوزراء العامين (السفراء) مجتمعا ممتعا إلى أقصى حد، تكثر بينهم متع المائدة، ويندر أن يمر مساء من دون حفلات راقصة أو حفلات موسيقية أو تجمعات يكون الاختلاط فيها بين الجنسين متاحا تماما.

انزعج السفير الهولندي من أن التجار الهولنديين «غير راضين بالمرة عن طريقة الحياة الشريفة... ويريدون أن يتنافسوا مع الدبلوماسيين الأجانب في المظهر والحاشية ونمط الحياة، وأن تنغمس زوجاتهم وبناتهم يوميا في الاحتفالات والحفلات الراقصة والنزهات الماتعة إلى كل المنتجعات الجميلة». زار كازانوفا المدينة لثلاثة أشهر في العام

(*) الرحلة الكبرى Grand Tour رحلات تقليدية إلى البلاد البعيدة بصحبة دليل، كان نبلاء وأثرياء أوروبا يقومون بها، انتشرت بداية من العام 1660 حتى وصول القطار في العقد الخامس من القرن التاسع عشر. [المترجم].

(**) سندويتش Sandwich مدينة تاريخية على نهر ستور Stour بدوفر في كنت بجنوب شرق إنجلترا، ومنها جاء اسم الوجبة الخفيفة «سندوتش» الذي يرجع إلى أن جون مونتغو الإيرل الرابع لسندويتش كان لا يشبع من القمار حتى إنه كان لا يجد وقتا للجلوس على مائدة الطعام، فكان يطلب من خدمه أن يضعوا له اللحم بين شطرتي خبز، ومنها بدأ الآخرون يطلبون «نفس ما طلبه ساندويتش». [المترجم].

1745، لكنــه لم يغــوِ أحــدا، بل «أُغوي» هو نفســه عندما أراه تركي يدعى إســماعيل سيدات يستحممن في كشك[45](*).

هل أنقذ انغماس القســطنطينية في الملذات أجزاء من أوروبا والهند من أن تصبح ولايــات عثمانية؟ من المؤكد أن هذه الملذات اســتنزفت الــروح القتالية للإمبراطورية. وفي العام 1514 والعام 1517، أجبرت الانكشــارية ســليم الأول المهيب على العودة إلى المدينــة(**). وفي العام 1771، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية في حرب مع روســيا، كانت القســطنطينية مشــغولة بنزاع آخر: نزاع اندلع في حانــة بغَلَطَة بين جماعة من الانكشــارية وبعض المشرقيين على غلام راقــص في عمر الرابعة عشرة. فعُطلت الأعمال التجارية، ونُشرت المدافع، وقُتل خمسون شخصا. علق الصدر الأعظم على ذلك بالقول: «كل هــذه الشــجاعة في غَلَطَة وكل ذلك الجبن في حوض الدانوب يكشــف أن الأتراك يخافون من القبعات»(***). واســتغرق الأمر أربعة أيــام لإعادة النظام، ووعد الصدر الأعظم بألا يكون الغلام من نصيب أي من الطرفين، بل شنق بدلا من ذلك.

بعد الموجات التطهرية إبان القرن الســابع عــشر، عاد الانحراف الفردي الفني إلى المدينة بدرجة أوضح مــن ذي قبل إبان القرن الثامن عشر. وبذلك تعد لوحات ليفني Levni لعهد السلطان أحمد الثالث بوجوهها المميّزة واستخدام المنظور والمرح، تطورا جديدا في الفن العثماني. ثمة تغير آخر تمثل في ولادة الطباعة، سواء على أيدي المسلمين أو الموجهة إليهم من الغير. كان هناك راعيان للطباعة، هما محمد أفندي مصمم قصر سعادت أباد، ورجل من تراسلفانيا يدعى إبراهيم متفرقة Ibrahim Muteferrika.

سُــبي إبراهيم في الحروب في نحو العام 1693، وأعتق نفسه من العبودية باعتناق الإســلام. ثم أصبــح متفرقــا muteferrik، أي واحدا من جماعة مــن الحراس والرفاق المكرمــين في القصر الذين يوصفون بأنهم «رجال مــن كل الأمم وكل الأديان». قيل إنه كان يعرف الفرنســية والإيطالية والألمانية واللاتينية والتركية والمجرية (استخدمه الباب

(*) جياكومــو جيرالمو كازانوفــا Giacomo Giralmo Casanova (من 2 أبريــل 1725 إلى 4 يونيو 1798) مغامر ومؤلف إيطالي من جمهورية البندقية، عاش بين الأمراء والنبلاء والباباوات والكرادلة، واشتهر بتعدد علاقاته النسائية، وهو الملمح الوحيد الباقي منه إلى جانب مذكراته «قصة حياتي» وكتابات أخرى. [المترجم].

(**) بعد فتح مصر في العام 1517، أراد ســليم أن يبقى فيها ويتخذها عاصمة، غير أن الانكشارية رفضت وأجبرته على العودة إلى القسطنطينية. [المترجم].

(***) القبعات hats أحد الأســماء التي اســتخدمها العثمانيون للإشارة إلى المسيحيين بينما كان المسلمون يرتدون العمائم، لأن حافات القبعات لا تصلح مع السجود في أثناء الصلاة.

العالي لاحقا مترجما للوثائق الديبلوماسية). في العام 1726، قدم أطروحة حول الطباعة إلى الصدر الأعظم والعلماء، مؤكدا أنها ستساعد في نشر معرفة القراءة والكتابة، وإيقاف الأوروبيين عن طباعة الكتب الإسلامية، وإعطاء العثمانيين الريادة وحدهم في العالم الإسلامي، وطلب أن «يعلن شيخ الإسلام أن عمل الطباعة محمود وأنه مفيد للمسلمين ويتفق مع الشريعة البهية». وأكد أيضا فوائدها العملية: الرخص والدقة ونشر العلم. وصدرت فتوى تسمح بطباعة الكتب في كل الموضوعات، ما عدا الإسلام، برغم معارضة مجموعة من العلماء ذهبت - وفقا لإبراهيم متفرقة - إلى «أن الاختراع المذكور سيكون خطرا على النظام العام وعلى ممارسة الدين، لأنه سيتيح نشر الكتب بعدد أكبر مما ينبغي». يكشف مفهوم العدد «الذي ينبغي» من الكتب عن البصيرة الفاترة لدى بعض العقول الرسمية العثمانية. وجاءت المعارضة أيضا من الخطّاطين المحترفين الذين نظموا مظاهرة بالقرب من القصر[46].

كانت المطبعة التي عملت في بيت إبراهيم متفرقة مشروعا متعدد الجنسيات. عمل بها العلماء مصححي بروفات. وربما عمل فيها أيضا يونس بن يعقوب أشكنازي، اليهودي من مدينة لفيف القريبة الذي أنشأ مطبعة عبرية في القسطنطينية في العام 1711. جاء الطباعون ونقاشو الحروف والمنضدون من فيينا. وتمثل أول كتاب طبع في الحادي والثلاثين من يناير 1729 في معجم عربي، تلته طبعة للمؤرخ العثماني كاتب جلبي وكتاب في القواعد النحوية للغة التركية للمؤلف بير هولدرمان Pere Holdermann لكي يستخدمه الطلاب والتجار الفرنسيون.وفي العام 1731، قدم إبراهيم متفرقة إلى السلطان محمود الأول كتابه «القواعد الرشيدة لسياسة الأمم» Rational Bases for the Politics of Nations الذي طرح السؤال الذي سيطر على عقول المسلمين منذ ذلك الحين: لماذا بدأت الأمم المسيحية التي كانت ضعيفة جدا في الماضي مقارنة بالأمم الإسلامية، تسيطر على الكثير من الأراضي في الأزمنة الحديثة وتهزم الجيوش العثمانية التي كانت مظفرة في السابق؟ أشار في كتابه إلى النظام البرلماني في إنجلترا وهولندا، وإلى توسع المسيحيين في أمريكا والشرق الأقصى، وذكر أنه حتى في حين يُحكَم العثمانيون بالشريعة، يتبع الأوروبيون «قوانين وقواعد استنبطها العقل»: «مازلنا في حالة من عدم الاستعداد الواضح... وباتت الحاجة ماسة وملحة حاليا إلى جمع المعلومات حول تفاصيل الشؤون الأوروبية حتى نرد كيدهم ونمنع حقدهم». وكان الإصلاح العسكري هو الحل الذي ارتآه لمشكلة التراجع العثماني:

> يجـب أن يقلع المسـلمون عن الغفلـة والجهل بالموقـف ويصحوا من نعاسهم وغفلتهم... ويجب أن يعملوا ببصيرة ويتابعوا طرق الحرب الأوروبية الجديـدة وتنظيمها وإسـتراتيجيتها وتكتيكاتها عن كثـب... يتفق كل حكماء العالم على أن شـعب تركيا يتفوق على كل الشعوب الأخرى بطبيعته المتقبلة للحكم والنظام. وإذا تعلموا العلوم العسـكرية الجديدة وصاروا قادرين على تطبيقها، فإن عدوا لن يصمد أمام هذه الدولة أبدا [47].

انتهى عـصر الزنبق بثورة شـعبية. بحلول العام 1690، ومن خـلال أرقام ضريبة الـرؤوس المفروضة عـلى المسـيحيين وتقديرات المقيّمـين الأجانب، بلغ عدد سـكان القسـطنطينية ما بين سـتمائة وسـبعمائة ألف نسـمة. فكانت أكبر مدينة في أوروبا والشرق الأوسط، أو باسـتخدام مجاز محبب إلى العثمانيين أنفسهم، كانت محيطا من الرجال والنساء. وبحلول العقد الثالث من القرن الثامن عشر واصل عدد السكان النمو مـع تدفق المهاجرين الباحثين عن العمل من الأناضول. واضطر السـلطان إلى أن يبني سـبعة مخـازن غلال جديدة بالقرب من الترسـانة حتى يجاري توريـد الخبز بالمدينة الزيادة في عدد سكانها.

وفي الوقت نفسـه، بدأ المهاجرون بسـبب رفض الطوائـف الحرفية بالمدينة قبول الكثيرين منهم، يشكلون طبقة دنيا منبوذة. وفي الوقت عينه أدى إسراف السلاطين إلى خفض الرواتب ورفع الضرائب. وفي يوليو 1729 تسـبب حريق وصفه سـفير البندقية بأنه «أكبر من أي حريق آخر شوهد في ذاكرة الإنسان أو وُصف في السجلات» في تدمير أربعمائة بيت ومائة وثلاثين مسجدا ومقتل ألف شخص. كما أثار ضعف بعض الحواجز بين الجنسين الاستياء الشعبي. في حفلة في قصر سعادت أباد رمى الصدر الأعظم عملات ذهبية أسفل فسـتان زوجة قاضي القسـطنطينية. وفتحت حدائق المتعة في الأتميدان وفي قصر سعادت أباد، وفيها كانت «النساء الحمقاوات» يقابلن الشباب، و«يزعمن أن ذلك من حقوق الإنسان، ويخرجن إلى متنزهات المتعة، ويجبرن أزواجهن على إعطائهن المـال، وإن رفضوا يطلـبن الطلاق، وقد تفشى هذا الأمر حتى لم يبق غير خمس نسـاء شريفات في أي حي». وباتت المدينة على حافة الانفجار.

كان مفتي القسـطنطينية وبعض العلماء سـاخطين على بدع البلاط، فشجعوا الثورة. وشُجبت معاهدة حديثة مع روسيا وحرب وشيكة مع بلاد فارس في الخطب في جامع آيا صوفيا: «إن الحرب بين من يولون وجوههم شـطر مكة حرب ظالمة».

واندلعت الثورة في صبيحة الثامن والعشرين من سبتمبر 1730. قيل إن قائدها كان مـن أصل ألباني يدعـى «باترونا» خليل لأنه خدم على السـفينة باترونا Patrona. عمل خليل لفترة جنديا انكشـاريا، ثم انتقل إلى بيع الملابس في الشوارع. وعلى نحو مـا فعل «اللامتسرولون» في باريس الثوريـة، ارتدى خليل مزهوا ملابس ممزقة(*). قـاد مـع صديقيه موصلو Muslu بائع الفاكهة وعلي بائـع القهوة نحو ثلاثين ثائرا إلى البـازار وطلبـوا من الناس أن ينضموا إليهم لـ «تطبيق شريعة محمد». حدث ذلـك يوم الخميـس، وهو يوم راحة، لذلك كان القائم مقـام في بيته الصيفي يزرع الزنبق. كان السلطان والجيش قد انتقلا في موكب عظيم إلى أوسكودار على الجانب الآسـيوي للبسـفور اسـتعدادا للحرب على بلاد فارس. وبعد أن استولى الثوار على أسـلحة من الانكشـارية، عمت الثورة سريعا كل مكان حتى أصبحت عن حق أول ثورة اجتماعية ودينية وسياسية واسعة النطاق في تاريخ القسطنطينية[48].

كان السـلطان مترددا وغير مطلع بما يكفي على سـير الأمـور. وكان باترونا خليل، في المقابل، متحدثا مفوها. وفي يوم الجمعة، جند الثوار الكثير من الأتباع في المسـاجد، وانضـم إليهم أيضـا اليونانيون والأرمـن والغجر. فإبان القـرن الثامن عشر، لم يقتصر التعايـش بين الأتراك واليونانيـين على الأمراء الفناريين فقط، بل امتد أيضا إلى أسـفل التراتبيـة الاجتماعية. مـن ذلك أن باترونا خليل اقترض في بدايـة الثورة مالا من رفيق لـه في الشرب، وهو جزار يوناني يدعى ياناكي Yanaki. وسرعان ما مال العمال بترسـانة السـفن والموظفون الحكوميون وحتى القبطان باشا نفسـه إلى الجانب الفائز. طالب باترونا خليل برأس الصدر الأعظم. وفي الثلاثين من سـبتمبر، رميت جثة الصدر الأعظم من القصر وتُركت لكلاب الشوارع. وكان مما خفف إحساس السلطان بالذنب أن الثوار وجدوا أربعة وخمسين صندوقا من العملات الذهبية بين كنوز الصدر الأعظم.

وفي الأول من أكتوبر اسـتقبل أحمد الثالث مبعوثين من الثوار قالوا له إن «عهدك انتهى، وإن رعاياك لم يعودوا يقبلونك سيدا عليهم». قبل أحمد مصيره وقبّل يد السلطان التالي، ابن أخيه محمود. وكانت نصيحته الأخيرة للسـلطان الجديد هي «ألا يولِ عطفا أو ثقة زائدة في صدوره العظماء... وأن يحكم وفقا لفكره المستنير، وأن يطلب المشورة،

(*) اللامتسرولون sansculottes هو الاسـم الذي أطلقه الأرستقراطيون في فرنسا إبان الثورة على النشطاء من قواد الثورة الذين استبدلوا السروال الطويل الذي هو اللباس المعروف لعامة الشعب من الكادحين بالسروال القصير الذي كان من علامات الأرستقراطية. [المترجم].

على ألا يعتمد كليا على أي شخص». ومات الشاعر نديم نتيجة الوقوع من فوق أسطح البيوت التي كان يجري فوقها هربا من مجموعة من أتباع خليل أو (وفقا لرواية أخرى) أهل أحد برادشيته الغاضبين. وانهارت الإدارة، وصار الحكم بأيدي الثوار وعلماء الدين. وتجلى انتصارهم في وجود باترونا خليل وعلي بائع القهوة إلى جانب السـلطان الجديد وهو في طريقه إلى أيوب لتنصيبه، حيث كانا يرميان عملات ذهبية على الحشـود. وعُيّن ياناكي هوسـبودارا لمولدافيا لفـترة قصيرة(*). وبرغم معارضة السـلطان محمود الأول، حطم الثوار بعض البيوت والحدائق الجديدة المكروهة في منطقة سـعادت أباد. خطط السـلطان للانتقام مع قادة انكشـاريته وخان القرم الذي كان يزور القسطنطينية. وفي الرابع والعشرين من نوفمبر اُستدعي باترونا خليل وثمانية وعشرون من رجاله إلى القصر بدعوى منحهم تكريمات جديدة، وقتلهم الحراس في غرفة المجلس ورميت جثثهم خارج الباب الإمبراطوري، كما فعلوا بالصدر الأعظم قبل شهرين[49].

وبرغـم ذلـك، اسـتغرق الأمر وقتا طويـلا إلى أن اُسـتعيد النظـام. وفي الخامس والعشريـن من مارس 1731، وقعت ثورة أخرى بقيادة ألباني آخر يدعى علي الأسـود، وفيها أعدم عدة آلاف من الثوار، وأبعد الألبان واللاز وهم الجورجيون المسـلمون من منطقة البحر الأسـود(**)، عن المدينة، وتوبـع بعضهم حتى أماكن بعيدة مثل ألبانيا. وأغلقت المقاهي، وفرضت سيطرة صارمة على دخول المدينة، حتى للأعمال المستعجلة. وردا عـلى ذلك، اندلع مزيد من الحرائـق، وطالب الناس بتغيير الصدر الأعظم ورئيس الخصيان. كتب السـفير البريطاني لورد كينول Lord Kinnoul أن «الروح الشـيطانية للشـعب... جامحة ومنفلتة، حتى إنهم يلقون باستمرار أوراقا في الشوارع تهدد بأنهم لن يكفوا عن العصيان حتى يحرقوا القسـطنطينية كلها». وفي شهر سبتمبر، وبعد ثورة أخرى، وُضعت آلاف كثيرة من الثوار في أجولة وأُغرقوا في البسـفور[50]. فـ «الماسة التي بين زمردتين» كانت مقبرة أيضا(***).

(*) الهوسـبودار Hospodar اسم آخر لنبلاء البويار كان يستخدم في الكتابات السلافية، بينما كان مصطلح الدومن Domn يستخدم في الكتابة الرومانية. [المترجم].

(**) اللاز Laz شـعب يسكن مناطق ساحل البحر الأسود التركية والجورجية، كانوا من أوائل من اعتنق المسيحية، ثم تحول غالبيتهم إلى الإسلام السني في عهد الحكم العثماني للقوقاز في القرن السادس عشر. [المترجم].

(***) تذكـر أن الشـعراء العثمانيـين أطلقوا على البسـفور وصف «الماسـة بين زمردتـين»، و«الجوهرة في عقد الإمبراطورية العالمية». [المترجم].

8

السفراء والفنانون

إن قصرنا عالي النوافذ مفتوح دائما
بلا حُجب أمام الصديق والعدو على حد سواء.
مراد الثالث لإليزابيث الأولى،

في 27 مارس 1579

لا توجد مكانة في البلاط ولا بين السفراء
أعلى من مكانة الباب العالي.
مركيز دي فيريول السفير الفرنسي،
في 26 فبراير 1700

لم تسع عاصمة أخرى كل هذا العدد من السفارات. جاء سفراء إلى القسطنطينية من لندن وباريس واستوكهولم وسمرقند وغوا وفاس(*). وفي العام 1628، وهو عام لا يختلف عن غيره في أي شيء، جاء سفراء من فيينا

«وفّرت السفارات الإطار للتخليد الفني للقسطنطينية، فضلا على البحث العلمي لها»

(*) كانت غوا Goa عاصمة مملكة بيجابور Bijapur التي حكمتها عائلة عادل شاهي Adil Shahi بغرب الدكن في شبه القارة الهندية، انتزعها منهم البرتغاليون في العام 1510 لإقامة دولة الهند البرتغالية، وبقيت سلطنة بيجابور حتى ضمتها الإمبراطورية المغولية الهندية في العام 1686. [المترجم].

ووارسـو وموسكو وأصفهان ودلهي لتقديم الاحترامات إلى السلطان[1]. كانت القوة هـي ما أتى بهؤلاء. كانت الإمبراطورية العثمانية في الوقت عينه قوة أوروبية وشرق أوسـطية وأفريقية وبحر أسـودية ومحيط هندية وبحر متوسـطية، إذ امتدت من المغـرب إلى بلاد ما بين النهرين، ومـن بولندا إلى اليمن، وبالتالي كان لها جيران أكثر من أي دولة أخرى، وبالتالي أيضا أمور أكثر عرضة للنزاع أو التفاوض.

يكشـف وجود السـفارات الدائمة في القسـطنطينية بداية من منتصف القرن السـادس عشر، بعد تأسيس السفارات مباشرة في العواصم الغربية، أن الإمبراطورية العثمانية كانت من الناحية الديبلوماسـية جزءا من أوروبا. ولم يكن السـفراء فيها يعاملـون معاملة الأجانب، كما كانت الحال في موسـكو قبل عهد بيتر الأكبر وبعد العـام 1918، بل أدى السـفراء بدرجة أكبر منهم في أي مـكان آخر، دورا في الحياة الداخلية للعاصمة وكذلك العلاقات الخارجية للإمبراطورية.

عمليـا، وأيا كانت دعاوى المتطرفين على الجانبين، لم تكن هناك حرب مقدسـة بين الإسـلام والمسـيحية. صحيح أنها كانت موجـودة على مسـتوى النظرية، وأن كراهيـة «الكفار» عبّرت عن نفسـها كثيرا في القسـطنطينية وباريـس، لكن هذه الكراهية نفّسـت عن نفسـها ضد الزنادقة داخل المسيحية أو الإسلام - سواء أكانوا البروتسـتانت أم الفرس أتباع المذهب الشـيعي - بعنف أشـد مما مورس بين أتباع الديـنين. فعلى الرغم من الولع العثماني بالثقافة الفارسـية، جعلت النزاعات حول المذهب الديني والحدود الجغرافية ووصول الشيعة إلى مكة والمدينة المنورة (وهي القضايـا عينها التي لاتزال تسـمم العلاقات الخارجية لإيـران إلى اليوم) من إيران العدو الأكثر ديمومة للإمبراطورية العثمانية. كان الفرس يعرفون باسـم القزلباش أي ذوي الرؤوس الحمراء بسـبب أغطية رؤوسـهم الحمراء المميّزة(*). وبعد أن تبنى الشـاهات الصفويون المذهب الشيعي دينا رسـميا لدولتهم في العام 1506، أخذوا يغرقون شرق الأناضول بإرساليات تبشيرية من القزلباش، وجدت استجابة متحمسة.

(*) القزلباش: اسم تركي معناه «ذوو الرؤوس الحمراء» بسبب التاج الأحمر المميز ذي الاثني عشر ثقبا الذي يعرف في الفارسـية باسـم تاج حيدر والذي يبيّن انتسـاب مرتديـه إلى المذهب الاثني عشري وإلى حيـدر الصفوي الزعيم الروحي للحركة الصفوية، يشـير إلى جماعات شـيعية مقاتلة ازدهرت في الأناضول وكردستان منذ نهاية القرن الثالث عشر، بعضهم أسـهم في تأسيس الدولة الصفوية في إيران، واسـتخدمتهم الدولة الفارسية لاحقا كرأس حربة لها ضد الإمبراطورية العثمانية. [المترجم].

كان سفراء الفرس السفراء الوحيدين الذين أعدموا في القسطنطينية، مرة في العام 1524 وأخرى في العام 1729. وفي العام 1549، أعلن مفتي القسطنطينية الحرب على بلاد فارس: «نعم إنه أعظم الجهاد وأعلى درجات الشهادة»[2]. وظلت الحروب تندلع بين الطرفين بانتظام قاس حتى القرن التاسع عشر.

وبين العامين 1556 و1748، تبودلت السفارات من حين لآخر مع الإمبراطورية الإسلامية الكبرى الأخرى: الإمبراطورية المغولية التي كانت دلهي عاصمتها. لكن كان هناك صدام عظمة بينهما، إذ أطلق حاكما الإمبراطوريتين كلاهما على نفسيهما ألقاب «الخليفة» و«ظل الله» و«ملاذ ملوك الكون». ولذلك كانت السلطات العثمانية تتصرف بغطرسة مع المبعوثين المغول إلى القسطنطينية. من جانبهم، لم ينسَ المغول أبدا أنهم من سلالة تيمورلنك العظيم الذي أسر السلطان العثماني في العام 1402(*). زعم الأباطرة المغول في القرنين السادس عشر والسابع عشر أن عاصمتهم أكرة Agra كانت «مقر الخلافة»، وأن القسطنطينية كانت «مقر السلطنة العثمانية» فقط. ولذلك فعلى الرغم من اشتراك الإمبراطوريتين العثمانية والمغولية في الأعداء مثل البرتغال وبلاد فارس، وعلى الرغم من مصلحتهما المشتركة في تأمين الحج وحماية وسط آسيا من روسيا، فنادرا ما كانت العلاقات بينهما ودية، لكنها لم تُقطع أبدا. وقد دفعت الجغرافيا والطموح الإمبراطورية العثمانية إلى نظام الدول الأوروبي، بعيدا عن الاتصال مع الممالك الإسلامية الأخرى. فكانت الرحلة بين الإمبراطوريتين تستغرق ما بين ستة وثمانية أشهر، فيما كانت الرحلة بين القسطنطينية والبندقية تأخذ ما بين ثلاثة وستة أسابيع. ولم تحتفظ الإمبراطورية المغولية ولا بلاد فارس بسفارات دائمة في العاصمة العثمانية[3].

في روايته للاكتشاف الإسلامي لأوروبا (1982)(**)، يأخذ بيرنارد لويس على العثمانيين معرفتهم السطحية والخاطئة بأوروبا، لكنه أيضا يكتشف أن «فكرة

(*) وجه تيمورلنك أقسى هزيمة للدولة العثمانية في معركة أنقرة في العام 1402، هددت بفناء الدولة والعائلة الحاكمة، وكان صاحب الأسير الوحيد من بين سلاطينها: بايزيد الأول. [المترجم].

(**) عنوان كتاب للمستشرق بيرنارد لويس يتناول فيه تصورات المسلمين لأوروبا منذ الفتوحات العربية حتى حملة نابليون على مصر، يدين فيه المسلمين لكونهم لم يفهموا الغرب ولم يهتموا بمعرفة عدوهم الألفي، وأرجع ذلك إلى المحظور الديني واحتقار الدين الناسخ للمنسوخ وتفوق المسلمين في العصور الوسطى، وغيرها من الأسباب. وعلى الرغم من أن كتابات لويس تتسم بشيء من العداء ضد المسلمين، فإنه محق في رأيه، كما يتجلى من حضور الغربيين البارز في القسطنطينية في هذا الكتاب وفي العواصم والمدن الإسلامية الأخرى كلها تقريبا، في مقابل ندرة المسلمين الذين زاروا دولا غربية، حتى صارت زياراتهم نوادر تسطر في الكتب مثل «رحلة ابن فضلان» مثلا. [المترجم].

التحالف مع القوى المسيحية، حتى ضد قوى مسيحية أخرى، كانت فكرة غريبة، بل وكانت بالنسبة إلى البعض فكرة مقيتة». وبالفعل كانت التحالفات الأوروبية مـن بين أقـدم تقاليد الحكم العثـماني. وقد عبَر الجنود العثمانيـون إلى أوروبا لأول مرة حلفاء للإمبراطور البيزنطي ومدينة جنوى. لم تكن المراسـم التي تحكم استقبال السفراء في القسطنطينية ترفع من شأن السلطان فقط، بل تشرِّف أيضا السفير الذي كان يركب إلى القصر على خيول السلطان، ويُسمح له بالدخول مع حاشية كبيرة إلى الفناء الثاني بالقصر، ويتعشى وحده مع الصدر الأعظم، ويحصل على عـدد من القفاطين الرائعـة، وأخيرا يتشرف بميزة الدخـول إلى غرفة عرش السـلطان. كان السـفراء نظريا ضيوفا على السـلطان. وكانوا يتقاضون تكاليف معيشـية يومية مـن الحكومة العثمانية ويُدعون إلى مراسـم مثل ختان الأمراء الإمبراطوريين. كما رافق بعض السفراء السلطان في الحملات العسكرية.

لم تعـدم الإمبراطوريـة العثمانية الحلفاء الأوروبيين قط. فـكان الفاتح صديقا لفلورنسـا، ودعم سـليمان فرنسـا، إذ جمعت بين الطرفين في الحالتين رابطة قوية تمثلت في الاشـتراك في كراهية آل النمسـا(*). وفي العام 1526، كان رأس آل النمسا كارلـوس الخامس الإمبراطور الروماني المقدس وملك قشـتالة وآراغون(**) وعاهل الأراضي الواطئـة(***)، وكان أخـوه فردنانـد Ferdinand ملـك المجر وبوهيميا وأرشيدوق النمسا. حارب الهابسبرغيون الإسبان والنمساويون - كما فعل أحفادهم لاحقا - الإمبراطورية العثمانية للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط ومنطقة البلقان والمجر. ولذلك فعندما تعرض ملك فرنسـا فرانسـوا الأول للهزيمة والأسر على يدي كارلوس الخامس في معركة بافيا في العام 1525، أرسـل رسـالة إلى سليمان القانوني يلتمس فيها العون.

(*) آل النمسـا هم آل هابسـبرغ الذين تزعموا قيادة العالم المسـيحي في الحرب ضد الإسـلام سواء كحكام للنمسا أي الإمبراطورية الرومانية المقدسـة حينذاك التي تزعمت الحروب المسـيحية ضد العثمانيين على اليابسة الأوروبية وأفشـلت حصارين عثمانيين لفيينا، أو كحكام لإسـبانيا التي تصدت للعثمانيين على صفحة البحر الأبيض المتوسـط وضفافه، ونجحتا مع البابوية في هزيمة الأسطول العثماني في ليبانتو في العام 1571. [المترجم].

(**) كان كارلوس الإمبراطور الروماني المقدس باسم كارلوس الخامس، وإمبراطور إسبانيا باسم كارلوس الأول. [المترجم].

(***) الأراضي الواطئـة هـي هولندا، مع العلم أنها لم تخضع كلها يوما للاحتلال الإسـباني، بل كانت هناك دوما مقاطعات مستقلة. [المترجم].

وصل أول سفير فرنسي دائم إلى القسطنطينية في العام 1535. ومنذ ذلك الحين، كانت للسفير الفرنسي أسبقية على غيره من السفراء، وكان سيده في الوثائق العثمانية يدعى باديشاه مثله مثل السلطان. وعلى الرغم من الغطرسة وسوء الفهم، دامت الصداقة بين الجانبين حتى العام 1798(*). في إحدى المناسبات في العام 1659، هدد سفير البندقية الحكومة العثمانية بغضب العالم المسيحي، فرد عليه نائب الصدر الأعظم قائلا: «أنت تضحكني عندما تحاول أن تخيفني بالقوى المسيحية. إنها كالغول لا شيء فيها يخيف غير اسمها». ومع ذلك فإن ملك فرنسا الواعي بلقبيه «الملك الأكثر مسيحية» و«الابن الأكبر للكنيسة»، وخوفا من نقد أوروبا الكاثوليكية له، تجنب التحالف المكتوب الذي ألحّ عليه الباب العالي مرارا وتكرارا.

وغدا «اتحاد الزنبق والهلال»(**) أحد الثوابت في السياسة الأوروبية. وجد المتطرفون المسلمون والمسيحيون إهانة في هذا التحالف. وجزئيا من أجل تخفيف النقد، أشيعت أسطورة في القسطنطينية في نحو القرن السادس عشر بأن السلالتين الحاكمتين أقارب من خلال أم محمد الثاني التي كانت ابنة ملك فرنسا. ومن جانبهم، زعم الوزراء والديبلوماسيون الفرنسيون لأنفسهم وللرأي العام الأوروبي، أن الدافع الأول لصداقتهم مع الإمبراطورية العثمانية كان حماية الكاثوليكية ونشرها ضمن تخوم الإمبراطورية. وكانت زيادة التجارة الفرنسية السبب الثاني. في حين تمثل الدافع الأساسي، كما ظهر في التعليمات المعطاة لأحد السفراء الفرنسيين في العام 1724، في ضمان «أن تبقى قوة الأتراك دائما شيئا مخيفا لآل النمسا»[4](***). وفي ذروة العداء الفرنسي-الهابسبرغي، رتب السفير الفرنسي في القسطنطينية لإعادة تجهيز السفن الفرنسية في ميناء القسطنطينية في العام 1538، وأن يقضي الأسطول العثماني الشتاء في تولون في شتاء 1543 - 1544.

(*) عام الحملة الفرنسية على مصر. [المترجم].

(**) كان الهلال شعار الدولة العثمانية، والزنبق رمز الدولة الفرنسية، إذ ظهر في أعلامها وتيجان الملوك وعروشهم وغيرها من رموز الدولة الفرنسية. [المترجم].

(***) إن العداء الطويل والحرب والهزيمة والأسر بين فرنسا وآل النمسا تذكرنا بالحالة عينها بين المغول والأتراك، وإن كان كارلوس لم يقتل فرانسوا بعد أسره في معركة بافيا 1525، كما فعل تيمورلنك مع بايزيد، وإنما أطلق سراحه، بعد أن أخذ منه تنازلات كبيرة ومهينة. [المترجم].

وكان هذا السـفير يدير المدفعية العثمانية شخصيا في أثناء الحرب ضد بلاد فارس في الأعوام 1548 - 1550، ونظم عمليات بحرية فرنسـية - عثمانية ضد إسبانيا في البحر الأبيض المتوسط في الأعوام 1551 - 1555[5].

على أن فرنسـا لم تكن الحليف المسـيحي الوحيد للإمبراطورية العثمانية. فمن قبـل العام 1453، حظيت بولندا بروابط ديبلوماسـية مـع الإمبراطورية العثمانية أوثق من روابطها مع فرنسا أو إنجلترا. وفي العام 1533 وقّعت الحكومتان معاهدة «صداقـة وتحالف دائمين». وعند وفاة ملك بولنـدا زغمونت الأول في العام 1548، قال سـليمان: «كنت والملك الراحل كأخين، وإن شاء المولى الرحيم، سأكون مع هذا الملك مثل الأب والابن»[6].

ولذلـك، فعندما كان السـفير يذهب لمقابلة الصدر الأعظـم في الباب العالي أو كشـكه الخاص، كان الاجتماع يحدث بين رجلين يرتديان ملابس مختلفة ويتحدثان لغتـين مختلفتين ويتبعـان دينين مختلفين، لكن يجمعهما الاهتمام نفسـه بالدولة والقـوة والتجـارة. وأحيانـا كانـت المفاوضات تطـول في الباب العـالي أو القصر، حتى تنشـأ صداقة بين الصدر الأعظم والديبلوماسـيين الأوروبيـين، تدمغها الهدايا والضيافات. وصف سـفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة بارون دي بوسبيك الوزير علي، المسـيحي من دالمسـيا الذي جُند في فرق الانكشارية، بأنه «تركي مهذب وذكي لأبعـد الحدود. طلب منـي أن أعتبره صديقا في أي مناسـبة وألا أتردد في مفاتحته إن احتجت أي شيء. وجاءت أفعاله موافقة لوعوده تماما». قال علي لبوسـبيك إن أرواح الأمراء مثل المرايا تعكس نصائح مستشـاريهم. و«الوزراء الجيدون يجب أن يحاولـوا أن يوفقوا بين كل المصالح، مثـل الطباخين المهرة الذين يحاولون أن يعدوا أطباقا تروق للجميع، وليس لهذا الضيف أو ذاك فقط». وبدأ الأتراك يتذمرون من أن الصدر الأعظم بينما يسـتقبل السفراء المسيحيين في حجرته، كانوا هم يضطرون إلى المكـوث في غرفـة الانتظار. ومع ذلـك، فبعد عشرين عاما، وصف سـفير آخر للإمبراطورية الرومانية المقدسـة السـلطان بأنه «ذئب شـيطاني». إذ كان كل شيء يعتمد على توازن الخوف والاحتياج بين الحكومات في لحظة معينة[7].

وإذا كانت القسـطنطينية أحد أهم المراكز الديبلوماسـية، فقد كانت أخطرها أيضـا. كان حضور السـفراء يُتخـذ دليلا على الخضوع إلى البـاب العالي، الذي كان

«ملجـأ الملوك... وملاذ العالم»، كما وصفه سـليمان لفرانسـوا الأول. كان السـفراء رهائن مسـؤولين أمام الباب العالي عن السلوك الجيد للملوك الذين أرسلوهم. فلم تكن هناك حصانة ديبلوماسية في القسطنطينية.

فإذا غضب السـلطان من إعلان إحدى الحكومات الأجنبية الحرب أو من دليل على أنها تسـاعد سرا عدوا للعثمانيين، فإن سـفيرها كان يمكن أن يجد نفسه سجينا في قلعة الأبراج السـبعة، كما حدث مع سـفراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة في الأعوام 1541 و1596 و1716، والسفراء الفرنسيين في الأعوام 1616 و1658 و1659 و1660 و1798، والسـفراء البنادقة في العامين 1649 و1714، والسـفراء الروس في العامـين 1768 و1787[8]. لم يكـن السـفير في هذه الحالات واثقا من أنه سـينجو بحياته، على الرغم من أنهم جميعا نجوا بها. وكان السفراء في بعض الأحيان يهانون أيضا. بلغت الغطرسة العثمانية أوجها إبان القرن السابع عشر. كان سليمان وسليم الثـاني يتحدثان مع السـفراء. لكن بعـد العام 1600، نادرا ما كان السـلطان ينظر إليهـم. وحتى العلاقـات مع بولندا تدهورت، وفي العام 1634، سـحب مراد الرابع سـيفه من غمده حتى منتصفه ونهض من على العرش كما لو كان سيضرب السفير البولندي في منتصف كلامه. وكانت الانكشـارية التي تحرس السفراء يسمون أحيانا «قطعان الخنازير». كانت الانكشـارية نفسـها تظهر الاحترام للسفير الذي ترافقه في العلـن، وإلا لعوقبـوا إن لم يفعلوا ذلك. لكنهم عندما كانـوا يرونه داخل مبنى السفارة، كانوا نادرا ما يتنازلون بالقيام له.

ونظرا إلى أن العثمانيين كانوا يعتبرون عاصمتهم مركز الكون، فقد كانوا يريدون أن يأتي الأجانب - الحرفيون والتجار والسفراء - إلى المدينة، وليس أن يذهبوا هم إلى البلاد الأجنبية. فلم يتبع العثمانيون الأمر القرآني بالسفر طلبا للعلم ولو إلى الصين. أرسـل السلطان سـفارات إلى الخارج، إلى باريس في العام 1582 لدعوة الملك هنري الثالـث إلى حفل ختان ابنه محمد، وإلى إسـتكهولم في العام 1657 في وقت احتلال السـويد لبولندا. وبين العامين 1384 و1600، أرسـل مائة وخمسة وأربعين مبعوثا مؤقتا، عادة جاووش (رسول)(*)، من بيت السلطان إلى البندقية[9].

(*) يبدو أن كلمة جاووش cavus حين انتقلت من التركية إلى العربية قد انخفضت مكانة حاملها كثيرا من مبعوث السلطان إلى رتبة صغيرة جدا في الجيش والشرطة. [المترجم].

لقد اعتبر الباب العالي الاحتفاظ بسفارات دائمة في العواصم الأجنبية أمرا مكلفا ومربكا. وفي معظم الأحيان، كان الباب يعتمد على تجار المدينة المسيحيين أو اليهود في الحصول على أخبار أوروبا الغربية. من ذلك أنه في العام 1492 أخبر أندريس ميلاس Andreas Milas، وهو تاجر من غَلَطَة سافر إلى إيطاليا في عمل، بايزيد الثاني بمصير أخيه جم ومسلمي غرناطة. وكان العملاء الذين احتفظ بهم أمراء ولاشيا ومولدافيا في ألمانيا وبولندا وروسيا مصدرا آخر للمعلومات. وفي العام 1774، علم الصدر الأعظم بموت لويس الخامس عشر قبل خمسة أيام من علم السفير الفرنسي بالخبر. وكان السفراء الأجانب المقيمون في القسطنطينية يُستجَوبون أيضا حول السياسة الأوروبية. وكان السفراء كثيرين، وسياساتهم متعارضة تماما، ما جعل الباب العالي يستطيع أن يعتمد دائما على الواحد منهم في تزويده بالمعلومات حول زملائه. وكان السفير الهولندي يعتبر الأكثر موضوعية بينهم، ولذلك كان الباب العالي يستشيره كثيرا[10].

كانت غطرسة الحكومة العثمانية ووحشيتها من حين لآخر مع السفراء الأجانب تقابلها أحيانا غطرسة مساوية أو أكبر من السفراء أنفسهم. فقد كانت القسطنطينية (مثل معظم العواصم الأخرى) مشهدا لحروب المكانة التي استغرقت قرونا حتى تخمد. من ذلك أن ادعاء السفراء بأنهم كممثلين شخصيين لملوكهم مساوون في المكانة للصدر الأعظم جعلهم يظلون واقفين في غرفة استقباله حتى يتجنبوا القيام عندما يدخل. وكانوا بعد ذلك يجلسون من تلقاء أنفسهم. وكان من نذر النزاعات المستقبلية أن أول سفير روسي رفض في 1497 أن يذعن للمراسم العثمانية بارتداء القفطان وتناول العشاء مع الصدر الأعظم والتواصل معه، وأراد التواصل مع السلطان مباشرة[11].

في بادئ الأمر، كان الديبلوماسيون يقيمون في خان خاص داخل القسطنطينية نفسها. وبحلول العام 1600، كان معظمهم قد استقر في بيرا على التل في أعلى غَلَطَة، ما أعطاهم إطلالا مباشرا على قصر السلطان عبر القرن الذهبي. حتى منتصف القرن الثامن عشر، كانت السفارات تبنى بالخشب على الطريقة التركية، وتضم صوفا أو قاعة استقبال عليا كبيرة تفتح فيها غرف أخرى. وكانت توجد تجسيدات لهوية بلادهم على أول خريطة حديثة للقسطنطينية طبعها عضو بالسفارة الفرنسية في

العام 1786، التي كانوا يضعون عليها علامات بسيطة مثل «إنجلترا» أو «فرنسا» أو «روسيا». كانت بيرا في ذلك الوقت قد أخذت تشبه مدينة أوروبية غربية صغيرة بُنيت حول شارع رئيس يعرف باسم شارع بيرا الكبير.

كانت السفارات تُسمى قصورا في الخطابات والرسائل، مثل قصر البندقية وقصر فرنسا والقصر البريطاني. فإذا كان السفراء في العواصم الأخرى قد عاشوا عيشة الأمراء، فإنهم في القسطنطينية عاشوا ملوكا. فكانت كل سفارة بمنزلة بلاط مصغر، يضم الغلمان والخدم والحاشية الذين يخدمون السفراء ووصيفات لخدمة زوجاتهم. ووفقا للسجلات العثمانية الرسمية، فإنه في العام 1750 ضمت السفارة الهولندية ثمانية وثلاثين موظفا، والبريطانية خمسة وخمسين موظفا، والفرنسية ثمانية وسبعين موظفا، والبندقية 118 موظفا (منهم 50 كاهنا)، إذ كان مسموحا لمصليات السفارة، دون كنائس القسطنطينية، بأن تقرع أجراسها. وكانت السفارة الفرنسية تضم غرفة عرش تصطف على جدرانها صور لملوك فرنسا وسفرائها، وطاقم موظفين دائمين أكبر من أي سفارة فرنسية أخرى[12].

كان السفير يصدر مراسيم تحمل الختم «سكرتيرنا الأول، المستشار وخاتم الأسلحة، بقصر فرنسا، بيرا، القسطنطينية»، وكان يوصف عادة بأنه يذهب إلى الكنيسة بكامل حاشيته. وعندما ذهب إلى القداس في عيد الفصح في العام 1673، كان يتقدمه الخدم والانكشارية والترجمانات وشباب اللغة (وهم شبان أرسلوا إلى القسطنطينية بعد العام 1669 لدراسة اللغات الشرقية). ونظرا إلى ضيق الشوارع والانحدار الشديد للتل الذي بُنيت فوقه بيرا، فإن السفير لم يكن يتنقل بمركبة، بل كان يركب حصانا، ويرافقه أربعة خدم لابسين على طريقة اليونانيين، ويتبعه أهل بيته والتجار الفرنسيون بالمدينة «بعددنا الكبير جدا». ضمت دوائر السفارة، إضافة إلى المرصد، مطبعة وكنيسة سانت لويس دي فرنسيز ومحكمة وسجنا. أعطى نظام الامتيازات الذي عاش الأجانب بمقتضاه وفق قوانين بلادهم، السفير سلطة الحياة والموت على الرعايا الفرنسيين. وكانت جثة المقتول تتأرجح أحيانا على مشنقة منصوبة خارج الباب الرئيس للسفارة[13]. وكان من سلطة السفير الفرنسي أيضا أن يجهز سفينة بعشرين مدفعا لحماية الشحن الفرنسي في بحر إيجة، وكان له الحق قبل كل شيء في جمع المال من سفن القرصنة المجازة من دولته، التي كانت السفن الإنجليزية ضحاياها المعتادين[14].

كان السـفراء يتزاورون في المسـاء في حالة شبه ملكية، يرافقهم الحرس والخدم الذين يركضون حاملين المشـاعل «وحاشـية كبـيرة من المرافقين والخـدم... وكانوا حريصين إلى درجة الوسوسة على مراعاة التقاليد التي استقرت للتمييز بين درجاتهم وأسـبقياتهم المختلفـة ووفقا لعدد مرات قرع الجرس للإعلان عن مقدم سـفير أو مبعوث أو قائم بأعمال»[15].

كان دخـول السـفراء القسـطنطينية يرافقهـم الخدم والحـرس وفرق تعزف الموسـيقى ورايات مرفرفة، شـيئا في قمة التفاخر. وصلت المدينة سـفارة بولندية مكوّنـة من ثلاثمائة نبيل وكاهن وجندي مشـاة وخيّال ومشـاة عسـكريين بأزياء صارخة الألوان وريش البلشـون في قبعاتهـم، في أوج التوتر العثماني - البولندي في العام 1677، أي قبل سـتة أعوام من حصـار فيينا. كانت الخيول مركبة في حوافرها حـدوات فضية سـائبة بما يكفي لكي تنخلع أمام الحشـود المرهوبـة. علق الصدر الأعظـم قرة مصطفى باشـا على هذا المنظر قائلا إن السـفارة كانت أصغر من أن تحـاصر القسـطنطينية، لكنها أكبر من أن تقبل عتبة الباب العالي، إذ خشي الباشـا من أن يلوث العتبة احتكاك هذا العدد الكبير من الشـفاه المسـيحية، وأضاف أن السلطان لن يجد صعوبة في إطعام ثلاثمائة بولندي، إذا كان يمتلك حاليا ثلاثة آلاف بولندي بين عبيد القوادس[16].

كانت الصدامات بين الصدور العظماء والسـفراء الفرنسيين تكشف عن تصميم كل دولـة على الفوز في حرب المكانـة. كانت العلاقات بين الحليفين الاسـميين قد تدهورت منذ العقد الثالث من القرن السـابع عشر، جزئيا بسـبب ميل السـفراء الفرنسيين إلى التعامل مع سـفاراتهم كمشروعات تجارية خاصة. فاستدان أحدهم وهو يحاول من القسطنطينية أن يدير التزاما جمركيا في ولاية حلب. وعمل آخرون، بلا نجاح عموما، في تجارة القمح.

كان جنـون العظمة أيضا يكبل السـفراء الفرنسـيين. من ذلك أن مسـيو دي مارشـفيل Monsieur de Marcheville، شاهرا سيفه في يده، هاجم مجموعة من الانكشـارية غير المسـلحين لم تفسـح له الطريق بسرعة كافية. وأعلنت السلطات العثمانيـة أنـه مجنون وقـرأت حكم إعـدام السـفير في حضور زملائـه البندقي والهولندي والبريطاني (على الرغم من أنها لم تنفذه). وقام سفير آخر، هو كونت دي

سـيسي Comte de Cesy بإطلاق طلقات مدافع كثيرة احتفالا بولادة لويس الرابع عشر المسـتقبلي في العام 1638، لدرجة أن الذعر تملك سيدات الحريم الإمبراطوري الـلاتي كن يزرن حديقة إمبراطوريـة بالقرب من الترسـانة، إذ اعتقدن أن القوزاق نزلوا إلى البر، أو أن المسـيحيين في حالة ثورة. وفي العقد السـادس من القرن السابع عشر، شـهدت العلاقات بين البلديـن مزيدا من التدهور، لأن الحكومة الفرنسـية على الرغم مـن ادعائها صداقة الإمبراطورية العثمانيـة، كانت تقدم الرجال والمال للبندقية والإمبراطور الروماني المقدس في حروبهم ضد الإمبراطورية. فقد كان لويس الرابع عشر أحرص من معظم أسـلافه على انتحال صفة بطل الكنيسة الكاثوليكية. وفي ذلـك قال فاضل أحمد الكوبرولي: «ربما كان الفرنسـيون أصدقاء قدامى، لكننا نجدهم دائما في صف أعدائنا». ولأن الكوبرولي كان أحكم من أن يعلن الحرب على فرنسا، فقد انتقم لدولته في ساحة معركة أخرى.

ففي المحادثة مع السـفير البريطاني، كان الصدر الأعظم «متحررا ولطيفا جدا». بينـما كان كلامه مقتضبا مع السـفير الفرنـسي أو مهينا له. وضرب أحد السـفراء الفرنسـيين بكرسي على رأسـه. وعندما قدم مركيز دي نوينتيل احتراماته للسلطان في العام 1671، أنزل الحُجّاب رأسـه بعنف لأسفل حتى خر واقعا أمام العرش. على أن هذا السـلوك الذي سـيطر على عقلية تلك الفترة وعـلى المدينة، لم يمنع تجديد الامتيازات الفرنسية على نحو مواتٍ للفرنسيين في العام 1673[17].

كانـت الحكومـة العثمانية في عهد فاضل أحمد الكوبرولي، ربما بسـبب القلق من تنامي قوة الدول الأوروبية، أقسى من سـابقاتها مع الديبلوماسيين. من ذلك أن سـفيرا روسيا رفض أن يسـجد، فطرد من القصر الإمبراطوري بالضرب، لأنه لم ينحنِ بما يكفي، كما ضُرِب السـفير البولندي، بينما كان نصيب الترجمان النمسـاوي علقة بالفلقة. على أن قوة الإمبراطورية العثمانية وثراءها جعلا معظم الحكومات تتحمل هذه المعاملة. لكن حادثة الصوفا كادت تؤدي إلى قطع العلاقات مع فرنسا.

إبان القرن السـابع عشر، سـمح أحد الصدور العظماء للسفراء بالجلوس على مقاعـد فـوق صوفته، أي منصة الشرف المرتفعة في غرفة اسـتقباله. ثم جاء أشـد الصـدور العظـماء كراهية للأجانب قرة مصطفى باشـا وصمم عـلى إيقاف هذه الإهانة. قال ألكسندر مافروكورداتو إن السفراء نالوا هذا الامتياز فقط بسبب صدر

أعظم معتل الصحة كان لا يستطيع أن يسمع السفير من المسافة الطبيعية. وفي الثاني من مايو 1677، منع الباشا ماركيز دي نوينتيل من وضع مقعده على الصوفا. وصاح فيه الموظفون العثمانيون «ابتعد، ابتعد، ابعد يا كافر!» ولبضعة أيام، ظل السفير قيد الإقامة الإجبارية. وبعد خمسة أشهر، وافق نوينتيل مكرها على أن يضع مقعده أسفل الصوفا. وسرعان ما استدعاه لويس الرابع عشر الذي أزعجته أيضا عادة السفير في جمع ضرائب من التجار الفرنسيين للإنفاق على نمط حياته الفخم في السفارة[18].

وصل كونت دي غيلراغوس Comte de Guilleragues سفيرا لفرنسا في العام 1679، ومعه تعليمات بضمان احترام لويس الرابع عشر باعتباره «أعظم الأمراء المسيحيين وأقواهم وأفخمهم»، وأن يحافظ على «التحالف القديم بين أعظم وأقوى إمبراطوريتين في العالم». غير أن فرنسا واصلت التصرف كعدو للعثمانيين وليس كحليف لهم. ففي العام 1681، وردا عل أعمال القرصنة من السفن المنطلقة من شمال أفريقيا، قصف أسطول فرنسي جزيرة خيوس، ما أدى إلى هدم مسجد وقتل مائتين وخمسين رعية عثمانية. وأرسل غيلراغوس معلومات خطط الحرب العثمانية سرا إلى أعداء الإمبراطورية في مالطا وبولندا. وبدلا من الجلوس أسفل الصوفا، ظل غيلراغوس واقفا، وهدده قرة مصطفى بقلعة الأبراج السبعة، ورد عليه السفير بأن لويس الرابع عشر سيأتي ليفتح له بابها. وفرضت جزية أواني قدرها مائتين وخمسين ألف دوقية على التجار الفرنسيين(*).

على أي حال، فقد تعرض الجيش العثماني المحاصر لفيينا للهزيمة في العام 1683، وأُعدم قرة مصطفى نفسه. وفي السنة التالية، وفي واحدة من تلك الإيماءات التي تعلن عن نهاية عالم وانبثاق آخر، كما حدث مع أمير سالينا في رواية «النمر» الذي يدعو العمدة المحلي إلى العشاء في أثناء انهيار مملكتي صقلية(**)، نال السفراء

(*) راجع معنى الأواني avanie في الفصل الخامس. [المترجم].

(**) تؤرخ رواية النمر The Leopard (أو آل غاتوبرادو باللغة الإيطالية) للروائي الإيطالي جوسيبي توماسي Giuseppe Tomasi التغييرات التي لحقت بالمجتمع الصقلي ونمط حياته في أثناء عملية توحيد إيطاليا من خلال سرد التحولات التي أجبرت أمير سالينا الدون فابريزيو كوربيرا Fabrizio Corbera على الاختيار بين التمسك بقيم الطبقة العليا أو إهدار التقاليد للحفاظ على نفوذ عائلته بالتنزيل من مكانته، ومن ذلك دعوته للعمدة المحلي «العامي» على العشاء. والتناظر هنا بين أمير سالينا والإمبراطورية العثمانية من جانب، والسفراء الأجانب والعامة من جانب آخر. [المترجم].

الحــق في الجلوس على الصوفا. كــما حققوا انتصارا آخر في مقابلاتهم في غرفة عرش السـلطان، إذ أخذ معظم الســفراء منذ ذلك الوقت فصاعدا يقفون منتصبين بينما يحاول الحُجّاب إنزال رؤوســهم أمام الســلطان، حيث «كانوا يحتفظون بانتصابهم بكل ما فيهم من قوة»[19].

أنعشت النجاحات النمســاوية بعد الهزيمة العثمانية على أسوار فيينا في العام 1683، الصداقة بين فرنســا والإمبراطورية العثمانية. فقد جمعت الدولتان العداوة لآل النمســا، وحظر لويس الرابع عشر على الســفراء رسميا أن يفرضوا ضرائب على التجار الفرنســيين. أثر التحالــف الفرنسي- العثماني على معظم جوانب السياســة الأوروبية. كان من الأسباب التي دفعت لويس الرابع عشر إلى الهجوم عبر الراين في العام 1688، تاركا لوليام الأورانجي الحرية لغزو إنجلترا من هولندا واعتلاء عرشــها بدلا من جيمس الثاني[*]، الرغبة في تخفيف الضغط الهابســبرغي على الإمبراطورية العثمانية. وتوثقت العلاقات بين الدولتين كثيرا، لدرجة أن السفير الفرنسي مسيو دي شــاتونيف Monsieur de Chateauneuf (أو ماهــوت Mahout كما أطلق عليه أصدقاؤه العثمانيون) كان ينتقل إلى إدرنة ليظل قريبا من السلطان والصدر الأعظم، وكان عموما يرتدي ملابس عثمانية.

وفي العــام 1699، بعد عقد معاهــدة كارلوفيتز بــين الإمبراطوريتين العثمانية والهابســبرغية، حل مركيز دي فيريول Maruis de Ferriol الذي خدم في الجيوش العثمانية في أثناء حملاتها ضد النمســاويين في العقد الأخير من القرن الســابع عشر محل شــاتونيف. ولم تنجح آماله باســتعادة الهيبة الفرنسية بسبب حادثة السيف affaire de l›epee. ربما أراد شاتونيف إحراج وريثه حين سجل أنه كان يذهب إلى مقابلات الســلطان مرتديا خنجرا تحت سترته. ولذلك أصر فيريول في مقابلة له مع السلطان في الخامس من يناير 1700 على أن يرتدي السيف، كما لو كان أحد رجال الحاشــية في فيرســاي، على الرغم من أن أحدا في القصر العثماني، ولا الصدر الأعظم نفسه، كان يظهر مسلحا في حضرة السلطان.

تناول السفير الطعام مع الصدر الأعظم، وارتدى قفطانا وتقدم نحو غرفة عرش الســلطان. طلب منه الترجمان مافروكورداتو بصوت مرتجف أن يترك سيفه، فأقسم

(*) راجع حاشية سابقة للمترجم حول وليام الأورانجي واعتلائه عرش إنجلترا. [المترجم].

فيريول بأنه سيقاتل لآخر قطرة من دمه إذا حاول أحدهم أن يأخذ سيفه. واعتبر أنه يدافع عن شرف سيده وكل السفراء لدى الباب العالي. رد عليه الصدر الأعظم أمجد زاده حسين باشا بصوت رجل الحاشية القادم عبر العصور بأن «هذا الاغتصاب للمراسم غير مسموح به في البلاطات المنضبطة». وظل كبار المسؤولين العثمانيين يؤكدون لفيريول أنه لم يسبق لأي سفير فرنسي أن وضع سيفا في خصره في حضرة السلطان. لكنه ظل على عناده قائلا إن حياته لا تساوي شيئا في اللحظة التي يتهدد فيها الخطر كرامة السفير وإنفاذ أوامر ملك فرنسا. على بعد بضعة أمتار، كان السلطان الذي جاء خصيصا من إدرنة لهذه المقابلة، ينتظر على العرش.

وأخيرا، جرب الصدر الأعظم الحيلة، وأخبر فيريول بأنه يمكن أن يتقدم إلى غرفة العرش. وفي الدهليز، انقض كبير الحرس لنزع السلاح المهين، فلكمه السفير في بطنه. وغدا باب السعادة الساكن عادة يضج بالجدال. وصاح فيريول بامتعاض إلى مافروكورداتو: «أهكذا تنتهكون قانون الأمم؟ هل نحن أصدقاء أم أعداء؟»، فأجابه مافروكورداتو الذي يرتعد خوفا وفزعا بصوت هامس: «أصدقاء، لكنك لا تستطيع أن تدخل بسيفك... يجب أن تتكيف مع المراسم وآداب السلوك المتبعة في البلد الذي توجد فيه». وأخيرا، طلب رئيس الخصيان الأبيض من السفير أن يرجع إلى حيث جاء. فخلع السفير وحاشيته القفاطين، واستردوا ساعة حائط ومرآة كانوا قد أحضروهما هدايا للسلطان، وعادوا إلى السفارة الفرنسية عبر الشوارع المزدحمة. ولم يعد فيريول إلى القصر حتى غادر القسطنطينية بعد أحد عشر عاما[20].

بلغ جنون العظمة بفيريول أن أمر ببناء قارب كياك مثل قارب السلطان، مزيّنا من أحد طرفيه بمقصورة مُذَهّبة ومبطنة بالحرير الأرجواني. عندما ظهر القارب لأول مرة في الميناء، أمر البستانجي باشا بتحطيمه وضرب طاقمه. بعدها، ظل السفير في كل مرة يذهب فيها من السفارة إلى الباب العالي، يقطع رحلة طويلة على البر حول القرن الذهبي حتى لا يعبره في مركب أقل فخامة. وعلى الرغم من ذلك، فقد أحب فيريول العالم العثماني، فكان يرتدي عمامة وملابس عثمانية داخل السفارة الفرنسية، وحتى في أثناء إقامة القداس.

كان من الأسباب التي جعلت فيريول انفعاليا أن السفارة في القسطنطينية كانت منصبا يتطلب مهارات استثنائية. وقد جذبت سفراء في مقدرة هوبكن Hoepken

(السـويد) وفيرجين Vergennes وثوفنيل Thouvenel (فرنسا) وثوغوت Thugut (النمسا)، الذين أصبحوا جميعا وزراء خارجية لدولهم لاحقا. وفي العام 1707، كتب فيريول: «إنني أجد نفسي هنا في مركز العالم. وأجدني مضطرا إلى التعامل مع شؤون المجر وبلاد فارس والقرم، السياسـية والدينية والتجارية، والمسـائل المثارة في أنحاء هـذه الإمبراطورية كافة وفي بولندا وموسـكو وإيطاليا وغيرهـا». وكان عليه أيضا، مثل زملائه من السـفراء، أن يتعامل مع العبيد المسـيحيين الهاربين الذين يلجأون إلى سـفارته (كانوا يُهرَّبون عادة إلى سفن في الميناء ومنها إلى الحرية). ولاحقا، تأسى أحد السـفراء قائلا: «في القسـطنطينية لا يتم المرء عملا واحدا. فالأمور البسيطة في الأماكن الأخرى معقدة هنا».

كان الدين أحد الاهتمامات الأساسية للسفير الفرنسي. وإبان أوائل القرن السابع عشر، غدت القسـطنطينية ساحة حرب بين البروتسـتانت والكاثوليك، وكذلك بين الإمبراطورية العثمانية وأعدائها. وكان السـفير الفرنسي الداعم لمحاولات اليسوعيين السيطرة على البطريركية، يعارض السفيرين الهولندي والبريطاني اللذين كانا يؤيدان البروتستانت. وأسـهم السفير البريطاني في طرد اليسـوعيين لفترة مؤقتة. وأسهمت دسـائس اليسـوعيين في الاضطرابات التي شـهدتها شـوارع غَلَطَة وتدمير المطبعة اليونانيـة في العـام 1626 وقتل البطريرك سـيريل لوكاريـس Cyril Lucaris بأمر الصدر الأعظم في العام 1638[21].

لكن بعد العام 1660، جرب الكاثوليك طرقا أكثر لينا. فنجح المبشرون في تحويل الأرمن إلى الكاثوليك الأرمن، من خلال الاحتفاظ بالشعائر الأرمنية لكن مع الاعتراف بسلطة البابا. لعل ما جذب الأرمن إلى ذلك التحول هو أنه خفَّض ما كانوا يدفعونه لكهنتهم، كما أنقص فترة الصيام إلى أربعين يوما من مائتين وأربعين يوما في السـنة. وفي العام 1691، ابتهج الكاثوليك الأرمن الذين سرعان ما شـملتهم حماية السفارة الفرنسـية، بالانتصارات الفرنسـية، كأنهم كانوا هم أنفسـهم فرنسيين[*]. وسيطر الذعـر على الأرمن الأرثوذكـس. وفي العام 1707، اتهم البطريـرك الأرمني أفيديك Avedik في ديـوان الصـدر الأعظم، كاهنا يدعى غوميـداس Gomidas تحوّل إلى

(*) على الرغم من أن فرنسا لويس الرابع عشر حققت انتصارات أولية في بداية حرب الحلف الكبير ضد تحالف آل هابسبرغ، فقد كانت الهزيمة النهائية من نصيبها. [المترجم].

الكاثوليكية بالقول: «ثمة خطر عظيم بأن الأمة كلها ستلحق سريعا بأمة الفرنجة، وسوف يشكلون في إمبراطوريتك عدوا داخليا». وأُعدِم الكاهن. وانتقم فيريول من البطريرك بأن اختطفه من القسطنطينية في العام 1707 وأرسله إلى فرنسا التي سجن فيها. وفي العام 1710، عاد فيريول إلى فرنسا. وحين جاء الخبر إلى صدر أعظم لاحق بأن فيريول قد أصابه الجنون، رد الصدر الأعظم بأن فيريول كان مجنونا عندما وصل إلى القسطنطينية[22]. لكن ربما كان «الجنون» وسيلة لتمكين هذا السفير الذي كانت تعوزه اللباقة من الانسحاب من دون أن يفقد ماء وجهه.

وبعد رحيل فيريول، ساعدت سلسلة من السفراء المتمكنين فرنسا من استئناف دورها باعتبارها الحليف العثماني الأساسي. وفي العام 1724، توسط السفير الفرنسي، عبر سلسلة من المؤتمرات عقدت في القسطنطينية، جهود عقد معاهدات سلام بين الإمبراطورية العثمانية وكل من روسيا وبلاد فارس. ترك ذلك انطباعا عظيما في الصدر الأعظم حتى إنه اقترح إقامة حلف بين الإمبراطورية وفرنسا وروسيا. وفي السنة نفسها، قال الصدر الأعظم للسفير الفرنسي الجديد فيكونت داندرزيل Vicomte d›Andrezel في غرفة الديوان بالفناء الثاني من القصر:

> كان من المبهج جدا أن إمبراطورية فرنسا ظلت لوقت طويل ترتبط بصداقة حميمة من باب السعادة المرتبط بالخلود... وقال وهو يتوجه نحو نائبه: حقا إن فرنسا وإمبراطوريتنا متفقتان في كل شيء، وإن كان ثمة اختلاف بيننا فهو الدين فقط. واستأنف حديثه قائلا: إنني أكنّ احتراما خاصا لإمبراطور فرنسا الذي تربطنا به قرابة دم لأن واحدا من سلاطيننا الأوائل تزوج أميرة من الدم الملكي الفرنسي، ولن أدخر جهدا لإسعاد سفيره ورعاياه الآخرين.

وداعب الصدر الأعظم ضاحكا ولدي السفير اللذين سُمح لهما بالجلوس على الصوفا، وطلب من الخادم أن يربط منديلين مطرزين حول رقبتيهما، وقدم ألفا من التبريكات للملك الذي تمنى له عهدا طويلا ومحظوظا مثل عهد سلفه لويس الرابع عشر[23].

قدمت فرنسا العون للعثمانيين في حروبهم ضد روسيا والنمسا في الأعوام 1736 - 1739 التي استعادت فيها الإمبراطورية العثمانية بلغراد. وبداية من العام 1740، أخذ اثنان وعشرون من ضباط المدفعية الفرنسيين يساعدون في

إدخـال تكتيكات المدفعية الحديثة إلى فرع مـن الجيش العثماني تحت إشراف أحمد باشـا، تلك الشخصية الرائعة وغير المركزية. فالباشا الذي ولد باسم كونت دي بونفال Comte de Bonneval خدم النظام الفرنسي والنظام الهابسـبرغي، إلى أن فـر إلى الإمبراطورية العثمانية في العام 1729 واعتنق الإسـلام. وفي العام 1731، كُلِّـف بمهمة إصلاح سـلاح المدفعية. من بيته في بـيرا، كان بونفال يقدم النصح للسـفيرين الفرنسي والسويدي، وكذلك للصدر الأعظم والرئيس أفندي في الاجتماعات بالباب العالي حول مسار الديبلوماسية العثمانية. وكان توسع روسيا في حكم ورثة بيتر الأكبر شاغلهم الأساسي.

كان الخوف من روسـيا قد دفع الإمبراطورية إلى مصادقة شـارلز الثاني عشر ملك السـويد(*). كان خلفه الملك فريدريك الأول قد خدم في الجيش النمساوي مع بونفال في أوائل القرن الثامن عشر. وقد حثه بونفال في رسـائل أرسـلت من القسـطنطينية إلى اسـتوكهولم بين العامين 1733 و1745 (توفي في العام 1747) على إقامة تحالف عثماني- سويدي وشن الحرب على روسيا وبلاد فارس بالتعاون مع الإمبراطورية المغولية والخانيات الأوزبكية(**). ثمة تشـوش واضح في هوية بونفال جعله يكتب رسـائل إطراء مطولة إلى الملك أو وزير الخارجية السويدي ويوقِّعهـا إمـا بالصيغـة le comte de bonneval; le tres humble et tres obeissant serviteur le comte de bonneval, beylierbey de karamanie (كونـت دي بونفال، الخادم المتواضع والمطيع، كونت بونفال، بليرباي قرمان) أو le tres humble et tres obeissant serviteur, ahmet pacha, Beylierbey de Cararmanie, vulgo le comte de bonneval (الخـادم المتواضع والمطيع أحمد باشا، بليرباي قرمان، كونت دي بونفال سابقا)(24).

(*) حكم شـارلز الثاني عشر السويد من ملجئه في الأراضي العثمانية، من بندر Bender بمولدافيا بين العامين 1708 و1715. [المؤلف].

(**) بعد الفتح العربي لآسـيا الوسـطى بقيادة قتيبة بن مسـلم، وبعد الهزيمة العربية للجيش الصيني في معركة طلاس في العام 750، توالت على آسـيا الوسـطى ممالك كثيرة منها السـامانيون والصفاريون ثم خانية القرخطاي ثم آلت إلى المغول بعد غزو تيمورلنك لها، وبحلول العام 1510 كان الأوزبك، وهم مسلمون من أهل السنة، قد سيطروا على المنطقة وأسسـوا خانية بخارى التي غطى سـلطانها منطقة ما وراء النهر، خاصة منطقة طشقند ووادي فرغانة وشمال أفغانستان، كما أسسوا خانية خيوه Khiva في واحة خوارزم، ودخلوا في صراع مع الصفويين في إيران لأسباب توسـعية ومذهبية. وفي أواسط القرن التاسـع عشر وقعت هذه الخانيات فريسة للاحتلال الروسي، بدءا بطشقند في العام 1865، ثم بخارى في العام 1867، ثم سمرقند في العام 1868، وأخيرا خيوه في العام 1876. [المترجم].

وفي الوقت نفسه، حاولت الحكومة الفرنسية أن تستخدم الكونت بالتعاون مع السفير الفرنسي لإقناع الباب العالي بأن من مصلحته مهاجمة مملكة هابسبرغ التي كانت فرنسا في حالة حرب معها من العام 1740 إلى العام 1748. لكن بونفال والباب العالي أدركا أن فرنسا ترغب في توريط الإمبراطورية العثمانية في الحرب لكي تتمكن من الخروج منها بصلح أفضل فقط. علاوة على أن الباب العالي شعر بالمهانة من الرفض الفرنسي لعرضه الوساطة في حرب الخلافة النمساوية في العام 1745[25](*).

على خلاف الكثير من الديبلوماسيين الأجانب، لم يقلل بونفال من قدر الإمبراطورية، وامتدح خزانتها العامرة، وفي العام 1735 أشار إلى «الإمبراطورية التي في صلابة السلطان». ووقّعت معاهدة بين الإمبراطورية العثمانية والسويد في العام 1740. وفي مقابلته للسفير السويدي في العام 1744، قال السلطان إن «الملك ومملكة السويد» - وهي عبارة تكشف معرفته بأن سلطة الملك كانت محدودة مقارنة بسلطة البرلمان - ليسوا في قلبه مثل الأمراء المسيحيين الآخرين، «بل في صميم قلبه»[26].

كان كونت دي فيرجين أحد أبرز السفراء الفرنسيين إلى الباب العالي العثماني. في مقابلته الأولى للسلطان في العام 1755، وصف السلطان لويس الخامس عشر بـ «الحليف الأقدم والأوفى للإمبراطورية العثمانية». لكنه لم يعد تحالفا بين ندين، إذ كانت الإمبراطورية العثمانية تتخلف عن الدول الأوروبية في التقنية العسكرية والقوة الاقتصادية. وفي العام 1766، حذر فيرجين وزير الخارجية دوق دو شوازيل Duc de Choiseul من أن الإمبراطورية إذا لم تصلح نفسها، فسوف تسقط في «هاوية المحن والاحتقار والتقسيم». على أي حال، فقد ظلت باريس والقسطنطينية تشتركان في المخاوف نفسها. وكما كان رأي بونفال، اعتبر شوازيل أن توازن القوة في أوروبا وأمن حليفتي فرنسا بولندا والسويد يتعرض للتهديد بصعود روسيا. وطلب من فيرجين أن يقنع الإمبراطورية العثمانية بأن تهاجم جارتها الشمالية: روسيا.

وفي أوائل العام 1768، كان كل من السلطان نفسه والرأي العام في العاصمة - الذي أصبح قوة فعالة جدا - غاضبين - من دون تحريض من أحد - من مذبحة

(*) راجع حاشية سابقة للمترجم حول حرب الخلافة النمساوية (1740 - 1748). [المترجم].

نفذتها القوات الروسية بحق المسلمين على الأراضي العثمانية ومن استمرار وجود عدة آلاف من الجنود الروس في بولندا ووارسو. ودون حاجة إلى تشجيع فرنسي، أعلن «المجلس الاستشاري العالي» تأييده للحرب. وفي السادس من أكتوبر استقبل الصدر الأعظم السفير الروسي، بعد أن تركه ينتظر نصف ساعة، بكلمات قالها كل جيران روسيا خلال القرنين التاليين بصدق مماثل: «خائن! حانث بقسمه!... ألا تخجل أمام الله وأمام الناس من الأعمال الوحشية التي يقترفها أبناء جلدتك في بلاد لا تتبعكم؟» وسُجن السفير في قلعة الأبراج السبعة، وإن أطلق سراحه لاحقا بتدخل من السفير الفرنسي.

أفسد الضعف الخارجي للإمبراطورية العلاقات بين الجماعات في المدينة. من ذلك أنه في بداية الحملة التي خرجت في مارس 1769، وقف ديبلوماسيون نمساويون يتفرجون على الراية الشريفة للنبي محمد تجوب شوارع القسطنطينية(*)، فتحوّلت إليهم مجموعة هائجة من الغوغاء وكادوا يفتكون بهم. وحين أسرع النمساويون بالعودة إلى بيرا في حماية حراسهم الانكشاريين، تحوّل الغوغاء - للمرة الأولى - إلى المسيحيين المحليين، وقتلوا الكثيرين منهم، ونهبوا دكاكينهم.

كانت نتيجة الحرب كارثة بالنسبة إلى الإمبراطورية العثمانية، وكذلك لبولندا التي قُسّمت لأول مرة بين النمسا وبروسيا وروسيا. وفي أغسطس 1769، ومن باب العقاب على عدم الكفاءة والفساد، عُرِضت رؤوس الصدر الأعظم وأمير مولدافيا والترجمان أمام القصر. وفي العام 1770، انتزع الجيش الروسي مولدافيا وولاشيا. ومسح أسطول روسي بحر إيجة وشجع ثورة يونانية في شبه جزيرة بيلوبونيز، وحطم أسطولا عثمانيا بالقرب من خيوس، وحاصر الدردنيل. وللمرة الأولى منذ العام 1656، باتت القسطنطينية نفسها معرضة للتهديد(**). وأخذ السخط يعمّ الخانات[27].

(*) ظهرت الراية الشريفة التي يعتقد أنها تخص النبي محمدا أو ترجع إلى زمنه - وإن لم يكن من المعلوم كيف وصلت إلى أيدي العثمانيين - لأول مرة في حرب ضد آل هابسبرغ النمساويين في العام 1593، وفي الحرب على المجر في العام 1594، واستخدمها محمد الثالث عندما انتصر في حصار قلعة إغر Eger المجرية، وصارت فأل نصر للجيوش العثمانية. كان السلطان العثماني إذا خرج للحرب أو أرسل جيشه في حملة، يدخل إلى حجرة أثر النبي ويخرج الراية الشريفة من الصندوق ويحملها إلى قاعة العرش وسط تكبيرات الحضور، وفي قاعة العرش يقبل السلطان الراية في حضور الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ثم يسلمها إلى الصدر الأعظم قائلا: «أستودعك الراية الشريفة وأستودعكما الله الذي أدعوه أن ينصرك»، وبعد المعركة كانت تعاد إلى الصندوق وسط تراتيل قرآنية وحرق البخور. [المترجم].

(**) في المرة الأولى، حاصر أسطول البندقية الدردنيل، وفر أربعة آلاف من عبيد القوادس العثمانية وانضموا إلى البنادقة، وهجر الناس المدينة خوفا من القادم. [المترجم].

ساعد المجري بارون دي توت Baron de Tott الذي كان من محاسيب فيرجين وائتمنه السلطان وآواه، في تنظيم دفاعات المدينة، وأشرف على تحديث الحصون التي تحرس مداخل البسفور والدردنيل وبناء بطاريات دفاعية. وبغرض منع الحكومة العثمانية من عقد صلح كارثي مع روسيا، ساعد السفير الفرنسي كونت دي سانت بريست Comte de Saint-Priest في توريد الغلال إلى المدينة بالالتفاف على الحصار الروسي للدردنيل. وبمساعدة اسكتلندي اعتنق الإسلام يدعى أرتشبولد كامبل Archibald Campbell ويعرفه الأتراك خطأ بالاسم «مصطفى الإنجليزي»(*)، أنشأ بارون دي توت أيضا مسابك لصنع المدافع ومدرسة لتعليم الرياضيات للأسطول.

كان أوكميدان Okmeydan واديا يقع إلى شمال الترسانة، تتناثر فيه معالم مرمرية رائعة تخلد المسافات التي كانت أسهم السلاطين تقطعها في مسابقات الرماية. وبداية من العام 1773، أخذ المكان يدوي، ليس بحفيف الأسهم التي تشق الرياح، بل بهدير المدفعية الحديثة. وقُدمت دورات تدريبية، شاهدتها حشود من المواطنين والسفير الفرنسي والسلطان مصطفى الثالث نفسه. مُنِع الأسطول الروسي من الوصول إلى مياه المدينة، لكن إلى متى؟ وقال بارون دي توت للرئيس أفندي إن الحرب التالية قد تؤدي إلى طرد العثمانيين من القسطنطينية. ووفقا لتوت، فإن الأفندي «نظر فورا من خلال النافذة»، وبعد أن ألقى نظرة على ساحل آسيا، أجابه «توجد هناك بعض الوديان المبهجة»، واستدار إليّ مبتسما: «سنبني هناك أكشاكا مبهجة».

أدرك مصطفى الثالث، النشط والحاضر دائما الذي كان يكثر من زيارة مكاتب الباب العالي، أن الجيش كان في حاجة إلى إصلاح جذري. يصف بارون دي توت السلطان بأنه: «يكرس وقته جله للعمل، ودائما ما تجده مدفونا بين أوراقه... وعندما كان رجاله يقولون له إن هذا الانتباه المتواصل مضر لصحته، كان يجيبهم: انكبابي على العمل لا غنى عنه لأن أحدا منكم لا يفهم كيف يقوم بالعمل»[28]. في محادثة بالشعر مع مستشاريه، أبدى السلطان انزعاجه:

(*) وصفه مسؤول بالسفارة بأنه «رفيق ذكي وفاضل»، جاء إلى القسطنطينية، و«لا أحد يعرف سبب مجيئه». [المؤلف].

إن العالم في تدهور. ولا تظنوا أنه سيسير في مصلحتنا.
لقد أسلم القدر الوضيع الدولة إلى الوضعاء.
اليوم كل الرجال ذوي المراتب العليا جبناء.
لا شيء يبقى لنا غير الأسى الأبدي.

فأنكر المفتي مسؤوليته:

حقا الدولة الدنيوية باتت في قبضة الوضعاء،
ولن يتأتى النظام بالتفكير الصادق،
حتى أوراق الشجر والمطر أصبحت غنيمة الجبناء.
ندعو الله أن تروي الشريعة حديقة الدولة!

وأبدى الصدر الأعظم يأسه:

ما رغباتكم الدنيوية التي لا تنقطع هذه؟
تدور العجلة دورتها الأبدية.
لا تبتئس يا قلبي، فإن الجبان يجد لحظة بهجة
فقد أعطى الخالق العالم الوضيع للوضعاء.

انعكس تدهور الإمبراطورية في صعود قوة السفراء في القسطنطينية. فغدا الصدر الأعظم يستشير كلا من السفير الفرنسي والنمساوي في اجتماعات ليلية سرية في الأكشاك المطلة على البسفور فضلا عن المقابلات النهارية في الباب العالي. وكان السفراء الغربيون من خلال بيع العضوية القنصلية الفخرية لمنح الحماية لأفراد الأقليات الأثرياء، يسهمون في إضعاف سلطة السلطان على رعاياه. في العام 1774، وبعد عقد اتفاقية سلام من خلال الوساطة النمساوية، دخلت سفارة روسية القسطنطينية دخول جيش فاتح. دخل السفير الأمير ريبنين Prince Repnin في ستمائة رجل من الحاشية والخدم والحرس «ينشرون الرايات ويعزفون الموسيقى ويدقون الطبول، ويحمل ضباط المشاة البنادق في وضع كتفا سلاح، ويضع الفرسان القربينات (Carbines) على ركبهم، ويسير المشاة رافعين الحراب، والفرسان حاملين البنادق بدلا من السيوف، لكن بلا حراب». نقل سبعون قاربا من مراكب الكياك ذات الستة مجاديف وقارب ذو أربعة عشر مجدافا للسفير، السفارة من غَلَطَة إلى الباب العالي على الجانب الآخر من القرن الذهبي[29].

لم تخفِ روسـيا والنمسا مكائدهما ضد الإمبراطورية العثمانية. من ذلك أن كاتريـن الثانية، في العـام 1779، مدفوعة بالأحلام الروسـية القديمة، وقبل كل شيء برغبتها الشـخصية في المجد، أطلقت على حفيدها الثاني اسما كان برنامجا سياسـيا في ذاتـه: قسـطنطين. وأُعطي الطفل لمربيـات يونانيـات، وبداية من العام 1780 ناقشـت مع الإمبراطور الرومـاني المقدس جوزيف الثاني «مشروعها اليوناني» الذي يقوم على تقسيم الإمبراطورية العثمانية في أوروبا بينهما، وإحياء الإمبراطوريـة البيزنطية في القسـطنطينية، وأن يكون قسـطنطين إمبراطورا لها. تأكد التهديد الروسي في العام 1783 بضمها القرم التي كان العثمانيون يعتبرونها المدخل إلى القسـطنطينية[30]، ولم يعد البحر الأسـود بحيرة عثمانية. ومنذ ذلك الوقت فصاعدا، أخذ الاهتمام الروسي بالعاصمة العثمانية يتنامى مع نمو التجارة الروسية عبر البسفور والدردنيل.

وفي العـام 1784، رد لويـس السـادس عـشر وفيرجـين الذي أصبـح وزير خارجية فرنسـا على العمل الروسي بإرسال الشـاب المتعلم من الحاشية كونت دي شـوازيل جوفير Comte de Choiseul-Gouffier سفيرا إلى القسطنطينية. كان هذا الكونت الشـاب بالنسـبة إلى الكاتب السـاخر المبغض للبشر شامفور Chamfort: «إنه واحد من تلك الكائنات التي سـاعدت بفضائلها وتواصلها في أن تصالحني مع الجنس البشري»، وكان بالنسبة إلى تاليران «الرجل الذي أحببته أشد ما يكون الحب»، والصديق الوحيد الذي لم يخنه. لكنه كان مع ذلك اختيارا مفاجئا كسـفير فرنسي في القسـطنطينية لأن الصدر الأعظـم كان يرتاب في أنه موال للنمسـا. وعلاوة على ذلك، كان شوازيل كلاسـيكيا يعشق الماضي اليوناني. في كلمتـه التصديريـة لكتابه عن رحلاته إلى اليونان الـذي نشر في العام 1782، وصف «المشروع اليوناني» بأنه غاية نبيلة وعظيمة، وتساءل: «كيف يمكن للمرء أن ينظر بلا سـخط إلى اسـتقرار المسـلمين الأغبياء على خرائب إسـبرطة وأثينا ويفرضـون عليها جزية العبودية في هدوء؟»، وجد زميله البريطاني سـير روبرت إينزلي أن من واجبه أن يلفت انتباه الصدر الأعظم إلى الجملة. وفي عمل تكفيري غال، اسـتعاض شـوازيل جوفير عن هـذه الكلمة بمقدمة مختلفـة، طُبعت في مطبعة السفارة. وزعم للباب العالي أن كل النسخ الأخرى كانت مزورة.

اتبع شــوازيل جوفير سياســة لويس الســادس عــشر وفيرجين بأمانــة، إذ كانا مصممين على دعم الإمبراطورية العثمانية - كما كتب فيرجين - «بكل الوسائل التي باستطاعته [الملك]». كانت لدى لويس السادس عشر وفيرجين رؤية عمرها خمسون عاما. جاءت تعليمات فيرجين الرسمية إلى شوازيل جوفير بأن «يوفر الدافع لإحداث ثــورة في الإمبراطورية، وأن يعوّد الحكومة التركيــة البحث عن التعليم الذي تحتاج إليه، وأن تستعين بالرجال المتعلمين من الخارج إلى أن تتعلم الأمة[31].

أحضر شــوازيل جوفير هيئة عســكرية وبحرية مكوّنة من ثلاثين ضابطا لمساعدة الإمبراطورية العثمانية في تحديث قواتها المســلحة (فضلا عن الرســامين جان باتيست هيلــير Jean-Baptiste Hilair ولــوي فرانســوا كــازاس Louis-Francois Cassas اللذيــن كان يدفع لهما من مالــه الخاص). وفي العام 1783، افتتحت مدرســة حديثة للهندســة العســكرية بمعلمين فرنســيين، وكان القبطان باشــا نفســه يحضر مقررات التحصينات أحيانا، وقام مهندســون فرنســيون بتقوية الحصون التي تدافع عن مدخل البسفور. وفي مطبعة الســفارة الفرنسية، طُبعت الأعمال حول المناورات البحرية وفن الحرب والقواعد النحوية العثمانية باللغة العثمانية. وأكمل المهندســان كوفر Kauffer ولوشيفالير Le Chevalier أول خريطة دقيقة للمدينة في العام 1786. وبدأ المهندسون الفرنســيون العمل في الترســانة الكائنة على القرن الذهبي، وســاعدوا في بناء ســفينة حديثة، دُشنت بحضور السلطان في الثلاثين من مايو 1787[32].

أثبت شــوازيل جوفير أنه دبلوماسي مقتدر اشــتهر بأنه حين كان يثار كلام عن اســتدعائه إلى بلاده، كان الصدر الأعظم يكتب إلى لويس الســادس عشر يثني على حماســه «للصداقة التــي تجمع هذه الإمبراطورية المهيبة وبلاط فرنســا»، ويطلب منه أن يبقيه. تحلى شوازيل جوفير بالقدرة على الاحتفاظ برباطة جأشه في أصعب الظروف. ففي أحد المؤتمرات، وضع الأسد الذي كان القبطان باشا يربيه، رأسه على حجر شــوازيل جوفير، فما كان من الســفير إلا أن غنى له il est beau, fort beau [نونا نونا هو، أنتِ جميلة، أنتِ جميلة][*] وواصل كلامه[33].

وفي الســابع عشر من أغســطس 1787، دُفِــع الباب العالي ثانيــة بفعل الرأي العام في المدينة وبتحريض مما وصفها شــوازيل جوفير les perfides Conseils du

(*) تهويدة مما يغنى للأطفال. [المترجم].

Chevalier Ainslie [نصيحـــة غادرة من شـــيفالير إينـــزلي]، إلى إعلان الحرب على روســـيا. حصل العلماء في «مجلس الشـــورى» على رشى قدرهـــا ثمانون ألف دوقية هولنديـــة لإعطـــاء موافقتهم. كان من أســـباب انـــدلاع الحرب رفض روســـيا إعادة ألكسندر مافروكورداتو أمير مولدافيا الذي فر من ياش في وقت سابق من ذلك العام بتدبير القنصل الروسي. أغضب ذلك الحكومة الفرنســـية التي كانت قد بدأت أخيرا تقاربا مع روسيا (ومن هنا جاء حماس إينزلي لهجوم عثماني على تلك الإمبراطورية).

كشف لويس السادس عشر عن واقعيته وتفضيله للسلام في رسالة بتاريخ العشرين من مايو 1787 إلى الشـــاب ســـليم أفندي وولي العهد الذي كان شوازيل جوفير يتواصل معه سرا: «لقد أرســـلنا إلى القســـطنطينية على نفقتنا صناعا وضباطا لإعطاء المســـلمين عروضا عملية وأمثلة لكل جوانب فن الحرب... الحرب التي أصبحت علما معقدا جدا، وتكلّف من يســـعى إليهامن دون أن يكون في مســـتوى الخصوم خسائر فادحة». كان شـــوازيل جوفير يخشى من أن تكون الحرب كارثة للتجارة الفرنسية في المشرق والآلاف الذين يعيشـــون في المنتصف، وحذر الرئيس أفندي مـــرارا وتكرارا من عواقبها الممكنة. وشكره المسؤول العثماني على نصيحته.

تغلبت اتهامات روسيا بـ«الغطرسة» و«الطموح الجارف» و«سوء النية المثير للقرف»، عـــلى التقييم الواقعي لتوازن القوة. كان انهيار الإمبراطورية العثمانية، ولو كحيلة بلاغية فقط، متوقعا داخل الباب العالي نفســـه. يذكر شوازيل جوفير أن رئيس الكُتاب أخبره بأنه إذا كان الله قد قدر «خراب هذه الإمبراطورية، فإن المســـلمين كانوا على الأقل مهيئين لأن يموتوا بحماس وأن يفضلوا الموت الشريف عـــلى الخزي وعلى صنوف العـــذاب الطويل والمؤلم التـــي كان الروس الغادرون يدخرونها لهم»(34).

سُـــحب الضباط الفرنسيون من القسطنطينية في وســـط العام 1788، بعد ستة أشهر من إعلان النمسا الحرب هي الأخرى على الإمبراطورية العثمانية. أنهت الحربُ واندلاع الثورة العنيفة في فرنســـا في العام 1789 خطةَ لويس الســـادس عشر للثورة السلمية في الإمبراطورية العثمانية. وانتهت الحرب في العام 1792 بهزيمة العثمانيين وفقد حصن أوشـــاكوف Ochacov العظيم على البحر الأســـود. كانت حدود روسيا تقترب شيئا فشيئا من القسطنطينية.

وفي الرابع والعشرين من سبتمبر 1792، بعد إسقاط لويس السادس عشر، استقال شوازيل جوفير من منصب السفير الفرنسي، وأعلن أسفه وامتنانه و«ولاءه للباب العالي». وحصَّن نفسه في قصر فرنسا(*)، وأخذ ينتظر ما تأتي به الأيام، محاطا بحراس من الألبان. وبعد تصويت من التجار الفرنسيين بالمدينة على قبول الجمهورية الفرنسية، غادر المدينة في العام 1793 ومعه تحفه التي تنتمي إلى العصور القديمة وفضيات السفارة إلى سانت بطرسبرغ التي عُيّن فيها مديرا للمكتبة الإمبراطورية ورئيسا لأكاديمية الفنون الجميلة[35].

وفي العام 1795، وبعد ثلاث سنوات من فقدان المملكة الفرنسية، فقدت الإمبراطورية العثمانية حليفا آخر، إذ قُسّمت البقايا الأخيرة من الكومنولث البولندي بين النمسا وبروسيا وروسيا. وعلى مدى سنوات، تمثل الأثر الرسمي الأخير لوجود بولندا في ترجمان السفارة البولندية السابق في القسطنطينية. كان حارس إنكشاري سابق في السفارة البولندية يقوده إلى الباب العالي ومنه. وصف العثمانيون تلك الحالة بالقول: «شبح لجاووش [حارس] يؤدي مهامه لشبح ترجمان لسفارة ميتة»[36]. أخذ النظام الأوروبي القديم الذي ساعدت انقساماته الإمبراطورية على حكم ربع القارة لأربعة قرون يتلاشى. وأصبحت الإمبراطورية محاطة بجيران توسعيين كما كانت الإمبراطورية نفسها من قبل.

لم يكن في وسع السفارات في بيرا أن تنجز الكثير لولا أسراب الجواسيس والمترجمين والأطباء والمبشرين والتجار الذين كانوا يعيشون في الشوارع الفرعية المحيطة. كانت السفارات مركز عالمهم الذي وفر لهم العدالة والحماية والتوظيف والترفيه والأخبار. لم يكن بالقسطنطينية بلاط على النمط الغربي يقوم على طقوس حفلات الاستقبال التي تكشف للعالم الخارجي أصحاب الحظوة من غيرهم. ردمت السفارات هذه الفجوة. وحتى العام 1914، كان عدم حصول أحد مسيحيي المدينة على دعوة إلى السفارات يعني موته اجتماعيا. كتب زائر إبان القرن التاسع عشر:

> إن مجتمع بيرا متألق إلى درجة تضعه على طرف النقيض مع ذلك المجتمع الذي وصفت قبحه من فوري [حياة الطبقات الدنيا ببيرا]. فلا يوجد مكان آخر من العالم - باستثناء باريس - يجمع كل هذا العدد الكبير من العلماء والفنانين والرحالة ورجال الذوق من كل نوع... تقدم حفلات الاستقبال الكبيرة

(*) كانت السفارات يشار إليها باسم القصور، مثل قصر فرنسا مثلا. [المترجم].

> مزيجا ساحرا من السـمات القومية المتنوعة، جمعها معا ذوق وأنس رائعان. فاقت أمسـيات قصر روسـيا نظيراتها جميعا في الفخامة، بينما تميّزت حفلات سـفراء فرنسـا وإنجلترا بذوق أعلى وثراء أقل، في حين تفوقت حفلات العشاء الرسمي في السفارة النمساوية على كل ما عداها[37].

تـردد العثمانيون أيضا على سـفارات بيرا. من ذلك أن الرحالـة والديبلوماسي غير الرسمي الفرنسي نيقولاس دي نيكولاي لاحظ أن المسؤولين العثمانيين في العقد السادس من القرن السـادس عشر كانوا يسـتمتعون بتناول العشـاء مع السفير الفرنسي مسيو دارامـون Monsieur d'Aramon: «لكثرة أطباق اللحوم الشـهية وكثرة أنواع الخمور والمزي والمُسـكات(*) الممتـازة [القادمة من الجـزر اليونانية] التـي كانوا يتخمون أنفسـهم بها إلى أقصى حد، حتى كانت شوارع المدينة الفسيحة تضيق بهم عادة وهم في طريـق عودتهـم إلى بيوتهـم، وكانوا يعرفـون جيدا كيف يعطرون أنفسـهم بهذه الكحوليات السـبتمبرية والباخوسـية الحلوة»(**). وعلى مدار القرنين السـابع عشر والثامن عشر، كان السـفراء الفرنسيون إلى القسطنطينية يزورون المفتي، وسأل المفتي ذات مرة إن كان ابن مركيز دي فيلنوف Marquis de Villeneuve السفير الفرنسي في الفترة 1729-1740 قد سُمي كونستانتوبوليتان Constantinopolitan [قسطنطيني] نسـبة إلى المدينة. وعندما اسـتضاف الصدر الأعظم السـفير الروسي لتناول الغداء في البـاب العـالي في العام 1775، طلب منه أن يتصرف كأنه صاحب بيت. وهناك شـاهد السفير «الرقص على الطريقة الآسـيوية ومن الجزر اليونانية المختلفة» وغلمانا يغنون أغاني عربية. وفي حين كان معظم العثمانيين لايزالون يأكلون بأصابعهم، استخدم الصدر الأعظم أدوات مائدة ذهبية مطعمة بالماس. وتلت هذه الاستضافة خمس مآدب أخرى لدى خمسة مسؤولين مختلفين في بيوتهم[38].

كان العثمانيون يحضرون حتى حفلات الاستقبال التي يقيمها عدو منتصر. ففي حفلة راقصة إحياء لعيد القديسـة كاترين(***)، وهو عيد الإمبراطورة، في السفارة الروسية في العام 1793، لاحظ ديبلوماسي روسي:

(*) المزي malmsey: نبيذ حلو عطري الرائحة، والمُسكات muscat عنب طيب الشذا والنكهة أو خمر معصور منه. [المترجم].

(**) يرمز شـهر سـبتمبر إلى مولـد الزهور، وباخوس Bacchus هو الاسـم الـذي اتخذه الرومـان للدلالة على ديونيسوس إله الخمر عند الإغريق. [المترجم].

(***) كان من عادة الممالك المسـيحية أن تطوّب ملوكها وملكاتها قديسـين وقديسـات، غالبا بعد مماتهم، وقد طوّبت كاترين قديسة في حياتها. [المترجم].

لم تكن الغرف كبيرة بما يكفي لاستيعاب هذا الحشد الكبير. كانت النساء كلهن مغطيات بالماس والجواهر... كان من بين الحضور في هذه الحفلة صديقنا القديم الكابيشي باشا Kapici Pasha [رئيس حرس القصر] وكثير من الأتراك الآخرين من علية القوم... وحين رأوا بريق الخمر الفاخر المقدم لهم، شربوا نخب دينهم وشاركوا في كل متع هذه الحفلة حتى النهاية.

في الصيف، كانت السفارات، مثل غيرهم من السكان الأغنياء، يغادرون المدينة للتمتع بالمناخ الأبرد لقرى بيوكدير وطرابيا وبلغراد Belgrade على البسفور. وهناك كانت الحياة أكثر استرخاء، من ذلك أن أحد الرحالة وجد طرابيا «مكانا مبهجا للغاية». وفي بعض الأوقات، على نحو ما ذكر ضابط بريطاني، كان كثير من اليونانيين يغنون لعشيقاتهم ليلا في جلبة يستحيل معها النوم: يبدو أن «إلهة الحب اتخذت من هذا المكان مقاما مفضلا لها». كان بضعة أتراك ينضمون إلى لقاءات الأحد مع اليونانيين والأرمن واليهود، حيث كان «كل من ينتمون إلى المجتمع» يجتمعون تحت أشجار الليمون في سهل خارج بيوكدير[39].

كان التجسس - لا ريب - إحدى الوظائف الأساسية للسفارات. وإبان القرن السادس عشر، كانت كنيسة سانت فرانسيز في غَلَطَة مكان اجتماع مفضلا للديبلوماسيين البنادقة وعملائهم، لأن الحرس الإنكشاري كان يترفع عن دخول الكنائس، وتحت ستار العبادة، كانوا يتحدثون من دون أن ينتبه إليهم أحد. على أن انكشاف أمرهم كان يودي بهم إلى القتل. ففي السادس والعشرين من أبريل 1571، في أثناء حرب «الحلف المقدس» المكوّن من البندقية وإسبانيا والبابوية ضد الإمبراطورية[*]، رُفع جسم جاسوس بندقي يدعى فرا باولو بيسكوتو Fra Paolo Biscotto مخوزقا على سارية خارج نافذة سفير البندقية وتُرك ليتعفن، «لتشجيع الآخرين»[40].

وبعد قرن، كان كونت جاكوب كولير Count Jacob Colyer الممثل الهولندي لدى الباب العالي من العام 1685 حتى وفاته في العام 1725، «سيدا مثاليا» لدى العثمانيين واليونانيين. كتب كانتمير أنه «كان يستضيف في بيته حاشية الباب

(*) هي معركة ليبانتو البحرية التي دُمر فيها الأسطول العثماني، وكانت من أولى الهزائم العثمانية، وجرأت الممالك الغربية على الإمبراطورية. [المترجم].

العالي الذين كانوا شرهين جدا للخمر، وكانوا يتنقلون في البيت بحرية، إذ لم يكن بالبيت شيء سري غير ما ينتزعه منهم بهذه الوسيلة»(*). وكذلك سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة إبان منتصف القرن الثامن عشر هنريتش كرستوف بينكلر Heinrich Christoph Penkler كان يجيد تحدث اللغة العثمانية ويستخدم عيونا له في كل مستويات المجتمع العثماني وفي السفارات الأجنبية. وجنّد السفير الفرنسي كونت دي سانت بريست - خليفة هنريتش - المدعو بارون ثوغوت للعمل لحساب فرنسا في العام 1771، لكن نظرا إلى أن المعلومات التي كان يقدمها كانت قليلة القيمة، فربما كانت مهمته هي الخداع المزدوج. تذمر ثوغوت من أن الأسرار في بيرا لا تحفظ لأكثر من ربع ساعة، فـ «كل شخص يعرف تحركات كل الأشخاص الآخرين»[41]. ومازالوا كذلك إلى اليوم.

لم يكن سكان بيرا يُعرَفون باسم البيريين Perotes(**)، بل باسم القراصنة pirates. تقول إحدى الأغاني الشعبية: «بيرا بيرا، أنتِ عش الأوغاد». وقيل إن ثرثرة سيدات بيرا الجالسات حول التندور(***) أو المجمرة، كانت أسوأ من نظيراتها في أسوأ بلدة إقليمية فرنسية[42]. غير أن بيرا كانت تجمع إلى جانب ذلك إغراء الكوزموبوليتانية. وحتى القرن الحالي، ظل كثير من سكانها يتحدثون خمس أو ست لغات. وفي العام 1718، شبّهتها ليدي ماري ورتلي مونتاغيو ببرج بابل:

> في بيرا يتحدث الناس التركية واليونانية والعبرية والأرمنية والعربية والروسية والفارسية والسلافونية [الصربية - الكرواتية] والولاشية والألمانية والهولندية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية والمجرية، ولعل الأسوأ من ذلك أن عشرا من هذه اللغات تستخدم في أسرتي. فسُيّاس خيلي عرب، وخدمي فرنسيون وإنجليز وألمان، ومربيتي أرمنية، ووصيفاتي روسيات، وأكثر من خمسة آخرين من خادماتي يونانيات، وطباخي إيطالي، وإنكشاريتي أتراك.

(*) بمعنى أن السفير كان يقيم هذه الحفلات لانتزاع المعلومات من المسؤولين العثمانيين. [المترجم].

(**) نسبة إلى بيرا. [المترجم].

(***) التندور (ربما تحريف لكلمة «تنور» العربية) - في بلاد المشرق - طاولة مغطاة بسجادة كبيرة توضع تحتها مجمرة بغرض التدفئة. [المترجم].

جذبت بيرا اليهود والأرثوذكس والبروتستانت، فضلا على الكاثوليك. فقد كانت مدينة يمكن أن ترى فيها أوروبا كلها وتسمعها، أكثر حتى من فيينا أو روما أو فاليتا عاصمة فرسان مالطا[43](*).

لم تكن أوروبا واقعا معيشا في شوارع بيرا فقط، بل في الحياة المهنية للكاثوليك أيضا. فعلى مدى ستة قرون، نادرا ما يغيب اسم عائلة تيستا Testa عن حوليات الديبلوماسية بالمدينة. هذه العائلة التي كانت تعمل في الأصل تجارا وكُتاب عدل، جاءت من جنوة إبان القرن الثالث عشر. ويقال إن واحدا من أبنائها وقّع المعاهدة التي استعاد البيزنطيون القسطنطينية بمقتضاها من اللاتينيين في العام 1261. وفي العام 1456، دفن توماسو دي تيستا Tomaso de Testa وزوجته لوشينتا دي سبينولا Luchineta di Spinola في كنيسة سانت بول (جامع العرب حاليا في كاراكوي Karakoy، ويوجد شاهدا قبريهما الآن في المتحف الأثري). وفي العام 1513، أسهم أندريا دي تيستا Andrea de Testa في تحمل تكاليف إعادة بناء كنيسة سانت فرانسيز بعد الزلزال المدمر الذي ضرب المدينة من العام 1509، وفي العام 1561 شهد ابنه أنجيلو Angelo التبرع بكنيسة سانت بيتر وسانت بول للدومنيكان. وكما عمل ثلاثة أفراد آخرون من عائلته إبان الثلاثمائة سنة التالية(**)، شغل أنجيلو موقع رئيس مجلس بيرا السامي Magnifica Communita di Pera وهو كيان من اثني عشر مستشارا كانت مهمته إدارة شؤون وكنائس الجماعة الكاثوليكية المكوّنة من نحو خمسمائة شخص. وكما كانت الحال مع العائلات البارزة الأخرى مثل درابيريس وسلفاغو Salvago، عاشت عائلة تيستا في أبهة واضحة في غَلَطَة بجوار خان الفرنجة[44].

وبفضل معرفتهم باللغات العثمانية واليونانية والإيطالية وغيرها، بدأت عائلة تيستا من النصف الثاني من القرن السابع عشر في العمل مترجمين للسفارات الغربية.

(*) فاليتا Valetta: عاصمة مالطة، كانت منذ أولى الحملات الصليبية ملتقى للأفراد والجماعات والأخويات المسيحية القادمة من كل أنحاء العالم المسيحي الراغبة في الحرب على المشرق الإسلامي، وكانت فلول الحملات الصليبية المهزومة والولايات الصليبية المنهارة في المشرق تحط رحالها في مالطة انتظارا لأن تمر بهم حملة جديدة قادمة من أوروبا، وكذلك للإغارة وأعمال القرصنة على السفن والشواطئ الإسلامية، وربما من هذا الدور «الجهادي» ضد الإسلام والدول الإسلامية، جاء المثل الشعبي «يؤذن في مالطة» كناية عن عدم الاستجابة والرفض. يفترض أن هذا الدور جعل فاليتا جامعة لأوروبا كلها أكثر من أي مدينة أخرى. [المترجم].

(**) هم بارتولوميو تيستا Bartolomeo Testa في العام 1568، وغاسباري تيستا Gaspare Testa في العام 1651، وبارتولوميو دي تيستا Bartolomeo de Testa في الأعوام 1778-1792. كان فرانسيسكو تيستا Francesco Testa نائب الرئيس في العام 1683.

وإبان القرن الثامن عشر، حققوا تحولا حاسما في المكانة من مترجمين يُستأجرون من بين أهالي المدينة إلى رعايا وسفراء للحكومات الأوروبية. فعمل غاسبار تيستا (1684) 1758-Gaspard Testa ترجمانا للسفارة الهولندية، وشغل ابنه جاك الذي سُمي جونخير دي تيستا 1804- 1725) Jonkheer de Testa) منصب القائم بالأعمال الهولندي في القسطنطينية، وأصبح أحفاده هولنديين وخدموا هولندا بمهنتهم الدبلوماسية العائلية في القسطنطينية وطوكيو ومدريد وأماكن أخرى. ولايزال فرع من العائلة يعيش اليوم في هولندا. غير أن أثمن مقتنيات العائلة، وهي الشوكة من تاج الأشواك الذي عُذب به المسيح، التي أنقذها فرانسيسكو تيستا Francesco Testa من حريق دمر كنيسة سانت فرانسيز في العام 1660، لم يعد يمكن مشاهدتها في المواكب الدينية في إسطنبول، إذ تحتفظ بها حاليا كنيسة سانت أغنيس St Agnes بأمستردام.



الرسام أنطوان دي فافاري Antoine de Favary، كونت فيرجين بالزي العثماني، 1768. كان السفراء والرحالة يكلّفون رسامين عادة برسم صور لأنفسهم بالزي العثماني لتوضيح نجاح سفاراتهم أو رحلاتهم. وهذه اللوحة التي رسمت لفيرجين في السنة التي غادر فيها القسطنطينية والتي تُظهره متكئا على فراء ومرتديا فراء وممسكا غليونا، تخلد واحدا من أكثر السفراء الفرنسيين لدى الباب العالي تمكنا.

عندمـا وصل فيرجين العازب الملتزمت إلى القسـطنطينية، وقع في حب آن فيفيير Anne Viviers أرملة فرانسيسكو تيستا التاجر ابن عم جاك دي تيستا. ولدت فيفيير لفيرجين طفلين غير شرعيين. وفي العام 1760، أي بعد خمس سنوات من وصوله، خاطر فيرجـين بحياته المهنية، بأن كتب لها تعهدا مكتوبا بأن يتزوجها. وبعد سـبعة أعوام، وهو ما أثار اشمئزاز الحكومة الفرنسية ومجتمع بيرا، أبرّ الكونت بعهده وتزوجها في كنيسـة سانت لويس دي فرانسـيز. كتب فيرجين إلى بارون دي توت: «إنني في غاية السـعادة بحالتي الجديدة، وغدت زوجتي التي تشرفـت بمعرفتك أحب إليّ من أي وقت مضى، كما أنني أعشق أطفالي». استدعاه لويس الخامس عشر من القسطنطينية بفعل الصدمة. وأثبت لويس السـادس عشر أنه أكثر تسـامحا من الآخرين. وهكذا، أصبحـت المدام كونتيسـة دي فيرجين، زوجة وزير الخارجية، البيرية المسـنة صاحبة «الماضي» تتولى مهمة تقديم الأميرات الأجنبيات في بلاط فيرساي.



الرسـام أنطوان دي فافاري Antoine de Favary، الكونتيسـة فيرجين بفسـتان عثماني، 1768. كانت الكونتيسـة في السابق من آل سافويارد Savoyarde، تزوجت من أحـد تجار بيرا الأغنياء، وبعد موته عاشـت مع السـفير الفرنسي كونت دي فيرجين بلا زواج وأنجبت له ابنين قبل زواجهما الذي ربما عجّل باسـتدعائه إلى باريس، ولم يريا المدينة ثانية.

وكما فعلت عائلة مافروكورداتو، رفضت عائلة تيستا أن تسجن نفسها في قومية واحدة. فكانت هذه العائلة مثالا متطرفا لظاهرة كانت شائعة جدا وهي الأوروبيون الذين يعتبرون الوطن مهنة وليس قضية تستحق النضال. ولكونهم ديبلوماسيين بالوراثة، عمل أفراد العائلة في القسطنطينية لأنها كانت مركز الديبلوماسية، مثلما عمل الأجانب في باريس إبان القرن الثامن عشر لأنها كانت مركز الموضة (في الفكر والفن والأزياء). كان الولاء الأساسي لعائلة تيستا هو لمدينة المدينة(*)، أي للقسطنطينية والدين الكاثوليكي والسلطة التي كانوا يخدمونها في هذا الوقت أو ذاك، أيا كانت. فإلى جانب هولندا، خدمت عائلة تيستا - في أوقات مختلفة - فرنسا والسويد والنمسا وبروسيا وبولندا والبندقية والإمبراطورية العثمانية (كان الزوار المصدومون بالكوزموبوليتانية البيرية يقولون إن أهلها يعرفون لغات خمس أمم، لكنهم لا يمتلكون روح أي منها). يكشف موقف القسطنطينية المتساهل مع القومية والطبقة والجنس أنها كانت في الوقت عينه تقليدية جدا وحديثة جدا.

بدأ كارلو دي تيستا (Carlo de Testa (1755 - 1827 مهنته ترجمانا لفرنسا التي تلقى تعليمه فيها. وكان يفتخر بأنه «أيضا مواطن فرنسي مخلص»، لكنه فزع كما فزع السلطان والباب العالي بإعدام لويس السادس عشر في العام 1793، وترك وظيفته. وفيما بعد، خدم السويد أولا، ثم النمسا، ترجمانا أول. وقام بارون إغناس دي تيستا (Baron Ignace de Testa (1812 - 1873 القائم بالأعمال التوسكاني في القسطنطينية بتحرير «موجز معاهدات الباب العالي العثماني مع القوى الأجنبية بداية من العام 1536 إلى اليوم»، ذلك الكتاب الذي بُدئ فيه في العام 1864، ونُشر المجلد الحادي عشر والأخير منه في العام 1911، قبل إحدى عشرة سنة من زوال موضوع الكتاب - الباب العالي - من الوجود. ولسوء الحظ، لم تُكشف رسائل أو يوميات أو مذكرات خاصة أو يؤذن بنشرها من أرشيفات العائلة. فمن المؤكد أن رأي عائلة تيستا في الديبلوماسية العثمانية كان مختلفا تماما عن رأيها الذي بقي في أرشيفات الوزارات الأوروبية والباب العالي. كان ترجمانات بيرا يرون أنهم تجسيد للمهارة الديبلوماسية. وكان السفراء دمى تُحرك وفقا لرغبات الترجمان(45).

(*) أي مدينة بيرا بمدينة القسطنطينية. [المترجم].

كانت بيســامي Pisami عائلة ديبلوماسية شهيرة أخرى في بيرا. روّج أفرادها أنهم فرع أصغر من عائلة النبلاء البندقية التي تحمل الاسم نفسه، وأنهم جاءوا إلى القســطنطينية مــن جزيرة كريــت بعد فتح العثمانيين لهــا في العام 1669. سرعان مــا أصبحت هذه العائلــة ترجمانات الســفارة البريطانية، وحصل أحد أفرادهــا على لقب «مترجم جلالة الملك للغات الشرقيــة» في العام 1749، وكان جديرا به. ففي العام 1754، وفي خلال خمسة عشر يوما من وصول رسالة سرية مــن لويــس الخامس عشر إلى الســلطان تطلب منه الانضــمام إلى «سر الملك» secret du roi وهو التحالف السري المعادي لروسيا بين فرنسا والسويد وبولندا، حصل السفير البريطاني على نسخة منها عن طريق أحد أفراد عائلة بيساني[46].

تمثل الرســائل اليومية تقريبا إلى ســير روبرت ليستون Sir Robert Liston من ترجمان أول يدعى بارتولوميو بيسامي Bartlomeo Pisami، اشتُهر بطباعه ولغته الإنجليزية المميّزة، رســائل من ناظر عزبة محنك إلى مالك وصل أخيرا إلى ممتلكاته الجديدة التي لا يتحدث لغة أهلها. يخبر بيســاني ليســتون متى يجب أن يكتب إلى الباب العالي، ويسرد له أخبار الســفراء الآخرين، وتحركات السفن والسياســة الأوروبية، ويناقش الزيارات إلى الصدر الأعظم والقبطان باشا. تتواتر في الرســائل عبارات مثل «إذا شــاء سعادتكم»، يليها اقتراح أو «أرى دائما أن من واجبي أن أبلغ ســعادتكم بأي معلومات اســتخبارية تصلني وقد تؤثر في خدمة جلالة الملك أو تكون مفيدة لعلم سعادتكم الخاص». كان العمل اليومي والمالي للسفارة - في مقابل السياسة العالية - في يدي هذا البيساني.

تكشف الرسالة التالية التي أرسلها بتاريخ الرابع والعشرين من أكتوبر 1794 من بيرا إلى الســفير الذي كان لايزال في ضاحية بلغراد، أســلوب بيسامي الإداري الواثق وعلاقاته الوثيقة مع السفارات الصديقة للحكومة العثمانية:

> السيد المحترم
>
> تشرفت بإحاطة علم ســعادتكم بأن القبطان باشــا ســبق أن أخذ الإذن المعتاد من الســلطان بالعودة بأســطوله إلى الترســانة، وقد غادرت ســفينته كيرلانغيز Kirlanghiz مع بعض الســفن الصغيرة الأخرى القنال [البســفور]

ورســت أمام الديوان في هذا الصباح. وســوف تتبعها السفن الكبيرة من اليوم وحتى الأحد المقبل، عندما - كما قيل لي - يبدأ الباشا المقام في مكتبه، من دون مراسم الدخول العلنية، كما يجري عادة بعد عودة الأسطول من بعثة بعيدة.

وبناء على ذلك، يمكن لسعادتكم - إن شئت - أن ترسل له يوم الإثنين أو الثلاثاء المجاملة المعتادة على عودته إلى العاصمة لقضاء فصل الشتاء.

ســأظل في المدينة لأتلقى أوامر سعادتكم في الحال، إذ قد تكون رغبتكم أن أكون بين أول مَنْ يذهب لإلقاء التحية المعتادة على سعادته.

أدرك أن هناك تواصلا ممتازا بين حسين ورئيس الوزراء الجديد.

أتشرف بأن أتقدم إليكم بأصدق آيات الاحترام والمودة

السيد المحترم،

الخادم المخلص والمطيع لسعادتكم

ب. بيسامي[47]

كان بيساني مخلصا في عمله. وقضى سنتين في السجن 1807-1809 حينما كانت بريطانيا والإمبراطورية العثمانية في حالة حرب(*). ذكرت ليدي هيســتر ســتانهوب Lady Hester Stanhope ابنــة أخت بت(**) التي قضت شــتاء 1810-1811 في القســطنطينية وهي في طريقها إلى لبنان، أن بيســاني يتحــلى «بالموهبة والنزاهة، وأنه يُخشى جانبه ومحبوب أكثر من ســعادته»(***). أعجبت ليدي ليستون بمهارة بيســاني في الترجمة بــين زوجها والقبطان باشــا: «لقد ذهلت وأنــا ألاحظ في عدة مناســبات مدى حيوية هذه المحادثات بواسطة مترجمين يدخلون عادة في دعابات الطرفين»[48]. وعندما جاء الســفير البريطاني سير اســتراتفورد كاننغ Sir Stratford Canning لزيارته في فراش مرضه في الثامن من سبتمبر 1826، أودى تأثر الترجمان

(*) بســبب انحيــاز الإمبراطورية العثمانية إلى نابليون وضد روســيا التي كانت تحارب فرنســا إلى جانب بريطانيا وبروســيا والســويد في حرب التحالف الثالث، دخل الأســطول البريطاني في 19 فبراير 1807 الدردنيل ودمر الأسطول العثماني والحصون العثمانية في بحر مرمرة ورســا قبالة القســطنطينية لكنه يئس من اســتمرار القتال بســبب قوة بطاريــات المدينــة وتحصيناتهــا، فعاد إلى البحر الأبيض المتوســط في 3 مارس. وفي 16 مارس نزلــت حملة فريزر إلى الإسكندرية، لكن تصدت لها حامية رشيد والأهالي وألحقوا بهم هزيمة ثقيلة وردوهم إلى الإسكندرية، ثم جاء محمد علي وتفاوض معهم على الانسحاب. ووقعت اتفاقية الدردنيل في يناير 1809 لتنهي الأعمال العدائية بين الإمبراطورية العثمانية وبريطانيا. [المترجم].

(**) راجع حاشية سابقة للمترجم حول عائلة وليام بت William Pitt وعائلته السياسية. [المترجم].

(***) أي سعادة السفير. [المترجم].

بحياته، إذ مات الترجمان وهو ينزع طاقية النوم عن رأسه. اتخذ استراتفورد كاننغ ترجمانا من ابن أخيه فريدريك بيساني Frederick Pisani الذي تقاعد في العام 1877. كتب سفير بريطاني لاحق، هو سير أوستن لايارد Sir Austen Layard المتخصص في آثار الإمبراطورية الآشورية، عن فردريك أنه «كان يبدو كأنه يقيم في مبنى السفارة، بين الرسائل والأوراق التي كان أكثر الناس أمانة وغيرة عليها، والتي كان من الواضح أن جل وجوده وجل متعته وآماله تتركز فيها... إنه إنسان أكثر براءة وصدقا وأمانة من أي أحد على وجه الأرض»[49].

وبعد فترة طويلة من الحروب، طوى النسيان المعاهدات والاتفاقيات التجارية التي خُططت في سفارات القسطنطينية، لكن تبقى الرعاية الثقافية cultural patronage من جانب السفارات أحد أمجاد الدبلوماسية الأوروبية. فبفضل حماية السفارات، تمكن الدارس الأجنبي من توجيه الأسئلة إلى الشخصيات العادية في شوارع المدينة، والرسام من رسمها. اشترى بارون دي بوسبيك مخطوطات يونانية من طبيب السلطان موسى بن هامون للمكتبة الإمبراطورية في فيينا. تظل رسائل البارون (على الرغم من أنها نُقحت مثل رسائل ليدي ماري ورتلي مونتغو في تاريخ لاحق) الرواية الكلاسيكية للإمبراطورية في نهاية عهد سليمان القانوني. وكما هي الحال في رسائل ليدي ماري ورتلي مونتغو، تخلو رسائل البارون مما أسماه إدوارد سعيد «جوهر الاستشراق» أي تلك «الشُقة التي تفصل التفوق الغربي عن الدونية الشرقية». يتزيّد البارون والليدي في ذكر مزايا المجتمع العثماني لكي ينتقدا مجتمعيهما، كما أنهما أقل تعاليا من الكثير من الروايات الغربية للبلدان الغربية الأخرى. يمتدح بوسبيك انضباط الجيش العثماني وانفتاح الفرص المهنية أمام الموهوبين. وتمتدح ليدي ماري السهولة والأناقة في الحياة العثمانية والمزايا العملية للإسلام وحرية النساء المسلمات وجمال تطريزهن.

كتب سفير سابق للبندقية، هو جيوفاني باتيستا دونادو Giovanni Batista Donado، أول دراسة للأدب العثماني بلغة غربية بعنوان «أدب الأتراك» Della letteratura de' Turchi (البندقية، 1688). وكان كونت مارسيلي Count Marsigli الذي كتب أكثر الروايات شمولا حول تنظيم الجيش والأسطول

العثمانيين وتسليحهما وانضباطهما وأزيائهما بعنوان «حالة الجيش العثماني» L'Etat militaire de l'Empire Ottoman (مجلدان، لاهاي بأمستردام، 1752)، قد أقام في سفارة دونادو في العامين 1679-1680، في وقت كانت السفارة فيه حقا مدرسة للدراسات العثمانية. اعتمد كتابه على سجلات عثمانية حصل عليها من مفكرين من أمثال حسين أفندي حصارفين. وتمكن الأب تودريني Abbe Toderini من كتابة تاريخ آخر أطول للأدب العثماني لأنه عاش بين العامين 1781 و1786 «في القصر الفخم للسنيور أوغستينو غارزوني Agostino Garzoni سفير البندقية لدى الباب العثماني».

وفرت السفارة الفرنسية أكثر من غيرها، إطارا للاستكشاف العلمي والفني للإمبراطورية العثمانية. وفي هذه الحالة، لا تنطبق أطروحة إدوارد سعيد بأن الاستشراق كان في جوهره تجليا للرغبة الغربية «في حكم الشرق»، لأن فرنسا كانت القوة الأكثر حرصا، لأسباب تتعلق بالسياسة الواقعية، على تقوية الإمبراطورية العثمانية. صاحب نيقولاس دي نيكولاي سفارة فرنسية إلى القسطنطينية في العام 1551. ومع أن كتابه «المقالة والتاريخ الحقيقيان للإبحار والارتحال والرحلات إلى تركيا» Discours et histoire veritable des navigations, peregrinations et voyages faits en Turquie (ليون، 1567) يدين بالكثير إلى روايات الرحالة السابقين، فإن الرسوم التوضيحية التي زود بها كتابه ربما كانت أول صور بصرية دقيقة للأتراك تصل إلى الغرب. وكانت معاهدة العام 1604 بين هنري الرابع وأحمد الأول ثاني كتاب يطبع باللغة العثمانية، وهو ما حدث في باريس في العام 1615، بفضل السفير الفرنسي المثقف الملم باللغة العثمانية سافاري دي بريف Savary de Breves الذي أحضر من روما أحرف طباعة عثمانية وعربية وفارسية وسريانية (كان أول كتاب طُبع في روما في العام 1587 كتابا حول المبادئ الإقليدية للتجارة). ومع ذلك فقد دعا سافاري دي بريف من حين إلى آخر إلى تدمير الإمبراطورية العثمانية[50].

كانت السفارة السويدية القوة الدافعة وراء المَعْلم الأدبي الأساسي للحياة الدبلوماسية للمدينة. كان مؤلف العمل كاثوليكيا أرمنيا من القسطنطينية، ولد في العام 1740، يدعى مورادجيا، عمل ترجمانا في السفارة السويدية من العام

1763 إلى العام 1782، وكان يعيش في كشـك في حديقة قصر السويد. وفي العام 1780 رفعه غوسـتافوس الثالث Gustavus III إلى مرتبة النبيل باسـم موراجيا دوسون Mouradgea d'Ohsson من لقبه التركي tossun [طوسون] الذي يعني الشجاع. كان موراجيا مؤرخا إلى جانب كونه ديبلوماسيا. أقنعه السفير السويدي غوستاف سيلسنغ Gustaf Celsing بأن يكتب وصفا للإمبراطورية وليس تاريخا لعهد سـليم الثاني فقط كما كان مخططا في الأصل. جاءت نتيجة عمله «وصف عـام للإمبراطورية العثمانية» (ثلاثة مجلدات، باريس 1787-1820، تُرجم لاحقا إلى الإنجليزية والألمانية والروسية) لا تقل فائدته لدراسة الإمبراطورية العثمانية عـن فائدة الكتـاب المَعْلم للحملة الفرنسـية- كتاب دينـون «وصف مصر» - لدراسـة مصر. وهو عبارة عن مسـح مزود بمائتين وثلاثة وثلاثين رسما توضيحيا لكل جوانب الإمبراطورية: الإسـلام والقصر والأزياء والحكومة والجيش والنظام القانوني والأخلاق والحريم.

قـضى موراجيا دوسـون اثنين وعشريـن عاما في البحث، وتوافـرت له ميزة الوصول إلى السـجلات الحكوميـة والمحادثات مع الوزراء ومـع أزواج نزيلات سابقات بالحريم، وكتب لاحقا أن الوصول إلى المعرفة بالحريم الإمبراطوري كلّفه مالا وجهـدا أكثر من المعرفة ببقية جوانب الإمبراطوريـة جميعها. وقد أراد أن يقلل الإجحاف الشـعبي بشـأن الشرق في الغرب وأن يجلب المعرفة الغربية إلى الـشرق. وتمنى أن يأتي سـليمان قانـوني جديد «يحافظ على علاقـات أوثق مع الأوروبيـين، ويتبنى تكتيكاتهم، ويغيّر وجه إمبراطوريتهم كليا». وأهدى الكتاب إلى غوسـتافوس الثالث، حليف الإمبراطورية العثمانية في حربها ضد روسـيا في الأعـوام 1788-1790، وطُبع في باريس (التي عاش فيهـا موراجيا للإشراف على نـشر كتابه بـين العامين 1784 و1791)، في مطبعة المسـيو- لويس الثامن عشر المستقبلي- صديق العثمانيين مثل معظم آل البروبون[51].

كان من بين ترجمانات المدينة المتعلمين الآخرين جوزيف فون هامر برجستال Joseph von Hammer-Purgstall الـذي عمل في سـفارة الإمبراطورية الرومانية المقدسـة دارسـا للغات، ولاحقا مترجما من العام 1793 إلى العام 1799 ومن العام 1802 إلى العام 1806. تعلم جوزيف الذي كان يرتدي اللباس العثماني عادة، اللغة

العربية واليونانية والفارسـية والعثمانية في القسطنطينية، وزار أنصابها التاريخية، ولم يفوّت فرصة لشراء الكتب والمخطوطات لكتابه «تاريخ الإمبراطورية العثمانية» الذي لايزال إلى الآن أفضل كتاب في تاريخها سطره مؤرخ أجنبي. تذَكر المكتبة التي أخـرج منها مادته الأولية وكتـب لاحقا: «لم أعمل في مكتبة أخرى بالحماس والهمة التي عملت بها في مكتبة عبدالحميد»[52].

وفرت السـفارات الإطار للتخليـد الفني للقسـطنطينية، فضلا عن البحث العلمـي لها. قبل العام 1600، كلَّف السـفراء رسـامين غربيين أو أتراكا برسـم ألبومات من اللوحات والرسـوم التخطيطية للتراتبية السياسية للمدينة والحياة اليومية والأزياء والمراسـم، مثل مواكب السلطان، ومشـاهد المصارعة والرماية والدراويش الدوّارين[53]. وفيما بعد فضلوا الصور. تميّزت موسكو ومدريد بأنهما غريبتا الأطوار، وفيينا والبندقيـة وروما بالفخامة، وباريس بأنها عاصمة الثقافة الأوروبية. وحدها القسـطنطينية أوحت بـ«الكثير من لوحات السفارات»(*). لم تكن هذه اللوحات تقديرا لقوة المدينة وسحرها ولرغبة السفراء في إعطاء برهان بـصري على نجاحهم لمعاصريهم وأحفادهم فقط، بل كانت أيضا - شـعوريا أو لاشعوريا - تردم فجوة.

لم تكن هناك مجموعات لوحات عظيمة في القسطنطينية. فتعاليم الدين كانت تمنع السلاطين أو الوزراء من تكليف الرسامين برسم الصور أو شرائها، في حين لم تمنع الخـط اليـدوي أو المخطوطات المزودة بالصور. ولم تُظهِر العائلات المسـيحية مثل مافروكورداتو أو تيستا ميلا ولا شجاعة لجمع صور في القسطنطينية (مع أن العائلة الأولى فعلت ذلك في ولاشـيا ومولدافيا). ولذلك لم تكن أفضل الصور للقسطنطينية إبـان القرنين السـابع عشر والثامن عـشر تعلق في المدينة نفسـها، بل في «الغرف التركية» في بيوت ريفية سويدية وقلاع نمساوية وقلاع فرنسية يملكها أحفاد السفراء.

يتمثل الموضوع المفضل في اسـتقبال السـلطان والصدر الأعظم للسـفير في القصر الإمبراطوري، عـلى الرغم من أن بعض اللوحات تصوّر أحداثا معينة مثل

(*) ومع ذلك فبين العامين 1703 و1741، رسـم كارلفاري Carlevarijs وجولي Joli وريشتر Richter وكاناليتو Canaletto لوحات لتشريفات مشـهدية للسـفراء وهم يصلون بمركب مذهبة إلى قـصر دوج البندقية لتقديم أوراق اعتمادهم.

سَـجن الناس في قلعة الأبراج السـبعة أو تجديد الامتيازات. كلَّف سفيران اثنان إبان القرن السـابع عشر، هما سـفيرا الإمبراطورية الرومانية المقدسة سيغموند فـون هيبرشـتاين Siegmund von Herberstein وفرايهـير فون كوفشـتاين Freiherr von Kuefstein، وبعدهما بمائة عام فيرجين وزوجته، برسـم لوحات لأنفسـهم بالزي العثماني. كما كلَّف السفراء الثلاثة جميعهم برسم لوحات أيضا لمشـاهد من الحياة اليومية، مثل مبـاراة المصارعة أو زيـارة البازار، فضلا على المناظر الطبيعية بالمدينة.

كان الرسـام الأسـاسي للسـفارة هو جـان باتيسـت فانمور. ولـد جان في فالنسـيان بفرنسـا وجاء إلى القسـطنطينية في عمر الثامنة والعشرين في العام 1699 ضمن حاشـية مركيز دي فيريول، وبقي فيهـا حتى وفاته في العام 1737. كتب جان الذي كان من الواضح أنه يعشـق المدينة، أنه أراد أن «يكون لأعماله دور في إبـراز الخصوصيات المتعلقة بعادات الأتراك واسـتخداماتهم»، وسُـمح له بمرافقة السـفراء إلى مقابلاتهم الرسـمية مع السـلطان وقادة الدولة. تفيض مشاهده الرسـمية للسـلطان أو الصدر الأعظم وبطانتهما الموقَّعة والمؤرخة في العام 1711 أو اسـتقبال السـفير الفرنـسي في العـام 1724 والهولندي في العام 1727، بالحيوية والبسـاطة، وتتسم التضاربات فيها بين الوجوه والأزياء بالحدة. يصـوِّر جان هولنديا هادئا يمر بجنود انكشـارية يندفعون نحـو البيلاو، وأبناء السـفير الفرنسي الصغـار بباروكاتهم يخاطبهم صدر أعظـم معمم. كانت صور فانمـور جذابة جدا حتى إنها ألهمت تمثيلات مماثلة مـن جانب أيدٍ أقل مهارة لاسـتقبال سـفراء آخرين (البريطاني والبولندي والسويدي والبندقي). وقد كلَّفه السـفير الهولندي كورنيليوس كالكوين Cornelius Calkoen برسـم كثير من اللوحات للقسطنطينية، بقيت معا كمجموعة، وفقا لشروط وصيته، وتعلق الآن في متحف ريكز بأمستردام.

ربما كان فيريول سفيرا عبثيا، سيظل محبو القسطنطينية ممتنين له، إذ كلَّف فانمور في العام 1707 برسـم مائة لوحة للمسـؤولين والأعراق المختلفة بأزيائهم الخاصة: رئيس الخصيان، ورسـول البلاط، وامرأة يهودية تأخذ بضائع إلى الحريم التركي، ورجل تركي يجرح نفسه ليثبت حبه لحبيبته، والبطريرك المسكوني، والشهيد

الأرمني غوميداس(*)، والألبان والبلغاريين واليونانيين والولاشيين والفرس والعرب. وفي فرنسا، ساعد فيريول في ترتيب نشر مائة طبعة لهذه الصور بعنوان «خلاصة لمائة نقش يمثل الاختلافات بين أمم المشرق» Recueil de cent estampes representant differences nations du Levant (1714). كانت الشهية للمعرفة بالإمبراطورية العثمانية نهمة جدا حتى إن الكتاب أعيدت طباعته سريعا باللغة الفرنسية وترجم إلى الألمانية والإيطالية والإنجليزية والإسبانية، وأصبح المصدر الأساسي للتركيات(**) لرسامين من أمثال واتو Watteau وغواردي Guardi وفان لو Van Loo. ومن باب التقدير الرسمي لموهبته، مُنح فانمور في العام 1725 منصب «رسام الملك في المشرق» ذلك المنصب المتفرد، وإن لم يعطِ راتبا لحامله، على الرغم من احتجاجات فانمور على هذه الأخيرة. وعندما توفي في الثاني والعشرين من يناير 1737، حضرت عائلة السفير الفرنسي و«الأمة الفرنسية كاملة» جنازته في كنيسة سانت بنواه في غَلَطَة[54].

توجد أكثر مجموعات لوحات السفارات شمولا في مدينة بيبي Biby بقلب السويد ضمن مقتنيات عائلة سيلسنغ Celsing. تحوّل هذه اللوحات قصر ريفي سويدي صدئ اللون إلى ضريح لقسطنطينية القرن الثامن عشر. خدم الأخوان العازبان غوستاف Gustaf وأولريك Ulrik سيلسنغ، ابنا أحد ممثلي شارلز الثاني عشر لدى الباب العالي بين العامين 1709و1711، وفي السفارة السويدية سكرتيرين ومندوبين وسفيرين بين العامين 1745 و1773 وفي العام 1756 والعام 1780 على التوالي. كان كلاهما يعرف اللغة العثمانية، وبسبب الخوف المشترك من روسيا، تمكنا من الحفاظ على العلاقات العثمانية - السويدية في القوة التي كانت عليها في أيام أحمد باشا. أعاد أولريك سيلسنغ إلى السويد- برا وبحرا - مجموعة مهمة من المخطوطات الشرقية، تركها لمكتبة جامعة أوبسالا Uppsala محفوظة في دولاب مكتوب عليه «مجموعة سيلسنغ للمخطوطات الشرقية» ومائة وعشرين لوحة للقسطنطينية.

(*) غوميداس هو الكاهن الأرمني الذي تزعم تحول كثير من الأرمن بالقسطنطينية في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية، والذي أوعز البطريريك الأرمني أفيديك إلى الصدر الأعظم بإعدامه. [المترجم].

(**) التركيات – كالمصريات - كل ما يتعلق بتركيا والأتراك. [المترجم].

لا تتمثل أروع اللوحات في مشـاهد اسـتقبال السلطان لهما، ولا صور الحرفيين والضباط المختلفين بالمدينة، ولا شـجرة النسب المطعمة بصور السلاطين العثمانيين على شـجرة حقيقية، بل في اللوحات الخمس والعشرين البانورامية الساحرة للقرن الذهبـي والمدينـة والقصـور ومراكب البسـفور، وقبل كل شيء للأكشـاك الزرقاء والخضراء والمقصورات المُذَهّبة بقصر سعادة أباد التي تعد أفضل تسجيل بصري لها. لا توجد توقيعات على هذه اللوحات، لكنها ربما تكون من إنتاج أي. ستين A. Steen الذي أهدى بعض لوحات القسـطنطينية وكذلك لوحات من مجموعة سيلسـنغ إلى «المسـيو غوسـتاف دي سيلسـنغ رئيس المجلس الملكي للتجارة للجالية السـويدية والمبعوث فوق العادة إلى الباب العالي العثماني والفارس بالأخوية القطبية»[55].

وكذلك وفرت السـفارات الأوروبية في القسطنطينية الرعاية لعلماء الآثار، كما فعلت مع الرسـامين والكُتـاب. من المؤكد أن ماضي المدينـة كعاصمة إمبراطورية رومانية قد أسهم في الافتتان بها. وفي القرن الثامن عشر، كانت الخرائب الكلاسيكية، مثل المنتدى الروماني والكولوسيوم، مصدر الجذب الأساسي لدى شقيقتها روما للزوار والرسامين الأجانب. أما في القسـطنطينية، فقد كان الإعجاب والتنقيب مستحيلين عـلى حد سـواء. ومنذ نحو العقـد الخامس من القرن السـادس عشر، وهو وقت مبكـر، لاحظ الدارس الفرنسي بيير جيل Pierre Gilles أن المنطقة داخل الأسـوار الرومانية القديمة للمدينة قد غطتها بيوت حديثة كلها تقريبا: «خلال الوقت الذي أقمتـه في القسـطنطينية [1544-1547] لم أرَ الكثير من الكنائس والقصور الخربة وأساساتها، لأنها مُلئت ببنايات للمسلمين، ولذلك لم أتمكن من اكتشاف مخططاتها السابقة، ولا أستطيع أن أقدّر بسهولة حجم الدمار الذي ألحقه الأتراك بها منذ أن اسـتولوا على المدينة». ورأى بعينيه التمثال الفروسي البرونزي العظيم لجوستينيان محمولا إلى «المسـبك»، لتحويلـه إلى مدافع عثمانية. كانت الأعمدة الكلاسـيكية تسـتخدم في بناء المسـاجد العثمانية. ووضعت قبور الأباطـرة أنصابا تذكارية في حديقة قصر السلطان. لقد كان زوار القسطنطينية يأتون من أجل الحاضر العثماني وليس الماضي الروماني[56].

عـلى أن الكنوز الأثريـة في بقية الإمبراطوريـة التي حكمها وشـيّدها على التوالي الآشوريون واليونانيون والرومان، غدت أحد الشواغل الأساسية للديبلوماسيين المقيمين

في المدينــة. كان شــغفهم بآثــار العصور القديمــة عظيما جدا إلى درجــة أن مسرحية عُرضت في الســفارة الفرنسية بعنوان «فرنســا العتيقة» l'Antiquaire francais. عيّن شوازيل جوفير تاجرا فرنسيا يدعى لويس فرانسوا سباستيان فوفيل Louis-Francois-Sebastien Fauvel لاستكشــاف الآثار اليونانية ونهبها. أما السفراء البريطانيون الذين ترددوا على نحو غير مألوف عن التكليف برســم اللوحات، فقد كشــفوا عن شهية أكبر لآثار العصور القديمة. وفي العقد الثالث من القرن الســابع عشر، سرق ســير توماس راو الذي كان يعمل لحســاب إيرل أرونــدل Earl of Arundel، أجزاء من الباب الذهبي التي توجد حاليا في متحف أشمولين Ashmolean Museum بأكسفورد. وجاء الاحتلال الفرنسي لمصر في العام 1798 وتوقيع التحالف ضد فرنسا في يناير 1799 بين الإمبراطورية العثمانية وروســيا وبريطانيا، ليضع السفير البريطاني لورد إلغين Lord Elgin في مكانة تفوق مكانة شــوازيل جوفير. وبفضل مهارة بارتولوميو بيســاني و«الصداقة والإخلاص والتحالف والنية الحســنة التي تسود «منذ القدم» بين البلاط العثماني السامي والخالد وبلاط إنجلترا والتي تنمو بجلاء لدى الجانبين»، حصل اللورد إلغين على فرمان يجيز له التنقيب في البارثينون ونقل أجــزاء منه(*). تجاوز اللورد شروط الفرمان الأصلية كثيرا، وأخذ أي أعمال نحت من أي قسم بالبارثينون وأي بناية شاء في أثينا. وصلت «مرمريات إلغين» إلى لندن في العام 1806. والنزاع الذي تولد عن ذلك والذي لايزال قائما إلى اليوم، ترجع جذوره إلى سفارة في القسطنطينية[57].

(*) البارثينون هو هيكل الإلهة أثينا في مدينة أثينا. [المترجم].

الهوامش

الفصل الأول

الفاتح

(1) Nicolo Barbaro, Diary of the Siege of Constantinople 1453, tr. J. R. Jones, New York, 1969,67.

(2) Tursun Beg, History of Mehmed the Conqueror, ed. Halil Inalcik and Rhoads Murphy, Minneapolis and Chicago, 1978, 37; Steven Runciman, The Fall of Constantinople 1453, 1988 edn., 147 - 8; George Sphrantzes, The Fall of the Byzantine Empire, Amherst, 1980, 150; Khoja Sa'dud-din, The Capture of Constantinople, tr. E. J. W. Gibb, Glasgow, 1879, 36.

(3) Philip Sherrard, Constantinople: Iconography of a Sacred City, 1965, 16; Robert Liddell, Byzantium and Istanbul, 1956, 48; Laurence Kelly, Istanbul: a Traveller's Companion, 1987, 151.

(4) Dimitri Obolensky, The Byzantine Commonwealth, 1974 edn., 375; Franz Babinger, Mehmed the Conqueror and His Time, Princeton, 1992 edn., 96.

(5) Harry J. Magoulias (ed.), The Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, Detroit, 1975, 233; Babinger, 230.

(6) J. R. Melville Jones, The Siege of Constantinople 1453: Seven Contemporary Accounts, Amsterdam, 1972, 134, letter of 23 June 1453; P. W. Hasluck, Christianity and Islam under the Sultans, z vols., 1925, II, 737.

(7) Julian Raby, 'El Gran Turco: Mehmed the Conqueror as a Patron of the Arts of Christendom, D.Phil, thesis, Oxford, 1980,188; Babinger, 112.

(8) Cornell H. Fleischer, Bureaucrat and Intellectual in the Ottoman Empire: The Historian Mustafa Alt, Princeton, 1986, 2556-; George W. Gawrych, Tolerant Dimensions of Cultural Pluralism: the Ottoman Empire and the Albanian Community 18001912-', International Journal of Middle East Studies, XV, 1983,523.

(9) Kritovoulos, History of Mehmed the Conqueror, Princeton, 1954, 105, 177; Gulru Nccipoglu, Architecture, Ceremonial and Power the Topkapi Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries, Cambridge, Mass., 1991, 250.

(10) Babinger, 272; Halil Inalcik, The Policy of Mehmed II toward the Greek Population of Istanbul and the Byzantine Buildings of the City', in The Ottoman Empire: Conquest, Organisation and Economy, 1978, 241.

(11) Kritovoulos, 140,148; Babinger, 328.

(12) Runciman, Fall, 153; Babinger, 195.

(13) Charles Schcfer (cd.), Le Voyag de Monsieur Chesneau d'Aramon, ambassadeur pour le Roy au Levant, 1887, 261 quoting a firman of 7 May 1532; Kritovoulos, 94; Steven Runciman, The Great Church in Captivity, 1968, 169, 172 - 4.

(14) A. Papadakis, 'Gennadius II and Mehmed the Conqueror', Byzantion, XLJI, 1972, 103; Raby, 109.

(15) Kritovoulos, 140; Raby, 247; Benjamin Braude, 'Foundation Myths of the Millet System', in Benjamin Braude and Bernard Lewis (eds.), Christians and Jews in the Ottoman Empire, 2 vols., 1982, I, 75, 79; Kevork B. Birdakjian, The Rise of the Armenian Patriarchate of Constantinople', in ibid., I, 90-:, 94.

(16) Halil Inalcik, 'Ottoman Galata 1453 - 1553', in Edhem Eldem (ed.), Recherches sur la ville ottomane: le cos du quartier de Galata, 1991, 18; J ones, 133, letter of 23 June 1455.

(17) Inalcik, 'Ottoman Galata', 61; Babinger, 107, 277; Raby, 172; Gertrude Randolph Branlettcr Richards, Florentine Merchants in the Age of the Media, Harvard, 1932, 147, Giovanni Maringhi to Nicolo Michelozzi 29 October 1501.

(18) Fernand Braudel, Civilisation and Capitalism, III, 1982 - 4, 467; Stephane Yerasimos, 'Galata a travers les recits de voyage (14531600-)', in Edhem Eldem (ed.), 117; Horatio F.'Brown, Studies in the History of Venice, z vois., 1907, II, 4, 22, 29, 32; Lucette Valensi, Venise et la Sublime Porte, 1987, 27 - 9.

(19) Anon., Letters Historical and Critical from a Gentleman in Constantinople to bis Friend ;n London, 1730, 8; J. A. Blanqui, Voyage en Bulgarie pendant fannee 1841, 1843, 302; Hugo Schuchardt, Pidgin and Creole Languages, Cambridge, 1980,67, 72. Count Pisam, British Dragoman, wrote to his ambassador in 1824 about 'the principal scales': British Museum Additional Manuscripts (hereafter BM Add. MSS) 36301, f. 268v, letter of 14 June 1824.

(20) Joseph Hacker, The Surgun System and Jewish Society in the Ottoman Empire', in Aron Rodrigue (ed.), Ottoman and Turkish Jewry: Community and Leadership, Bloomington, 1992, 5, 9, 17.

(21) Stanford J. Shaw, The Jews of the Ottoman Empire and the Turkish Republic, 1991, 32; Mark Alan Epstein, The Ottoman Jewish Communities and their Role in the Fifteenth and Sixteenth Centuries,

Freiburg, 1980, 135; Avigdor Levy, The Sephardim in the Ottoman Empire, Princeton, 1992, 47.

(22) Babinger, 75, 291.

(23) Necipoglu, 57; Cemal Kafadar, 'Yeniceri-Esnaf Relations: Solidarity and Conflict', unpublished Ph.D. thesis, McGill, 1981,14, 246-; Apostolos E. Vacalopoulos, The Greek Nation 14131669-, New Brunswick, 1976, 37; A. H. Lybyer, The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent, Cambridge, Mass., 1913,41.

(24) Jones, 33, 128 quoting Leonard of Chios and Zorzi Dolfin; Yerasimos, 158; Nizam al-Mulk, The Book of Government or Rules for Kings, 1960, 1034-; Alberto Bobovi, quoted in Archivum Ottomanicum, XI, 29 - 30. By one estimate, of the first 48 grand viziers after 1453, only 12 were Turkish: see J. de Hammer, Histoire de'rEmpire Ottoman, 16 vols., 1835 - 40, VIII, 421

(25) Yvelise Bernard, L'Orient du XVIe sièck a trovers les refits de voyagursfraryais, 1988, 145: 'la plus fnquentee et la plus estendue de toutes . . . d'autant qu'elle est commune axx Janissaires'; cf. Matei Cazacu, 'Trojets et intrigues scrbes a la cour dc Soliman', Gilles Veinstein (cd.), Soliman le Magnifique et son temps, 1992, 512; Babingcr, 147. Another pair of brothers, one Muslim, one Orthodox, were the sons of the first Duke of Herzegovina. One succeeded his father in the duchy; another went to Constantinople, became Grand Vizier under the name Ahmad Pasha Hcrsekzade and married the Sultan's daughter.

(26) Michel Lesure, 'Notcs et documents sur les relations veneto-ottomanes', Tunica, VIII, ii9n.; Geoffrey Goodwin, A History of Otoman Architecture, 1992 edn., 2713-; Runciman, Great Church, 204; J. A. Cuddon, The Companion Guide to Jugoslavia, 1986 edn., 323. The bridge is the subject of Ivo Andric's famous novel, The Bridgs at the Drina. Sokollu Mehmed Pasha also commissioned buildings in Thrace, northern Greece, Anatolia and Medina.

(27) Carlier de Pinon, Voyage en Orient, 1920,111,123; Esther Juhacz (ed.), Sephardijews in the Ottoman Empire, Jerusalem, 1990, 122; Albert Galantc, Histoire desjuifs if Istanbul, Istanbul, 2 vols., 1941,112 ,1 ,2-127 ,122 ,115.

(28) Nicolas dc Nicolay, Dans /'Empire de Soliman le Magnifique, 1989, 234, 236; Edmondo dc Amicis, Constantinople, 1894 edn., 15 56-.

(29) Babinger, 424.

(30) Raby, 231; Necipogju, 12, 137.

(31) Babinger, 4723-; A. Navarian, Les Sultanspoetes (145119 ,1936 ,(1809-.

(32) Annemarie Schimmel, Calligraphy and Islamic Culture, New York, 1984, 73; E. J. W. Gibb, A History of Ottoman Poetry, 6 vols., 19009-, III, 109, 121.

(33) Babinger, 505, 508.

(34) Babinger, 43 2.

(35) H. Inaicik, 'Policy of Mehmed II', 244; Babingcr, 272; Ashiqpashazade in Khoja Sa'd-ud-din, The Capture of Constantinople, tr. E. J. W. Gibb, Glasgow, 1879, 29J Stephane Yerasimos, La Fondation de Constantinople et de Sainte-Sophie dans Us traditions turques, 1990, 34, 85,244.

(36) Konstantin Mihailovic, Memoirs of a Janissary, Ann Arbor, 197 5, 13; Tursun Beg, 33.

(37) Nicolas lorga, Byzance aprcs Byzance, 1992 edn., 5660 ,8-.

(38) C. J. G. Turner, 'The Career of George-Gcnnadius Scholarius', Byzantion, XXXIX, 1969, 445; Vacalopoulos, Greek Nation, 121; Magoulias, 202, 208.

(39) Donald M. Nicol, The Immortal Emperor, 1992, 98109 ,105 ,102-; Hasluck, II, 7212-; de Amicis, 186.

(40) Robert Schwoebel, The Shadow of the Crescent the Renaissance Image of the Turk (14521517-), Nicuwkoop, 1967,153, 161- 5.

(41) Mihailovic, 145; Babinger, 317.

(42) Jones, 134, letter of 23 June 1453; Babinger, 291- 2,

الفصل الثاني

مدينة الله

(1) Halil Inaicik, ‹Istanbul: an Islamic City›, Journal of Islamic Studies, I, 1990, 2; Khoja Sa'd-ud-din, 16, 33.

(2) Andres Tietze (ed.), Mustafa Ali's Counsel for Sultans of 1581, 2 vols., Vienna, 1979 - 82, I, 56; Halil Inaicik, The Middle East and the Balkans under the Ottoman Empire, Bloomington, 1993, 28; Sir Hamilton A. R. Gibb, 'Lutfi Pasa on the Ottoman Caliphate', 287- 95.

(3) M. A. Cook (cd.), A History of the Ottoman Empire to 1730, Cambridge, 1976, 40; Ycrasimos, Fondation, 172 - 3; El-Tangrouti, Relation fune ambassade marocaine en Turquie, ed. Henry de Castries, 1929, 56 - 7.

(4) Metin And, Istanbul in the Sixteenth Century, Istanbul, 1994, 90; Encyclopedia of Islam, 2nd edn. (henceforward referred to as El 2), art. 'Istanbul' by Halil Inaicik.

(5) Raby, 268; Yerasimos, Fondation, 147; Babinger, plate Xa; Evliya Celebi, Narrative of Travels in Europe, Asia and Africa in the Seventeenth Century, 2 vols., 1834-50, 1, 71.

(6) El-Tangrouti, 64.

(7) Roy Porter, London: a Social History, 1994, 13; A. H. Wratislaw (ed.), Adventures of Baron Wenceslas Wratislaw, 1862, 32.

(8) E. J. W. Gibb, Ottoman Poetry, II, 396; Goodwin, Ottoman Architecture, 12131-; Theodore Spandouyn Cantacasin, Petit Traictede foriginedesturcqz ed. Charles Schefer, 1896, 207; Inaicik, 'Islamic City', 10; Robert Mantran, La Vie quotidienne a Istanbulau siecle de Soliman leMagnifique, 1990 edn., 158.

(9) Lybyer,42,quotingLorenzoBernardo;HenryO.Dwight,Constantinopleandits Problems, 1901, 79; Gibb, Ottoman Poetry, III, 133 - 51.

(10) R. C. Repp, The Mufti of Istanbul, 1986, 144, 19 5; Thomas Naff and Roger Owen, Studies in Eighteenth-cerrtury Islamic History, Carbonsville, 1977, 19; Abdulkadir Altuna, Osmanli Seyhulislamlari, Ankara, 1972, passim. A Durrizade was Mufti of Istanbul in 1734-6, 1756-7, 1762-7, 1783-5, 1785-6, 1792-8, 1808-10, 1812-15 and 1920.

(11) Faruk Suncr, 'Yavuz Selim s'est-il proclame Calife?', Turrica, 1991, XXI-XXIII, 34354-.

(12) Suraiya Faroqhi, Pilgrims and Sultans: the Hajj under the Ottomans, 1994, 147, 150.

(13) Goodwin, Ottoman Architecture, 15,199203-; Aptullah Kuran, Sinan the Grand Old Man of Ottoman Architecture, Istanbul, 1987, 29; Evliya Celebi, I, 174.

(14) M. Piton de Tournefort, A Voyage into the Levant Perform'd by Command of the Late French King, 2 vols., 1718, II, 59; I. Mouradgea d'Ohsson, Tableau general dt l'Empire Ottoman, 3 vols., 17871820-, I, 287; Charles White, Three Years in Constantinople, 3 vols., 1845, I, 26.

(15) Yerasimos, Fondation, 2312-.

(16) Howard Crane, The Ottoman Sultan's Mosques: Icons of Imperial Legitimacy', in Irene A. Bierman et al. (eds.), The Ottoman City and its Parts, New Rochelle, 1991 edn., 201, 203.

(17) Robert Mantran, Istanbul dans la seconde moitie du XVlle siecle, 1962, 110.

(18) Mantran, Vie quotidienne, 203; de Amicis, 1819-.

(19) Lucy M. J. Garnett, The Dervishes of Turkey, 1990 edn., 73 - 4; Raymond F. Lifchez (ed.), The Dervish Lodge: Architecture, Art andSufism in Ottoman Turkey, Berkeley, 1992, 297 - 301.

(20) Garnett, Dervishes, 126.

(21) Metin And, A Pictorial History of Turkish Dancing, Ankara, 1976, 40; Lifchez, 100; Garnett, Dervishes, 93,119,131.

(22) John Kingsley Birge, The Bektashi Order of Dervishes, 1965, 128; Lifchez, s, 170-1, 191; Istanbul Ansiklopedisi, art. 'Halvetilik'.

(23) Dr Mcryon, Travels of Lady Hester Stanhope, 3 vols., 1846, I, 51; Mouradget d'Ohsson, I, 193; Eviiya Celebi, I, 132; Adnan Adivar, La Science cbez fa Turcs Ottomans, 1938, 33.

(24) Mouradgea d'Ohsson, II, 82 - 7; White, I, 230 - 5; Pierre Ponafidine, Life in the Muslim East, 1911,281.

(25) Faroqhi, Pilgrims and Sultans, 42, 57; Onnik Jamgocyan, Les Finances de FEmpin Ottoman et Us financiers de Constantinople, these d'eiat, Paris, I, 1988,41.

(26) Barnette Miller, Beyond the Sublime Porte, 1931, 80, 82; Necipoglu, 151.

(27) Philippe du Fresne Canayc, Le Voyage du Levant, 1986, 2219-; Mouradgea d'Ohsson, 1,205; Thomas Watkins, Tour through Swisserland... to Constantinople, 2 vols., 1792, II, 227. In 1828 Charles MacFarlane was impressed by the crowd 'still as death', watching the Sultan's procession: id., Constantinople in 1828, 2 vols., 1829,1, 499.

(28) White, I, 229.

(29) El-Tangrouti, 63; Mouradgea d'Ohsson, I, 305.

(30) Stanford J. Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, 2 vols., 19768-, I, 144; Elizabeth Eisenstein, The Printing Revolution in Early Modern Europe, Cambridge, 1993, passim; Fatma Muge Gocek, East Encounters West: France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century, New York, 1987, 11213-.

(31) Yasin Hamid Safadi, Islamic Calligraphy, 1987 edn., 29 - 31; Schimmel, 71 - 2; Lifchez, 242; Bernard Lewis, The Muslim Discovery of Europe, 1982, 232.

(32) The Turkish Legacy, exhib. cat., Bodleian Library, Oxford, 1988, 26; Runciman, Great Church, 273 - 4.

(33) Marios Philippides (ed. and tr.), The Fall of the Byzantine Empire: a Chronicle by George Sphrantzes, Amherst, 1980, 123, 131 (chronicle of Makarios Melissenos); Mme B. de Khitrovo, Itineraires russes en Orient, Geneva, 1889, 226; Jones, 108.

(34) de La Motraye, Voyages . . . en Europe, Asie ctAfriquc, La Haye, 2 vols., 1727, I, 203.

(35) Hammer, IV, 3645-; Jean-Michel Cantacuzene, Mille Ans dans les Balkans, 1992, 107.

(36) Revd R. Walsh, A Residence at Constantinople, 2 vols., 1836, II, 386-8; cf. A. Goodrich-Freer, Things Seen in Constantinople, 1926, 112; Khitrovo, 269; Runciman, Great Church, 201 - 2.

(37) John Covel, diary entry for 8 November 1674, in J. Theodore Bent (ed.), Early Voyages and Travels in the Ijevant, 1893, 146 - 8; M. Grelot, Relation nouvelle d'un voyage de Constantinople, 1681, 207; Vacalopoulos, Greek Nation, 121, 124.

(38) La Motraye, II, 364; Runciman, Great Church, 324.

(39) Runciman, Great Church, 331; Vacalopoulos, Greek Nation, 176.

(40) Macarius, Patriarch of Antioch, Travels, 1936,3, 85; Hammer, XII, 17.

(41) Runciman, Fall, 189, 201; id., Great Church, 184, 190; Mantran, Istanbul, 48.

(42) Julia Pardoe, The City of the Sultans, 2 vols., 18 37,1,443; Runciman, GreatChurch, 189; A. Paliouras (ed.), The Oecumenical Patriarchate, Athens, 1989,6 5; Pars Tuglaci, Armenian Churches of Istanbul, Istanbul, 1991,77,121.

(43) Wratislaw, 8496-.

(44) Antoine Gailand, Journals, 2 vols., 1881, I, 220, entry for 3 October 1672; cf. Grelot, 2823-; Nikolaos Adjemoglou, The Ayazmata of the City, Athens, 1990 (in Greek), 1681-17, 16-7.

(45) Adjemoglou, 645-; Walsh, II, 388; Henry Carnoy and Jean Nicolaides, Folklore de Constantinople, 2 vols., 1894,1,65 - 7.

(46) Necipoglu, 231; Lifchez, 193,133 - 4.

(47) Mouradgea d'Ohsson, I, 286. The antiquarian Richard Pococke 'entered publicly at such of the mosques as I desired to see, and sometimes even on Fridays': Richard Pococke, A Description of the East and some other Countries, 2 vols., 1745, II, part 2, 13 3; Carnoy and Nicolaides, I, 17 2.

(48) Tulay Artan, 'Architecture as a Theatre of Life: Profile of the Eighteenth-century Bosphorus', unpublished Ph.D. thesis, Massachusetts Institute of Technology, 1989, 159; M. A. Ubicini, Letters on Turkey, 2 vols., 1856, II, 3 59.

الفصل الثالث

القصر

(1) Necipoglu, 242, 44; Shaw, History, I, 130.

(2) Necipoglu, 15; Babinger, 418.

(3) Necipoglu, 19.

(4) Serif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought, Princeton, 1962, 110; Necipoglu, 85, 107.

(5) Mustafa Naima, A nnals of the Turkish Empire, 1842, I, 327; Bernard Lewis, Islam in History, 1973, 211.

(6) Babinger, 461.

(7) B. Miller, Sublime Porte, 163; Leslie Peirce, The Imperial Harem: Wo wen and Sovereignty in the Ottoman Empire, Oxford, 1993, 243.

(8) R. B. Merriman, Suleyman the Magnificent, Harvard, 1944, 33.

(9) Necipoglu, 36; Kemal H. Karpat (ed.), The Ottoman State and its Place in World History, Leiden, 1974, j i; Veinstein, Soliman leMagnifique, 166, 169.

(10) B. Miller, Sublime Porte, 176; Necipoglu, 100; J. M. Rogers (ed.), The Topkapi Saray Museum: Costumes, Embroideries and Other Textiles, 1986, 161.

(11) Mary Nisbet of Dirleton, Countess of Elgin, Letters, 1926, 56, to her mother 27 November 1799; El-Tangrouti, 46, 58; H. F. Brown, I, 20.

(12) Lorrd Charlemont, Travels in Greece and Turkey 1749, ed. W. B. Stanford and E. J. Finopoulos, 1984, 168; El-Tangrouti, 61; C. G. and A. W. Fisher, 'Alberto Bobovi's Account of Topkapi Sarayi' (henceforward referred to as Bobovi), in Archivum Ottomanicum, XI, 1985, 23, 80;

Alexandru Dutu and Paul Cernovodeaunu (eds.), Dimitrie Cantemir, Historian of South-East European and Oriental Civilisations, Bucharest, 1973 (henceforward referred to as Cantemir), 171; Necipoglu, 26.

(13) Necipoglu, 249, 616-; Nils Rolamb, 'A Relation of a Journey to Constantinople', in A. C. Churchill (ed.), A Collection of Voyages, 5 vols., 1732, V, 683.

(14) Bobovi, 5 5.

(15) Esin Aril, Turkish Art, 1980, 349; Rogers, Topkapi: Costumes, 160.

(16) Rogers, Topkapi: Costumes, n, 37 and passim; Aril, Turkish Art, 35o;J. M. Rogers and R. Ward, Suleyman the Magnificent, 1988,166; Babinger, 441.

(17) Rogers, Topkapi: Costume, 21; J. B. Tavernier, Nouvelle Relation de l'interieurdu Serail du Grand Seigneur, 1675,112; Norman Itzkowitz and Max Mote, Mubadele: an Ottoman Russian Exchange of Ambassadors, Chicago, 1970, 167.

(18) Mouradgea d'Ohsson, II, 142.

(19) Necipoglu, 68; Domcnico Sesrini, Lettns... petulant le nun de ses voyages en Itatit, en SiciHeeten Turquie, 3 vols., 1789, III, 474, letter of 5 December 1778.

(20) Esin Aril, The Age of Sultan Suleyman the Magnificent, New York, 1987, 62, 113; B. Miller, Sublime Porte, 21521-.

(21) J. M. Rogers, The Topkapi Saray Museum: The Treasury, 1987, 40 and illustrations passim.

(22) Halil Inalcik and Cemal Kafadar (cds.), Suleyman the Second and His Time, Istanbul, 1993, 33, 263-4; Rogers and Ward, 120, 123; Nevber Gursu, The Art of Turkish Weaving, Istanbul, 1988, 46; Wratislaw, 58.

(23) Janusz Tazbir, 'Les Influences oricntales en Pologne au XVIe-XVIIIe siѐles', in La Pologne au XVe Congres International des Sciences Historiques a Bucarest, Warsaw, 1980, 214.1 am grateful for this reference to Andre Nieuwaszny.

(24) Atil &, Age of Sultan Suleyman, 31; Rogers and Ward, 187; Gursu, 167; Nurhan Atasoy and Julian Raby, Iznik the Pottery of Ottoman Turkey, 1989, 76-7; Aril, Turkish Art, 283.

(25) Rogers and Ward, 186; Atasoy and Raby, 14-15, 23; Aril, Turkish Art, 163-5, 198, 216; Gursu, 112-13.

(26) Aysegul Nadir (ed.), Imperial Ottoman Fermans, 1986, passim; Rogers and Ward, 56.

(27) Raby, 299; Bobovi, 25, 78.

(28) Vers FOrient, exhib. cat., Bibliotheque Nationalc, 1983, 68; Bobovi, 29-54 ,30; Barnette Miller, The Palace School of Mohammed the Conqueror, Cambridge, Mass., 1941, 7. The Mutefcrrik, another unit in the palace, were artists and nobles 'of all nations and all religions'.

(29) Necipoglu, in-16, 149; Bobovi, 37, 49.

(30) Carter V. Findlay, Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire: the Sublime Porte17891922-, Princeton, 1980, 37; White, I, 183; Fanny Davis, The Ottoman Ldady: a Social History from 1718 to 1918, New York, 1986, 193.

(31) Bobovi, 45; Carl Max Kortepeter, The Ottoman Turks: from Nomad Kingdom to World Empire, Istanbul, 1991, 133; Hammer, VII, 227; Gerald de Gaury, Rulers of Mecca,1951, 129, 155, 161.

(32) Celik Gulersoy, The Caique, Istanbul, 1991, passim; Major-General Sir Grenville Temple, Travels in Greece and Turkey, 2 vols., 1836, II, 18; Bobovi, 56, 61; John Sanderson, Travels in the Levant 1584-1602,1931, 89.

(33) Hammer, V, 138-45.

(34) Evliya Celebi, II, 130, 147; Hammer, VII, 148-63; Jean Palerne, Peregrinations, Lyons, 1606,459; Peirce, Imperial Harem, 193.

(35) Hammer, VII, 150-1; Pars Tuglaci, The Ottoman Palace Women, Istanbul, 1985, 333-5.

(36) Tuglaci, Palace Women, 34850-; cf. Sesrini, III, 4439- for a description of a princess's wedding procession on 17 November 1778; F. Davis, 68.

(37) Aril, Turkish Art, 186-7, 220-1; Tuglaci, Palace Women, 336.

(38) Tuglaci, Palace Women, 341-3; Hammer, XVI, 36; Hans Christian Andersen, a Poet's Bazaar, New York, 1988,120.

(39) Tommaso Bertele, Il palaigp degli amhasciatori di Veneqa a Constantinopoti e le sue antiche memorie, Bologna, I932-X, 108; du Fresne Canaye, 60; At the Sublime Porte, exhib. cat, Hazlitt, Goodcn and Fox, 1988, 15.

(40) Evliya Celebi, I, 12, 101, 103, 131; Albeit Vandal, Les Voyages au Marquis de Nointel, 1900, 62-3, despatch of 9 May 1671; C. Snouck Hurgronjc, Mekka in the latter part of the Nineteenth Century, Leiden-London, 1931, 244n.

الفصل الرابع

الحريم والحمّامات

(1) Tuglaci, Palace Women, 155; F. Davis, 102.

(2) Peirce, Imperial Harem, 40-4, 277.

(3) Leslie Pcircc, The Imperial Harem: Gender and Power in the Ottoman Empire 1520-1657', Princeton, 1988 (henceforward referred to as 'Gender and Power'), 98, 100-3.

(4) Necipoglu, 163.

(5) Gibb, III, 9; Talat Halman, Suleyman the Magnificent, Poet, Istanbul, 1989, passim, Veinstein, Soliman, 99.

(6) M. Cagatay Ulucay, Sultanlarina Ask Mektuplari, Istanbul, 1950, 1-18 passim; Peirce, Imperial Harem, 64.

(7) Peirce, Imperial Harem, 60-4.

(8) Babinger, 66, 40 - 4, 5; A. D. Alderson, The Structure of the Ottoman Dynasty, 1956, 26.

(9) Sherrard, 54; Rogers and Ward, 9; Merriman, 76-7.

(10) Merriman, 121, 122.

(11) ragadin, 1526, quoted in Lybyer, 53n.; Ulucay, 39-40; Geuffroy, quoted in Schefer (ed.), 24on.

(12) Halil Inalcik, 'Sultan Suleyman the Man and the Statesman', in Veinstein, Soliman, 92-6.

(13) Merriman, 185; Necipoglu, 257.

(14) Peirce, 'Gender and Power', 157; Merriman, 187.

(15) Ogier Ghislain de Busbecq, Turkish letters, Oxford, 1927, 33; Gibb, III, 119, 131; Ulucay, 47.

(16) Peirce, 'Gender and Power', 207; Benjamin Arbel, 'A Venetian Sultana?', Turcia XXIV, 1992, 241-59.

(17) Necipoglu, 95-6,171-2.

(18) Hammer, VII, 10, 283; Bobovi, 73; James C. Davis (cd. and tr.), The Pursuit of Power. Venetian Reports on Spain, Turkey, France in the Age of Philip II, 1970, 2-6.

(19) J. M. Rogers (ed.), The Topkapi Saray Museum. Architecture: the Harem and Other Buildings, 1988, 27, 32, 34.

(20) Peirce, 'Gender and Power', 180; Susan Skilliter, The Letters of the Venetian 'Sultana' Nur Banu and her Kira to Venice', in Studia Turcologca ... Alexis Bombacci, 515-27; Necipoglu, 175; Kuran, 181.

(21) Peirce, 'Gender and Power', 351; Tavernier, 257-62.

(22) Necipoglu, 175.

(23) Mehmcd Ipsirli, 'Mustafa Selaniki and His History', Tarih Enstitusu Dergisi, IX, 1978, 437; Tietze,I,6o.

(24) J. C. Davis, 147-9; Peirce, 'Gender and Power', 186; Spandugino in Lybyer, 144; Hammer, VII, 4.

(25) Peirce, 'Gender and Power', 374, 380, 382.

(26) White, I, 266; Bobovi, 26; Molly Mackenzie, Turkish Athens, 1992, 30-2, Nadir, 113.

(27) Tuglaci, Palatt Women, 84.

(28) Mantran, Vite quotidienne, 81; Evliya Celcbi, II, 11; White, III, 234.

(29) Bobovi, 23.

(30) Tuglaci, Palace Women, 156-9.

(31) B. Miller, Sublime Pork, 26, 27; Chris Hellicr and Franco Venturi, Splendours of tbe Bospborus: Houses and Palaces of Istanbul, 199 3, 215.

(32) Peirce, Imperial Harem, 104-5, 244-5.

(33) Peirce, Imperial Harem, 26970-; Hammer, X, 7, 72-5.

(34) Hammer, X, 176-8.

(35) Peirce, 'Gender and Power', 291, 112, 194-5; Charles Pertusier, Promenadespit-toresques dans Constantinople et sur le Bospbore, 3 vols., 1815, II, 197.

(36) Peirce, 'Gender and Power', 220, 257, 243, 279.

(37) Peirce, 'Gender and Power', 273, 280, 286, 337n.; Robert Dankoff (ed.), The Intimate Life of an Ottoman Statesman, Albany, 1991, 27.

(38) Pars Tuglaci, Women of Istanbul in Ottoman Times, Istanbul, 1984,189-208; Robert Mantran, Istanbul dans la seconde moitie du XVIIe siecle, 1962, 504.

(39) F. Davis, 132-3.

(40) Sevgi Gonul (ed.), The Sadberk HanimMuseum, Istanbul, 1988,172, 176; F. Davis, 69-76; James E. P. Boulden, An American among the Orientals, Philadelphia, 1855, 165-9.

(41) Ian C. Dengler, Turkish Women in the Ottoman Empire', in Nikki Keddie and Lois Beck (eds.), Women in the Muslin World, 1978, 235-8; Hammer, XI, 435 n.

(42) MacFarlane, Constantinople, II, 521.

(43) Tulay Artan, The Palaces of the Sultanas', Istanbul: Selections, I, i, Istanbul, 1993, 87-97; Mouradgca d'Ohsson, III, 315; White, I, 325. Until 1914 one reason for officials' reluctance to leave Istanbul was 'the great reluctance of our women to endure the hardships of the deprivations of provincial life': Marmaduke Pickthall, With the Turk in Wartime, 1914, 21 o.

(44) Hammer, XVI, 20; Dankoff, 226, 233, 234, 259.

(45) Bobovi, 70; Tijcn Ozdoganci, The Ballad of Adile Sultan', in Istanbul: the Guide, May 1993,5 5. On the death of Mustafa Reshid Pasha in 1858, his wife learnt for the first time that he had two other harems, each containing two young Circassian slave girls: L. Thouvenel, Trois Annees de la Question Orient, 1897, 223, Comte de Thouvenel to Comte Walewski, 19 January 1858.

(46) Cemal Kafadar, 'Women in Seljuk and Ottoman Society up to the Mid-nine teenth Century', in Women in Anatolia: Nine Thousand Years of the Anatolian Woman, exhib. cat., Istanbul, 1993, 196-7; F. Davis, 92.

(47) Quoted in Alev Lyle Croutier, Harem: the World behind the Veil, New York, 1989, 154-5.

(48) Peirce, Imperial Harem, 269; Kafadar, in Nine Thousand Years oftbe Anatolian Woman, 198,204; Pertusier, II, 197; Leila Hanoum, Le Harem imperialet Us sultanes auXIXe siecle, Brussels, 1991 edn., 29; Don Juan, V, 158.

(49) Marquis de Ferriol, Correspondence, Antwerp, 1870, 267. Ferriol, the French ambassador, wrote on 16 February 1708 to M. Blondel dejouvancourt, of' 'les femmes de Constantinople qui me pretaient de Pargcnt'; Kafadar, 'Women in Seljuk and Ottoman Times', in Nine Thousand Years of tbe Anatolian Woman, exhib. cat., 219-20.

(50) Ulku U. Bates, 'Women as Patrons of Architecture in Turkey', in Keddie and Beck (eds.), 146-7.

(51) Peirce, Imperial Harem, 209; John Freely, Stamboul Sketches, Istanbul, 1974, 110.

(52) Fleischer, 53; Journal of Ottoman Studies, VII, Istanbul, 1988, 140; Louis Mitler, Ottoman Turkish Writers, Washington, 1988, 55, 81; F. Davis, 229-31; Schimmel, 47.

(53) De Amicis, 221; Leila Hanoum, 150.

(54) Pauline Johnstonc, Turkish Embroidery, 1985, 9, 84; White, II, 104; Lady Mary Wordey Montagu, Tbe Turkish Embassy Letters, ed. Malcolm Jack, 1994,116, letter of 10 March 1718.

(55) Galland, II, 59, diary entry for 20 April 1673; cf. Comte de Guilleragues, Correspondance, 2 vols., Geneva, 1976, II, 975, memoire sur le commerce du Levant 9 June 1684; Juhacz (ed.), 72-3, 80, 100.

(56) Dorothy M. Vaughan, Europe and the Turk: a Pattern of Alliances, Liverpool, 1951, 132; Michel Carmona, Marie de Medicis, 1981, 126; National Palaces, Istanbul, 1992, 138.

الفصل الخامس

مدينة الله

(1) Mantran, Istanbul, 25, 74; Grenville Temple, II, 14, 16-17; Pierre Gilles, The Antiquities of Constantinople, New York, 1988, 23-5.

(2) Andersen, 99; Mantran, Istanbul, 72, 95.

(3) M. A. Belin, Histoirt dc la Latinite de Constantinople, 2nd edn., 1894, 337, 341; M. du Mont, Voyages, 4 vols, La Haye, 1699, II, 374.

(4) Necipoglu, 238; Vaughan, 169; Sestini, III, 230-8, letter of 8 May 1778.

(5) Mantran, Istanbul, 88n., 481, 488, 583; Vacalopoulos, Greek Nation, 284-5.

(6) Levy, Sephardim, 24; Halil Inalcik and Donald Quataert, An Economic and Social History of the Ottoman Empire, 1994, 95, 2 31, 248.

(7) Richards, 163, 167, Giovanni Maringhi to Nicolo Michelozzi, 29 March 1502; 'il carico principale di un bailo di Constantinopoli e la difensione delle mercanze della nazione', Navagero, 1553, quoted in Horatio F. Brown, Studies in the History of Venice, 2 vols., 1907, 1, 25; Paul Masson, Histoin du commerce francais dans le Levant au XVIIle siecle, 1911, 612; Susan Skilliter, William Harborne and tbe Trade with Turkey 117-8 -1582, Oxford, 1977, 50, cf. 115; Alfred C. Wood, A History of tbe Levant Company, 1935,72.

(8) Masson, 429, 454; Braudel, Civilisation and Capitalism, II, 471.

(9) Mantran, Istanbul, 237, 241, 608.

(10) M. de Thévenot, Travels into tbe Levant, 5 parts, 1687,1,18,62; Lord Charlcmont, Travels in Greece and Turkey 1749, cd. W. B. Stanford and E. J. Finopoulos, 1984, 209; cf. The police of this city is in many respects beyond that of any other', Lord Baltimore, A Tour to the East in the Years 1763 and 1764, 1767, 58.

(11) Anon., Letters Historical and Critical, 30, 38; Mantran, Vie quotidienne, 43.

(12) Hon. Roger North, Lives of the Norths, 3 vols., 1890, II, 48,5 3, 71-2,148; Cemal Kafadar, 'Self and Others: the Diary of a Dervish in Seventeenth-century Istanbul and First Person Narrative in Ottoman Literature', Studia hlamica, LXIX, 1989, 12150-; Masson, Commerce francais au XVII siecle, 468.

(13) North, II, 407, III, 5 8; cf. Naima, 1,138 and Pertusier, II, 108 for other accounts of social relations between Christians and Muslims.

(14) Daniel Panzac, 'International and Domestic Maritime Trade in the Ottoman Empire during the Eighteenth Century', International Journal of Middle Eastern Studies, May 1992, 195-201.

(15) Hammer, VI, 241; Charles Issawi, An Economic History of Turkey 1800-27 ,1980 ,1914; Mantran, Vtt quotidienne, 127; Francis Peter Werry, Personal Memoirs and Letters,1861, 90.

(16) Mantran, Istanbul, 190, 1989,446-n.; dc Amicis, 71.

(17) Anthony Greenwood, 'Istanbul's Meat Provisioning: a Study of the Celepkesjan System', unpublished D.Phil, thesis, Chicago, 1981, 4-5, 9; Naima, I, 37.

(18) Greenwood, 13-14, 285, 122; Suraiya Faroqhi, Towns and Townsmen of Ottoman Anatolia, Cambridge, 1984, 228, 231; Thevenot, I, 61.

(19) Daniel Goffman, Izmir and the Levantine World ijjo-itro, 1990, 34; B. Miller, Sublime Porte; 1945-; N. M. Penzer, The Harem, 1966 edn., 115, 128, 13o.

(20) Greenwood, 156, 162; Mantran, Istanbul, 1812-; Baltimore, 59.

(21) Mantran, Istanbul, 351, 353, 380, 390.

(22) Babinger, 452.

(23) Jean Michel Cantacuzene, Mille Ans dans les Balkans, 1992, 102, 105, 121, 1256-; Emile Lcgrand, Recueildepoemes historiques en grec vulgaire, 1877, 29-8 ,3-.

(24) Vacalopoulos, Greek Nation, 209, 259, 285; Troian Stoianovic, The Conquering Balkan Orthodox Merchant', Journal of Economic History, 1960, 272, 302.

(25) Greenwood, 54; Mantran, Istanbul, 366, 374; id., Vie quotidienne, 154.

(26) Nicolas Soutzo, Memoires, Vienna, 1896, 10, 24; Rodrigue, 21, 23, 37; Braude and Lewis, I, 105.

(27) Richard Fletcher, Moorish Spain, 1992, 166-8; Halil Inalcik, 'Ottoman Galata', in Bdhem Eldem (ed.), Recherches sur la ville ottomane, Istanbul, 1991, 68-70.

(28) Levant Herald, 19 October 1869; Galante, Histoire des juifs, I, 33.

(29) Jak Deleon, Ancient Districts on the Golden Horn, Istanbul, 1992, 18 and passim; Shaw, Jews, 48-9.

(30) Shaw, jews, 84-5; Nicolay, 23 - 34.

(31) Cecil Roth, Dona Gracia Nast, Paris, 1990, 96, 115, 143; Epstein, 923-; Maria Pia Pedani, In nome del Gran Stgnore: inviati ottomani allencia dalla caduta di Constantinopoli allaguerra di Candia, Venice, 1994, 154.

(32) Cecil Roth, The House of Nasi: the Duke of Naxos, Philadephia, 5708170 ,9-8 ,1948/; Nicolas lorga, Byzance apres Byzance, 1992 edn., 50.

(33) Roth, Duke of Naxos, 41, 43, 46, 9 5.

(34) Galante, Histoire des juifs, I, 188, Suleyman to Charles DC 23 March 1565; Roth, House of Nasi, 58, 60; M. de Charnere, Negociations de la France dans le Levant, 4 vols., 1848-60, III, 61, despatch of 14 March 15 69.

(35) Roth, Duke of Naxos, 50, 152; Michel Lesure, 'Notes ct documents sur les relations veneto-ottomanes 15701573-: IF, Turcica, 1972, IV, 148; Tunica, 1976, VIII, I, 138.

(36) Roth, Duke of Naxos, 108, 115,137, 143.

(37) Abraham Galante, Appetdice a fbistoire desjuifs d'Istanbul, Istanbul, 1941, 1636-; Mantran, Istanbul, 60 5, 61.

(38) Levy, Sepbardim in the Ottoman Empire, 91.

(39) Onnik Jamgocyan, 'Les Finances de Empire Ottoman et les financiers de Constantinople', unpublished Ph.D. thesis, Paris, I, 1988, 15; H. D. Barsoumian, The Armenian Amira Class of Constantinople', unpublished Ph.D. thesis, Columbia, 1980, 87; Walsh, II, 430.

(40) Barsoumian, 64, 79, 81.

(41) Onnik Jamgocyan, Une FamiUe de financiers armeniens au XVIHe siecle: les Serpos, Paris, n.d., 368, 371.

(42) Barsoumian, 160-2; Zabel Essayan, Lesjardins de Silihdar, 1994, 1214-.

(43) Mantran, Istanbul, 463-4; Cclik Gulersoy, The Story of the Grand Bazaar, Istanbul, 1990, 21, 55, 56.

(44) Halil Inalcik, The Hub of the City: the Bedestan of Istanbul', Studies in Ottoman Social and Economic History, 1985, IX, passim, Gulersoy, Grand Bazaar, 29, 37; du Fresne Canaye, 95.

(45) Pertusier, II, 177; Gulersoy, Grand Bazaar, 32, 50, 5 5, 70.

(46) Hafez Farmayan and Elton L. Daniel (eds.), A Shiite Pilgrimage to Mecca 18813-142 ,1990 ,6-; Stcphane Lauzannc, Au chevet de la Turquie, 1913, 2267-; Istanbul Ansiklopedisi, Istanbul, 19945-, art. 'Buyuk Valide Han'.

(47) North, II, 176; Mantran, Istanbul, 5067-; id., Vie quotidienne, 143; du Fresne Canaye, 946-; Jean Chesneau, Le Voyage de Monsieur d'Aramon ...en Levant, 1887, 34; Cantemir, 52.

(48) Leila Hanoum, 54, 56, 58; Lady Hornby, Constantinople during the Crimean War, 1863, 364, letter of July 1860. In a list of 42 prominent slave dealers in the early 1880s, 14 were woman: Ehud R. Tbledano, The Ottoman Slave Trade and its Suppression 18401890-, Princeton, 1982, 59.

(49) Gulersoy, Grand Bazaar, 41; Inalcik, Studies, VII, 26, 47.

الفصل السادس

الوزراء والترجمانات

(1) Hammer, VIII, 289, 301, 305n., 310-11; Michael Strachan, Sir Thomas Roe, 1989, 145-8; Pierce, Imperial Harem, 171.

(2) Paul Rycaut, The Present State of the Ottoman Empire, 167 5, 46; Inalcik and Kafadar, 103.

(3) Mantran, Istanbul, 102, 293, 303, 307, 321.

(4) Findlay, Bureaucratic Reform, 55, 87; id., Ottoman Civil Officialdom, Princeton, 1992, 22; Charlemont, 16870-; Michel Lesure, Lepante: la crise de fEmpire Ottoman, 1972, 1720-; cf. Sir James Porter, an eighteenth-century British ambassador: 'there is no Christian power which can vie with the Porte for care and exactitude in the several offices; business is done with the greatest accuracy, in any important document words are weighed and that signification constantly selected which may most induce to their own advantage - and Papers of the remotest date, if the year of the transaction is but known, may be found at the Porte.'

(5) Artan, 'Architecture', 97n.; id., The Kadirga Palace shrouded by the Mists of Time', Turcica, XXVI, 1994, 801,105-; Rifa'at Ali Abou el-Hajj, The 1703 Rebellion and the Structure of Ottoman Politics, Istanbul, 1984, 14n.; Nicolas Vatin, 'Les Cimetieres mussuimans ottomans: source d'histoire sociale', in Daniel Panzac (ed,), Les Villes dans rEmpire Ottoman: activite et societe, 1991, 157-8; Yilmaz Oztuna, Devletltr ve Hanedanlar, II, Turkiye (10741000-), Ankara, 1990, 834-8; Sir James Porter Turkey, its History and People, z vols., 1854, 1, 317-18.

(6) Mantran, Istanbul, 96, 252-3; Sir Thomas Roe, Negotiations in his Embassy to the Ottoman Porte from the year 1621 to 1628, 1749, 37, 38; Ptirce, 'Gender and Power', 295.

(7) Metin Kunt, The Koprulu Years 1656-1661, unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1971, 32-4, 41, 141, 148.

(8) Dankoff, 204.

(9) Hammer, XI, 49-55; Dankoff, 204. The death of the Armenian Patriarch may have been caused by disputes between pro- and anti-papal factions: Leon Arpee, A History of Armenian Christianity', New York, 1946, 229.

(10) John Covcl, in J. Theodore Bent (ed.), Early Voyages and Travels in the Levant, 1893, 206, diary entry for 27 May 1675; B. Miller, 117; Bobovi, 57; Peirce, 'Gender and Power',. 296n.

(11) B. Miller, 116.

(12) Hammer, XI, 6, 164; Mantran, Istanbul, 374; Madeleine C. Zilfi, The Kadizadeliler Discordant Revivalism in Seventeenth-century Istanbul', Journal of Near Eastern Studies, 45,4,1986, 251-62; Charles A. Frazce, Catholics and Sultans, 1983, 99.

(13) Abbe Toderini, De la Utterature des Tuns, 3 vols., 1789, I, 57; Bobovi, 57; Abdulhak Adnan, La Science chez les Tares Ottomans, 121-3; Covel, 195, diary entry for 19 May 1676.

(14) Levy, Sephardim, 84-6; Gershom Scholem, Sabbatai Sevi: the Mystical Messiah, 1971, 435, 450, 606, 674-9.

(15) Hammer, XI, 260, 366, 379.

(16) Abou el-Hajj, 82; Paul Rycaut, The History of the Turks beginning with the year 1679, 3 vols., 1687, 6th edn., II, 222.

(17) Cantemir, 101, 190; Hammer, VIII, 305n.; Paul Fesch, Constantinople aux derniers jours d'Abdul Hamid, 1907, 282 quoting Vakit, 27 October 1876; cf. Findlay, Ottoman Civil Officialdom, 62 quoting the Kadi of Istanbul at a council in 1784 to the Grand Vizier 'We are obedient and subservient outwardly and inwardly to the wishes and commands of our Sovereign who is Commander of the Faithful. It is impossible to obtain from us an explanation of why things have turned out as they have. You are the absolute delegate of our Sovereign. Deign [to tell us] what is the view of the Sovereign in this matter and we shall say we hear and we obey.'

(18) Hammer, XII, 238-9, 305; Kenneth M. Setton, Venice, Austria and the Turks in the Seventeenth Century, Philadelphia, 1991, 371, 380, Sir William Trumbull to the Earl of Nottingham 6 November 1689, 15 June 1691.

(19) Vahid Cabuk, Koprululer, 1988, 166, 175, 177; Hammer, XII, 307, 319-22; Cantcmir, 102.

(20) Cabuk, 178, 182; Lewis V. Thomas, A Study ofNaima, New York, 1972, 31-2.

(21) Rifa'at Ali Abou el-Hajj, 'Ottoman Attitudes towards Peace-Making: the Karlowitz Case', DerIslam, 1974, 136; Hammer, XIII, 2930-; visit to Koprulu Yalisi with Fcyaz Koprulu, 27 November 1993. Fcyaz Koprulu says the divanhane will be restored. But for scaffolding recently erected, this incomparable room, whose condition is an object-lesson in the disadvantages of communal ownership, would have colkpsed.

(22) Ferriol, 162, Ferriol to Louis XIV, 10 August 1700; A. N. Kurat (ed.) The Despatches of Sir Robert Sutton Ambassador in Constantinople 1710-1714,195 3,17, Sutton to Sunderland, 7 June 1710; Louis Rousseau, Les Relations diplomatique' de la France et de la Turquie a' XVIIIe stick, 1,1908, 298; Cabuk, 195-7; Cantcmir, 193.

(23) C. Bosscha Erdbrink, At the Threshold of Felicity: Ottoman-Dutch Relations during the Embassy of Cornells Calkoen at the Sublime Porte 1726-1744, Ankara, 1975, 171, Calkoen to States-General 11 April 1733; interview with Orhan Koprulu, j November 1991.

(24) Setton, 371, Sir William Trumbull to Earl of Nottingham 6 November 1689; Hammer, XII, 322.

(25) J. H. Elliott, Richelieu and OUvares, 1992 edn., 160.

(26) Nestor Camariano, Alexandre Mavrocordato le Grand Drogman: son activite diplomatique, Thessaloniki, 1970, passim; A. C. Stourdza, L 'Europe orientate et le role historique des Mavrocordato 1660-1830, 1913, 354; Cantemir, 279; Piton dc Tournefort, I, 385-6; Montagu, 126, Lady Mary Wortlcy Montagu to Lady Birstol 10 April 1718. The present author has met an Armenian Lady of advanced age, living near Taksim, who claims to have visited Istanbul proper only three times.

(27) N. M. Vaporis, 'A Study of the Zisking MS No. 22 of the Yale University Library', Greek Orthodox Theological Review, Fall 1967, XII, 3, 13, 27; G. Chassious, L 'Instruction publique che% les Grecs depuis la prise de Constantinople par les Tuns, 18 81, 27.

(28) Hammer, XII, 141; Vaporis, 'A Study', 21; Camariano, 34, 68; SOAS Library MSS., Paget Papers, 50 X/4, letters of 23 February, 2 April 1699; Setton, 406.

(29) Camariano, 78, 102.

(30) E. Miller, 'Alexandre Mavrocordato' Journal des Savants, May 1879, 229, Daubert to Torcy 25 July 1698, 264; Galland, I, 237, 18 November 1672; R. W. Seton Watson, A History of the Roumanians, 1934, 934-n.; Ferriol, 116, Ferriol to Louis XIV 12 May 1700.

(31) Hammer, XI, 425; Vaporis, 'A Study', 37; Camariano, 81, Mavrocordato to Patriarch 29 August 1707; Philip P. Argenti, Chius Vincta, Cambridge, 1941, clxxv.

(32) La Motraye, I, 374; lorga, Byzance, 135, 145; Stourdza, 98; Theodore Blancard, Ies Mavroyenni: histoire d'Orient, 2 vols., 1909,1, 468; Comte d'Hauterive, Memoire sur i'etat ancien et actuel de la Moldavie. .. en 1787, Bucarest, 1902, 339, 346.

(33) Cantemir, 158-64; Soutzo, 26-31; Michel Sturdza, Grandes Families de Grece, d'Albanie et de Constantinople, 1983, 142-3.

(34) Camariano, 85; Cantemir, 144 - 5, 253; A. N. Kurat (ed.), The Despatches of Sir Robert Sutton, Ambassador in Constantinople 1710-1714, 1953, 29, Sutton to Earl of Dartmouth 8 December 1710; Cyril Mango, The Phanariots and the Byzantine Tradition', in Richard Clogg (ed.), The Struggle for Greek Independence, 197 3, 44-5.

(35) William Wilkinson, An Account of the Principalities of Wallacbia and Moldavia, 1820, 135; Marechal Prince de Ligne, Memoires, 5 vols., 1828,1, 211-14, Ligne to Comte de Segur i December 1788; II, 390-2.

(36) Stourdza, 98-9; Baron Eudoxiu de Hurmuzaki (ed.), Document eprivitoare la Istona romanilor, Bucharest, 1912, XVI, 401, letter of 12 December 1716.

(37) C. Mango, The Phanariots and the Byzantine Tradition', in Clogg (ed.), Struggle, 53; Ariadna Camariano-Cioran, Its Academies princieresde Bucarest etdejassy etleurspro-fesseurs, Thessaloniki, 1974, 77; Corneliu Dima Dragan, 'La Bibliophilic des Mavrocordato', in L'Epoquephanariote, Thessaloniki, 1974, 209-16.

(38) G. P. Henderson, The Revival of Greek Thought, Edinburgh, 1971, 23; StouroVa, 134.

(39) Jacques Bouchard, /Nicolas Mavrocordato et l'aube des lumieres', Revue des Etudes du Sud-Est Europtw, XX, 1981, 237-46; id. (ed.), Us Loistn de Athens-Montreal, 1989, 79, 101, 119, 149, 151, 181; Sutton, 203, despatch of 3 September 1714; Cantacuzcnc, 201, 207.

(40) Vasile Dragut, 'Lc Monastere de Vacaresri: expression des relations artistiques romanou-grccques', in L'Epoque pbanariotc, 295-300; Stourdza, 266-70 and figs. 26-33; Sturdza, 320, 328.

(41) N. lorga, Histoire des Roumains et de la Romanite orientate, 9 vois., Bucharest, 1937-44, VII, 20-3; Fragments tires des cbroniques moldaves et valaques, 2 vols., Jassy, 1843, II, 16, chronicle of Nicholas Muste.

(42) Mihaila Staianova, 'Des Relations entre le Patriarcat oecumcnique et la Sublime Porte en Constantinople au courant du XVIIIe siccle', Balkan Studies, XXV, 2,1984, 449-56; Theodore H. Papadopoulos, Studies and Documents relating to the History of the Greek Church and People under Turkish Domination, Brussels, 1952, 52; Madame Ch6nier, Lettressurles danses grecques, 1879 edn., 137, 190-1.

(43) Denis Deletant, 'Romanian Society in the Danubian Principalities in the early Nineteenth Century', in Richard Clogg (ed.), Balkan Society in the Age of Greek Independence, 1981, 238.

(44) lorga, Histoire des Roumains, VII, 9, 154n., 164, 239; Marthe Bibesco, La Nympbe Europe, 1960, 306-7, Villeneuve to Maurepas 15 April 17 31; Stourdza, 201, 210, 217.

(45) Hurmuzaki, XIX, part I, 224, Raicevich to Kaunitz 30 November 1784; Paschalis M. Kitromilides, The Enlightenment as Social Criticism: Miosipis Moisiodax and Greek Culture in the Eighteenth Century, Princeton, 1992, 83, 94; Clogg, Movement, 36, 59-60; Richard Clogg, The Greek Millet in the Ottoman Empire', in Braude and Lewis (eds.), I, 185, and Braude and Lewis, 'Introduction', in ibid., 16-17.

(46) John Cam Hobhouse, A Journey through Albania and other Proinnces of Turkey during the years 1809 and iSio, 1813, 5889-; cf. A. de Juchcreau de Saint Denys, Revolutions de Constantinople en 1807 et 1808, 2 vols., 1819,1,156.

(47) Prince Nicholas Ypsilanti, Memoires, n.d., 72.

الفصل السابع

وثائر المتعة

(1) Tulay Artan, ‹Architecture›, 9; C. R. Cockerell, Travels in Southern Europe and the Levant 1810-1817, 1903, 29.

(2) Musbah Haidar, Arabesque, 1944, 42; Mouradgea d'Ohsson, II, 177; Du Frcsne Canaye, 87; alter G. Andrews, Poetry's Voice, Society's Song. Ottoman Lyric Poetry, Seattle, 1985, 134; Nermin Menemencioglu, The Penguin Book of Turkish Verse, 1978, 92.

(3) Artan, 'Architecture', 320; White, I, 314; Du Mont, II, 114; Z. Duckett Ferriman, Turkey and the Turks, 1911, 300-2.

(4) B. Miller, Sublime Porte, 151-5; Necipoglu, 200.

(5) Thomas Hope, Anastasius or Memoirs of a Greek, 2 vois., 1836 cdn., II, 124; Thomas Allom and Robert Walsh, Constantinople and the Scenery of the Seven Churches of Asia Minor, 2 vols., 1838,1, 25.

(6) Allom and Walsh, 25; Bouldcn, 140-4.

(7) Necipoglu, 202; Arthur Barker, The Cult of the Tulip m Turkey' Journal of the Royal Horticultural Society, LVI, 1931, 234-44; Nurhan Atasoy, 'Les Jardins imperiaux sous le regne de Soliman le Magnifique', in Veinstein (ed.), Soliman, 239-48; Michiel Roding and Hans Theunissen, The Tulip, a Symbol of Two Nations, Utrecht-Istanbul, 1993, 10, 54.

(8) William Wittman, Travels in Turkey, Asia Minor, Syria and across the Desert to Egypt, 1803, 14; Dankoff, 107.

(9) Artan, 'Architecture1, 38, 162-3, 242; Du Mont, II, 113; Hope, I, 53.

(10) Un Jeune Russe, Voyage en Crimee, 1802, 177, 199; Cockerell, 28-9; Montagu, 141, Lady Mary Wortley Montagu to Abbe' Conti i April 1718.

(11) Skilliter, William Harborne, 8 5; Carlicr dc Pinon, 111-12; Bobovi, 30; Ferriman, 325.

(12) Nubar Gulbenkian, Pantaraxia, 1965, 130; Turabi Effendi, Turkish Cookery, repr. Rottingdcan, 1987, passim-, James Dallaway, Constantinople Ancient and Modern, 1798, 149; Ferriman, 326.

(13) Stanley Lane-Poole (ed.), The People of Turkey: Twenty Years Residence among Bulgarians, Greeks, Albanians, Turks and Armenians by a Consul's Daughter and his Wife, 2 vols., 1878, II, 39.

(14) Lewis, Muslim Discovery, 196; Katib Celebi, The Balance of Truth, ed. G. L. Lewis, 51, 58; White, II, 127-34.

(15) IstanbulAnsiklopedesi, art. 'Kahvehaneler'; Allan Ramsay and Francis McCullagh, Tales from Turkey, 1914, xxii, xxviii.

(16) Hammer, XI, 286, 335; Bernard Lewis, Istanbul and the Civilisation of the Ottoman Empire, Norman, Oklahoma, 1963, 132-3.

(17) White, I, 282.'

(18) F, Billacois (ed.), L'Empire du Grand Turc vu par un sujet de Louis XIV, 1965, 96; Walsh, II, 500; Freely, 93; Ramsay and McCullagh, 57-9.

(19) Charlemont, 166-7.

(20) Hammer, XVI, 64-5; Baron de Tort, Memoirs concerning the State of the Turkish Empire and the Crimea, 4 parts, 1786,1, 140; Mouradgea d'Ohsson, II, 121.

(21) Artan, 'Architecture', 207, 410, 411; Gibb, II, 227; Mantran, Istanbul, 106; Mitler, 107.

(22) Hammer, XV, 143.

(23) Talat S. Halman, Suleyman the Magnificent, Poet, Istanbul, 1989, 53-4; Evliya Celebi, I, 134; Hammer, VI, 279, VIII, 323; Menemencioglu, 100; Mittler, 151.

(24) And, Istanbul, 193; Marechal de Moltke, Lettres. . . sur T Orient, 1877 edn., 36-7, letter of 12 February 1836; Gibb, IV, 68; F. Munir Katircioglu, 'Ottoman Culinary Habits', in Feyzi Halici (ed.), First International Food Congress Turkey 1986, Ankara, 1988, 163-5.

(25) Murat Bardakgi, Osmanlida Seks, 1993, 117.

(26) Elias Habcsci, The Present State of the Ottoman Empire, 1784, 388; Tott, I, 163; Melek Hanouim, Thirty Years in the Harem, 1872, 245.

(27) Bardakgi, 13 2; Ulucay, Ask Mektuplari, 203-5, letter of 11 August 1875.

(28) And, Istanbul, 211; Alfred C. Wood, The British Embassy in Constantinople', English Historical Rsview, XL, 1925, 551; Charlemont, 204-6; Habesci, 175, 393. The sexual use of graveyards continued into this century, as readers of Claude Farrere's L'Homme qui assassina will recall.

(29) Necipoglu, 210, 216-17; Alderson, Table XXVII; Kritovoulos, 61; Raymond T. Macnuly and Radu R. Florescu, Dracula, His Life and His Times, 1989, 150; Babinger, 207.

(30) Cariier de Pinon, 119; White, 1, 195; And, Turkish Dancing, 140-1.

(31) Wratislaw, 54 describes Cigala Pasha, originally from the Kingdom of Naples, who faying once tasted Turkish freedom and pleasures proceeded gradually to worse and worse till now he will have nothing to do with Christianity'; Lady Hornby, 394, on 26 June 1856 meets Slade Pasha who 'infinitely prefers the case and freedom of an Eastern life to the rigid conventionalisms of London and Paris'; Valensi, 47; Pedani, 42. However in 1577 the government tried to forbid 'quel vitio della natione turchesca': Hammer, VII, 133n.

(32) Gibb, III, 55, 123; Mencmencioghi, 108-9.

(33) Dankoff, 278; Gibb, IV, 56.

(34) Gibb, IV, 220-42; Bardakgi, 103-32. Sunbulzadc Vchbi, who died in 1809, also alternately praised and criticized, in graphic terms, the sexual advantages of women and boys.

(35) De Amicis, 147; Raphaela Lewis, Everyday Life in the Ottoman Empire, 124-7; Tott, I, 175.

(36) Abou el-Hajj, The 170} Rebellion, 31-3, 86.

(37) Necipoglu, 258; Artan, 'Architecture', 36, 38.

(38) B. Miller, Sublime Porte, 226, 125; Gocek, 77, 79.

(39) Gibb, IV, 30; Menemcncioglu, 113; Mider, 1067-; Epiphanius Wilson, Turkish Literature, 1901, 181-3; Anka: Revue tfart et de litterature de Turquie, VII-VIII, 1989, 44-6.

(40) Levy, Sephardim, 77; Andre Philippides, Hommes et idees du Sud-Est Europeen a faube de rage moderne, 1980, 243, Daniel dc Fonseca to Jean Leclerc 1 March 1724; Montagu, 142, Lady Mary Wortley Montagu to Abbe Conti 19 May 1718.

(41) Turhan Baytop, 'The Tulip in Istanbul during the Ottoman Period', in Roding and Theunissen (eds.), 53, 55.

(42) Artan, 'Architecture', 166; Gocek, 130; B. Miller, Sublime Porte, 125.

(43) Artan, 'Architecture', 166, 201, 360, 414; Arrun and Beyhan Unsal, Istanbul la magnifique: propos de table et recettes, 1991, 77.

(44) E. Wilson, 182; Ligne, I, 214, Ligne to Comte de Segur i December 1788.

(45) Charlemont, 204-5; Bosscha Erdbrink, 138, Calkoen to States-General 22 March 1739.

(46) Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, Montreal, 1964, 37-42; Gocek, 113; Cesar de Saussure, Lettres de Turquie, ed. Coloman de Thaly, Budapest, 1909, 94, letter of 21 February 1732; B. Miller, Sublime Porte 110.

(47) Levy, Sephardim, 90; de Saussure, 94, letter of i February 1732; Berkes, Secularism, 42-5.

(48) Robert W. Olson, The Siege of Mosul and Ottoman-Persian Relations 1718-1743, Bloomington, 1975, 66,71, 74-5; Mardin, Genesis, 433; Bosscha Erdbrink, 93-5.

(49) Olson, 79; Bosscha Erdbrink, 95, despatch of Cornelius Calkoen 13 November 1730; Albert Vandal, Une Ambassadt jrancaise en Orient sous Louis XV: la mission de Marquis de Villeneuve 1728-1741, 1887, 155-6, despatch of Villeneuvc 7 October 1730; Gocek, 159.

(50) Mary Lucille Shay, The Ottoman Empire from 1720 to 1754 as revealed in Despatches of Venetian Baili, Urbana, 1944, 31-3; Olson, 80

الفصل الثامن

السفراء والفنانون

(1) Hammer,VIII, 148.

(2) Mcrriman, 236; Colin Imbcr, 'The Ottoman Dynastic Myth', Turcica, 1987, 22.

(3) Naimur Rahman Farooqi, Mughal-Ottoman Relations, Delhi, 1989, 23, 29, 88,195.

(4) Lewis, Muslim Discovery, 118, 45; Merriman, 133, quoting the chronicle of Kcmal Pashazade; Pierre Duparc, Recueil des instructions donnees aux ambassadeurs et ministns de France, 1969, 16, 259, instructions of 22 August 1665, 6 March 1724.

(5) Vaughan, 124,127,129.

(6) M. S. Anderson, The Rise of Modem Diplomacy, 1993, 28; Peirce, 'Gender and Power', 120-1.

(7) Busbecq, 183; Hammer, VI, 148; Skiiliter, William Harborne, 63, Joachim Von Sinzendorf to Rudolf II 24 March 1579.

(8) Hammer, V, 149, 15 in., letter of February 1526, 333, VII, 185; M. S. Anderson, 75.

(9) Pedani, 203-8.

(10) Jacques Lefort, Documentsgrecs dans les Archives de Topkapi Sarayi: contribution a l'histoire de Cem Sultan, Ankara, 1981, 20; Bobovi, 12; Baron de Dedem de Gelder, Memoires, 1900, 25; Habesci, 268. Fatih boasted that his clandestine network of informers in Italy gave him intimate knowledge of events: Raby, 285.

(11) Hammer, IV, 48, 138.

(12) Bosscha Erdbrink, 119, 125.

(13) Guilleragues, 908-9; Belin, 314; Galland, II, 52, diary entry for 2 April 1673; Vandal, Une Ambassade francaise, 38.

(14) Alberto Tencnti, Piracy and the Decline of Venice 1580-1615, 1967, 72; L'Orient des proven aux dans Fhistoirc, exhib. cat., Marseilles, 1982, 280.

(15) William Hunter, Travels through France, Turkey and Hungary to Vienna in 1792, 3rd edn., 2 vols., 1803,1, 323.

(16) Wood, Levant Company, 238; Hammer, XII, 10. The ostentation of Polish processions continued until the end of the kingdom: see Dedcm de Gelder, 37.

(17) Marquis de Bonnac, Memoire historique sur l'Ambassade de France a Constantinople, 1894, 12; Gerard Tongas, Les Relations de la France avec l'Empire Ottoman durant la premiere moitie du XVIIe siecle, Toulouse, 1942, 23-31, 37; Hammer, XI, 229-30, 346; G. F. Abbott, Under the Turk in Constantinople, 1920, 102, 9 September 1675.

(18) Hammer, XI, 25 5, 259, 282, XII, 8; Covel, in Bent (ed.), 194, diary entry for 19 May 1675; Comte de Saint-Priest, Memoires sur l'Ambassade de Francc en Turquie, 1877, 231; Vandal, Voyages, 216, 232.

(19) Guilleragues, I, 192, 436, 473: memoirepourservird'instruction au Sr, de Guilleragues, 10 June 1679, Guilleragues to Louis XIV 24 May 1680, 12 September, 25 October 1681; Hammer, XII, 56,167; Piton de Tournefort, II, 27.

(20) Bonnac, 43-5; Ferriol, 75-9, Ferriol to Louis XIV 8 January 1700; cf. for other accounts of the same incident, La Motraye, I, 272; Piton de Tournefort I, 397-401.

(21) Cantemir, 261; Ferriol, 190, letter of 25 July 1707; William Miller, Travel and Politics in the Near East, 1897, 428; Hammer, LX, 113.

(22) La Motraye, I, 369; Vandal, Une Ambassade franfaise, 40; H. Riondel, Le Bienbeureux Gomidas de Constantinople, pretre armenien et martyr, 1929, 137; Hammer. XIII, 41.

(23) Archives du Ministerc dcs Affaires Etrangeres, Paris (henceforward referred to as AAE), Turquic, 68: Relation de Faitdunct quefaye cut du grand Vizir Ibrahim Pacha Gendre fa Grand Seigneur le mardi 10 Octobre dans sonpalais de Constantinople.

(24) State Archives, Stockholm, Turcica, 100, Bonneval to Hoepken 6 September 1738, 14 May 1741, to G. Bonde 4 September 1736, to Horn 4 August 1735.

(25) Hammer, XV, 365-78, Desalleurs to Bonneval 2 3 December 1746, Castellane to d'Argneson 23 March 1747.

(26) State Archives, Stockholm, Turcica, 100, BonncvaJ to Hoepken 19 December 1735,21 January 1744.

(27) Revue d'Histoire Diplomatique, 1987, 234-5; cf. Virginia Aksan, 'Ottoman-French Relations 1739-68', in Studies in Ottoman Diplomatic History, ed. Sinan Kuncralp, 5 vols., Istanbul, 1987-90, I, 50, 56; Vassif Efendi, Precis historique de la guerre des Tuns contre les Russes, ed. P. A. Caussin de Perceval, 1822, 6-7; Hammer, XVI, 179, 184, 203-5, 228.

(28) Onnik Jamgocyan, 'L'Apprivoisonnemcnt de Constantinople, la Revolution franchise et le declin du negoce frangais', Arab Historical Reinew for Ottoman Studies, VII, October 1995, 1029-33; Tott, II, 123, 149, 167, 205, 255, III, 149, IV, 255.

(29) Berkes, Development of Secularism, 54; Itzkowitz and Mote, 161.

(30) Hugh Ragsdale (ed.), Imperial Russian Foreign Policy, Cambridge, 1993, 82, 99.

(31) Masson, 274; Comte de Choiseul-Gouffier, Voyage pittoresque de la Grece, 2 vols., 1782-1809, I, xi; Ixfronce Pingaud, Choiseul-Gouffier la France en Orient sous Louis XVI, 1887, 1790. Vergennes to Segur; Duparc, 477, instruction of 2 June 1784.

(32) Max Roche, Education, assistance et culture franfaises dans {'Empire Ottoman, Istanbul, 1989, 17-18.

(33) Octave Teissier, La Chambre de Commerce de Marseille, Marseilles, 1892, 315, Grand Vizier to Louis XVI 16 January 1791; Pingaud, 85.

(34) Stanford J. Shaw, Between Old and New, the Ottoman Empire under Sultan Selim 1789-1807, Harvard, 1971, 17III; Archives du Ministere des Affaires Etrangeres, Correspondance Politique, Turquie, 176, ff. 72V, 87V, 98, 100, i95v: Choiseul-Gouffier to Montmorin 3, 9, 10, 25 August; cf. A. I. Bagis, Britain and the Struggle for the Integrity of the Ottoman Empire, Istanbul, 1984, 42, 45.

(35) Pingaud, 253, 255; BM Add. MSS 41567, f. 186: Choiseul-Gouffier to Sublime Porte 24 September 1792.

(36) Wanda, Souvenirs anecdotiques sur la Turquie 1820-1870, 1884, 174 ,175.

(37) Colonel Rottiers, Itineraire de Tijlis a Constantinople, Brussels, 1829, 345.

(38) Nicolay, 179; Vandal, Voyages, 65; id., Une Ambassade francaise, 83n.; Itzkowitz and Mote, 176-7.

(39) Un Jeune Russe [H.-C.-R. von Struve], Voyage en Crimee, 190; Dedem de Gelder, 23; Wittman, 25.

(40) Michel Lesure, 'Notes et documents sur les relations veneto-ottomanes', Turcica, IV, 143, 155.

(41) Cantemir, 259; Karl A. Roider jun., Austria's Eastern Question, Princeton, 1982, 92-3, 220, Thugut to Kaunitz 21 March 1771. The British ambassador in 1710, Sir Robert Sutton, obtained secret lists of the Ottoman armed forces: Kurat (ed.), 9

(42) J. M. Tancoignc, Voyage a Smyrne... suiin d'une notice sur Pera, 2 vols., 1817, II, 46.

(43) Montagu, 122, Lady Mary Wordcy Montagu to Lady Mar 16 March 1718.

(44) Ausilia Roccatagliata, Notai gnovesi in oltnman: afti rogati a Pera e Mitikne, I, Genoa, 1982, 140; E. Dallcggio d'Alcssio, 'Liste des Podcstats de la colonie gnoise de P6ra', Revue des Etudes Byzantines, XXVII, 1969, 152-3; id., 'Une Inscription inedite d'Arab-Djami', Echos d'Orientt XXVIII, 1929,408-11; Bclin, 151.

(45) Sturdza, 590-6; Antoine Gautier and Marie de Testa, 'Quelqucs Dynasties de Drogmans', Revue d'Histoire Diplomatique, 1991, 889-94. J. F. Labourdette, Vergennes, 1990, 48-50; E. L. G. H. de Marcerc, Une Ambassade a Constantinople: la politique orientale et la revolution franfaise, z vols., 1927,1, 42, letter of Testa 28 March 1793.

(46) Sturdza, 587; Wood, 'English Embassy', 5 56.

(47) National Library of Scotland (hereafter NLS), Liston MSS, Pisani to Liston passim and 24 November, 24 October 1794.

(48) Virginia Quids, Lady Hester Stanhope, 1990, 67; NLS, Liston MSS, Lady Liston journal 1812, f. 38.

(49) Walsh, II, 440; Sir Austen Layard, Autobiography and Letters, 2 vols., 1903, II, 140 and n.

(50) John Stoye, Marsigli's Europe, 1994, 17, 23; Toderini, III, 212; Edward Said, Orientalism, 42, 95; Vers l'Orient, exhib. cat., Bibliotheque Nationale, 1983, 40.

(51) Kemal Bcydilli, 'Ignatius Mouradgea d'Ohsson', Istanbul Umversitesi Edebiyat Fakultesi Tarib Dergsi, XXXIV, 1984, 252, 260; Mouradgea d'Ohsson, III, 3i2n. Other diplomats and dragomans who wrote accounts of the Ottoman Empire include: Busbecq; Philippe du Fresne Canaye

(Voyage du Levant, 1573); Sir Thomas Roe; Sir Paul Rycaut; Antoine Galiand, translator into French of One Thousand and One Nights, who worked in the French embassy in Istanbul from 1671 to 1675, and 1678 to 1683; F. Petis de La Croix; John P. Brown of the US legation, author of books on dervishes and Turkish Evening's Entertainment (1850); and Charles Schefer, First Dragoman of France during the Crimean War, who translated many Ottoman texts and became Directeur de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes.

(52) Freiherr von Hammer-Purgstall, Erinnerungen, Vienna, 1940, 41, 44, 46-7, 133, 134, 137.

(53) And, Istanbul, 325-6 has identified nineteen such albums.

(54) At the Sublime Porte, cxhib. cat., Hazlitt, Gooden and Fox, 1988; Vandal, Voyages, 200-2; Catherine and Andre Boppe, Les Peintres du Bosphore au XVIIIe siecle, 1989, 40-7; Les Peintures 'turques' de Jean-Baptiste Vanmour 1671 - 1737, exhib. cat., Istanbul, 1975. The portrait of Marshal Sebastiani in the Musee de l'Histoire de France in Versailles, with a view of Istanbul in the background, was painted by Winterhalter in 1841- thirty-three years after Sebastiani had ceased to be French ambassador there.

(55) Visit to Biby and interview wth Fredrik von Celsing, 29 August 1994. Other 'embassy pictures' are in the collections of M. de Tugny in France; Prince von Oettingen Wallerstein in Germany; Count von Gudenus in Austria; the Palazzo Mocenigo a San Stac, in Venice; the Villa Valtorta at Dolo, in the Veneto; the Italian Consulate-General in Istanbul; the British Embassy in Ankara; the Musee de l'Histoire de France, Versailles, the Musee des Beaux-Arts, Bordeaux, the Academy of Fine Arts, Cracow and the Rijksmuseum. Four views of Constantinople and eight portraits of its inhabitants belonging to the son of Vergennes were confiscated 'pour la nation' in 1795 and have since disappeared: see Archives Nationales F 17 1268, no. 126: Inventaire des olyetf ristrvis poitr la nation, pnvetumts dt Vtrynnu emigre. I am grateful for this reference to Mme de Tugny-Vcrgennes.

(56) Gillcs, 221, 97, 170; B. Miller, Sublime Port', 14.

(57) Strachan, 174; William St Glair, Lord Elgin and the Marbles, 1983 edn., 90 and passim.

ببليوغرافيا

قائمة المراجع

المصادر الأولية

Archives du Ministere des Affaires Etrangeres, Paris: Correspondance Politique,

Turquie, 68, 176: ambassadors' reports, 1724, 1787. British Library, London, Add. MSS 38979, 38985, 38987, 39018, 39023-4, 39103:

Layard Papers, letters of Ahmed Vefyk to Layard; 56301, Pisani to Strangford 1821. Churchill College, Cambridge, De Robeck Papers, MSS 6/1, 6/18: correspondence of Admiral de Robeck.

Imperial War Museum, London, Fox-Pitt Papers (consulted by kind permission of Sarah Fox-Pitt): letters of W. A. F. L. Fox-Pitt to his parents.

National Library of Scotland, Edinburgh, Department of Manuscripts, Liston Papers, MSS 5 572, 5628, 5630: despatches of Liston and Pisani 1794-5, 1815-20; 5709, journal of Lady Liston 1812 - 13.

Public Record Office, Kew, Middlesex, FO 78/225, 3081: diplomatic despatches

1833, 1880; FO 371/4162, 4241, 5162, 5170, 5172, 5178, 5190, 6469, 7893, 7907,

79912, 7916, 7962, 7917, 7962, 7963, 9174, 12255: papers of the British High

Commission in Constantinople, 1918-23; WO 161/85: Sir James E. Edmonds, The Occupation of Constantinople 1918 - 1923'.

School of Oriental and African Studies Library, London, Paget Papers 50 X4: letters of Alexander Mavrocordato 1699. State Archives, Stockholm, Turcica 22, 24, 100: letters from Comte de Bonneval 1734 - 45.

المصادر الثانوية

ما لم يُذكر خلاف ذلك، فإن كل الأعمال الإنجليزية منشورة في لندن، وكل الأعمال الفرنسية منشورة في باريس، وكل الأعمال التركية منشورة في اسطنبول.

Abbott, G. F., Turkey in Transition, 1909.

-------Under the Turk in Constantinople, 1920.

Abdullah of Jordan, King, Memoirs, 1950.

Abou el-Hajj, Rifa'at Ali, The iyo) Rebellion and the Structure of Ottoman Politics, Istanbul, 1984.

------- Formation of the Modem State: the Ottoman Empire, Sixteenth to Eighteenth Centuries, Albany, 1991.

Abu-Lughod, Janet, Cairo: woo Years of the City Victorious, Princeton, 1971. Abu-Manneh, Butxos, 'Sultan Abdul Hamid II and the Sharifs of Mecca 1880-1900', Asian andAfrican Studies, 1972, 1—21.

Adivar, Adnan, La Science checks Turcs Ottomans, 1938.

Adjemoglou, Nicolaos, The Ayazmata of the City, Athens, 1990 (in Greek). Adnan, Abdulhak, La Science chezles Turcs Ottomans, 1939.

Afetinan, Prof. Dr, Apercu general sur l'histoire economique de LEmpire Turc-Ottoman, 2nd edn., Ankara, 1976.

Ahmad, Feroz, The Young Turks: the Committee of Union and Progress in Turkish Politics 1908—1914, Oxford, 1969.

------- The Turkish Experiment in Democracy 19JO—197J, 1977.

Alderson, A. D., TheStructure of the Ottoman Dynasty, 1956.

Alexandris, Alexis, The Greek Minority of Istanbul and Greek-Turkish Relations 1918—1974, Athens, 1983.

Allom, Thomas and the Revd Robert Walsh, Constantinople and the Scenery of the Seven Churches of Asia Minor, 2 vols., 1838. Altuna, Abdulkadir, Osmanli Seyhulislamlari, Ankara, 1972. And, Metin, Karagovz 3rd edn., Istanbul, n.d.

------- A Pictorial History of Turkish Dancing, Ankara, 1976.

------- Turkish Miniature Painting, rev. edn., Istanbul, 1982.

------- Istanbul in the Sixteenth Century, Istanbul, 1994.

Andersen, Hans Christian, A Poet's Bazaar, New York, 1988.

Anderson, Dorothy, The Balkan Volunteers, 1968.

Anderson, M. S., The Eastern Question, 1982.

------- The Rise of Modem Diplomacy, 199 5.

Andrews, Walter G., Poetry's Voice, Society's Song: Ottoman Lyric Poetry, Seattle, 198 5.

Anon., Fusilier Bluff: the Experience of an Unprofessional Soldier in the Near East 1918—1919, 1934.

Anon., Letters Historical and Critical from a Gentleman in Constantinople to his Friend in London, 1730.

Antonius, George, The Arab Awakening, Beirut, 1969 edn.

------- Argenti, Philip, The Massacres of Chios, 1932.

------- Armstrong, Harold, Turkey in Travail, 1925.

------- Turkey and Syria Reborn, 1930.

Arnakis, G. Georgiades, The Greek Church of Constantinople and the Ottoman Empire', Journal of Modem History, 1952, 235—50.

Arpee, Leon, A History of Armenian Christianity, New York, 1946. Artamian, Sarkis, The Armenian Community, New York, 1955.

------- Artan, Tulay, 'Architecture as a Theatre of Life: Profile of the Eighteenth-century Bosphorus', unpublished Ph.D. thesis, Massachussets Institute of Technology, 1989.

Artinian, Vartan, The Armenian Constitutional System in the Ottoman Empire 1839-1863, Istanbul, 1990.

Arzik, Imet, Anthologie de la poesie turque, 1968.

Ashmead-Bardett, Ellis, With the Turks in Thrace, 1913.

Atamian, Sarkis, The Armenian Community, New York, 1955.

Atasoy, Nurhan and Julian Raby, Iznik: the Pottery of Ottoman Turkey, 1989.

Atay, Falih Rifki, The Ataturk I Knew, Istanbul, 1982.

Atil, Esin (ed.), Suleymanname: the Illustrated History of Suleyman the Magnificent, Washington, 1986.

------- The Age of Sultan Suleyman the Magnificent, New York, 1987.

------- Turkish Art, New York, 1980.

Auld jo, John, Journal of a Visit to Constantinople and Some of the Greek Islands in the Spring and Summer of r8jj, 1835.

Avrenche, Henry, La Mori de Stamboul, 1930.

Babinger, Franz, Mehmed the Conqueror and His Time, Princeton, 1992 edn.

Bailey, Frank E., British Policy and the Turkish Reform Movement, Harvard, 1932.

Baker, Patricia, 'The Fez in Turkey: a Symbol of Modernisation?', Costume, 1986, 72-85.

Baltimore, Lord, A Tour to the East in the Years ij6) and 1/64, 1767.

Barbaro, Nicolo, Diary of the Siege of Constantinople 14;), tr. J. R. Jones, New York, 1969.

Bardakgi, Murat, Osmanlida Seks, 1993. Bareilles, Bertrand, Constantinople, 1918.

Barker, Arthur, 'The Cult of the Tulip in Turkey', Journal of the Royal Horticultural Society, LVI, 1931, 234—44.

Barker, Theo and Anthony Sutcliffe (eds.), Megalopolis: the Giant City in History, 1993.

Barnett, R. D., The Sephardi Heritage, 2 vols., 1971—89.

Baronian, Hagop, The Perils of Politeness, New York, 1983.

Barsoumian, Hagop Leon, 'The Armenian Amira Class of Constantinople', unpublished Ph.D. thesis, Columbia, 1980.

Basmadjian, K. J., Essai sur l'histoire de la litterature ottomane, Constantinople, 1910.

Batu, Hamit et Jean-Louis Bacque-Gramont, L'Empire Ottoman: la Republique de Turquie et la France, Istanbul, 1986.

Batur, Enis (ed.), Encomium to Istanbul, Istanbul, 1991.

Baudin, P., Les Israelites de Constantinople, Istanbul, 1872, 1989 edn.

Belin, M. A., Histoire de la Latinite de Constantinople, 2nd edn., 1894.

Benbassa, Esther, Un Grand Rabbin sepharade en politique 1892—192), 1991.

Benjamin, S. G. W., The Turks and the Greeks, New York, 1867.

Bennett,J. G., Witness, 1962.

Bent, J. Theodore (ed.), Early Voyages and Travels in the Levant, 1893.

Berk, Nurullah, Istanbul chez lespeintres turcs et Strangers, Istanbul, 1977.

Berkes, Niyazi, The Development of Secularism in Turkey, Montreal, 1964.

------- (ed.) Turkish Nationalism and Western Civilisation: Selected Essays of Zia Gokalp, 1959.

Bernachot, Jean, Les Armies alliees en Orient apres L'Armistice de 1918, 4 vols., 1972—8.

Bernard, Yvelise, L'Orient duXVIe siecle a trovers les re'cits de vqyageursfrancais, 1988.

Bertele, Tommaso, Palaze degli ambasciatori di Venez'a a Constantinopoli e le sue antiche memorie.

Bologna, 1932—X. Beydilli, Kemal, 'Ignatius Mouradgea d'Ohsson', Istanbul Universitesi Edebiyat Fakultesi Tarih Dergisi, XXXIV, 1984, 248-314.

Bibesco, Marthe, La Nympbe Europe, 1960.

Bierman, Irene et al. (eds.), The Ottoman City and its Parts, New Rochelle, 1991 edn.

Birge, John Kingsley, The Bektashi Order of Dervishes, 1965.

Blaisdell, Donald C, European Financial Control in the Ottoman Empire, New York, 1929.

Blancard, Theodore, Ees Mavrqyenni: histoire d'Orient, 2 vols., 1909.

Blanqui.J. A., Voyage en Bulgariependant Tannic 1841, 1843.

Blowitz, Henri de, Une Course a Constantinople, 1884.

Blunt, Wilfrid Scawen, Gordon at Khartoum, 1911.

------- My Diaries, 2 vols., 1919—20.

Boghossian, Sarkis, Iconographie armenienne, 1987.

Bonnac, Marquis de, Memoire historique sur TAmbassade de France a Constantinople, 1894.

Bonneville de Marsangy, Louis, Le Chevalier de Vergennes: son ambassade a Constantinople, 2 vols., 1894.

Boppe, Catherine et Andre, Ees Peintres du Bosphore au XVIIIe siecle, 1989.

Boschma, Cornells and Jacques Perot, Antoine-Ignace Melling (iy6j—t8ji), artiste voyageur, 1991.

Bosscha Erdbrink, C, At the Threshold of Felicity: Ottoman-Dutch Relations during the Embassy of Cornells Calkoen at the Sublime Porte 1/26—1/44, Ankara, 197 5.

Bouchard, Jacques, 'Nicolas Mavrocordatos et l'epoque des tulipes', Eranisthes, XVII, Athens, 1981, 120-6.

------- 'Les Lettres fictives de Nicolas Mavrocordato a la maniere de Phalaris: une apologie de l'absolutisme', Revue des Etudes du Sud-Est Europeen, XIII, 197 2,197—207.

------- (ed.), Les Loisirs de Philothe'e, Athens—Montreal, 1989.

Boulden, James E. P., An American among the Orientals, Philadelphia, 1855.

Boutros-Ghali, Anna Naguib and Archag Alboyadjian, Les Dadian, Cairo, 1965.

Brassey, Mrs, Sunshine and Storm in the East or Cruises to Cyprus and Constantinople, 1880.

Braude, Benjamin and Bernard Lewis (eds.), Christians andfews in the Ottoman Empire,

2 vols., 1982.

Brown, Horatio F., Studies in the History of Venice, 2 vols., 1907.

Brown, Sarah Graham, Images of Women: the Portrayal of Women in Photography of the Middle East 1860-19)0, 1988.

Brummett, Palmyra, Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery, Albany, 1994.

Brun, Charles, 'Les Grecs de Constantinople', Revue Modeme, LII, 10 June 1869, 422-39.

Busbecq, Ogier Ghislain de, Turkish Letters, Oxford, 1927.

Buxton, C. R., Turkey in Revolution, 1909.

Cabuk, Vahid, Koprululer, 1988.

Calosso, Colonel, Memoires d'un vieux soldat, Turin—Nice, 1857.

Camariano, Nestor, Alexandre Mavrocordato le Grand Drogman: son activite diplomatique, Thessaloniki, 1970.

Camariano-Cioran, Ariadna, Les Academies princierts de Bucarest et de jassy et leurs pro-

fesseurs, Thessaloniki, 1974. Cambon, Paul, Correspondence, 3 vols., 1940—6.

Cantacasin, Theodore Spandouyn, Petit Traicte de Torigine des turcqvz ed. Charles Schefer, 1896.

Cantacuzene, Jean Michel, MilleAns dans les Balkans, 1992.

Carayon, Pere Auguste, Relations inedites de la Compagnie de fe'sus a Constantinople et dans le Levant, 1864.

Carlier de Pinon, M., Voyage en Orient, 1920.

Carnoy, Henry et Jean Nicolaides, Folklore de Constantinople, 2 vols., 1894.

Catalogue de la Bibliotheque de feu Ahmed Vefyk Pacha, Constantinople, 1893.

Catalogue desperles, pierreries, bijoux et objets d'artprecieux, le tout ayant appartenu a S.M. le Sultan Abdul Hamid II, dont la vente aura lieu a Paris, November 1911.

Caussin de Perceval, A. P. (tr.), Precis historique de la destruction du corps desfanissaires par le Sultan Mahmoud en 1826, 1833.

Celik, Zeyneb, The Remaking of Istanbul, Seattle and London, 1989.

Cevaat Bey, Ali, Fezleke, Ankara, 1960.

Cezar, Mustafa, XIX Yuzyil Beyoglusu, Istanbul, 1991.

Chalcondyle, L'Histoire de la decadence de TEmpire Grec et de Tetablissement de celuy des Turcs, 2 vols., 1662.

Chaliand, Gerard (ed.), A People without a Country: the Kurds and Kurdistan, 199 3 edn. Champonnois, Suzanne, Le Mythe de Constantinople et Topinion publique en Russie au XIXe siecle, Istanbul, 1989.

Charlemont, Lord, Travels in Greece and Turkey 1749, ed. W. B. Stanford and E.J. Finopulos, 1984.

Charriere, M. de, Negotiations de la France dans le Levant, 4 vols., 1848—60.

Chassiotis, G, L'Instruction publique cbez les Grecs depuis la prise de Constantinople par les Turcs, 1881.

Chenier, Madame, Lettres sur les dansesgrecques, 1879 edn.

Chesneau d'Aramon, Jean, Le Voyage de Monsieur Chesneau dAramon, ambassadeurpour le Roy au Levant, ed.

Charles Schefer, 1887.

Choiseul-Gouffier, Comte de, Voyagepittoresque de la Grice, 2 vols., 1782—1809.

Cizgen, Engin, Photography in the Ottoman Empire 18)9-1919, Istanbul, 1987.

Clark, E. C, 'The Ottoman Industrial Revolution', Internationalfournal of Middle East Studies, V, 1974, 65—76.

Clayer, Nathalie and Alexandre Popovic (eds.), Presse turque et presse de Turquie, Istanbul—Paris, 1992.

Cleveland, William I., The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism andArabism in the Life and Thought of Sati al-Husri, Cleveland, 1971.

Clogg, Richard (ed.), Balkan Society in the Age of Greek Independence, 1981.

------- The Struggle for Greek Independence, 1973.

------- The Movement for Greek Independence, 1976.

Cockerell, C. R., Travels in Southern Europe and the Levant 1810-1817, 1903.

Constant, Stephen, Foxy Ferdinand, 1979.

Constantinios] Constantiniade ou Description de Constantinople ancienne etmoderne compare par unphilologue et archeologue, Constantinople, 1846.

Cook, M. A. (ed.),z4 History of the Ottoman Empire to, Cambridge, 1976. Correspondence respecting the Disturbances at Constantinople in August 1896 presented to both Houses of Parliament by command of Her Majesty, 1897.

Coufopoulos, Demetrius, A Guide to Constantinople, 1910.

Cox, Samuel S., The Isles of the Princes; or, the Pleasures of Prinkipo, 1887.

------- Diversions of a Diplomat in Turkey, New York, 1887.

Crawford, F. Marion, Constantinople, 1895.

Criss, Nur Bilge, 'Istanbul during the Allied Occupation', unpublished Ph.D. thesis,

George Washington University, 1990. Cunningham, Allan, Anglo-Ottoman Encounters in the Age of Revolution, 1993.

------- Eastern Questions in the Nineteenth Century, 1993.

Curtis, William Eleroy, Turkestan, the Heart of Asia, 1911.

Curtiss, John Sh'elton, Russia's Crimean War, Durham, North Carolina, 1979.

Dadian, Prince Mek-B., 'La Societe armenienne contemporaine', Revue des Deux Mondes, 15 June 1867, 903-28.

Dadrian, Vahakn N., 'The Documentation of the World War I Armenian Massacres in the Proceedings of the Turkish Military Tribunal', International Journal of Middle East Studies, XXIII, 1991, 549—76.

Dallaway, James, Constantinople Ancient and Modern, 1798.

Dalleggio d'Alessio, E., 'Liste des Podestats de la colonie genoi'se de Pera', Revue des Etudes Byzantines, XXVII, 1969, 151-7.

Dankoff, Robert (ed.), The Intimate Life of an Ottoman Statesman: Melek Ahmed Pasha, as Portrayed in Evliya Celebi's Book of Travels, Albany, 1991.

Dasnabedian, Hratch, History of the Armenian Revolutionary Federation Dashnaktsutian 1890—1924, Milan, 1990.

Davis, Revd, E. J., Osmanli Proverbs and Quaint Sayings, 1898.

Davis, Fanny, The Ottoman Lady: a Social History from 1718 to 1918, New York, 1986.

Davis, James C. (ed. and tr.), The Pursuit of Power Venetian Ambassadors' Reports from Spain, Turkey, France in the Age of Philip II, 1970.

Davison, Roderick H., Reform in the Ottoman Empire 1856-1918, Princeton, 1963.

Dawn, C. Ernest, From Ottomanism toArabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism, Urbana, 1973.

De Amicis, Edmondo, Constantinople, 1894 edn. Dedem de Gelder, Baron de, Memoires, 1900.

De Gaury, Gerald, Rulers of Mecca, 1951.

------- Three Kings in Baghdad, 1961.

------- Traces of Travel, 1983.

Deherain, H., La Vie de Pierre Ruffin, 2 vols., 1929-30.

Deleon.Jak, A Taste of Old Istanbul, Istanbul, 1989.

------- Ancient Districts on the Golden Horn, Istanbul, 1992.

Deringil, Selim, 'The Invention of Tradition as Public Image in the Late Ottoman Empire, 1808 to 1980', Comparative Studies in Society and History, XXXV, 1, January 1993.

------- 'Legitimacy Structures in the Ottoman State: the Reign of Abdulhamid II 1876-1909', International fournal of Middle East Studies, XXIII, 1991, 345-59.

Deschamps, Gaston, ,4 Constantinople, 1913.

Destrilhes, M., Confidences sur la Turquie, 1855.

Devereux, Robert, The First Ottoman Constitutional Period, Baltimore, 1963.

------- 'Suleyman Pasha's "the Feeling of the Revolution"', Middle Eastern Studies, XV, I. 1979. 3—35.

Devrim, Shirin,z4 Turkish Tapestry: the Shakirs of Istanbul, 1994.

Diamandouros, Nikoros P. (ed.), Hellenism and the First Greek War of Liberation 1821—18) 0, Thessaloniki, 1976.

Diamantopoulo, Hercule, Le Reveilde la Turquie, Alexandria, 1908.

Dimaras, C. Th., Histoire de la litterature neo-hellenique, Athens, 1965.

Djevad Bey, A., Etat militaire ottoman depuis la fondation de I'Empire jusqu'd nos jours, Constantinople—Paris, 1882.

Dodds, Anna Bowman, In the Palaces of the Sultan, 1904.

Dos Passos, John, Orient Express, New York, 1927.

Douglas, Revd J. A., The Redemption of Saint Sophia, 1919.

Doulis, Thomas, Disaster and Fiction: Modern, Greek Fiction and the Asia Minor Disaster of 1922, Berkeley, 1977.

Driault, Edouard, La Politique orientale de Napoleon, 1904.

------- L'Egypte et l'Europe: la Crise de 18)9—1841, 2 vols., Cairo, 1930-31.

------- and Michel L'Heritier, Histoire diplomatique de la Grece de 1821 d nos fours, 5 vols., 1925-6.

Duben, Alan and Cem Behar, Istanbul Households: Marriage, Family and Fertility 1880—1940, Cambridge, 1991.

Dudell, Tim, Tales from the Orient and Pera: Sketches of Constantinople, Constantinople, n.d.

Dufferin and Ava, Dowager Marchioness of, My Russian and Turkish Journals, 1917.

Du Fresne Canaye, Philippe, Le Voyage du Levant, 1986 edn.

Duhani, Said N-, Vieilles Gens, vieilles demeures, Istanbul, 1947.

------- QuandBeyoglu s'appelait Pera, Istanbul, 1956.

Dumesnil, Vera, Le Bosphore tant aime, Brussels, 1947.

Du Mont, M., Voyages, 4 vols., La Haye, 1699.

Dumont, Paul, Mustafa Kemal, Brussels, 1983.

Duparc, Pierre, Recueil des instructions donnees aux ambassadeurs et ministres de France, 1969.

Durand, Whcd,Jeune Turquie, Vieille France, 1909.

Dutu, Alexandru and Paul Cernovodeanu (eds.), Dtmitrie Cantemir, Historian ofSouth-East European and Oriental Civilisations, Bucharest, 1973.

Dwight, Henry O, Turkish IJfe in War Time, 1881.

------- Constantinople and its Problems, 1901.

Dyer, Gwynne, The Turkish Armistice of 1918: 2', Middle Eastern Studies, VIII, 3, October 1972, 313—48. Edib, Halide, Memoirs, 1926.

------- The Turkish Ordeal, 1928.

------- Turkey Faces West, New Haven, 1908.

Edwards, Emile, Mon Maitre che'ri, 1915.

------- Journal d'un habitant de Constantinople 1914—191), 1915.

Edwards, George Wharton, Constantinople-Stamboul, Philadelphia, 1950.

Eldem, Edhem (ed.), Recherches sur la ville ottomane: le cas du quartier de Calata, Istanbul, 1991.

------- La Vie politique, e'conomique et socio-culturelle a I'epoquejeune-turque, Istanbul, 1991.

Eldem, Seddad Hakki, Reminiscences of Istanbul, Istanbul, 1979.

------- Reminiscences of the Bosphorus, Istanbul, 1979.

Eliot, Sir Charles], Turkey in Europe, 1900.

Elliot, Sir Henry G, Some Revolutions and other Diplomatic Experiences, 1927.

Elliott, J. H., Richelieu and Olivares, 1992 edn.

El-Tangrouti, Relation d'une ambassade marocaine en Turquie, ed. Henry de Castries, 1929.

Emin, Ahmed, The Development of Modern Turkey as Measured by its Press, New York, 1914.

------- Turkey in the World War, New Haven, 1930.

Encyclopedia of Islam, 2nd edn., Leiden, 1956—.L'Epoquephanariote, Thessaloniki, 1974 (conference proceedings).

Epstein, Mark Alan, The Ottoman Jewish Communities and their Role in the Fifteenth and Sixteenth Centuries, Freiburg, 1980.

Esenbel, Selcuk, 'A fin de siecle Japanese Romantic in Istanbul: the Life of Yamada Torajiso and his Toruko Gakan or a Pictorial Look at Turkey', unpublished article, Istanbul, 1994. Essayan, Zabel, LesJardins de Silihdar, 1994.

Etmekjian, James, The French Influence on the Western Armenian Renaissance 184)—1917, New York, 1964.

Exertoglou, H., 'The Greek Bankers in Constantinople 1856—1881', unpublished Ph.D. thesis, London, 1985. Exhibition catalogues:

Les Peintures 'turques' deJean-Baptiste Vanmour 1671—17)7, Ankara, 1975.

L'Orient desprovencaux dans I'histoire, Marseilles, 1982.

Vers TOrient, Bibliotheque Nationale, 1983.

At the Sublime Porte, Hazlitt, Gooden and Fox, London, 1988.

The Turkish Legacy, Bodleian Library, 1988.

Topkapi en Turkomanie, Museum voor Volkenkunde, Rotterdam, 1989.

Dessins de Uotard, Musee du Louvre, 1992.

C. G. Lowenhielm, Artist and Diplomat in Istanbul 1824-7, Uppsala, 1993.

Women in Anatolia: Nine Thousand Years of the Anatolian Woman, Topkapi Saray Museum, 1993.

Louis-Francois Cassas 1716-1827, Musee des Beaux-Arts, Tours, 1994.

Evliya Celebi, Narrative of Travels in Europe, Asia and Africa in the Seventeenth Century, 2 vols., 1 834—50. Ezgin, Fouad, YildizSaray Tarihcesi, Istanbul, 1962.

Farmayan, Hafez and Elton L. Daniel (eds.), A Shiite Pilgrimage to Mecca i88j-6, 1990.

Farooqi, Naimur Rahman, Mughal-Ottoman Relations, Delhi, 1989.

Faroqhi, Suraiya, Towns and Townsmen of Ottoman Anatolia, Cambridge, 1984.

------- Pilgrims and Sultans: the Hajj under the Sultans, 1994.

Farrere, Claude, L'Homme qui assassina, 1928.

Fazy, Edouard, Les Turcs d'aujourd'hui, 1898. Ferriman, Z. Duckett, Turkey and the Turks, 1911.

Ferriol, Marquis de, Correspondance, Antwerp, 1870.

------- (ed.), Recueil de cent estampes repre'sentant differentes nations du Levant, 1914.

Fesch, Paul, Constantinople aux dernier jours d'Abdul Hamid, 1907.

Findlay, Carter V., Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire: the Sublime Porte 1789—1922, Princeton, 1980.

------- Ottoman Civil Officialdom, Princeton, 1992.

Finefrock, Michael M., 'From Sultan to Republic: Mustafa Kemal Ataturk and

the Structure of Turkish Politics 1922—24', unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1976.

Fischer, Fritz, War of Illusions: German Policies from 1911 to 1914, 1975.

Fisher, C. G. and A. W. Fisher, Topkapi Sarayi in the Mid-Seventeenth Century: Bobovi's Description', Archivum Ottomanicum, X, 1985, 5—81.

Fleischer, Cornell H., Bureaucrat and Intellectual in the Ottoman Empire: the Historian Mustafa Ali, Princeton, 1986. Fletcher, Richard, Moorish Spain, 1992.

Francis, Louis, Le Neige de Galata, 1936. Franck, Harry A., The Fringe of the Moslem World, 1928.

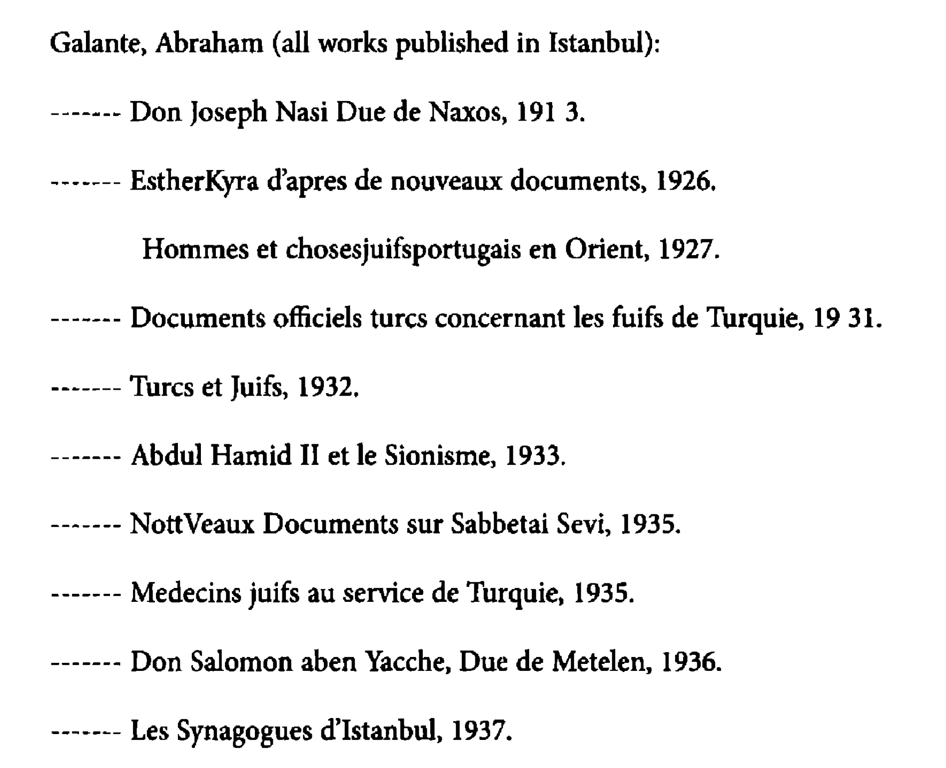
Franco, M., Essai sur l'histoire des Israelites de ('Empire Ottoman, 1897. Frangos, G, 'The Philike Etairia', unpublished Ph.D. thesis, Columbia, 1971.

Frazee, Charles A., Catholics and Sultans, 1983.

Freely, John, Stamboul Sketches, Istanbul, 1974.

Freni, Vera and Carla Varnier, Raimondo d'Aronco: l'opera completa, Padova, 1983.

Fuller, John, Narrative of a Tour through some Parts of the Turkish Empire, 1829.



Galante, Abraham (all works published in Istanbul):

------- Don Joseph Nasi Due de Naxos, 191 3.

------- EstherKyra d'apres de nouveaux documents, 1926.

Hommes et chosesjuifsportugais en Orient, 1927.

------- Documents officiels turcs concernant les fuifs de Turquie, 19 31.

------- Turcs et Juifs, 1932.

------- Abdul Hamid II et le Sionisme, 1933.

------- NottVeaux Documents sur Sabbetai Sevi, 1935.

------- Medecins juifs au service de Turquie, 1935.

------- Don Salomon aben Yacche, Due de Metelen, 1936.

------- Les Synagogues d'Istanbul, 1937.

------- Histoire des fuifs dIstanbul, 2 vols., 1941—2.

------- Appendice a I'histoire des Juifs d'Istanbul, 1941.

------- Recueil de nouveaux documents concernant I'histoire des Juifs de Turquie, 1949.

------- Nouveau Recueil de nouveaux documents inedits concernant I'histoire des fuifs de Turquie, 1952.

------- Encore un Nouveau Recueil de documents concernant les Juifs de Turquie: etudes scientifiques, 1953.

------- Les Juifs d'Istanbul sous le Sultan Mehmed le Conquerant, 1953.

Galland, Antoine, Journal, 2 vols., 1881.

Gallenga, A., Two Years of the Eastern Question, 2 vols., 1877.

Garnett, Lucy M.J., The Dervishes of Turkey, 1990 edn.

------- The Women of Turkey and their Folk-lore, 2 vols.,-1890.

Gautier, Theophile, Constantinople, Istanbul, 1990 edn.

Gawrych, George W., 'Tolerant Dimensions of Cultural Pluralism: the Ottoman Empire and the Albanian Community 1800—1912', International Journal of Middle East Studies, XV1983, 519—36.

Gerasimos, Augustinos, Consciousness and History: Nationalist Critics of Greek Society, New York, 1977.

Germaner, Semra and Zaynep Inankur, Orientalism and Turkey, Istanbul, 1989.

Gibb, E. J. W., A History of Ottoman Poetry, 6 vols., 1900—9.

Gilbert, Martin, Sir Horace Rumbold, 1973.

------- Churchill: a Life, 1991.

Gilles, Pierre, The Antiquities of Constantinople, New York, 1988.

Gilmour, David, Curzpn, 1994.

Gocek, Fatma Muge, East Encounters West France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century, New York, 1987. Goffman, Daniel, Izmirand the Levantine World 1660—1690, 1990.

Gonul, Sevgi, The Sadberk Hanim Museum, Istanbul, 1988.

Goodblatt, Morris, S., Jewish Life in Turkey in the Sixteenth Century, New York, 1952.

oodrich-Freer, A., Things Seen in Constantinople, 1926.

Goodwin, Godfrey, A History of Ottoman Architecture, 1992 edn.

------- Sinan and City Planning, Rome, 1989.

------- The Janissaries, 1994.

Gordon, Mrs Will, A Woman in the Balkans, 1916. Graves, Philip, Briton and Turk, 1941.

Greenwood, Anthony, 'Istanbul's Meat Provisioning: a Study of the Celepjan

System', unpublished Ph.D. thesis, Chicago, 1981.

Grelot, M., Relation nouvelle d'un voyage de Constantinople, 1681. Grenville, Henry, Observations sur Ntat actuel de l Empire Ottoman (1766), Ann Arbor, 1965.

Grenville, J. A. S., Lord Salisbury and Foreign Policy: the Close of the Nineteenth Century, 1970.

Groc, Gerard and I. Caglar, La Presse francaise de Turquie de 179; a nosJours, Istanbul, 1985.

Guilleragues, Comte de, Correspondance, 2 vols., Geneva, 1976.

Gulbenkian, Nubar, Pantaraxia, 1965.

Gulersoy, Celik (all works published in Istanbul):

------- Hidiver ve Cubuklu Kasri, 1985.

------- Dolmabahce Palace and its Environs, 1990.

------- The Story of the Grand Bazaar, 1990.

------- Taksim: the Story of a Square, 1991.

------- The Caique, 1991.

------- The Ceragan Palaces, 1992.

Gurkan, Dr K. I. et al.. Lectures Delivered on the filth Anniversary of the

Conquest of Istanbul, Istanbul, 1964.

Gursan-Salzmann, Ayse, Anyos Muxhos y Buenos: Turkey's Sephardim 1492—1992, Philadelphia, 1992.

Gursu, Nevber, The Art of Turkish Weaving, Istanbul, 1988. Guys, M., Voyage litteraire de la Grice, 3rd edn., 2 vols., 1783.

Habesci, Elias, The Present State of the Ottoman Empire, 1784.

Haidar, Musbah, Arabesque, 1944.

Halid, Halil, Diary of a Turk, 1903.

Halman, Talat S., Suleyman the Magnificent, Poet, Istanbul, 1989.

Halpern, Paul G., The Mediterranean Naval Situation 1908-1914, Cambridge, Mass., 1971.

------- The Naval War in the Mediterranean 1914—1918, 1987.

------- (ed.), The Royal Navy in the Mediterranean 191;—1918, 1987.

Hamlin, Cyrus, Among the Turks, 1878.

------- My Life and Times, 1897.

Hammer.J. de, Histoire de t"Empire Ottoman, 16 vols., 1835—40.

------- Erinnerungen, Vienna, 1940.

Hanioglu, M. Sukru, KendiMektuplarinda Enver Pasha, 1989.

Harington, General Sir Charles, Tim Harington Looks Back, 1940. Harris, George S., The Origins of Communism in Turkey, Stanford, 1967.

Hasluck, F. W., Christianity and Islam under the Sultans, 2 vols., 1925.

Hassiotis, J. K., 'The Greeks and the Armenian Massacres', Neo-hellenika, IV, 1981, 69—101.

Hauterive, Comte d', Memoire sur Petal ancien.et actuel de la Moldavie . . . en 1787, Bucharest, 1902.

Heller, Joseph, British Policy towards the Ottoman Empire 1908—1914, 1983.

Hellier, Chris and Franco Venturi, Splendours of the Bosphorus: Houses and Palaces of Istanbul, 1993.

Henderson, Nevile, Water under the Bridges, 1945.

Herbert, Aubrey, Ben Kendim, 1918. Herlihy, Patricia, Odessa: a History 1794—1914, 1986.

Herzl, Theodore, Diaries, 1958.

Hobhouse, John Cam, A Journey through Albania and other Provinces of Turkey during the

years 1809 and 1860, 181 3.

Hope, Thomas, Anastasius or Memoirs of a Creek, 2 vols., 18 36 edn. Hornby, Edmund, An Autobiography, 1929.

Hornby, Lady, Constantinople during the Crimean War, 1 863.

Humurzaki, Baron Eudoxiu de (ed.), Documenteprivitoare la Istoria romanilor, ol. XVI, Bucarest, 1912.

Hunter, William, Travels through France, Turkey and Hungary to Vienna in 1792, 3rd edn., 2 vols., 1803.

Huscher, Herbert, 'Alexander Mavrocordato, friend of the Shelleys', Bulletin of the Keats—Shelley Memorial Association,1965, 29—37.

Ignatyev, Count, 'Memoirs', Slavonic Review, X.June 19 31, 386—407, 627—640; 1932, 341-5 3. 556-71.

Ihsanoglu, Ekmeleddin, Istanbul- a glimpse into the Past, Istanbul, 1987. Imber, Colin, The Ottoman Empire ijoo—1481, Istanbul, 1990.

Inalcik, Halil, The Ottoman Empire: the Classical Age 1300—1600, 1973.

------- The Ottoman Empire: Conquest, Organisation and Economy, 1978.

------- Studies in Ottoman Social and Economic History, 1985.

------- The Middle East and the Balkans under the Ottoman Empire, Bloomington, 1993.

------- and Cemal Kafadar, Suleyman the Second and His Time, Istanbul, 1993.

and Donald Quataert, An Economic and Social History of the Ottoman Empire, 1 994.

Iorga, Nicolas, Byzance apris Byzance, 1992 edn.

------- Histoire des Roumains et de la Romanite orientate, 9 vols., Bucharest, 1937—44.

Ipsirli, Mehmet, 'Mustafa Selaniki's History of the Ottomans', unpublished Ph.D. thesis, Edinburgh, 1976. Ismail, F., 'The Diplomatic Relations of the Ottoman Empire and the Great European Powers from 1800 to 1821', unpublished D.Phil. thesis, London, 1975.

Issawi, Charles, An Economic History of Turkey 1800—1914, Chicago, 1980.

Istanbul a la Jonction des cultures balkaniques, mediterraneennes, slaves et orientales aux XVT—XIXe siecles, Bucarest, 1977.

IstanbulAnsiklopedisi, 10 vols., Istanbul, 1993—5.

Istanbul Selections, Istanbul, 1993- (magazine).

Itzkowitz, Norman and Max Mote, Mubadele: an Ottoman-Russian Exchange of Ambassadors, Chicago, 1970.

------- and Vamik D. Volkan, The Immortal ' Ataturh a Psychobiography, Chicago, 1984.

Jaeckh, Ernst, The Rising Crescent, New York, 1944.

Jamgocyan, Onnik, 'Les Finances de l'Empire Ottoman et les financiers de Constantinople', these d'etat, Universite de Paris, I, 1988.

------- 'L'Apprivoisonnement de Constantinople, la Revolution francaise et le declin du negoce francais', Arab Historical Review for Ottoman Studies, VII, October 1993, 127-42.

Jelavich, Barbara, The Ottoman Empire, the Great Powers and the Straits Question 18/0-/887, Bloomington, 1973.

------- History of the Balkans: Eighteenth and Nineteenth Centuries, 1983.

Jevakhoff, Alexandre, Kemal Ataturh Us chemins de I'Occident, 1989.

Johnson, Clarence R., Constantinople Today: the Pathfinder Survey, New York, 1922.

Johnstone, Pauline, Turkish Embroidery, 1985.

Jones, J. R. Melville, The Siege of Constantinople 14J): Seven Contemporary Accounts, Amsterdam, 1972. Juhacz, Esther (ed.), Sephardifews in the Ottoman

Empire, Jerusalem, 1989.

Kadri, Yakup, Sodome et Gomorrhe, 1928.

Kafadar, Cemal, *Yeniceri—Esnaf Relations: Solidarity and Conflict', unpublished Ph.D. thesis, McGill University, 1981.

------- Self and Others: the Diary of a Dervish in Seventeenth-century Istanbul and First Person Narrative in Ottoman Literature', Studia Islamica, LXIX, 1989, 121—50. Kalderon, Albert E., Abraham Galante, New York, 1983.

Kaldy-Nagy, G., 'The Holy War in the First Centuries of the Ottoman Empire', Harvard Ukrainian Studies, IV, 1980.

Kampman, A. A., The Swedish Palace in Constantinople, 1971.

Kannengiesser Pasha, Hans, The Campaign in Gallipoli, 1927.

Karahan, Abdulkadir, Les Poetes classiques a l'epoque de Soliman le Magnifique, Ankara, 1991.

Karmi, l\ha.n, Jewish Sites of Istanbul: a Guide Book, Istanbul, 1992.

Karpat, Kemal H., The Ottoman State and its Place in World History, Leiden, 1974.

Ottoman Population, Wisconsin, 1985.

Kastoryano, Lidya, Quand I'lnnocence avait un sens, Istanbul, 1993. Katib Celebi, The Balance of Truth, ed. G. L. Lewis, 1957.

Kayra, Cahit, Maps of Istanbul, Istanbul, 1990.

Kazamias, Andrew, Education and the Quest for Modernity in Turkey, 1966.

Kazgan, Haydar, Galata Bankerleri, Istanbul, 1991.

Keddie, Nikki R., Sayyidfamal ad-din 'al-Afghani', Los Angeles, 1972.

------- and Lois Beck (eds.), Women in the Muslim World, 1978.

Kelly, Laurence, Istanbul: a Traveller's Companion, 1987.

Kemal Bey, Ismail, Memoirs, 1920.

Kent, Marian (ed.), The Great Powers and the End of the Ottoman Empire, 1984.

Keun, Odette, Mesdemoiselles Daisne de Constantinople, c. 1920.

Kevorkian, Raymond H. and Paul B. Paboudjian, Les Armeniens dans l'Empire Ottoman a la veille du genocide, 1992.

Khitrovo, Mme B. de, Itineraires russes en Orient, Geneva, 1889.

Kinross, Lord, Ataturh the Rebirth of a Nation, Nicosia, 1981 edn.

Kitromilides, Paschalis M., The Enlightenment as Social Criticism: Miosipis Moisiodax and Greek Culture in the Eighteenth Century, Princeton, 1992.

Kitsikis, Dimitris, LEmpire Ottoman, 1985.

Knatchbull-Hugesson, Sir Hugh, Diplomat in Peace and War, 1949.

Knight, E. F., The Awakening of Turkey, 1909.

Knos, Borje, L'Histoire de la litterature neo-grecque, Uppsala, 1962.

Knudsen, Erik Lance, Great Britain, Constantinople and the Turkish Peace Treaty, New York, 1987.

Koprulu, M. Fuad, The Origins of the Ottoman Empire, ed. Gary Leiser, Albany, 1992.

Kortepeter, Carl Max, The Ottoman Turks: from Nomad Kingdom to World Empire, stanbul, 1991.

Kritovoulos, History of Mehmed the Conqueror, Princeton, 1954.

Kuneralp, Sinan (ed.), Studies in Ottoman Diplomatic History, 5 vols., Istanbul, 1987—90.

Kunt, Metin, 'The Koprulu Years 1656—1661', unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1971.

Kuran, Aptullah, Sinan the Grand Old Man of Ottoman Architecture, Istanbul, 1987.

Kurat, Akdes Nimet (ed.), The Despatches of Sir Robert Sutton, Ambassador in Constantinople 17to— 1714, 1953.

Kushner, David, The Rise of Turkish Nationalism, 1977.

Kutschera, Chris, Le Mouvement National Kurde, 1979. Labourdette, J. F., Vergennes, 1990.

La Motraye, A. de, Voyages . . . en Europe, Asie et Afrique, 2 vols., La Haye, 1727.

Landau, Jacob M., Ataturk and the Modernisation of Turkey, Boulder and Leiden, 1984.

------- Tekinalp: Turkish Patriot 188)—1961, Istanbul, 1984.

Lane-Poole, Stanley (ed.), The People of Turkey: Twenty Years Residence among Bulgarians, Greeks, Albanians, Turks and Armenians by a Consul's Daughter and his Wife, 2 vols., 1878.

------- The Life of Sir Stratford Canning, Viscount Stratford de Redcliffe, 2 vols., 1888.

Lang, David Marshall, The Armenians: a People in Exile, 1988 edn.

Lauzanne, Stephane, Au chevet de la Turquie, 191 3. Layard, Sir Austen, Autobiography and Letters, 2 vols., 1903.

Lechevalier, J. B., Voyage de la Propontide et du Pont Euxin, 2 vols., 1800.

Lees, Andrew, Cities Perceived: Urban Society in European and American Thought 1820—1940, Manchester, 1985.

Le fort, Jacques, Documents grecs dans les archives de Topkapi Sarayi: contribution a I'histoire de Cem Sultan, Ankara, 1981.

Legrand, Emile, Recueildepoemes historiques engrec vulgaire, 1877. Leila Hanoum, Le Harem imperial et les sultanes au XIXe siecle, Brussels, 1991.

Lesure, Michel, Lepante: la crise de lEmpire Ottoman, 1972.

Levy, Avigdor, 'The Military Policy of Sultan Mahmud II 1808—1859', unpublished

Ph.D. thesis, Harvard, 1968.

------- The Ottoman Ulama and the Military Reforms of Sultan Mahmud II', Asian

and African Studies, VII, 1971, 13—39.

------- The Officer Corps in Sultan Mahmud IPs New Ottoman Army 1826—1839'.

------- Internationalfournal of Middle East Studies, II, 1971, 21—39.

------- The Sepbardim in the Ottoman Empire, Princeton, 1992.

Lewis, Bernard, The Emergence of Modern Turkey, i960.

------- Istanbul and the Civilisation of the Ottoman Empire, Norman, Oklahoma, 1963.

------- Islam in History, 1973.

------- The Muslim Discovery of Europe, 1982.

------- The fews of Islam, 1984.

------- The Political Language of Islam, Chicago, 1988.

------- Race and Slavery in the Middle East: a Historical Enquiry, New York, 1990.

Liddell, Robert, Byzantium and Istanbul, 1956.

Lieven, D. C. B., Russia and the Origins of the First World War, 1983.

Lifchez, Raymond F. (ed.), The Dervish Lodge: Architecture, Art and Sufism in Ottoman Turkey, Berkeley, 1992.

Ligne, Marechal Prince de, Memoires, 5 vols., 1828.

Liskar, Elizabeth (ed.), Europa und die Kunst der Islam, Wien, 1985.

------- Loti, Pierre, Aziyade: Stamboul 1876-1877, 1892 edn.

------- et Samuel Viaud, Supremes Visions d'Orient, 1921.

Lowry, Heath W., The Story behind Ambassador Morgenthau's Story, Istanbul, 1990.

Lybyer, Albert H., The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent, Cambridge, Mass., 191 3.

Macarius, Patriarch of Antioch, Travels, 1936.

MacDermott, Mercia,z4 History of Bulgaria i)9)-i88j, 1962.

MacFarlane, Charles, Constantinople in 1828, 2 vols., 2nd edn. 1829.

------- Turkey and its Destiny, 2 vols., 1850.

Macfie, A. L., The Straits Question 1909-19)4, Thessaloniki, 1993. Mackenzie, Molly, Turkish Athens, Reading, 1992.

Magoulias, Harry J. (ed.), The Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, Detroit, 1975.

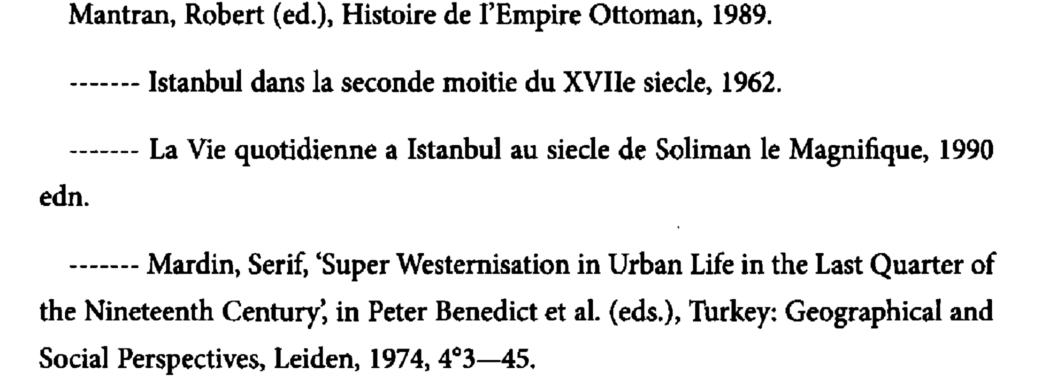
Mamboury, Ernest, The Tourist's Istanbul, Istanbul, 1953.

Mamoni, Kyriaki, 'Les Associations pour la propagation de l'instruction grecque a Constantinople (1861-1922)', Balkan Studies, 1975, XVI, i, 103-12.

Mango, Cyril, Studies on Constantinople, Aldershot, 1993.

Mann, Stuart E., Albanian Literature, 1955.

Mansel, Philip, Sultans in Splendour, the Last Years of the Ottoman World, 1988.



Mantran, Robert (ed.), Histoire de I'Empire Ottoman, 1989.

------- Istanbul dans la seconde moitie du XVIIe siecle, 1962.

------- La Vie quotidienne a Istanbul au siecle de Soliman le Magnifique, 1990 edn.

------- Mardin, Serif, 'Super Westernisation in Urban Life in the Last Quarter of the Nineteenth Century', in Peter Benedict et al. (eds.), Turkey: Geographical and Social Perspectives, Leiden, 1974, 4°3—45.

------- The Genesis of Young Ottoman Though, Princeton, 1962.

------- Religion and Social Change in Modem Turkey: the Case of Bediuzaman Said Nursi, Albany, New York, 1989.

Marinescu, Florin, Etude genealogique sur lafamille Morouvj, Athens, 1987.

------- with Georgeta Penelea-Filitti and Anna Tabaki (eds.), Documents greco-roumains: le Fonds Morvuvj d'Athenes, Athens-Bucharest, 1991.

Marsigli, Comte de, L'Etat militaire de /Empire Ottoman, ses progres et sa decadence, La Haye—Amsterdam, 1732.

Masson, Paul, Histoire du commerce francais dans le Levant au XVIIe siecle, 1896.

------- Histoire du commerce francais dans le Levant au XVIIIe siecle, 1911.

Mavrocordatos, G. A., De la Reforme et de la finance des Romains en Orient, Athens, 1856. Mavroyennis, Alexandre, Contribution a I'histoire du Proche-Orient, 2 vols., Istanbul, 1950.

Mavroyennis Pacha, Chiens errants de Constantinople, et chiens et chats de bonne maison, 1900.

McCarthy, J. W. and Constantin Caratheodory, Relation officielle de la maladie et de la mort du Sultan Mahmoud II, 1841. McCullagh, Francis, The Fall of Abdul Hamid, 1909.

Mears, Eliot Granville, Modern Turkey, 1924. Medlin, William K., Moscow and East Rome, Geneva, 1952.

Meienberger, Peter, Johann Rudolf Schmid zum Schwarzerhorn als Kaiserlicher Resident in Konstantinopel in den jahren 1629—164), Bern, 1973.

Melas, Achilles and Kostas Stamatopulos, Constantinopolis, Athens, 1990 (in Greek).

Melek Hanoum, Thirty Years in the Harem, 1872.

Melling, Antoine-Ignace], Voyage pittoresque de Constantinople et des rives du Bosphore, 1819.

Menemencioglu, Nermin, The Penguin Book of Turkish Verse, 1978.

Meredith-Owens, G. M., Turkish Miniatures, 1969. Merriman, R. B., Suleyman the Magnificent, Harvard, 1944.

Meryon, Dr, Travels of Lady Hester Stanhope, 3 vols., 1846.

Mihailovic, Konstantin, Memoirs of a fanissary, Ann Arbor, 197 5.

Miller, A. F., Mustafa Pacha Bairaktar, Bucharest, 1975.

Miller, Barnette, Beyond the Sublime Porte, New Haven, 193 1.

------- The Palace School of Mohammed the Conqueror, Cambridge, Mass., 1941.

Miller, William, Travel and Politics in the Near East, 1897.

Millman, Richard, Britain and the Eastern Question 1871-1878, Oxford, 1979.

Minault, Gai, The KhilafatMovement, New York, 1982.

Mismer, Charles, Souvenirs du monde mussulman, 1892.

Mider, Louis, Ottoman Turkish Writers, Washington, 1988.

Moltke, Marechal de, Lettres. . . sur I'Orient, 1877 edn.

Monconys, M., Journaldes Voyages, 4 vols., Lyons, 1666.

Moorehead, Alan, Gallipoli, 1956.

Morand, Paul, Ouvert la nuit, 1987 edn.

Morier, James, A Journey through Persia, Armenia, Asia Minor, to Constantinople, in the Years 1808 and 1809, 1812.

Moseley, Philip E., Russian Diplomacy and the Opening of the Eastern Question 18)8-18)9, Harvard, 1934.

Mouradgea d'Ohsson, Ignatius, Tableau general de I'Empire Ottoman, 3 vols., 1787—1820. Mouy, Charles de, Lettres du Bosphore, 1879.

Muftyzade, K. Zia Bey, Speaking of the Turks, New York, 1922.

Muller, Mrs Max, Letters from Constantinople, 1897.

Myles, Henri, La Fin de Stamboul, 2nd edn., 1921.

Nadir, Aysegul (ed.), Imperial Ottoman Fermans, 1986.

Naff, Thomas and Roger Owen, Studies in Eighteenth-century Islamic History, Carbonsville, 1977.

Naima, Mustafa, Annals of the Turkish Empire, I, 1842.

Nalbandian, Louise, The Armenian Revolutionary Movement, Berkeley, 196}.

Nami Bey, Ali, Verite, justice, bonte, Istanbul, 1918.

National Palaces, Istanbul, 1987, 1992.

Navarian, A., Les Sultanspoetes (14)1—1809), 1936.

Necipoglu, Gulru, Architecture, Ceremonial and Power, the Topkapi Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries, Cambridge, Mass., 1991.

Nesin, Aziz, Istanbul Boy, 3 vols., Austin, Texas, 1977—90.

Neuville, Pierre de, Gilbert Beaupre et ai, Images d'Empire, Istanbul, 1994.

Nicholas of Greece, Prince, My Fifty Years, 1929.

Nicol, Donald M., The Immortal Emperor, the Fife and Legend of Constantine Palaiologos, Last Emperor of the Romans, Cambridge, 1992.

------- The Last Centuries of Byzantium 1261—14)), 1993 edn.

Nicolaides, Jean, Folklore de Constantinople, 2 vols., 1894.

------- Contes licencieux de Constantinople et de f Asie Mineure, 1906.

Nicolay, Nicolas de, Dans fEmpire de Soliman le Magnifique, 1989. Nicolson, Harold, Sweet Waters, 1928 edn. Nicolson, Nigel, Alex, 1973.

Nigar, Salih Keramet, Halife Ikinci Abdulmecid, 1964.

Nisbet, Mary of Dirleton, Countess of Elgin, Letters, 1926.

Noe, Michel, Pages d'Orient, 189 5.

North, Hon. Roger, Lives of the Norths, 3 vols., 1826.

Nubar Pacha, Memoires, ed. Mirrit Boutros-Ghali, Beirut, 1983.

Obolensky, Dimitri, The Byzantine Commonwealth, 1974 edn.

Ochsenwald, William, Religion, Society and the State in Arabia, Ohio, 1984.

Okday, Sefik, Der letzte Grossvezyr und seine Preussische Sohne, Gottingen—Zurich, 1991.

Okte, Ertughrul Zekai (ed.), Ottoman Archives. Yildiz Collection. The Armenian Question, 3 vols., Istanbul, 1989. Olson, Robert W., The Siege of Mosul and Ottoman-Persian Relations 1718—174), Bloomington, 1975.

------- The Emergence of Kurdish Nationalism and the Sheikh Said Rebellion, 1880—192), Austin, 1989.

Orbey, Raouf d', Les Amours dangereuses, Constantinople, 1874. Orga, Irfan, Portrait of a Turkish Family, 1988 edn.

Osborne, Hon. and Revd Sydney Godolphin, Scutari and its Hospitals, 1855.

Osmanoglu, Ayse, Avec Mon Pert le Sultan Abdulhamid de son palais a son prison, 1991.

Ostle, Robin (ed.), Modern Literature in the Near and Middle East 18)0—1970, 1991.

Owen, Roger, The Middle East in the World Economy 1800—1914, 1981.

Ozdamar, Ali, Beyoglu in the Thirties through the Lens of Selahattin Giz, Istanbul, 1992.

Oztuna, Yilmaz, Devletler ve Hanedanlar, II, Turkiye {1074—1996), Ankara,

1990.

Palerne, Jean, Peregrinations, Lyons, 1606.

Paliouras, A. (ed.), The Oecumenical Patriarchate, Athens, 1989.

Palmer, Alan, The Decline and Fall of the Ottoman Empire, 1993 edn.

Pannayotopoulos, A. J., The Great Idea and the Vision of Eastern Federation',

Balkan Studies, XXI, 2, 1980, 331—65.

Panzac, Daniel, La Peste dans {"Empire Ottoman 1700—18)0, Leuwen, 1985.

------- 'International and Domestic Maritime Trade in the Ottoman Empire during the Eighteenth Century', International journal of Middle Eastern Studies, May 1992, 189—206.

------- Les tulles dans I"Empire Ottoman: activite et societe, 1991.

Papadakis, A., 'Gennadius II and Mehmed the Conqueror', Byzantion, XLII, 1972, 88-106.

Papadopoulos, S. A. (ed.), The Greek Merchant Marine, Athens, 1972. Papadopoulos, Theodore H.„ Studies and Documents relating to the History of the Greek Church and People under Turkish Domination, Brussels, 1952. Pardoe, Julia, The City of the Sultans and Domestic Manners of the Turks in 18)6, 2 vols.,.837.

Park, George T., 'The Life and Writings of M. Fuad Koprulu', unpublished Ph.D. thesis, Johns Hopkins University, 1975. Pears, Sir Edwin, Forty Years in Constantinople, 1917.

Pedani, Maria Pia, In nome del Gran Signore: inviati ottomani a Venecia dalla caduta di Constantinopoli alia guerra di Candia, Venice, 1994.

Peirce, Leslie, The Imperial Harem: Gender and Power in the Ottoman Empire 1520—1657', unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1988.

------- The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire, Oxford, 1993.

Penzer, N. M., The Harem, 1966 edn. Pernot, Maurice, La Question turque, 1925.

Pertusier, J. C, Promenadespittoresques dans Constantinople et surle Bosphore,

3 vols., 1815.

------- La Valachie, la Moldavie et de I 'influence politique des Grecs du Fanal, 1822.

Petrovich, Michael Boro, The Emergence of Russian Panslavism 18)6—1870, New York, 1956.

Philippides, Andre, Hommes et idees du Sud-Est Europeen a I'aube de rage moderne, 1980.

Pickthall, Marmaduke, With the Turk in Wartime, 1914.

Pingaud, Leonce, Choiseul-Goujfier. la France en Orient sous Louis XVT, 1887.

Piton de Tournefort, M., A Voyage into the Levant Perform'd by Command of the Late French King, 2 vols., 1718.

Pococke, Richard, A Description of the East and some other Countries, 2 vols., 1745.

Ponafidine, Pierre, Life in the Muslim East, 1911.

Porter, David] Constantinople and its environs in a series of letters, z vols., New York, 1835.

Porter, Sir James, Turkey, its History and People, 2 vols., 1854.

Porter, Roy, London: a Social History, 1994. Poynter, Mary A., When Turkey was Turkey, 1921.

Puaux, Rene, De Sofia a Tchataldja, 191 3.

------- Quataert, Donald, Social Disintegration and Popular Resistance in the Ottoman Empire 1881-1908, New York, 1983.

------- Ottoman Manufacturing in the Age of the Industrial Revolution, Cambridge, 1993.

------- Quella-Villeger, Alain, Istanbul le regard de Pierre Loti, 1992.

Raby, Julian, 'El Gran Turco: Mehmed the Conqueror as a Patron of the Arts of Christendom', unpublished D.Phil, thesis, Oxford, 1980. J;. Ragsdale, Hugh (ed.), Imperial Russian Foreign Policy, 1993.

Rambert, Louis, Notes et impressions de Turquie, 1926.

Ramsaur, jun., Ernest Edmondson, The Young Turks: Prelude to the Revolution of 1908, Princeton, 1957.

Ramsay, Allan and Francis McCullagh, Tales from Turkey, 1914.

Ramsay, Sir W. M., The Revolution in Constantinople and Turkey, 1909. Rankin. , Lt-Col. Reginald, The Inner History of the Balkan War, 1914.

Raymo md, Andre, Le Cain, 1993.

Reed, Howard, The Destruction of the Janissaries by Mahmud II in June 1826', unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1951. Reed, JT ohn, War in Eastern Europe, 1994 edn.

Repp, R. C, The Mufti of Istanbul- a Study in the Development of the Ottoman Learned Hier—archy, 1986.

Revue cg'Histoire Diplomatique, 1991, issue on consuls and dragomans. Rich, I—Jorman, Why the Crimean War? A Cautionary Tale, 1985. Richards, G. R. B., Florentine Merchants in the Age of the Medici, Harvard, 1932.

Riondesl, H., Le Bienheureux Gomidas de Constantinople, pretre armenien et martyr, 1929.

Roche Max, Education, assistance et culture francaises dans IEmpire Ottoman, Istanbul, I985).

Rodinz, Michiel and Hans Theunissen (eds.), The Tulip, a Symbol of Two Nations, Utrucht—Istanbul, 1993.

Rodriggue, Aron (ed.), Ottoman and Turkish Jewry: Community and Leadership, Blozmington, 1992. Roe, zir Thomas, Negotiations in his Embassy to the Ottoman Porte from theyear 1621 to 1628,

Roget—s, J. M. (ed.), The Topkapi Saray Museum: Costumes, Embroideries and Other Textiles, 198. 6.

------- Mhe Topkapi Saray Museum: the Treasury, 1987.

------- the Topkapi Saray Museum. Architecture: the Harem and Other Buildings, 1988.

------- and R. M. Ward, Suleyman the Magnificent, 1988.

Roider, jun., Karl A., Austria's Eastern Question, Princeton, 1982.

Rolamb, Nils, 'A Relation of a Journey to Constantinople', in A. C. Churchill (ed.), A Collection of Voyages and Travels, 5 vols., 1732, V, 669-716. Rose, Norman, Churchill: an Unruly Life, 1995 edn.

Rosenthal, Steven T., The Politics of Dependency: Urban Reform in Istanbul, Westport, 1950.

Rossos, Andrew, Russia and the Balkans: Inter-Balkan Rivalries and Russian Foreign Policy, Tczronto, 1981.

Rothz, Cecil, The House of Nasi- the Duke of Naxos, Philadelphia, 5708/1948.

------- JDona Gracia Nasi, Paris, 1990.

Rotti-ers, Colonel, Itine'raire de Tijlis a Constantinople, Brussels, 1829.

------- Runtzriman, Steven, The Great Church in Captivity, 1968.

------- The Fall of Constantinople 14;}, 1988 edn.

Russell, W. H., The British Expedition to the Crimea, rev. edn. 1858.

------- A Diary in the East during the Tour of the Prince and Princess of Wales, 1869.

Rya ru, Sir Andrew, The Last of the Dragomans, 19 51.

Ryca_ut, Paul, The Present State of the Ottoman Empire, 1675.

------- The History of the Turks beginning with the year 1679, 3 vols., 1687.

Saab , Hassan, The Arab Federalists of the Ottoman Empire, Amsterdam, 1958. Sa'd—ud-din, Khoja, The Capture of Constantinople, tr. E. J. W. Gibb, Glasgow, 1879.

Safavdi, Yasin Hamadi, Islamic Calligraphy, 1987 edn.

Saint Clair, William, Lord Elgin and the Marbles, 198 3 edn.

Saint-Priest, Comte de, Memoires sur l'ambassade de France en Turquie et sur le commerce des Francais dans le Levant, 1877.

Sanderson, John, Travels in the Levant 1/84—1602, 193 1.

Sarkisian, A. O., History of the Armenian Question to 1881, Urbana, 1938.

Scalieri, Cleanthe, Appel a la justice des Grandes Puissances, Athens, 18 81.

Schefer, Charles (ed.),Le Voyage de Monsieur Chesneau dAramon, ambassadeurpour le Roy au Levant, 1887.

Schimmel, Annemarie, Calligraphy and Islamic Culture, New York, 1984.

Schmidt, Jan, Through the Legation Window 1871—1026, Istanbul, 1992.

------- 'Sunbulzade Vehbi's Sevk-Engiz, an Ottoman Pornographic Poem', Turcica, XXV, 1993, 9-37-Scholem, Gershom, Sabbatai Sevi: the Mystical Messiah, 1971

Schreiner, George A., From Berlin to Baghdad, New York, 1918.

Schwoebel, Robert, The Shadow of the Crescent, the Renaissance Image of the Turk 1743—1717), Nieuwkoop, 1967. Senior, Nassau W., A Journal kept in Turkey and Greece, 1859.

Sepiha, Haim Vidal, LAgonie desJudeo-Espagnols, 2nd edn., 1979

Sestini, Domenico, Lettres. . . pendant le cours de ses voyages en Italie, en Sicilie et en Turquie,

1789.

Seton-Watson, R. W'., A History of the Roumanians, 1934.

------- Britain in Europe 1780-1014, Cambridge, 1937.

Setton, Kenneth M., Venice, Austria and the Turks in the Seventeenth Century, Philadephia, 1991.

Shaw, Stanford, J., Between Old and New: the Ottoman Empire under Sultan Selim III 1780-1807, Harvard, 1971.

------- A History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, 2 vols., 1976—8.

------- The Jews of the Ottoman Empire and the Turkish Republic, 1991.

Shay, Mary Lucille, The Ottoman Empire from 1720 to 1744 as revealed in Despatches of Venetian Baili, Urbana, 1944.

Sherrard, Philip, Constantinople: Iconography of a Sacred City, 1965.

Shmuelevitz, Aryeh, The Jews of the Ottoman Empire in the late Fifteenth and the Sixteenth Centuries, Leiden, 1984.

Shukla, Ram Lakhan, Britain, India and the Turkish Empire 18/3—1882, New

Delhi, 1973.

Shurrock, William I., French Imperialism in the Middle East, Madison, 1976.

Simsir, Bilal N, Dis Basinda Ataturk ve Turk Devrimi, cilt I, Ankara, 1981.

Sitwell, Sacheverell, Far from my Home: Stories Long and Short, 19 31.

Skendi, Stavro, The Albanian National Awakening 1878—1012, Princeton, 1967.

Skilliter, Susan, Life in Istanbul 1/88: Scenes from a Traveller's Picture Book, Oxford, 1977.

------- William Harbome and the Trade with Turkey 1/78—1/82, Oxford, 1977.

Slade, Adolphus, Turkey, Greece and Malta, 2 vols., 1837.

------- Turkey and the Crimean War, 1867.

Smith, Albert, A Month at Constantinople, 1850.

Snouck Hurgronje, C, Mekka in the latter part of the Nineteenth Century, Leiden—London, 1931.

Sonyel, Salahi R., Minorities and the Destruction of the Ottoman Empire, Ankara, 1993.

Soutzo, Prince Nicolas, Memoires, Vienna, 1896.

Sperco, Willy, Istanbul indiscret, Istanbul, n.d.

------- L 'Orientqui s'eteint, 1936.

------- Mustafa Kemal Ataturk, 1958.

Sphrantzes, George, The Fall of the Byzantine Empire: a Chronicle, ed. and tr. Marios Philippides, Amherst, 1980.

Stchoukine, Ivan, La Peinture turque d'apres Us manuscrits illustres, 2 vols., 1966—76.

Stitt, George, A Prince of Arabia: the Emir ShereefAli Haidar, 1948.

Stoianovic, Troian, The Conquering Balkan Orthodox Merchant', Journal of Economic History, i960, 234—313.

Stone, Norman and Michael Glenny, The Other Russia, 1991 edn.

Stourdza, A. C, L'Europe orientate et le role historique des Mavrocordato 1660-

18)0, 1 913.

Strachan, Michael, Sir Thomas Roe, 1989.

Studia Turcologica Memoriae Alexis Bombacii Dicata, Naples, 1982.

Sturdza, Michel, Grandes Families de Grece, d'Albanie et de Constantinople, 1983.

Sugar, Peter F., Southeastern Europe under Ottoman Rule 1)14-1804, Seattle, 1977.

Sumner, B. H., Russia and the Balkans 1870-1880, 1937.

Sumner-Boyd, Hilary and John Freely, Strolling through Istanbul, 2nd edn., Istanbul,

Svenson, Glen, The Military Rising in Istanbul, Journal of Contemporary History, V, 1970, 17.

Synvet, A., Les Grecs de I'Empire Ottoman: etude statistique et ethnique, Constantinople, 1878.

Tahsin Pasha, YildizHatiralari, 1990 edn.

Tavernier, J. B., Nouvelle Relation de Finterieur du Serail du Grand Seigneur, 167 5.

Temple, Bt., Major-General Sir Grenville, Travels in Greece and Turkey, 2 vols., 1836. Tenenti, Alberto, Piracy and the Decline of Venice 1967.

Thalasso, A. et F. Zonaro, Deri Se'adet ou Stamboul, porte du bonheur, 1908.

Theotokas, G., Leonis, enfantgrec de Constantinople, 1985.

Thevenot, M. de, Travels into the Levant, 3 parts, 1687.

Thomas, Lewis V., A Study of Naima, New York, 1972.

Thouvenel, L., Trois Annies de la Question d'Orient 18/6-18/9, 1897.

Thuasne, L., Gentile Bellini et Sultan Mohammed II, 1888.

Tietze, Andreas (ed.), Mustafa Ali's Counselfor Sultans of 'rjtl, 2 vols., Vienna, 1979-82.

Tinayre, Marcelle, Notes d'une voyageuse en Turquie, 1909.

Titley, Norah and Frances Wood, Oriental Gardens, 1991.

Toderini, Abbe, De la Litterature des Turcs, 3 vols., 1789.

Toledano, Ehud R., The Ottoman Slave Trade and its Suppression 1840-1890, Princeton, 1982.

Tongas, Gerard, Les Relations de la France avec lEmpire Ottoman durant la premiere moitie du XVIIe siecle, Toulouse, 1942.

Toros, Taha, Turco-Polish Relations in History, Istanbul, 1983.

------- The First Lady Artists of Turkey, Istanbul, 1988.

Tott, Baron de, Memoirs concerning the State of the Turkish Empire and the Crimea, 4 parts, 1786.

Trubetskoy, Professor Prince Eugene Nicolayevich, Saint Sophia, Russia's Hope and Calling, 1916.

Trumpener, Ulrich, Germany and the Ottoman Empire 1914-1918, 1968.

Tsourkas, Cleobule, Les Debuts de Fenseignementphihsophique et de la libre pensee dans les Balkans: la vie et l'auvre de Theophile Corydalee (1/70-1646), hessaloniki, 1967. Tuglaci, Pars (all works published in Istanbul):

------- Women of Istanbul in Ottoman Times, 1984.

------- The Ottoman Palace Women, 1985.

------- Turkish Bands of Past and Present, 1986.

------- The Role of the Balian Family in Ottoman Architecture, 1990.

------- Armenian Churches of Istanbul, 1991.

------- The Role of the Dadian Family in Ottoman Social, Economic and Political Life, 1993.

Tuncay, Mete and Erik J. Zurcher, Socialism and Nationalism in the Ottoman Empire 1876-192), 1994.

Turner, C. J. G. The Career of George-Gennadius Scholarius', Byzantion, XXXIX, 1969, 420-55.

Turner, William, fournal of a Tour in the Levant, 3 vols., 1820.

Tursun Beg, History of Mehmed the Conqueror, ed. Halil Inalcik and Rhoads

Murphy, Minneapolis and Chicago, 1978.

Ubicini, M. A., Letters on Turkey, 2 vols., 1856.

Ulker, Muammer, The Art of Turkish Calligraphy from the Beginning up to the Present, Ankara, 1987.

Ulucay, M. Cagatay, Sultanlarina AskMektuplari, 1950.

------- Harem II, Ankara, 1971.

------- Padishahlarin Kadinlari ve Kizlari, 1992.

Un Jeune Russe [H.-C.-R. von Struve], Voyage en Crimee, suivi de la relation de Fambas-sade envoyee de Petersbourg a Constantinople en 1/9), 1802.

Unsal, Artun and Beyhan, Istanbul la magnifique: propos de table et recettes, 1991.

Upward, Allen, The East End of Europe, 1908.

Vacalopoulos, Apostolos E., Origins of the Greek Nation: the Byzantine Period 1204-1461, New Brunswick, 1970.

------- The Greek Nation 14;)—1669, New Brunswick, 1976.

Vaka, Demetra, The Unveiled Ladies of Stamboul, Boston, 1923.

Valensi, Lucette, Venise et la Sublime Porte, 1987.

Vandal, Albert, Les Voyages du Marquis de Nointel, 1900.

------- UneAmbassade francaise en Orient sous Louis XV: la mission du Marquis de Vtlleneuve 1728—1741, 1887.

Van der Dat, Dan, The Ship that Changed the World: the Escape of the 'Goeben' to the Dardanelles in 1914, 1986 edn.

Vaner, Semih (ed.), Istanbul, 1991.

Varol, Marie-Christine, Balat, faubourgjuif d'Istanbul, Istanbul, 1989.

Vassif Efendi, Precis historique de la guerre des Turcs centre les Russes, ed. P. A. Caussin de Perceval, 1822.

Vaughan, Dorothy M., Europe and the Turk: a Pattern of Alliances 1)z0—1700, Liverpool, 1951.

Veinstein, Gilles (ed.), Salonique 18)0-1918: la ville des fuifs et le re'veil des Balkans, 1992.

------- Soliman le Magnifique et son temps, 1992.

Vryonis, Speros, The Byzantine Legacy and Ottoman Forms', Dumbarton Oaks Papers, XXIII-XXTV, 1969-70, 253-318. Walder, David, The Chanak Affair, 1969.

Walker, Christopher J., Armenia: the Survival ofa Nation, 1991 edn.

Walsh, Rev«l R., A Residence at Constantinople, 2 vols., 1856.

Wanda, Soum/enirs anecdotiques sur la Turquie 1820—ittjo, 1884.

Washburn, George, Fifty Years in Constantinople, Boston and New York, 1909.

Waterfield, Gordon, Layard of Nineveh, 1963.

.Watkins, Tfciomas, Tour through Swisserland. . . to Constantinople, 2 vols., 1792.

Waugh, Sir Telford, Turkey Yesterday, Today and Tomorrow, 1930.

White, Charles, Three Years in Constantinople, 3 vols., 1845.

Wilkinson, "William, An Account of the Principalities of Wallachia and Moldavia, 1820.

Wilson, Epiphanius, Turkish Literature, 1901.

Wilson, M»_ry C, King Abdullah, Britain and the Making of Jordan, Cambridge, 1987.

Wittek, Patal, "Notes sur la tughra ottomane', Byzantion, XVIII, 1948, 311—34.

Wittman, VCilliam, Travels in Turkey, Asia Minor, Syria and across the Desert to Egypt in the years 1799z 1800 and 1S01, 1803.

Wolff, Sir Henry Drummond, Rambling Recollections, 2 vols., 1908. Wood, Alfir-cd C, The English Embassy in Constantinople', English Historical Review, XL, 1925, 533.

------- A History of the Levant Company, 1935.

Woods, Sir Henry F., Spun- Yam from the Strands of a Sailor's Life, 2 vols., 1924.

Wortlcy Montagu, Lady Mary, The Turkish Embassy Letters, ed. Malcolm Jack, 1994.

Wrangel, A_lexis, General Wrangel, Russia's White Crusader, 1990.

Wrangel, OSeneral P. N., Memoirs, 1929.

Wratislaw, TJaron Wenceslas, Adventures, ed. A. H. Wratislaw, 1862.

Wright, H. C. Seppings, Two Years under the Crescent, 1985 edn.

Yerasimos, Stephane, La Fondation de Constantinople et de Sainte-Sophie dans les traditions turques, 1 990.

------- (ed.), Istanbul 1914—192): capitate d'un monde illusoire ou fagonie des vieux empires, 1992.

Yiannias, John, The Byzantine Tradition after the Fall of Constantinople, 1991.

Ypsilanti, Fzrince Nicholas, Me'moires, n.d.

Zarcone, T~hiearry, Mystiques, philosophes etfranc-macons en Islam, 1993.

Zeine, M., z-Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism, Beirut, 1958.

Zeman, Z. A. B. and W. B. Scharlau, The Merchant of Revolution, 1965.

Zurcher, E-rik J., The Unionist Factor: the Role of the Committee of Union and Progress in the Turkish zVationalMovement 190)—1926, Leiden, 1984.

------- Political Opposition in the Early Turkish Republic: the Progressive Republican Party, Leiden, T99i.

------- Turkey: a Modern History, 199 3.

المؤلف في سطور

فيليب مانسيل

- مؤرخ البلاطات والعائلات الحاكمة.
- مــن أهم أعماله «بلاط فرنســا 1789 - 1830»، وتاريــخ «باريس بين الإمبراطوريات 1814 - 1852»، وحياة الأمير دي لاين (أمير أوروبا).
- يقــدم آخر أعماله «المشرق - ازدهار مدن البحر الأبيض المتوســط وانهيارها» تاريخا لثلاث مدن عثمانية: سميرنا والإسكندرية وبيروت.
- زميل «الجمعية التاريخية الملكيــة» ومعهد البحوث التاريخية، ومحرر مجلة «مؤرخ البلاط»، يكتب في مجالات وصحف كثيرة مثل «فاينانشــال تايمز» Financial Times و«إنترناشــونال هيرالد تريبيــون» International Herald Tribune و«ملحق تايمز الأدبي» Times Literary Supplement و«سبكتاتور» Spectator.

المترجم في سطور

الدكتور مصطفى محمد عبدالله قاسم

- مترجم مصري.
- حاصل على جائزة خادم الحرمين الشريفين العالمية للترجمة في دورتها السابعة 2014 في فرع العلوم الإنســانية من اللغات الأخرى إلى العربية عن كتابه «مأســاة سياســة القوى العظمى».
- من أهم أعماله المترجمة: «مقدمة إلى ريادة الأعمال» (مركز الترجمة في وزارة التعليم العالي الســعودية، تحت النشر)، «الدين والدم: إبادة شعب الأندلس» (هيئة أبوظبي للســياحة والتراث - مشروع كلمــة، 2013)، «الحياة اليومية في مصر القديمة» (المركز القومي للترجمة - مصر، 2013)، «مأســاة سياســة القوى العظمــى» (مركز الترجمة بجامعة الملك ســعود، 2012)، «مولد الوفرة - كيف تشــكل رخاء العالم الحديث؟»

(مركـز الترجمة بجامعة الملك سـعود، 2012)، «التقنية والثقافة في العصور القديمة» (هيئـة أبوظبي للثقافـة والتراث - مشروع كلمة، 2011)، «الاقتصاد السـياسي لمصر: دور علاقـات القـوة في التنمية» (المركز القومي للترجمة، مـصر، 2010)، «الفرض في التربية الليبرالية الجديدة» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)، «الأطفال واللعب» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)، «العلاقات الحضارية المسـيحية الإسلامية بين احتمالات التعاون والـصراع» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)، «صعود الصين» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)، «الإعاقة العقلية: الماضي والحاضر والمستقبل» (دار الفكـر للنـشر والتوزيـع، الأردن، 2010)، «مقدمة إلى التطـور اللغوي»، (دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، 2010)، «التاريخ الاجتماعي للوسـائط من غتنبرغ إلى الإنترنت» (سلسـلة عالم المعرفـة، العدد 315، مايو 2005، المجلـس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت).

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة ، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة . ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة :

1 - الدراسات الإنسانية : تاريخ ـ فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية : اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة .

4 - الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، علم الحياة ، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) ، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية ، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين ، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط ، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته. وفي حالة الترجمة ترسل نسخة

مصورة من الكتاب بلغته الأصلية، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشرها. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ــ المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف وخمسمائة دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل عشرين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي، أو ألف ومائتي دينار أيهما أكثر (وبحد أقصى مقداره ألف وستمائة دينار كويتي)، بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتيا مقابل تقديم المخطوطة ـ المؤلفة والمترجمة ـ من نسختين مطبوعتين.

هذا الكتاب...

ما بين «الفاتح» محمد الذي دخل القسطنطينية في العام 1543 مظفرا على حصان أبيض، و«المنفي» عبدالمجيد الذي خرج منها في العام 1924 مطرودا في قطار الشرق السريع، يحكي هذا الكتاب قصة عشق سلالة حاكمة لمدينة حوَّلتهم من أمراء إمارة مجهولة إلى أباطرة لواحدة من أقوى إمبراطوريات العالم الحديث المبكر والحديث، وأطولها عمرا وأكثرها حضورا على مشهد الأحداث العالمية. يغطي الكتاب القرون الخمسة للعاصمة العثمانية القسطنطينية، بالغوص تحت السطح الإمبراطوري الكوزموبوليتاني للمدينة التي كانت في الوقت عينه عاصمة إمبريالية ومدينة مقدسة ومركزا تجاريا وجنة للمتعة. يبرز المؤلف الطابع الكوزموبوليتاني الفريد - في زمانه - للمدينة، الذي جعل منها - في آن معا - ملتقى وساحة حرب لكل السائرين على أرضها، وذلك بالدرجة الأولى لكونها منذ نشأتها «المدينة التي يشتهيها العالم». يرسم مؤرخ البلاطات فيليب مانسيل صورة حية لمدينة عالمية، وسلالتها الحاكمة، وعائلاتها الكبرى على اختلاف أديانها وقومياتها، والسفارات والكوناكات والياليات التي خدر ساكنوها بسحر أمواج البسفور وأذان الصلاة. يبرز مانسيل مراوحة السلالة الحاكمة بين الرقة والوحشية، وتنازع المدينة بين رائحة الدم وعبق الزنبق، في كتاب يعد من أفضل ما كُتب حول القسطنطينية وسلالتها الحاكمة. وفي «تاريخ إنساني» ممتع يتتبع مانسيل المدينة وأهلها المتنوعين منذ فتحها واتخاذها عاصمة، حتى تبديد تنوعها ونقل العاصمة منها، ويزيد على ذلك تتبع المشتتين من العاصمة «التي ماتت» إلى أماكن شتاتهم في تأريخ ساحر لمدينة كوزموبوليتانية وأهلها من أوج القوة إلى غربة الشتات.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 458 - 0
رقم الإيداع (2015/417)